عزيز السيد جاسم

الطبعة الأولى

محمد الحنيفة العظمى

حققه وضبط نصه وعلق عليه:

صادق جعفر الكرواز

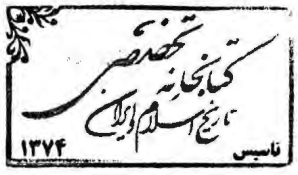

محمد الحقیقة العظمی

عزيز السيد جاسم

محمد الحنفية العظمى

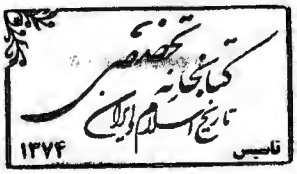

حققه وضبط نصه وعلق عليه

صادق جعفر الروازق

مؤسسة الرافد للمطبوعات
بغداد

السيّد جاسم، عزيز، Assayyid Jasim, Aziz
محمّدﷺ الحقيقة العظمىٰ / تأليف عزيز السيّد جاسم.
مؤسسة الرافد للمطبوعات، قم / ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م
WWW.arrafed.com
arrafed_pub@yahoo.com
ISBN: 978-600-5688-72-6
طبعة الكتاب الأولىٰ، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٧م.
الكتاب عربي. ٧٦٨ صفحة.
محمّدﷺ نبي الإسلام ـ ٥٣ قبل الهجرة، ١١ هـ
ألف. العنوان. ب. الروازق، صادق جعفر.
٣م/ ٢ ج / ٩ / ٥ / BP٢٢

محمّدﷺ الحقيقة العظمىٰ
تأليف: عزيز السيّد جاسم
تحقيق: صادق جعفر الروازق
نشر الرافد
الطبعة الأولى / ١٠٠٠ نسخة
١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م
تصميم الغلاف: أحمد محمد كاظم
ISBN: 978-600-5688-72-6

* جميع الحقوق مسجلة ومحفوظة *

لم يكن محمداً ﷺ محارباً، غازياً، ولا سُلطاناً ولا مَلِكاً، ولا هرقلاً أو جنكيزخان، ولا قاهراً ولا مستبداً. بل أنّهُ نبيٌّ، رسولٌ، سمحٌ، خلوقٌ مُرشِدٌ .. كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام

فكان مُصلحاً، مُعَلّماً، ثائراً، من طرازٍ خاص.

المحقق

مقدمة المحقق

لكلّ كتاب نكهتهُ الخاصة به، تتجلى مرةً في أسلوب الكاتب، ومرةً في منهجية الكتاب المستوعبة لأبرز الأحداث والوقائع التأريخية والأبلغ عندما يكون الترابط بين الأصالة والمعاصرة، فتكون مادة الكتاب أشبه بالدليل الذي يبصّر الطريق ويرشد ويحذّر من إعادة وقائع الأحداث المأساوية ثانيةً، ومن أخرى فهو قد يهيأ للقارئ مسار سبل الخير، وإرشاده إلى ما يمكن ان يكون عليه من خير وسعادة بعد أن تتوافر مسببات الجدح في العقل وإغناء الوعي.

وغالباً ما تكون المادة في دراسة الأعلام توفر للقارئ جواً من التأثير والمعشوقية، وربما قد يبرز «الصبر» معلماً هاماً من سيرة الشخصية المكافحة المناضلة، فينعكس ذلك عند المتلقي القارئ ومدى محكومية واقعه وصبّره على ماحل ويحلّ به. أما والحال ان شخصية مثل الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ فهي الأولى والأجدر أن تُعرض عرضاً مميزاً ومتكاملاً ضمن منهجية شمولية واسعة.

بيد أن أساليب العرض والطرح لا تنهض، وفق تطور الزمن، والذوق،

والحاجة الإنسانية. فما كان في القديم ربما قد لا يتلائم وذوق المتلقي المعاصر؛ لأن الأسلوب الأدبي في حالة تغير مستمر، وهذا ما يظهر جلياً عند الوقوف على نتاجات القدامى وبعض المعاصرين الذين اجتروا أيضاً هذا الاسلوب الفاقد لديمومة استمراره.

فالكتابات عن شخصية الرسولﷺ لا تُعد ولا تحصى، وأغلبها تميزت بمنهجية واضحة لا تختلف أحدها عن الأخرى، وكأنها قالبٌ مصبوبٌ عصيّ على الإنحناء، وعصيّ على التغيير، فهي تبتدأ بأجواء الولادة وأهم الغزوات والصراعات الداخلية ثم الوفاة مع حشوٍ كبير من الروايات وأسانيدها، وصبّها كما هي من مصادرها الرئيسية حتى دون ان يُصاب أخطائها الاملائية أية تعديل ينسجم مع رحابة الذوق الأدبي أوحتى لتبسيط بعض الألفاظ التي قد تكون عصية الفهم عند البعض من المتلقين - القارئين-!! وبالطبع، ان هؤلاء المؤلفين والكتاب نجد لهم كثيراً من العذر، كون ان التوثيق الروائي يدلل على موضوعية المؤلف أوالكاتب وفق ما تعارف عليه من صون الأمانة العلمية، وهذا ما نعتقده أيضاً، إلا أن تكون مادة الكتاب بأغلبها تُجيّر للتوثيق، نعتقد أن في ذلك جفافاً ويبساً في الشعور يتوالد في ذات القارئ، فالقارئ بحد ذاته ليس نمطاً خاصاً، واحداً في ذوقه، فهناك من يبحث عن التوثيق العلمي المجرد وهذا ما يختص به المحققون لوحدهم، وهناك من يبحث كي يجد ذاته الحقيقية ومقدار تفاعلها مع سيرة الرسولﷺ، فليس من الأصلح ان نبقى نجتر أساليب ما ذهب اليه السلف الصالح من المؤرخين والكتاب ونحن نعيش اليوم حياة الوضوح

وسرعة انتقال المعلومة وما تعكسه الفضائيات من لغة البساطة والشاعرية المؤثرة.

ويتضح ان (عزيز السيد جاسم) تعالى بأسلوبه عن كل الأساليب الأدبية القديمة، لا لأنه يمتلك أسلوباً أدبياً عصرياً مميزاً وحسب، بل كان الرجل يوظف صور التأريخ وأجترارها وتفعيلها ثانيةً في مجتمعه، سيما وان مصاديق سيرة الرسولﷺ مصاديق قيم ومبادئ، ثورة حقيقية على كلّ صراعات (الأنا) السقيمة المدمّرة لبنية المجتمع، فالرجل يعتقد أنّه - وهو هكذا- صاحب مشروع عنيد في الكفاح من أجل الحرية التي نادى بها محمدﷺ مناضلاً مخلصاً من أجل كرامة الوطن وتمتين الهوية الوطنية في عراقٍ موحدٍ وليس عراق واحد! هكذا كانت تنبئ تجربته المريرة بالحزن الشريف، كافح وهوأعزل إلا من ضميره، أبهرته سيرة الرسول، أراد أن يُقدّم هذه السيرة ويعرّفها للعالمِ أجمع بعد أن تباهى العرب كثيراً بمحمد العربي العظيم، وهم لم يقدروا على ايصالها نظرياً وعملياً، فهو يقول: «ان ما يرسمونه - اولئك الكتاب المتحجرون - (ويقصد بهم المزيفون بمبادئهم واخلاقياتهم السياسية) عن محمد لا يقنع العربي المسلم بالصورة فكيف يقنع المثقف في لوس انجلس ونيويورك ولندن وبون وموسكو وبكين ودلهي؟».

«فشخصية محمد قارة كبرى، بل قارات، لا يمكن الاحاطة بها، إنما يمكن - فقط- (وهذا حق) التوصل إلى استقصاء جانب معين من حياته الهادئة».

ولا نغالي في قولنا ان عزيزاً في كتابه «محمدﷺ الحقيقة العظمى» كان غائراً

في عمق السيرة، في عمق الذات المحمدية، مستجلياً أنصع الصور القيمية الإنسانية الخالدة. فهو اجلى للأبصار شعاعاً خارقاً أملى الفضاء بالأضواء، ومكّن للقارئ النظر في إدراك خراقة ذلك الشعاع، فهو فنان وأديب، ترك لمساته الفنية بريشة مبدع ماهر وفق اسلوبه المتعارف المتميز بالشفافية والجمالية الأكثر تأثيراً. أغنى مطالبه على نحو مؤثر وهو يستعرض العلاقة الجدلية بين عقائد محمدﷺ وممارساته التطبيقية، حتى أنه خلق الأعجوبة والدهشة في إطار التوترات المتعارضة. ومن ثم الفرادة في سلوك وحاكمية القدرة العقلية عند الرسولﷺ في كيفية الحسم.

فإضافةً إلى الاسلوب، يبرّز الكاتب ألواناً من العظمة والتي قد يغفل عنها اصحاب الكتابات الوصفية والاستطرادية.

ولذا عُرفت كتابات عزيز السيد جاسم بأنها غنية برصيد فكري تستوضح كل خفايا الصورة وتستجلي كل مواقف العظمة التي تدور حول النظرية المركزية؛ العقيدة، والأفكار المحمدية والتطبيق، الممارسة، والنشاط المحمدي اللذان يشكلان أبلغ صور التزاوج والاندماج والتفاعل في حياة الرسول، كما أنه كان يرى ان تاريخ محمد والصحابة وعظمة الاسلام: جماهير وحركات وقادة ليس تاريخ في ذمة الماضي، ليس ما ضوية -كما يقول- مقطوعة الصلة بالحاضر، إنما هو تاريخ كامل غني يمثل أعمق خصائص الأمة الإسلامية عبر التاريخ.

فالغور في دراسة حياة عظيمة كحياة محمدﷺ - وكما يقول المؤلف - (تستحق التفاني في دراستها، والتفاني في إبراز معالمها المنيرة، من منطلق الإقتدار

الابداعي، فالمؤرخ يؤرخ، والأديب يعرض ثقافته الأدبية، وكل ذي اختصاص يتناول الجانب الذي يشاء من زاوية اختصاصه، ولا بأس من القول أن أسهل الكتابات هي الكتابات السردية الروتينية، أما كتابات الأفكار فهي الكتابات المتفانية، التي تلهج وراء الحقيقة، الحقيقة بكامل وجوهها المتميزة: الحق، العدل، الجمال، الجلال، الحكمة، الكرم، التضحية).

فسجل كتابه هذا نتاجاً فكرياً حاكى فيه واقعه ومحيطه، أضافة إلى كتابه (علي بن أبي طالب.. سلطة الحق). والذي كان لنا سبق الشرف في تحقيقه والتعليق عليه، وها نحن نقدم مرة أخرى مقتحمين كنزاً فكرياً آخراً له متحدثاً به عن صاحب الرسالة الصادق الأمين الذي طوّق الدنيا بسيرته، وأدهش خصومه واعداؤه برفاعة خلقه وحُلمِه وصبّره، فمثلما كان للمؤلف (رحمه الله) اسهامة الشرف وهويستعرض المكامن الفكرية من سيرة الرجل الاول في الإسلام، فلنا الحق ان نشاطره في هذه المساهمة المتواضعة، علّنا أن ننال شرفاً نبوياً ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون.. إلا من أتى الله بقلب سليم.

منهجية التحقيق

سبق، وأن حققنا كتاب «علي بن أبي طالب عليه السلام.. سلطة الحق» للمؤلف نفسه، وأوضحنا منهجيتنا في التحقيق، وهي ذات المنهجية في تحقيق هذا الكتاب، ومنها:

١ - الوقوف على جميع الروايات والأقوال التي ذكرها المؤلف،

وإسترجاعها إلى مصادرها الرئيسية.

٢- جميع الإشارات والهوامش التي ذكرها المؤلف، أشرنا اليها بكلمة (المؤلف).

٣- أشرنا بكلمة (المحقق) على كلّ قولٍ أوإشارة إوتخريج للمصادر لغرض التمييز بين عملنا التحقيقي واشارات المؤلف.

٤- أوردنا تكملة بعض الأقوال والشروح التي ذكرها المؤلف، والتي قد تبدو ناقصة القيمة نحوالأكمل والأفضل لبيان تمام الصورة عند القارئ. فجاءت التكملة بلا شك، لتضيف معانٍ أخر تستكمل فيها بلاغة الفكرة ونضوج المطلب.

٥- مُعالجة المشهور الروائي الذي لم يصمد أمام التحقيق، ووفق ما تتطلبه الفكرة، مُدعمة بالمصادر المعتمدة عند علماء التحقيق.

٦- اعتمدنا بشكل رئيسي على كتاب سيرة ابن هشام، وحاولنا استرجاع اغلب الروايات التي ذكرها المؤلف إلى هذا المصدر[1]، كون ان الكتاب السيرة النبوية لأبن هشام هو أوثق مصدر استطاع مؤلفه أن يلملم تأريخ السيرة بعد أن اعتمد على ما كتبه ابن اسحاق الذي عُرف عنه بالوثاقة وسعة الاطلاع والصدق في الأمانة العلمية، وابتعاده عن كلّ ما يخالج النفس من أهواء وتطلعات. وهذا

((١) وقد وجدنا ان محققي سيرة ابن هشام وبالأخص النسخة المحققة من قبل اساتذة جامعة القاهرة في مصر، اعتمدوا مصادراً متأخرة عن ابن هشام.

هو السرّ الذي أودى بابن هشام أن يعتمده تعليقاً وشرحاً ونقداً وإضافة وتكملةً دون سواه من المصادر التي كتبت قبل كتاب ابن اسحاق.

ولمزيد من التفصيل والتوسعة على معرفة أهمية هذا الكتاب - سيرة ابن هشام - والاطلاع على ممن كتب في السيرة من قدامى الفقهاء، أفردنا هذه العناوين:

ابن هشام:

ابن هشام: هوأبومحمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر، ولم يذكر المؤرخون أنه نزل بلداً آخر، ولكن مثل ابن هشام طالب العلم وباحثاً عن الحقيقة لا يمكن له ان يقتصر على هذين البلدين سيما وقد كان العلم في عصره يؤخذ سُماعاً. والتنقل وراءه وطلبه هو ديدن العلماء. وأما وفاته فهناك من يقول عام ٢١٨ هـ وآخر يقول ٢١٣ هـ.

كانت له منزلة كبيرة بين العلماء حتى ان الشافعي اجتمع به عند نزوله إلى مصر وتطارحا الاشعار البليغة للعرب.

ومارس فن الكتابة في أكثر من مجال، فمن أثاره من غير سيرة ابن اسحاق:

١- شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب.

٢- كتاب التيجان لمعرفة ملوك الزمان.

قال عنه الذهبي: «العلامة النحوي الأخباري - إشارة إلى عنايته بكتابة

السيرة- هذّب السيرة النبوية، وسمعها من زياد البكّائي صاحب ابن إسحاق، وخفّف من أشعارها، وروى فيها مواضيع عن عبد الوارث بن سعيد، وأبي عبيدة، رواها عنه محمد بن حسن القطّان، وعبد الرحيم عبد الله البرقي، وأخوه أحمد البرقي. وله مُصنَّف في أنساب حِمْيَرَ وملوكها..»[١].

وقال عنه ابن كثير: «كان إماماً في اللغة والنحو، وقد كان مُقيماً بمصر، واجتمع به الشافعي حين وردها، وتنادشا من أشعار العرب شيئاً كثيراً، كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة»[٢].

وذكره ابن خلكان عن أبي القاسم السهلي: «إنّه مشهور بحمل العمل، متقدّم في علم النسب والنحو، وهو من مصر، وأصله من البصرة، وله كتاب في أنساب حِمْيَرَ وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السَّيَرَ من الغريب ...»[٣].

البدايات في كتابة السيرة:

يقال ان معاوية بن أبي سفيان أحبّ أن يدون كتاباً في التأريخ، فأستقدم ابن شريّة الجرهمي من صنعاء، فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين، ثم كثر العلماء في هذا التوجه، ووجدوا في سيرة الرسول ما يحقق لهم في أنفسهم من تعلق به وحب لتخليد أثره وآثاره، بعد أن مُنعوا من تدوين الحديث إلى أيام عمر

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٠: ص٤٢٨-٤٢٩.

(٢) البداية والنهاية ج١٠: ص٣٠٨-٣٠٩، من حوادث سنة ٢١٨ هـ.

(٣) وفيات الأعيان ج٣: ص١٧٧.

بن عبد العزيز، وقد برز منهم: عُروة بن الزبير بن العوّام الفقيه المحدّث، ثم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ، ثمّ وهب بن منبّه اليمني المتوفى عام ١١٠هـ وشرحبيل بن سعد المتوفى عام ١٢٣هـ، وابن شهاب الزهريّ المتوفى عام ١٢٤هـ، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى عام ١٢٠ ومن ثم عبد الله بن أبي بكر بن حزم المتوفى عام ١٣٥هـ.

وهناك ممن تجاوز منتصف القرن الثاني كموسى بن عقبة المتوفى ١٤١ هـ وقعمر بن راشد المتوفى عام ١٥٠هـ ومن ثمّ محمد بن اسحاق والمتوفى عام ١٥٢ ويعد شيخ رجال السيرة وتلاه زياد البكائي المتوفى عام ١٨٣هـ. والواقدي صاحب المغازي المتوفى عام ٢٠٧هـ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المتوفى عام ٢٣٠ هـ ابن هشام المتوفى عام (٢١٨ هـ وهوالشائع) ويعتبر ابن هشام هو آخر من ختمت به كتابة السيرة النبوية وأقترنت بإسمه.

مع ابن اسحاق:

ولد ابن اسحاق سنة نيف وثمانين من الهجرة ومات ببغداد ما بين سنة (١٥٠ هـ إلى ١٥٣ هـ)، والأشهر سنة ١٥١ هـ دفن بمقبرة الخيزران ببغداد، ولا زال قبره قائماً في منطقة الأعظمية ببغداد، وعلى مقربة من قبر أبي حنيفة النعمان.

أدرك ابن اسحاق زمان الإمام السجاد، علي بن الحسين عليه السلام، وروى عن الإمامين: الباقر والصادق عليهما السلام وُعدّ من أصحابهما[1].

---

(١) انظر رجال الشيخ الطوسي: ص٢٧٧.

ترجم له قدماء الشيعة الإمامية، مع التصريح بعاميّته، وذكروا: أن له ميلاً ومحبة شديدة[١]، وهذا ما أوقع الخطيب البغدادي في شبهة انتسابه إلى التشيع[٢] مع ما أكده البغدادي نفسه عن وثاقته من رواية سفيان الذي قال ((جالست ابن إسحاق منذ بضع وسبعين وما يتهمه أحد من أهل المدينة ولا يقول فيه شيئاً))[٣].

وأما عن حقيقة حاله، فالشيعة أكدوا على عاميّته، ولم يصرّح أحدٌ منهم على جرحه أو تعديله. وأما السنة فعدّوهُ من الشيعة حتى أصبح التضارب في تصنيفه يؤكد موضوعيته على ما نعتقد، فضلاً عما عُرف عن ابن اسحاق علمه الواسع واطلاعه الغزير في أخبار الماضين، ويقال ان سبب تأليفه لكاتب السيرة؛ هو دخوله على المنصور ببغداد - وقيل بالحيرة - وكان المهدي ابن المنصور حاضراً، فقال المنصور لأبن اسحاق: أتعرف هذا؟ وأشار إلى ولده، فقال ابن اسحاق: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين، قال: اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدمعليه السلام إلى يومك هذا.

ويقال: ان ابن اسحاق ذهب فصنف له هذا الكتاب، فقال له المنصور: لقد طوّلته يا ابن اسحاق، اذهب واختصره فأختصرهُ، وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين (الخليفة) وهناك من يقول: ان ابن اسحاق لم يؤلف كتابه

---

(١) رجال الكشي: ٣٩٠، قاموس الرجال ج٩: ص١٠١-١٠٢.

(٢) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ج١: ص٢٢٤.

(٣) ن، م: ج١: ص٢٣٧.

بأمر من الخليفة ولا في بغداد ولا في الحيرة، وإنما تم تأليفه في المدينة قبل إقامته لدى العباسيين، وحجتهم على ذلك؛ ان ابن اسحاق ذكر اخباراً عن العباس جد العباسيين بما لا تليق بهم، مثل اشتراكه مع الكفار في غزوة بدر وأسّره بيد المسلمين وهوالخبر ذاته الذي حذفه ابن هشام خوفاً من العباسيين. وهذا رأي وجيه جداً، حيث اننا لم نجد خبر العباس في كتاب ابن هشام.

اما لماذا اعتنى ابن هشام بسيرة ابن اسحاق دون غيره من المؤلفين؟

ذكرنا أنفاً أن ابن اسحاق رجل عُرف بالعلم وغزارة المعرفة وربما كان يرى فيه الأوثق ممن كتب في السيرة. كونه أقضى أغلب شبابه في المدينة، رحل إلى غيرها متنقلاً في أكثر من بلد، وربما كانت مصر البلد الأول الذي نزل به ثم الكوفة والجزيرة والريّ والحيرة وبغداد حتى توفي فيها. وقد روى عنه الكثير من رجالات البلدان التي تنقل فيها، ولم يرو عنه من أهل المدينة سوى ابراهيم بن سعد.

ولم ينج ابن اسحاق من مظالم الطعن، فرميّ بالتدليس والقدر والتشيع حتى أفرد له الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» فصلاً لتفنيد أغلب ما وجه اليه من المطاعن، ومثله ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر».

فمثل ابن اسحاق كان حريّ على ابن هشام ان يعنى بما كتبهُ ناقداً لبعض رواياته، وذاكراً لمافات ابن اسحاق من رواية أوخبر، مضيفاً ومكملاً لأخبار قد توافرت لديه مجدداً لم يكن لها وجود في سيرة ابن اسحاق ومع الكم الجديد الذي سمعه من زياد البكائي (١٨٣ هـ) أو

حاذفاً للبعض الذي يراه لم يستقم مع السيرة، فأبن هشام لم يقتصر على نقل الرواية وحسب، فهو قد تبلورت لديه فكرة النقد والتعليق وهو أول من مارس هذا العمل، ولذا فهو يقول كاشفاً عن منهجية تعامله لكتاب ابن اسحاق: «وأنا ان شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم، ومن ولد رسول اللهﷺ من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول اللهﷺ، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، إلى حديث سيرة رسول اللهﷺ، وتارك بعض من يذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول اللهﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يُقرّ لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سِوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به..».

ابن هشام في إطار النقد

مما لا شك فيه، هناك بونٌ واسع بين رجال الحديث وبين المشتغلين بالعربية نحواً وشعراً، وابن هشام لم يعد من رجال الحديث، ولا من رواته، ولا

مـن المـصنّفين فـيه، بل كان علماً من أعلام النحو والشعر، ((وإماماً في اللغة ... وقـد كـان مقـيماً بمـصر، واجتمع به الشافعي حين ورودها، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً ....))[١].

وأما في باب علم الرجال، فلم يصفه أحد بالظلوع فيه، وهذا ما أُخذ عليه عند حذفه لبعض من سيرة ابن إسحاق، يقول المحقق الدكتور سهيل زكار: «مما يؤسـف لـه لجـؤوه إلى حـذف الكثـير مـن مـادة ابـن اسحاق التي اعتبرها غير ضروريـة، ثـم صـيرورته إلى تعـديل بعـض الأخـبار، أو تعديل ألفاظها حسبما فهمهـا؛ ليكسبها قبولاً، أو وضوحاً رأى أنها تفتقر إليهما، ولا شكّ أن تعديلاته وشروحه هذه تأثرت ببيئته الثقافية، وطبيعة العصر الذي عاش فيه»[٢].

وذكـر الدكـتور ثامر العميدي وهو في صدد مناقشته حديث الثقلين بلفظ «كـتاب الله وسـنتي» في سـيرة ابـن هـشام مـؤكداً عـلى أن ابن هشام لم يضطلع بالحـديث، وغلـب عليه النحو والشعر والنسب ولو كان خبيراً بهذا العلم لوجد حـديث الثقلـين غـير الحـديث الـذي أورده في سـيرته ونـسبه إلى الرسـول الكريمﷺ بلا دليل.

ويـضيف العمـيدي: ولكـن الحـديث - كـما يظهر بوضوح- قد صادف شـاعراً نحـوياً فـسكت علـيه جهلاً بواقعه، إن لم يكن سكوته معبّراً عن موافقة

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج١٠: ص٣٠٨-٣٠٩ في حوادث سنة ٢١٨ هـ.

(٢) سيرة ابن اسحاق، تحقيق د. سهيل زكار، المقدمة: ١٥.

هواه، وهوى الناس الذين يسؤوهم ذكر الآلعليهم السلام.

.... هـذا إن لم نحتمل أنّ ذلك من تصرّفه كما مرّ من تصريحه بخصوص ما فعلـه بـسيرة ابن اسحاق: حذفاً، وزيادةً، ونقصاناً، ... وينتهي في تقييمه، قائلاً: ابـن هـشام لم يُوثّـق أبـداً، ولا يُطمـأن في قبول الحديث على أمثاله؛ لأنّه مجهول الوثاقة في روايته، وقصيٌّ جدّاً عن درايته[١].

وعـلى الـرغم مـن قساوة هذا الحكم، إلاّ أن العميدي نفسه لم يكن بصدد تـضعيف مجمـل سـيرة ابـن هـشام، وإنـما تناول وثاقة ابن هشام في إطار علميّ الرجال والدراية، ولا يخفى الفارق بين رجال السيرة ورجال الحديث، فالحديث يؤخذ من منابعه المعتبرة الذي لا يصيبهم الجرح، ولا يؤخذ من النحاة والشعراء وعلماء الأنساب (كما ولا يؤتمن في أخذ كُلّ علم إلاّ من أهله فكذلك لا يعتمد في الحديث إلاّ على رجاله)[٢].

أمـا مجمـل ما حمله ابن هشام من العلم - خارج نطاق الحديث- فهو عالم في أنـساب حِميَرَ وملوكها، وله كتاب في شرح ما وقع في أشعار السِّيَرَ، فضلاً عن مكانته في النحو والشعر[٣].

كـما لا يقلّل من أهميته في نقل السير والمغازي، حتى أنّه استطاع بمنهجيته

---

(١) التحقيق في حديث الثقلين، د. ثامر حبيب العميدي/ نسخة مخطوطة مُعدّة للطبع: ٢٧٣.

(٢) ن. م.

(٣) وفيات الأعيان، ابن خلكان ج٣: ص١٧٧، عن أبي القاسم السهيلي في كتابه (الروض الأنف).

لملمة السيرة وأن يقفز على كُلّ الذين سبقوه، وبات كتابه المصدر الوحيد المقرون بالسيرة، والمعتمد لكل الفرق والطوائف الإسلامية دون استثناء.

ومن ثم بات المصدر الأول الذي تناوله الشرّاح بمزيدٍ من التوسعة والتعليق عليه، فعبد الرحمن السهيلي المتوفي عام ٥٨١هـ عنى بالكتاب وتناوله على نحوجديد ونهج آخر سمّاه بـ (الروض الأنُفُ) وكتاب «كشف اللثام» لبدر الدين محمد بن أحمد العيني الحنفي، وكتاب «الذخيرة في مختصر السيرة» لبرهان الدين ابراهيم بن محمد المرحَّل الشافعي. وكتاب «مختصر سيرة ابن هشام» لعماد الدين أبوالعباس أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الواسطي».

ومن ثم شيئاً فشيئاً تنبه المؤرخون المسلمون - ومنهم كتّاب السيرة- إلى ضرورة الألتفات لممارسة دور النقد والتمحيص إلى جانب المادة التأريخية، وهذا ما أكد عليه النويري (٧٣٢هـ) في موسوعته (نهاية الأرب) قائلاً: (وأما من ينسخ التأريخ فإنّه يحتاج إلى معرفة أسماء الملوك وألقابهم ولغاتهم وكناهم ... وكذلك أسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والأقاليم)[1].

وهذا يعني تجاوز سند الخبر والتأكيد على متنه والعمل على ضبطه وتحريره ومن ثم معالجة الأحداث التي تكتنفه.

وبعدما يقارب مئة عام، تطور هذا النقد على يد المؤرخ ابن خلدون (٨٠٨

---

(١) نهاية الإرب ١: المقدمة.

هـ) فأهتم بنقد الخبر من داخله أكثر من أهتمامه بظاهره، كون أن ظاهر الخبر لا يمثل كامل الحقيقة، فلابد من التعامل مع روحية الخبر ومقارنته مع أشباهه وفق قواعد وأصول، وذلك كما يقول ابن خلدون، (لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل لم تحكم فيها اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الإجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيراً ما وقع للمؤلّفين والمفسّرين وأئمة النقل المغالطة في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبرها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط)[1] ثم يسند تحوله هذا على شواهد كثيرة، وينتهي قائلاً: (فإذن يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفّق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها مستوعباً لأسباب كُلّ حادث واقفاً على أصول كلّ خبر. وحينئذ يُعرض خبر المنقول على ما عنده في القواعد والأصول فإن وافقها

(١) تاريخ ابن خلدون ج٩: ص١ .

وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيّفه واستغنى عنه، وما استكبر القدماء علم التأريخ إلاّ لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمة، وقد ذهل الكثير عن هذا السرّ فيه)[1].

وليس في قوله هذا غرابة، بل هو عَينُ ما قاله قبله الرسول محمدﷺ: (إذا جاءكم عني الحديث فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فأقبلوه، وما خالفه فأضربوا به عرض الحائط)[2].

وابن خلدون – في أراءه- قد فتح بابا واسعاً أمام المحققين، وباتت المادة التأريخية بكاملها خاضعة للفحص والمناقشة ومعرفة مدى صدقها أو كذبها ليس من باب نسبة توثيق السند، وإنما بالنظر إلى روح المادة التأريخية، وهذا مالم يُحفز المؤرخين الإسلاميين في التسليم لهذا المنهج كون أن المادة التأريخية في أغلبها مادة حديثية – دينية ومن ذلك فأن التاريخ كُلّه مادة دينية. لا يمكن أن توضع عليه عدسة الفحص والتمحيص وطرحها على طاولة المناقشة، فهي قد ولجت حيّز المحذور، ومجال الحُرمة. وباتت كُلّ غاية المحدّث تصحيح الحديث بتعديل رواته وتوثيقهم وضبط النص وتحريره، وليس هناك ما يدعو لمناقشة المتن وفق القواعد والأصول والضوابط التي وضعها ابن خلدون، فابن خلدون – نفسه- يعقب على هذا المنهج، قائلاً: (إنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحّة

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون: ج١، ص٢٨.

(٢) تفسير مجمع البيان، الطبرسي ج١٠: ص٣٩.

الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنسانية أوجب الشارع العمل بها، فمتى حصل الظنّ بصدقها وسبيل صحة الظنّ الثقة بالرواة بالعدالة والضبط. أما الأخبار عن الواقعات فلابدّ من صدقها وصحّتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهمّ من التعديل ومقدّماً عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحقّ من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران)[1].

فكان لمنهج ابن خلدون أثره في قراءة التأريخ. وبالأخص السيرة النبوية التي ضلع في كتابتها مؤخراً بعض المفكرين، وبعيداً عن الإثارات التي وضعها المستشرقون، نرى صاحب هذا الكتاب **المفكر العراقي عزيز السيد جاسم** قد خط منهجاً وسطاً في قرائته للسيرة، يُلاحظ ذلك؛ وهو يستقرء النص بطريقة جمع المتشابه وفق منظومة فكرية تجلت من مجمل حركة الرسولﷺ مع ما لوحظ من تأثره الواضح لمنهج بعض المؤرخين المسلمين كأبن أسحاق، وأبن هشام، وربما كاد يقترب إلى منهج ابن خلدون في النقد وتفكيك النص، وبشكل عام؛ فهو لم يقطع برأيه مع رأي بعض المسلمين في قراءاتهم للسيرة النبوية على أنها ظاهرة سماوية محضة مقطوعة الصلة بالجانب البشري ولا هو بالمتفق مع المستشرقين بإنكارهم للجانب الغيبي ونكرانهم لكل ما وراء المادة والحس.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ج١: ص٣٧.

فالمؤلف -- عزيز السيد جاسم- جمع بين رؤيتين متناقضتين متقاطعتين فكانت له هذه القراءة التي تستوجب كثير من التأمل ومزيد من الأعجاب، وفقَ ما يعتقده من ضرورة تفعيل مكامن السيرة في الحياة المعاصرة.

مع المؤلف

عزيز السيد جاسم

كاتب ومثقف عراقي، مُفَكِّر، غيبّهُ نظام صدام حسين عام ١٩٩١م، أثر كتاباته الأخيرة ذات المُسحة الإسلامية، وبالأخص كتابه الأخير (علي بن أبي طالب عليه السلام ... سلطة الحق). وبالطبع لم يعلن النظام أسباب إقدامه على هذه الجناية، كما ولم يفصح عن المصير الذي آل إليه عزيز السيد جاسم، وختمت حياة هذا الرجل المثقف الكبير بالشهادة، وهروب أخيه السيد محسن الموسوي - المثقف البارز- إلى خارج الوطن دون أن ينبس بكلمة واحدة في مجال السياسة العراقية وما آل إليه الوضع داخل العراق، فعاش غربةً مليئة بالصمت والخوف والترقب.

عُرف عن عزيز السيد جاسم بالمثقف المُعتدُ بنفسه، صارماً في مواقفه، لا تأخذه أمام الحق والمنطق تحسبات الخوف ورهبة النظام . والعجيب ... بما يحمل من منظومة فكرية لا يمكن لها و(له) الانسجام مع طبيعة النظام الحاكم، فكان على الدوام يُشعر مسؤولي السلطة بسياساتهم الخاطئة وبما سوف يكون عليه العراق مستقبلاً من واقع مآساوي مظلم مدقع بالحروب والعصبيات والطائفية والفقر! وكانت بحق نبوءة أو قراءة مستقبلية، إستشراف دقيق ومحكم!

إلاّ أن ثمن هذه النبوءات، والأدق ثمن الوعي المسؤول، أودى إلى تغييبه سريعاً عن مسرح الحياة ومسرح المسؤولية، فضلاً عما كان وراء هذا التغييب من رسالة سلطوية واضحة نحو وعي الآخر! بيد أن رحيله هو الآخر سجل رسالة عظيمة الوضوح والكشف - تأريخياً- عن مدى وعي السلطة وأمثالها ذات النهج التعسفي، مع كثير من الدلالات التي منحت صاحبنا المؤلف (رحمه الله) لانطلاقة ثقافوية عراقية جديدة، حتى أنها أفصحت عن قطعٍ رافض عند أغلب المثقفين العراقين لمثل هكذا سلطة همجية، لا تعني بالثقافة ولا بروادها، بعيدةً عن كُلّ ما ينم للأسس الثقافية وجذورها، لها ثقافتها الخاصة بها، ثقافة النظم الدكتاتورية والاستبدادية التي تمسخ حيثيات أي مثقف يعمل في كنفها.

كما ومثّل هذا الرحيل دلالة عن عمق رسالة المثقف الحُر، والذي لابد أن يقول كلمته وإن كان ثمنها باهضاً، فهو مثقف شعب، وجمهور أمة أرادت أن تحيا حياة الحُرية، والعيش بشرف وكرامة، فكان عزيز السيد جاسم المثقف العراقي الوحيد الذي توفرت له فرصة الهروب وبكل سهولة! إلاّ أنه أبى الخروج من العراق متحدّياً سلطة القوة بسلطة القلم، الفكر والقيم التي لم تبارحه وهو طفلاً في حاضنته الأولى قرية (النصر) أحدى قرى محافظة الناصرية، جنوب العراق، وفي ذلك البيت الهاشمي وهو يرى والده الفقير يقتطع رغيف الخبز مناصفة مع السائل! وغالباً ما يكون نصيبه الأقل!!

فكانت الولادة مع القيم مع الأخلاق مع عظمة محمدﷺ ومع أسطورة العطاء والشيم والغيرة والرجولة العلوية بحيائها وصبرها وتجلدها من سيرة

الإمام علي عليه السلام وهو يكتنز له صورة معلقة على أحدى جدران المنزل.

فالعدل والمساواة، الواجبات والحقوق، الحرية والكرامة، حق الاختيار، حق الرأي، نصرة المظلوم، الحق، الإنصاف، الشجاعة، وملكات الأخلاق والأدب، كُلّها نياشين تُطرز فكر عزيز السيد جاسم وهو يستجليها ايحاءً من معالم الجدارية لهذا الرمز الإنساني الخالد.

فكانت البداية مع اليسار الاشتراكي، مع أصداء نغمات التحرر، مع الواقعية العمالية، مع المظلومين والفقراء في أحلامهم مع ما ينشده هذا الرمز الخالد! حياة ملؤها العدل والمساواة!

ومع كُلّ البدايات التي تفتقر إلى التجربة، كانت الأخفاقة تسيطر على تطلعات السيد جاسم، فلابد من تغيير، لابد من تحوّل، لابد من رؤية أكثر مقبولية وانسجاماً مع فطرته. مع بداياته القيمية وإيمانياته الغيبية، كان لابد من العودة إلى احضان ذلك البيت المشع بالطفولة البريئة، والروحانية المسيّطرة في كُلّ زواياه التي عاشها (عزيز)، وهو يستشعر الطمأنينة والسكون وراحة الضمير! نعم الضمير، ذلك الذي بزغ مع بزوغ الطفولة وساير الأحلام بيقضتها العقلانية.

كانت طموحاته وأحلامه رسالة مثقف مُلتزم، رسالة تغيير واقع، وتطبيق قيم ومبادئ، رسالة قائد غيور، رسالة بناء وإعمار، رسالة فكر وثقافة، رسالة تحرر وانبثاق وإبداع، رسالة كلمة صادقة وجريئة بوجه الانحراف.

نعم، هكذا هي أحلام وتطلعات العقول الكبيرة المتعالية عن كُلّ ما يشين

أو يـتعلق بالكـرامة، ولذا كان من السهل على السلطة فيما لو قررت تصفيته يوم تـريد، ووقـت تـشاء، لأنه لم تسمح له ذاته أن يتمسح بها أو يعتذر لها أو التوسل بأحـد أفـرادها أو حتى التوسط لها، حتى يُنقل عن مقربيه: أنّه لم يقم بزيارة أحد مـن معارفـه أو أصـدقائه الـذين كانوا في سدّة الحكم آنذاك؛ خوفاً من اتهامه بما يُـشين مـسيرته، وانـزوى في داره، ولم يـشارك بـأي نشاط اجتماعي أو جماعي أو ثقافي، وقد فرض على نفسه إقامة شبه إجبارية.

ويُـنقل عـن صرامـته وطبـيعة نظرته لمن يدعي النضال والتحسس بأمور الـناس وهمـوم شـعبه: أن أحـد أعـضاء القـيادة القومية من اللبنانيين طلب من الأسـتاذ وزيـر الـثقافة آنـذاك صـلاح عمر العلي أن يجمعه بعزيز السيد جاسم، فطلـب الوزيـر من أخيه وليد عمر العلي اصطحاب عزيز إلى الفندق الذي ينزل فـيه هذا العضو القيادي، ولما وصلا إلى الفندق أمتنع عزيز من دخوله وحتى من مقابلـة هـذا القـيادي أو التعـرف عليه، ولما سأله رفيقه عن السبب. قال: كيف يكـون هـذا الـرجل مناضـلاً ويـرضى بالسكن على حساب الشعب في مثل هذا الفندق الفخم الذي لابد أن يكلّف الدولة مبالغ كبيرة، وهو يعلم بحال البلد!! ولا أدري مـا عـساي أن أقول بحق هكذا رجل؟! والأدق ما عساه هو أن يقول اليوم ونحن نعيش وطناً أستباحه أهله والغرباء!

بدأت تنظيراته السياسية مع أولى تجاربه في الكتابة وفي زمن تصاعدت فيه موجة التيار اليساري، وتقاطعت هذه التنظيرات مع تنظيرات هذه الموجة، فكان الطـلاق والـبُعد، ثـم أخـذت منه فكرة القومية العربية حيزاً في وقتٍ تعالت فيه

الأصوات نحو الوحدة ولمّ شمل ما تمزق من جسد الأمة وكان الإسلام بكل مفاهيمه وأبعاده المعين الذي يعتقده (عزيز) أن لا يعتليه التطرف في القومية والنظرات العصبية الضيّقة، فهو يؤمن أن الإسلام هو الذي منح العرب المفهوم العروبي والقومي الواسعين، وليس بالمفهوم الضيق الذي أعتمده بعض القوميين المتطرفين، كما أنّه بذاته لم يعش حالة الارتداد الديني الفطري، بل كان إيمانه بالإسلام إيماناً صادقاً وناضجاً، له قراءته الخاصة به، فهو لم يقتصر على ما جاء فيه من واجب العبادات وحسب، بل كان يرى فيه الإبداع المتجدد الخالد لحل كُل ما يواجه البشرية من معضلات وخطوب لا يمكن لها أن تُحل إلاّ بالنظر الصائب لجوهر الفكر الديني. ولذا أكد على أن الإلحاد يلغي أي خشية من وجود الرقيب الإلهي، أو أي احتساب له، فتصبح حدود الذهن والإرادة الشخصية والمزاج، ومخزون اللاشعور، للفرد الحاكم ذي السلطة المطلقة، هي التي تقرر كُلّ موقف سياسي دون إلتزام بالحق، وذلك بسبب فقدان الإيمان بالله ودون الالتزام بالقوانين فتنتج عن ذلك فوضوية القرار!!

والأخطر في نوعية هذا القرار الفوضوي هو ما يمارسه البراغماتيون كون أن الأمور تتعلق بالمصالح الآنية للدولة، فيكون الاجتهاد من قبل السلطة المطلقة يبيح لها التصفيات السياسية والجسدية باسم الضرورات - ضرورات التطبيق الاشتراكي- كون السلطة محتكمة إلى إرادة الحزب وتصوّراته، وهي الأخرى أيضاً تصورات قطاع واسع في الدولة (فالاجتهاد النظري والسياسي الذاتي، مع المصالح الآنية للحزب والدولة كانت وراء الأجراءات القمعية

القاسية ولم يستطع القانون أن يفعل شيئاً أمام السلطة المطلقة).

أما ما هو البديل الذي يطمح إليه عزيز السيد جاسم أمام فوضوية القرارات والسلطة المطلقة؟!

لا نجد له رأياً من نظريات واطروحات أرضية، لأنها كلها اجتهادات نظرية ذاتية تستصحب وتستبطن الخطأ بلا شك، بل جسد طموحه من قولٍ لعليعليه السلام ضمن كتاب كتبه إلى (الأسود بن قطبة) – صاحب جند حلوان في فارس– يقول فيه: (أما بعد ... فإن الوالي إذا أختلف هواهُ منعه ذلك كثيراً من العقل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء فإنه ليس في الجور عوض من العدل، فأجتنب ما تنكر أمثاله، وأبتذل نفسك فيما أفترض الله عليك، راجياً ثوابه ومتخوفاً عقابه)[1].

فعلى الأقل ومن خلال كتابيه (محمدﷺ الحقيقة العظمى) و (عليعليه السلام سلطة الحق) تتضح رؤية كاملة أن عزيزاً تبلورت لديه انطلاقة إيمانية عقلانية لمنظومة الفكر الإسلامي، وتوافقت قراءته مع القراءات العملية والعلمية لشرعنة الإسلام كمنظومة حقوقية تسود مرافق الدولة ضمن دساتيرها وقوانيها، ولذا لا عجب أن يستشعر القارئ له كم كان يحدوه الشوق والانبهار وهو يستعرض نماذج إنسانية غاية في الروعة من مصاديق التعامل السياسي لعلي بن أبي طالبعليه السلام، ومنها في تداوله لمعنى الحرية في القول المشهور: (لا تكن عبد

---

(١) نهج البلاغة، محمد عبده ج٣: ص١١٦.

غـيرك وقد جعلك الله حُرّاً)، حقاً أن عزيز يصاب بالذهول، وقد أُصيب به وهو لم يستطع أن يحرر تعليقاً شافياً على هذا القول!!

فنـراه يـتكأ على استعارة رائعة عن لسان جورج جرداق، يجد فيها ما يريد أن يقـوله هـو (فأنظـر كـيف تـوجه عـلي عليه السلام بقـوله إلى من يريده أن يثق بنفسه ويستـشعر روح الحـرية ومعـناها، فألقى في نفسه ما يوقضه على أصلٍ من أصل وجـوده، وهـو أن طبـيعة الكـون جعلـته حُرّاً لا يتمرد ولا يطيع ولا يعمل ولا يقـول إلاّ على أساس من هذا الحق الطبيعي، وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كُلّ ما من شأنه أن يضيّق عليه ويسلبه حقه في أن يكون حُرّاً).

وعـالج عزيـز الـسيد جاسـم الكثير من المعضلات المتفاقمة فكراً وثقافة أستـصحبت مـع الـنظم الاسـتبدادية والفـردية، فأسبار غوره العميق في فلسفة الـتأريخ جعلـته حـاضراً لعلاجـات قـد تـبدو مستعـصية، بعد أن جعل لها من الـتأريخ القيمـي علاجـات ناجحـة، فمع خطورة الطائفية الدينية – السياسية لم يترك هذا الخطر وما أنجم عنه إرهاباً ايديولوجياً بأسم الدين والدين منه براء ... كما يقال. ولا يخفى أن خطر الإرهاب دائماً يتمثل بصورتين مأساويتين احداهما: أرهـاب الفكـر والـثقافة ومـصادرة الحـريات. والآخـر: إرهاب الإنسان نفسه وإزهاق روحه، فشخص عزيز السيد جاسم علاجاً من منظومة علي عليه السلام وينتهي بركنين مهمين:

الأول: التركيز على الأخوة الإيمانية، الأخوة الايديولوجية السياسية، وبما يتضمن ذلك من وحدة المنطلقات ووحدة العلاقة بما فيها التضامن والتحالف.

الثاني: وهو الركن الأهم، تذكير السلطة المذهبية، أن الإنسان من مذهبٍ آخر هو نظير إنسان السلطة في الخلق، وليس ثمة ما يتعالى به عليه، وفق قول الإمامعليه السلام: (الناس صِنفان إم أخٌ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق).

فالنظر في كُلّ مؤلفاته يُظهر أن الرجل كان يعيش عمقاً ايديولوجياً من خلال علاجاته المتواصلة مع المفاهيم والأفكار السائدة في الساحة العراقية، فهو أقرب ما يكون لبلورة منظومة فكرية تساير حركة الإنسان بمختلف توجهاته الفكرية والدينية والقومية، فالإنسان في منظومته شَكَلّ أثمن رأس مال، فجاءت كُلّ قراءاته الايديولوجية استنباطاً لكل ما يعزز المفهوم الإنساني، وبالأخص فُسحة الحرية والحقوق والواجبات، ففي كتابيه (محمد الحقيقة العظمى) و (علي سلطة الحق) بسط المفهوم الإنساني في أغلب المواقف من السيرة فضلاً عما بلوره من أطر الشفافية في صيغ تعامل عليعليه السلام مع الناس سواء كانوا موالين أو من المعارضة، إنساجاماً مع الحاجة التي كان عليها الفرد العراقي في تعامل السلطات معه.

ومن هنا يمكن القول: أن لا غرابة أن يدلو عزيز السيد جاسم بدلوهِ في بلورة التراث الإسلامي ويظهر للقارئ الكنوز الفكرية والمواقف العملية لرموز هذا التراث الذي حاولت السلطات والمنظومات الاستبدادية تغييبه قهراً مرةً بحجة الطائفية وأخرى بأن القديم لا يُمكِنه النهوض مع مسايرة عصر التطور والحداثة! وربما أخرى أشدُّ غرابة، لما فيها من عناء التفكيك،وسهولة الانطلاء

على الأمة حينما تكون سهام التشكيك وآليات الاتهام والانتقام جاهزةً من بعض أدعياء هذا التراث ضمن إطار منظومتهم الانتقائية.

فالحُرية التي كان يبحث عنها المؤلف والمفكر لم يجدها مجسدةً في واقعه رغم تعدد الايديولوجيات الحاكمة وشبه الحاكمة، بعد أن استقرءها واحدة واحدة، كما كان مفهوم العدل هو الأخر المُغيّب عملاً، والحاضر شعاراً ولافتة، كان عزيز يرى البؤس في وجوه الفقراء والمُعدمين الذين لم يكن لهم نصيباً في السلطة ولا نصيباً من قراراتها التي زمرّ وطبل لها الإعلام كثيراً كمنجزا ت حاكمية السلطة!

فأمام هذه الظليمة والمظلومية لا يمكن لأي حُرٍّ شريف أن يواكب ما تبقى من حياته إلاّ أن يجد من العزلة المأمن الحقيقي، والغور في نصوص التراث وبالمقدار الذي يُسعفه أن يُظهر ما يمكن بثه في أوساط الناس الذين غلب عليهم القهر ودوامة البحث عن لقمة العيش، وربما بأي وسيلة كانت!! حتى أنه كان في أشد العناء وهو يرى في وسطه الثقافي مجموعة مخبرين لم يكن لهم من الهم ما يمكن أن يكون حافزاً لرفض الأساليب الدنيئة، سوى أنهم آلات أو أدوات يمارسون الدناءة بأبخس الأثمان!! ارتضاءً لتطلعات الأسياد الخبيثة، وهم يستهجنونها بكوامن أنفسهم، إلاّ أن لعبة النفاق وشرعنة تبريراتها السياسية والدينية والاجتماعية ... سَوّغت لهم الإجماع على اصطلاح (اللعبة السياسية) كي يوفروا لما تبقى من عذاب الضمير فُسحة مشروعية الدناءة والسقوط الأخلاقي الفضيع، بيد أن هذا المفهوم بحقيقته عارٍ عن كل ما يُستمد من قيم

الإنسانية والدين والفضيلة، وباتت الفضيلة، كُلّ الفضيلة في كُثرة التقارير، وإرضاء مزاجية الأسياد، والانسجام مع أفعالهم في الضحك على الذقون!

هكذا تنقلب القيم حينما يغيب الضمير.

وهكذا تتوالد المآساة، وحين ذاك ... ما أرخص قيمة الإنسان!!

فرحل عزيز السيد جاسم، ولا غرابة أن يرحل! هو وأمثاله، ضمن أوساطٍ يفزعها النقد والتوجيه، المرعوبة حقاً من مصاديق الحُرية والعدالة وخوض الحوار.

صادق جعفر الرّوازق

٢٠/ ٦/ ٢٠٠٨ م

محمد صلى الله عليه وآله الحقيقة العظمى

سـأل عـلي بـن أبي طالب رسول الله ﷺ عن سنّته فقال: «المعرفة رأسُ مـالي، والعقل أصلُ ديني، والحبُ أساسي، والشوقُ مركبي، وذكـر الله أنيـسي، والـثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والـصبر ردائـي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقـين قـوتي، والـصدق شـفيعي، والطاعـة حـسبي، والجهـاد خـُلقـُي، وقرةُ عيني في الصلاة»[1].

---

(١) الـشفا بتعـريف حقـوق المـصطفى للقـاضي عـياض (٤٥٥ هـ): ج١: ص ١٤٧، عوالي اللـئالي لابـن أبي جمهور الأحسائي (٨٨٠هـ) ج٤: ص ١٢٥، تذكرة الموضوعات لمحمد طاهر بن الهندي الفتني (٩٨٦ هـ): ص ٨٦، مستدرك الوسائل للميرزا النوري (١٣٢٠ هـ) ج١١: ص١٧٣ (المحقق).

الفصل الأول

مدخل غير اعتباطي

لماذا كتبتُ هذا المؤلَّف؟ هذا سؤال قد يبدوغريباً لأول وهلة. لأن المؤلف لا يسأل نفسه مثل هذا السؤال، بعد أن أصبح الكتاب جاهزاً، فالتأليف نفسه يحمل مبررات تأليفه.

كما أن الكاتب حرٌّ في فعاليته الكتابية، يتناول ما يشاء في إطار قدرته المعرفية، والابداعية.

وبالنسبة إلي - شخصياً- أرى أن الكتابة مسؤولية، إنها رسالة نوعاً ما، استطيع فيها - ويستطيع سواي من الكتاب - التعبير عن افكارهم أولاً، وإيصالها إلى الاخرين ثانياً.

ويختلف الكتاب في ميزان التقدير: أياً من النقطتين يختار؟ البعض يكرس إهتمامه في التعبير عن آرائه الخاصة، والبعض الآخر يهمه التواصل مع القرّاء.

من جانبي، أنظر إلى الكتابة عملية مزدوجة؛ بلورة أفكار لا يمكن أن تحدد نفسها على نحونهائي، قطعي، بالدرجة الأولى، ومن ثم إيصالها، والدخول في حوارات إيجابية مع القراء بصددها.

والكتابة تكون هادفة، لا بمقدار ادعائها بذلك، بل هي هادفة بمقدار إنبعاثها من دخيلة كاتب يتمتع بضمير إنساني عادل، وحقاني، وغيور.

حتى الكتابة المذهبية الهادفة من حيث إطارها وتأشيرها لا تكون ذات

حقيقة، فيما إذا كان كاتبها لعوباً، عادم الضمير، سيء النيّة. ونظافة ضمير الكاتب تقرر القيمة الإنسانية لعمله الابداعي، ومعطياته الكتابية والفنية.

يمكن القول ان السؤال الوارد في البدء، هوسؤال افتراضي للمؤلف والقارئ سوية. ثمة من يسأل وهوعلى علم بنشاطات الكاتب المتعددة، وقد يحمل سؤاله اندهاشاً.

وفي الواقع ان الكتابة عن النبي العظيم محمدﷺ مهمة تركت لطراز محدد من الكتابات الدينية والاستشراقية، ولذلك يبدو ان كتاباً مجددين، أو معاصرين - بالتحديد - لا يوفرون أنفسهم لجهد كتابي كهذا. يُضاف إلى ذلك ان الكتابة عن النبي العظيم أشبعت كثيراً من قبل الكتاب المسلمين، ومن قبل المستشرقين، الخصوم والمؤيدين.

إذن، لماذا الكتاب هذا؟

هناك سببان: ذاتي وموضوعي دفعاني إلى تأليفه.

السبب الذاتي، هو رغبة قديمة، منذ أيام الصبا أن أتناول جوانب معينة من حياة عظيمة هي حياة النبي، بنزوع أدبي، عاطفي، وحالت إنشغالات سياسية وفكرية دون تأدية ذلك، وأكثر من ذلك ان تلك الانشغالات طمرت الرغبة بقساوة سخيفة.

لقد وجدنا انفسنا - باسم معاصرة سياسية، واعتبارات فكرية في السياق نفسه - أنا وبعض جيلي، من التوجه السياسي المشترك، نبتعد - إلى حد التطرف - عن خوض الدراسة في مستهل تاريخنا الاسلامي، وكان لاحتواء ذلك التاريخ

مـن قـبل هيـئات رسـمية، ومذهبـية تقلـيدية، منـسجمة مـع مصالح الطبقات المستغلة - بكسر الغين - ومع التبعية الاستعمارية، أثره البالغ في جعل ردة الفعل ذات منحى تهرّبي.

لقـد أغلقـنا أبواب الخزانة القديمة لمعارفنا، لأن بعض السلفيينّ كانوا مع الباطل الاستعماري، الباطل اللصوصي. فكان الانشغال بالاعتبارات السياسية، في فترة المراهقة، والشباب، ملأ حياتنا.

إذن، كان هناك تقصير، ربما كان حتمياً! إذا لا مفر من القول انه كان ضرورياً ان تمر مدة طويلة منذ ذلك الحين، حتى الآن، لكي أنجز كتابي هذا، بعد ذلك.

فقد كان التقصير حينذاك صورة من صور وضع عام شديد التقصير.

وكـان الترابط بين أفراد جيلنا وبين المرحلة الاستعمارية، الاذلاليّة، ترابطاً تناقـضياً صراعـياً يعبر عن نفسه بالصورة التي حصلت. لقد كنا صورة النقيض للمـرحلة تلك. هي بذاتها، حيث كان لايمكن أن تكون غير ذلك. ونحن الذين لا بديل عنا، فذلك ما كان نتاج مجتمعنا، نحن!

الآن، بعـد اجتـياز هـذه الفـترة الـزمنية (الثلاثة عقود) بمراكب الأدب، والمعـرفة العلمـية، والاشـتراكية، والوعـي الوحدوي العربي، والعمل السياسي والجماهيري، كان لابد من إعادة النظر في مواضع التقصير.

وكـل وصـول بواسـطة تلـك المـراكب، كـان يخلـق شـعوراً بالنـضج، أوبالوصول إلى مرافئ الخبرة، لكن ذلك إدّعاء الخاسر وتعلّته. لأن حكمة الحياة والموت تجعلك عصيّاً على الوقوع في شرك الغرور الذي نسمّيه ما بعد النضج.

لا يوجد نضج تام، لأن كل نضج، تعقبه سلبيات الثمرة الناضجة، إما أن تـُقـْطـَف، أوتقع على الأرض تسحقها أقدام الصبية، أوتخيس.

رغـم ذلك، هناك الجانب المؤكد: البدء بعد النهاية المترتبة على النضج. إن الـولادة هـي الأهم على الدوام. هي الشرف الإنساني الصحيح. شرط ان تكون أبديـة، تـولد في الـولادة، المـتجددة، التـي لا تتكرر، وإن تكررت، ففي ناموس التجدد الناصع، والازدهار الخليق بكل جنة يستحقها الانسان.

كلـُنا - الـذين اخـترنا مـشروع الكفـاح العنـيد من أجل الحرية والتقدم الاجتماعي والكرامة الوطنية والانسانية - كنا نحلم بالجنة الأرضية.

لقد استعجلنا طلب (الجنـّة) الأرضية، فأجلنا البحث عن (جنة) السماء.

وكانـت تجـربتنا الفتـية لا تخلـو مـن الحزن الشريف. حزن الوحيد الذي يحمـل عـلى كتفيه الصغيرتين اعباء وطن بأكمله. بالأقل كان هذا شعورنا، الذي بوحيه كنا نكافح بقدراتنا المحدودة، كنا عـزّلا، إلا من ضمائرنا.

كانت أوساط اجتماعية تصورنا قتلة، خطيرين، مثيرين للفتن، في حين كنا ننتظـر من هذه الاوساط محبّة، وتعاطفاً، أو - في اسوأ الاحوال - مغفرة. فلنكن - في نظـرها - شـياطين، لكـن نحـن ابناؤها، تلك الاوساط التي شهرت علينا سلاح العدوان، مصطفة إلى جانب الاستعماريين، والجواسيس، والقتلة.

كنا نجتهد، ونحن نكافح، هل في ذلك ضمير؟

لا أنسى ان ما تم قوله الآن لا يقلل من خطورة الاخطاء التي كُنا نقترفها.

لقـد كانـت المـراهقة تـرفع حدة الدماء في رؤوسنا. كنا نغلي، كان هدفنا:

(الـوطن، الأمـة، الكادحـين) كـان كناية عن الحق، الحرية، العدل، كل المفاهيم التـي شـق بهـا صوت النبي محمدﷺ فضاء الجاهلية، والزور، والنهب، والقتل، ووأد البنات، وكل السيئات المخجلة.

يمكـن الاسـتغفار للآخرين، وللنفس، دائماً. ذلك شرط الفكر الشريف، والوعـي العادل. ان الناس - جميعاً- من كل طبقة ولون ومعتقد متصلون بعضاً ببعض. توجد شراكة يجب ان تـُحمى بفعل حدود الله، العدل نفسه.

لكن من الذي يتراجع عن مركزه المالي والسطوي لصالح شراكة إجتماعية عادلة؟.. ألا ترى ان مسؤولية المفكرين معذّبة فعلاً.

المفكر حرّ بالضرورة، بدون هذه الحرية هوليس مفكراً..

ولابـد أن تـستجيب القـوى المالية والسلطوية التي تمثلها إلى نداء الحرية، بأبسط طلب؛ ذلك لأنها مطالبة بالبرهنة على إسلاميتها.

لم يحـصل هذا ولا ذاك، فتعقدت لوحة الصراع، وكنا نأمل ان وضع ١٤ تموز ١٩٥٨ يوجد الحل الشامل. لكن تبيّن ان الصراع آخذٌ في التعقد، بأقنعة شتى.

كانـت مراحل عديدة لا يتهرب أحدٌ من مسؤوليته فيها، كذلك لا يمكن الاصرار على الطعن بالخصوم مهما كانوا.

والمؤسف أن الكتابة لم تتوغل في مواضيع تلك المراحل، الكتابة - نفسها- أصبحت مثل أقواس فقاعية تعبر الأنهار بمحلّ الجسور:

التحريم في الكتابة شديد الثقل، عبءٌ لا مثيل له.

هـنا أدخـل في بـيان العامـل الموضـوعي. الكتابة عن محمدﷺ ما هي من

طراز الكتابة الدينية المحدودة التي لا تكسب إلى صف الإسلام، محبّذاً مؤيداً، من عالم الغرب. أوهي كتابات سردية، تكرارية، كأنها عادمة الصلة بواقعنا العربي، كأن (محمداًﷺ) النبي العظيم ولد في كذا (سنة)، وبُعث رسولاً في كذا (سنة)، ومات في كذا (سنة)، وكان الله غفوراً رحيماً.

لقد عملت كتابة التحنيط دورها اللاإسلامي في إبعاد صورة محمدﷺ عن حاضرنا بربطها بماض زاهر. لكننا نريد - دوماً - حاضراً زاهراً، ومستقبلاً أزهر، وكان لابد أن يكون الرمز الأمثل في حياة العرب وتاريخ العرب النبي محمد، موضوع دراساتنا، ومطالعاتنا.

لقد كانت الكتابات عنه - النبي، الرسول، القائد العظيم - محدودة، ضئيلة، مجموعة معلومات، ومجموعة أقوال (أحاديث)، في حين كان يولى إهتمام بحياة الشعراء أكثر منه. ومع ذلك، كان القيّمون على هكذا دراسات يدّعون أنهم أوصياء على ذكر النبي.

الكتابة عن النبيﷺ مسؤولية واسعة، لا حدود لها، وتستوعب كل الأقلام الخيرة، التي تتناول - من أي جانب - بعضاً من حياة محمدﷺ الطويلة، العريضة، الضخمة، العجيبة، التي لا تتكرر.

ان محمداً نبياً، رسولاً، قائداً، قدّم للبشرية مخططاً جديداً للحياة بوجه الجاهلية، فقلب العالم القديم بفعالية كفاحية، فردية وجماعية. إنه لم يكن صاحب أفكار يتجول، ملقياً بآرائه في آذان الناس، في الساحات والشوارع والأسواق.

لقد كان قائد التغيير الجذري الشامل، كان ناموس فكر وتطبيق، فلماذا

يشاء بعض الكتاب حصر حياته العظيمة التي هي ملك البشرية، باعتبارها منارة هدى وعلم وأخلاق، في مجموعة أشياء مكررة، محفوظة، تُحيّد الحقيقة المحمدية وتخنقها؟!

في حياة النبي مظاهر للعظمة متنوعة، شاملة، فليأخذ من يشاء الفائدة من هذه الحياة، من أية زاوية يشاء، مخلصاً، متطهراً، دون أن يحصل على (فرمان) موافقة من أحد.

محمد ملك المسلمين والبشرية النظيفة، وليس ملك كهنة، وأوصياء، وأصحاب وكالات منحوها لأنفسهم[1].

---

(١) اللطيف في هذا الأمر، أن البعض يرى الكتابة في تاريخ السيرة النبوية واعلام الإسلام، هو شأن تخصصي، لا يمكن ان يكون للمثقف باع للخوض فيه، بل هواختصاص مميّز لمثل هؤلاء الذين نصّبوا أنفسهم قيمون وأوصياء على التراث! ويا ليت ان تكون كتاباتهم تحمل نكهة المعاصرة والاندكاك في المجتمع ومتطلباته وربطها بسياسة الرسول بشكل علمي موضوعي، فهم حتى لا يستطيعون الخروج عن الطريقة المألوفة من حيث الولادة والنشئة والغزوات ثم الوفاة.. وبأسلوب يخلومن الشفافية والمسحة الأدبية ومراعاة الذوق الإنساني المعاصر. فإدعائهم بالوصايا والقيمومة على من يطرق التاريخ بالصورة المشوقة للقارئ، يدلل على اخفاقهم العلمي أولاً ومن ثم عامل الغيرة والحسد ضد كلّ ما هوجديد وحداثوي، كونهم يعتبرون الخوض في هذا المسار للمثقف هوأعلان عن أفلاسهم العلمي والأدبي وهذا ما لا يمكن ان تتحمله النفوس الضيقة والتي لا تريد ان تعترف بمحدودية امكانياتها سيما بعد أن تشبّع غرورهم بالقيمومة على الآخر (المحقق).

كيف يتعلم العرب، الجماهير العربية، من محمد إذا كانت الكتابة عنه ضحية سلفية ضيقة (وليس كل سلفية ضيقة)، أوحداثة مستهترة (وليس كل حداثة استهتاراً)؟!

ثم، كيف يتباهى العرب بمحمد العربي العظيم، أمام العالم، وهم غير قادرين على إيصال صورة محمد الحقيقية إلى العالم، الصورة الجذابة، حقيقة، وليس ادعاءاً؟

إن ما يرسمونه - أولئك الكتاب المتحجرين - عن محمد لا يقنع العربي المسلم بالصورة فكيف يقنع المثقف في لوس انجلوس، ونيويورك، ولندن، وبون، وموسكو، وبكين، ودلهي؟

بعامة، ان الأديب يتناول - من زاويته - صورة محمدﷺ، وكذلك يفعل الفنان، والمفكر، والسياسي، وعالم الاجتماع، وغير ذلك من الكتاب والأدباء والعلماء والمبدعين.

فشخصية محمد قارة كبرى، بل قارات، لا يمكن الاحاطة بها، إنما يمكن - فقط - (وهذا حق) التوصل إلى استقصاء جانب معين من حياته الهائلة.

لقد كان يستقبل الوحي القرآني القائل:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١).

ليؤدي مهمة خارقة، تلك هي مهمة تبديل عالم غليظ شديد الغلاظة، عالم

---

(١) سورة المزمل (المؤلف)، الآية: ٥ (المحقق).

مخيف، في صحرائه الشاسعة، وجباله، وتلاله، وهضابه، وبشره، وأحيائه.

ومن المؤكد أن تناول أي موضوع يتعلق بالرسول من قبل عالم دين يختلف كثيراً عن تناوله من قبل مفكر أوأديب غير مُتصف باللاهوتية، على النحو التقليدي لها.

ومن حق كل صاحب قلم حر أن يكتب عن النبي الكريم، لأثبات فكرة حقانية واستخلاص اعتبارات أساسية، في النطاق الذي يستطيع التوفّر له، لأن ما من مؤلف يستطيع الاحاطة - كل الإحاطة - بحياة النبي، واشعاعاته. فالكتابة عن محمدﷺ هي جزء من علم، وهي في كل هذا، وغير هذا، مسؤولية، يحق للجميع المشاركة فيها، وتبادل المعرفة بصددها.

وعلى كثرة المؤلفات العتيدة التي تخصصت في بحث ومتابعة حياة النبي، بدا (أوخيّل للبعض) ان لا جديد تمكن إضافته في أي مؤلّف أودراسة، أوبحث يُكتب عن النبي.

وفي الواقع، ان ذلك خطأ كبير، لأمرين: الأول: ان رسم الصورة المعروفة في السيرة النبوية، بتكرارية غير تقليدية هو وظيفة ثقافية وفكرية، لأن الفنان والأديب لا يقدمان صوراً معروفة، متكررة كثيراً، بل هما يضيفان، بلمسات البيان والابداع، على أخبار السيرة النبوية، ألواناً تبرز عظمة الظاهرة النبوية، التي تعجز - غالباً - الكتابات الوصفية، الاستطرادية، المكررة عن إظهارها بجلاء.

إن شعاعاً خارقاً، قد لا يتجلى للأبصار، في الظهيرة، وامتلاء الفضاء

بالاضواء، كيف إذن، يستطيع الناظر إدراك خراقة ذلك الشعاع؟

إنه - أي الفنان والأديب - قد يلجأ إلى اطفاء الأضواء جميعاً (وهي الاضواء الاعتيادية) كي يكشف عن إمتياز الشعاع العجيب، الجديد.

فهو - الفنان، الأديب - يعيد ترتيب الصور حسب الضرورات الفكرية، التي يركز عليها، وحسب شروط الموهبة الابداعية.

من هنا نرى فارقاً كبيراً بين كتابة وأخرى، عن النبي محمدﷺ، بسبب التباين في الافكار أولاً وفي الأساليب ثانياً.

وأحياناً، حين تكون الافكار متشابهة، فإن اختلاف الأساليب يفرض ظلّه على تلك الافكار المعروضة. وعادة، يكون ذوالأسلوب الأكثر شفافية، وجمالية هوالأكثر تأثيراً.

إن الاسلوب قادر على كسب القضية، حتى في ميادين التشابه الفكري. للتبسيط، يمكن عرض أحد الأمثلة هنا. اعتادت كتب التأريخ التقليدية تقديم سرود عن معارك بدر وأحد والخندق، بطريقة دفعت العديد من الطلبة إلى الوقوع في دائرة الضجر، وعدم الحماس.

في حين، كان بإمكان أديب بارع، تقديم صور تلك المعارك الكبيرة على نحومؤثر، يُغني أفكار الطلبة، ويوسع مداركهم، بواسطة الأسلوب الفني الفعّال.

أما الأمر الثاني فهو ان حياة النبي وتأريخه ليسا مختومين بشمع الغلق، إنما هما منطويان على كل جديد، ورؤية جديدة، لأنهما معروضان أمام الحاجة

البشرية بلا حدود.

واختلاف كتب السيرة، في العديد من التفاصيل المهمة والأقل درجة، هودليل على ان تأريخ النبي أكبر من أن يُستوفى في تلك المؤلفات الضخمة.

هنا - في هذا الكتاب - درجتُ على عدم التقيد بتسلسل الأخبار والحوادث، التي تمسك بها العديد من الكتاب (وهم، على حق طبعاً بسبب تطلبهم للسرد التأريخي)، ذلك بسبب إنطلاقي من فكرة، هي الفكرة المركزية للكتاب، والتي تدور حول النظرية (العقيدة، الأفكار المحمدية)، والتطبيق (الممارسة، النشاط المحمدي)، بكونهما (أي النظرية والتطبيق، العقائدية والنشاط الفعلي) يمثلان أبلغ صور التزاوج، والاندماج، والتفاعل في حياة النبي محمدﷺ.

وبوحي من ذلك المنهج، كان لابد من توزيع الأخبار، والحوادث، ووقائع الكلم الرفيع، حسب متطلبات الهدف المعبّر عنه هنا، لاحسب متطلبات التسلسل الزمني.

وفي العلاقة الجدلية الهائلة بين عقائدية محمد، وممارسته التطبيقية، تتضح الأعجوبة في التواترات المتعارضة، وكيفية حسمها.

ففي مقاومة النبي لواقع جاهلي، صحراوي، همجي، تجاري، قاسٍ، شديد القسوة، من جميع الوجوه، والجوانب، والجهات، كان لابُد من القسوة والشدة. فكان على محمد - الذي جُبلت نفسه على الرحمة - أن يكون شديداً، لاجراء التغيير، وكان عليه - في الوقت ذاته - أن يحمي شجرة الرحمة، والرقة في نفسه. وهذا أمر عجيب حقا، رغم ما يبدوعليه من بساطة ظاهرة في هذه الكلمات.

ذلـك لأن الاشـخاص العظماء الذين اضطرّوا إلى إنتهاج الشدة في التغيير السياسي والاجتماعي والعسكري، أدمنوا على اسلوب العنف، ولم يتعهدوا الرقة والـرحمة (والعواطـف الانـسانية الجليلة) بأية عناية تـُذكر. لقد سقطوا نهائياً في تيار الخشونة، والقسوة.

وقلـيل، اولـئك العظـماء الـذين سـاروا على نهج محمدﷺ في التوفيق بين الـشدة التـي يتطلبها إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وبين الرقة، والرحمة، لصالح الرحمة الواسعة للعالمين.

وفي سـيرة محمد – وهذا ما أود التأكيد عليه باعتباره دافعاً قوياً من دوافع الكـتاب – تجد المعضلات الصعبة والصعبةً جداً، أبسط الحلول واكثرها فاعلية. إن البـساطة بادية هنا، في التدفق العضوي للحلول، وفي خضم المشكلات ذاتها. أي بـساطة مـثل بساطة رضاعة أم لطفلها، مثل التلاؤم بين حليب ثديها وحاجة الطفل إلى ذلك الحليب.

ولا مفـر مـن القـول ان الكثـير مـن الأمور التي بدت صعبةً ومعقدة، في الـتاريخ الإسـلامي، هـي مـن عمل بعض الفقهاء المتزمتين، الذين لم يستوعبوا الحكمة المحمدية: «ما أنا الا رحمة مهداة».

لقـد عثـرت في هـذه الحكمـة عـلى أهمـية الديمقراطية والعلاقات الحرة، المتكافـئة، ومتبادلة الالتزام بين العقائد والافكار الدينية والانسانية، وبين الأمم والقوميات، وبـين الـناس، الافـراد مـع الافـراد، ذلـك لأن الأرض هي إرث الـصالحين، المؤمنـين بقـيمة الإنسان، وبالتالي بقدسية حقه في التفكير، والتعبير،

والتعايش.

وثمة عامل آخر، موضوعي حتماً، ونقدي تماماً. ذلك هو إني وجدت غالبية المثقفين التقدميين، والمعاصرين، يتوجهون نحودراسة فكر غربي، وأدب غربي، ويتعاطون ثقافة تتناول دانتي، وشكسبير، ودستويفسكي، وفلوبير، ومالارمه، والتوسر، وفوكو، وآخرين، في حين يغضون النظر عن حقائق التاريخ والمعرفة التي تتعلق بالرموز العظيمة في تاريخهم العربي، وفي المقدمة من كل ذلك النبي العظيم.

لقد أثّر ذلك الموقف اللاثقافي (بل المضاد لكل أصالة ثقافية، قومية) على التوجهات الثقافية للشبيبة، التي بات يسحرها الحديث عن رامبو، وجان جينيه، واسماء أخرى، وتتجاهل خصوصيتها الثقافية وتاريخ شعبها الثقافي.

من الممكن (ومن الواجب دوماً) ان تتعلم الشبيبة ان عشقها للأدب الغربي الإنساني لا يتعارض مع اطلاعها (الضروري) على العمق الأصيل لتأريخ الثقافة العربية، والفكر العربي.

إن تاريخ محمد والصحابة، وعظمة الإسلام: جماهير وحركات وقادة ليس تاريخ في ذمة الماضي، ليس ماضوية مقطوعة الصلة بالحاضر، إنما هوتاريخ كامل الغنى وهو يمثل أعمق خصائص الأمة العربية عبر التاريخ.

لقد هالني ان كتاباً ومثقفين يتصيدون حكم (لارشفوكو) ومواعظ وحكم كُتاب الغرب، في حين لا يعلمون شيئاً عن الأحاديث النبوية العظمى، ذلك جهل مروع، وأخطر ما فيه انه جهل مقصود، مع سبق الاصرار. إنه الخلل

الأعظم: النمو بدون جذور، وبدون تربة، نمو(الهوام)!

من الناحية المنهجية، رغم أني اخترت تسلسلاً محدداً للعقائدية، وللممارسة العملية، إلا ان ذلك لا يفي بالمرام، كما انه لا يوفر - في البحث - إنتظاماً دقيقاً، ذلك لأن الترابط بين العقيدة والممارسة من نوع لا يمكن فصل بعض حلقاته عن البعض الآخر.

بكلمة أخرى، من غير الممكن تناول العقيدة وتطورها في سياق خاص، مفروز، كما لا يمكن تناول الممارسة التطبيقية في ميادينها الخاصة المؤشرة، لأن التداخل بينهما ذَرّيٌّ، وعضوي منذ المنشأ وحتى اللحظة الأخيرة.

من ذلك البيان، تبدو - ولابد - بعض التداخلات ضرورية، وليست خاضعة للتقسيم الذي أردته، رغم أنه - أي التقسيم - كان رفضاً للتقسيم السردي للسيرة على النحوالتقليدي المعروف.

ان جوانب حياة عظيمة، هي حياة محمد النبي الكريم، تستحق التفاني في دراستها، والتفاني في إبراز معالمها المنيرة، من منطلق الإقتدار الابداعي، فالمؤرخ يؤرخ، والأديب يعرض ثقافته الأدبية. وكل ذي اختصاص يتناول الجانب الذي يشاء من زاوية إختصاصه.

ولابأس من القول أن أسهل الكتابات هي الكتابات السردية الروتينية. أما كتابات الافكار فهي الكتابات المتفانية، التي تلهج وراء الحقيقة، الحقيقة بكل وجوهها المتميزة: الحق، العدل، الجمال، الجلال، الحكمة، الكرم، التضحية، الخ...

وكل كتابة حقيقية هي كتابة أفكار، سواء أكان الموضوع المكتوب في التاريخ، أم في السياسة أم في الأدب، أم في أي حقل آخر من حقول المعرفة. لتكن بمستوى الأمل، في أن نرصد أفكارنا جيداً، ثم نعرضها بأمانة، في الشروط الثقافية المتيسرة.

عزيز السيد جاسم

رمضان ١٩٨٦

(١ - ٣٠)

الفصل الثاني

مولد الحق

مولد الحق

مكة: المدينة المتكبرة

في وادٍ ضيق طويل غير ذي زرع، قامت مكة، تلك المدينة المعاندة، التي لم تستطع الجبال التي تحيط بها ان تعصرها، لأنها كانت لا تقل عنها قساوة وصلابة وارتفاعاً.

لا يعلم احد، متى تأسست تلك المدينة الشامخة، كما لا يدري احد لماذا امتلكت كل الشموخ الذي اتسمت به، رغم انها لا تحوي القلاع الضخمة، ولا الآثار العظيمة، ولا الدهاليز السرية.

كذلك لا يدري أحد كيف طرقت أبواب ذاكرة التاريخ منذ آلاف السنين، دون أن تمتلك علامات فارقة، في النظام السياسي، والقضاء، والعمران.

لقد كانت - في الواقع - موقعاً أجرد، مجهولاً، لكنها، كانت - في الحقيقة- مكاناً معلوماً، كأنّها مع القدر في عناق، وعلى اتفاق. كانت مكة محرومة من الزراعة لأن مواسم المطر فيها متقطعة، مبلبلة، يطاردها الهجير الأبدي، والحرارة اللعينة التي تشوي بيوت الطوب، وتعتصرها إعتصاراً.

بيوت مشيّدة على الرمضاء، استهلكهاالتبخر، فلم تعرف نعمة الماء

الوفير، تلك كانت مكة.. محصورة من عمق الأرض، من قبل الجفاف الذي كان سيد المنطقة، لحرمانها من الأنهار.

ولولا ماء بعض العيون، لكانت مدينة للجماجم والعظام والأحجار المبعثرة. في واقعها، كانت مكة لا معنى لها ولا وجود في حساب الدول والمدن المتحضرة، فأي معنىّ يمكن ان تكتسبه مجموعة بيوت لا تقل وحشةً، عن القفار التي تحيط بها، بجبالها، وكثبانها، وفضائها المدلهم، الذي تملأه سحب الحر اللافح، والسرابات التي تميت انشودة الحياة، كأنها غيوم الأفيون المخدرة والمعتمة؟!

لكن مكة، كانت تحمل - في ذاتها - معناها القدري الخاص... لقد فرضت نفسها على جغرافية المكان، وعلى حضارات الدول والمدن الأخرى، بدون شروط، وبدون مزايا ظاهرة.

لقد قدمت تلك المدينة من بطن التاريخ القديم كصورة ناقصة، مبهمة، كان مقدراً لها ان تكتمل يوماً ما، فتصبح صورة صارخة تدور نحوها اعناق ورؤوس ملايين البشر في جميع ارجاء المعمورة.

أوشكت الجبال ان تخنق مكة لولا بعض المنافذ التي جعلت المدينة على إتصال بالطرق المتجهة من الشمال إلى الجنوب، من الشام إلى اليمن، فكانت للمدينة مكانة تجارية قاسية. لأن التجارة إذا لم ترتكز على أرضية إقتصادية فتية، تغذيها الزراعة، والري، وتدعمها السلطة المركزية والقانون، ليست غير فعالية إقتصادية ثانوية، قياساً إلى تجارات المنشأ. فهي مجرد محطة في تقاطع وإتصال الطرق التجارية الطويلة التي كانت تنتقل عليها صادرات البلدان والمدن

المتواصلة فيما بينها في مبادلات تجارية مدعومة بالزراعة والصناعة.

حقاً، كانت ولادة النبي العظيم محمدﷺ قد نقلتها من دائرة النسيان والمجهولية، إلى دائرة الشهرة، إنما قبل ذلك كانت مكة مكان الاغراءات الغامضة. فما هوالداعي - مثلاً، إلى ان يذهب (إبراهيم)، المولود في العراق، من أب نجار (كان يصنع الأصنام من الخشب ويبيعها)، إلى وادي مكة، الأجرد، المقفر، حبيس الجبال، والنائي عن الحواضر، ومواطن الكلأ والماء، آخذاً معه إبنه (اسماعيل) وامه (هاجر)؟! ثم، لماذا يترك ابراهيم ولده اسماعيل وأمه هاجر في ذلك الوادي الكئيب،الذي لم يوفر لهما مصدر قوت متواضع، بل بخل عليهما حتى بالماء؟

فحينما اصاب العطش اسماعيل، بعد ان نفد الغذاء والماء الذي تركه لهما ابراهيم، أخذت هاجر تبحث عن ماء، مهرولة في الوادي بين الصفا والمروة، حتى تملكها الأسى واليأس، فكرّت عائدة إلى اسماعيل، فكانت قد وجدت - بقدرة الرب - نبع ماء يتدفق من تحت قدم ابنها اسماعيل[1] الذي كان يجسُ

---

(١) كان من حديث رسول اللهﷺ ما حدّث به زياد بن عبد الله البكائي وعنه محمد بن اسحاق، قال: كانت جرهم دفنت - زمزم - حين ظعنوا من مكة، وهي بئر إسماعيل بن ابراهيمعليه السلام التي سقاها الله حين ظمئ وهوصغير، فألتمست له أمه ماءً فلم تجده، فقامت إلى الصّفا تدعوالله وتستغيثه لإسماعيل، ثم أتت المَرْوة ففعلت مثل ذلك. وبعث الله تعالى جبريلعليه السلام، فهمز له بعقبة في الأرض، فظهر الماء، وسمعت أمه أصوات السّباع فخافتها عليه، فجاءت تشتدّ نحوه، فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خدّه ويشرب، فجعلته حِسياً. انظر السيرة النبوية لأبن هشام ق١، ج١، ص ١١٠-١١١ (المحقق).

الأرض، جسّ الضجير، واللاهي، الذي يحرق العطش احشاءه؟!

وتحل بركتان في الوادي المعتم، بركة اسماعيل الذي تزوج امرأة جرهمية، فولد له منها اثنا عشر ولداً، هم الذرية التي قيض لها أن تنتشر على البّطائح العربية[1]، أما البركة الثانية فهي عطاء ماء زمزم الذي أضفى على الوادي المعتم نعمة لا تُقدر[2].

---

(١) قال أبن هشام عن محمد بن اسحاق: وَلَدَ اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام أثني عشر رجلاً: نابتا، وكان أكبرهم، وقيذر، وأذبل، ومبشا، ومسمعا، وماشى، ودمّا وآذر، وطيما، ويطور، ونبش وقيذُما، وأمهم (رَعلة) بنت مُضاض بن عمرو الجرهمي(المحقق).

(٢) وقصة حفر بئر ماء زمزم وكما نقل عن الإمام علي عليه السلام، قال ابن هشام عن ابن اسحاق.. عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال عبد المطلب: أني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ، فقال: أحفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر برّة، قال: وما برّة؟ قال:ثمّ ذهب عني فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاء في فقال: أحفر المظنونة، فقلت: ما المظنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تُذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.. فعدا عبد المطلب ومعه أبنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين، إسافٍ ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر، فقامت اليه قريش حين رأوا جدّه، فقالوا: والله لا نترك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبد المطلب لأبنه حارث: ذُد عني حتى أحفر، فوالله

لكـن ماء البئر ليس كمياه البحار والأنهار، التي توفر للمواقع المنشأة على ضفافها حضارات، وثقافات عقلية، فشتان ما بين ماء بئر وماء بحر أو ماء نهر.

لأمـضينّ لمـا أمـرت بـه، فلـما عرفوا أنه غير نازع، خلو بينه وبين الحفر، وكفّـوا عنه، فلم يحفـر إلا يسيراً، حتى بدا له الطيّ، فكبّر وعرفوا أنه قد صُدِق - ويكمل ابن اسحاق قول عـلي عليه السلام - فلـما تمـادى بـه الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنت جُـرهم فيها حين خرجت من مكة، ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدراعاً؛ فقالت له قريس يا عـبد المطلـب، لـنا معـك في هـذا شِركٌ وحـقّ، قـال: لا، ولكن هلُـمّ إلى أمرٍ نصفٍ بيني وبيـنكم: نـضرب علـيها بالقداح؛ قالوا: وكيف تصنع؟ قال: اجعل للكعبة قدحين، ولي قدحـين، ولكـم قدحـين، فمـن خـرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحـين أبيضين لقريش ثم أعطوا (القداح) صاحب القداح الذي يضرب بها عند هـُبل (وهُـبل: صـنم في جـوف الكعـبة، وهـوأعظم أصـنامهم، وهوالذي يعنى أبوسفيان ابن حـرب يـوم أحـدُ حـين قـال: أعـل هـبل: أي أظهـر ديـنك) وقام عبد المطلب يدعوالله عـزوجل، فـضرب صـاحبُ القـداح، فخـرج الأصـفران عـلى الغزالين للكعبة، وخرج الأسـودان عـلى الاسـياف، والأدراعُ لعـبد المطلـب، وتخلّـف قدحا قريش، فضرب عبد المطلـب الأسـياف بابـا للكعـبة، وضرب في البـاب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حـُلّيـته الكعـبة، فـيما يزعمون، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجّاج.أنظر المزيد مـن التفاصيل وبالخصوص موقف قريش السلبي من عبد المطلب في السيرة النبوية لأبن هـشام، النسخة المحققة (مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي) ق١، ج١ ، ص: ١٤٢-١٤٧(المحقق).

وبئر زمزم مطوق من كل الأركان بكتل الحجارة، بالجلاميد، بالجبال والهضاب، والزمن الثقيل، فكان طبيعياً ان تكون المكانة الأولى للاوثان في عالم الحجر، أما في عالم المياه، فان الوثن يهرب بعيداً، لأن في الماء سر الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

ربما لوقامت مكة على ضفاف البحر الاحمر لكانت غير مكة الوثنية المتكبرة. ومن المؤكد - لوحصل ذلك - ان بئر زمزم ما كان ليكتسب كل تلك القداسة الفريدة.

لكن في المدينة الصحراوية، الساخنة تماماً، والتي يغطيها الحر كطبقات من غضب كوني عميم، كان ماء زمزم يشهد تاريخ المدينة التي صنعت الوثن.

فاصبحت القداسة الوثنية امتيازاً فريداً لمكة المحاطة بالحضارتين الفارسية والرومية، وبالديانات اليهودية والنصرانية، دون ان تفتح ولونافذة صغيرة إلى أحد.

لقد ظلت تلك المدينة اختراعاً وثنياً، وبناءً وثنياً، لا تأبه للديانات التي انتشرت حولها، فتطابقت مع اصنامها كصنم اكبر، ولم تتحرك قيد شعرة عن هبلها، ترى أي لغز كانت تصوغه تلك المدينة العجيبة؟ أوهل كانت تدخر نفسها لدور قادم؟

وتصنع الوثنية رموزها، اصناماً وأوثاناً ونصباً، حتى تتجاوز الثلاثمائة وستين. ويبلغ التحدي الذروة، لا عندما اغلقت ابوابها ونوافذها بوجه اليهودية

---

(١) قرآن الكريم. (المؤلف) سورة الأنبياء، آية: ٣٠، (المحقق).

والنصرانية، فقط، بل عندما مرت تجربة بناء الكعبة مروراً غير مؤثر على الصمود الوثني لمكة المتجبرة.

لقد اراد ابراهيم وابنه اسماعيل، الهدى للناس فشيّدا الكعبة، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[1].

وأراد ابراهيم وابنه اسماعيل ان تكون الكعبة تطهيراً من الرجس الوثني وحثاً على الايمان بالوحدانية:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

كانت فكرة ابراهيم واسماعيل ان تكون الكعبة بيت الله، لكن الإرادة الوثينة المكية كانت طاغية طغياناً قدرياً عجيباً. فما ان غادر ابراهيم، ومات اسماعيل، حتى امتلأت الكعبة بالأصنام والأوثان والنصب. وأصبح لكل قبيلة

---

(١) سورة آل عمران (المؤلف) سورة آل عمران، آية: ٩٦-٩٧ (المحقق).

(٢) سورة البقرة (المؤلف) سورة البقرة، آية: ١٢٥-١٢٧ (المحقق).

أوعدة قبائل متحالفة اصنامها وأوثانها.

كانت مكة تبالغ في تطرفها الوثني، فما استجابت إلى نداء التوحيد الابراهيمي، ولا إلى صيحات اسماعيل وأهل مكة من ذريته، وصلبه.

هكذا صنعت المدينة (مكة)، نفسها: بنية وثنية وعقلاً وثنياً، ونشاطاً وثنياً مكرساً أتم التكريس حول المكعب الأسود: «الكعبة» الذي بلغ من تقديس أهل مكة له أنهم لم يشيدوا دورهم حولها، في (الحرم)، واختاروا التشييد في (الحِل).

بتلك المهابة كانت الكعبة وهي في حوزة الوثن عنوةً. وتتكامل عناقيد الوثنية في النظرية والتطبيق، في الفكرة والسلوك، فيُصبح وادي مكة الذي كان مربطاً للخيول والأبل؛ مركزاً وسيطاً للتجارة؛ ويدخل ساحة اللعب الوثن الأكبر: المال، فيعزز من جبروته، هبل واللات والعزى، لأن سلطة المال تحتاج إلى سندها النظري والدعائي، فتم التوظيف المتبادل بين الوثنين: وثن المال، والصنم، فتكاملت أطراف الايديولوجية الوثنية.

وثن المال يطرد البداوة:

ونشأت الوظائف الأساسية للوثنية المتكاملة، إذ اكتسبت كل مهمة وثنية دلالة مادية، ومالية، وسلطان المال شديد الاتساع، فاذا كف عن ذلك اصابته الوعكة، والأزمة.

ويطرد سلطان المال - عادة - العادات المقدسة، فاهمل اهل مكة ماء

زمزم، وطمر الجرهمي (مضاض بن عمرو)[١] الذهب في موقع البئر في تعمية وتضليل، فكان ان اجتمّع في مكة الفسقان: فسق الوثنية، وفسق الذهب اللعين الذي فتح العيون على أغرب الأساليب في تحصيل المال، وكنزه.

ومنذ ذلك الحين نشأ (الربا) كواحد من أشنع الأساليب الاستغلالية، واللصوصية التي اصبحت عرفاً وطريقة معتادة.

وذهب العماليق، وجاء بعدهم الجرهميون، ثم أتت خزاعة[٢]، قبل قريش،

---

(١) والصحيح هوعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهميّ، يقول ابن اسحاق: فخرج عمر بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن، فدفنها في زمزم، وأنطلق هوومن معه من جُرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث (بن عمرو) بن مضاض في ذلك، وليس بمضاض الأكبر:

وقائلةٍ والدمع سكبٌ مبادرُ ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجرُ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنّا أهلها فأزالنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابتٍ ... نطوف بذلك البيت والخيرُ ظاهرُ
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا ... فليس لحيّ غيرنا ثمّ فاخر
ألم تُنكحوا من خير شخص علمته ... فأبناؤه منّا ونحن الأصاهر

ويقول ابن هشام: قوله:«فأبناؤه منا» عن غير ابن اسحاق، انظر السيرة النبوية لإبن هشام ق ١، ج١، ص: ١١٥-١١٦ (المحقق).

(٢) بعد أن أنتهى عهد الجرهميون في مكة وذهابهم إلى اليمن، وحلت السلطة بيد خزاعة،

ناشدهم عمرو بن الحارث:

يـا أيهـا الـناس سـيروا إن قـصركم ... أن تُـصبحوا ذات يـوم لا تـسيرونا

حـثّوا المطـيّ وأرخـوا مـن أزمـتّها ... قـبل المـمات وقـضّوا مـا تقـضّونا

كـنّا أناسـاً كـما كنـتم فغـيّرنا ... دهـرٌ فانـتم كـما كـنّا تكونـونا

وقد زاد بعضهم على هذه الأبيات:

ان التفكـر لا يجـدي لـصاحبه ... عـند الـبديهة في علـم لـه دونـا

فأستخيروا في صـنيع الـناس قـبلكم ... كـما اسـتبان طـريق عـنده الهـونا

كُـنا زمانـاً ملـوك الـناس قـبلكم ... بمـسكنٍ في حـرام الله مـسكونا

ويـروى ان هـذه الأبـيات (أعـلاه) مكتوبة على حجر في بئر باليمامة ووجدوا أيضاً معها على حجرٍ آخر قصيدة يقول فيها كاتبها:

يـا أيهـا الملـك الـذي ... بالملـك سـاعده زمانـه

مـا أنـت أول مـن عـلا ... وعـلا شـئون الـناس شـانه

أقـصر علـيك مـراقباً ... فالدهـر مخـذول أمانـه

كـم مـن أشـم معـصب ... بالـتاج مـرهوب مكانـه

قـد كـان سـاعده الـزمان ... وكـان ذا خفـض جـنانه

تجـري الجـداول حـوله ... للجـند مـترعة جفانـة

قـد فاجأتـه منـية ... لم يـنجه مـنها اكتـنانه

وتفـرقت أجـناده ... عـنه ونـاح بـه قـيانه

والدهـر مـن يعلـق بـه ... يطحـنه مفترسـاً جـرانه

والـناس شـتى في الهـوى ... كالمـرء مخـتلف بـنانه

ومكة سادرة في جحودها الوثني، وتجبرها المالي مستفيدة من موقعها التجاري المتزايد، ومن مكانتها المقدسة التي تنامت بفعل حجابة الكعبة والسقاية، التي تضاءلت بعد حين، أمام نفوذ المال.

وتطورت مكة، وغيَّرت شكلها عدّة مرات، إلا ان جوهرها الوثني ظل راكزاً. مثلها في ذلك مثل كعبتها المقدسة ذاتها. فهي في كل مرة تتعرض للتجديد، بعد أن تنال منها يد الزمان، إلا ان البناء يقام على الأسس الأولى، على قواعد ابراهيم واسماعيل.

وتتكرر الدورات على نفس السكة القديمة، وتنعقد أواصر قطعية بين رؤساء القبائل والأصنام. ويضحى رئيس القبيلة صنمها الاجتماعي والاقتصادي، اما الوثن فهو المعبود الذي تقدم له القرابين.

وتتحلل البداوة والبراءات الفطرية الأولى، وتتلاشى امام تعاليم الثروة والسيادة الاقتصادية الجديدة. فالجرهميون الذين شيدوا بيوتهم في (الحل) وليس في (الحرم)، تقديساً للكعبة، ذهب بهم الزمن المكي الجديد.

وحينما استلم القرشيون الزمام، اقتربت البيوت من الحرم، وأحاطت بالكعبة. إنما كان ذلك - فقط - من حق قريش (البطاح) فيما سكن الآخرون من

والصدق أفضل شيمة ... والمرء يقتله لسانه

والصمت أسعد للفتى ... ولقد يشرفه بيانه

انظر ابن هشام في سيرته النبوية ق١، ج١، ص: ١١٦ (المحقق).

قريش خارج مكة وهم قريش (الظواهر). وتفرض سلطة المال نفسها، مستعينة بالعقيدة الوثنية، وتحصل ظاهرة مزدوجة هي ظاهرة التحالف والانقسام.

التحالف بمعناه الطبقي بين قبيلة وأخرى، أوبين قبيلة ودولة اجنبية. والانقسام الداخلي ضمن القبيلة الواحدة، وبين الأغنياء والفقراء الذين كانوا نهباً للجوع والحرمان.

وقد دخلت قريش الأتون، أتون المصالح الرئاسية والمالية، فكان موت (قصي) إيذاناً بالإنشقاق بين أبناء عبد مناف، وابناء عبد الدار، حين تولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولاها ابناؤه من بعده، «لكن ابناء عبد مناف كانوا أشرف في قومهم واعظم مكانة. لذلك أجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنوعبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدي ابناء عمومتهم، وتفرق رأي قريش: تنصر طائفة هؤلاء وأخرى اولئك. وعقد بنوعبد مناف حلف المطيبين[1]، لأنهم غمسوا أيديهم في طيب جاءوا به إلى الكعبة وأقسموا لا ينقضون حلفهم. وعقد بنوعبد الدار حلف الاحلاف. وكان هؤلاء واولئك يوشكون ان يقتتلوا في حرب تذيب قريشاً لولا ان تداعى الناس إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار. ورضى الفريقان بذلك. وظل الأمر عليه إلى ان جاء الإسلام»[2].

---

(١) انظر ابن هشام في سيرته ق١، ج١، ص: ١٣٢ (المحقق).

(٢) فقال رسول اللهﷺ: «ما كان من حلفٍ في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدّة» ويعلق

سادن الكعبة: عبد المطلب

كانت شخصية عبد المطلب امتداداً رحباً لأصل الدوحة الهاشمية، فهوابن هاشم الذي ثرد الثريد لأهل مكة عندما حل بهم الجدب، وهوالجواب الكبير في رحلتي الشتاء والصيف، الذي كان نشاطه التجاري يُنهضُ مكة من خندقها العتيد الذي لم تبارحه. وكان عبد المطلب سيداً حراً، لكن تسميته كانت خطأ. فقد توهمت قريش انه عبد من العبيد جاء به (المطلب) من يثرب مردفاً إياه على بعيره وما كان هو كذلك. فقد كان ابن اخيه هاشم[1] من سلمى بنت عمروالخزرجية التي رآها في يثرب في احدى جولاته التجارية فاعجب بها،

محقق السيرة النبوية لابن هشام: يريد - رسول الله ﷺ - المعاقدة على الخير ونصرة الحق، وبذا يجتمع هذا الحديث وحديث آخر له ﷺ، وهو: «لاحلف في الإسلام» على ان يكون المراد من هذا الحديث الثاني: النهي عما كانت تفعله الجاهلية من المحالفة على الفتن، والقتال بين القبائل والغارات، وقيل: ان الحديث الثاني وهو «لا حلف في الإسلام» جاء لاحقاً، قاله الرسول ﷺ في زمن الفتح، فهوناسخ للحديث الأول (عن لسان العرب:حلف) انظر ابن هشام في السيرة ق١، ج١، ص: ١٣٢-١٣٣ (المحقق).

(١) يقول ابن هشام كان هاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش: رحلتي الشتاء والصيف وأول من أطعم الثريد بمكة، وإنما كان اسمه عمراً، فما سمّي هاشمياً إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه، فقال شاعرٌ من قريش أومن بعض العرب:

عَمر الذي هَشَم الثريد لقومه ... قوم بمكّة مسنتين عجاف

سنّت اليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وعن ابن اسحاق: كان يسمى بالفيض لسماحته وفضله. انظر السيرة لابن هشام ق١، ج١، ص: ١٣٦-١٣٧ (المحقق).

وتزوجا، فكان ان انجبت له ابنه (شَيْبه)، الذي ظل في عهدتها في يثرب.

فضاع الاسم الحقيقي (شيبة)، وتمسك الناس بافراز اجتهاداتهم العجول فاصبح الاسم عبد المطلب جارياً[1].

---

(١) كانت أم عبد المطلب؛ سلمى بنت عمرو أحد بني عديّ ابن النجار تزوجها هاشم وولدت منه «عبد المطلب» فسمّته (شَيبة) وسمي شيبة لشيبة كانت في رأسه، ويكنى بأبي الحارث أكبر ولده.

يقول ابن هشام تركه هاشم عندها حتى كان وصيفاً (= الغلام دون المراهقة) أوفوق ذلك، ثم خرج اليه عمه المطلب ليقبضه فيُلحقه ببلده وقومه، فقالت له سلمى: لست بمرسلته معك، فقال لها المطلب: إني غير منصرف حتى أخرج به معي، إن ابن أخي قد بلغ، وهوغريب في قومه، ونحن أهل بيت شرف في قومنا، نلي كثيراً من أمورهم، وقومه وبلده وعشيرته خيرٌ له من الإقامة في غيرهم، أوكما قال، وقال شيبة لعمّه المطلب – فيما يزعمون – لست بمفارقها إلا أن تأذّن لي، فأذنت له، ودفعته اليه، فأحتمله فدخل به مكة مُرْدِفه معه على بعيره، فقالت قريش: عبد المطلب ابتاعه، فيها سمّي شيبةُ عبد المطلب، فقال المطلّب: ويحكم! إنما هوابن أخي هاشمٍ قدمت به من المدينة، انظر أبن هشام، ق ١، ج١، ص: ١٣٨.

وقال ابن هشام: ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرّفادة بعد عمّه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يُقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرفُ في قومه شرفاً لم يبلغه أحدٌ من آبائه، وأحبه قومُه وعظم خطره فيهم. انظر ابن هشام ق١، ج١، ص:١٤٢.

وقال عنه ابن هشام أيضاً: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم. ابن هشام ق ١، ج١، ص:٤٩ (المحقق).

وكانت تلك المفارقة الأولى في حياة شخصية قرشية عظيمة هي شخصية عبد المطلب، التي جمعت الطيبة والكرم والشجاعة والذكاء، والحرص على أمن قريش؛ وعزتها ووحدتها.

وبسبب ما اتسمت به نفسه من امارات الذكاء والسماحة والبذل والخلق الكريم، فقد كانت تزوره الرؤى، وهويقلب النظر في آلت اليه حال مكة.

لقد اقلقه حرمان مكة من سقاية الماء بعد ان انطمست معالم بئر زمزم واخبارها. ولم يكن القلق مجرد انشغال بضرورات الحياة المادية، وإعادة الاعتبار إلى مكانة مكة في سقاية الحجيج، بل هو - أيضاً - هاجس روحي موروث يمتد أصل خيطه إلى اسماعيل الجد الأكبر، وكل الابناء والأحفاد الذين تطهرت انفسهم وازدادت رقة وشفافية.

وجاءه الحلم، فيقول عنه: «**اني لنائم إذ اتاني آت فقال: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ فذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: إحفر برة. فقلت: وما برة؟ فذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر المضنونة. فقلت: وما المضنونة؟ فذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني، فقال: إحفر زمزم؟ فقلت: وما زمزم؟ فقال: لا تنزف ابداً ولا تذم، تسقي الحجيج الاعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الاعصم، عند قرية النمل**»[1] وتكرر

---

(١) عبد الرزاق نوفل، محمد رسولاً ونبياً (المؤلف) وانظر ابن هشام، ق١، ج١، ص:١٤٢ (المحقق).

الهاتف، وهوحائر في تفسير الحلم، و«لكن ما بال هذا الهاتف وقد جاءه بالبشرى وتكررت زيارته؟ أيكون ذلك أمراً من الله وبشرى منه سبحانه؟ وهل طيبة هذه قالها الهاتف للطيبين والطيبات من أحفاد ابراهيم؟ وبرّه.. الا أنها فاضت للأبرار؟.. ومضنونة.. أليست هي وقفاً للحجاج ولا يقربها غيرهم، فهي تضنى على غير الحجاج وسكان جوار بيت الله بالماء.. فهل يجد بئراً لا تنزف، أي لا يفرغ ماؤها أبداً، ولا تذم، أي لا يصبح ماؤها غوراً أبداً؟

وخرج عبد المطلب وقد شغله الهاتف، وقد اشفق على نفسه من أن يقصه على غيره فيكون موضع الحديث الذي قد لا يتحقق، وذهب كعادته إلى بيت الله فوجد في المكان المخصص لذبح الانعام التي تهدى إلى الكعبة لتوزيع لحمها على الفقراء وبين بقايا الفرث في بقعة والدم في بقعة أخرى، غراباً يمتاز على غيره ببياض في إحدى رجليه، ينقر الأرض في هذا المكان يسمى قرية النمل..»[1].

وبمعوله اخذ يحفر في المكان المحدد رغم انف قريش الذين لولا هيبة عبد المطلب لما سمحوا له ان يفعل ما فعل في مكان أصنامهم المعبودة، وليس من يسنده ويعينه غير ابنه الحارث[2].

النذر الخطير:

كان يحفر ويفكر بحسرة: لوكان لديه أولاد اكثر، هم قوة له في مكانته

---

(١) المصدر ذاته (المؤلف).

(٢) سيرة ابن هشام، ق١، ج١، ص:١٤٥ (المحقق).

الاجتماعية، في السلم وفي الحرب، وفي تأدية الاعمال المتعددة التي كانت تقررها مسؤولياته الكبيرة.

«ألا تهبني يا رب عشرة من الولد واذبح لك واحداً منهم قربي وقرباناً؟».

هكذا رفع نداءه إلى السماء، وتدفق عطاء الأرض قبل عطاء النسل، فكان ماء زمزم يترقرق مندفعاً نحوالاعلى صافياً، مشعاً، كأنه براءة الانبجاسة الاولى تحت قدمي الطفل اسماعيل، وتطوى مئات السنين تحت وثبة عين الماء. ولم يجد عبد المطلب ماءٌ فقط، بل وجد غزالتين من ذهب، وأسيافاً ودروعاً كثيرة[1].

كان اهل قريش يراقبون عبد المطلب وهويحفر بلا طائل. ولولا انهم يعرفون حكمته، لقالوا: خالطه مسٌ من جنون! ربما كانوا مشفقين عليه؛ أوقانطين من جدوى عمله، وقليل من السخرية والتآسي يلوح على الوجوه القرشية المحدقة به وهو يحفر وحيداً إلا من ابنه.

وربما دهشوا كثيراً عندما تفجر الماء، من الأرض الموات، وربما اغتبطوا.. لكنهم عندما رأوا الذهب هاجوا وماجوا، وطالبوا بحقهم في البئر.

هوالذهب الذي فعل ذلك، فخرجت القلوب عن إتزانها الظاهري، وامتطتها وساوس الطمع. لكن الكعبة فازت، فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة وضرب في الباب غزالتي الذهب حليةً، وتولى حق السقاية، بعد ان فاز

---

(١) انظر ابن هشام في السيرة، ق١، ج١، ص: ١٤٦ (المحقق).

قِدْحاه مع قِدْحَيْ الكعبة[١].

وجاءه الفوز الاكبر، في السنوات الآتية، ورزق بالبنين، فكان له عشرة منهم، يقفون معه حزاماً له في الشدة والفرج، هم اهله وسنده وعشيرته. لكن الايفاء بالنذر قسمٌ لا يعدله قسم.

وكما كتب على ابراهيم خليل الله ان يقدم قربان الفداء ابنه اسماعيل، كان على عبد المطلب ان يُعَجِلْ في تقديم الفدية.

هل كان تكرار النذر المقدس علامة خاصة في آل ابراهيم؟ عجلات التاريخ تمضي، والاحداث والوقائع في صيرورة دائمة، في إنتقال، وتغير، وتطور، لكن من مرحلة إلى أخرى تحصل الدورات المتكررة والمتطابقات المذهلة، كأن قوة خفية تعيد الرسم الماضي، دونما اعتراف بعجلات الزمن، وسريان القانون الاجتماعي.

لقد أنقذ عبد المطلب قريشاً ومكة بمعوله، لكنه كاد أن يقع في مسؤولية حرمان مكة من الانقاذ الأعظم، الآتي من رحم الزمن القادم، من رحم المجهول. فقد وقع الاقتراع على عبد الله والد المنقذ الاعظم، والد النبي محمد! هكذا أمرت القداح، اداة هبل واللات وعزى، وسبيل عرافتها. ولم يكن امام الاب المفجوع، والاخوة الحزانى، والقرشيين الملدوغين من الألم، إلا التسليم والبكاء. وبين (إساف) و(نائلة)، الوثنين حيث البئر كان قد تقرر نحر عبد الله،

---

(١) قد مرّ ذلك في تعليقنا (المحقق).

الأبن الأصغر، والأجمل، والأحب.

لـواخطأ قـداح عـرافة يشـرب، وأصر عـلى خطأه، لكان الهول كبيراً. كان قداحاً لعيناً يلاحق عبد الله. فكأن الوثنية كلها حشدت أدواتها من الأنس والجن والحجـر لنحـر عـبد الله، والحيلولة دون سطوع نور الله المحمدي، فتزداد الدية، وتـزداد، مـن الأبـل، حتـى ينخذل القداح لكن عبد المطلب يأبى الا ان يواصل الـتأكد من قرار القداح، حتى تكرر افتداء عبد الله بعددٍ كبير من الأبل[1]: كانت المحـنة امـتحاناً كبـيراً لعـبدالمطلب، الـذي كـان يقـال لـه: «الفياض» و«مطعم الطـيور» لجـوده وكـرمه، فكان مُجاب الدعوة، لا من أجل نفسه وولده فقط، بل

(١) نـذر عـبد المطلب ذبح أحد ابنائه إذا رزقه الله عشرة من البنين، وعندما رزق أراد أن يفي بوعده. فجمع أولادهُ العشرة - دون الحارث - وذهب بهم إلى القداح= القرعة في جوف الكعـبة. وأرسـى النـصيب ان يكـون ولـده عـبد الله والد الرسولﷺ هوالضحية للنذر، وكـان عـبد الله جمـيلاً فهاجـت قـريش تـبدي رأيهـا على عبد المطلب ومن هذه الآراء أن يـذهب بـه إلى عـرافة في المدينـة، وبالفعـل ذهـب به إلى هذه العرافة التي كانت في خيبر، فقالـت لـه: كم الديّة عندكم؟ فقال لها: عشرة ابل فقالت له. قربوا صاحبكم وعشرة من الأبـل إلى القـداح فـإن خرجت على صاحبكم فزيدوا في الأبل. وذهب عبد المطلب بهذا الـرأي وقـدّم ولـده عبد الله وعشرة من الأبل وخرج القداح على عبد الله فزادوا في الأبل حتـى وصل عددها المئة ثم خرجت على الأبل إلا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب علـيها ثـلاث مـرات فـضربوا عـلى عـبد الله وعـلى الأبل، وقام عبد المطلب يدعوا الله فخرج القـدح عـلى الأبل والثانية، والثالثة كذلك. بعد ذلك نحرت الأبل جميعها. انظر ابن هشام، ق ١، ج١: ١٥٥ (المحقق).

من أجل مستقبل مكة، ذلك الهاتف الضخم الذي توثنت من أجله مكة كثيراً حتى تفوز بمأثرة إطلالته، مثلها مثل امرأة حبست نفسها عن الحمل طويلاً من أجل ان تلد مرة واحدة، وليدها المقدس.

قدر عبدالله:

خرج عبد الله من محنة الافتداء بمائة ناقة، وعرضت عليه (قتيله) الزواج مع هبة مائة من الأبل. كانت (قتيله) اخت ورقة بن نوفل الحبر المشهور، قد حدقت في وجهه بالحاح عجيب. متعلقة بذلك الهباء النوراني على جبهته وفي عينيه. ربما كانت قد عرفت من اخيها اسراراً كثيرة، واشارات عن نبي قادم.

فكانت لها من تلك الاسرار والاشارات معرفة وتشخيص.. لكن الحدس قد يكون اكبر من كل ذلك. إنه برق خاطف يقول ما يريد بسرعة الخطف.

هل كانت، وهي ترى عبدالله مع أبيه عبد المطلب، تتبع حدسها، أم أنها كانت عاشقة؟ سألته[1]:

- أين تذهب في ساعتك هذه؟

فقال لها: هناك إلى حيث يقودني أبي.

فقالت له: قف واسمع! اني اهبك مائة من الأبل هي التي وجب على ابيك التضحية بها لإنقاذ حياتك اذا انت قبلت ان تقع علي في هذه اللحظة![2].

---

(١) اتيين دينيه (المستشرق الفرنسي) محمد رسول الله (المؤلف).

(٢) عن ابن اسحاق، انظر ابن هشام في السيرة النبوية، ق١، ج١: ١٥٦ (المحقق).

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران
قاسیس ۱۳۷۱

فأجابها عبد الله مبهوتاً لقلة حياء تبلغ هذا الحد، وعلى الأخص في حضرة شخصية لها مقامها كعبدالمطلب: إني في صحبة أبي الذي لا أستطيع له خلافاً ولامفارقة. وانصرف عبد الله وقد مليء إضطراباً وبلبلة، حيث لحق بوالده، إلى بيت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرة، وكان الزواج من آمنة[1].

هل كان طموح قتيله ان تكون أماً لنبي؟.. بعد ثلاثة ايام من الزواج، بدت (قتيله) غير مهتمة به، عندما رأته. وسار القدر على خطٍ غير خطّها. حملت آمنة بسيد البشرية. والقدر المأساوي يحمل عبد الله إلى حيث وصل. خلص من محنة النحر، لكنه لم يخلص من الموت الذي هبط عليه قبل ولادة ابنه محمد بشهرين. فلم يقر عيناً به، لكن قربه روحاً وضميراً. فكل حياته - عبدالله - صيغت من أجل المهمة الخالدة: إنجاب الرسول الاعظم، دون ان يكون له في حياته تاريخ زائد.

عام الفيل: المؤامرة في المهد:

كان (ذونواس) ملك اليمن يهودياً[2]، لا يطيق إنتشار شريعة عيسى في بلاد اليمن. فحفر سنة ٥٠٠ ميلادية اخدوداً، وملأه ناراً، وألقيت في الأخدود اجساد النصارى الا من تراجع عن ديانته واعتنق اليهودية.

فكتب القيصر قسطنطين إلى ملك الحبشة، داعياً إياه إلى إنقاذ نصارى

---

(١) المصدر نفسه (المحقق).

(٢) كان آخر ملوك حمير، أجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن وهوصاحب الأخدود، وتسمى يوسف. انظر ابن هشام، ق١، ج١: ٣١ (المحقق).

(نجـران)، فأرسـل ملك الحبشة جيشاً بقيادة (أرياط) فاستولى على اليمن وأقام حكمه فيها[١].

وفـيما بعـد قـام (إبرهة) بتحريض الجيش على (أرياط)، فقتله واستتب له الأمر[٢] وبنى كنيسة بصنعاء، واتجه - بعد ذلك - نحوهدف تهديم الكعبة.

كـان إبرهة يدعي بأن بعض العرب قد اعتدوا على الكنيسة[٣]، وانه منتقم

---

(١) ابن هشام، ق١، ج١: ٣٧ (المحقق).

(٢) عن ابن اسحاق: اقام (إرياط) بأرض اليمن سنتين في سلطانه، ثم نازعه ابرهة الحبشي في أمر الحبشة باليمن وكان في جنده، حتى تفرقت الحبشة عليهما، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم، ثم سار أحدهما إلى الآخر، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى إرياط: إنّك لا تصنع بأن تلقي الحبشةُ بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فأبرز إليّ وأبرز اليك، فأينا أصاب صـاحبه أنـصرف الـيه جنده، فأرسل اليه أرياط: أنصفت فخرج اليه أبرهة، وكان رجلاً قـصيراً سميناً غليظاً وكان ذا دين في النصرانية وخرج اليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طـويلاً وفي يده حربة له، وخلف أبرهة غلام له، يقال له عتودة (= من الشدة في الحرب) يمـنع ظهـره فـرفع أريـاط الحـربة فضرب أبرهة، يريد يافوخه، فوقعت الحربة على جبهة أبـرهة فـشرمت حاجبـيه وأنفه وعينيه وشفته، فبذلك سمّي أبرهة الأشرم، وحمل عتوده عـلى أرياط من خلف أبرهة فقتله، وأنصرف جند أرياط إلى أبرهة، فاجتمعت إليه الحبشة باليمن. انظر ابن هشام، ق١، ج١: ٤١-٤٢ (المحقق).

(٣) عـن ابـن اسحاق قال: فخرج الكناني حتى أتى القليس (=الكنيسة) فقعد فيها (=أي أحدث فـيها) فخـرج فلحـق بأرضـه، فأخـبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجـلٌ مـن العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة... فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه. انظر ابن هشام ق١، ج١: ٤٥. (المحقق).

منهم، بالتوجه نحو الكعبة لتهديمها. كذلك كان يطمح إلى نشر النصرانية.

حينذاك كانت الاحاديث متداولة عن ان جزيرة العرب ستشهد انقلاباً عظيماً، وإن نبياً جديداً سوف يظهر على أرض العرب، وكانت الاحاديث تشير إلى مكة، وبخاصة من قبل أهل الكتاب. فكانت حملة (إبرهة) تحمل فيما تحمل من نوايا ما هو اخطر من هدم الكعبة، وذلك بالاستيلاء على مكة والتعرف على من فيها من الأسر، بغية التعرف على «محمد» وقت ولادته، وقتله[1].

لقد أراد ابرهة وجيشه قتل محمد في مهده كما أراد هيرودس قتل عيسى في مهده، وكان الأحبار يتداولون الاحاديث عن السنة التي سيولد فيها محمد من سفردانيال. وكذلك كانت تنبؤات «الموبذان» خادم النار الكبير عند الفرس المجوس.

كانت جحافل (ابرهة) متوجهة بالويل والثبور نحو مكة، تريد إخماد النور في مهده، وكانت قوى الشرك والطغيان ورأس المال التجاري والربوي تمسك بتلاليب الحياة. ومكة - نفسها - كانت مركزاً لأكثر شياطين الحياة تدميراً: شياطين المال، وأقطاب الوثنية الصارمة.. كانت حبكة الكفر والضلال واسعة وقوية[2]. حينذاك، ربما غاضت مياه بحيرة ساوى، واهتز قصر كسرى

---

(١) أحمد حجازي السقا (نبوءة محمد في الكتاب المقدس) (المؤلف).

(٢) والدليل على ذلك الاستسلام السريع من قبل أهل الطائف لأبرهة الحبشي كما اوضح ذلك ابن اسحاق: قال أهل الطائف لأبرهة: أيها الملك، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف وليس بيتُنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك مَن يدلّك عليه، فتجاوز عنهم. فمثّل

انـوشروان. وتصدعت اربعة عشر من أبراجه، وخمدت نار الفرس المجوس بعد ان ظلـت مـضطرمة اكثـر من الف عام... وربما إهتزت الاصنام ونكست رؤوسها، فقد اعطت الافلاك شيفرة التوافق... وتقاطعت الاسرار في ظواهر الإلتقاء.

ثمـة أمـر جديـد في عـالم جزيـرة العـرب... سـطع نـور باهر من كوكب المشتري، وأحـست آمـنة بـنت وهـب بالـنور الـسماوي يشع من داخلها.. لقد اختـضت الأرض، وهـي تـستقبل الولـيد القادم محمداً... فيا ايها اليتامى حيّوا خاتم الأنبياء، قائد المستضعفين، محمداً...فهو يتيم مثلكم، اصطفاه الله من بينكم نبياً لكم، وللناس أجمعين.

لقـد حلـت الـبركة، بدايـة الـرحمة الألهية، بولادة النبي قبل اشراق نجمة الـصباح بلحظات في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ٥٧٠ أي عام الفيل[1]

الطفـيون بهذا الموقف قمة التخاذل بعد أن مثلوا بحق دور شياطين المال، وأقطاب الوثنية الصارمة كما يقول المؤلف عزيز السيد جاسم، انظر ابن هشام، ق١، ج١: ٤٧ (المحقق).

(١) قـال ابن اسحاق: (ولد رسول اللهﷺ يوم الأثنين، لأثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عـام الفـيل). أمـا محققـوا سيرة ابن هشام قالوا: اختلف في مولده،ﷺ فذكر أنه كـان في ربـيع الأول، وهوالمعـروف، وقـال الـزبير، كـان مولده في رمضان، وهذا القول موافـق لقـول مـن قال: إن أمه حملت به في أيام التشريق. ويذكرون ان الفيل جاء مكة في المحـرم، وأنـهﷺ ولـد بعـد مجئ الفيل بخمسين يوماً، وكانت ولادتهﷺ بالشعب، وقيل بالـدار التـي عـند الـصفا، وكانـت بعـد لمحمـد بـن يوسف آخى الحجاج ثم بنتها زبيدة مـسجداً حين حجت (وكانت مصادر المحققين: الروض الآنف والطبقات الكبرى لابن سعد والطبري) راجع ابن هشام، ق١، ج١: ١٥٨-١٥٩ (المحقق).

وعلى كثرة ما قيل عن الخوارق والأعاجيب التي رافقت ولادته، فإن صدق ماقيل هو ان حادثاً مر بهدوء وبساطة، «ذلك الحادث هوميلاد طفل قرشي في مكة، تلك المدينة التائهة في وسط القفار، تلك المدينة المجهولة، أوالمحتقرة لدى أكابر الملوك والامراء، في الشرق والغرب...»[1].

وستمتلىء مكة من سنا نور وجهه، وكذلك الجزيرة العربية، أما ابراج قصر كسرى انوشروان، فإنها لن تتصدع فقط، بل سيكون آخر عهد الناس بها؛ فالنار المجوسية تتلاشى أمام نداء الرحمة التي خاطب الله رسوله بها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

---

(١) اتيين دينيه (المصدر المذكور). (المؤلف). ويقول ابن هشام: انّ آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدّث: أنها أتيتْ حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنّك قد حملت بسيّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شرّ كل حاسد، ثم سمّيه محمداً، ورآت حين حمله به أنه خرج منها نورٌ رأت به قصور بُصرى، من أرض الشام، انظر ابن هشام، ق١، ج١: ١٥٨ (المحقق).

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧ (المحقق).

الفصل الثالث

البداية الأرضية

البداية الأرضية

على الأرض ولد محمد، مثل أي انسان سوي. منها يأكل، وعليها يمشي، ويعمل، ويعيش. كم يُخطىء بعض من آمن بالحقيقة المحمدية، وهو يتجاوز حقيقة الأرض وحكمتها، متمسكاً - فقط - بالجانب الإلهي للنبوة، متناسياً قيمة الانسان ومكانته في القدرة الإلهية، وفي القرار الإلهي، حيث اختار الإنسان قائلاً فيه:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[1]. وداعياً ملائكته للسجود له بشخص آدم.

كذلك جاء في سورة الاسراء:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2].

وأوكل اليه الامانة الكبرى التي ارتعدت فرائض الارض والسماء والجبال من حملها:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

---

(١) سورة الأحزاب (المؤلف) سورة حجر، آية: ٢٩ (المحقق).

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٠ (المحقق).

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١].

فهو - إذن - (أي إنسان) جلعه الله خليفة في الأرض.

ومن هنا يمتد الخط الإسلامي إمتداداً ناصعاً من الخالق إلى المخلوق، في نوعٍ من الرابطة التي تكللت بالقداسة، فاسبغت على الانسان شرفاً وأي شرف وكرامةً وأية كرامة. ومكانةً لا تضاهيها مكانة.

لذلك ابتدأت قداسة النبي الكريمﷺ بقداسة معدنه الإنساني النبيل، الذي كان ماثلاً وحاضراً منذ الطفولة باعمق المعاني والدلالات المثيرة. بمعنى ان النبي الكريم لم يكُ في حاجة إلى خوارق مبكرة تسبق تجربته البشرية، لأن أساس هذه التجربة أقوى من الخوارق، لأنه - بكل بساطة - أساسٌ انساني باهر.

لقد حباه الله - تعالى - نعمة اليتم، كيما يمنح نفسه - بكليته - إلى أبناء آدم، إلى البشر الذين تطاردهم كثبان الجزيرة، وريح السموم، ووهج الشمس العاري الذي يتمايز في غيظ الانقضاض على الرؤوس والأجساد، فيُهلك من يُهلك، ويحيل الكائنات المشبعة برطوبة طبيعية، إلى كائنات جافة، أوتعاني من وطأة الجفاف.

إلى بني الإنسان، جاء محمدﷺ، وهومن قبيلة قريش الارستقراطية المميزة، لكنه جاء بِعَلَمَ اليتيم، الذي لا يحمل عَلماً غيره.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢ (المحقق).

وحين كان أبناء الأسر المكية يتوزعون على مرضعات بني سعد، بحثاً عن هواء البادية، وبعداً عن جو مكة، كان محمد غير ذي إغراء، فماذا سترى فيه المرضعات، وهواليتيم المحروم من الثروة التي تثير وظيفة الارضاع بصفتها عملاً يدر كسباً؟

وحينما لم تعثر حليمة السعدية على بغيتها، وأوشكت ان تعود خاوية اليدين، أدارت وجهها من جديد، وتلقفت ابن الشهرين، فذلك خيّر لها من الجدب والمسغبة، والعودة اليتيمة[1].

---

(١) عن ابن اسحاق، انظر ابن هشام ق١ ج١: ١٦٣ وينقل ابن اسحاق قول حليمة السعدية: قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منّا أمرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنّا نرجوالمعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمّه وجدّه! فكنّا نكرهه لذلك، فما بقيت أمرأة قدمت معي ألا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. ابن هشام، ق١، ج١: ١٦٢-١٦٣ (المحقق).

وقفة مع هذه الرواية:

أن ما تحدثت به حليمة السعدية لا يستقم مع حقيقة أطباع بني هاشم فأبن اسحاق وأبن هشام وكلّ من كتب في السيرة النبوية لم ينتبهوا لهذا التضارب الروائي، فهل من المعقول أن يُترك محمدﷺ ابن عزيز قومه وحفيد عبد المطلب وابن أخ أبي طالب عرضةً بسوق

مـا يهمـنا أن نـنقبَ في ذهـنها - حينذاك - لنتساءل: أهاتفٌ دعاها إلى أن ترضع ذلك الطفل الجميل، إنما يهمنا ان ندع حقائق الحياة تتحدث وحدها.

وهـناك، عـلى الأرض المديـدة، تحـت سماء الله العسجدية المضيئة، والتي تحفـل بجـمالات أضوية الليل الزاهية، وبيقظة الخضرة النضرة في أوقات النهار، يـتغذى القـرشي من حليب امرأة كادت أن تموت وبعلها من الجوع والفاقة، من امـرأة كـاد صـدرها أن يجف من الحليب، لأن نداء الحليب في الارضاع، وتأمين القوت، والحليب لا يغدقه الثدي الا بأغذية الأرض.

لكـن لعـبة المـال الوسـخة انهـا لا تُيسّر قوت الارض الماثل في النباتات،

الرضـعاء، كـونه يتـيماً ولم تمتلك أمه ثمناً لرضاعته من المرضعات؟!! فأبن اسحاق نفسه يقـول: إنّ عـبد المطلـب أخـذه، فدخل به الكعبة، فقام يدعوالله، ويشكر له ما أعطاه، ثم خـرج بـه إلى أمـه فدفعـه اليها وألتمس له الرضعاء (ابن هشام ق١، ج١: ٦٠) ويقر على ذلـك ابـن هشام هذا في الوقت الذي ذكر ابن هشام عن ابن اسحاق وجاهة عبد المطلب وحـبه وحرصـه عـلى حفـيده محمـدﷺ ولمـا هوالمعـروف عنه كان يوصف بـ (الفياض) و(مطعم الطيور) لجوده وكرمه، وكان يملك من الثروة الشيء الكثير فهل من المعقول أن يـُعـرض هـذا الطفـل الرضـيع في سـوق الرضـعاء وتهـرب منه المرضعات لأنه يتيم ولم يـتكفله أحـد في دفـع نفقات الرضاعة؟!! سيما وأن عبد المطلب توفي وكان عمر النبيﷺ ثـمان سـنوات كـما يقـول أبـن اسـحاق! ق١، ج١: ١٦٩، حقـاً أن هذا الأمر من الأمور المدهـشة في تاريخ السيرة النبوية والتي لم يتنبه له المؤرخون مطلقاً، وعليه نقول: ان رواية حلـيمة الـسعدية تبقـى محط شك، إن لم يكن مخرجاً موضوعياً يثبت أويفند قول السعدية (المحقق).

والحيوانات، ومنتجاتها. قديماً قبل أن يوجد الوثن - المال، يمد الإنسان ابن الطبيعة يده ذات اليمين وذات الشمال فتأتي ملأى بالغذاء؛لأنه - نفسه - ثمرة الطبيعة، والاثنان (ابن الطبيعة، وثمار الطبيعة) يعيشان في سكنٍ واحد لا يفصل بينهما فاصل، حتى اذا حلّ المال - الشيطان، ابتدأت مؤامرة النهب، والاحتكار، وقطع الرزق، وأصبح الانسان إثنين: الغني والفقير، المتخم والجائع.

حينما تغذى محمد بالحليب الذي ضخه صدر حليمة السعدية[1]، لم تكن رضاعته تلك، هي الوحيدة، فقد رضع من الأرض مصدر بنيانه المتين، مصدر قوته البشرية المؤسسة في قانون البادية العادل، بعيداً عن شريعة المدن الفاجرة،

---

(١) قال ابن اسحاق: (أنها امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها حليمة ابنة أبي ذؤيب، وأبوذؤيب: عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن فصيّة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان). انظر ابن هشام ق١، ج١: ١٦٠ ويذكر محققوا سيرة ابن هشام: أن أول من أرضعت رسول اللهﷺ هي ثويبة، أرضعته بلبن أبن لها يقال له: مسروح، أياماً قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد الملطب المخزومي، كما أرضعت عبد الله بن جحش، وكان رسول اللهﷺ يعرف ذلك لثويبة، ويصلها من المدينة، فلما أفتتح مكة سأل عنها وعن أبنها مسروح، فأخبر أنهما ماتا، وسأل عن قرابتهما، فلم يجد أحداً منهم حياً وكان ثويبة جارية لأبي لهب، كما يقال، إنهﷺ رضع أيضاً من غير هاتين حسب مصادرهما (الطبري والروض الآنف، والاستيعاب، وشرح المواهب) انظر هامش رقم ٦ من سيرة ابن هشام ق١، ج١: ١٦١-١٦٢ (المحقق).

وبعيداً عن شريعة الغاب. كما انه أخذ رضاعته الروحية من السماء.

في تلك البداية الجليلة، خبأ القدر مقاصده، مثلما فَعَلَ في سيرة حياة محمد، ومثلما سيفعل لاحقاً. فكأن هذا الجسد الصغير، المحروم من الأب، والمحروم من حليب الأم، كُتبَ عليه أن يتوزع في تقلصات العلاقة بين الأم آمنة بنت وهب، وبين المرضعة حليمة السعدية. فمرة تعود به المرضعة، بعد عامين، لكنها شديدة التوجع والتفجع، تعلقاً بالرضيع، فتوافق الأم على أن تجدد استمرار عيشه معها في البادية. لكن بعد ذلك، كان لابد أن تعود حليمة السعدية به، بعد أن عصف بها القلق والخشية على مصير هذا الصغير الذي بدا لها، أكبر من الكبار، بعلامات، فطنت لها، أوأفطنها اليها آخرون.

قيل: «خرج الرسول كعادته ذات صباح مع أخيه من الرضاع يقودان القطيع إلى المراعي، فلما انتصف النهار أتى أخوه يعدو، فزعاً باكياً، ينادي: «يا أم، ويا أبت! أدركا أخي القرشي، فانه ابتعد عنا كعادته، فأخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا صدره»؟

وقد عمد رواة هذه الحادثة إلى ربطها بتفسير الآية:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1].

رغم أن دلالة الآية واضحة في التأكيد على خصوصية القيمة في إنشراح

(١) سورة شرح، آية: ١-٣ (المحقق).

الـصدر وتحـرره مـن الغمـة، ومن كل سيئات الصدور، والخوالج الخبيثة، ففي الصدر يكمن القلب الذي قال عنه النبي الكريم انه بصلاحه يصلح الجسد كله، وبفساده يفسد الجسد كله، كما ورد في الحديث:

«ألا ان في الجـسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، الا وهي القلب»[1].

وبعـيداً عن الخوض في موضوعِ الحادثة الرواية، يمكن التوصل إلى قناعة بـصدد إرجـاع حلـيمة الـسعدية محمـداً إلى أمـه، وهي التي لم تستطع فراقه قبل عامـين، لقـد رأت مـن الدلائل ما أثار فيها الحيرة والقلق والخوف، وهي دلائل مـؤكدة لا تحـتاج إلى الدهـشة عـند وضـعها موضع التحليل، ففي حياة الانبياء والقديـسين والعباقـرة، تـرد في مرحلة الطفولة علامات مميزة، تدخل في مراتب النبوة والقداسة والعبقرية، وهي من ظواهرها المبكرة.

ربـما قلقت حليمة السعدية، امرأة البادية التي لا تعرف غير إرواء الرضع بحليبها الكريم، وربما ارتعبت، وربما خافت عليه.

وامـرأة، في المـستوى نفـسه (وهـي في ذلك مع الرجل سواء بسواء!) غير قـادرة على تعليل الظواهر المدهشة في حياة طفل، واغلب فكرها يميل إلى اعتبار

---

(١) انظـر مـسند أحمـد بـن حنـبل ج٤: ص٢٧٠، سـنن الدارمـي ج٢: ص٢٤٥، صـحيح الـبخاري ج١: ص١٩، صـحيح مـسلم ج٥: ص٥١، سـنن ابن ماجة ج٢: ص١٣١٩، سنن البيهقي ج٥: ص٢٦٤، (المحقق).

تلك الظواهر مساً من الشيطان، أكثر من ميلها لاعتبارها نوراً من الرحمن، لأن المناخ - حينذاك - كان مناخ الأصنام، والأبالسة، والسحر، والتجارة، والقتل، رغم أن البادية كانت تمنح هامشاً حراً لحياة مختلفة نوعاً ما. الا ان الوعي السائد، كان وعي زواج الخرافة بالتجارة، أي زواج العقل المتخلف بالمصلحة الاستغلالية، هذا يوضح قول آمنة بنت وهب إلى المرضعة حليمة:

- أفتخوفت عليه الشيطان؟

- نعم.

- كلا... والله ما للشيطان عليه من سبيل، وان لأبني هذا لشأناً!.

عاد محمد إلى أمه، وكان ثمن ذلك استكمال دائرة اليتم، فقد ماتت آمنة بنت وهب في سنة ٥٧٦م، بعد العودة من رحلة إلى يثرب، وفي (الأبواء) المنطقة التي ماتت فيها حمل الجسد الصغير غصة دامية، وتلك هي كتابة القدر الهيروغليفية، بالنسبة إلى صبي لا يعرف شيئاً عن القدر، لكن في التاريخ الاسلامي الأصيل، أي تاريخ نشوء الإسلام، كانت الكتابة الهيروغليفية للقدر رسالة أولى.

لقد كانت الرسالة تشير إلى تجرد محمدﷺ من أهم العلائق العائلية، من الأب والأم، ومن سواها - فيما بعد - باتجاه القضية الكبرى، باتجاه تهيئة النفس للكفاح من أجل البشرية.

الناس، الناس، هم كلمة مقدسة في قاموس التجربة المحمدية، لكن ذلك لم يتحقق بنفحة شاعرية، أوبرومانسية، أوبمنح بركات سمحاء، بل كان يتحقق

بالفعالية الحقيقية المغيّرة، الفعالية التي وقفت على أرض صلبة، واستقرت قوية الأوتاد ماضيةً نحوالهدف العظيم: هدف تغيير عالم البشرية الضيّق القبلي، المادي، الجشع، إلى عالم إنساني رحب.

وسنرى ذلك، حين استلهم محمدﷺ عدالة السماء في مشروعه الهائل: بناء المجتمعات.

وفي علاقة اليتم بالرسالة، قد يرى الماديون ان الحرمان من العاطفة الحيوية الأولى (من الأب والأم) هو من عوامل الاندفاع نحوقيادة المجتمع الجديد، وقد يرى البعض الآخر، ان التوافق بين الحرمان والرسالة المحمدية الاجتماعية، ضرب من توافق الصِدفَ، إلا إنني أرى أن محمداً كان يفرده الله للمسألة، كان يحرره من الألفة العاطفية الخالصة، خلوصاً لله، وتوجهاً نحوالانسان - المجتمع، لا الإنسان بدلالته المحدودة، كفرد.

وليست آمنة بنت وهب، وحدها، كانت ترى أن لابنها سيكون شأن وأي شأن، فجده عبد المطلب، كان يرى ذلك أيضاً: ففي ذات يوم، جلس محمد وسط الفراش المحترم (المخصص لسادن الكعبة عبدالمطلب والذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب من طرفه!)، فما كان من اعمامه وقد ساءهم ذلك، إلا أن أبعدوه عنه، غير أن عبد المطلب كان قادماً، ورأى عن بعد ما حدث، فصاح:

- أرجعوا إبني إلى حيث كان يجلس، إنه قرة عيني في شيخوختي، وإن جرأته آتية من حدسه بما سيصير اليه، وسيبلغ مكانة لم يبغها عربي قط[1].

---

(١) أتيين دينيه، محمد رسول الله(المؤلف).

لكن عبد المطلب، الرجل الكبير، عملاق مكة، يموت بدوره[1]، فيُحرم (محمد) من عاطفة كبيرة نادرة، ولم يبقَ له ملاذٌ غير عمه النبيل: أبي طالب، شقيق والده الوحيد من بين أعمامه كافة، إن التاريخ يؤشر بأتجاه النبوة، وكذلك يؤشر بإتجاه المأساة الإسلامية التأريخية، التي سنصل اليها في صفحات أخرى، قادمة وإن بصورة التنويه.

إن محمداً؛ ابن الإنسان، الذي سيتلقف صوت الله، وحي الله، في فكره وسلوكه، سيجد ان مسؤوليته تبتديء من الانسان، من الأرض، من الكدح، فالعمل هو الذي يعطي للإنسان قيمته. ففي العمل يكتشف الإنسان نفسه، فهو

---

(١) قال ابن اسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مَعبد بن العباس، عن بعض أهله: إن عبد المطلب توفيّ ورسول اللهﷺ ابن ثماني سنين وطلب من بناته الست أن يرثينه وهوعلى فراش الموت، فقالت صفية تبكيه:

أرقت لصوتِ نائحةٍ بليلِ ... على رجلٍ بقارعة الصّعيد

ففاضت عند ذلكم دموعي ... على خدّي كمنحدر الفريد

على رجلٍ كريمٍ غير وغل ... له الفضل المبين على العبيد

ورثاه أيضاً مطرود بن كعب الخزاعي:

يا أيها الرجل المحوّل رحله ... هلا سألت عن آل عبد مناف

هبلتك أمك لو حللت بدارهم ... ضمنوك من جرمٍ ومن إقرافِ

انظر الكثير من أبيات الرثاء، المتنوعة لشعراء كثر في السيرة النبوية لأبن هشام ق١، ج١: ١٦٩-١٧٨ (المحقق).

ينتج فيتغذى مما ينتج، وهو يبني، فيدرك قدرته على الخلق والعطاء، وهو - في كل ذلك - يتطور ويتقدم، ويحث على التضامن الإنساني العادل. في العمل - وحده - تُدرك كل القيم والمناقب، سواء اكان عمل الذهن، أم عمل الجسد.

فكان محمد قد اختار العمل الذي اختاره الأنبياء: أصبح راعياً.

وهو القائل: «ما بعث الله نبياً إلى راعي غنم». وكذلك هو القائل: «بُعِثَ موسى وهو راعي غنم، وبُعِث داود وهو راعي غنم. وبُعِثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجْياد».

وإختلاف محمد - هنا - انه من اسرة عريقة، ومن الوسط القرشي المعروف، وكان - حينما اختار أن يكون راعياً - في ظل مجتمع مكي تسوده القيم التجارية، قيم عدم احترام عمل الرعي، إن لم تكن أكثر من ذلك. إنما، من يستطيع أن يتجاسر على فتوة يانعة، شجاعة، كريمة الأصل، والفصل، والحسب والنسب، آمنت بوحدة الكرامة مع العمل، تحت خيمة عائلة تأريخية، هي والشرف الاجتماعي نسيج واحد؟!

ولا يمكن نسيان الوجه الثاني لقيمة عمل (الرعي)، إذ ان إختيار محمد أن يكون راعياً، كان يمثل تحدياً واعياً، وفطرياً، في الوقت ذاته لسلطة رأس المال التجاري، وللأرستقراطية المكية المرفهة، وللطفيلية المدينية الغارقة(*) في الملذات والشهوات الرخيصة.

(*) نسبة إلى مدينة (الجمع مدن)، لا إلى (المدينة أي يثرب). (المؤلف).

إضافة إلى ذلك، أخذت التربية الأولى لمحمد منهجها الأول عبر العمل المذكور، فقد كانت المرحلة مرحلة تمرين جسدي وروحي، لبلورة الطاقة الشخصية، بإتجاه ممارسة الدور القيادي في خطوات جادة، منتظمة، ومتصاعدة.

وإن كانت ممارسة (الرعي) امتداداً للتجاوب مع البداوة، والذي طبع حياة النبي الكريم منذ الأشهر الاولى، فان هذه الممارسة لن تفي بسدّ متطلبات العيش، سيما ان ظروف العم أبي طالب، ليست على مايُرام، كما انها - من جانب آخر - لا تتلاءم مع الصوت العميق الذي يهيب به، وهو صوت المسؤولية التأريخية، التي كانت شبه جزيرة العرب تنتظرها. ففي مجتمع العرب المجزأ، كان كل شيء جاهزاً، المال، والسلطة، والامكانات الوافرة، لكنه، كان بحاجة إلى الوحدة التي تصنع من قبائله المتشاجرة، والمتحاربة، قوة موحدة، ومجتمعاً منظماً.

كان الرعي يوفر أجواء الحرية، والتأمل، والتطواف، والصبر، والمتابعة، والشجاعة، إلا انه لا يفتح الطريق وسيعاً أمام النشاط الاجتماعي الفعال، ذلك لأن البيئة المكية، والقرشية، بعامة، كانت بيئة تجارية، إذن، كان لابد من شق طريق في البيئة التجارية لاختبار الحياة العامة للناس، ومعرفة دروب التجارة، وما يفعله (المال) من أفاعيل.

إن التجربة لا تتكون بالعزلة، والتأمل المجرد، والإنقطاع التام عن الحياة، بل هي تتكون في صميم المعايشة، والعمل، فكانت سفرة محمد التجارية الأولى إلى سوريا مع عمه أبي طالب(عام ٥٨٢م).

واجتمعت في هذه السفرة كل الفوائد غير التجارية، إضافة إلى ما حققته

من فائدة مادية. فهذا العراء الابدي الهائل الذي يذكر بعظمة الأزل، هو - نفسه - الـذي يهـدد (العربي) بالموت، إن لم يتدارك نفسه. إن لم ينتصر على بيئته، وقبل أن ينتـصر على بيئته، يجب عليه أن ينتصر على نفسه، فلذلك هوالشرط الاساسي والحاسم لمغالبة الطبيعة الصحراوية القاسية، والتغلب عليها.

وكانـت الـرحلة الثانـية إلى سـوريا (عـام ٥٩٤م)[١] في تجارة لخديجة بنت خـويلد[٢]، حـيث تصلب فيها عوده، بعد ان اختلط بالتجار من باعة ومشترين، وكـذلك التقـى بالرهبان، والشعراء، والخطباء، فاغتنت تجربته اغتناء ابن البادية الشجاع الذي لا يعرف قلبه وجيب الخوف.

في الـبادية، كـان مـتطابقاً مـع الكـون المترامـي الاطـراف، مـع اصـوات الكائـنات الحـية، وأصـوات الأبديـة، مـع حـركة الريح، والكثيب، فتوحّد مع الطبـيعة، في عنـتها وفي رقّتها، في غضبها وفي هدوئها، في ليلها وفي نهارها، ذلك الـتوحد الـذي يكـسب الإنـسان الـشجاعة والامـتلاء؛ والثقة العالية بالنفس، وحيـنما جـاءت مواسم التجارة، كانت رحلاته تسمح بمراقبة البوادي كلها، لا البادية الوحيدة التي رضع وترعرع فيها. ففي واقع الأمر ان شبه الجزيرة العربية

---

(١) انظر ابن هشام ق١، ج١: ١٨٧-١٨٨ (المحقق).

(٢) هـي خديجـة بـنت خـويلد بن أسد بن عبد العُزى بن قصي بن كلاب، أمرأة أشتهرت في الـتجارة، عمـل معهـا الرسـول ﷺ في تجارتهـا ثـم تـزوجها، وهي أول أمرأة تزوجها ولم يتـزوج عليها حتى ماتت رضي الله عنها خطبها له عمه الحمزة بن عبد المطلب. انظر ابن هشام ق١، ج١: ١٩٠ (المحقق).

المؤلفة من مئات البوادي الهائلة، في صفحات متتالية من الحيوات والاشياء وطبائع الطبيعة، كانت مُعدّةً منذ الأزل لتخريج وجبات من البشر الذين لا يهزهم الخوف، هي - أصلاً - مصنع الابطال. لأن الحي الباقي فيها، هوالذي يمتطي جواده، متقلداً سيفه، قادراً على خوض الصراع ضد أقدار الطبيعة المطلسمة، وضد العداوات التي تهجم من وراء الكثبان وصخور المرتفعات، فكأن سطح شبه الجزيرة الهائل الاتساع، الذي يوازيه السراب من كل الجهات، كأنه انفاق مدن مستورة، يخرج منها أفواج من العرب المقاتلين، الملثمين وغير الملثمين.

يقيناً، كانت حكمة محمد تنضج نضجاً هائلاً في سريان الموكب التجاري، وحينما رأى الراهب (بحيرى)[1] في الرحلة الأولى، والراهب (جريج)[2] في الرحلة الثانية، كانت فكاره عن الحياة الموت، وعن الأبدية، وعن

---

(١) انظر تفاصيل هذه الرحلة وما قاله الراهب بحيرى في سيرة ابن هشام ق١، ج١: ١٨٠-١٨٢ وبعد حوار طويل بين محمد بن عبد اللهﷺ والراهب البحيرى، أيقن بحيرى بعد أسئلته ان هذا الغلام هوالمنتظر الموعود للنبوة، فأوصى بحيرى أبي طالب قائلاً له: (أرجع بأبن أخيك إلى بلده، وأحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً، فانه كائنٌ لأبن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده) انظر ابن هشام، ق١، ج١: ١٨٢ (المحقق).

(٢) لم يذكر ابن هشام في سيرته الراهب«جريج» ولقائه مع النبيﷺ إلا ان محققوا المصدر ذكروا الراهب «نسطورا» إلا أنه ينقل عن ابن اسحاق «كانت الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى، والكُهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول اللهﷺ قبل مبعثه،

الخلق، متزاوجة مع أفكاره عن المجتمع، وعن الصراع، وعن الخير والشر، بتواؤم تام، ولم يُضف له الجوالسوري، الذي تأثر باجواء الروم الدينية، في الأديرة المتناثرة، شيئاً نادراً، سوى لحظات سعادة اللقاء بأهل الكتاب، لقد كان التوحيد هاجسه الأول، فكان ينفر من مناطق الشرك، ويقترب من مناطق الايمان بالله.

وفي الوقت ذاته، كان عقله يذهب بعيداً عن الترهبن، والعزلة المريرة، مهما كانت تنطوي عليه من معارف وعلوم، ومن منهج في النسك، لقد اختار الناس ميداناً لنشاطه الفعال، لقد كان اجتماعياً إلى درجة لا توصف، وكان - أيضاً - ذا اوقات خاصة للتفكير والتأمل.

وهذا هومعيار الصدق الذي لا يُضاهيه معيار، الصدق في حب الله، وحب البشر، والسعي الدؤوب من أجل بناء أمة مؤمنة بسنن العدالة. فلا الانقطاع عن الناس بذي جدوى، ولا الانغمار النهائي بين الناس بذي فائدة، بل لابد من اعطاء كل شيء حقه: الانتماء إلى الناس بالمعايشة، والتجربة، والعمل،

لما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، فعمّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه، وأما الكهّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجنّ فيما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تُحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، لا تَلقى العرب لذلك فيه بالاً، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يَذكرون، فعرفوها» انظر ابن هشام، ق١، ج١: ٢٠٤(المحقق).

واختيار فرص الاعتكاف، للتأمل، وبناء الافكار، واستقبال الفيوضات العلوية المنبثة، والهادية.

ربما كان محمد في سفراته التجارية، ينظر إلى الأديرة والصوامع، ويطيل التفكير: لماذا لا يخرج الرهبان إلى الناس، وبين الناس؛ ليقاوموا الأصنام والأوثان، والظلم والشرك؟

وكانت تتحرك في عروقه دماء عرب شبه الجزيرة، التي لا تعرف الصمت، الدماء الفائرة، الناطقة، التي تحتاج فقط إلى مؤشر الهداية، لتصحو في الايمان، وكان محمد هوالذي سيقوم بدوره رسولاً للهداية ضد الضلال. وجرى ذلك في معمعة الحياة، وحكمتها الواقعية؛ وهويعيش في عمقها، لا في حواشيها واطرافها.وعندما تجاوز الرابعة والعشرين من عمره، أوصلته تجربته العملية الى الزواج بخديجة، كيف كان ذلك؟

كانت خديجة حينذاك قد اقتربت من الاربعين و«لم تمنعها سنُّها من ان تكون محط انظار الكثيرين، لا لأنها - حسبما يبدولأول وهلة - ثرية (فالتقاليد العربية تقضي بأن المهر يدفعه الرجل وليس له أي حق على ثروة زوجته)، ولكن لما تحلت به من صفات شخصية، ومن سحر، ومن وجاهة، ومن فضائل، ثم لحسبها النبيل. أليست بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب؟!»[1].

---

(١) ابن هشام، ق١، ج١: ١٩٠ (المحقق).

كانت خديجة، لكل ذلك، محاطة بحاشية من الطامحين في زواجها يعتمد بعضهم على شرف حسبه، والبعض الآخر على ثروته، بيدَ أنهم حاولوا عبثاً، إذ انه بعد موت أبي هالة زوجها الثاني، عزمت فيما يبدو، ان تقضي بقية حياتها بدون زواج، هذا العزم لم تجد له ما يبرره عندما رأت محمداً، وعلمت - عن تجربة - الشيء الكثير مما تحلى به من مكارم الأخلاق فغيّرت إتجاه حياتها. وكان كل يوم يمرّ يزيدها ميلاً على ميل نحو محمد ، فعزمت على أن تعرف ما انطوى عليه قلبه. قال ميسرة[1]: «أرسلتني سيدتي، بعد شهرين وعشرين يوماً من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له:

- يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟

- ما بيدي ما أتزوج به.

-فاذا كان ما تملك على قلته، يكفي، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

- فمن هي؟

- انها خديجة.

- إنك لهازل! كيف اجرؤ على أن اتقدم لطلب يدها لما أملك من مهر؟

-لا عليك، وانا بحلّ تلك العقدة كفيل.

---

(١) يذكر محمد حسين هيكل: إن نفيسه هي التي ذهبت لتستقصي رأي محمد في زواجه بخديجة (المؤلف).

«كانت نغمة سيدي في حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحوسيدتي، فأسرعت في العودة لأبشرها، فغمرها السرور، وأخذت في الاستعداد للزواج»[1].

ومن الواضح أن الرغبة كانت بدرجة أولى رغبة السيدة خديجة، إلاّ ان محمداً كان في أشد التجاوب معها. وكان هناك عائق فعلي، وهوالعائق الطبقي، فمحمد اليتيم هوعامل في تجارة خديجة بنت خويلد الثرية المعروفة بغناها وسعة تجارتها. الا ان خديجة ذات الإرادة القوية استطاعت ان تحقق الزواج، الذي تم في عام ٥٩٥م.

وهناك رواية تُروى عن كيفية استحصال خديجة إلى موافقة أبيها خويلد الذي كان يرفض - دون ما رحمة- كل الطامحين، إما لأنهم ليسوا من ناحية الشرف اكفاء، وإما لأن ثراءهم أقل مما ينبغي، لهذا استعملت ابنته، للوصول إلى ما تريد، طريقة التحايل الآتية:

صنعت طعاماً وشراباً، ودعت أباها ونفراً من سادات قريش، ومحمداً وأعمامه، وكان خويلد يحب النبيذ حباً جماً، فشرب منه، حسب عادته، اكثر مما ينبغي، فانتهزت ابنته الفرصة، وقالت:

«أبي، ان محمد بن عبد الله طلبني للزواج، وارجوك الموافقة على

---

(١) اتيين دينيه (المستشرق الفرنسي) وسليمان ابراهيم الجزائري: «محمد رسول الله» (صياغة لمعلومات المصادر التقليدية) (المؤلف) وانظر ابن هشام ق١، ج١: ١٨٩-١٩٠ (المحقق).

ذلك».

كـان خويلد تحت تأثير الخمر، يأخذ الحياة من جوانبها السارة، فقبل عـرض ابنـته بـدون تفكـير، وما ان حصلت على رضاء ابيها حتى قامت - حسب عاداتهم - إلى تعطير أبيها، وألبسته حلة نفيسة.

وصحا خويلد من سكره، فسأل ابنته: « ما هذا؟».

قالت: انك يا أبت به عليم، فقد قبلت زواجي بمحمد بن عبدالله.

- أنـا؟! ازوجـك اليتـيم الـذي كفلـه أبـوطالب؟ كلا! ان هذا لا يحدث مادمت على قيد الحياة.

- ألا تـستحي، تـريد أن تـسفّه نفـسك عـند قـريش، تخـبرهم انك كنت سكران؟!

وضربـت خديجة على تلك النغمة طويلاً، حتى أن خويلد إرتبك واضطر إلى القبول النهائي»[1].

و«حينـئذ قـام أبـوطالب وقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم، وزرع اسـماعيل، وجعلـنا حـضنة بيـته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا سادة العرب، ثم ان ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وان كان في المال قل، فان المال ظل زائـل، وعـرض حائـل، وعاريـة مستردة، وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم:

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

«خديجة»، ولها فيه مثل ذلك، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله (عشرون بكرة)[١] وأني يا معشر قريش أشهدكم على ذلك»[٢].

و«تم الزواج، واحتفلت به خديجة، فأمرت الشابات الرشيقات من جواريها، ان يرقصن ويضربن الدفوف أمام المدعوين الذين سروا لهذا الرباط بين عائلتين كريمتين شريفتين»[٣].

إلا أن هناك من يرد على رواية سقي خويلد الخمرة، «لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفجار، مما يكذب ما يُروى من انه كان حاضراً، ولم يكن راضياً هذا الزواج، وان خديجة سقته خمراً حتى أخذت فيه، وزوّجها محمداً»[٤].

وان الذي زوجها هوعمها عمر بن أسد[٥].

الدلالات الاجتماعية والروحية في زواج محمد:

إن اعتراض محمد الأساسي على عزل الحكمة عن الواقع الاجتماعي، والذي تجلى بصورة الترهبن، والميل للزهد المتطرف، والانقطاع عن اسباب

---

(١) ابن هشام، ق١، ج١: ١٩٠ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

(٣) المصدر نفسه (المؤلف).

(٤) محمد حسين هيكل: «حياة محمد» (المؤلف) أما ابن هشام فيؤكد على أن خويلد كان حياً وكان حمزة بن عبد المطلب هوالذي طلبها من خويلد بن أسد، إلا أن قصة شرب خويلد الخمرة وموافقته بدون وعي هذا ما لا يذكره ابن هشام، انظر المصدر، ق١، ج١: ١٩٠ (المحقق).

(٥) المصدر نفسه (المؤلف).

الدنيا وظروف الحياة، هومدخل حقيقي لتعليل جميع مراحل حياة محمد قبل النبوة وبعدها. ولذلك فإن الذين ينطلقون من فكرة اطلاقية التأمل عند محمد يقعون في وهمٍ وخطأ كبيرين، ذلك لأنهم في هذه الحالة ينكرون الدور الواقعي القيادي للسلطة المحمدية الإسلامية، والذي كان مبنياً على العلم بواقع المجتمع، وبشؤونه، إضافةً إلى احتيازه الشروط الروحية الكبرى لتأدية الرسالة المقدسة.

ويندر ان تجتمع الواقعية السياسية والقيادية الجادة مع المثالية والتأملية واستلهام الوحي، على النحوالمحمدي المعروف، لدى سواه من الأنبياء، وتلك ميزة محمد العظمى، التي جعلت منه خاتم الأنبياء، لا بمعنى انه آخر الأنبياء فقط، وإنما، بمعنى انه اجتمعت في شخصه المزايا الجليلة لجميع الانبياء، برهافة، وشفافية عجيبة. ففيه رقة وسماحة عيسى[1]، مثلما فيه قوة موسى (بدون خشونته)،

---

(١) مما يؤسف له، ونحن نعيش في وسطٍ يرى فيه البعض كراهة المزاح، والدعوة إلى الوقار على ما يُفهم منه عبوسة الوجه وعدم المزحة واللطف في الحديث. وكأن المؤمن - على رأي دعواتهم - غلظة في القول وخشونة في الكلام!!! ولا يجوز له التبسم والاريحية!! وبالطبع ان هذه الدعوات، هي قراءات خاطئة لمنهج الإسلام ولمصاديق سيرة الرسولﷺ مع الناس ومع أصحابه.

فعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: أقبل أعرابي على ناقة له حتى أناخ بِباب المسجد، فدخل على نبي الله، وحمزة بن عبد المطلب جالس في نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم النّعيمان، فقالوا للنعيمان: ويحك إن ناقته ناوية، يعني سمينة، فلو نحرتها فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ولوقد فعلت غرمها رسول اللهﷺ، وأكلنا لحماً، فقال إني إن فعلت ذلك،

وأختبرتموه بما صنعت، وَجَد عليَّ رسول اللهﷺ، قالوا: لا نفعل، فقام، فضرب في لبّتها، ثم انطلق، فمرّ بالمقداد بن عمرو وقد حفر حُفرة، وقد استخرج منها طيناً، فقال: يا مقداد غيبني في هذه الحفرة، وأطبق عليّ شيئاً، ولا تدُل عليّ أحداً، فإني قد أحدثت حدثاً، ففعل، فلما خرج الأعرابي رأى ناقته فصرخ، فخرج رسول اللهﷺ فقال: من فعل هذا؟ قالوا نعيمان، قال: وأين توجه، فتبعه رسول اللهﷺ ومعه حمزة وأصحابه حتى أتى على المقداد، فقال رسول اللهﷺ للمقداد: هل رأيت لي نعيمان؟ فصمت، فقال: لتخبرني أين هو؟ فقال: ما لي به علم؟ وأشار بيده إلى مكانه، فكشف رسول اللهﷺ فقال: أي عدونفسه، ما حملك على ما صنعت؟ قال والذي بعثك بالحق لأمرني به حمزة وأصحابه، وقالوا: كيت وكيت، فأرضى رسول اللهﷺ الأعرابي من ناقته، وقال: شأنكم بها، فأكلوها، وكان رسول اللهﷺ إذا ذكر صنيعه ضحك حتى تبدو نواجذه.

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء، يقول: ما رأيت أحداً أكثر مزاجاً من رسول اللهﷺ ولا أكثر تبسماً منه، وإن كان ليسنوأهل الصبي إلى مزاحه (رواه الترمذي في الشمائل: ١٠٥).

وعن عبيد بن عمير قال: كنت عند عائشةرضي الله عنها ونحن نذكر حُمّى المدينة وانتقالها إلى مهيعة ونضحك ثم صرنا إلى حديث بريرة وسئلتها إذ أفتتح علينا عبد الله بن عمر فلما رأيناه، أكثر وقال: دعنا من باطلكما، قالت عائشة: سبحان الله ألم تسمع رسول اللهﷺ يقول: إني لا أمزح ولا أقول إلا حقاً (رواه الترمذي في باب المزاح ٤: ٣٥٧ والشمائل: ١١٠ ورواه أحمد في مسنده ٢: ٣٤٠).

وعن ابن عباس أن رجلاً سأله: أكان النبيﷺ يمزح؟ فقال: كان النبيﷺ يمزح.

وينقل لنا أنس بن مالك قصة الشيخ الذي جاء إلى النبيﷺ وكيف مازحه الرسولﷺ فقال الشيخ: احملني، فقال الرسولﷺ: إنا حاملوك على ولد الناقة، قال الشيخ: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق ثم ما زحهﷺ بلطف: لا يدخل الجنة عجوز

وتـدخل وحـدة الـسمات النـبوية المشهورة عند الأنبياء، في الطبيعة المحمدية في الضفيرة الروحية التي تعزز فيها اندماج الممارسة الواقعية بالتأملية الكبرى.

(رواه أبـوداود في سـننه ٥: ٢٧٠-٢٧١، والترمذي في سننه٤: ٣٥٧، وأحمد في مسنده٣: ٢٦٧، الترمذي في الشمائل:١١١).

وشـبيه هذه الرواية، عن مجاهد، قال: دخل النبيﷺ على عائشةرضي الله عنها وعندها عجوز فقال: من هـذه؟ قالـت: هـي من أخوالي، فقال النبيﷺ: إن العُجز لا يدخلن من الجنة فشـقّ ذلك عـلى المـرأة، فلـما دخل النبيﷺ قالت له عائشة، فقال: إن الله عزوجل ينشئهن خلقاً غير خلقهـن (رواه الـترمذي في الـشمائل: ١١١-١١٢) ومـع ما في قولهﷺ من مزاح إلا إنّ قوله حـق، كما اشارت إلى ذلك السيدة عائشة في الرواية الآنفة الذكر: «إني أمزح ولا أقول إلا حقاً» وعـن عكـرمة، قال: كان بالنبيﷺ دُعابة - يعني مزاحاً - (رواه الترمذي٤: ٣٥٧ وأحمد في مسنده٢: ٢٤٠ والخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عباس٨: ٣٠٨).

وعـن ابن أبي الورد عن ابيه، قال: رآني النبيﷺ ورآني رجلاً أحمر فقال: أنت الورد (ذكره ابن حجر في الإصابة٤: ٢١٧).

وعـن عائـشةرضي الله عنها: مـا رأيت رسول اللهﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسّم (رواه الـبخاري في صحيحه١٠: ٥٠٤، ومسلم في صحيحه٢: ٦١٦ وأبوداود في سننه٥: ٣٢٩ وأحمد في مسنده٦: ٦٦ والبيهقي في الدلائل١: ٣٢٢ والبغوي في شرح السنة١٣: ٢٥٩).

وعـن زياد بن صهيب عن أبيه قال: ضَحك رسول اللهﷺ حتى بدت نواجذه (رواه البخاري ١٠: ٥٠٣ ومسلم في صحيحه١: ١٧٤ وأبوداود في سننه١: ٦٩٣ وابن ماجه عن علي بن أبي طالـبرضي الله عنه ٢: ٧٨٦ في باب القضاء بالقرعة) وعن أنس بن مالك، قال: رأيت رسول اللهﷺ تبسّم حتى بدت نواجذه (البخاري١٠: ٥٠٣ ومسلم في صحيحه١: ١٧٤) (المحقق).

ولولم يتحلّ بهذه المزية العالية، لكان الميل إلى اتهامه بالسحر طاغياً، ولكن حقائق الحياة برهنت، بما ليس فيه، على المعايشة المحمدية القوية للناس، في مختلف ضروب نشاطهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولم تكن المعايشة تلك ملامسة رحيمة، اونوعاً من التجمع الذي يشده إلى تلامذته وحوارييه، في إطار حلقات التربية الروحية والثقافية، وخلق الأنموذج الحواري الفاضل، بل كانت معايشة من طراز الفعاليات الجماعية النشيطة، والهادفة، والمؤثرة، التي تركت ذكرها، وصداها في نفوس البشر، مما زودته بقوة اجتماعية متنامية بوجه الاعداء الخطيرين الذين احكموا الطوق على محمد.

ويُعتبر زواجه بخديجة واحداً من أعظم الأدلة على أن محمداً كان عائشاً في صلب وعمق الحياة الاجتماعية، لأنه لم يكن - أصلاً - ينوي التخلي عنها سعياً وراء العزلة الاستلهامية، والتأملات الفريدة[1].

---

(١) بهذا التحليل العلمي والمنطقي أفصح المؤلف عزيز السيد جاسم عن حقيقة معتقدة، وليس كما أُشيع عنه! واتهامه بتبني الأفكار الماركسية والالحادية، وقد أوضحنا ذلك من خلال كتابه«علي بن أبي طالب... سلطة الحق» والذي كان لنا الشرف في تحقيقه والتعليق عليه بما يجب أوينبغي، نقول: قد أوضحنا هوية المؤلف الإسلامية بعد ابراز الكثير من النصوص بقلمه في مقدمتنا على الكتاب والإشارة اليها في مواقعها في النسخة الأصلية والنسخة المحققة. نعم أن المؤلف السيد جاسم قد تأثر وانخرط في حركة الحزب الشيوعي التي كانت سائدة بشكل قوي على الساحة السياسية العراقية، وهذا لا يعني انّه كان يتبنى الالحاد ومحاربة الإسلام، بقدر ماكان يرى من شعاراتهم ما يملي طموحه من حيث؛ العدالة والمساواة، ويومها كان العراق يشكو فقر الحركات الإسلامية الواعية،

فالزواج منطلق اجتماعي رصين سوي، منسجم مع الصيغة السائدة للعائلة القرشية والعربية، وهو يرد - ابتداءً وانتهاءً - على كل الاقوال التي أرادت الافتراء على محمد بأنه ساحر، أوكاهن، أو به مسٌ من جنون. لأن الزواج، وتكوين الأسرة، عمل من اعمال العقل الاجتماعي، والنظام، والاعتزاز بتقاليد التنشئة العائلة، إضافة إلى ما تحمله من تلبية حاجات إنسانية ضرورية.

وفي زواج محمد بخديجة تكمن قيمة الانتباهات المحمدية إلى معنى شراكة الحياة بين الزوجين. لذلك جاء زواجاً ناجحاً بكل المواصفات الفردية والعامة،

ولم يختص بهذه الجنبة السيد عزيز لوحده، بل أن اغلب الشيوعيين العراقيين هم على شاكلة عزيز، وقد ذكر لي المرحوم العلامة السيد مرتضى العسكري عن رجل معمم من مدينة الكاظمين ببغداد ينتمي لأسرة علوية مشهورة بالعلم أنتمى في مرحلة الخمسينات وبالتحديد عام ١٩٥٧ إلى صفوف الحزب الشيوعي فصار الحديث عن هذا الرجل يشغل مجالس علماء الدين، وشاءت الصدف أن يلتقي العلامة العسكري بهذا الرجل في صحن الأمامين الكاظمين عليهما السلام وتبادلا الحديث، فأفصح الرجل بان تطلعات الشيوعيين هي الأقرب إلى الإسلام وها أنت ترى أين إلتقينا الآن؟ ألم يكن في الصحن الشريف فأنا باقٍ على ممارستي العبادية من صلاة وصوم وحقوق، إلا أن عدم وجود كيان سياسي إسلامي، كنت أُرى من الواجب العمل لتحقيق شيء من السعادة للفقراء، وإلاّ لا يمكن أن نبقى كرجال دين نُنظرّ دون النزول إلى ساحة العمل.

يقول العلامة العسكري: كان هذا الحوار هو الذي جدح في ذهني فكرة تأسيس حزب إسلامي = حزب الدعوة، وللمزيد راجع بحثنا عن العلامة العسكري الموسوم «العلامة العسكري رؤية عصرية» ضمن كتاب دراسات وبحوث، طبع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام (المحقق).

فأدخل محمداً في المجرى العريض للحياة الاجتماعية بكل مسؤولياتها المتشعبة.

إبان ذلك، كانت تتعزز الصفات الأخلاقية لمحمد، فكان الناس يدعونه، (الصادق) و(الأمين)[1]. ولم تكن تلك التسميات تطلق جزافاً. إنها بالدرجة الأولى لم تكن تسميات أطلقها محمد على نفسه، بل هي الحكم الأخلاقي للناس على محمد، وهو حُكم بَنَته التجربة الحياتية، والمعايشة الصادقة.

ففي سياق تعامل محمد مع الناس، وتعامل الناس مع محمد، في القول والعمل، وفي البيع والشراء، وفي كافة مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كان محمدٌ أميناً بشكل متميز، فمن المنطقي والمعقول انه كان هناك

---

(١) يذكر ابن هشام: ان خديجة بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: «يابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسلطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها» ابن هشام، ق١، ج١: ١٨٩، فرغبة خديجة ﷺ بمحمد بن عبد الله لما تمتع به من أمانة وصدق.

كما أن قريش نفسها جعلته الحَكم في قضية بناء الكعبة بعد أن حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ورضى الكل بما يشير به محمد بن عبد الله من رأي. لأنه كان مشهوراً في أوساطهم بأمانته وصدقه وحكمته، ومن ذلك قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي في هذه الحادثة:

رضينا وقلنا العدل أول طالعٍ ... يجيء من البطحاء من غير موعدِ

ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمدِ

ابن هشام ق١، ج١: ١٩٧ من قول المحققين (المحقق).

أناس يتسمون بالأمانة، إلا انهم لم يحظوا بلقب الأمين، الذي حظي به محمد لأنه كان مضرب الأمثال في الأمانة والصدق، وبطبيعة الحال ان تلك الأمثال كانت وقائع عيانية، وممارسات دالّة.

وكما ان الامانة هي صفة اخلاقية عالية متحصلة في التجربة وفي المشاركة العميقة في الحياة الاجتماعية، فانها - ايضاً - تقود - باعتبارها صفة ذات معنى اجتماعي - إلى مراكمة المحبين الذين تسحرهم صفة الأمانة، أوالذين يحتاجون إليها في معاملاتهم المتنوعة، فالناس - على طول الأزمنة واختلاف مراحلها - يحتاجون إلى الأمين، في المعاملات التجارية، وفي الايداع، وفي حفظ الاسرار، وفي أخذ النصيحة، وفي رعاية الأمور التي تستحق الرعاية. والأمين - عادةً - يفصل بالعدل، والمحتاجون إلى العدل كثرة في اوقات الظلم، والاسترقاق.

وترتبط أمانة محمد بمجموعة من المناقب الأصيلة، المتغلغلة في الذكاء المحمدي الباهر، فكانت أشبه بالاشعاعات الملونة الرائعة، التي - أينما حلت - تخترق الظلام، وتشّد عيون الناظرين إليها.

وحدة المناقب الاخلاقية:

منذ البدء كان محمد يتسم بأخلاقية أصيلة، هي أخلاقية الفطرة النبيلة، وقد تجلت في العدالة المبكرة في النظر إلى الأمور، وفي الانسجام التام بين الصفات الأخلاقية الجليلة. بمعنى ان اخلاقية محمد قبل اضطلاعه بمسؤولية الرسول كانت مزيجاً رفيعاً من المثالية والواقعية.

وليس مستغرباً القول بأن محمداً أوتي من الحكمة، منذ الطفولة، ما جعله قادراً على تفحص الحق والخير والجمال، وعزل هذه القيم المجيدة عن الباطل والشر وقبح النفس، وترهص الطفولة بالملامح الأولى لعلوالنفس، والعدالة، وحسن النصيب، فمنذ أن أرضعته حليمة السعدية، كان قد اختار الثدي الأيمن، ولم يتجاوز إلى الثدي الايسر تاركاً إياه لأخيه في الرضاعة. وفي ذلك قالت حليمة:

«وضعته في حجري، وألقمته ثديي الأيمن ليتغذى منه بما شاء الله من تغذية، فوجد فيه - على دهشة مني - ما يشبعه، ثم منحته ثديي الأيسر، فرفضه، تاركاً إياه لأخيه من الرضاعة، وابتع ذلك دائماً»[1].

إن العدالة المغروسة في جبلّة محمد، هي تكوينه الأصلي الذي تأسست منه وفية كافة الخصال الأخلاقية العظيمة، التي كان معروفاً بها بين أبناء قومه.

ورغم أن البادية منحته الوضوح والقدرة على مراقبة الطبيعة ومراقبة النفس، بما في ذلك من الشجاعة، واقتراب من حضور الطبيعة العاري، الا ان الحياء كان سمةً مميزة من سمات محمد، وهي عادة، من الصفات التي يفتقر اليها

---

(١) اتبين دينيه: المصدر الوارد (المؤلف) أما في سيرة ابن هشام، والقول لحليمة السعدية: «فلما وضعته في حجري، أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما» ولم يذكر ابن هشام عن ابن اسحاق غير ذلك، انظر المصدر ق١، ج١: ١٦٣ إلا أن في الروض الآنف ذكر أن غذاؤهﷺ على الثدي الأيمن فقط، انظر ما قاله المحققون لسيرة ابن هشام ق١، ج١: ١٦٣ هامش رقم ٢ (المحقق).

اولئك الذين يتسمون بالجسارة، قليلاً أوكثيراً.

والحياء - هنا - من ضروب العزة الإنسانية الكريمة، وارتفاع النفس عن الزلل والعوج وعن ما يسلب الشخصية حضورها المتميز، والمؤهل لدور تأريخي قادم، وقد كان الحياء طبيعة فطرية فيه، رسخت منذ ان ترسخ بنيانه الطفولي في كنف الطبيعة، وتحت رعاية السماء: «كان لا يبكي، ولا يصرخ قط، إلا إذا تُرك عريان، فتعرض إلى أنظار الاخرين»[1].

ولازمه الحياء، وهودليل رقي النفس وكبرها وارتفاعها عن الصغائر وتأهلها الطبعي لقيادة الناس[2].

---

(١) سيرة ابن هشام (المؤلف).

(٢) من الأمور التربوية التي شرّع أخلاقياته المنهج الإسلامي أساساً لحمكة العقل وحُسن التصرف إنطلاقاً لتحكيم عملية السلم والسلام، هوالحُلم وكظم الغيظ اللذان يمثلان مصاديقاً للتقوى، ومن معالم السيرة النبوية، جسد الرسول الأكرمﷺ مواقف ساطعة من عمق التربية الأخلاقية وغوراً في هذه النفس الكبيرة، وهي تعكس حقيقة الإيمان ومصداق التقوى.

فعن انس بن مالك، قال: كان رسول اللهﷺ قاعداً في المسجد ومعه أصحابه إذ جاء إعرابي فبال في المسجد فقال أصحاب رسول اللهﷺ مَهْ مَهْ، فقال رسول اللهﷺ: لا تُزرموه، ثم دعا فقال: إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء وإنما هي لقراءة القرآن وذكر الله والصلاة ثم دعا رسول اللهﷺ بدلو من ماء فشَنَّه عليه (رواه مسلم في صحيحه١: ٢٣٦-٢٣٧، والبخاري في باب الوضوء١: ٣٢٤ وأبوداود في كتاب الطهارة ١: ٢٦٣-٢٦٤، والنسائي في كتاب المياه١: ١٧٥، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسنتها١

جاء في سيرة ابن هشام:

«قال رسول اللهﷺ: لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فاني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكمٌ ما أراه، لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك ازارك. فأخذته وشددته عليَّ، ثم جعلت احمل الحجارة على رقبتي وازاري عليَّ من بين اصحابي»(١).

ويروى: « إن ابا طالب كان ذات مرة يقوم باصلاح بئر زمزم، وكان

: ١٧٥ والدارمي في سننه١: ١٥٤ ومالك في الموطأ١: ٦٤-٦٥.

وعن عبد الرحمن بن أبزي قال: كان رسول اللهﷺ من أحلم الناس وأصبرهم وأكظمهم للغيظ.

وعن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس إذ دخل رسول اللهﷺ من باب المسجد مرتدياً ببرد من النجرانية إذ تبعه أعرابي فأخذ بمجامع البُرد اليه، ثم جَذبه اليه جذَبة فرجع رسول اللهﷺ في نحر الأعرابي من شدّة جذبته، وإذا أثر حاشية البُرد في نحر رسول اللهﷺ فنظر اليه رسول اللهﷺ وضَحِكَ وقال: ما شأنك، فقال له يا محمد مُر لي من المال الذي عندك، قال: مروا له (رواه البخاري في صحيحه١٠: ٢٧٥ ومسلم في صحيحه ٢: ٧٣٠-٧٣١، والبيهقي في الدلائل١: ٣١٨ وأحمد في مسنده ٣: ١٥٣ وأبونعيم في الدلائل١: ٢٣٤) (المحقق).

(١) المصدر نفسه (المؤلف)، وسيرة ابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد١: ١١٩، والمصدر المعتمد «سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي»، ق١، ج١: ١٨٣ (المحقق).

غلمان قريش، ومن بينهم محمد، ينقلون له ما يلزمه من حجارة، ولتحاشي المشاق أخذ كل منهم إزاره، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، حتى لا تضره خشونتها، فأبان ذلك عن عورتهم، وما ان رأى محمد نفسه على ذلك الوضع، وشعر بأنه معرض للأعين، حتى استولى عليه انقباض شديد في الصدر، وسال على جبهته العرق، وأخذته رعشة الخجل، فسقط مغشياً عليه»[1].

وقد ورد في حيائه انه:«كان صلى الله عليه وآله وسلم أشد حياءً من العذراء في خِدرها، وكان اذا كره شيئاً عرف في وجهه»[2].

وجمع إلى جانب حيائه أجمل الفضائل: « فقد جمع من الاخلاق افضلها على سبيل القطع، وعرف عنه ما جعله موضع احترام العرب، وأجلال القبائل والعشائر، ولا جدال بين المؤرخين في ذلك كما يقول العلامة البحراني في كتابه الذي أصدره في مطلع القرن الثالث عشر الهجري باللغة الهندية في بمباي ما ترجمته: «إتفق أهل السير والتواريخ ان النبيﷺ نشأ في قومه عاقلاً لبيباً وكاملاً أديباً، ملازماً لحسن الصمت والوقارمصيباً، وإنه لم يعثر أحد من أهله منه على طفولته، ولا صبوه حتى بلغ مبلغ الرجال. وبعد بلوغه ذلك الحد شاع بين قريش صدقه وأمانته، واشتهر فيهما بينهم عدله واستقامته، وتحققت عندهم

---

(١) اتيين دينيه: (المصدر): المؤلف، ومسند أحمد، ج٣: ٣١٠ (المحقق).

(٢) ابوعيسى محمد بن سَوْرَه الترمذي في (الشمائل المحمدية) عن أبي سعيد الخدري، (المؤلف)، وأخرجه البخاري٦: ٥٦٦، والبداية والنهاية٦: ٣٦، مجمع الزوائد٩: ١٧ وصحيح مسلم٧: ٨٧، والترمذي في سننه: ٢٦(المحقق).

عفّته وصيانته، وانتشر في مكة وما حولها طهارته من النقص، ونزاهته، فعظم عند قومه قدره، وظهر بينهم مجده وفخره، حتى طفقوا يسمونه الصادق الأمين لما ثبت لديهم له من الصدق المستبين، وتوطد له فيهم من الحلم الرزين، فكانت قريش ومن يرد مكة من العرب يودعونه أموالهم وذخائرهم ثقةً به واعتماداً على ما يرون من حسن سيرته وصحة مذهبه في الوفاء، وسلامة طريقته. وما زالت هذه صفتهُ عندهم إلى ان بعثه الله اليهم، فكانوا يجادلونه في الدين ويأتمنونه على المال الخطير الثمين»[1].

---

(١) عبد الرزاق نوفل «محمد رسولاً نبياً» (المؤلف) ومثله في تفسير القرطبي١٩: ٧٥، هذه الخصال كانت تربية شرّعت منهجاً اخلاقياً متكاملاً، جَسّده رسول اللهﷺ في سيرته مصاديقاً حيّة فاعلة للتدبر والتفكر بإنسانية الرسالة وإنسانية الرسول.

فمنهج الإسلام يؤكد من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٠٢).

ومن قوله سبحانه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء: الآية ١).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (الأحزاب: الآية ٧٠).

ثم يظهر سبحانه تعالى حكمة هذه التقوى مع الاشارة إلى القدوة التي جسدت هذه التقوى بكامل معالمها، وهورسول اللهﷺ فيقول سبحانه تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الاحزاب: الآية ٧١).

فالتقوى هي مصداق الأخلاق والأدب الذي حدده الله سبحانه وتعالى في منهج الرسالة.

وجعل رسول الله ﷺ الأنموذج الأول والمصداق الأهم والقدرة التي لابد أن ينظر لها الإنسان المسلم، لما اُكتملت فيه خصال هذه التقوى ولذا أكد المنهج الإسلامي: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: الآية: ٢١).

فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقاً (رواه البخاري في صحيحه١٠: ٥٨٢، ومسلم في صحيحه١: ٤٥٧ ح٢٦٧، وأبو داود في سننه٥: ١٣٢، وأحمد في مسنده٦: ٢٣٦.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ماكان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، فلذلك انزل الله عزوجل: «وإنك لعلى خلق عظيم» (رواه أبونعيم في دلائل النبوة١: ٢٣٠-٢٣١، والواحدي في أسباب النزول: ٤٧١، والدر المنثور٨: ٢٤٣).

وعن زيد بن ثابت قال: إنّ النبي ﷺ كنّا إذا جلسنا إليه إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا، فكل هذا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ (رواه أبونعيم في دلائل النبوة١: ٢٣ والطبراني في الكبير ٥: ١٤٠، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٧ ورواه الترمذي في الشمائل: ١٦٣).

وعن جابر بن سمرة، قال: كان رسول الله ﷺ طويل الصمت، وكان أصحابه يتناشدون الشعر عنده ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم معهم إذا ضحكوا (رواه البيهقي في دلائل النبوة١: ٣٢٣-٣٢٤).

وعن ابراهيم عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله، قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام فصلى (رواه البخاري١٠: ٤٦١، والترمذي عن وكيع باب (٤٥)٤: ٦٥٤ وقال: حسن صحيح ورواه أحمد في مسنده٦: ١٢٦، وابن سعد في الطبقات١: ٣٦٦).

وعن عائشة قالت: كان يعمل كعمل أحدكم في بيته يخيط ثوبه ويخصف نعله (رواه أحمد في مسنده٦: ١٠٦ وابن سعد في الطبقات١: ٣٦٦ وعبد الرزاق في مصنفه١١: ٢٦٠ والترمذي في الشمائل: ١٦٢).

وعن أنس بن مالك قال: خدمت النبيﷺ تسع سنين، فما أعلمه قال لي قط: هلا فعلت كذا وكذا، ولا عاب شيئاً عليّ قط (رواه مسلم٤: ١٨٠٤، ج٥٣ ورواه أحمد في مسنده ٣: ١٠٠).

وعن أنس - أيضاً - قال: صحبت رسول اللهﷺ عشر سنين وشممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهته. وكان إذا لقيه واحد من أصحابه فتناول يده ناولها إياه، فلم ينزع أذنه ناولها إياه فلم ينزعها عنه حتى يكون الرجل هوالذي ينزعها منه (رواه البخاري في كتاب المناقب ٦: ٥٦٦ ح٣٥٦١ ورواه مسلم في كتاب الفضائل٤: ١٨١٥ ح٨٢ وأحمد في مسنده ٣: ١٠٧ والبيهقي في الدلائل١: ٣٢٠-٣٢١).

وعن أنس بن مالك الأنصاري قال: أتت بي أمي إلى رسول اللهﷺ، فقالت: يا رسول الله هذا خويدمك، فخدمت النبيﷺ تسع سنين، فما قال لي لشيء قط: أسأت ولا بئس ما صنعت (رواه أبو يعلى في مسنده٦: ٣١٢ ورواه أحمد في مسنده٣: ١٢٤).

وعن أبي الدرداء قال: كان رسول اللهﷺ: إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه (رواه أحمد في مسنده ٥: ١٩٨).

وعن الزهري أن رسول اللهﷺ لا يسرد سردكم هذا ولكن يتكلم بكلام فصل يحفظه من سمعه منه (رواه الترمذي في سننه٥: ٦٠٠ ورواه أبوداود٤: ٦٥ ومسلم٤: ١٩٤٠ وأحمد في مسنده ٦: ٢٥٧، وابن سعد في الطبقات١: ٣٧٥.

وعن عائشة، قالت: ما ضرب رسول اللهﷺ امرأة قط، ولاضرب خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله عزوجل ولا نيل منه فانتقم من صاحبه إلا أن تنتهك محارمه فينتقم (رواه أبو يعلى في مسنده ٧: ٣٣٩-٣٤٠ وأخرجه الحميدي في

مسنده ١: ١٢٥ وأحمد في مسنده٦: ٢٣٢ وأبوداود٥: ١٤٢ ح ٣٧٨٦ ومسلم في صحيحه٤: ١٨١٤ والبخاري ح٢٧٤ وابن ماجه في كتاب النكاح١: ٦٣٨ والبيهقي في دلائل النبوة١: ٣١١ وأبونعيم في الدلائل١: ٢٣٣).

وعن عائشة، قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ في أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان ابعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة لله عزوجل فينتقم لله عزوجل (رواه البخاري١٠: ٥٢٤-٥٢٥ ومسلم في صحيحه٤: ١٨١٣ ورواه مالك في الموطأ٢: ٩٠٢ وأحمد في مسنده٦: ١١٥-١١٦ والبيهقي في الدلائل١: ٣١٠ وأبو نعيم في الدلائل١: ٢٣٢ وأبو يعلى في مسنده٧: ٣٤٥).

وعن أنس، قال: خدمتُ النبي ﷺ تسع سنين فما قال لشيء أسأت ولا بئس ما صنعت وكان إذا أنكر الشيء يقول كذا قُضي (رواه أبو يعلى في مسنده ٦: ٤٠٠).

ومن رواية أخرى عن أنس، قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال في شيء فعلت لِمَ فعلت ولا لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعله وما سبّني سبّة قط (رواه أبو يعلى في مسنده ٥: ٣٤٩ وأحمد في مسنده٣: ٢٦٥).

وعن أنس - أيضاً-، قال: لم يكن رسول الله ﷺ سبّاباً ولا فحاشاً، كان يقول لأحدنا في المَعتبة: ماله؟ تَرِبَت يمينه (رواه البخاري١٠: ٤٦٤ والبيهقي في الدلائل١: ٣١٤ وأحمد في مسنده٣: ١٤٤ وابن سعد في الطبقات١: ٣٦٩).

وعن ابن عمر، قال: إنّ النبي ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وأنه كان يقول: خياركم أحسنكم خُلقاً (رواه مسلم في كتاب الفضائل: ٤، ح١٨١٠ والبخاري في صحيحه ١٠: ٤٥٦، والبيهقي في الدلائل: ١، ح٣١٤، وابن سعد في الطبقات: ١: ٣٧٧).

وعن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي يصرف ولم يُر مقدّماً ركبته بين

يدي جليس له قط (رواه البيهقي في الدلائل١: ٣٢٠، وابن سعد في الطبقات١: ٣٧٨).

وعنه أيضاً، قال: خدمت النبيﷺ عشر سنين لم يضربني قط ولم ينهرني يوماً قط، ولم يُعَبِّس وجهه علي يوماً قط (النهاية٣: ١٧١).

الحياء:

من سمات الفضيلة التي تُدخل على الإنسان هيبة الوقار، ولذا كان رسول اللهﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه - كما يقول أبا سعيد الخدري - في وجهه (رواه مسلم في صحيحه٤: ١٨٠٩-١٨١٠، والبخاري في صحيحه ١٠: ٥١٣، وابن ماجه في سننه٢: ٣٩٩ والبيهقي في الدلائل١: ٣١٦ وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق: ١٧ ورواه أبو يعلى في مسنده٢: ٣٨٥-٣٨٦).

وعن أبي سعيد - أيضاً - قال: كان رسول اللهﷺ من شدّة حيائه كأنه جارية في خِدرها (رواه أبو يعلى في مسنده٢: ٣٨٥-٣٨٦).

وعن سهل بن سعد قال: كان رسول اللهﷺ حيياً لا يَسأل شيئاً إلا أعطى (رواه الدارمي في سننه١: ٣٦ ح٧٢ ومسلم في كتاب الفضائل٤: ١٨٠٤).

وعن أنس بن مالك: إنّ النبيﷺ كان أشدّ حياءً من العذراء (ذكره البزاز في كشف الأستار٢ : ٤٠٥ والهيثمي في مجمع الزوائد٨: ٢٦).

كرمهﷺ:

الكرم: صفة من الصفات الحميدة الراسخة في النفس تصدر عنها الافعال بسهولة دون تكلف، فالعطاء يكون بدون عناء، وهذا ما لا يتوافر إلا عند القليل من الناس. لأن صفة الكرم - الخالص لوجه الله تعالى - يجب أن تصاحبه صفات أخرى كالصدق والشهامة والنجدة وعزة النفس والتواضع والتثبت والعفو والبشر والرحمة والحكمة والشجاعة والوقار.

وربما يعتقد عند البعض ان الكرم صفة لا علاقة لها بهذه الصفات كما هوالحال في كرم معاوية

هـنا يمكـن فهم قيمة كل هذه الخصال الجذابة في حل مشكلات المجتمع المكـي وبخاصـة أشدها خطورة، تلك هي المشكلة التي حصلت، مشكلة إعادة بناء الكعبة، بعد أن تصدعت بالسيل[1].

بن أبي سفيان وأمثاله من الحكام الأستبداديين المراوغين!!

والحـق أن هـذا ممـا لا يمكن أن يوصف بالكرم وإنما هوالذكاء في المكر والخديعة الذي ينجم عـنه الاسـتعداد للعطاء وراء ما يتوقعه من مصالح أوما يعرف بتبادل المنفعة سواء كانت مادية أودعاية اعلامية (معنوية).

ومـثلما لهـذه الملازمـة بين الكرم والصفات الحميدة الأخرى، فالكرم له آلية تكاد تكون منبعاً فريداً لكل معاني الإنسانية حينما يكون ابتداءً كما قال ذلك الإمام السجاد عليه السلام: «الكرم ما كـان أبـتداءً» أي دون أن يُـرى في ذلـك ذلـة الـسؤال عـلى وجـه السائل. وخلاف ذلك فهـو«اللئامة» المذمومة، وما يصحبها من مساوئ الخلق كالرياء والغيبة والنميمة والتبذل والغدر والحمق والكذب والجهل والمكر والخبث والطيش والحقد والحسد.

ولذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله جسد مصاديق الكرم في إطار منهج الرسالة الخلقي.

فعـن أنـس بـن مالك، قال: كان أكرم الناس (رواه الترمذي في المناقب٥: ٥٨٥ والدارمي في كتاب المقدمة ١: ٣٠).

وعـن أنـس - أيـضاً - قال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله أدركه أعرابي فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة حتى نظـرت إلى صفحة عُنُق رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدّة جبذته ثم قال: يـا محمـد مـرّ لي مـن مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وآله فضحك وأمر له بعطاء (رواه البخاري في صحيحه١٠: ٢٧٥ ومسلم٢: ٧٣٠-٧٣١) والبيهقي في الدلائل١: ٣١٨ وأحمد في مسنده٣: ١٥٣ وأبونعيم في الدلائل١: ٢٣٤ (المحقق).

(١) انظر ابن هشام في السيرة ق١، ج١: ١٩٢ - ١٩٩ (المحقق).

سيل الماء وسيل الدم:

كانت الكعبة بلا سقف، وكانت جدرانها تستحق الترميم، فظلت مهددة بالتضعضع من جانب، وبسرقة محتوياتها الثمينة من قبل اللصوص من جانب آخر، وكان التلكؤ في بنائها يعود إلى الخشية الغريزية من قداستها والحذر من مسّها[١]، إضافة إلى أن المخاوف كانت تضرب بعيداً بجذورها في ميدان المزاحمات القبلية[٢].

---

(١) يقول ابن هشام: إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن مغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها، وهويقول: اللهم لم تَرُعْ- اي اللهم إنا لا نريد إلا الخير - ثم هدم من ناحية الركنيين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظُر، فان أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يُصبه شيء، فقد رضا الله صُنعَنا، فهدمنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهَدَمَ الناس معه...انظر ابن هشام المصدر المعتمد ق١، ج١: ١٩٥ ويذكر ابن هشام: ١٩٨ ان حيّة كبيرة كانت أيضاً تمنع من تهديم الكعبة وبناءها من جديد(المحقق).

(٢) قال ابن هشام عن ابن اسحاق: ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حِدَة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فأختصموا فيه، كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدّوا للقتال، فقرّبت بنوعبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنوعدّي ابن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعَقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أوخمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، انظر ابن هشام، ق ١، ج١: ١٩٦-١٩٧ (المحقق).

لكـن سـيل الماء العظيم المنحدر من الجبال، والذي هصر الكعبة بعتوٍ لا يرحم، فـرض على القرشيين ان يبادروا إلى إنقاذ الكعبة من الخطر الداهم، و«صادف ان رمى البحـر إذ ذاك بـسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر روميّ اسمه باقوم فحطمها. وكان باقـوم هـذا بناءً على شيء من العلم بالنجارة. فلما سمعت قريش بأمره خرج الوليد بن المغـيرة في نفـر من قريش إلى جـُدّة، فابتاعوا السفينة من الرومي، وكلـّموه في ان يقدم معهم إلى مكة ليعاونهم في بناء الكعبة، وقبل باقوم»[1].

وصـل البناء إلى موضع الحجر الأسود، فابتدأ الانشقاق الدامي حول من يـنال شرف وضـع الحجـر الأسـود في مكانه من الجانب الشرقي، وحيث كانت القداسـة تغـلي في الدماء فوّارة قاسية، فقد استعد الجميع من قريش إلى التذابح، و«قـربت بنوعـبدالدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنوعدي بن كعب على المـوت، وادخلـوا أيـديهم في ذلـك الـدم، عازمـين عـلى وضع الحجر اوالموت. ومكـثت قـريش عـلى ذلـك أربعـة أيـام، يتهدد بعضها البعض، ويتوعد وينذر ويراقب حركات الاخرين...»[2].

حيـنما كان الجو الديني وثنياً كانت الاساطير التي تعشش في الأدمغة، هي

---

(١) انظـر ابـن كثير في السيرة النبوية عن ابن اسحاق١: ٢٧٦، وابن هشام في السيرة (المصدر المعتمد) ق١، ج١: ١٩٣ (المحقق).

(٢) اتيين دينييه: (محمد):«تعليق على اخبار المصادر التقليدية» (المؤلف) وانظر السيرة النبوية لابن هشام، ق١، ج١: ١٩٦-١٩٧ (المحقق).

نفسها محركات غريزة القتل، وبدلاً من أن تكون قداسة المكان درساً للعرب والأعراب في إحلال السلم، كانت تتحول إلى دوافع للعداوة لا تكف عن الفحيح، أي ان سعار العبادة الوثنية، الذي استقى عناصره من الخوف الغامض من هيبة الكون، لم يجد ما يلطف منه، ويقلل من جدّته، عقل حكيم، أوشيخ قبيلة.

ولكن محمداً - وحده - الذي استطاع أن يوقف مجزرة الأهل. في البداية تحدث احد كبار قريش وهو أبوأمية بن المغيرة المخزومي[1]، عن اختيار حكم، والحكم هو أول من يدخل من باب الصفا. وكان الداخل محمداً. فتلقوه جميعاً قائلين:«هذا الأمين.. هذا محمد!»[2]، إنه كان حكماً في أمور كثيرة، لم تذكر لكثرتها.. لذلك اختزلوا كل تلك الأمور في صفة واحدة، مركزة، تلك هي: «الأمين». وما غاب عن بصائر الكبار والشيوخ والحكماء في قبائل قريش، بسبب الانغماس في ضيق أفق العصبية الدامية، والاسطورية الوثنية البغيضة، كان قد تبدى أمام ذهن محمد المتوقد، بالبداهة الفذة. فلم يتلكأ، أويتأخر، أويأخذ مهلة تفكير طويلة، وتحركت يداه بأيعاز من عقله الثاقب، فجاء الحل سهلاً، سريعاً، بسيطاً، كشربة ماء، لكنه يا له من حلٍ عجيب في بساطته، وصعب في سهولته!

---

(١) ويروى ان المشير على قريش هومهشم بن المغيرة، ويكنى أبا حذيفة، أنظر ابن هشام ق١، ج١: ١٩٧ هامش رقم ١ (المحقق).

(٢)قال ابن هشام: كانت قريش تسمّي رسول اللهﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين، المصدر المعتمد، ق١، ج١: ١٩٨ (المحقق).

قال: أتوني بثوب، نشره ووضع فوقه الحجر الأسود، ثم قال: «ليأخذ رئيس كل قبيلة بطرف الثوب، الذي يوجد تجاهه» فحملوه جميعاً بالمشاركة حتى إذا بلغ الثوب موضع الحجر الأسود، امتدت يده المباركة إلى الحجر الأسود، فنقلته إلى موضعه[1]، وبذلك حالت فطنته دون الفتنة الدامية، وكانت تلك الفطنة حكمة إنسان ذي خبرة بالناس، لا رأي إنسان معتكف وإنعزالي و«اختلف في سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش في أمر الحجر، فقيل: كان ابن خمس وعشرين، وقال إبن اسحاق: كان ابن خمس وثلاثين.

---

(١) السيرة النبوية لأبن هشام، ق١، ج١: ١٩٧ (المحقق) وفيها قال الزبير بن عبد المطلب أبياتاً من الشعر مؤرخاً هذا الحدث:

عجبت لمن تصوّبت العقاب ... إلى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيشٌ ... وأحياناً يكون لها وثابُ
إذا قمنا إلى التأسيس شدّت ... تهيّبنا البناء وقد تهابُ
فلما أن خشينا الرّجز جاءت ... عقاب ستلئب لها انصباب
فضمّتها اليها ثم خلّت ... لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
غداة نُرفع التأسيس منه ... وليس على مّسوّينا ثياب
أعزّ به المليك بني لؤيّ ... فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنوعديّ ... ومرّة قد تقدّمها كلاب
فبّوّ أنا المليك بذاك عزّا ... وعند الله يُلتمس الثواب

(المحقق).

وسواء أصحّت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين، فإن اسراع قريش إلى الرضا بحكمه أوّل ما دخل من باب الصفا، وتصرفه هو في أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة، يدل على ما له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة ومن تقدير جم لما عرف عنه من سمّوالنفس ونزاهة المقصد»[1].

ويُضاف إلى الاستنتاج الصحيح، استنتاج آخر مؤاده ان محمداً، حينما رفع الحجر الاسود ووضعه في مكانه المحدد بنفسه، كان يتصرف بحافز الطليعي القائد، وهوحافز باطني، قد لا يكون مقصوداً لذاته من قبله.

كما انه رغم رفضه القاطع للأوثان والأصنام، والعبادة الوثنية المتخلفة، لم يكن ليترك منسبة إعادة بناء الكعبة بعيدة عن اهتمامه. فهولم ينطلق من فكرة:«ما لي ولبيت الأصنام هذا، لأترك الجميع وشأنهم، في عماهم وفي أباطيلهم!».

لقد كان الحس العملي، الواقعي، هوالذي يغذيه في هكذا مناسبة خطيرة، فهولم يبتعد عن أهله ومجتمعه في معاناتهم، وفي المشكلات الحاسمة في حياتهم، كما انه كان يجد في الميدان المذكور المهدات التمرينية لدوره القيادي القادم.

من هنا، كان قد شارك أبناء مجتمعه في نقل الحجارة، والاسهام في بناء جدران الكعبة، قبل ان يصل دوره الى مستوى الحكم الذي يفصل بالحق، لا كواعظ، بل كممارس متمكن ذي جدارة وسلطة.

---

(١) محمد حسن هيكل: المصدر الوارد (المؤلف).

ففي معمعان الحياة وتجاربها منذ ان كان راعياً، وحارس تجارة، وصاحب نشاط عام متميز فى الميدان الاجتماعي، امتلك سلطة العقل لا باعتبارها وعياً مثالياً، تأملياً، اوتجريدياً صرفاً، بل بصفتها وعياً خلاقاً مدعوماً بأسانيد ومقومات الفعالية الواقعية.

وتلتحم القدرة المثالية والقدرة الواقعية فى إطار مسيرة اجتماعية لم ينغمر فيها محمد انغماراً تاماً على حساب الجانب الذاتي الملهم فى شخصيته، لقد كانت المسيرة الاجتماعية تشحذ فعالية الواقعية القيادية التى تصنع دوره بطلاً تأريخياً خارقاً، وتستثير حكمة المثالية التى تستجيب الى الوحي الألهي الذي هيأه لدوره العالمي كنبي ورسول.

ويتصاعد خط المعايشة الصميمة للناس بقوة متزايدة، بعد ان سجَّل حادث بناء الكعبة وحقن الدماء انتصاراً كبيراً على مستوى أهليته القيادية، وعلى مستوى انعطاف افئدة الناس اليه، وإيمانهم بسماته المجيدة.

وكانت تساؤلات الواقع صارخة، ولم يكن نجاح محمد فى وضع الحجر الاسود فى موضعه، حلاً جذرياً للمشكلات المتفاقمة. فالحل مرحلي، مؤقت، أما الخلل فعميق وشامل. فكان الاصطراع بين كثافة حياة مقلوبة، وإيمان بلا إيمان، فى العالم الوثني، عالم أهله وعشيرته، وبين نفسه التواقة الى التوحيد، والحق والعدالة، من النوع الذي لا يجد جوابه فى زحمة الاماكن المكتظة بالناس، لا في الكعبة، ومناسبات الحج، ولا في سوق عكاظ، وملتقى التجارة والأدب، كان لابد لتلك الطبيعة العملية المتوثبة ان تخلد الى الراحة، لكي يضع العقل

والـنفس والقلـب علـى جمـرة الاسـئلة، فكـان لابد من مكان يختلي فيه، يتأمل، ويـسأل، ويجيب، كـان لابد من الخلوة، لينعم بالأجوبة، لكن عبر شقاء الجسد ونـار المعانـاة، كـان لابـد من واحة الحرائق... كى تنطلق مرحلة التأمل، مرحلة الالهام التى اطلقت شرارات الرسالة المحمدية، وحرائقها الآتية.

واحة النار، واحة الحرائق:

مكـة بلد الشمس، الشمس الحقيقية التى لا تزوغ عن أرض مكة، كذلك أرض مكـة تواجهها - وجهاً لوجه - بلا زوغان، وبلا وسيط. مكة كونٌ يتفجر حـرارة، والحـرارة تحـل في التراب وفي قشرة الأرض، وفي المرتفعات، وفي الهواء والماء والفضاء مثل موقد متأجج، فحقَّ لأهل مكة ان تكون رؤوسهم ودماؤهم فـى غلـيان لايقـل عـن حمـاوة الدنيا، والسخونة الكاسحة. أليس ذلك الطريق لإنقاذ أنفسهم من الانفجار؟ إنه ناموس الطبائع المتجانسة مع نوع البيئة.

كـل شيء سـاخن، ملـتهب، لكـن أكثـر مـن كـل ذلك، سخونة الاسئلة والتـساؤلات التي كان محمد يقرأها مكتوبة على صفحة نفسه، ترى أين يذهب ليفرز الاسئلة واحداً بعد واحد، كيما تتيسر له معرفة الجواب. ليست فى أطراف مكـة خمائـل تمـنحه الـبرودة، والـنعومة، والهـدوء اللذيذ. هل كان قدر محمد أن لايجـد مـلاذاً يحتمـي بـه مـن الهجيرين، هجير الدنيا، وهجير الاسئلة؟ هل كان قدرهُ أن لا يُولد قرب بحر، أوفي حضن خميلة، مترعة بالسواقي، ومجلّلة بأشجار الزيتون، وبِخَيمات الورد والأزهار؟!

كانت الخميلة، والساقية، وجمالية إمتداد صفحة البحر، ولطف الطبيعة - لو وُجدت! - لوفرت لمحمد مناخاً للتأمل وللحوار مختلفاً كلياً عن المناخ الذي عاش فيه... لقد نشأ في كونٍ مشبّع بالجحيم، فلم يجد للعزلة سبيلاً الا في واحة التأمل، واحة النار، ومن تلك النار قُدِّرَ له أن يصنع سلالم النبات، فى عالم الإيمان المثير.

قبل ذلك، كان هيامه فى الطرقات المتعرّجة البعيدة، بين صخور الجبال، وشجيرات الصحراء، وبين تضاريس الأرض العاتية، لكن مشي الهائم لا يوفر فرصاً للاجابات السديدة عن الاسئلة الكبرى، اسئلة الخلق والحياة والموت والبعث، والحق والباطل، والعدل والظلم، تلك الاسئلة المتشابكة التي تخص الوجود مثلما تخص معيشة الانسان وحياته اليومية.

وكان شهر رمضان ذا جلالة، فقد اعتاد الصوم فيه الأحناف والصابئة.

وكان محمد قد اختاره لانهاك جسده من الجوع، واشباع نفسه من الدوران بين الأسئلة والاجوبة، يقتات بغذاء زهيد يحمي عزلته من ضرورات الخروج جلباً للقوت، ومن يدري ما يجري في ذلك الغار في جبل حراء من ويل الاسئلة وثبور التساؤل.. ففي ذلك الغار المتجهم، الغامض، مثل زنزانة، لا تتسع إلا لنفر واحد في آخر درجات الضيق، كان محمد يسجن نفسه سادّاً مدخل الغار بصخرتين، بينه وبين مكة ثلاثة أميال تقريباً (من شمال طريق عرفه)، على صعيد المسافة الأرضية، لكن - على صعيد المسافة الزمنية - بينه وبين مكة تأريخ مديد شاسع، سيكون مليئاً بالعذاب.

كانت التأملات المحمدية صعبة، بل قاسية، لأنها كانت تتجول على شفرات الموس، في البحث عن أسرار الخلق والحياة والموت والبعث من طرف، وفي البحث عن أسباب المظالم الاجتماعية، أسباب الربا والفحش والوأد وتحجر قلب الإنسان على أخيه الإنسان، من طرف آخر.

إنها المعادلة الهائلة التي كان يتدارس جزئَيها فى تأملات أبعد ما تكون عن التخِيل، تأملات فيها العلم، والمعرفة، والعدل، والحسابات الواقعية، والتأريخ، وحينما كان يستغرق في تأملات تحت قبة السماء اللامحدودة، وفوقَ الأرض الجاثمة من أخلاط زلزال تجمعت بعد هدوء، كان يسيح في تأملاته باللامحدودية نفسها، متلبساً حركات الكون العميق في سرمديته اللامحسوسة، كان يفلت من جسده، وتحل روحه في دنيا الدنيا، في الدنيا المستترة. لقد خدع (الظاهر) الناس؛ فأصبحوا عبيد الدنيا الظاهرة[1]، والمصالح الزائلة، إنهم أوتوا العين التى ترى خارج الاشياء، ولم يدركوا كنه العين الأخرى، التى ترى عمق الاشياء، ترى اللامرئي فتخرجه من الظلمة الى النور، فالذي لم ير عينه الاخرى، الخفية، لن يوفق الى الرؤية الصحيحة، كانت حواس محمد، في تأملاته، مجمدّة الدور، لأنه ليس فى حاجةٍ الى ان يستخدمها، ثم لماذا

(١) انظر لتلميذ الرسولﷺ علي بن أبي طالب، وهو يصف رؤيته لهذه الدنيا، فيقول: (أنا كاب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها...) انظر نهج البلاغة، محمد عبده، ج ٢: ص ١٠ (المحقق).

يستخدمها؟ أمن أجل رؤية عتمة غار حراء، ووحشة الطريق، أم لأجل أن يرى الاشواك والصخور والرمال؟ لقد رآها كثيراً، وتشعبت إحساساته بمنظرها، والآن هو فى الطور الجديد، طور رؤية الله الموجودة فيما وراء الكون، فوقه، وفيه، وحوله، لأنه موُجِدُه، وصانعه الجليل.

لقد أدرك منذ الصغر سفاهة عبادة الاصنام، وكان الله نوراً في فؤاده، ونداءً خفياً فى اعماقه، وها هو في طريق البحث عن طريقة للتقرب إليه، بعيداً عن الوسطاء، من البشر أوالاشياء.

ليست هناك وساطة بشرية ومادية، هناك الحقيقة الإلهية وحدها، وهنا تجلياتها، وفيُضاتها، وعطاؤها الأبدي الذي لا يتوقف عن التدفق.

كانت التأملات أفكاراً تسوح في العالم، وفيما وراء العالم، وكل تأملٍ حزين حتماً، لأنه اختار الصدمة، صدمة الأشياء، المعتادة، التقاليد، العبادات، الطقوس، المعاملات، كل ما اعتاد عليه أهله وأناسه، من أفكار ومن نشاط، ومن نظم وروابط، كل ذلك تخترقه التأملات، وتطيح به، ولو فى الخيال. أنها معركة عنيدة، فيها من شجاعة الفكر ومضائه، ما فيها من حزن النفس التى تشفق على أهلها ومجتمعها.

في غار حراء كان التحنث عبادة وطقساً، وفى خارج الغار كان التأمل سياحةً ومغامرة أفكار. وتساءل ويتساءل كل ذي ذهن حصيف ممن تناول السيرة النبوية: «أفكان محمد يتعبد أثناء تحنثه ذاك على شرع بذاته؟ هذا أمر اختلف العلماء فيه. وقد روى ابن كثير في تأريخه طرفاً من آرائهم في الشرع الذي

كان يتعبد فيه؛ فقيل شرعُ نوح، وقيل ابراهيم، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت انه شرع عنده اتَّبعه وعمل به[1]. ولعل هذا القول الأخير أقوم من كل ما سبقه، فهو الذي يتفق وما شغف محمد به. من التأمل ومن التفكير على أساس هذا التأمل». وإني لأرى ان الدارسين اهتموا بالطريقة، بأسلوب التحنث، فأحالوا الموضوع أي موضوع تحنث محمد، الى الاسلوب المتبع، الى طقس العبادة، لا الى العبادة نفسها، والطقس (والاسلوب) هو إتباعية لنهج سابق، فيما كان محمدٌ إبن تجربته المتميزة ورائدها، لقد كانت تأملاته - إذن - خارج الطريقة، وغير مقيدّة بأي شرع سابق، إضافةً الى انه لم يُذكر عنه قبل اعتكافاته الرمضانية الجليلة، أنه أدلى بقول ينم عن ارتباط بملةٍ دينية. لقد كان نتاج معاناته المتميزة الخصوصية، التي أطلَّ منها على العالم برؤيته الاسلامية.

فكم غنى التأمل، وتجذره، واتساعه، وشموليته، وُلدت الرؤيا الصادقة، فالحجب تنكشفُ من تلقاء ذاتها أمام قداسة الباصرة، وإصرارها على زيارة مكامن النور الأهلي. لقد رفعت الحواجز أمام النظر الروحى لمحمد، وأضحت الجدران التى سدَّت طرقات الوجود، أبواباً مشرعة أمام خطى القادم الجديد من بين العالم المكي المتراصّ بالبشر والحيوانات والبضائع والأحجار والمواد.

ولا يصيب القائلون بالتحنث والطريقة، فى إلقاء كل الاضواء على

---

(١) انظر أبن كثير فى البداية والنهاية ج٣، ص ١٠ وفي سيرته النبوية، ج ١، ص ٣٩١ (المحقق).

مـرحلة غـار حـراء، إصـابة تامة، لأن مرحلة الغار هي مرحلة الاسرار، وليس التحـنث هـو وحـده المسلك الـذي كان يسلكه محمد، حين كان يختار العزلة في الغـار، فـثمة أمـور اخـرى غير التحنث، تلك هي أمور المعرفة، بطبقاتها التي لا حـدود لها، المعرفة اللَّدُنية، والمعرفة الكسبية، اللتين وُلدت منهما التأملات، مثل طـيور روحـية، تغـادر ولا تُهاجر، فهي من نفس محمد تنطلق، والى نفس محمد تـرجع، باستـشرافة الاطـلاع. هكـذا، كانـت التأملات أفكاراً، وكل أفكار هي معـرفة وبـدون ذلـك مـا الـتأملات إلا مجرد أوهام، أوتداعيات ذهنية عليلة لا تصمد بوجه قوة النظام السائد في الحياة، وفي المجتمعات الموجودة.

ظـل محمد المتأمل، الذي يجاهد من أجل أن يرى، وكان جهاده عسيراً، فما ان رأى بعـض مـا أتـيحَ لـه أن يـرى، ومـا ان واصـل الاصرار الباطنـي علـى الاكتـشاف، حتـى حلت المرحلة الهائلة، مرحلة ان يُرى هو. نعم الجميع مرئيون تحـت نظـر الله (تعالـى)، لكن للرؤية - هنا - شأناً خاصاً. إنها رحمة الله الكبرى التى منحها الى رسوله الكريم، وهي رحمة للبشرية جميعاً، قال عنها الرسول:

«ما أنا الا رحمة مهداة»[1].

---

(١) أصـل القـول: «إنـما أنا رحمةٌ مهداة» انظر ابن كثير فى البداية والنهاية. ج ٦، ص ٢٩٦. وأمـا قـول سبحانه تعالـى فـى كـتابه الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنبياء: ١٠٧ وقـد ذكـر ابـن أبي شيبة الكوفي فى المصنف ج ٧: ٤٤١: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما أنا رحمة مهداة» (المحقق).

وهي رحمة بالمعنى الذي كوفئت به الجهادية المضنية، جهادية محمد في: اعتكافه، وصومه، وجوعه، وعطشه، وفي حشر نفسه في أضيق الأمكنة، وإن فَسُحت ففي أقساها وأكثرها وحشةً.

لكن وحشة المكان وماديته المدببة، الخشنة، العنيدة، المناكدة، لم تُحل دون أن تأخذ النسمة طريقها وسط تيارات الريح الغاضبة، لقد شفَّ قلبه، فلم يقسُ ويخشوشن مثلما اخشوشنت الطبيعة الجرداء. كان صفاء التأمل، عنوان نورانية القلب، ولا تفتح مواطن النور إلا لمن تأسس فؤداه من هياكل النور.

إنها علاقة عجيبة، ولغة سُرّية تربط بين الأنوار، أنوار القلوب، والأنوار القدسيّة، وهي علاقة لا تتحقق إلا برفع الحدود، والأسيجة، والجدران. وهذا رفعٌ صعب، كالمحال، فهل يعقل أن توجد شجرة بدون ساق واغصان وأوراق؟ شجرة من تكوينات خفية؟ لا يُعقل، ولا يمكن أن تولد شجرة كهذه. الانسان، وحده يقدر مجازاً، الانسان ذوالقلب المشع بنور الايمان.

إنه، يزيح شيئية الجسد فى دَنف الاتصال، فلا تعود اعضاء الجسد حاضرةً كعائق، إنها موجودة، لكنها تتلاشى من حيث الاحساس، عند إنتصار التأملات، وحلول الرؤيا.

لقد تطّهر محمد تطهراً جميلاً في معضلات الحياة، وفي أحضان التجربة، وجاءت مرحلة الرؤى المنيرة، تصعيداً أكبر من التطهر، تسامياً، إلتقاءً بالبرهان الأكبر، كان يريد أن (يُرى)، وأن (يُخاطب)، وأن يتمتع بحضرة اللقيا، فالدليل قد ملأ فؤاده، وعقله، ونفسه، وفاض الى الحدّ الذي لم يستطع بعده صبراً، لابد

ان يـتأيد كـشفه، وإلا لكـان مـثله مثل من يحلم، أويسدر فى خيالاته. لقد ارتجَّ الجسد باعـصار الـنفس المـضطرمة، الحزينة، بل المعذّبة، المصطلية بالشوق الى الجـواب... الـى الدلـيل، الدلـيل الآتي منه هو، منه هوالخالق العزيز... لقد نذر نفسه لعـشقه، والفـناء مـن أجلـه، لكـنه يـريد الـرحمة لهذه الأمّة الضائعة، لهذا الـشعب المـضيّع بـين الجـبال والهضاب والتلال والوديان والصحارى الخرافية. لهـذا الـشعب الـذي ينسحق من تجارة المرابين، مثلما ينسحق تحت وطأة المحتلين من الفرس والروم، الذين تبادلوا تناوشه من أربع جهات بالنار والحديد.

لقـد ضـاقت فـسحة الضرروة، وكان لابد لها ان تنطلق، فكان التمخض محـتوماً، وجـاءه الـصوت: اقـرأ، فأجاب مأخوذاً: ما أقرأ. فأحس كأن الملك ذا الـصوت يخنقه، ثم يتركه، ويقول له: أقرأ. فيقول محمد: ما أقرأ. فأحسَّ به يخنقهُ ثانـية. إقـرأ. قـال محمـد: ماذا أقرأ؟! قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، كان ذلك أول الوحي (٦١٠ م). ملك ذوصحيفة، يُلقنه سورة العلق. أنـه علـم وافـر، أوجز إيجازاً إعجازياً. خلق الانسان من العلق، فياله - الانسان المتكـبر! - مـن ظالم جهول. أبهذه المادة، يُبنى، والى ما دونها سيُفنى، ومع ذلك يضطهد أبناء جنسه؟

ولكـن سـورة العلـق لاتـترك الانسان عند هذا الحد الضيق، لا تتركه بلا معنـى، بل تُذّكره باعتباره، وتعيدُه إليه، فهوإنسان بالتعلم، بالمعرفة التى يجلو بها إنسانيته، ويتخلص بها من وحشيته، وعدوانيته، وجهله، وظلمه.

لقد كرَّم الله رسوله منذ اللحظة الأولى لهبوط الوحي بالسر الذي تقف عليه حقيقة الانسان كلّها، حقيقة الوجودية، وحقيقته التأريخية.

وسيكون في حياة النبي العظيم، وفي إرشاده وبنائه للتجربة الاسلامية، حضور خاص وبارز للصلة بين (التواضع) و(المعرفة)، وسيكون النبى أول من يزعزع جبروت الجبابرة، أمام الله الجبار وحده. إن جبروت الطغاة والمرابين والقتلة واللصوص، فقاعة أمام حكمة الخلق، أمام المضغة والعلقة والعفونة التي لا ريب فيها.

حقَّ لمحمد أن يقلق، ويتساءل، بل حق له أن يخاف، من غزوالأشباح والجن، في عالم ملىء بما هوأخطر من الخرافات والسحر والشعوذة، في عالم تداخلت فيه النوازع والأغراض، وشاعت الأراجيف والإلتباسات، في عالم تجسد فيه إبليس بألف شكل وشكل.

ورغم الشوق الخفي، لهذه اللحظة، فان مجيئها على هذا النحو، قد هزَّه هزاً شديداً، خلع أسانيد إحساسه، وطوَّح به في فضاء فلك من أضواء لا تتحملها عين ولا إحساس.

لقد وضعه الوحي في الدوامة التي ستتكرر. والتى ستضغط عليه، ضغطاً ليس بالهينّ ولا بالمتلف، لكنه ضغط شديد يبطىء تنفسه ويجعله ثقيلاً، ضغطٌ يهتزله الجسم، ويعرق الجبين، لقد فازت نفسه، ونالت سموالتراسل المباشر، وهتف الوحي بسورة المدثر: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ

فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1]، ويذكر البعض ان هذه السورة هي الأولى.

فيقول يحيى بن أبي كثير: «سألت أبا سلمة عن أول ما نزل من القرآن قال: نزلت ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أولاً، قال: قلت انهم يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قال: سألت جابر بن عبدالله قال: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال:

جاورت حِراء فلما قضيت جواري هبطت فسمعت صوتاً فنظرت عن يميني فلم أرَشيئاً، ونظرت عن يساري فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي وأمامي فلم أرَشيئاً، فرفعت رأسي فاذا هو - يعنى الملك - جالس على عرشٍ بين السماء والأرض فخشيت منه، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، دثروني وصبّوا علي ماءً ففعلوا، فنزلت ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾...»[2].

ويروى ان خديجة بنت خويلد أرادت قطع دابر الشك سواء في نفس محمد أو في نفسه، لعلمها ان للشيطان فنوناً وأساليب، فقالت: «يا ابن عم، تستطيع ان تخبرني بصاحبك، هذا الذي يأتيك اذا جاءك. قال: نعم.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ١-٧ (المحقق).

(٢) ابن الاثير: «الكامل» (المؤلف) إلا أن ابن الاثير في كتابة النهاية في غريب الحديث ج ٢، ص ١٠٠، يذكر حديثاً (كان إذا نزل عليه الوحي يقول دثروني دثروني) بمعنى أنه إطلاق لكل نزول وليس مختصاً بسورة المدثر، إلا ان ابن هشام في سيرته بذكر سورة المدثر لا يذكر ان الرسول قال لخديجة دثروني دثروني انظر الصفحة ١٥٧ من ج ١. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (المحقق).

فجاءه جبريل. فاعلمها، فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، فقامﷺ فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسرت، فألقت خمارها ورسول الله في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم اثبت وابشر فوالله انه ملك ما هو بشيطان»[١].

استجابت نفس محمد الى صوت الله، ولكن حين تأخَّر عليه جبريل تملكه القلق، فقد توجبت عليه تأدية الرسالة، لكنه واجدٌ في الوحي دافعه الحاسم، وعونه التام، فكيف لا يصيبه القلق والحزن؟ أوبعد أن أوحى اليه بأنه رسول الله الى خلقه، يغيب جبريل ويتركه في وحشته؟ أو بَعد هذه الحجة الإلهية، والعهد الرباني، يُحرم من عبارات الوحي التي تُلهمه خطوط مهمته النبوية؟

قال الزهري: «عندما فتر الوحي عن رسول الله فترةً حزن حزناً شديداً، وجعل يغدوالى رؤوس الجبال ليتردى منها (أي ليرمي نفسه منها)، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فيقول له: إنك رسول الله حقاً»[٢].

وشرحت صدره سورة الضحى، وأزالت الإبهام والقلق والتحيّر، فربُّك

---

(١) ابن هشام في سيرة النبيﷺ ج ١: ١٥٧ (المحقق).

(٢) انظر جامع البيان لأبن جرير الطبري ٢٩: ١٨٠، تفسير ابن كثير٤: ٢٦٥، البداية والنهاية٣: ٢٣ وسيرة ابن هشام ١: ٢٥٧-٢٥٩، وسبل الهدى والرشاد٢: ٢٧١، ثم نزلت سورة «الضحى» (المحقق).

معـك يـا محمد منذ أن وُلدت، وكنت، ومنذ ان صرت وتصير، لقد أتاه الوحي، فيا للسعادة بعد طول الوحشة:

﴿وَالـضُّحَى * وَاللَّـيْلِ إِذَا سَـجَى * مَـا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَـيْرٌ لَـكَ مِـنَ الْأُولَى * وَلَـسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا فَهَـدَى * وَوَجَـدَكَ عَـائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

هاهـو الـشدّ المقدّس بين ماضي محمد ورسالته. كان اليتيم، والعائل، إذن لتكن رسالتُه رحمة وهدى لليتامى والفقراء والمعذبين.

إن النبي الرسول يعتز أيما اعتزاز بماضيه: حين كان يتيماً، وحين كان راعي غنم، وحين كان في ضيق من العيش.

وهـذا هوشـأن مـن ضَمَّ بين جوانحه نفساً عظيمة، زكيةً، لا يشغلها شيء مثل الحق، والعدل، وحب البشرية.

وهـا هـي التعالـيم واضـحة، مثل وضوح الشمس فى رأد الضحى: فأما اليتيم فلا تقهر[2].

فالقهـر مـرفوض رفـضاً باتـاً، القهـر بكل صوره وأشكاله: القهر المادي الـنابع عـن الاسـتغلال والاضـطهاد، والقهـر المعـنوي الـنابع عن خنق الحرية

---

(١) سورة الضحى، الاية:١-١١ (المحقق).

(٢) سورة الضحى، الاية: ٩.

الانسانية، ومحاصرة الانسان في أفكاره، وفي رغباته، وفي اختيارته[١].

وأما السائل فلا تنهر[٢]، فالسائل يسأل حقاً، ويطلبه، والنَهر اعتداءٌ على حق السائل وكرامته، حقه في قوته، وفي عيشه، وفي عمله ورزقه، فالنعمة نعمة الله أولاً وأخيراً، فأما بنعمة ربك فحدث، والتحدث ليس تذكيراً بالحقيقة، وبالنعمة، فقط، بل هوأكبر من ذلك، إنه ناموس يجب إشاعته، فمن يتحدث عن نعمة الرب، يتطهر من رجس المال وسيئات الملكية المتفاقمة، فالمال مال الله، والسلطان سلطان الله، فلا يحق لأحد ان يقهر أحداً، أويتكبر، ويتجبر، ويستغل، ولكن جشع التملك الزائد، والاستغلال قد زاول سلطته منذ القدم فأحال البشر - غالبية البشر - الى فقراء، وعبيد، ومأجورين، وشحاذين، ومسحوقين، لقد اعتُديَ على من استخلفه الله على الأرض-: الانسان. وكان الاعتداء صاعقاً، فلا بد أن يكون الرد بمستوى الغضب الإلهي. فكانت اللوحة جلية،

---

(١) لاحظ كم كان هذا الانسان - المؤلف - يرى في واقعه ما لا ينسجم مع التحسس الانساني والانسجام القرآني، فالمؤلف في تعبيراته تلك الدالة على ما في ذاته من حنقٍ كبير؛ انعكاسة صادقة لما كان يعانيه هووالصادقين مثله من شدّة الرقيب وسياط السلطنة القاهرة على الفكر والحرية الذاتية للفرد القابع تحت رحمتها، وقد ترجم المؤلف هذه الحالة بشكل أوسع وأكثر مباشرةً في كتابه التالي: (علي بن أبي طالب... سلطة الحق) وبدورنا قمنا. بالتعليق على ما ذكره السيد جاسم بما يجب وينبغي. (المحقق).

(٢) سورة الضحى، الآية: ١٠ (المحقق).

وبكلمات رشيقة، مشبّعة بالدلالات الحكيمة، جاءت التعاليم منطويةً على أعمق المعاني، وأشمل التوصيات، فالله الذى أنقذ محمداً من اليتم والعوز والضلالة، يُعطي الرسول ما يرضيه: الرسالة، الرسالة التي تنقذ الناس من يتم الحياة، وبؤسها، وبأسائها، مثلما تنقذهم من الوثنية والضلال.

الفصل الرابع

دلائل المبدأ

دلائل المبدأ

فرائد الايمان ودلائل المبدأ:

يستشهد (كارليل) بقولة (نوفاليس) حول أن يقف إنسان الى جانب قضية إنسان، مؤازراً إياه قائلاً: «ما رأيت شيئاً قط آكد ليقيني وأوثق لاعتقادي من إنضمام إنسان آخر إلي في رأيي»[1].

وكانت حراجة محمد كبيرةً جداً فى عصر السحر والكهانة والشعوذة، العصر المناسب فكرياً لتموجات الرمال الحارقة، وطيوفها المرعبة، وللسراب الفتان، وللأرض المعقدة، ولأسرار كون شبه الجزيرة العربية.

في عصر الاصنام الجامدة، الهامدة، التى تطل على المدن والقرى العربية مثل حيوانات منوّمة الى الأبد، كانت أفكار النبوة والبدء بالرسالة، وتلقي الإيحاءات الإلهية من خلال الملك، تثير ألفَ إتهام واتهاماً، وألف شكٍ وشكاً، كان محمد - بنفسه - يرتجف - لا هلعاً بل اعتباراً - من هول الوحي، الذي كان يعني ان المسؤولية حاسمة، ومصيرية، ولا تتوقف في مكان أوزاوية أوعند حد.

محمد - نفسه - كان قلقاً، وأوضح ما يوضح ذلك ان جسده المرتجف،

---

(١) توماس كارليل: (الابطال) (المؤلف).

المتعرق، كان يشفق على ذاته من صيحة الروح، وأخذ الأمانة الإلهية، وحملها المحتوم[1].

كان محمد يرى ان الدروب الاعتيادية، لن تكون دروبه، وكذلك الكعبة، والبيوت، والشوارع، والعلاقات، لأنها - أي الرسالة الموحى بها - سوف تفجر كل شيء بوجهه - سوف تثور ثائرة اسياد قريش واتباعهم، وسوف تنتصب بوجهه، في كل شارع، ومكان، لعنة التسفيه، والاستنكار، والمقاومة، والعداء، والحرب، سوف تهب جميع شياطين الإنس والجن - وما أكثرها! - ضده، مسلحة بكافة اسلحتها - وما اكثرها!-.

سوف يقف بوجه نور الكلمة المحمدية، بوجه الانسان البسيط، ابن ابي كبشه (يسمونه حين يسخرون، وهم يذكرون جده لأمه)، بوجه اليتيم، الراعي، ثم عامل التجارة، جميع القوى الصنمية التي صنعت عالم العبودية من ذهب ومال، وزودته بأدوات البطش الباطشة.

لقد كانت هزة القلق حين جاء الوحي، فاقتضى التزميل: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّر...﴾ لكن، ما العمل والهزّة الجديدة، هزّة المواجهة، والمجابهة الصريحة مع

---

(١) عن جابر بن عبدالله الانصاري - قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه - أي الرسول - بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصيري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر، انظر صحيح البخاري ١: ٤ (المحقق).

عالم وثني جائر، وكبير، هوعالم قومه وعربه وأهله؟

وكـل ذي فكرة ثورية جديدة، طامحة الى التغيير، والبناء الانساني العادل، أشـد مـا يكون حاجة الى النصير، المعين، فكيف الأمر، ومحمد صاحب رسالة، إلهية، لا مجـال للتنـصل مـنها، اوالـتخلي عـنها، أوإراحة النفس من ثقل عبئها، بإجازة عند التعب؟!

كـان محمـد في جانـبه غـريباً غـربة إنـسان يـولدُ فـوراً في عـالم الغابـات والوحـوش والعواصـف والـزلازل ولا يُـدرى أعقلـه يعمل بوحي الغريزة، أم الغريـزة تهـتدي بوحي العقل؟ سوى ان محمداً امتلك في الولادة الجديدة تطابقاً مدهـشاً بـين العقـل والغريـزة، فأتـاح الله لـه - إنقـاذاً لـه مـن العزلة والوحدة والوحشة - خير ناصر، في الظرف المدلهم، بل في أكثر الظروف إدلهماماً.

كـان الـناصر يعنـي المـؤمن بنـبوة محمـد ورسالته، فالأمر يتعدى العلاقة العاطفـية، وعلاقـة القربـى، وصـورة التـضامن البيتي، كان الناصر يعني نصرة النبـي في رسـالته، نـصرة نهائية، تحت شعار السماء والأرض «أشهد أن لا إله إلا الله...» الـشعار الذى قُدّر له - ولا يُقدَّرُ لسواه - ان يزعزع عالم الوثنية القديم، والجديـد، القـديم، المعروف بماهوعليه من معروفية، أما الجديد فهوكافة أشكال الوثنـية التي تتوالى الانبعاث ما دام الطغاة، طغاة السلطة والمال، يصنعون - فى كل حين - أوثاناً جديدة، وبدعاً جديدة، وفتاوىً إرهابية جديدة.

كـان إيمان خديجة بنت خويلد، وعلي بن ابي طالب، وزيد بن حارثة، هدية مـباركةً الـى الرسـول. مثلما هوهدية الرسول الى الناس. لأن ذلك الايمان حمل

من الدلالات والمعاني أكبر مما يتوقعه أحد من الايمان المجرد.

إن المؤلفين الباهتين يعرضون صُورة الحقيقة الايمانية الاولى، بهذه البساطة: «وكان أول من أمن به زوجه خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن ابي طالب، ومولاه زيد بن حارثه...»، وكأن الموضوع موضوع حشوة خبرية في سطر أوسطرين... لقد كان إيمان خديجة وعلى وزيد إيماناً عجائبياً، ينمُّ عن الوعي العالي، والجسارة الشديدة، فهومن طراز افعال التمرد على المجتمع والقيم السائدة، وعلى النفس، التمرد الذى كان يعني الانتهاء الى العاصفة، واختيار طريق المخاطر. نعم ان قرب الثلاثة من رسول الله، كان يضعهم فى موضع المعرفة الأكيدة، بصدق الرسالة، فاذا ما كان الناس يعرفون محمداً الصادق الأمين، فإن الثلاثة يعرفون في (محمد) صدق الصدق، وأمانة الأمانة، فلا يحمل الأمانة، أمانة الرسالة، سواه.

حين آمنت خديجة بنت خويلد لم تكن مجرد متضامنة مع الزوج، وهي أعلم بصدقه، وأمانته، وشجاعته، وفضائله النادرة، وقد قالت له ذلك:«أبشِر يا ابن عم واثبت. فوالذي نفسُ خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة. والله لا يُخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

---

(١) انظر مسند أحمد ج ٦: ص ٢٢٣، صحيح البخاري، ج ١: ص ٣ وصحيح مسلم ج ١: ص ٩٧، المستدرك للحكام النيسابوري ج ٣: ١٨٤ السنن الكبرى للبيهقي. ج ٩ ص ٦،

لقد كان إيمانها أكبر من موضوعة التضامن الزوجي بما لا يُقاس. لقد تَحدّت وضعها الطبقي، ووضع أسرتها وقومها، ورفضت عالم الاصنام، وسلطة أهله، فهي بهذا المعنى أعطت صورة خالدة، صورة المرأة الفذّة المبرهنة على ان المرأة قادرة على العطاء، والمقاومة، والتحدي، والكفاح، وأبداء ضروب الشجاعة والبطولة، في زمن كان وأد البنات سائداً فيه، في زمن كانت المرأة فيه عاراً، أوشبه عار، فيما اذا نطق حساب الاخلاق والأرزاق.

كان إيمان خديجة دليلاً عظيماً على الطاقات الكبرى التي تزخر بها المرأة، الطاقات التي تجعلها قادرة - دوماً - على القيام بدور طليعي مقدام. وكان ذلك الايمان الإيجابي الفعال، سيسهم كثيراً في تعزيز حرص الرسول المتزايد على مكانة المرأة، وحقوقها، بمواجهة نظرة تحقير المرأة واذلالها، وحسبانها شخصاً ثانوياً، هامشياً، تلك النظرة التي اكتسبت قوة السلطة، إن في الأفكار السائدة، أوفي الواقع الفعلي لحياة المجتمع وسياسته.

لم تنتظر خديجة تصديقها حكاية زوجها، إلى ان تستشير ورقة بن نوفل، ابن عمها المتنصر، إنما صدَّقته أولاً، ثم ذهبت تستفسر أكثر من ورقة ثانياً[1].

مسند أبي داود الطيالسي: ٢٠٦، المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ج ٥: ص ٣٨٦. ومسند ابن راهويه ج ٢: ص ٣١٦، الآحاد والمثاني للضحاك ج ٥: ص ٣٨٧، الذرية الطاهرة للدولابي: ٣٤، صحيح بن حبان ج ١ ص ٢١٨ ثم ذهبت خديجة بنت خويلد مع زوجها الرسولﷺ الى ابن عمها النصراني ورقة بن نوفل تقص عليه ما رأى محمدﷺ (المحقق).

(١) مسند احمد ج ٦: ص ٢٢٣، (المحقق).

وهـذا هـو الإيمان المحض، الإيمان الفوري، لغة النفس التي احتوت بذور الإيـمان الكامـنة، حتـى اطلقتها الدعوة السرية. إن في القلب النقي لهفة الاتجاه، المنتظـرة صـيحة التفـريج، فيتحـرر القلـب مـن صـمته النبيل، منطلقاً في بهجة الاعلان.

وفي الحـق، إثـنان مكتومان: المضطهد - بفتح الهاء - الذى يحمل سلاسله المـوطقة لـه، معـه، ومعهـا الاحجـار الثقـيلة. والآخر المفكر الذى يُفرض عليه الكبت. غير ان اكثر الاثنين ألماً، مكبوت الافكار[1].

وكانـت الدعوة المحمدية السرية ايذاناً بتحرير الافكار المكبوتة، فانطلقت الحقـيقة العمـيقة لخديجـة، الحقـيقة التـي ربما لم تكن تتميزها بوضوح، رغم انها حقيقتها الشخصية بالذات.

صـدقته، وآمنت به، واستبشرت، وساندته، فكانت معه مثلما لم يكن احد مع احد على ذاك التوافق العجيب.

وحيـنما ذهبت الى ابن عمها ورقة بن نوفل، كانت مصدقةً لرسالة محمد، ولكـنها كانـت تـريد توكـيد الغبطة، فعادة الذي يتلقى البشاره ان يستوثق منها لتوكـيد الغـبطة، وكان جواب ورقة بن نوفل مؤيداً، ومؤكداً، مثله في ذلك مثل حكـماء النـصارى والـرهبان العارفـين الذين كانوا ينتظرون ميلاد النور في شبه

---

(١) وهـي إشـارة قـوية وبلـيغة لمـا كـان يعانـيه الكاتب ضمن الطوق المفروض على شرفاء المثقفين من قبل سلطة صدام (المحقق).

جزيـرة العـرب، فقـال لهـا: « قدّوس قدّوس، والذى نفس ورقه بيده لئن كنت صـدقتِني يـا خديجـة لقـد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الامة، فقولى له فليثبت»[١].

كـذلك كان ورقة قد قال لمحمد حينما لقيه: « والذي نفسي بيده انك لنبي هـذه الامة. ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاء موسى. ولتكذبن، ولتؤذينّ، ولتخرجنّ، ولتقاتلنّ. ولئن انا أدركت ذلك اليوم لانصرنّ الله نصرا يعلمه»[٢].

ظلـت خديجـة المؤمنة، الشجاعة، المتفانية، المضحية، سندا وعوناُ لمحمد، وشاءالله ان يكافئها المكافأة الجديرة بها، اذ انها بعد ان فقدت قبل البعث أولادها من رسول الله وهم (القاسم والطاهر) فان ذرية رسول الله لم يبق منها غير فاطمة ابـنة خديجة، والتي حفظت سلالة النبي بولديها الحسن والحسين ابني علي بن ابي طالب، اهل البيت، واسرة النبي، وعقبه الذي لا عقب سواه.

ولم يكـن الإرث إرث الـسلالة والحسب والنسب فحسب، بل هو إرث الدعوة الاسلامية، والدين الاسلامي، مقترناً بهم الى يوم الدين.

وفي العـام الـذي سمي عام الحزن فجع النبي بوفاة عمه ابي طالب، الذي كـان له ابا ونصيراً، وفجع كذلك بوفاة خديجة، فكان ان طغا على فؤاده الالم[٣]،

---

(١) سـيرة ابـن هشام ج١: ص ١٥٦ وابن كثير في السيرة النبوية ج: ١ ص ٤٠٤ والبداية ج ٣: ص ١٩، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٤٩ وتاريخ مدينه دمشق (ابن عساكر ج ٣: ص ١٣ (المحقق).

(٢) ابن هشام فى سيرته.ج١: ص١٥٦ (المحقق).

(٣) يقـول ابـن اسحاق: ان خديجة بنت خويلد وابا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على

لكنه وجد في عنفوان الكفاح من اجل ابلاغ رسالته عزاءهُ الوحيد.

كان اسلام علي بن ابي طالب انتصاراً عظيماً للدعوة المحمدية، كان يبدو- للوهلة الاولى- امراً طبيعياً، اعتيادياً، بسيطاً. لان علي بن ابي طالب ابن عم النبي، الذي تربى في بيته، بعد ان اخذه من بين ابناء عمه ابي طالب لتخفيف اعباء العيش عن ابي طالب، أيام الفاقة. قال ابن اسحق «اول من اسلم علي وعمره احدى عشرة سنة، وكان من نعمة الله عليه ان قريشاً اصابتهم ازمة شديدة، وكان ابوطالب ذا عيال كثيرة فقال يوما رسول اللهﷺ لعمه العباس: يا عم، ان ابا طالب كثير العيال، فانطلق بنا نخفف عن عيال ابي طالب، فانطلقا اليه وأعلماهُ ما أرادا. فقال ابوطالب: اتركا لي عقيلا واصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله علياً، واخذ العباس جعفراً»[1].

وروى عن (علي) انه قال: انا عبد الله واخو رسوله، وانا الصديق الاكبر لا يقولها بعدي الا كاذب مفترٍ صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل

الرسول المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام، يشكو اليها، وبهلك عمه ابي طالب الذي كان له عضدا وحرزا في امره، ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل هجرته الى المدينة بثلاثة سنين، فلما هلك ابوطالب، نالت قريش من الرسولﷺ من الاذى ما لم تكن تطمع به فى حياة ابي طالب، حتى اعترضه سفيه، من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً. انظر السيرة النبوية لأبن هشام ق ١ ج١ ص ٤١٦ (المحقق).

(١) ابن الأثير «الكامل» (المؤلف) وسيرة ابن هشام ج١: ص ١٦٢ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (المحقق).

الناس بسبع سنين.»[١] وقال ابن عباس «اول من صلى علي»[٢] وقال جرير بن عبدالله: «بعث النبيﷺ يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء»[٣] وقال زيد بن ارقم: «اول من اسلم مع النبي علي»[٤] وقال عفيف الكندي: «كنت امرءاً تاجراً، فقدمت مكة ايام الحج، فأتيت العباس، فبينما نحن عنده إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي، ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلام فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس، ما هذا الدين؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله، ابن اخي، زعم ان الله ارسله، وان كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة، آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب، آمن به، وأيم الله، ما اعلم على ظهر الارض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة»[٥].

---

(١) انظر ابن ابي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٠٠ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف) وتاريخ الطبري ج٢: ص ٥٥، تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٤٢: ص ٣٥ جامع الترمذي ج٢: ص ٢١٥، الكامل لابن الاثير ج ٢: ص ٢٢، وابن ابي الحديد في شرح النهج ج ٣: ص ٢٥٦ (المحقق).

(٣) المصدر نفسه (المؤلف) انظر شواهد التنزيل ج ٢: ص١٨٢، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢: ص ٢٧ تهذيب الكمال ج ٢٠: ص ٤٨٢، تاريخ الطبري ج٢: ص ٥٥ (المحقق).

(٤) المصدر نفسه (المؤلف) مسند احمد ج٤: ص ٣٦٨ و٣٧١ عن نهج الايمان لأبن جبر: ١٦٤ ويذكر صاحب الغدير« الاميني» في ج٣: ص ٢٢١ أنه استخرجه من الخطيب البغدادي في تأريخه ج٤: ص ٢٣٣ (المحقق).

(٥) ابن الأثير«الكامل»(المؤلف) وابن الاثير في السيرة النبوية ج١: ص ٤٢٩ وتاريخ الطبري ج٢: ص ٥٦، والبداية والنهاية ج٣: ص ٣٥ (المحقق).

وحينما نزلت سورة الشعراء:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

كان علي بن ابي طالب- وحده- الذي استجاب لدعوة النبي حين أراد من بين اهليه اخاً ووصياً وخليفةً.

قال علي بن ابي طالب:«لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعاني النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا علي ان الله امرني ان انذر عشيرتي الأقربين، فضقت ذرعاً، وعلمت اني متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليه حتى جاءني جبريل، فقال: يامحمد إلا تفعل ما تؤمر به، يعذبك ربك. فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن، واجمع لي بني عبدالمطلب، حتى أكلمهم وأبلغهم ما أُمِرْتُ به، ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلاً أوينقصونه، فيهم أعمامه أبوطالب، وحمزة، والعباس، وأبولهب، فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم، فما وضعته تناول رسول اللهﷺ حزةً من اللحم (والحزة قطعة من اللحم تقطع طولاً)، فنتفها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحي الصحفة، ثم قال: خذوا باسم الله، فأكل القوم حتى مالهم بشيء من حاجة، وما أرى إلا مواضع أيديهم، وأيمُ الله الذي نفس علي بيده ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمتُ

(١) سورة الشعراء الآية: ٢١٤-٢١٦ (المحقق).

لجميعهم، ثم قال: اسقِ القوم، فجئتهم بذلك العُس (وهوالقدح الكبير) فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ان يكلمهم، بدره أبولهب الى لكلام، فقال: لعلما سحركم به صاحبكم، فتفرق القوم، ولم يكلمهم صل الله عليه وسلم، فلما كان الغد، قال: يا علي، ان هذا الرجل سبقني الى ما سمعت من القول فتفرقوا قبل ان أكلمهم فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم إليّ ففعل مثل ما فعل بالامس، فأكلوا وسقيتهم ذلك العُس فشروبوا حتى رووا جميعاً وشبعوا ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا بني عبدالمطلب أنى والله ما اعلم شاباً فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه، فأيكم يؤازرني على هذا الامر، على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟

فاحجم القوم عنها جميعاً وقلت - وإني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً - انا يا نبي الله اكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له واطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب: قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع»[1].

---

(١) ابن الأثير «الكامل» (المؤلف) وانظر السيرة النبوية لابن كثير ج١: ص ٤٥٩ طبعاً هذه الرواية هى اول عملية إعداد ذهني لعلي عليه السلام وانظر تاريخ الطبري ج٢: ص ٥٦، ج٣ ص ٢١٨ و٢١٩ المطبعة الحسينية بمصر/ الطبعة الاولى، وراجع تفصيل الرواية

كان الأقربون يطمحون الى تحريض ابي طالب، وما كانوا يعلمون انه بعد ان رأى ما رأى من تـأدية محمد وعلي فرض الصلاة في بعض شعاب مكة، لم يعد متفاجئاً، إذ سبق له أن سأل ابن أخيه عن الدين الجديد، ووجد في جوابه ما حثّ به علياً على التمسك بمحمد ودينه.

قـال ابـوطالب مخاطـباً محمـداً: « يا أبن أخي ما هذا الدين؟ قال: دين الله وملائكـتهُ ورسـله، ودين أبينا إبراهيم بعثني الله تعالى به الى العباد، وانت أحق مـن دعوته الى الهدى، واحق من أجابني. قال: لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، ولكن والله لا تخلص قريش إليك بشيء تكرهه ما حييت»[1].

وقـال لعـلي:«مـا هـذا الـدين الـذي انـت عليه؟ قال: يا أبتِ آمنتُ بالله، وبرسوله، وصليت معه. فقال: اما انه لا يدعونا إلا الى الخير، فالزمه»[2].

وأسـانيدها في مـا نـزل مـن القـرآن في عليعليه السلام/ لأبي نعيم، جمع الشيخ المحمودي:١٥٥ وراجـع تفـسير الخازن ج٣: ص ٣٧١ طبعة دار المعرفة، بيروت. وانظر ابن أبي الحديد ج ١٣: ص ٢١١، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج ١٩: ١٤٩، شواهد التنزيل ج ١: ص ٤٨٦ ويقـول ابن هشام في سيرته انه اسلم وكان له من العمر عشر سنين، انظر المصدر ق ١ ج١ ص ٢٤٥(المحقق).

(١) تـاريخ الطـبري ج٢: ص ٥٨، مـناقب أهـل البيتعليهم السلام للـشيرواني: ٣٨ تحقـيق محمـد الحسون، جواهر المطالب لأبن الدمشقي ج ١: ص ٤٢ (المحقق).

(٢) المـصدر نفسه (المؤلف) انظر تاريخ الطبري ج ٢: ص ٥٨ تفسير مجمع البيان للطبرسي ج ٥: ص ١١٣، والـسيرة النـبوية لأبـن هشام ج١: ص ٢٦٣ و٢٦٤ ونهج الايمان لابن

جبر تحقيق احمد الحسيني: ١٦٨، جواهر المطالب لابن الدمشقي ج ١: ص ٤٢، الكامل في التاريخ لأبن الاثير ج ١: ص ٥٨٣ اما قول أبي طالب «أما أنه لا يدعونا إلا الى الخير» فهي ليست جملة استفهامية، بمعنى انه كان شاكا برسالة النبيﷺ وانما الجملة هي بسياق الخبر، بدليل كلمة ألزمه، فهي كلمة فيها ما فيها من متاعب ومصائب يعلم ثقلها وحجمها ابي طالب من مجتمع قريش الوثني، وأبوطالب نفسه يعلم ان ابن اخيه صادقاً أميناً لم تنبأ سيرته عن عمل شرّ قط. فهل حقا أن أبي طالب يعتقد ان محمداًﷺ يأتي امته وعشيرته بشيء كله شر وعلى الاقل ما فيه من الشرّ لأهله وعشيرته؟ ثم ان أبي طالب نفسه كان محاميا ومدافعا ومنافحاً عن هذه الرسالة! فاشعاره دللت على انه كان مؤمنا من الطراز الاول، وهويقول:

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها

وان حُصّلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشمٍ أشرافها وقديمها

وان فخرت يوما فإنّ محمداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها

وكنا قديما لانقرُّ ظلامَةً ... إذا ماثنوا صُعْر الخدود نُقيمها

ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومُها

بنا انتعش العود الذّواء وإنّما ... بأكفانا تندى وتنمى أرومُها

انظر سيرة ابن هشام ق١ ج١ ص ٢٦٩

وينقل ابن شهر آشوب، وحينما علم أبوطالب بانظمام عليؑ الى أبن عمه محمدﷺ وبعد أن اخبره عليؑ بإيمانه بهﷺ والصلاة معه، قال الصادقؑ: ان رسول اللهﷺ كان يصلي وعليؑ معه. فمرَّ أبوطالب به وجعفر معه فقال: يا بني صل جناح ابن عمك، فلما احس به رسول اللهﷺ تقدمها ثم انصرف أبوطالب وهويقول:

ان علـــياً وجعفـــراً ثقتـــي عـــند ملـــم الـــزمان والكـــرب
والله لا اخـــذل النبـــي ولا يخذلـــه مـــن بنـــي ذوحـــسب
اجعلهـــما عرضـــة العـــدى وإذا اتـــرك ميـــتا نـــما الـــى حـــسبي
لا تخـــذلا وانـــصرا ابـــن عمكـــما أخـــي لأمـــي مـــن بيـــنهم وأبي

وقال الحميري:

ألم يـــك لمـــا دعـــاه الرســـول اصـــاب النبـــي ولم يـــدهش
فـــصلى هنيـــئاً لـــه القبلتـــين علـــى أنـــسه غـــير مـــستوحش

انظر مناقب آل أبي طالب لأبن شهر آشوب ج١: ص ٣٠١

وعـن أبـن اسـحاق: بعث أبوطالب أبياتاً من الشعر الى ملك الحبشه (النجاشي) يحضه على حسن جوار المهاجرين الذين لجؤ اليه، والدفع عنهم، ومنها:

ألاليت شـعري كـيف في الـنأي جعفر وعمـــر وأعـــداءا لعـــدوّ قـــاربُ
وهـل نالـت أفعـال الـنجاشي جعفراً وأصـــحابه أوعـــاق ذلـــك شـــاغب
تعلّـم، أبـيت اللّعـن، أنّـك ماجـد كـريم فـلا يـشقى لـديك المجانـب
تعلـــمْ بـــان الله زادك بـــسطةً واســـباب خـــير كلهـــا بـــك لازب
وأنـــك فـــيض ذوســـجال غزيـــرةٍ يـــنال الأعـــادي نفعهـــا والأقـــاربُ

فهذا الموقف لايدّل إلا على اسلامية أبي طالب.

وقـد ذكـرنا تعليقاتنا على ايمان أبي طالب ضمن تحقيقنا لكتاب عزيز السيد جاسم عن «علي بـن أبي طالب.. سلطة الحق» راجع الطبعة الاولى منه: ٦٦-٦٧ ونقول يكفى ما اجاد به أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة ج ١٤: ص ٨٤ في آخر بحثه عن ايمان أبي طالب:

ولـــولا أبـــوطالب وابـــنه لمـــا مُـــثُل الـــدين شخـــصا فقامـــا
فـــذاك بمكـــة اورى وحامـــى وهـــذا بيثـــرب حـــبّس الحمامـــا

وتتجلى الشجاعة النادرة لعلي بن أبي طالب- وهي شجاعة مبكرة- عندما أزمعت قريش على قتل النبي، ابان محاولته الهجرة الى يثرب، فقد بات علي في فراش النبي موهماً المتآمرين ان النبي لم يبرح داره، متيحاً له بذلك فرصة الهجرة بحرية كبيرة. وانجز علي مهمة إعادة الوادئع والأمانات، التي كانت لدى محمد، إلى أهلها، ثم التحق بالنبي متوجهاً من مكة الى المدينة، ماشياً[1].

اما المؤمن الثالث الذي صلى مع رسول الله ﷺ فهو (زيد بن حارثة) وتأتي أهمية إيمانه لكونه كان من الرقيق، وقد ذُكر: «ان حكيم بن حزام بن خويلد كان قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة وصيف (أي غلام لم يراهق)[2] فدخلت عليه خديجة بنت خويلد، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لكِ، فاختارت زيداً، فاخذته،

تكفل عبد مناف بأمر ... واودى فكان عليّ تماما
فقل في ثبيرٍ مضى بعد ما ... قضى ما قضاه وابقى شماما
فلله ذا فاتحا للهدى ... ولله ذاللمعالي ختاما
وما ضرّ مجدُ أبي طالب ... جهول لغا اوبصير تعاما

(المحقق).

(١) مسند احمد ج١: ص ٢٤٨، فتح الباري لابن حجر ج ٧: ص ١٨٤، المصنف لعبد الرزاق ج ٥: ص ٣٨٩ المعجم الكبير للطبراني ج ١١: ص ٣٢٢، دلائل النبوة: ص ٦٦، تفسير مجمع البيان للطبري ج ٢: ص ٥٧ (المحقق).

(٢) انظر سيرة ابن هشام ق١ ج١ ص ٢٤٧ (المحقق).

فـرآه رسول اللهﷺ، عندها، فاستوهبه منها فوهبته له، فاعتقه رسول الله، وتبناه، وذلك قبل ان يوحى إليه»[1].

---

(١) يذكـر ابـن الاثـير في (الكامـل): «كان أبوزيد حارثه قد جزع عليه جزعاً شديداً. وبكى عليه حين فقده فقال:

بكـيتُ علـى زيـدٍ ولم ادرِ مـا فعـل ... أحـيٌّ فيرجـى أم اتـى دونـه الاجـل

ولما بلغ زيداً قول أبيه ذلك، قال: بحيث يسمعه الركبان:

أحـنُّ الـى اهـلي وإن كـنت نائـباً ... بانـى قعـيد البـيت عـن المـشاعر

فكفـوا مـن الـوجد الذي قد شجاكم ... ولا تعملـوا في الأرض نـص الأباعـر

فـأني بحمـد الله في خـير اسرةٍ ... كـرامٍ معـد كابـراً بعـد كابـر

فـبلغ أبـاه قـوله، فجـاء هـو وعمـه كعـب حتى وقفا على رسول اللهﷺ بمكة وذلك قبل الاسـلام، فقـالا لـه: يا ابن عبدالمطلب، يا ابن سيد قومه، انتم جيران الله وتفكون العاني وتطعمـون الجائـع، وقـد جئناك في ابننا عبدك، لتحسن الينا في فدائه. فقال: اوغير ذلك؟ فقـالا: وما هو؟ فقال: ادعوه واخبره، فان اختاركما فذاك، وان اختارني فوالله ما انا بالذي اختـار علـى مـن اختـارني احدا، فقالا: قد زدت عن النصف، فدعاه رسول الله،فلما جاء قـال: من هذان؟ فقال: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا عمي كعب بن شرحبيل. فقال لـه ابـوه: يا زيد اتختار العبودية على ابيك وامك وبلدك وقومك؟ فقال: اني رأيت في هذا الـرجل شـيئاً ومـا أنـا بالذي افارقه ابدا فعند ذلك أخذ رسول اللهﷺ بيده وقام به الى الملأ مـن قـريش فقال اشهدوا ان هذا ابني وارثا وموروثا فطابت نفس ابيه عند ذلك ولم يـزل عـند رسـول الله حتـى بعـثه الله فصدقه (المؤلف) وكان الصحابه يدعونه ابن محمد حتـى نـزل القرآن، انظر صحيح البخاري ج ٦: ٢٢ ومسند احمد ج٢: ص ٧٧ وقتل زيد مـع جعفـر الطـيار وعبد الله بن رواحة فى معركة مؤتة انظر صحيح البخاري ج ٢: ص

تعطي هذه القصة مغزىً كبيراً لإيمان شخص كان من الرقيق، اضافة الى انها- فيما اذا تناولناها من جانب آخر- تبين عداء محمد للاستعباد والرق، قبل الوحي.

إن الثلاثى المؤمن: امرأة في زمن وأد البنات، وصبي في زمن الكبار الوثنيين، ومولى من(الرقيق) في زمن تفشي العبودية وتجارة الرقيق، والسبي، ان هذا الثلاثى المؤمن في الدفعة المباركة الأولى من موكب المؤمنين، هوتعبير حي، عن المنطلقات الاسلامية الرائدة، والثورة التي تبشر بها على الصعيد الاجتماعي، مثلما هي على الصعيد الروحي.

وجاء إسلام أبي بكر نصراً كبيراً للإسلام، فقد كان شخصية مرموقة ذات ثراء كبير، «كان مانعاً لقومه، محبباً فيهم، وكان أعلمهم بأنساب قريش وما كان فيها، وكان تاجراً يجتمع إليه قومه»[1]. وقيل في سبب اسلامه، أنّه تأثر برؤيا في منامه، «وعلى ما حكاه السهيلي انه رأى في منامه القمر ينزل الى مكة ثم رآه قد

---

٨٥ وج ٥ ص ٨٧ وذكر ابن هشام في سيرته ان زيدا أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب، المصدر ق ١ ج١ ص ٢٤٧ (المحقق).

(١) يقول ابن هشام: عن ابن اسحاق: كان أبوبكر رجلاً مألفاً لقومه، مُحبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعوا الى الله والى الاسلام من وثق به من قومه من يغشاه ويجلس اليه. انظر السيرة النبوية لابن هشام ق ١ ج ١ ص ٣٥٠ (المحقق).

تفرق على جميع منازل مكة وبيوتها، فدخل في كل بيت منه شعبة، ثم كأنه جمع في حجرة في فقصّها على بعض الكتابيين، فعبرها له بان النبي المنتظر الذي قد أظل زمانه تتبعه وتكون اسعد الناس به»[١] وقد تشرف بذكره فى القرآن الكريم: «ثاني أثنين إذ هما في الغار»[٢].

بعد ان شارك الرسول هجرته الى يثرب، واختفائهما فى غار ثور.

وأسلم على يدي أبي بكر عثمان بن عفان، والزبير بن العوام؛ وعبدالرحن بن عوف، وسعد ابن ابي وقاص، وطلحة بن عبيدالله[٣].

---

(١) ابن الاثير (الكامل) (المؤلف) انظر سبل الهدى والرشاد ج ٢: ص ٣٠٣ وذكر ابن عساكر شبيه ذلك عن أبي بكر حين تحدث أبي بكر عن طريقة اسلامه.. بينما انا قاعد تحت ظل شجرة في الجاهلية اذ تدلى عليّ غصن من اغصانها حتى صار على رأسي فجعلت أنظر اليه، واقول ما هذا فسمعت صوتاً من الشجرة هذا النبي يخرج في...؟؟ أتكن أنت من اسعد الناس به، قلت: بيّنه ما أسم هذا النبي، قال: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي، فقال ابوبكر فقلت صاحبي وأليفي وحبيبي فتعاهدت الشجرة مني تبشرني بخروج النبيﷺ فلما آتاه الوحي سمعت صوتا من الشجرة جد وشمر يا ابن ابي قحافة فقد جاء الوحي ورب موسى لا يسبقك الى الاسلام احد، قال ابوبكر فما أصبحت غدوت الى النبيﷺ فلما رآني قال لي يا أبابكر اني ادعوك الى الله ورسوله، قلت: اشهد انك رسول الله بعثك بالحق سراجاً منيراً فآمنت به وصدقته. تاريخ دمشق ج ٣٠: ص ٣٠ (المحقق).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٣) انظر السيرة لأبن هشام ق١ ج١ ص٢٥٠-٢٥٢.

وازداد الاسلام منعة باسلام الحمزة عم النبي، الذي استشاط غضباً حينما سمع باعتداء أبي جهل على محمد، فتوجه الى مسجد الكعبه، وكال لأبي جهل الصاع صاعين، معلناً اسلامه، ودفاعه البطولي عن محمد[1].

وأعطى إسلام عمر بن خطاب- بعد شراسة في الكفر ومعاداة النبي- زخماً قوياً للحركة الاسلامية الفتية. وقصة اسلامه ذات دلالة مهمة في معرفة التأثير القوي للآيات القرآنية، خاصة ان عمر بن خطاب كان كاتباً مدركاً لأهمية العبارة وسحرها.

يروى ان سبب اسلام عمر: «ان اخته فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان اسلامهما من عمر.

وكان نعيم بن عبدالله النحام العدوي قد أسلم أيضا وهو يخفي اسلامه خوفاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف الى فاطمة يُقْرِئُها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد النبي، والمسلمين، وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعين رجلاً فلقيه نعيم بن عبدالله، فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذي فرق أمر قريش وعاب دينها وسبَّ آلهتها، فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرّتك نفسك اترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ افلا ترجع الى اهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة،

---

(١) ابن هشام فى السيرة ق١ ج١ ص ٢٩١-٢٩٢.

فقد والله أسلما، فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن، (ويعيش معهما – لفقره- في إطار الاشتراكية الاسلامية استناداً الى الآية الكريمة:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خباب، واخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟[2]، قالا: ما سمعت شيئاً؟ قال: بلى، وقد اخبرت انكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه اخته لتكفه فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه: قد اسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما شئت. ولما راى عمر ما بأخته من الدم، ندم. وقال لها: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون فيها الان حتى انظر الى ما جاء به محمد. قالت: انا نخشاك عليها، فحلف انه يعيدها، فقالت له، وقد طمعت في اسلامه: انك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون. فقام واغتسل، فاعطته الصحيفة وقرأها، وفيها طه، وكان كاتباً، فلما قرأ بعضها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع خباب خرج اليه، وقال: يا عمر أني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فاني سمعته امس، وهويقول: اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب، اوبأبي

---

(١) سورة الحشر، آلاية: ٩ (المحقق).

(٢) الهينمة: الكلام الخفي غير المفهوم. (المؤلف).

الحكم بن هشام. فالله الله يا عمر، فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فاسلم، فدله خباب، فأخذ سيفاً وجاء الى النبي واصحابه فضرب عليهم الباب، فقام رجل منهم، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه فاخبر النبي بذلك، فقال حمزة: ائذن له، فان كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وان اراد شرا قتلناه بسيفه، فاذن له، فنهض اليه النبي، حتى لقيه، فاخذ بمجامع رادئه، ثم جذبه جذبةً شديدةً، وقال: ما جاء بك؟ ما اراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله، جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف من في البيت ان عمر اسلم....»[1].

وكان اسلامه بعد هجرة المسلمين الى الحبشة، و«كان اصحاب النبي لا يقدرون يصلون عند الكعبة حتى اسلم عمر»[2].

---

(١) ابن الأثير: «الكامل»، (المؤلف) وانظر ابن هشام في سيرته ق١ ج ١ ص ٣٤٢-٣٤٦. (المحقق).

(٢) المصدر نفسه، (المؤلف) وانظر سيرة ابن هشام ج١: ص ٢٢٨ ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩: ص ٦٣، المعجم الكبير للطبراني ج٩: ص ١٦٢ وص ١٦٥، كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٢: ص ٥٩٩ تفسير القرطبى ج ٨: ص ٤٣، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣: ص ٢٧٠ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٤٤: ص ٤٧، اسد الغابة ج ٤: ص ٥٨ الاصابة لابن حجر ج٤ ص ٤٨٤، الاعلام للزركلي ج٥ ص٤٥، وتاريخ المدينة لابن شبة النمري ج ٢: ص ٦٦١، البداية والنهاية لابن كثير ج ٣: ص ٩٩، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢: ص ٣٢. (المحقق).

ومن الواضح ان دخول الاسلام شخصيات قوية، وموثرة، لا يستهان بشدة وعيها، وحضورها في الحياة السياسية والاجتماعية، يعبر- خير تعبير- عن مدى قوة شخصية محمد وما تتحلى به من سمات باهرة، مدهشة، على كافة المستويات.

فكان الاعجاب بمحمد من قبل شخصيات مهمة، سرعان ما يتحول الى حب لا مثيل له، ولا يمكن تحليل ذلك الا من خلال إدراك عبقرية محمد ومؤهلاته العقائدية والتطبيقية، التي خصته بها البركة الأهية.

وقد اعترف خصوم محمد أنفسهم بحب أصحابه له، فها هو (زيد بن الدثنة) في حضرة أبي سفيان، وكان محكوماً عليه بالقتل، يسأله ابوسفيان:

انشدك الله يا زيد، اتحب ان محمداً الان عندنا في مكانك تضرب عنقه وانت في اهلك؟ قال زيد: والله ما أُحب أن محمداً الان في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة توذيه وأنا جالس في أهلي!

فعجب أبوسفيان وقال: ما رأيت من الناس أحداً يحبه اصحابه ما يحب اصحاب محمدٍ محمداً»[1].

---

(١) المصدر نفسه، (المؤلف) وانظر سيرة ابن هشام ج١: ص ٦٦٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣: ص ١٢٨، وهوزيد بن الدثنة بن معاوية بن عبيد البياضي من بني بياضة من الخزرج من الانصار، من فقهاء الصحابة شهد بدراً واحد،ارسله النبيﷺ مع وفد من بني الهون بن خزيمة ليفقههم في الدين بعد ما جاءوا واسلموا على يد الرسول، فغدر بهم في الرجيع (وهوماء لهذيل) على اميال من الهدة، وقتل اكثرهم وبقي اثنين منهما،

كـذلك عبر(عروة بن مسعود الثقفي) موفد قريش الى النبي إبان اعتزامه دخـول مكـة واداء الحج، إذ قال لقريش، بعد عودته:«يا معشر قريش، أني جئت كـسرى في ملكـه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأني والله ما رأيت ملكاً في قـوم قـط مثل محمد في أصحابه. لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. وإنهم لن يُسلموه لشيء ابداً. فَروْا رأيكم»[1].

احـدهما زيـد بـن الدثـنة فباعوه. بمكة، فقتله مشركو قريش وصلبوه بالتنعيم على اميال من مكة،انظر الاعلام للزركلي ج ٣: ص ٥٨ (المحقق).

(١) انظر ابن هشام في سيرته ج ٣: ص ٧٧٩ ومسند احمد ج ٤: ص ٢٣٤، تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٢١٠ البداية والـنهاية لابن كثير ج ٤: ص ١٩١، السيرة النبوية لابن كثير ج ٣: ص ٣١٧. (المحقق).

الفصل الخامس

المسار النبوي الواحد
والمسارات المتوازية

المسار النبوي الواحد والمسارات المتوازية

بعـد ان تجلى الوحي، وتفتحت النفس المحمدية أمام نداء السماء، وبشائر النـبوة، وإيحاءات الرسالة، أصبح ماضي محمد لفترة ما قبل البعث خطاً للوثوب العظـيم، لكـنه لم يكـن خطـاً مقطـوعاً عن المرحلة الآتية، ففترة البعث هي- في معـان كثـيرة – امـتداد لحـياة محمـد الـسابقة، سـوى ان الوحـي هيأها للاغتناء العظيم، لوفرة الافكار والحلول الدينية والدنيوية.

كانـت نفـس محمـد تـستقبل الوحي بكيفية صوتية، مثل صلصلة الجرس وهوصوت قد يكون مألوفاً في المدن والمعسكرات، إلا أنه في البوادي، والأماكن النائـية، أوالمنعـزلة، ذو وقـع مميّـز، وأحياناً كان يتهيأ له بصورة دحية الكلبي[1]،

---

(١) دحـية الكلبـي هوشخـصية مهابة، امتاز بحسن الهيئة وحسن الجمال، وكان جبرئيل عليه السلام يتمثل شخصيته فى بعض لقاءاته مع الرسول صلى الله عليه وآله ويذكر الشيخ الكليني في كتابه الكافي عن ابي عبدالله عليه السلام، قال: إن أباذر أتى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما رآهما انصرف عنهما ولم يقطع كلامهـا فقـال جبرئيل عليه السلام: يا محمد هذا ابوذر قد مرّ بنا ولم يسلم علينا أما لوسلم لرددنا علـيه، يـا محمـد ان لـه دعـاء يدعـو به، معروفاً عند اهل السماء فسله عنه اذا عرجت الى السماء، فلما ارتفع جبرئيل جاء أبوذر الى النبي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ما منعك يا أباذر أن تكـون سلمت علينا حين مررت بنا؟ فقال: ضننت يا رسول الله ان الذى (كان) معك

أحد أصحابه المسلمين، وكأن ذلك كنايةٌ ثابتة عن مكانة الانسان في النفس المحمدية، وفي الفكر المحمدي الساطع.

بين الصوت، صلصلة الجرس، وبين الانسان: دحية الكلبي، كان المسار النبوي الكبير يتبلور- مذ ذاك- في مسارين متوازيين، ومترابطين، ومتحدين أبداً: المسار الروحاني العظيم، والمسار العملي، التطبيقي الفخم. وفي هذين المسارين تبلورت الكفاءة الروحية والذهنية والتطبيقية لمحمد تبلوراً متجدداً، ومتسعاً، وذا آثار راسخة. كذلك، كانت جميع انشطة محمد وممارساته تدخل في عداد هذين المسارين: اللذين يشكلان أنموذجاً فريداً من نوعه في وحدة الروحانية والعملية، بكل ابعادها وآمادها المهمة.

من هنا، كان الذين ينظرون الى محمد نظرتهم الى سليل الكهنة، المزوّد بشيء من علوم السحر يمثلون الافتراء الاكبر، مثلما كان الذين ينظرون الى محمد نظرتهم الى طالب سلطة، فهم يمثلون البهتان الاكبر.

إفتراء وبهتان آتيان من نفس ذات غلٍ عقيم، يحول دون النظر السليم الى

دحية الكلبي قد استخليته لبعض شأنك، فقال: ذاك جبرئيلؑ يا أباذر وقد قال: أما لوسلم علينا لرددنا عليه، فلما علم ابوذر انه كان جبرئيلؑ دخله من الندامة حيث لم يسلم عليه ما شاء الله فقال له رسول اللهﷺ: ما هذا الدعاء الذي تدعو به؟ فقد أخبرني جبرئيلؑ ان لك دعاء تدعو به، معروفا في السماء، فقال: نعم يا رسول الله اقول: «اللهم اني اسألك الأمن والإيمان بك والتصديق بنبيك والعافية من جميع البلاء والشكر على العافية والغنى عن شرار الناس» الكافي ج٢: ص ٥٨٧ رقم ٢٥ (المحقق).

تلك المزايا النادرة التي قلما تجتمع لأحدٍ من الانبياء والعظماء الخالدين، تلك المزايا التي أثمرت- في ظل ظروف موضوعيه متعثرة، وشديدة الصعوبة – عن بناء العالم الاسلامي الكبير.

ويمكن- في كل لحظة- تخيّل صورة مواطن اسمه محمد تطارده القبائل، وتطرده المدن، ويحاربه الغوغاء[1] وهو بمفرده، إلا من قلةٍ من الناصرين، يذرع

---

(١) ان كبار رجال قريش ورؤوسائهم واغنياء مكة، وجدوا في الاسلام خطراً يهدد مصالحهم بل يلغي ذاتهم الاستقراطية التي بنيت على ظلم الناس المحرومين الفقراء. ولذا وجدوا فيه الخطر الحقيقي الذي يهدد كيانهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وحتى الديني. فشرّعوا في مقاومة الاسلام ورسالته الفتية من خلال ممارسة شتى اساليب الضغظ، والتهديد والتعذيب ضد المسلمين وحسب مكانة ومنزلة كل واحد منهم في المجتمع، ومدى قوة عشيرته وموقفها منه.

بلا شك ان هذه الأساليب تستهدف اجبار وقهر المسلمين والمؤمنين على الردة والعودة الى الشرك، اذن هي «الفتنة في الدين» فكانت امتحاناً عسيراً للمؤمنين، اختباراً لقوة الايمان تحت الضغوط القاسية. ومن هنا توعد سبحانه تعالى هؤلاء والمشركين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠).

بل ان عملهم هذا هو جريمة تفوق حد القتل كما وصفهم في قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧) وقد اشارت المصادر في تصوير هذه الفتنة من قول ابن عباس (رض): حينما سُئل (اكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ فقال: نعم والله، ان كانوا ليضربون احدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر

المسافات ما بين الغار والوادي، والكعبة، والقرى والمدن المتقاربة، وغير المتقاربة، تحت وطأة الملاحقة الجهنمية، ذلك المواطن، يتمكن من قهر سلطة المال والوثن، والنظم السياسية والاجتماعية، الجائرة، مستولياً على افئدة أناس الجزيرة العربية الذين لم يمنحوا أفئدتهم إلا لأنفسهم وقبائلهم المتنازعة.

ذلك الفرد الذي شيَّد اعظم سلطان في تاريخ جزيرة العرب، والعرب، لم يكن ساحراً قطعاً، ولم يكن طالب سلطة !.

لقد كان محمد شخصية ثرية بالجانبين الإلهي والإنساني.

الجانبين اللذين يقدمان الأمثولات الروحانية، والمناهج العملية التطبيقية،

على ان يستوي جالساً من شدة الضر الذي به حتى انه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة) أنظر المغازي والسير لابن اسحاق: ١٩٢، وأنساب الاشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد مصر ١٩٥٩م ١: ١٩٧.

اذن هي الهمجية التي تريد ان تلغي حرية الانسان وإرداته في اختيار ما يؤمن به من عقيدة عن طريق الإكراه، فهي بذلك تمارس قتلاً واضحاً لجوهر الانسانية واغتيالاً للفكر والعقل. ورغم قساوة هذه الاساليب القاهرة صبر المؤمنون على كل انواع الاذى والأضطهاد ومما كان يعزز في نفوسهم من هذا الصبر والتجلد قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤-٣٥). (المحقق).

بصورة متبادلة الاغناء، كما توضح ذلك تفاصيل سيرة حياته، التي هي تفاصيل الصيرورة الاسلامية الجديدة.

العقائدية المحمدية:

الداعية الأعظم:

ثلاث سنوات كانت للدعوة السرية، أبلغ فيها خديجة وعلياً وزيداً وأبابكر ورهطاً من الناهبين الأصلاء. وكان قوام الدعوة السرية اللقاء خفية، وممارسة الصلاة، التي امتاز بها الاسلام امتيازاً مرموقاً، رغم انها - أصلاً - وجدت في الديانات الاخرى، بتعبيرات جزئية، متقطعة، رمزية، على نحوٍ محدود. لكنها- في الاسلام- أصبحت منذ البدء العمود الفقري للديانة. فهي محتوى وشكل العبادة التي يُسَلِّمُ فيها المسلم، المؤمن، أمره الى الله، في الوقوف، والركوع، والسجود.

وتنطبق الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1].

على توجهات الروح والجسد، عند المصلي، فرغم ان عينيه لا تلعبان

---

(١) وفي الآتي أقوال نبوية حول وجود الله في كل مكان «يسأل الرسول عليه السلام جارية.. أين الله؟ فتشير الى السماء: فيقول الرسول:« انها مؤمنة» وسئل رسول الله: كيف رأيت ربّك يا رسول الله؟ فاجاب:« نوراني اراه» وفي ذات المعنى يقول عليه السلام: « لوسقط دلوأحدكم في بئر، لوقع على الله» انظر خالد محمد خالد: «الاسلاميات» (المؤلف) الآية من سورة البقرة، الآية: ١١٥ (المحقق).

باتجاه زوايا النظر المختلف، كأنها مخصصتان لمعاقرة رؤية صورة باطنية، وكأنها تلغيان المنظور الخارجي. إلا ان الوقوف والركوع والسجود، هي ما هية الحركة الايمانية الكبرى، التى ترى الله – بالروح – في الأعالي، وفي الارض، وفي الفضاء، وفي الجهات.

كم هي – ظاهرياً – بسيطة إيقاعية السجود، الا انها – في حقيقتها – عمل بطولي، على صعيد الفكر والسياسة، كما على صعيد الروحانية، إنها شطبت – حالما ابتدأت في الصلاة – على السلطان الدنيوي، على عرش الفراعنة القساة، والطغاة المارقين، واعداء الانسان.

لقد ضمّت سلطان الوثن وسلطان المال وسلطان السياسة، وجميع رموز الظلم والعدوان، في سلةٍ واحدة، ورمتها بعيداً، متحدّية إياها، بقوة الانتساب الى: «لا إله إلا الله»، والتي فتحت عين الانسان على وجوده الحقيقي، وعلى حقوقه الانسانية المهدورة.

(اشهد ان لا إله إلاّ الله) اسقطت الاصنام والفراعنة الطغاة على حد سواء. كذلك اسقطت سلطة الاغنياء المرابين، في عالم ناموسه (الربا) الفاحش.

هذا يبين ان الصلاة لم تكن طقساً روتينياً – من طقوس العبادات، بل هي مركب روح وجسد المصلي، المؤمن، الذي يحمله الى عالم النور، الإلهي، وعالم الحق، فهي الواسطة الشفافة، العتيدة، في الوقت ذاته، التي يلتئم فيها شمل المخلوق مع الخالق، والتي ينمو فيها ضمير المصلي نمواً حراً من القيود المادية والاجتماعية، ونمواً مقيداً بإتجاه العلو النوارني.

تعلم محمد الصلاة، ولم يقل أنها اختراعه، أوأسلوبه، أووسيلته، وهو - في ذلك- يرفض تأليه الفعل الجديد، محيلاً إياه الى أصله، لقد أذاب إيمانه بالله جانب الشخصية الذي يطفح بـ (الأنا) والذي تنشأ فيه معالم الغرور، والتبجح، والاكثار من الاشارة الى (الذات). لقد ألغى محمد (الذات) في نشوة التلقي، وفي معاناة الاستزادة. لقد ردَّ الخير الى الله، والشر الى الانسان المخطىء، ليقدم الأمثله على ان الحقيقة الإلهية، هي الخير، والحق، والعدل، وما على الانسان إلا ان يستلهم منها عوامل نموه الذاتي، وتطوره الاجتماعي، وسياسته في الحياة، في إطار الولاء الى الخالق.

ومثل بساطة طقس الصلاة، يجب الابتداء، بالطقس الأسهل: التطهر بالماء. إنه تطهر جليل، وإشارة، أبدية الى مغزى النظافة. إنه ترميز وافر الى العلاقة بين الماء الذي أخرجت منه الحياة، وبين الانسان ابن الحياة المتفوق، الذي يسيطر على الطبيعة، ويسوس الكائنات الحية. بما يمتلكه من عقل إن الوضوء الذى دخل في فرض الصلاة، شرطاً وواجباً هو دعوة رمزية الى الاغتسال التام لتحرير الروح والجسد من وسخ العبوديات الثقيلة، ومن أدران الرذيلة، ومن شوائب النفس السلبية.

وحينما يقف المصلون بعد الوضوء فى صف واحد، أو في عدة صفوف، توحدهم الممارسة المقدسة،تتساقط كل الحواز التي تفصل بين البشر بسبب الملكية والسلطة والجاه، ولا تتكرس غير وحدة الجماعة الانسانية المنضوية الى الشرف الإلهي، الى الحق وحده.

في شعاب مكة البعيدة عن عيون سادة قريش، عملاء الوثن، في الوقت ذاته، وبعيداً عن الآذان التي تلتقط الاصوات، كان المؤمنون الجدد، طليعة الركب الاسلامي، يتلهفون الى تأدية الصلاة، وتحرير أنفسهم من كلاليب الخطأ القديم، الجاهلية كلها! كانوا وفي أضيق الأمكنة واكثرها دفعاً للأختناق يتنفسون الحرية، بحرية.

وفي بيت الرسول، حين تأديه الصلاة، كان صوت محمد المتهجد بالعبادة، يرسم ملامح العالم المأمول في الغيب الهائل، وحين كان يتلوبعض الآيات الخالدة، كان يخنق صوته فى أجواف الآنيه، مغمداً فمه فى أفواهها، كي يخمد صوته، فلا يسمعه المتلصصون، والمتجسسون، الذين شتلتهم اللعنة وراء الجدران والأبواب دوماً مثل حشرات بغيضه لا تغادر طبيعتها.

أصبحت الصلاة تأسيساً لبناء الانسان المؤمن، وبدأت الخلية الاسلامية الأولى تحرس خطوات محمد الداعية العظيم، الذي تولى بنفسه إبلاغ رسالته، والدعوة لها.

ولما نزلت الآية:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

كانت الحملة المحمدية قد تجاوزت حدودها التذكيرية. بدخولها مرحلة

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤ (المحقق).

«المبشر والنذير»[1] وهي اللغة الموجهة نحو طرفي المجتمع، وطرفي الدنيا. فالتبشير بنعيم الايمان، نعيم السماء، هو - في الوقت ذاته- تبشير بالعدالة وإحقاق الحق. وكانت في ذهن محمد صور اليتامى، والفقراء، والجائعين، والمظلومين. أما النذير فقد كان سوطاً يجلد ظهور عَبَدَة الأوثان، عبدة المال، الذين لا تفلح في تغييرهم محاورة، أو تبشير، أو توعية، لأنهم يمثلون- بأمانة- أحجار عالمهم الحجري، عالم الطبقة المتسلطة، المرابية، الشهوية، الفاتكة، التي لا تعرف شيئا اسمه: الحق، ولا قضية اسمها الايمان.

كان النذير تذكيراً رهيباً بالغضب الإلهي، الذي هوغضب العدالة الاجتماعية، الذي سيهدر حتماً، ويقتص من الظالمين، والكافرين باسم الله وبنعمته.

البعض يستغرب ما حمله القرآن من تهديد ووعيد، ولِمَ الاستغراب؟

ولغة التهديد والوعيد هي لغة الحق، وصيحته، وسيفه؟ولم الاستغراب؟ والنصف الشرير في المجتمع الانساني، هوالنصف المهيمن؟ والمدمر، والذي لا يكف عن الفتك بأغلبية الناس منذ ميلاد المجتمعات البشرية؟

فلغة القرآن الاعجازية تمتلك - ايضاً- من الواقعية الشديدة ما جعلها تلمس أواخر عُصَيْبات المسألة الاجتماعية، وطبيعة الانسان، وواقع الانسان،

---

(١) ايحاءاً من قوله تعالى:﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ سوره الاسراء، آية: ١٠٥ (المحقق).

مثلما تلمس أوتارها الأساسية.

كان التقريع بالقارعة اللغة الممهدة للزلزال العنيف الذي يعصف بعالم الأوثان وسيعيد مكة الى بيت الله فيما بعد، وهكذا هجمت القارعة:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[1].

ولم تأت القارعة، والتحذيرات الجادة من القيامة، والساعة، وزلزالها، على غارب الاطلاق، بل هي جاءت ضمن معادلة التقابل بين الخير والشر، في مجرى الصراع الابدي بين الايمان والكفر، بين الحق والباطل.

هذا ما قالته سورة الزلزلة:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

و﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[3].

إذن، ابتدأت ساعة التحدي لآلهة قريش، وسلطانهم، و«مشى رجل من اشراف قريش الى أبي طالب هم: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وابوالبختري بن

(١) سوره القارعة، الآية: ١-٥(المحقق).

(٢) سورة الزلزلة، الاية: ١-٨(المحقق).

(٣) سوره الحج،الاية: ٧ (المحقق).

هشام، والاسود ابن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبوجهل بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، ومن مشى منهم، فقالو: «يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه احلامنا، وضلل آباءنا، فإما ان تكفه عنا، وإما ان تخلي بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه» فقال لهم أبوطالب قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً فانصرفوا عنه...»[١].

لكن رسول الله الذي امتثل لنداء المصير النبوي والرسالة المقدسة، كان قد اختار تصعيد الدعوة، وكذلك عمدت قريش الى تصعيد الحملة ضده غير انها آثرت ان تعالج الامر مع أبي طالب، حرصاً على الرابطة القرشية، فمشى اشراف من قريش ثانيةً الى أبي طالب فقالوا: يا ابا طالب، ان لك سناً وشرفاً وإنا قد استنهيناك أن تنهي أبن أخيك فلم تفعل، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه احلامنا حتى تكفِهِ عنا أو ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين» ثم انصرفوا[٢].

كانت حراجة موقف أبي طالب على غاية من الدقة. فقد شب وشاب

---

(١) ابن الأثير: «الكامل»، (المؤلف)، وانظر سيرة ابن هشام ج ١: ١٧١ وتاريخ الطبري ج٢ : ص ٦٥، والبداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٦٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج١: ص ٤٧٣ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه، (المؤلف)، انظر سيرة ابن هشام ج١: ص ١٧١، البداية والنهاية لأبن كثير ج٣: ص ٦٣، تاريخ الطبري، ج٢: ص ٦٥، السيرة النبوية لأبن كثير ج١: ص ٤٧٤، ومن المعاصرين، الصحيح من السيرة، جعفرمرتضى العاملي ج٣: ص ٨٣(المحقق).

على قيم وتقاليد قريش، وعزتها ومنعتها، فـ«عظم عليه فراق قومه وعداوتهم له، فبعث الى رسول الله، واعلمهُ ما قالت قريش، وقال له: ابق على نفسك وعليّ ولا تحملني من الأمر ما لا اطيق[١].

لوكانت مهمة محمد سياسية، أو ذات طموحات شخصية، أو أكثر من شخصية، لكان التخلي عنها سهلاً لأجل مراعاة حزن أبي طالب، الذى كان له نِعم الأب، ونِعم الحامي، ونعم الذخر، إنما الامر أمرُ رسالة خرجت على نطاق إرادته الشخصية، وإنه لمبلغ هذه الرسالة مهما حصل وسيحصل،أجاب محمد جوابه الحاسم، بعبارته الخالدة، التي تذكر على مرّ الأعوام والقرون، مثالاً على الصمود والاصرار وقوة اليقين، رغم مأساوية اللحظة في حضرة عمه الحزين:

«يا عماه، لووضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ماتركته» ثم بكى رسول الله، وقام ذاهبا، فناداه أبوطالب وقال له: « اذهب يا أبن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا اسلمك لشيء أبداً»[٢]، و «ولما علمت قريش ان أبا طالب لا يخذل أبن أخيه محمداً، وانه يجمع لعداوتهم،مشوا بعمارة بن الوليد، فقالوا: يا ابا طالب، هذا عمارة بن الوليد، فتى قريش، وأشعرهم، وأجملهم، فخذه، فلك عقله ونصرته، فاتخذه ولداً، واسلم لنا ابن اخيك، هذا الذي سفّه احلامنا وخالف دينك ودين آبائك.

---

(١) ابن هشام ج١: ص ١٧٢ والمصادر السابقة (المحقق).

(٢) ابن هشام ج١: ص ١٧٢ والمصادر السابقة (المحقق).

وفرق جماعة قومك، نقتله، فإنما رجل برجل. فقال: لبئس ما تسومونني، اتعطونني ابنكم اغذوه لكم، واعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا لا يكون ابدا..»[١].

اختار الرسول دار (الأرقم بن أبي الأرقم) في شمال الصفا مكاناً للصلاة والتعبّد، واجتماع المسلمين المؤمنين، بعيدا عن عيون المشركين وملاحقاتهم، لكن باع قريش طويل، واعتبرت حربها ضد محمد حرباً مصيرية، بكل المعاني السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للحرب المصيرية[٢].

إلى أين وجَّهت قريش نيراها؟

غالبا، كانت قريش تتجنب توجيه نيرانها ضد شخصيات اسلامية قوية، ذات شأن اجتماعي كبير، إلا في حالات مفروضة، وكانت تختار خصمها اللدود بالدرجة الاولى: محمداً، معه انه لم يدخر وسعاً في الحفاظ على رابطة الأرومة، واحيائها على اساس ديني اسلامي.

كما انها قد اختارت إشهار الحرب الشديدة ضد المسلمين الفقراء

---

(١) المصدر نفسه(المؤلف) وانظر سيرة ابن هشام ج١: ص ١٧٢ (المحقق).

(٢) اصبح حادث دخول الرسول ﷺ الى دار الأرقم، تاريخاً يؤرخ به مواليد الرجال وبقية الأحداث فمثلاً حمزة بن عبدالمطلب اسلم بعد. دخول النبي دار الأرقم انظر ذخائر العقبى للمحب الطبري: ١٧٤ وايضا يذكر القاضي النعمان المغربي في شرح الاخبار ان طليباً بن عمير بن وهب اسلم في دار الأرقم أي في الفترة التي كان فيها الرسول ﷺ يتعبد بهذا الدار، المصدر: ص ٢٢٠ وغيرها من مثل هذه الامور (المحقق).

والأرقاء، والمسلمات الفقيرات[1]. فقد أرعبها اندفاع الفقراء والأرقاء نحو الديانة الجديدة، وبدأت تشعر بأن مصالحها مهددة، وان الثورة الحاصلة هي ثورة اجتماعية لا تعرف المهادنة.

ابتدأ القمع القرشي ضد المستضعفين، باتباع الاسلوب التقليدي، بتعذيبهم بحرّ الرمضاء، التي كانت دون حرارة النار بدرجة أقل، وكذلك بسحق الصدور بقطع الحجر الكبيرة، وبالضرب المبرح، وبالتقييد بالسلاسل.. كان القرشيون الكبار يزدادون تهستراً، وهم يرون التهديد قادماً اليهم من القاعدة الشعبية، من الناس البسطاء الذين ما كانوا ليحسبون لهم حساباً. حتى اذا ما آمنوا بالتوحيد وبالنبوة تحول اولئك البسطاء الى قوة عجيبة، مُخيفة، يحسب لها ألف حساب. تأجج الجنون القرشي، في حين كانت تجربة المسلمين المعذبين، جديدة، لم يشهدوا مثلها قبل. فضربوا مثالاً رائعاً في الصبر والشجاعة، والايمان بالله.

من هؤلاء بلال الحبشي، بلال بن رباح مولى أبي بكر، وخباب ابن الأرت، وصهيب الرومي، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة (واسمه افلح)، وقد

---

(١) يقول ابن اسحاق: انهم عدوا على من اسلم، واتبع رسول اللهﷺ من اصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحسبونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا أشتد الحرّ، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدّة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمهم الله منهم. انظر السيرة النبوية لابن هشام ق ١ ج ١ ص ٣١٧ (المحقق).

كتابخانه تخصصي تاريخ اسلام و ايران ١٣٧٤ تأسيس

استطاع أبوبكر شراءهم من اسيادهم، بالطريقة المعروفة حينذاك، واعتقهم[١].

كذلك كانت من بين اسرة الايمان (لبينة) جارية بني مؤمل بن حبيب بن عدي بن كعب.(وقد اسلمت قبل اسلام عمر بن الخطاب، الذي كان- قبل اسلامه- يعذبها، ثم يدعها، قائلاً: إني لم أدعك إلا سآمةً، وقد اشتراها أبوبكر واعتقها[٢].

وكانت هناك- ايضا- (زنّيرة) وهي جارية لبني عدي، وكان، عمر يعذبها، وكذلك أبوجهل حتى عميت، وقد اعتقها ابوبكر[٣].

ومن بين النساء المستضعفات (النهدية) مولاة لبني نهد. و(أم عبيس)

---

(١) هذا الصبر والصمود أودى ان يخلق الحكمة على أفواه هؤلاء المعذبون، فعن عائشة قالت:يقول عامر بن فهيرة: قد رأيت الموت قبل ذوقه، ان الجبان حتفه من فوقه، انظر كتاب الموطأ لمالك ج٢: ص ٨٩١ وهوشبيه قول احد الابطال الذي نازل في كثير من المعارك الابطال الاشداء ويخرج منها سالماً، حتى مات على فراشه، فقال وهوعلى فراش الموت، متأملاً با لحياة:لا نامت أعين الجبناء. فالجبان يموت خوفاً في كل لحظة اما ابطال العقيدة والمبدأ فهم يموتون موتة واحدةً (المحقق).

(٢) البداية والنهاية لأبن كثيرج٣: ص ٧٥ وج٩ ص٧٥ وسيرة ابن هشام ج ١: ص ٣٤١ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠٠ والصحيح من السيرة، العاملي ج ٣: ص ٨٩ (المحقق).

(٣) وهي التي فقدت بصرها فعميت فقيل لها، اصابتك اللات والعزى، فقالت لا والله ما اصابتني وهذا من الله، فكشف الله عن بصرها ورده اليها، فقالت قريش هذا بعض سحر محمد، انظر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٨: ص ٢٥٦، الاصابة ج ٨: ص ١٥٠البداية والنهاية ج ٣: ص ٧٥ (المحقق).

وهي أمة لبني زهرة[١].

وظلت مقاومة بلال الحبشي، الصامدة درساً في صلابة الايمان، وحين كان يتمتع أسياد قريش بمرآة، وهو في ذروة العذاب الذي سلطه عليه القرشيون، وحين كان جسده يتحمل فوق طاقة تحمّل البشر، كان يهتف: (أحد أحد)[٢]، فكان يغيظهم، ويزيده فزعاً، فتنطلق عقدة الكراهية، والقلق، والخوف، في أفعال مدمرة ضد إنسان اعزل، أسير عدوانيتهم وبغيهم.

واشتدت هستيريا القتل، فكانت جريمة قتل ياسر، وامرأته سمية التى طعنها أبوجهل في قلبها بحربة في يده، من مظاهر وحشية الاسياد الكامنة تحت

---

(١) الطبقات الكبرى لأبن سعد ج٨: ص ٢٥٦ اعتقها ابوبكرفقال أبو قحافة يا بني انقطعت الى هذا الرجل وفارقت قومك وتشتري هؤلاء الضعفاء فقال له: يا ابه انا اعلم بما اصنع وكان مع النهدية طحين لسيدتها تطحنه أو تدق لها نوى، فقال لها ابوبكر ردّي إليها طحينها اونواها، فقالت: لا حتى اعملهُ لها!! فأي موقف هذا، وكم تمتلك هذه المرأة من زمام الوعي العادل، ومساحة واسعة من نقاء السريرة، والمعرفة التامة بحق الآخر وإن كان مشركاً.!! (المحقق).

(٢) انظرمسند أحمد ج ١: ص ٤٠٤ وج ٢: ص ٤٢٠، فتح الباري لأبن حجر، ج: ص ٦٦ وعن ابن اسحاق في فتح الباري ٨: ص ٥٥٤. والمصنف لأبن أبي شيبة ج ٨: ص ٤٤، صحيح ابن حبان ج ١٠: ص ٥٥٩. الفايق في غريب الحديث ج ٢: ص ١٧٩، شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج ١٤: ص ١٣٨، كنز العمال للمتقي الهندي، ج ١٣: ص ٣٠٨ (المحقق).

جلباب الوقار الارستقراطي المخادع. ولم ينجُ عمار بن ياسر، بعد صفحات التعذيب المتعددة، إلا باكراهه على سب محمد، فتركوه. وأتى النبيَ: باكياً «فقال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله. كان الأمر كذا وكذا. قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال: يا عمار إن عادوا فعُد. فأنزل الله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1].

فشهد المشاهد كلها مع رسول الله....»[2].

كان الفقراء والمعدمون من الرجال والنساء المادة البشرية للدعوة المحمدية، لكن محمداً لم يُحدد مسار الدعوة في أطر معينة، لقد كان الجميع من أي انتماء طبقي ومهني، غايته. وطرقت الدعوة المحمدية أبواب افئدة الناس، وبخاصة اولئك الذين يملكون تأثيراً اجتماعياً كبيراً كيما يكونوا مركز ثقل للحركة الاسلامية البكر. فلا غرابة ان اسياد قريش، وخاصة بعد اسلام حمزة عم النبي (وأخيه بالرضاعة) فيما بعد، رأوا في الاسلام يحمل بذور الفتنة، وخطر الانشقاق العظيم، داخل البنية العائلية للأسرة، والقبيلة، والمجتمع بعامة.

إن العقيدة المحمدية اجتاحت الميدان الاجتماعي الذي كان مغلقاً بقيادة

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦ (المحقق).

(٢) ابن الاثير: (الكامل) (المؤلف) وقال عنه رسول الله ﷺ: عمار يدور مع الحق أينما دار وأنه لتقتله الفئة الباغية الناكثون عن الطريق ويكون أخر رزق له من الدنيا ضياح من لبن... انظر مناقب الكوفي محمد بن سليمان ج ٢: ص ٣٥٠ وانظر قصة التعذيب الوحشي كاملة في شرح الاخبار للقاضي النعمان المغربي ج ٢: ص ١٨. (المحقق).

الفئة الارستقراطية - التجارية القرشية، وحامياً لمصالحها، مهددةً بإعادة صياغة الواقع الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، وفقاً للمبادىء، لا وفقاً لتراتب القرابة، واعتبارات المصلحة.

وحينما اسلم حذيفة، وافترق عن أبيه عتبه بن ربيعة الذى كان سيداً في قومه، دق ناقوس الخطر، فها هي تعاليم محمد تخترق قريشاً، وتستهين بالوحدة القرشية التي تبدو صخرية بسبب قوة المصالح المادية والمعنوية لها، في مكة، وفي الجزيرة العربية[1].

دعت حادثة اسلام حذيفة إلى إجراء مراجعة في الأسلوب القرشي، وابداء نوع من الملاينة التكتيكية للتخلص من هذا الخطر المتفاقم.

كان والد حذيفة، عتبة بن ربيعة، متألماً من إسلام ابنه و«راوده الأمل في أن يقضي على تلك الانقسامات الداخلية التي أحدثتها تعاليم محمد، لا في قلب قريش فحسب، بل في قلب كل أسرة، واعتزم أن يقوم مقام المصلح بين الطرفين، فقال لقومه، وقد رأى رسول الله جالساً وحده بالقرب من الكعبة:

«يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه بالنيابة عنكم، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟» وكان أصابهم اليأس

---

(١) فأصبح حذيفة من أشدّ المؤمنين برسالة الرسولﷺ بينما بقي أبوه عتبة بن ربيعة من أشد الكافرين وقتل عتبة في معركة بدر على يد الحمزة بن عبدالمطلب. انظر المناقب لأبن سليمان الكوفي ج ١: ص ٣٢٣ (المحقق).

بسبب اسلام حمزة، تلك الشخصية المهيبة التي جرَّتْ إلى الإسلام شخصيات أخرى عديدة ففهموا أن خير وسيلة هي الملاينة والسياسة، فقالوا لعتبة:«بلى أبا الوليد، قم إليه فكلمه»، فقام عتبة حتى جلس إلى الرسول، وقال له في أسلوب عاطفي رقيق: «با ابن أخي، إنك منا، حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقتَ به جماعتهم، وسفهت به احلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني اعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها».

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا أموالاً. وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع امراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (أي ما يتراءى للانسان من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فاختر لنفسك».

وكان رسول الله يصغي، في رزانة وهدوء، وقال لعتبه:

«أوقد فرغت يا أبا الوليد؟».

قال: «نعم».

قال: «فاسمع مني الآن» ثم قرأ سورة «فصلت» وفيها تهديد المشركين بعذاب الجحيم الخالد، وتبشير المؤمنين بالسعادة، في جنّات الله الفسيحة، وكان عتبة ينصت إليه ملقياً يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، وقد ملكت

عليه نفسه تلك الآيات البينات، الآمرة تارة، الرحيمة تارة اخرى، التي تقرع أذنيه بتوقيع ومقاطع غريبة عليه كل الغرابة، وعقدت الدهشة من حركات عتبه، فبقى على حالته ساكناً لا يريم. ثم انتهى رسول اللهﷺ الى السجدة منها فسجد ثم قال لعتبة:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

فقام عتبه الى قومه حائراً مشدوهاً، وقد تغير وجهه، فقالوا له: «ما وراءك يا أبا الوليد؟» فقال: «ورائي اني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، ما هوبالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش اطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم اسعد الناس به»[1].

ولكن ماذا تفيد تلك النصائح الحكيمة، وقد تملك القوم الحقد والغيرة؟ فصاحوا في وجهه: «سحرك يا أبا الوليد بلسانه!» فهز كتفيه وتركهم قائلاً: «هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[2].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ق ١ ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ وج ١: ص ١٩٠ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. وانظر أيضاً: كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٢: ص ٣٩٩، تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٩٩، تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٣٨: ص ٢٤٧، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٨٢، السيرة النبوية لأبن كثير ج ١: ص ٥٠٥. (المحقق).

(٢) اتيين دينيه «محمد رسول الله» (المؤلف)، نفس المصادر السابقة، ويقال: أنه لما نزل: ﴿حم

* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر: ١ و ٢)، الى قوله «اليه المصير» سمعه الوليد يقرؤها، فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وأن له حلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبا الوليد لتصبون قريش كلها، وكان يقال للوليد ريحانة قريش، فقال أبوجهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً؟ فقال له: ما لي أراك حزيناً، فقال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وتكبر، وقال: أنا أحتاج الى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي واللات والعزى مابى الى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة الى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لاوالله، قال: وتزعمون انه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله.

قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط، وقد رأينا للكلهنة أسجاعاً فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله، وكان النبيﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فماهو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو! لا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى: «إنه فكر» أي في أمر محمد والقران «قدر» في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما «فقتل» أي لعن، وكان بعض أهل التأويل يقول: معناها فقهر وغلب وكل مذلل مقتل. قال الشاعر:

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي بسهميلِ في أعشار قلب مقتل

انظر ابن هشام، ج ١: ٧٥، تحقيق محي الدين، تفسير القرطبي ١٩: ٧٤.

وصلت الدعوة مرحلة ملأى بالنُذر، وكان النبي يوجه معركته توجيهاً دقيقاً، وفي الواقع كانت مكة ميداناً لنشاطه الذي لا يفتر، وحواره الداعي الى الاسلام، مع الحجيج، ومع القادمين في تجارة، لكنه لم يغفل عن الحالة المؤلمة التي يعيشها أصحابه فأذن لهم بالهجرة الى الحبشة قائلاً:

«لوخرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكاً لا يُظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما انتم فيه»[١].

كانت تلك أول هجرة في الاسلام[٢]، تمت بعشرة رجال واربع نسوة، بقيادة عثمان بن مظعون رئيس المهاجرين، وكانت الهجرة الثانية بقيادة جعفر بن أبي طالب، وضمّت اثنين وثمانين رجلاً، متتابعين. ولم تستقر قريش وهي الحريصة على مصالحها التجارية والاقتصادية، بعامة، في مراقبتها ذلك التطور المتسارع في الهجرة والانتشار، خاصة، ان من بين المهاجرين، افراداً من الأسر المعروفة مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان.

كانت قريش تهدف الى تحجيم دعوة محمد، وحصرها، وضربها، لذلك كانت ترى الخطر في إتساع نطاقها، أو في انتشار صيتها.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١: ص ٢١٣، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٧٠، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٨٥، مجمع البيان ج ٣: ٣٦٠ عن المفسرين، السيرة النبوية لأبن كثير ج ٢: ص ٤، السيرة الحلبية ج ٢: ص ٥ وص ٦١، والصحيح من السيرة للعاملي، ج ٣: ص ١٢٠ (المحقق).

(٢) انظر ابن هشام في السيرة ق١ ج١ ص ٣٢٣.

ولم تنظر قريش نظرة لا أبالية ازاء الهجرة الى الحبشة، بل حسبت لها حساباً كبيراً لا علاقة له، بالبعد المكاني، سيما ان العلاقات الاقتصادية كانت تقرّب المسافات.

وكانت مؤامرة قريش تتلخص فى تحريض النجاشي ضد المسلمين، الذين هاجروا إلى الحبشة، إلا لقرابة الكتابيين المؤمنين بالله، والمعادين لكل وثنية باطلة. وكان دهاقنة قريش يرون ان المؤامرة ضد المسلمين تُشتق من التعارض بين الفهم الإسلامي وفهم بعض النصارى لمكانة عيسى، ففي القرآن، ورد في سورة النساء:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[١].

وفيها اختلاف عن القول بألوهية المسيح، إنما وجد النجاشي في موقف الإسلام ومفاهيمه ما يكشف عن تقارب كبير، لا يمكن ان تزعزعه رسل قريش وهداياها، فباءت مؤامرتها بالفشل والخسران[٢].

---

(١) سورة النساء، الآيه: ١٧١.

(٢) يقول ابن هشام في سيرته: أثار عمر بن العاص مسألة ما يقوله القرآن في المسيح عيسى امام النجاشي لعل النجاشي يرفض قول القرآن، فتوجه جعفر بن أبي طالب عليه السلام الى النجاشي قائلاً: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ يقول: هوعبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم الغذراء البتول، فضرب النجاشي بيده الارض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود، فقال النجاشي مُخاطباً المهاجرين: اذهبوا فأنتم شيومٌ بأرضي - (والشيوم = الآمنون) من سبّكم غرم، ثم قال: من سَبكم

مجابهة البلاء في سبيل العقيدة:

أرادت قريش عزل محمد عن عشيرته، ففشلت أمام قوة شخصية أبي طالب، وتكاتف بني هاشم وبني عبدالمطلب، فانتهجت أساليب عديدة في محاربتها له، وهي تُدلل في حربها على دهاءٍ كبير، لذلك لم تتورع عن اتباع مختلف سبل الملاينة، والقسوة، حسبما تقتضي الحال، لاغراء محمد وإضعاف دعوته، أولعزله، والحد من نفوذه وتأثيره على العرب، مع ما يرافق ذلك من حملات مركزة للترويج بأنه ساحر، أوكاهن، أوشاعر، أومجنون، وذلك في سياق نشاط اعلامي مبرمج، تشارك فيه الاوساط القرشية المسؤولة، والمعادية للدين الجديد وأهدافه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وحينما كانت تحل مواسم الحج، كان الاستعداد القرشي يبلغ أعلى مستوى من الاعداد والتهيئة لمجابهة نشاط محمد في اتصاله بالحجاج وعرضه الاسلام ديناً لهم.

فى دار الوليد بن المغيرة، تشاور القرشيون. قال الوليد:

«يا معشر قريش، انه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا

غرم، ثم قال: من سَبكم غرم، ثم أمرَ برد هدايا القرشيين، قائلاً: فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه، فخرج القرشيين من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به. وعاش المهاجرون المسلمون بظله خير دار وخير جارٍ وحام. انظر المصدر ق١ ج١ ص ٣٣٧-٣٣٨ (المحقق).

فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا»، قالوا:

- فأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقل به.

- بل أنتم، فقولوا أسمع.

- نقول: كاهن.

- لا، ما هوبكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه.

- فنقول: مجنُون.

- ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هوبخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

- فنقول: شاعر.

- ما هو بشاعر. لقد عرفنا جميع أنواع الشعر فماهوبالشعر.

- فنقول: ساحر.

-ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم، ولا عقدهم.

كان يتحتم عليهم ان يتخذوا قراراً سريعاً ليمنعوا، بأي ثمن كان، العرب الغرباء من الإيمان به. فاتفقوا على ان يدعوا ان محمداً ساحر، جاء بقول سحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته»[1].

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» (المؤلف) وانظر سيرة ابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. ج ١: ص ١٧٤، والبداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٧٩، وتفسير ابن كثير ج ٢: ص ٥٧٩ وجامع البيان لأبن جرير الطبري ٢٩: ص ١٩٦ والمعجم الأوسط للطبراني ج ٣: ص ٢٤٦ (المحقق).

كـان الاتهـام المتهافت توطئة للاعتداء على شخص النبي، وفعلاً فيما كان محمد قادماً الى الكعبة، وقام يطوف بها «وثب عليه - جماعة - وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: «أأنت الذي تقول كذا وكذا في آلهتنا وآبائنا؟» فأجاب بكل هـدوء ورزانـة:«نعـم، أنـا الذي أقول ذلك» فارتمى عليه أحدهم وأخذ بمجمع ردائـه محـاولاً ان يقـتله خنقاً. فقام أبوبكر رضي الله عنه دونه وهويبكى ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾[1] وانتشل محمداً من يد الرجل. بيد انه أوذي هوالآخر، وتساقط بعض لحيته»[2].

وفي مرة اخرى، وكان محمد قادماً للصلاة في الكعبة، دونما مبالاة بما يفعله

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف)، سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٢) انظر سيرة أبن هشام ج ١: ص ١٨٨ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد.
مسند أحمد ج ٢: ص٢١٨، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩: ص ٧ مجمع الزوائد للهيتمي ج ٦: ص ١٦، المصنف لأبـن أبي شـيبة الكوفي ج ٨: ٤٤١، خلق أفعال العباد للبخاري: ص ٥٨، السنن الكبرى للنسائي ج ٦: ص ٤٥٠، مسند أبي يعلي الموصلي ج ١: ص ٥٢. صحيح ابـن حبان ج ١٤: ص ٥٢٧، المعجم الأوسط للطبراني ج ٩: ص ٤٨، دلائل النبوة لإسماعيل الأصبهاني: ١٠٣، كنزالعمال للمتقي الهندي ج ١٢: ص ٤٩٧، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٢: ص ٣٩٩، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج ٩: ص ٣٠٣، تفسير ابـن كثير ج ٤: ص ٨٤، فتح القدير، للشوكاني، ج ٤: ص ٤٩٠، الكامـل لعبدالله بن عدي ج ٦: ص ٢٣٣، تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٣٠: ص ٥٤، تاريخ الطبري، ج ٢: ص ٧٢. البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٦٠ (المحقق).

السفهاء، ذهب رجل بأمر أبي جهل، يبحث عن أمعاء شاة، فأتى بامعاء دابة مضى على ذبحها أيام كثيرة، ثم ترقب الرسول حتى سجد في صلاته، وإذ ذاك رمى بما في يده على عنقه واكتافه، فانتفض القوم ضاحكين، حتى انقلبوا على قفاهم تتخبط أجسامهم. أما رسول الله فلم يظهر عليه أي أثر لتلك الاهانة الشنيعة. وظل يزاول عبادته، ولم يخلصه من تلك القاذورات إلا ابنته فاطمة التي اقبلت بعد ذلك بقليل، وجعلت تسب هؤلاء الطغاة الذين لا يردهم وازع من شرف أوقرابة، عن فعلة شنيعة مثل هذه»[1].

من الثابت ان محمداً يمتلك قوة جسدية هائلة، فلماذا يغضي عن إهانات واعتداءات من هذا القبيل؟ كانت دعوته تقتضي ذلك. لقد كان يقدم الدرس تلو الدرس للمسيئين، الذين سيشعرون - حتماً - بتفاهة فعلتهم، وما قد ينجم عنه من إحساس بالإثم.

لقد جرده نبل الرسالة وعظمتها من الانفعالات الشخصية، وردود الفعل، خاصة، وانه كان ينظر الى المسيئين نظرته الى الضحايا، ضحايا الجهل والتخلف، والعبودية[2].

---

(١) المصدر نفسه، المؤلف.

(٢) ولذا تجسدت اخلاقيته بالسمو والتعالي عن كل الصغائر، وقد تركت لنا سيرته ﷺ أبلغ المواقف وأنصع المصاديق وهو يعفو ويصفح عمن أساء إليه، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، الآية:١٠٩) فعن

عبد الله بن الزبير: إن رجالاً من الأنصار خاصموا الزبير في شِراج من شِراج الحُرّة التي يسقون بها الماء فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك، فتلوَّن وجه النبيﷺ وقال: اسقِ يا زبير ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك (رواه البخاري ٥: ٣٠٩-٣١٠، ورواه مسلم في الفضائل٤ : ١٨٢٩ - ١٨٣٠ ورواه أبو داود في سننه٤: ٥١-٥٢ والترمذي في كتاب الأحكام ٣: ٦٤٤، وقال: حسن صحيح، ورواه النسائي في سننه ٨: ٢٤٥، وابن ماجه في سننه ١: ٧-٨ والبيهقي في سننه ١٠: ١٠٦، ورواه عَبْد بن حُميد في مسنده عن أبي الوليد: ٤٦٣-٤٦٤.

وعن عبد الله بن عمر، قال: أتى رسول اللهﷺ بقُلَيد من ذهب وفضة فقسَّمه بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، والله لئن أمرك الله عزوجل أن تعدل فما أراك تعدل، فقال: ويحك من يعدل عليك بعدي، فلما وليّ قال: زدوه عليَّ رويداً (رواه البخاري في صحيحه ٦: ٦١٧ وأحمد في مسنده ٥: ٤٢.

وعن جابر: إن رسول اللهﷺ جعل يقبض للناس يوم حُنين من فضة في ثوب بلال، فقال له رجل: يا نبي اعدل، فقال النبيﷺ: ويحك فمن يعدل إذا لم أُعدل؟ فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أُقتل أصحابي(رواه أحمد في مسنده ٣: ٣٥٣).

وعن جابر بن عبد الله - ايضاً - قال: قاتل رسول اللهﷺ محارب خَصَفَه قال: فرأوا من المسلمين غِرَّة فجاء رجل حتى قام على رسول اللهﷺ بالسيف فقال: من يمنعك منّي؟ قال: الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول اللهﷺ السيف، فقال: من يمنعك منّي؟ قال كن خير آخذ قَدر، قال: أتشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلّي سبيله، فجاء أصحابه قال: جئتكم من عند خير النّاس (رواه أحمد في مسنده ٣: ٢٦٥، والبخاري في كتاب المغازي٧

: ٤٢٦ ومسلم في صحيحه١: ٥٧٦.

وعن عائشة قالت: أبتاع رسول الله ﷺ جزوراً من اعرابي بوسقٍ من تمر الذخيرة فجاء به إلى منزله فالتمس التمر فلم يجده في البيت، قالت: فخرج إلى الاعرابي فقال: يا عبد الله إنّا ابتعنا منك جزورك هذا بوسقٍ من تمر الذخيرة، ونحن نرى أنّه عندنا فلم نجده، فقال الأعرابي، واغدراه واغدراه فوكزه الناس وقالوا: لرسول الله ﷺ تقول هذا؟فقال: دعوه (رواه أحمد في مسنده ٦: ٢٦٨).

وعن أنس بن مالك: إن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجئ بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردتُ قتلك، فقال ﷺ: ما كان الله ليسلطك على ذلك أو قال: على كلّ مسلم قالوا: أفلا نقتلها؟ قال: لا (رواه مسلم في صحيحه٤: ١٧٢١ والبخاري في صحيحه٥: ٢٣٠، وأبو داود في سننه٤: ٦٤٧ وأبو نعيم في الدلائل١: ٢٥٣، وأحمد في مسنده٣: ٢١٨ والدارمي في كتاب المقدمة١: ٣٤-٣٥

وعن زيد بن أرقم، قال: سَحَرَ النبي ﷺ رجل من اليهود، قال: فاشتكى لذلك أياماً قال: فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك فعقد لك عُقَداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فأستخرجها فجاء بها فجعل كلما حَلَّ عقدة وجد لذلك خِفّة، فقام رسول الله ﷺ وكأنما أنشط من عِقال فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط (رواه النسائي في سننه ٧: ١١٢-١١٣، وأحمد في مسنده٤: ٣٦٧.

وعن أبي هريرة، قال: أُرتيَ رسول الله ﷺ برجل قد شرب فقال رسول الله ﷺ: اضربوه فمنّا الضارب بيده ومنا الضارب بنعله ومنا الضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ لا تقولوا هكذا ولا تعينوا الشيطان عليه، ولكن قولوا: رحمك الله (رواه البخاري في صحيحه ٢: ٦٦، وأبوداود في سننه٤: ٦٢٠، وأحمد في مسنده٢: ٣٠٠). (المحقق).

إن اولئك المعتدين أدوات نظام وثني استغلالي جائر، كان يستهدفه بالدرجة الأولى، وكان موقناً ان الدعوة الاسلامية قد تبتدىء بالأفراد لكنها تطمح - أخيراً - الى اجراء تغيير جذري في أسس وقواعد وبناء المجتمع الوثني بأيديولوجيته، وهيكليته المادية والحقوقية.

لكنه حينما يتطلب الأمر دخول القوة الجسدية في موضوع خدمة الدعوة الاسلامية على نحوٍ مباشر، فانه كان شديد البطش. وقصة تحدّي (ركانة) له توضح المثال فى ذلك.

«كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب شديد العداوة، لقي النبى فقال:

يا ابن اخي بلغني عنك أمر ولست بكذاب، فان صرعتني علمت انك صادق، ولم يكن يصرعه أحد، فصرعه النبي ثلاث مرات...»[1].

---

(١) ابن الأثير «الكامل» (المؤلف)، يقول ابن كثير: وقد روى ابوبكر الشافعي بإسنادٍ جيد عن ابن عباس رضي الله عنه: أن يزيد بن ركانة صارع النبيﷺ، فصرعه النبيﷺ ثلاث مرات، كلّ مرة على مائة من الغنم، فلما كان في الثالثة قال: يا محمد ما وضع ظهري إلى الارض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليّ منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقام عنه رسول اللهﷺ وردَّ عليه غنمهُ. انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢: ص ٨٣ والبداية النهاية ج ٣: ص ١٢٩، الاصابة لابن حجر ج ٦: ص ٢٦٥، سيرة اعلام النبلاء للذهبي ج ١٤: ص ١٦٧، تهذيب الكمال للمزي ج ٩: ص ٢٢٣، اسد الغابة لأبن الأثير ج ٢: ص ١٨٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ج ١: ص ٣٧٤. إلا أن

وقد بالغ أبو لهب - علم النبي - وزوجته في محاربة النبي، ولم يكن محمد المستعين بالله ليفعل شيئاً بمواجهة عمه الوثني، إلا أنه صفعهُ بلعنةٍ أبدية خالدة، ظلت مثلاً على غلبة سلطان الحق على صلة القرابة مهما كانت قوية، تلك هي لعنة الوحي القرآني الهادر:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[1].

ابن هشام الحميري في سيرته، عن أبن أسحاق يقول: كان ركانة ابن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبد مناف أشدّ قريش، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: أني لوأعلم أنت الذي تقول حقّ لأتبعتك؛ فقال (له) رسول الله ﷺ: أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أنّ ما أقول حقّ؟ قال: نعم، قال: فقم حتى أصارعك. قال: فقام إليه رُكانة يصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عُدّ يا محمد، فعاد فصرعه، فقال - يا محمد والله ان هذا للعجب أتصرعني! فقال رسول الله ﷺ: وأعجبُ من ذلك إن شئت أن أُريكه، إن اتقّيت الله وأتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعوا لك هذه الشجرةَ التي ترى فتأتيني، قال: ادعها. فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ قال: فقال لها: ارجعي الى مكانك، قال: فرجعت إلى مكانها. قال: فذهب رُكانه الى قومه فقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الارض، فوالله ما رأيت أسحرَ منه قط ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع. انظر السيرة لابن هشام ق١ ص ٣٩٠-٣٩١ وج ١ ص ٢٦٢ من سيرته تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (المحقق).

(١) سورة المسد، الآية: ١-٥.

وأنـه بـذلك كـان يديـر المعركة من مقابض العمق فيها، لامن نقط سطح الانفعال وردود الفعل.

المقاطعة:

لم تفلـح أسـاليب قـريش في عـزل محمـد عن أهله وعشيرته، الذين ابدوا ضربـاً مـن التـضامن الأخلاقـي الـرائع، ذلك التضامن الذي كان يمثل المجال الحـيوي لحمايـة فـئة المؤمنـين، أتـباع النبـي. ولا يـستطيع أحـد الجزم بأن ذلك التضامن كان أمراً متوقعاً استناداً الى المنطق العشائري ومبادئه وقيمه السائدة.

بكلمـة اخـرى، مـن الـصعب الاقـرار بـأن موقف بني عبدالمطلب وبني هاشـم أملـته الحـسابات والاعتـبارات الأهلية والعشائرية. رغم انه لا يخلو من إمـلاء تلك التأثيرات. ففي البال ترد صورة عم النبي (أبي لهب). وكذلك بعض الأقرباء الذين تجاوزوا حدود الشرك والضلالة، الى محاربة النبي بغلظة.

ومـن غـير الممكـن تناسي سحر الدعوة المحمدية الذي لم يكن بالضرورة مـؤدياً الـى الايـمان الفـوري بالاسـلام، إلا انـه كـان يثـير نوعاً من الاعجاب، والـتعاطف الاخلاقـي، الـذي يستند على أساس متين وسابق، وهو حب محمد الـصادق الأمـين، الـشجاع، أولاً. وحب العناصر المسلمة الطليعية والتي آمنت بالدعوة المحمدية تباعاً، ثانياً.

مـن هـذه الـزاوية يمكـن النظـر الى التضامن الذي جسدّهُ أقرباء محمد، هومـزيج من حضور الأصول العشائرية النبيلة، (التي ترفض استفراد محمد من

قبل أسياد قريش)، مع الاعجاب الباطني أوالعلني، الذي كان يكنهُ المتضامنون مع محمد، دون أن يعني ذلك الاندفاع وراءه كنبي.

كان قرار المقاطعة قاسياً ضد بني عبدالمطلب وبني هاشم. فقد حصروا في شعب من شعاب الجبل في ظاهر مكة، وكانت الوثيقة التي نصت على المقاطعة، والتي تمَ تعليقها في الكعبة، تحرم التزاوج مع بني عبدالمطلب وبني هاشم، وكذلك تحرم التبادل التجاري، وكل بيع أوشراء، وكان ذلك يعني التجويع والحرمان والعزل، وفيما عدا الفرصة التى كان يتحينها محمد وأصحابه في الأشهر الحرم، التي تتاح فيها حرية التواصل، كانت العزلة مؤلمة، وخاصة في مجال النشاط المضاد للدعوة المحمدية وإمكانات انتشارها[1].

---

(١) ذكر ابن هشام عن أبن اسحاق: أجتمعت قريش وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلّب، على أن لايُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم؛ فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتَواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبدالدار بن قصي - قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله ﷺ فشُلّ بعضَ أصابعه، ثم يضيف ابن إسحاق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنوهاشم وبنوالمطلّب إلى أبي طالب بن عبدالمطلّب، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبولهب، عبدالعزّي بن عبدالمطلّب الى قريش فظاهرهم. انظر السيرة النبوية لأبن هشام ق ١، ص ٣٥٠-٣٥١. (المحقق).

لقد كانت فرضية قريش قائمة على ان استمرار المقاطعة، لابد ان يعني أحد أمرين: إما ان يراجع محمد موقفه، تقديراً منه لصعوبة الظرف المفروض على أهله وعشيرته بسببه، وهو ما عليه من الأخلاقية العالية التي ترفض جرّ الآخرين الى عذابات شديدة بسبب قضية ليست لهم فيها علاقة، قضية محمد باللذات.

أما الأمر الثاني، فهو إحتمال حصول ردود فعل في المعسكر الهاشمي، بسبب الاستياء من إصرار محمد على موقفه، وإتساع نطاق النتائج السلبية لذلك، على عشيرته وأهله.

إضافة الى ذلك، كانت قريش ترى في العزل، والمحاصرة، والمقاطعة نوعاً من النشاط المركز ضد الدعوة المحمدية، وذلك بتطويقها، ومنع انتشارها من جانب، وتشويه صورة محمد، ودعوته من جانب آخر، في ميدان واسع مفتوح أمام كبار القرشيين فقط.

إن سادة قريش كانوا يدركون ان قوة سحر محمد ماثلة في تسلحه بالاعجاز القرآني، وما يضفيه على الحوار المحمدي من جدارات إقناعية فعالة. لذلك فقد خططوا لأعاقة التواصل بين محمد والناس، قطعاً لتأثير سحر العبارة القرآنية، والكلام المحمدي.

كانت بعض العواطف القرشية، ترفض قسوة المقاطعة، التي وصلت الى حد الجوع الشديد، والذي عانى منه الاطفال والنساء والشيوخ.

كانت فترة المقاطعة، قد قاربت الثلاث سنوات، لم يُنقذ بني هاشم من

الموت جوعاً، غير تلك العواطف، التي كانت تناور ضد المقاطعة، وترسل الطعام سراً وفي ظروف صعبة للغاية.

و«كان هشام بن عمرو من أحسن قريش في هذه البأساء عطفاً على المسلمين. كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً أوبُرّاً، فيسير به جَوف الليل. حتى اذا استقبل فم الشعب خلع خطامه ثم ضرب على جنبه، فيدخل البعير الشعب عليهم»[1].

بعد ذلك لم يصبر أولئك القرشيون الأكثر حلماً على ابتذال المقاطعة، التي كشفت - ايضاً - عن صمود بني هاشم صموداً مثيراً للفخر والاحترام.

فتداعوا الى نقض قرار المقاطعة، فمشى هشام بن عمرو الى زهير بن أبي أمية «وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح اليهم؟! أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك اليه أبداً؟ وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة، على ان يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سراً. واتفق معهم المُطعم بن عَدي وأبوالبختري بن هشام وزمعَة بن الاسود وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبن هشام ج ١: ص ٢٥١. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد والبداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ١٢٠ (المحقق).

حتى ينقضوها»[١].

رافق الاحتجاج الخفي على المقاطعة الجائرة أن وثيقة المقاطعة أكلتها (الأرضة)[٢] ومهما تكن درجة صحة الاخبار المتعلقة بذلك، فإن الجانب الموضوعي في قضية المقاطعة تتمثل في صمود بني عبدالمطلب وبني هاشم، وهوصمود شامخ بوجه العدوانية السافرة المتثملة بالمقاطعة، وقد حرَّك ذلك الصمود التناقضات في المعسكر الوثني لقريش، واستثار فعالية عوامل اجتماعية واقتصادية ذات اهمية أولى.

لقد سقطت المقاطعة بقوة الايمان الذي شدَّ الى محمد وأصحابه، مجموعة الأهل والعشيرة، التي كان ابوطالب شيخها ورمزها الاجتماعي الأكبر، ويخطىء المحللون الذين يتابعون بالتفسير والتحليل الظواهر من زاوية فردية،

---

(١) المصدر السابق ج ١: ص ٥١ـ٥٣، شرح نهج البلاغة ج ١٤: ص ٥٩ (المحقق).

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج ١: ص ٢٥٣ تحقيق محي الدين، والسنن الكبرى للبيهقي، ج ٦: ص ٣٦٦، فتح الباري لأبن حجر ج ٧: ص ١٤٧، شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج ١٤: ص ٦٠ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ١: ص ١٨٨، أنساب الأشراف للبلاذري: ٣١، تاريخ اليعقوبي ج ٢: ص ٣١، تاريخ الطبري، ج ٢: ص ٧٩، البداية والنهاية، ج ٣ : ص ١٢١، السيرة النبوية لأبن كثير ج ٢: ص ٤٧، النزاع والتخاصم للمقريزي: ص ٦٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ج ١٠: ص ٥٨، الصحيح من السيرة للعاملي ج ٣: ص ٢١١، الإمام جعفر الصادقعليه السلام لعبد الحليم الجندي: ص١٩، (المحقق).

متناسين فعل القوانين العامة للتطور، الموضوعي، وللحركة العامة للمجتمع.

ففي الواقع ان قريشاً تعرضت الى ما يمكن تسميته باهتزاز الهيبة، نظراً الى ان اسلوبها في مجابهة قرشيين اصلاء وابناء عمومة يشكلون رأس قريش، إن هو إلا دليل على ضيق الأفق، والعدائية، وهذا ما كانت تحسب له العشائر والقبائل غير القرشية، والتي تؤم مكة من أجل الحج، والتجارة، حساباً كبيراً. لأنها تسأل نفسها: إذا كان هذا هو حال سادة قريش الرسميين مع ابناء العم، فكيف سيكون حال تعاملهم من أناس آخرين من خارج قريش؟

إن محمداً في الحرب المفروضة عليه بضراوة، كسب التضامن العشائري الشريف، الذي كان سنده في الحرب الشاملة المعلنة ضده، وكذلك كسب قدراً نوعياً من التعاطف الاجتماعي والديني، المتناثر - هنا وهناك - مما جعله قائداً لتصميم الحركة الفكرية والاجتماعية الثورية، التي كانت جماهير شبه الجزيرة العربية تحتاج اليها.

كانت الدعوة المحمدية قد أخذت بُعدها الموضوعي - الاجتماعي، الاكبر من إطار العبقريات الفردية، لذلك كانت الفواجع الشخصية التي ألقت عليه بثقلها، لم تحُل دون تقدم الحركة المحمدية الى أمام، لأنها لم تكن مجرد حركة شخص عظيم - بل هي حركة اجتماعية - دينية عظيمة.

فبعد نقض وثيقة المقاطعة التي ماتت في تيار شجاعة الاضراب الإسلامي النادر، الإضراب عن العلاقة، والتجارة، والمعايشة، تعرض محمد الى نكبتين، من أخطر النكبات التي تسحق الجسد، وتخنق الروح، للانسان الفرد، هما وفاة

أبي طالب وخديجة، بعد أشهر من انقضاء مرحلة المقاطعة، ولقد تجاوز محمد ذلك، لأنه لم يكن فرداً عبقرياً فحسب، بل كان نبياً ورسولا... وكان عبقرياً في ذاته، وفي ذات الجماهير العربية البسيطة التي نالت حريتها فوق سقف الصحراء، ولكن طغمة المال والوثن سرقت هذه الحرية بالتزوير والطغيان.

فوق الصحراء، كان الانسان العربي يُعاين ذرات الرمل، فيرى في ذرة الرمل النهائية، كل النهائية، لكنه - أيضاً - كان يرى اللانهائية في الصحراء، وما أبعد المسافة بين الرؤية، وبين الادراك، وحين جاء محمد كان الإدراك هوالزلزال الأكبر للوعي.

كانت جماهير الصحراء تحتاج الى الصيحة المحمدية، رغم ان محمداً كان يعيش إشكالية المدينة، والبداوة.

لقد توهم بعض كتاب المادية التاريخية، إن محمداً كان يمثل الحركة الصاعدة للبورجوازية المدينية المتفتحه[1]، ولم يقدروا على استيعاب المغزى المحيّر - للوهلة الاولى - في صراع محمد بين مكة والمدينة، ضد مكة الوثنية وهو في قلب المدينة، فتأريخ الكفاح المحمدي هوتأريخ اسلام المدينة المنورة، حيث

---

(١) لوكانت التطورات البورجوازية (التجارية) تملأ الجزيرة العربية، منذ الدعوة المحمدية، وفقاً للطرح المذكور، لكانت الرأسمالية العربية في الجزيرة العربية اكبر نظام رأسمالي في العالم. لكن الواقع ينفي ذلك. ولا تزال سمات للتطور العربي، محددة، معينة، تراوح فى مكانها، وبصورتها، طوال هذه القرون العديدة. (المؤلف).

كانت (يثرب) القلب، والموقع، والمركز، والنواة، ومنطلق الصراع.

إنما ظلت مكة الهدف، بمعنى آخر ان محمداً الذي استقر في المدينة، حافظ على مكة كقبلة، بالمعنى الديني والتاريخي.

إن مكة (القبلة) لم تجذب محمداً للاستيطان، بعد الفتح، لأن دروس المقاطعة كانت مؤلمة تماماً، بما يُضاف اليها من أحزان سابقة ولا حقة.

وشتان ما بين الذكريات المكية المعذبة، وبين هبات يثرب، المدينة التى اعطت نفسها الى محمد منذ البيعة الأولى.

تطواف الطائف(*):

فى مدن الأعناب، والأشجار المثمرة، تتواسد الزهور والأوراد السواقى فى ظل الأشجار الوارفة، فى ظل بركات الثمر.

أي إنسان يُخيّر بين مدن الأشجار والصحراء القاحلة، يطمئن الى المدن المشجّرة، المدن المبنيّة من أجل علاقة الشجر وليست المدن البلدية التي تُجلب إليها الأشجار من أجل الظل، وصرع الغبار.

جغرافياً، المدن المشجرة تشجيراً طبيعياً، غنياً بالأثمار وبالطبيعة الشجرية المهيبة للأشجار، غير المثمرة، الناس والاشجار سواسية. يتبادلون بلاغة النمو وصدق العطاء.

في مدن الزيتون، يكون الانسان مثل الزيتونة، تتدفق بهاءاً، ورونقاً،

(*) في عام ٦٢٨م. (المؤلف).

وكـرامة، وغذاءً. وفي مدن الاعناب يكون الانسان شجرة عنب، وعنقود عنب. وهكـذا، في جغرافية مدن الزيتون والأعناب، التي وُلد فيها المسيح عيسىعليه السلام، لايكـون الانـسان الصادق شوكياً. لا يكون الشوكي إبناً باراً لهاته المدن، إنه ابن مـن خـارج الطبـيعة الـشجرية، إبتغـى محمـد الطائف، مدينة الأشجار والأثمار والظـلال، المدينة الغنّاء التي قد تتفهم الحقيقة الرسالية، حيث يسرح فيها الناس بـين الـسواقي والحدائـق والبساتين، وحيث في كل دار بستان، والشوارع ممرات بين البقع الشجرية.

«أولـئك أناس يعرفون قيمة الخلق... من خلال حكمَة الشجرة» ربما كان محمـد يخاطـب نفـسه هكـذا... فقادته خطاه الى الطائف، ليس ارتجالاً، بل عن ضـجرٍ وتَدبُّـر. ضـجرٍ مـن خـناق مكة وحصاراتها المعادة، وتدبُّر فى احتساب لطف الطائف التى تزينت بقلادة الشجر في عالم الحجاز العنيد.

الطائـف أنثـى الطبـيعة الصحراوية؛ الأنثى التي تحصنت جيداً ضد غزو لذكورة الصحراوية. أراد محمد أن يرى فيها صحة الطبيعة المعطاء، فتوجه اليها، نعـم، ما كان توجهه مليئاً بالغبطة، كان محاولة، مجرد محاولة. وكانت نفسه محايدة بين الغبطة والخيفة، الا ان افكاره كانت تأمل، والأمل حق كبير تتمتع به العقول الكبـيرة، فكـيف الحـال والعقـل عقل نبويٌ، عقل محمد الذي اختبر أشياء مدن وقـرى وصـحارى المـنطقة اختـباراً عجيباً، انتزعها بصفاتها، وقلّبها بين أصابع تفكيره، في حساب معياريّته التي سادت في قمة المقاييس.

ذهـب إلى الطائـف، بعقلـه الباحث عن أمكنة التعارف، وتلقّي الاشارة،

بينما في قلبه يكمن هوىً سريّ يتجه نحو يثرب، المدينة المدينة، إنما بعد حين.

اجتمع بأهل الطائف، مختاراً المكاشفة الصريحة، فما عثر على سكر العنب في قلوب الأهالي، كانت قلوبهم حنظلاً. وكان سفهاء ثقيف حاضرين للسب، والاعتداء، فانخذل محمد من بشر الطائف، لكن شجرة العنب كانت وفيّة، بالأقل احتمى بها فمنحته الظل في ساعة الحزن الكبير. وكانت شكواه مريرة، والشاهد عليها الله، وشجرة العنب، وإثنان هما ابنا ربيعة (عتبه وشيبه) اصحاب البستان، أية مرارة كانت تعتمل في نفسه وهو يخاطب الرب بهذه الكلمات التي تنزف أسىً:

«اللهمَ إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربُ المستضعفين وأنت ربي. إلى من تَكِلُني! إلى بعيدٍ يتجهّمني، أو إلى عدوٍ ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

كان محمد متجهاً بكليته الى السماء، الى العرش العظيم، وهاله أن يرى أهل الطائف، يكفرون برب النعمة، الذي رزقهم هذه النعمة. كان في ذروة

---

(١) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج٣: ١١٦، وتاريخ مدينة دمشق ج٤٩: ١٥٢، الكامل لأبن عدي ج٦: ١١١ (المحقق).

الشعور بالمرارة، والعزلة، والأسى، لأنه يخاطب الناس تحدوه الرسالة الى توعيتهم، تبصيرهم بأمور الخلق، والحياة والموت، فلم يجد غير الجحود.

لكنه، وقد وضع نفسه في ابتغاء رضوان الله، والاستعاذة بنور الله من سخطة، كان لا يرعبه سخط ثقيف، وغير ثقيف.

حلت عليه السكينة، وكان الاثنان مصغيين إليه، با شفاق. كذلك كان (عداس) النصراني، غلام ابني ربيعة، يقطف لمحمد عنقود عنب، وعادت المعادلة الى أصلها: الفقراء والمستضعفون على موعد ابدي مع الحق والحرية.

وضع محمد يده في عنقود العنب قائلا: « باسم الله...» ثم أكل، ونظر عدّاس دهشاً وقال هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد! فسأله محمد عن بلده ودينه، فلما علم انه نصراني نينويّ قال له: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى، فسأله عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متّى؟ قال محمدﷺ: ذاك اخي كان نبياً وانا نبي. فأكب عدّاس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه»[1].

تحركت الريبة في نفسي (ابني ربيعة)، وخشيا على عدّاس من دين محمد، فنصحاه بالابتعاد.

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد (المؤلف)، وانظر سيرة ابن هشام ج٢: ص ٢٨٦ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد والسيرة النبوية لأبن كثير ج٢: ص ١٥٠ وانظر الصحيح من السيرة للعلامة جعفر مرتضى العاملي ج ٣: ٢٦٨ وله في هذه الرواية آراء عديدة مؤكداً فيها على أن الرسولﷺ لم يأكل من ذلك العنب بعد أن أسهب المؤلف في ذكر كل ما يتعلق بموضوعية هذه الرواية عن شخصية عداس بالذات (المحقق).

لم تكن ثمار الطائف شهية، إلاّ أن اللطف الإلهي لم يحرم محمداً من حساد التجربة، فظل على ثقة شديدة بنجاح المسعى، ثقة نابعة من ايمانه برسالته، وايمانه بالناس الذين كان ينجذب إليهم بحب، وإيمان، رغم كل المجابهات التي لقيها من أكثريتهم.

ربما لم تدهشه قساوة البشر الصحراويين، الذين تحجرت قلوبهم، أدهشه تحجر قلوب مدينة العنب والمزارع والبساتين[1]، وأضيف الى

---

(١) فأول دهشة لاقاها الرسولﷺ، بعد أن أشتدّ الأذى عليه في قلبه ذهب إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، فخرج إليهم وحده، قال ابن اسحاق: ولما انتهى اليهم الرسول عمد إلى نفرٍ منهم وهم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمر ومسعود بن عمر وحبيب بن عمر، فجلس اليهمﷺ فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فأحدهم قال له: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، والثاني قال: أما وجد الله يُرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك. فقام رسول اللهﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.. (انظر السيرة لأبن هشام، ق١: ٤١٩).

ولعل ثاني دهشة لاقاها الرسولﷺ وهو في طريقه إلى الطائف بعد أن نزل قريباً منها، يقول ابن أسحاق: فضرب عسكره في هذه المنطقة وقتل بعض من أصحابه بالنَّبْل، وذلك أن العسكر أقترب من حائط الطائف، فكانت النّبْل تنالهم. ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم، فما أصيب اولئك النفر من الصحابة، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة.

قاموس معلوماته شيء جديد عن طباع البشر، يوظفه في خدمة رسالته الهادفة الى تحرير البشر أنفسهم من ذلك الغل اللعين: الوثنية، والملكية الجائرة.

فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى الرسولﷺ عمرو بن أمية بن وهب بن متعب بن مالك مسجداً، وكانت في ذلك المسجد سارية. فيما يزعمون، لا تطلع الشمس عليها يوماً من الدهر إلا سُمِعَ لها نقيض (=صوت) فحاصرهم رسول اللهﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً، وتراموا بالنَّبْل، ويقول ابن هشام ان الرسول أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق رمى أهل الطائف، ثم كان يوم الشدخة عند جدار الطائف عندما دخل نفر من أصحابه تحت دَبّابةٍ ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر الرسولﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون (انظر سيرة ابن هشام، ق١: ٤٨٣). (المحقق).

الفصل السادس

الوصول إلى بيت الله

الطريق إلى بيت الله

أو انتصار العقيدة في التطبيق

يُعتبر فتح مكة (٣٦٠م) عملاً تاريخياً فاصلاً ومجيداً، ترتب عليه حصول تغيير ثوري هائل في المنطقة العربية، وفي العديد من بلدان العالم فيما بعد.

خرج محمد من مكة متخفياً، مطارداً، مهدداً بالقتل[1]، وهو مشحون بأنواع الذكريات التي يمتزج فيها الحب بالتمرد، لقد احبّ مكة وهو المكي الأصيل، وتربى وترعرع في حضنها، وله في كل زاوية منها نصيب من الذكريات بنوعيها: الذكريات التأريخية المتسلسلة من تأريخ قريب، تأريخ جده عبدالمطلب، وعمه أبي طالب، ومن ذكريات شخصية، ذكرياته هو.

ورغم ان الذكريات التأريخية كانت شخصية ايضا، إلا انه كان يستمد منها الرجوع الى صفحات الماضي القديم لهذه المدينة الجبارة، التي تمتع بجلال خاص، لولا ان الصنم تربع على العرش في اكبر خطأ اشتهرت به مكة.

وبكل الحب الذي كان يحفظه في قلبه لمكة، والبيت العتيق، كان يستوعب نوع الجحود الذي كانت قريش تجابهه به، كان يتوجه نحوها بالحب، فيما كانت

---

(١) انظر تفاصيل هجرة الرسول ﷺ عند ابن هشام في سيرته ق١ ص ٤٨٠-٤٨٦.

الكراهية هي عاطفتها الوحيدة نحوه. لقد أرادت قريش اسدال الستار على قصة محمد، منذ ان بادأته بالعداوة، والايذاء، والحرب، ثم العمل من أجل القتل، ذلك القرار الجهنمي الذي تشبثت به باصرار لم تُحل عنه.

كم هي كثيرة الافكار والذكريات المتعارضة التي تموج بالنفس، ومحمد وصاحبه في غار جبل ثور، يبعدان نفسيهما عن سيوف القتلة، وعيونهم الشريرة الباحثة عن الهاربين[1].

حبّ عجيب، وذكريات مريرة، يزدحم بها قلب النبي المهجور من قومه، إلا من قلة مكافحة، مصدقة، مؤمنة.

وفي النفوس الصادقة يتم الحل على حساب النفس، فهناك العفو مثلما هنالك الحق. وكلاهما: الحق والعفو، ينموان في النفس الصحيحة. هذا العنكبوت اكثر شفقةً من بني قومه، بل ها هو ينسج شبكته، في وقت قصير، وكأنه استوطن خارج فوهة الغاز منذ زمن بعيد، وتلك الشجرة تتدلى بأغصانها فوق باب الغار، وكأنها- منذ زمن طويل- هكذا، تحكي قصة باب مغلق، وغار

---

(١) قال ابن اسحاق: لما اجمع رسول اللهﷺ الخروج، أتى ابا بكر ابن ابي قحافة، فخرجا من خَوْخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد الى غار بثور- جبل بأسفل مكة، فدخلاه، وامر ابوبكر ابنه عبد الله بن ابي بكر ان يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما اذا امسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وامر عامر بن فهيرة مولاه ان يرعى غنمه نهاره، ثم تريحها عليهما، يأتيهما إذا امسى في الغار، وكانت بنت ابي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما. انظر ابن هشام في سيرته ق١ ص ٤٨٥.

معزول لا يمكن الوصول اليه[1].

---

(١) انظر مسند أحمد بن حنبل ج١: ٣٤٨، مجمع الزوائد للهيثمي ج٣: ٢٣١، وج٦: ٥٢، فتح الباري لابن حجر ج٧: ١٨٤.

طبعاً، وحادث الغار هو أبلغ مما تُحصى مصادره، ونكتفي بما تقدم للإشارة وليس الحصر.

وعطفاً على قصة هذا الحادث التأريخي الذي لم يطرأه التشكيك منذ وقوعه وليومنا هذا، وهو ما تسالم عليه المسلمون قاطبةً بان صاحب الغار هو الخليفة «أبوبكر الصديق» ثاني اثنين، إلا أن من المؤسف أن يُصدّر أحد الكُتّاب، كتاباً ينفي فيه شخصية أبي بكر ووجوده في الغار مع الرسولﷺ مُدّعياً أن هناك شخصاً آخريسمى أبوبكر!! ولا نريد لهذه الانعطافة المشوهة ان تأخذ حيّزاً في مجال التأريخ الإسلامي، كما ولا نريد لها أن تتمخض عن حكمٍ قاسٍ على الكتاب والكاتب كون ان الكاتب أنساناً يفعل فيه الخيال ما يفعل وجَلّ من لا يخطأ بالاستنباط والاستدلال أو من لم تلتبس عليه تشابه الأمور والشخصيات جراء القراءات المسبوقة الحكم التي تثيرها العواطف والنزاعات الطائفية.

وعلى الرغم من تبريرنا هذا، إلا أن الكتابة التأريخية مسؤولية وتبقى مسؤولية مصيرية كبرى، فليس لأي كاتب كان أن يتلاعب بعقول وأفكار الناس بما يشتهي هو لا بما يستوجب أن يكون وما ينبغي عليه المسار البحثي بعد أن يضع أمام عينيه الحيادية العلمية والتحلي بالموضوعية والتجرد من العواطف والبعد عن كلّ ما هو فئوي تخندقي، فإنشاد الحقيقة ليس من واجب الكُتاب الدعاة بل هي من واجب الكُتاب الباحثين المنصفين الذين يتجردون عن كلّ حُكمٍ مسبق، وإلا فلا يمكن أن نوصف الداعية لمذهبٍ أو فكرةٍ معينةٍ بأنه باحثاً عن جوهر الحقيقة.

ومع ما قدّمناه من تبرير للكتاب والكاتب، نرى من الخلق والأدب عدم الأفصاح عن عنوان الكاتب والكتاب، كي لا نقع أيضاً بالمحذور الشرعي مساهمين في تعريفه وتشويق

عنكبوت وشجرة وحمامة اكثرُ رفقاً من بين قومه، بل عنكبوت وشجرة

القارئ له، وربما قد يُرى ان عدم افصاحنا عن الكاتب والكتاب يجعل من القارئ تفعيل حالة الشوق لإقناعه، وحتى في هذه الحالة فالقارئ سوف يرى إفتقار الأمانة العلمية وعدم الموضوعية واضحتين في أسلوب الكاتب.. حقاً أنه شيءٌ مؤسف وتجرئ صريح على شرفاء المؤرخين الصادقين ومنهم - بالأخص - أبن اسحاق المطلبي وهو ينقل عن عائشة، أنها قالت: كان لا يخطئ رسول اللهﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرةً وإما عشيةً، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول اللهﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول اللهﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبوبكر، قال: ما جاء رسول اللهﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدَث. قالت: فلما دخل، تأخّر له أبوبكر عن سريره، فجلس رسول اللهﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول اللهﷺ: أخرج عني مَنْ عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي! فقال: ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، قالت: فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبةَ: قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبابكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبيّ الله، ان هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرا عبد الله بن أرقط - وكان مشركاً - يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما (انظر ابن هشام، ق١: ٤٨٤-٤٨٥ واللطيف في هذه الرواية أنهما استأجرا مشركاً! فأيُّ وفاءٍ كان يتحلى به هذا (المشرك) المليء بالإنسانية، وأما عن قصة الغار، فيقول ابن اسحاق: فلما جمع سول الله الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى الغار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه ... إلى آخر الخبر، (المصدر): ق١: ٤٨٥. (المحقق).

وحمامة، اصدقاء أوفياء وجنود يؤدّون واجباً شريفاً نحو إنسان مرسل الى البشر، لكن البشر المرسل اليهم، يطاردونه، وسيوفهم تلهث اشتياقاً لدمه.

لولا سماحة النفس النبوية، لكانت الكراهية حتماً محتوماً، ولكان القصاص واجباً. وفي نفس محمد شيء أكبر من السماحة والعفو، انه حب مكة، المدينة المتجبرة، التي تأسست من حجارتها الخاصة، من مواد بيئتها، القاسية، على الصعيدين المادي والفكري.

وظل التعايش بين الحب والذكريات المريرة ماثلاً في سلوك محمد الذي كان يريد مكة أبداً، ولكن حين تمّ الفتح لم يستقر بها أكثر من خمسة عشر يوماً. لقد كافأ المدينة التي نصرته: يثرب الأولى، والمدينة الجديدة التي ظلت عاصمته ومستقره، لأنه كان صادق الوفاء، صادق العهد، إذ عاهد الأنصار، عندما عبَّروا عن قلقهم من عودة رسول الله – فيما بعد– الى قومه في مكة، تاركاً المدينة والأنصار، قائلا:

«ان دمكم دمي، وشرفكم شرفي، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالمُ من سالمتم»[1].

---

(١) ينقل ابن كثير: ان أبوالهيثم بن التيهان قال: يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها– يعني اليهود– فهل عسيت ان فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال:«بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم».

انظر البداية والنهاية ج٣: ص ١٩٦ والسيرة لأبن هشام ق١ ص ٤٤٢ (المحقق).

وقد اكدّ ذلك، عندما ثارت شكوك الأنصار بعد فتح مكة، متوهمين ان محمداً تاركهم لا محالة، فكان جوابه قاطعاً:

«معاذ الله! المحيا محياكم، والممات مماتكم»[1].

وهكذا لم يكن هناك درس في الأيفاء بالعهد، رغم تغير الظروف، وإنتصار محمد، مثل هذا الدرس الموجز في الكلمات، والواسع والبليغ في الممارسة. اعطى المدينة استقراره المكين فيها، واعطى مكة القبلة.

كان المصلون يتجهون بوجوههم نحو بيت المقدس، لكن حينما انتظمته المدينة، بحياتها العائلية، وانتظمها بافكاره العقائدية، قال الوجهة الى هناك.

---

(١) قالﷺ جوابا على سؤال الأنصار، يا معشر الأنصار ! قالوا: لبيك رسول الله، قال: قلتم اما الرجل فادركته رغبة في قرابته (= اي انه يريد سكن مكة) قالوا: قد كان ذاك، قال كلا، اني عبدالله ورسوله هاجرت الى الله واليكم المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا اليه يبكون ويقولون والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، فقال: يصدقانكم ويعذرانكم انظر ابن هشام في السيرة ق١ ص٤٤٢ السنن الكبرى للبيهي ج ٩: ص ١١٧ و.شرح مسلم للنووي ج ١٢: ص ١٢٨ ومسند ابي داوود الطيالسي: ص ٣٢١، المصنف لأبن أبي شيبة الكوفي ج ٧: ص ٥٤٣ وج ٨: ص ٥٢٧ والسنن الكبرى للنسائي ج ٦: ص ٣٨٣ ومسند أبي يعلى الموصلي ج ١١: ص ٥٢٥، صحيح ابن حبان ج ١١ ص ٧٦، كنز العمال ج ١٤: ص ٦٢، تاريخ مدينة دمشق ج ٢٨: ص ٧٢، البداية والنهاية ج ٤: ص ٣٥١ والسيرة النبوية لأبن كثير ج ٣: ص ٥٨١، غريب الحديث لأبن قتيبة (٢٧٦هـ) ج١: ص ٩٢ والنهاية في غريب الحديث لأبن الاثير ج١:ص ٤٥٢. ج ٥ : ص ٢٥١ لسان العرب لأبن منظور ج ١٤: ص ٢١٣ (المحقق).

مكـة هـي القـبلة، رغـم ان بـيت الله كـان لا يزال بيت الأصنام، إنما كان تحـركه ثقـة تامـة بـان يـوم دحرجة الاصنام وتحطيمها آت لا ريب فيه، وإختيار القـبلة كـان يعني ان فتح مكة هدف الأهداف، وما أن أقرّ لها حق القبلة، إذ كان قرار استعادة بيت الله من الاصنام، والرجال الأصنام، امراً محسوماً. لقد انصدم النبـي في حـبه الحـسي الكامـل حيـنما واجهـته قريش آخر الأمر!- بالقتل، فلم يـتحول الحب الى غضب الانتقام، بل تسامى الحب الحسي المصدوم، والجريح، في الـنفس النـبوية المتـسامية، مـرتفعاً الـى مـستوى الحب المثالي، أن تكون مكة القـبلة، ذلـك هوالتـصعيد الـشريف للحـب، فـوق جـراحات لا تندمل وفوق خـسارات كبرى في زمن الأحزان، موت خديجة وأبي طالب، كانت مكة خشنة، قاسـية، ضـارية، لكـنها حبيـبة. وفي نفـس محمـد تحقق التوفيق بين الاعتبارات والعواطـف المتـضادة في سـهولة نادرة، التوجه الى القبلة، لأن كلمة الله سكنت مكة منذُ ان اختار ابراهيم هناك مأواه، واختار اسماعيل عطشه.

ومـن مكان (ذي طوى) استشرف محمد مكة التي لا تقاوم في يوم الفتح، وحـين دخـل مكـة وأراد صـحبه ان يأخـذوه الى بيته، جاء جوابه مفعماً بالحزن والتأسّـيات القديمـة: «وما تركوا لي بيتاً» هكذا فعل المكيون بنبيهم، ورسول الله الـى العـرب والبـشر أجمعـين. فضربوا له قبة قرب مكانين هما كل ما تبقى له في مكة، هما قبرا خديجة وأبي طالب.

تعكـس عمليـة فـتح مكة.والطريقة التي تمت بها الابداع المحمدي الذي يضم في جانبيه العقائدي، والعملي، قدرات إبتكارية، منوعة، هي قدرات قيادية

قادرة على خلق مسار جديد للأشياء من داخل حركة الاشياء.

لقد كان تخطيطه لفتح مكة مقرراً سلفاً منذ الهجرة الى يثرب، منذ ان كان يطارده القتلة، والطامعون بالجوائز المالية والعينية. كان (سراقة) – بعد ان فشل أصحاب السيوف المسعورون- يلحق بمحمد وصاحبه أبي بكر، لكي ينال الجائزة الكبيرة،[1] وكان محمد متحصناً بالآية الكريمة دوماً:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

تلك الآية التي احتمى بها وهويغادر بيته، والمطاردون الذين طوقوا البيت

---

(١) والقول لأبي بكر: أرتحلنا والقوم يطلبونا، فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرسٍ له، فقلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا فقال لا تحزن ان الله معنا حتى إذا دنى منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أورمحين أوثلاثة، قلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت، قال: لم تبكي، قلت اما والله ما على نفسي أبكي ولكن ابكي عليك، فدعا عليه رسول اللهﷺ فقال: اللهم اكفناه بما شئت فساخت قوائم فرسه الى بطنها في ارض صلد ووثب عنها وقال يا محمد قد علمت ان هذا عملك فادع الله ان ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فانك ستمر بأبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال رسول اللهﷺ: لا حاجة لي فيها ثم دعا له رسول اللهﷺ فاطلق فرجع الى اصحابه. انظر مسند احمد بن حنبل ج١: ص ٣ وصحيح البخاري ج ٤: ص ١٨١ ومثله في تاريخ اليعقوبي ج ٢: ص ٤٠، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٢٢٣. (المحقق).

(٢) سورة يس، الآية: ٩. (المحقق).

كانوا عمياً، فكأن الآية سدت عليهم منافذهم واحساساتهم، وجمدتهم في شرنقة الغيبوبة، وظلت تلك الآية حاضرة، اروع دعاء، واجمل لعنة تشل الظالم الذي ترتجف نفسه من خوف الكلمة الموحية، والفعل المتحدي.

في المطاردة، من أول مرحلة الى آخر مرحلة فيها، حيث كان سراقة يبغي الفوز بالغنيمة، كانت افكار محمد لا تفارق مكة، وكان التصميم يزداد قوة، إنه متجه الى يثرب هارباً من مكة، لكن فتح مكة هو هاجسه النهائي. وطوال مدة التخطيط لفتح مكة، كانت الخطوات العملية متكاملة، ومتصلة بعضا ببعض، نظرياً، وتطبيقاً، دينياً ودنيوياً، فكل عملية هي مرحلة على الطريق الطويل، طريق الوصول الى مهبط الوحي وبيت الله.

ولا شك في ان المحصلة الاخيرة، فتح مكة بدون إراقة دماء إلا قليلاً هي انموذج تطبيقي للعلاقة بين التخطيط والعمل، طويل الأمد، صبور، ينظم علاقات السياسة والاقتصاد والحرب والممارسات الدينية، بصورة محكمة، معتمدة على تسلسل للأولويات قائم على فعالية الوعي الثاقب.

كان محتملاً أن يكون يوم الفتح يوم الدماء الغزيرة التي تسيل في عنفوان العداوة الشديدة[1]، خاصة وان التحالفات مع قريش ضد محمد وحلفائه قد

---

(١) نعم، وهذا ما كان في بعض نفوس المسلمين، ومنهم سعد بن عبادة وهو أمام كتيبته يوم الفتح ماراً على ابي سفيان فنادى سعد: يا أبا سفيان

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة

اليوم أذل الله قريشاً، ولما اقتربت كتيبة الرسولﷺ قال له ابوسفيان ما قاله سعد بن عباده وقال: اني انشدك الله في قومك فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس فناداه رسول اللهﷺ: يا ابا سفيان، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم اعز الله قريشاً.. وارسل إلى سعد فعزله عن اللواء وجعل علياً بن أبي طالب عليه السلام على أمرة اللواء انظر نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج١٧: ص ٢٧٢ وكنز العمال للمتقي الهندي ج١٠: ص ٥١٣ وتاريخ مدينة دمشق ج ٢٣: ص ٤٥٤ واسد الغابة لأبن الاثير ج ٢: ص ٢٨٤ وعيون الاثر لأبن سيد الناس ج ٢: ص ١٩٠. فسجية الرسولﷺ جُبلت على الحب والصفح والتسامح، ولذا نعتقد ان يوم الفتح، هومن المواقف البليغة من سيرة الرسولﷺ المعبّرة عن سماحة الاسلام، وحقن دماء المشركين واعداء الرسول والرسالة. فما كان منهﷺ إلا ان يتركهم وشأنهم ولم يجبرهم على اعتناق الرسالة أو حتى الأخذ بثأره ممن ظلمه حقه في بادئ الدعوة، وهذا ما اكدهُ الإمام الصادقعليه السلام من روايه له لما كان فتح مكة قال رسول اللهﷺ «عند من المفتاح؟ قالوا: عند أم شيبة. فدعا شيبة فقالﷺ: أذهب الى أمك فقل لها ترسل بالمفتاح، فقالت: قل له: قتلت مقاتلنا وتريد أن تأخذ منا مكرمتنا، فقالﷺ: لترسلن به أولاً قتلنك – وكان هذا مجرد تهديد- فوضعته في يد الغلام، فأخذه وقاله له: هذا تأويل رؤياي من قبل، ثم قامﷺ ففتحه وستره، فمن يومئذ يستر، ثم دعا الغلام فبسط رداءه فجعل فيه المفتاح وقال رده الى امك، ودخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون ان السيف لا يرفع عنهم فأتى رسول اللهﷺ البيت واخذ بعضادتي الباب ثم قال: (لا إله إلا الله أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده) ثم قال: ما تظنون وما أنتم قائلون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظن خيراً أخ كريم وابن عم، قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (يوسف: ٩٢) (بحار الانوار ٢١: ١٣٢) ومن مواقف السماحة للرسولﷺ - ايضاً – قصته مع

نـصارى نجـران. يقـول الإمام الصادقﷺ: «ان نصارى نجران لما وفدوا على رسول اللهﷺ وكـان سـيدهم الأهتم والعاقب والسيد. وحضرت صلواتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وصلوا، فقال أصحاب رسول اللهﷺ: يا رسول الله هذا في مسجدك؟

فقالﷺ: دعوهم.

فما فرغوا دنوا من رسول اللهﷺ فقالوا: إلى ماتدعو؟

فقـالﷺ: الـى شـهادة ان لا إلـه إلاّ الله وأني رسول الله وان عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنـزل الوحـي علـى رسـول اللهﷺ فقـال: قـل لهم: ما يقولون في آدم أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟

فسألهم النبيﷺ:

فقالوا: نعم.

فقال: فمن أبوه؟

فبقوا ساكتين، فأنزل الله تعالى:«ان قتل عيسى عند الله كمثل آدم» (آل عمران: ٥٩).

الى قوله: « فنجعل لعنت الله على الكاذبين»(آل عمران: ٦١)

فقال رسول اللهﷺ فباهلوني إن كنت صادقاً انزلت اللعنة عليكم وان كنت كاذباً انزلت عليّ.

فقالوا: أنصفت.

فـتواعدوا للمـباهلة، فلـما رجعـوا الـى مـنازلهم قال رؤساؤهم السيد والعاقب والأهتم: ان باهلـنا بقـومه باهلـناه، فانه ليس بنبي وان باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله فانه لا يقدم علـى أهـل بيـته إلا وهوصادق. فلما اصبحوا جاؤوا الى رسول اللهﷺ ومعه أميرالمومنين وفاطمة والحسن والحسين عليها السلام. فقال النصارى: من هؤلاء؟

وصلت الى درجة عالية من الاستقطاب بات معها أي قتال يتّسمُ بالكثافة الشديدة.

فلابد- إذن - ان سلسلة الاجراءات المتصلة والمتواصلة، منذ الهجرة والى يوم الفتح، كانت من الفعالية بحيث فرضت على قريش عدم رفع السلاح، سوى خرق بسيط، حيث عمد افراد من بني بكر إلى رمي بعض قوات الاسلام بالنبال، فقتل مسلمان، وقتل بضعة أنفار من قريش وفرّ رأس المقاومة وزمرته مولين الأدبار خارج مكة، والى أماكن بعيدة.

كانت الفكرة المركزية في بدء الكفاح الاسلامي من موقع يثرب، تتمثل في بناء التجربة الاسلامية الانموذجية في مدينة يثرب بالذات. ذلك لأن هذه التجربة بتحققها المتقدم، تضمن تأسيس النواة والركيزة القادرة على الاتساع والتعاظم داخلياً، وإرسال اشعاعاتها وتأثيراتها خارجياً بصورة حتمية.

كان الوضع في المدينة معقداً نوعاً، ذلك لأن الصراع بين الأوس والخزرج كان صراعاً شديداً، وتقليدياً، وكانت آخر معركة (نعاث) تثير. الحفيظة، وتستدعي ذكرياتها أحقاداً متبادلة.

فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحسن والحسين.

ففرقوا وقال لرسول اللهﷺ: نعطيك الرضا فأعفنا عن المباهلة فصالحهم رسول اللهﷺ على الجزية وانصرفوا (بحار الانوار ٢١ :٣٤٠). (المحقق).

كـذلك كـان اليهود يستثمرون الصراع المذكور لعوامل دينية واقتصادية، سـيما ان يهـود المدينة كانوا يشكلون كثرة فعالة، مما يعني ان التناقضات الداخلية كانـت قابلـة للـتأجج المتـزايد، كما ان علاقة المدينة بجيرانها القريبين والبعيدين تتأثر- عموماً- بمعطيات التناقضات المذكورة.

جـاءت هجـرة المهاجرين عبئاً جديداً إلى كومة المتناقضات[1]، ذلك- إذا مـا جـردنا موضـوع العلاقـة بـين المهاجـرين والأنـصار من خصوصيته الدينية الجديـدة- لأن المهاجـرين أنـاس قطعـوا أنفسهم معيشياً واقتصادياً من أصلهم المكي، هاجرين اعمالهم وأموالهم وعلاقاتهم العزيزة، متوجهين الى مجتمع جديد للتعايش فيه ضمن طبيعته المعقدة.

وفي واقـع الظواهـر الاجتماعية المعروفة، ان من الممكن استقبال ضيف أو بـضعة ضـيوف لعـدة أيـام، أمـا اسـتقبال مجمـوعة مـن المهاجرين، وتقبلهم في الشروط السائدة في المدينة، فهو صعب تماماً.

هـنا تـبرز العقلـية القيادية لمحمد، والتي تمكنت من ترويض التناقضات، ووضـع الحلـول الأساسـية لها، على طريق بناء المدينة الاسلامية الاولى. المدينة التـي ينبغي لها ان تتحول من مركز للتناقضات الفوّارة،الى مركزاشعاع اسلامي هائل التأثير.

---

(١) انظـر المـزيد مـن التفاصـيل حـوادث وارقام واسماء شخصيات هاجرت الى المدينة، في السيرة لأبن هشام ق١: ص ٤٦٨-٥٠٤.

لم يكـن هـناك خـيار في تجنب تأسيس تجربة حكم اسلامي أول في المدينة، لأن القضية كانت على ذلك النحو من الضرورة.

ومعظلة الحكم هي معضلة أساسية ذلك لأن الحكم المعروف، كان على صورتين.

الحكم الاجنبي: الفارسي، والرومي، وهوحكم القوة والسيطرة والبطش.

والحكم القبلي المحلي، الضيّق والقائم على العداوات الداخلية الدائرة بين القبائل.

إفترضـت متطلـبات الدعـوة الاسـلامية تأسـيس رابطة حكم أقرب الى الادارة الذاتـية، المسيّـسة، بـإشراف النبـي، وباعـتماد علاقـة التـشاور الطبيعية والديمقـراطية، بـين القيادة والقاعدة الاجتماعية، وهذا يعني ان الخطوة الاولى يجـب ان تبتدىء بتحقيق وحدة اجتماعية متراصة في النطاق الاسلامي، باخضاع الصراعات الداخلية بين الأوس والخزرج الى شرط الوحدة المذكورة.

فكـان الـنجاح الاول هـو مـؤاخاة الأوس والخـزارج مـؤاخاةً اجتماعية، واسـدال الـستار علـى الـصراعات الاولى، بشكلها الجاهلي الأهوج، ولم تبق- مستقبلا – إلا ذيول صغيره لترسبات الصراع القديمة، سرعان ما كانت تُحبط.

وكـان الوجه الثاني للمؤاخاة هوتحقيق أرقى شكل للأخوية بين أناس من عشائر مختلفة، بين الانصار والمهاجرين[1]، وذلك واحد من اروع الأمثلة العالمية المبكـرة علـى انتـصار العقـيدة وارتفاعهـا فوق التموضعات القبلية، والطبقية،

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبن هشام ق ١: ص ٥٠٤-٥٠٧ تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٢ : ص ٣٥٤ والـسيرة النـبوية لأبن كثير ج ٢: ص ٣٣٠ والبداية والنهاية ج ٣: ص ٢٨١ وتاريخ الطبري ج ٢: ص ١١٧ واسد الغابة لأبن الاثير ج ١: ص ٧٢. (المحقق).

وسواها. فقد اصبح لكل مدني أخٌ مكي، وحينما توفي أسعد بن زرارة نقيب بني النجار، وطلب بنوالنجار من النبي ان يختار لهم نقيباً من بينهم، قال لهم: «أنتم اخواني وأنا نقيبكم»[1] وبذلك كانت أسرته الأخوية مع علي بن أبي طالب، وكانت اخوة أبي بكر وخارجة بن زيد، وأخوة عمر وعتبان بن مالك، وأخوة عثمان بن عفان وابن النجار، واخوة أبي عبيدة وسعد بن معاذ، الخ...

وهي اخويات مثالية، نادرة، اعطت للدعوة الاسلامية حضورها المباشر، وزخمها الاندفاعي، الذي لا تقدر على صقله غير القدوة الصالحة[2].

---

(١) سيرد – لاحقا- ذكر موجز من تاريخ هذه المدينة القديمة (يثرب)، (المؤلف).

(٢) حدثت المؤاخاة في دار انس بن مالك، وقيل انها حدثت في المسجد أثناء بناءه أوبعده. وهي تطبيق لقول الرسول:«تآخوا في الله أخوين أخوين»وشملت المؤاخاة الى جانب التعاون والتناصر مشاركة في الحقوق تصل الى حد التوارث، وفيما يلى اسماء بعض الذين آخى الرسول بينهم حسب ما ورد في بعض كتب السيرة.

المهاجرون رضي الله عنهم

١- جعفر بن ابي طالب (وكان غائباً بالحبشة) ٢- ابوبكر الصديق ٣-عمر بن الخطاب ٤- ابوعبيدة بن عبدالله الجراح (اسمه عامر عبدالله) ٥- عبدالرحمن بن عوف٦- الزبير بن العوام ٧- عثمان بن عفان ٨- طلحة بن عبدالله ٩- سعد بن زيد بن عمروبن نفيل ١٠- مصعب بن عمير بن هاشم ١١- ابوحذيفة بن عتبه بن ربيعة ١٢- عمار بن ياسر حليف بني مخزوم ١٣- ابوذر بن جناده الغفاري – واسمه برير بن جناده اوجندب بن جناده ١٤- حاطب بن أبي بلتعه حليف بني اسد بن عبد العزي ١٥- سلمان فارسي ١٦- بلال مولى أبي بكر مؤذن الرسول ١٧- زيد بن حارثة. أنظر ابراهيم علي سالم «النفاق والمنافقون»

كانت عملية مؤاخاة المسلمين بوجهيها: مؤاخاة الأوس والخزرج، ومؤاخاة المهاجرين والانصار، تعبيراً عن تفوق سياسي وعقائدي وتنظيمي مدهش في مدن قبلية لا تعرف ذلك النمط من (البناة) الذي لم يتهيأ له ان يكون كذلك إلا بفعل استلهام العوامل العقائديه بالدرجة الأولى.

وقد ادت العملية تلك الى تكريس وحدة المجتمع الإسلامي في المدينة، وتصليبه تدريجياً. وكان للصلاة دورها المركزي في تمتين الرابطة الروحية، التي كان المسجد - عبر الصلاة الجماعية وندوات التوعيظ والتثقيف - يعزز الجوانب المركزية لها.

الأنصار رضي الله عنهم

١- معاذ بن جبل من بني سلمة ٢ـ خارجة بن زهير من بلحارث بن الخزرج ٣- عتبان بن مالك من بني سالم بن عوف من الخزرج ٤- سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الاشهل وقيل مع أبي طلحة (الحلبية عن احمد بن حنبل) ٥- سعد بن الربيع من بلحارث بن الخزرج ٦- سلمة بن سلامة بن وقش من بني عبد الأشهل وقيل عبد الله بن مسعود حليف بن زهرة ٧- اوس بن ثابت بن المنذر من بني النجار ٨- كعب بن مالك من بني سلمة ٩- أبي بن كعب من بني النجار ١٠- ابوايوب خالد بن زيد من بني النجار١١- عباد بن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل ١٢- حذيفة بن اليمان اخ بني عبس حليف بني الأشهل ويقال ثابت بن قيس بن الشماس من بلحارث بن الخزرج خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣- المنذر بن عمر من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ١٤- عويم بن ساعدة اخو بني عمرو بن عوف ١٥- ابوالدرداء عويمر بن ثعلبة - ويقال عويمر بن زيد اخوبلحارث بن الخزرج ١٦- ابوريوحة عبدالله بن عبدالرحمن الخشعمي (ورد في الحلبية باسم ابورويم) ١٧- اسيد بن خضير (المؤلف).

وأثمرت - على نحو طبيعي - جلسات المسجد لا على تحقيق مستوى متقدم في التفقه الديني فقط، بل وفي مدارسة الشؤون الحياتية بتفاصيلها المهمة، في ميادين البيع والشراء، والزواج والأخلاق وحل المشكلات المختلفة.

وتم في المناخ المتطور تعليم أفراد المجتمع المديني الجديد استكمال الفروض الدينية، فكان صوم شهر رمضان ممارسة كبرى توحد الطاقات الروحية للبشر الصائمين عن الغذاء، وتجعلهم اكثر قدرة على تحمل المشاق، والصبر، وتصعيد التطلعات الروحية، استجابة للآيات:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآيات: ١٨٥-١٨٧. (المؤلف).

ومن الثابت ان العوامل الروحية المنجية للنفس من أفراط العبودية للشهوات، تحتاج الى معالجة الأساس المادي للحياة الاجتماعية، وصولاً الى تحقيق حدود معينة من التطابق بين العلائق المادية، والعلائق الروحية، لا سيما ان اغراءات المادة والثروة بشكل خاص توثر على وحدة العلاقة بين أفراد المجتمع الاسلامي الجديد.

ولقد كانت المضايفة في العمل وفي المعيشة بين الأنصار والمهاجرين تجربة طليعية في ميدان التشارك وتأسيس أركان أولى لحياة اشتراكية متطورة، إلا انها كانت في حدود قدرتها – مسؤولة عن تحقيق الهدف الملح الذي باشرته، ولم تتعداه الى ما قبل قيامها، بمعنى ان الواقع الاقتصادي، والطبقي السابق، لا يكمن إجراء عملية تغيير له بفعل المؤاخاة، فكانت الزكاة شرطاً اسلامياً، وفريضة فعالة، لتوفير شعور عالٍ بالمسؤولية من قبل الأغنياء نحوالفقراء، ولأيجاد مناخ من التعاطف المتبادل بينهما.

ولم يكن يسيراً استيعاب دلالة الزكاة لا في نطاق رؤية جشع الأغنياء، المرابين وأطماعهم، وخاصة في مناخ اقتصادي كانت ربوّية اليهود شائعة فيه إضافة الى تفشي ظواهر البخل، والباطل في العلاقات التجارية.

وقد حثت الآيات القرآنية على الزكاة، بكونها ركناً أصيلاً من أركان الإسلام. فجاء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ

وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[3].

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[4].

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٤-٢٦٥ (المؤلف).

(٢) سورة البقرة: ٢٧١ (المؤلف).

(٣) سورة البقرة: ٢٧٣ (المؤلف).

(٤) سورة آل عمران: ٩٢ (المؤلف).

(٥) سورة التوبة: ٦٠ (المؤلف).

وحيث ان مجتمع المدينة يضم اليهود ايضاً، فإن الخطوة الثانية بعد خطوة بناء الركن الاجتماعي الموحد للاسلام، التوصل الى حل صحيح للعلاقة بين المسلمين واليهود. وكان الحل المحمدي هوكفالة حرية العقيدة، والتعايش بين الديانات. وقد تضمنت الوثيقة الاسلامية الاولى ذلك، كما هومثبت في نصِّها الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحِقَ بهم وجاهد معهم. انهم امة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على رِبْعَتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُون عانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين» و«ان المؤمنين لا يتركون مُفرَحاً بينهم ان يعطوه بالمعروف فى فداء أوعقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة، ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وان أيديهم جميعاً ولو كان ولدَ أحدهم ولا يَقتلُ مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصُر كافراً على مؤمن. وان ذمَّة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم. وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسرة غير مظلومين ولا مُتناصرٍ عليهم. وأنَ سَلْمَ المؤمنين واحدة لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدلٍ بينهم. وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وان المؤمنين يبىء بعضهم عن بعض بما

نال دماءهم في سبيل الله. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدىً وأقومه. وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن. وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فأنه قودٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامُ عليه.

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدِثا ولا يؤويه، وانه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عدل. وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مَرَدّه الى الله وإلى محمد - عليه الصلاة والسلام- وان اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين. وأنَ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظَلَم أو أثِمَ فانه لا يوتِغ الانفسه وأهل بيته. وان ليهود بني النجار ويهود نبي الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جُشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة وجفنه ولبني الشطيْبه مثل ما ليهود بني عوف. وأنَّ موالي ثعلبه كأنفسهم. وان بطانة يهود كأنفسهم. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد، وانه لا يتحجر على ثأرٍ جرح. وأنه من فتك فبنفسه واهل بيته إلا من ظلم. وان الله على أبَرَّ هذا. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وان بينهم النصح والنصيحة، والبرَّ دون الأثم. وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه. وإن النصر للمظلوم. وان اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين. وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وانه لا

تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وانه ما كان بين أهل هذة الصحيفة من حَدَث أوإشنجار يخاف فساده فإنّ مردّه الى الله والى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرّه. وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها. وان بينهم النصر على من دهم يثرب. وإذا دُعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دَعَوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين. على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وأن يهود الأوس مواليهم و أنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحفية مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأنّ البر دون الاثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه. وأنَّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه. وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإن من خرج آمن وقعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وان الله جارٌ لمن برَّ واتقى»[1].

كان نهج التعامل الإسلامي مع اليهود ديمقراطياً في جوهره، رغم أن فئة المسلمين أخذت تشكل الكتلة الأساسية المسيطرة في مجتمع المدينة. وقد أخذت مكانة الإسلام تتعزز، بسبب الحلول الاجتماعية والاقتصادية الجديدة التي كانت تنطوي عليها النظرة الإسلامية، والتي حققت إنجذاباً واسعاً من الناس نحو الإسلام.

وقد تكرست المفاهيم الإسلامية عن الحق، والعدل، والصدق،

---

(١) وهي الوثيقة المسماة بـ(دستور المدينة) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج٣: ص ٢٧٦ وعن محمد بن اسحاق في سيرة ابن كثير ج ٢: ص ٣٢٣ وانظر ابن هشام في السيرة النبوية ق١: ص ٥٠١-٥٠٤(المحقق).

والتعاون، ومحاربة الظلم، وغير ذلك من الاخلاقيات العالية، في ممارسات تطبيقية، وفي عدل يومي، وفي محاكمات عقلية، وحوارات نيرة، تعقبها اجراءات جدية لم يشهد أهالي شبه الجزيرة العربية مثيلاً لها من قبل. خاصة ان سياسة الشورى الديمقراطية، قد جعلت الفرد يشعر بقيمته وبحضوره، وبفاعليته في مجرى الأحداث. فهوليس رقماً حسابياً مجرداً، أو كائناً مأموراً ومنفذاً فقط.

وقد جاءت حدود الحق مؤشرة في الآيات القرآنيه، مما هيأ لمعاملات ومشكلات وعلاقات الناس في المدينة، سياسة واضحة، متطورة، آخذة بعين الاعتبار ما يستجد من المشكلات المتلائمة مع مراحل التطور الاسلامي.

لم يكن ذلك ليثير في اليهود غير القلق والخوف بسبب التاثيرات المحتملة للنهج الإسلامي، في كسب العديد من اليهود أنفسهم الى الإسلام.

وكان لأعلان عبدالله بن سلام أحد كبار احبار اليهود، اسلامه، اثره البالغ في اشتداد تذمر اليهود وحنقهم، سيما ان أهله أسلموا معه[1].

---

(١) وعن ابن اسحاق: ينقل ما تحدث به عبدالله بن سلام عن كيفية اسلامه واهله معه، وكان حبراً عالماً، قال: لما سمعت برسول اللهﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نترقب له، فكنت مسراً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدمﷺ المدينة، فأخبرت بقدومه وأنا على رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر كبّرت فقالت لي عمتي: خيبك الله، والله لوكنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت فقلت لها: اي عمّة هو والله اخوموسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به، فقالت: أي ابن اخي، أهو النبي الذي كنا نخبر انه يبعث معهُ نفس الساعة؟ فقلت لها:

إضافة الى ان الطبيعة اليهودية الأنطوائية، المغلقة، التي تتميز بالحساسية الشديدة من الغير كانت مغتاظة – فعلاً – من تأثيرات الاسلام السريعة، في أوساط الناس، وبالمقارنة بين هذه التأثيرات، وتأثيرات اليهودية بالذات (وهي الأسبق من الاسلام) كانت تنزعج بلمسها تفوق الاسلام وانتشاره السريع. وتلكؤالحركة اليهودية المحدود كماً ونوعاً وراء المسيرة الاسلامية.

فكان أن عمل اليهود على إظهار كراهيتهم للاسلام، تلك الكراهية الآخذة بالتدرج، تبعاً للظروف المتغيرة، والتي تتحول الى تصعيد معادٍ شنيع في الأزمات التي يمر بها الاسلام.

ولم يفت اليهود.أن يلجأوا الى الاسلوب الانقسامي التأليبي المعروف بين الأوس والخزرج لاحياء فتن ماتته.

ذلك ما فعله اليهودي (شاس بن قيس) حينما رأى انسجام مجموعة من الأوس والخزرج في مجلس لهم، فأرسل فتىً يهودياً ليثير الشغب مذكراً الجالسين بيوم (بُعاث) وانتصار الأوس على الخزرج، فعاد النزاع مجدداً، حتى سمع بذلك رسول الله وتدخل في حل النزاع، فانتبهوا لأمرهم في استعادة التعاطف الجميل وهم يشرقون بالبكاء، مستغفرين الله ونادمين على ماجرى[1].

نعم، قالت: فذاك اذاً، قال: ثم خرجت الى رسول اللهﷺ فاسلمت ثم رجعت الى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.. انظر السيرة لأبن هشام ق١: ص ٥١٦-٥١٧ (المحقق).

(١) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ج١: ص ٣٩٦-٣٩٨ عن ابن اسحاق المطلبي وفتح الباري لأبن حجر ج ١٢: ص ٢٣٦، تفسير ابن كثير ج ٢: ص ٧٨،

كذلك كان اليهود يعملون على تسفيه الآيات القرآنية والرد عليها بأباطيلهم المصنوعة التي كانت تحمي أباطيل المال الربوي الذي اكتنزوه. وها هو مثل اليهودي (فنحاص) صورة من صور البهتان، فهو يتصدّى للآية الكريمة:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1].

وهي آية غنية بالدلالات الرائعة عن قيمة العمل الصالح الذي يخص بالفائدة بني آدم، والذي يتضمن- في الآن نفسه- ابتغاء مرضاة الله.

لكن عقلية (فنحاص)، الأنموذج اليهودي الذي لا يعرف غير مفردات المال، والقرض، والربح، والربا، يأبى إلا ان يتناول الموضوع من خلال طبيعة يهودية مادية،تجارية، ضيقة، مسفهة أصلاً، فهود يقول مجابهاً أبا بكر:

«والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ومانتضرع اليه كما يتضرع الينا. وإنا عنه اغنياء وما هو عنا بغني. ولوكان غنياً عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولوكان عنا غنياً ما أعطانا»[2].

الاصابة لأبن حجر ج١: ص ٣٠٦، تفسير القرطبي ج ٤: ص ١٥٥، وابن هشام في السيرة ق ١: ص ٥٥٩ (تحقيق الأساتذة الثلاث) (المحقق).

(١) ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج ٢: ص ٣٩٩، والآية ٢٤٥ من سورة البقرة. ونسخة أخرى لأبن هشام ق ١: ص ٥٥٩. (المحقق).

(٢) أنظر ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢: ص٣٩٩، ونسخة أخرى من تحقيق الأساتذة الثلاث، ق ١: ص٥٥٩. (المحقق).

بهذا المنطق المتهافت، منطق(البنك الربوي) كان اليهود يعملون على تشيئة الله، وتصويره تصويراً حسياً مجرداً من أفكار الأهلية والتوحيد، وهم في مسعاهم كانوا لا يختلفون عن الوثنيين، بل هم أشد خبثاً.فقد كان في دخائل بعض الوثنين الذين اتخذوا من الاوثان أرباباً لهم بعض سذاجة، مع غباء، وجهل، إلا ان المكر اليهودي المؤطر بالثقافة المالية الربوية، وأخلاقيتها الضيقة جداً، واللاإنسانية كان يجرد كل ديانة حقيقية من أساسياتها وأصوليتها، بما في ذلك شريعة موسى.

كانت سياسة محمد الحكيمة متجهة نحو ترصين جبهة مجتمع المدينة، ومثلما تطلبت تلك السياسة إحلال مبادىء في العلاقة الاسلامية مع اهل الكتاب، فأنها - في وقتٍ ثانٍ- تطلبت مواجهة اليهود المستفزين بحكمة فيها شيء من الحديّة (مثل إبعادهم عن المسجد، والتصدّي لهم بالحوار تارة، وببعض الخشونة تارة اخرى).

إلاّ ان الاساس العملي في تحديد خط العلاقة ظل ثابتاً، قائماً إحترام حرية العقيدة، وعلى الإيمان بوحدة ما أوتي به الانبياء إحتكاماً الى الآية القرآنية: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1] وكانت سياسة محمد قد حققت نجاحاً فى الميدان

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦ (المؤلف).

المذكورف وخاصة مع (نصارى نجران) تحت خيمة الآية القرآنية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

ورغم ان اليهود بالغوا في انتهاج أساليب الدس والوقيعة، إلا أن النهج المحمدي العادل أفلح في إنجاح المؤتمر الذي عقدته الأديان الثلاثة في يثرب، بالأقل في حدود الموادعة، وعدم التلاعن.

وقد تأثر النصارى بالغ التأثر بما رأوا من حرص محمد على العدالة، وحرص اصحابه أيضاً، «فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا من أقوالهم. وبعث محمد معهم أبا عبيدة ابن الجَراح يقضي بينهم فيما اختلفوا»[2].

حققت السياسة المحمدية في المدينة نجاحات موفورة، كانت تضع المسلمين أمام المهمة الاستراتيجية الكبرى، مهمة مواجهة قريش وكيفية استعادة مكة وكعبتها المقدسة.

كان العصب الرئيس في إمداد مكة بمصادر القوة والأهمية التجارية، الطريق التجاري، واقتضت مهمة مواجهة قريش - وهي مهمة تاريخية مصيرية- الدخول في عمليات عسكرية محدودة، لكن متعددة، نظراً الى ان

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤ (المؤلف).

(٢) محمد حسين هيكل (حياة محمد) (المؤلف).

إمكانات الاستعداد لحرب واسعة النطاق وتامة لم تكن متيسرة.

فكان الأسلوب الناجع هو أسلوب الهجمات العسكرية الجزئية التي تقوم بها السرايا (وحدات عسكرية ذات قوام بشري محدود)، وهو أسلوب شديد الواقعية من الناحية الاقتصادية، ذلك لأنه يشكل عامل ضغط كبير ضد قوافل قريش التجارية الكبيرة، التي كان (الأمن) يهمها تماماً.

وحين يرى كتاب ومفكرون ان السريا الأولى التي خرجت بقيادة عم النبي (حمزة عبدالمطلب) و(محمد عبيدة بن الحارث)، وكذلك سرية خرجت بقيادة النبي نفسه، انها لا تقصد الحرب ضد قريش، فانهم يرجون بذلك بيان اهمية السلم في الإسلام، وبأن محمداً لم يكن ليريد الحرب ضد قريش.

وفي ذلك يقول (محمد حسين هيكل): «أما انهم بهذه السرايا، التي بدأت بعد ستة أشهر من مقامهم بالمدينة والتي اشترك المهاجرون فيها وحدهم، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها، فذلك ما يقف الانسان منه موقف التردد والتفكير، فلم تكن سرية حمزة لتزيد على ثلاثين رجلاً[1] من المهاجرين. ولم تزد سرية عبيدة على ستين،[2] كانت سرية سعد لا تتجاوز ثمانية[3] نفر على قول، وعشرين على قول آخر. وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الاعداد. وقد

---

(١) ابن هشام في السيرة النبوية ق ١: ص ٥٩٥ (المحقق).

(٢) سيرة ابن هشام ق١: ص ٥٩١ (المحقق).

(٣) المصدر السابق ق ١: ص ٦٠٠ (المحقق).

زادتهم قريش عدداً وعدة منذ أقام محمد بالمدينة، وبدأ يُحالف القبائل التي بها والقريبة منها. ومهما يكن من بأس حمزة وعبيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين، فإن عدة من معهم لم تكن لتشجعهم على الحرب، مما جعلهم يكتفون منها جميعاً بتهديد قريش دون قتالها، إلا ما قيل عن السهم الذى رمى به سعد»[1].

ويضيف الرأى المذكور حجّة لتأكيد صحة استنتاجه: «أن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم، فلم يكن من اليسير عليهم ان يقتل بعضهم بعضاً، وأن يتعرض هؤلاء واولئك لطلب الثأر؛ وان يعرّضوا مكة والمدينة جميعاً لحرب اهلية استطاع المسلمون والوثنيون اتقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابعة من يوم بعث محمد الى يوم هجرته، والمسلمون كانوا يعلمون ان بيعة العقبة كانت بيعة دفاعية تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد، ولم يعاهدوا ولا عاهدوا أحداً ممن معه على العدوان، فليس من اليسير مع هذا كله التسليم مع المؤرخين، الذين لم يبدأوا بكتابة تأريخ النبي إلا بعد قرابة قرنين من وفاته، بأن هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها القتال بالفعل»[2]. و« والراجح عندي ان هذه

---

(١) وهوالسهم الذى قيل عنه، انه اول سهم رمي به في الاسلام، وهوسعد بن أبي وقاص، بمقابلة مجموعة من قريش برئاسة أبي سفيان في مكان ما بالحجاز بوادي رابغ: (محمد حسين هيكل – المصدر) (المؤلف)، وابن هشام في السيرة ق١: ٥٩١ (المحقق).

(٢) محمد حسين هيكل (المصدر نفسه)(المؤلف).

السرايا انما قصد بها الى إفهام قريش ان مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطّروا الى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الأضطهاد تفاهماً يقي الطرفين شرور العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية من الدعوة الى الدين، ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها الى الشام. وقد كانت هذه التجارة التي تبعث بها مكة والطائف جميعاً، والتي كانت تجيء الى مكة من بلاد الجنوب، تجارة واسعة النطاق، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألفي بعير، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار.

كانت صادرات مكة السنوية، على ما قدَّرها المستشرق (سْپرنْجَر) توازي مائتين وخمسين ألفاً من الدنانير، أي نحو مائة وستين ألف جنيه ذهباً؛ فاذا أيقنت قريش تعرّض هذه التجارة للخطر آتياً من أبنائها من الذين هاجروا الى المدينة دعاهم ذلك الى التفكير في التفاهم معهم تفاهماً طمع المسلمون في أن يكفل لهم، ما كانوا يطمحون اليه من حرية الدعوة الى دينهم، ومن حرية الدخول الى مكة والطواف ببيتها العتيق...»[1].

ان الرأي المذكور رأي تأويلي يعتمد على تقديرات العقل أكثر مما يعتمد على معطيات السياق الحقيقي للوقائع والأحداث، وهو – عادة – ما يُعَوّلُ عليه من قبل المؤرخين.

وابتداءً لا بد من رد الاعتراضات القائلة بأن أواصر القربى وصلات الدم

---

(١) محمد حسين هيكل (المصدر نفسه) (المؤلف).

تقف حائلاً دون الحرب، لأن الواقع نفسه قال عكس ذلك بالضبط، كما اكدت المعارك العديدة بين المسلمين وقريش.

ولعل اهم ما يميز تلك المعارك والحروب، انطلاقاً من أصغرها، والى أكبرها، انها كانت دائرة الرحى بين الذين تجمعهم أواصر القربى وصلات الدم. وضبْطاً كان الانحياز الاسلامي الحاسم للمسلمين يعني الانقطاع الحاسم عن علاقة القرابة بدلالتها الوثنية، وهدا مجسد في لعن القرآن لأبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1].

والصحابة كانوا واجدين القدوة الحسنة فى سلوك محمد ذاته، الذي كان لا يبشر بالتوحيد وهو ينثر الورود والعطور في دروب السلم والوداعة واستقبال الأذى، بل كان يخوض الصراع بكل ابعاده بمواجهة الأقربين من الأهل والعشيرة، ممن فتنتهم الوثنيية، بدرجة أولى.

وفي العادة ان عملية الصراع ذات وجهين، وخاصة اذا كانت منطوية على تعقيدات داخلية، مثل ما تنطوي عليه جبهة الشرك والقرابة. فقد كان النضال ضد الشرك هوالذي يكتسب الأولية الحازمة. اما الليونة في نهج التعامل مع القرابة، فهي تأتي في موضعها، وحيث تخدم عملية الكفاح الاسلامي.

اما التذكير بدفاعية بيعة العقبة، فهذا أمر ظاهر رغم ما نَصَّتْ عليه مبايعة

---

(١) سورة المسد، الآية: ١-٥ (المحقق).

الانصار من البيعة (على حرب الاحمر والاسود)، إن فهم مغزى البيعة يؤخذ في إطار الحقيقة الثابتة، وهي هجومية الاسلام ضد مواطن الكفر والشرك والضلال، وهي الهجومية التي تؤكدها الاحداث والاسانيد ولا تنفيها، وكيف يمكن نفي السمة الاساسية من سمات الاسلام لصالح الرد على تهم لا معنى لها تدين الاسلام في مطلعه، بالعنف؟

يمكن القول ان السرايا الاسلامية الاولى قامت بعمليات عسكرية محدودة هدفت الى تحقيق ما يلي:

أولاً: شن حرب اقتصادية ضد قريش لأضعاف مكانتها المادية والسياسية والدينية من خلال القيام بهجمات ناجحة على قوافلها في مواقع معينة من الطرق التجارية التي ترتادها.

ثانياً: كسب ود بعض القبائل العربية، وموالاتها، وخاصة حينما لا تحقق الحملة العسكرية هدفها الاقتصادي، وقد حالفت الرسول (بنوضَمْرَه) عندما لم يلق قريشاً في (الأبواء) وفي (ودّان) وكذلك وادعه (بنومُدْلج) بعد ان نزل (العُشَيْرَة) من بطن (يَنْبُع)، بعد ان اتخذت القافلة التجارية لقريش طريقاً آخر[1].

ثالثاً: تقليم أظافر قريش، عبر عمليات عسكرية متناثرة، ولكن بانتظام، واستنزاف قدراتها العسكرية تدريجياً، تمهيداً لعمليات عسكرية أكبر وذات تأثير أوسع نطاقاً.

---

(١) انظر ابن هشام في السيرة النبوية ق١: ج ٢: ص ٦١٨ (المحقق).

رابعـا: تـدريب المـسلمين على العمل العسكري المنظم، والموجه، لخدمة نـشر لـواء الاسـلام واسـتعادة بـيت الله، وتنـشئة جـيش الاسـلام مـن خـلال تـشكيلات عـسكرية محـدودة (هؤ السرايا) كيما تكون عملية التنظيم العسكرية مـوهلة للاسـتجابة لـنداء المسؤولية العسكرية، مسؤولية توجيه ضربات فعالة، قتالـية، الـى بنـية قـريش العسكرية، التجارية، بغية إنجاز الهدف الاستراتيجي: تحرير مكة.

بكلمـة محـددة، ان الـسرايا أخـذت علـى عاتقها تنظيم منطلقات تجريبية لحـرب التحرير، وكذلك أعطت للتعبئات العسكرية بعدها المطلوب، والمتطور، في حـساب طبـيعة تـضاريس الأرض في شبه الجزيرة العربية، وشبكة العلاقات العشائرية المتوزعة حول مكة والمدينة.

وضمن تطور خط سير الصراع ضد قريش، وفقاً للتحليل المذكور، كانت المعـارك الكـبرى (بدر، وأحد، والخندق والمعارك الاخرى)، نمواً حتمياً لجدلية الـصراع بين المسلمين وقريش، سواء في المعارك التي اختارها المسلمون، أو التي اختارها القرشيون.

وتطلب الصراع الحربي المحتدم،إعادة النضر في الموقف من اليهود، الذين أصـبحوا أشـبه بالطابـور الخـامس لقـريش، فيما يزرعون من شغب ويبثون من أراجـيف، وخاصـة بعـد الانتصار المدوّي لجند الاسلام في معركة بدر الكبرى[1].

---

(١) حـدثت معـركة بـدر في الـثامن من شهر رمضان، انظر تفاصيلها في السيرة النبوية لأبن هشام ق ١، ج ٢: ص ٦٠٦٠ـ٧١٥ (المحقق).

وحين وقعت حادثة اعتداء اليهود على امرأة عربية راجعت أحد الصاغة اليهود، إندلعت الشرارة التي أسفر عنها إتخاذ موقف حاسم ضد يهود (بني قينقاع) كان الأمر يتعلق بكرامة امرأة عربية، وبسترها، حينما تحرش بضعة يهود بها أرادوا منها الكشف عن وجهها، فما ان رفضت حتى عمدوا الى إثبات طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها، وحين قامت انكشفت سوأتها[١].

كان اليهود يبحثون عن معارك جانبية، كي لا تستقيم الجبهة الداخلية في المدينة نهائياً لصالح الاسلام، وبعد ان كرر النبي عليهم ضرورة الالتزام بعهد الموادعة أويلاقون ما لاقت قريش، أجابوا بغرور: «لا يغرنك يا محمد انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصابت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس»[٢].

كانت النتيجة محاصرة يهود بني قينُقاع في دورهم خمسة عشر يوماً محاصرةً تامة، فاستسلموا، وبدلاً من ان يُنفذ بهم حكم المسلمين وهوالقتل جزاءً وفاقاً لما قاموا به من تآمرات عديدة. صدر قرار باجلائهم عن المدينة، فهاجروا حتى وصلوا الى (أذرِعات) على حدود الشام[٣]. وبذلك «ضعفت بالمدينة شوكة

---

(١) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج ٤: ص ٥. (المحقق).

(٢) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ج ٢. تفسير ابن كثير ج ١: ص ٣٥٨، تاريخ الطبري ج ٢: ص ١٧٢. البداية والنهاية ج ٤: ص ٤، السيرة النبوية لابن كثير ج ٣: ص ٥ والصحيح من السيرة للعاملي جعفر مرتضى ج ٦: ص ٥٩ (المحقق).

(٣) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج ٣: ص ٦٨٧. انظر تاريخ الطبري ج ٢ : ص ٢٢٥. والصحيح من السيرة للعاملي ج ٦: ص ٦٠ (المحقق).

اليهود بعد جلاء بني قينُقاع عنها. فقد كان اكثر اليهود المنتسبين الى المدينة يقيمون بعيداً عنها بخيَبر وبأمّ القُرى. ولهذه النتيجة كان يقصد محمد من إجلائهم، وهذا تصرف سياسي آية في الدلالة على الحكمة وبعد النظر. وهومقدمة لم يكن منها بُدّ للآثار السياسية التي ترتبت بعد ذلك على خطة محمد، فليس شيء أضرُّ على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها»[1].

لكن يجب النظر الى إجلاء يهود بني قينقاع برؤية شمولية، لأن الهدف ليس مقصوداً للمدينة وحدها، بل هو هدف يتصل بالغاية المحفورة في نفس النبيّ، وهي استعادة بيت الله، وتحرير مكة نهائياً من سلطان الظلام.

ويمكن ان نستنتج بمعقولية تامة، إنه اذا ما كان انتصار المسلمين في معركة بدر قد أثار جنون اليهود، فما هي النتائج المترتبة - في حالتهم النفسية - على إنتصار قريش في معركة أحُد؟! انهم كانوا سيندفعون الى التآمر، والتخريب، مستغلين الجو العام لنتائج الحرب السلبية، وتآمر بعض القبائل ضد المسلمين، وهذا ما حصل فعلاً. مما حدا بمحمد الى إجلاء بني النضير، وكما تبين الرواية هذه:

«ان عامر بن الطفيل أرسل الى النبي يطلب دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فخرج النبي الى بني النضير يستعينهم فيها ومعه جماعة من أصحابه، فيهم ابوبكر، وعمر، وعلى، فقالوا: نعم، نعنيك على ما أحببت، ثم

١- محمد حسين هيكل: (المصدر)، (المؤلف).

خـلا بعـضهم ببعض وتآمروا على قتله وهوجلس الى جنب جدار. فقالوا: من يعلـوهذا البـيت فيلقـى علـيه صـخرة فيقـتله ويريحنا منه؟ فانتدب له عمرو بن جحـاش، ونهـاهم عـن ذلك سلام بن مشكم. وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، فـصعد عمـرون بن جحاش...»، لكن النبي خالجه شك وارتياب، فغادر المكان تاركاً أصحابه وراءه، حتى أرسل من يبلغ بني النضير، بالمغادرة بعد عشرة أيام، لكنهم لم يلتزموا، فحاصرهم المسلمون وقاتلوهم عشرين ليلة، حتى استسلموا، وهاجروا الى (خيبر) والى (أذرِعات)[1].

تعـززت قـوة المـسلمين كثـيراً، وازدادت إمكاناتهم الحربية والمادية، التي رفـدتها غـنائم الحـرب رفـداً كبـيراً، وكانـت إنتـصارات (بدر الآخره) و(ذات الـرقاع) و(دومـة الجـندل) قـد وفـرت فرصة مهمة لاستكمال عملية الاصلاح الاجتماعي في المدينة.

ومهـما تكـن درجـة متانة الجماعة الاسلامية في المدينة، فان أمر اليهود ظل مثـيراً للقلـق الكبـير، ذلـك بـما عُرف عن إصرارهم على التآمر ضد رسول الله وضد الاسلام.

ولـما كانـت الغايـة الاسـتراتيجية الكبرى: تحرير مكة، تتعلق - أساساً - برصانة وحدة مجتمع المدينة، بات من الضروري معالجة الوجود اليهودي معالجة جذريـة، سـيما ان المؤامـرات الـيهودية كانـت تـتم بالتنسيق مع اعداء الاسلام،

---

(١) انظر البداية والنهاية لأبن كثير ج ٤: ص ٨٦ والصحيح من السيرة للعاملي ج ٨: ص ١٣.

وبخاصة في معركة الخندق، فكانت غزوة (بني قريظة) مرحلة حاسمة على هذا الاتجاه، حيث أنجزت عملية إهلاك اليهود بعد حصارٍ دام خمساً وعشرين ليلة، وكانت آخر مرحلة، بعد ذلك، هي مرحلة غزو(خيبر)[1] المعقل الكبير والأخير لليهود شبه الجزيرة العربية، والتي قامت بعد مرور شهر أوأقل على صلح الحديبية، وبذلك سقط السلطان السياسي لليهودية، ولم يعد بوسع اليهود التآمر والتخريب من الداخل، أومن الجبهة الخلفية، وأصبحت السيادة المطلقة للاسلام في المدينة وفي المناطق التي يسكنها المسلمون والحلفاء.

---

(١) يروى عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللهﷺ أرسل عمر الى خيبر فأنهزم ومن معه، فبلغ ذلك من رسول اللهﷺ كلّ مبلغ، فبات ليلتهُ مهموماً، فلما أصبح خرج الى الناس ومعه الراية، فقالﷺ لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار، فتعرض لها جميع المهاجرين والأنصار، فقال: أين علي؟ فقالوا: هو يا رسول الله أرمد، فبعث إليه أباذر وسلمان، فجاءا به يقاد ولا يقدر على فتح عينيه من الرمد، فلما دنا من رسول الله مسح على عينيه وقال اللهم اذهب عنه الحرّ والبرد وانصره على عدوه، فإنه عبدك يحبك ويحب رسولك غير مراء، ثم دفع إليه الراية. رسائل المرتضى، الشريف المرتضى ج ٤: ص ١٠٥، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٢:ص ٤٣٢ وفي صفحات عديدة من هذا الجزء لأبن عساكر وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل: ص ١٦ والكامل لعبدالله بن عدي ج ٥: ص ٥٢ وغريب الحديث لأبن قتيبة ج ١: ص ١٥٠، لسان العرب لأبن منظور ج ١٠: ص ٤٣٠ (المحقق).

صلح الحديبية: تكتيك عملية الفتح القادم:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾(١).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(٢).

في أسفل جبل الحديبية الذي يبعد مسيرة يوم عن مكة (قسم منه يقع في الأرض الحرام، والقسم الآخر في الأرض الحل)، بركت (القصواء) ناقة رسول‌الله، وهبط هناك ومعه أصحابه الألف واربعمائة، استجابةً لهاجس حبيب، ورغبة ملحة، بالتطواف في البيت العتيق الذي حُرم عليهم، وانقطعوا عن رؤيته منذ الهجرة.

وقد وصلت قافلة الحجيج، عبر طرق متعرجة، تجنباً للأصطدام بالقرشيين الذي هاجوا أشد الهياج عندما سمعوا بقدوم محمد الى ديارهم، واستثاروا معهم حلفاءهم الأحابيش، وثقيفاً، ولبسوا جلود النمور وحملوا أسلحتهم منعاً لمحمد من الوصول الى مكة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧ (المؤلف).

(٢) سورة الانفال: الآيات ٣٤-٣٦ (المؤلف).

وقد كان جهلهم بغايته (حيث كان يريد الطواف بمنىً) قد ملأهم بالحماسة القصوى للحرب، وحتى حين علموا انه جاء باصحابه يسوقون أمامهم الهدى: سبعين ناقة، وأنه أمر بنثر الزهور على نحور الهدى، واحرم في ذي الحليفة، لابساً ثوباً مكوناً من الرداء والازار الخاليين من الخياطة، وهوثوب الحجاج، فانهم ظلوا على إصرارهم على المجابهة بالقوة.

فكان ضرورياً الوصول الى الجبل الذي بركت (القصواء) عند قاعدته، من ملتويات غير مطروقة للتعمية، والتضييع.

بعثت قريش السفراء، وكان أولهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة، فقال: تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، أعداد مياه الحديبية، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال النبي: إنّا لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين[1]، وإن شاءت قريش ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي»[2] فانطلق

---

(١) مسند احمد بن حنبل ج ٤: ص ٣٢٨، صحيح البخارى ج ٣: ص ١٧٩. السنن الكبرى للبيهقي. ج ٩: ص ٢١٨، المصنف لعبدالرزاق الصنعاني ٥: ص ٣٣٣، المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠: ص ١١، تفسير مجمع البيان ج ٩: ص ١٩٦، جامع البيان لأبن جرير الطبري، ج ٢٦: ص ١٢٧. تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٢١٢، الدر المنثور للسيوطي ج ٦: ص ٧٦ تاريخ مدينة دمشق ج ٥٧، ص ٢٢٦، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٢٧٤. البداية والنهاية ج ٤: ص ١٩٨، السيرة النبوية لأبن كثير، ج ٣: ص ٣٣٠. (المحقق).

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٤: ص ٣٢٩، صحيح البخاري ج ٣: ص ١٧٩، السنن الكبرى للبيهقي، ج ٩: ص ٢١٩، مقدمة فتح الباري لأبن حجر: ص ١٦٢ صحيح ابن حبان ج ١١: ص ٢١٩، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٢٧٤ (المحقق).

بُديل الى قريش فاعلمهم ما قال النبي، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إن هذا الرجل عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، دعوني آتهِ، فقالوا: آته، فأتاه، وكلمه فقال له:

يا محمد جمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله انك لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله لكأني بهؤلاء قد تكشفوا عنك غداً. فقال ابوبكر: أمصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن ابي قحافة. فقال: أما والله لولا يد كانت لان عندى لكفأتك بها. ثم جعل يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبه واقف على رأس رسول الله في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناولها ويقول له: أكفف يدك قبل أن لا تصل اليك. فقال عروة: من هذا يا محمد؟ فقال النبي: هذا ابن اخيك المغيرة. فقال: أيْ غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟ وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، وهرب، فتهايج الحيان بنومالك رهط المقتولين، والاحلاف رهط المغيرة، فودى عروة للمقتولين ثلاث عشرة ديه وأصلح ذلك الأمر. وطال الكلام بينهما. فقال له النبي نحو مقالته لبديل، فقال له عروة: يا محمد، أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب إحتاج أصله قبلك؟»[1].

---

(١) ابن الاثير: (الكامل) (المؤلف)وانظر تاريخ مدينة دمشق ج ٥٧: ص ٢٢٦، تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٧٥ (المحقق).

وهكذا فشلت رسالة قريش في إرجاع محمد عن هدفه فبعثت مجموعة من المشركين الى معكسر المسلمين ليصيبوا لهم من أصحابه، فكان ان وقعوا بين أيدي المسلمين، فجاءوا بهم الى رسول الله فعفا عنهم وخلي سبيلهم، رغم انهم استحقوا القتل جزاء هجومهم الغادر[1].

إنقطعت قريش وحلفاؤها عن إيفاد سفرائها، فما كان من محمد الا ان بعث عثمان بن عفان الى أبي سفيان بن حرب وأعيان قريش،«فانطلق فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره. فأتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول‌الله، فقالوا لعثمان حين فرغ من إداء الرسالة: إن شئت ان تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبي، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبي انه قد قتل فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم»[2].

كانت المناجزة - إذن - استعداداً ثابتاً مقترناً بخطوات مسيرة مشخصة الهدف ورغم ان الظرف غير مؤاتٍ لحرب من هذا النوع، إلا ان الاستعداد كان أكبر من طبيعة الظرف وخصوصيته. لذلك جرت بيعة الرضوان تحت الشجرة، من قبل الانصار والمهاجرين لأعطاء شرعية الهجوم على الحرم.

ولم يوقف التهيؤ للهجوم غير قدوم عثمان بن عفان، و«بعثت قريش

---

(١) اتيين دينيه: (محمد رسول الله) (المؤلف).

(٢) إبن الاثير: (الكامل) (المؤلف) وانظر السيرة النبوية لأبن هشام الحميري ج٣: ٧٨٠ تحقيق محي الدين عبد الحميد، والبداية والنهاية لأبن كثير، ج٤: ص ١٩١، تاريخ الطبري ج٢: ص٢٧٩، وبعد هذا الحادث دعا الرسول ﷺ إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة وانظر السيرة النبوية لأبن كثير ج٣: ص ٣١٩ (المحقق).

سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي الى النبي ليصالحه على ان يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل سهيل الى النبي وأطال معه الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح، فدعا رسول الله علي بن ابي طالب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فقال سهيل: لونعلم انك رسول الله لم نقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك. فقال لعلي: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن الناس وإنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليّه، ردّهُ اليهم ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردوه عليه. ومن أحبَ ان يدخل في عهد رسول الله دخل. ومن أحب ان يدخل في عهد قريش دخل. وان يرجع رسول الله عنهم عامه ذلك، فاذا كان العام القادم يدخل محمد واصحابه مكة ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قُرُبها ولا سلاح غيرها[1].

كان صلح الحديبية ذا نتائج مهمة، وهو - على اهمية نتائجه - لم يكن إلا تكتيكاً متميزاً. وقد يبدو لأول وهلة - ان كلمة تكتيك تقلل من قيمة الصلح،

---

(١) أنظر المزيد من تفاصيل صلح الحديبية في السيرة النبوية لأبن هشام ق ٢: ص ٣١٦-٣٢٥. وانظر مسند أبي يعلي الموصلي ج ٣ ص ٢٦٢، خصائص امير المؤمنين للنسائي (٣٠٣ هـ): ص ١٥٠، والسنن الكبرى للنسائي، ج ٥: ص ١٦٨، سنن أبي داود: ص ٩٧ وسنن البيهقي ج ٥: ص ٦٩ وصحيح مسلم ج ١: ص ١٧٤ صحيح البخاري ج ٣: ص ١٦٧، العمدة: ص ٣٢٦ (المحقق).

أوتزيد من قيمة الجانب المصلحي على حساب الجانب المبدأي.

وهـذا أمـر غـير صـحيح، وهومتأثـر بالفهم السلبي لمعنى كلمة تكتيك، وهـوفهمٌ سـائد نـوعاً مـا. إذ يُحسب التكتـيك - غالباً - مجرد وسيلة واسلوب قابلـين للتغيـير. فالتكتـيك - وفقـاً للفهـم المذكـور - يعنـي التقلب واستبدال الاساليب والوسائل تبعاً للمتطلبات النفعية.

وفي الواقـع، ان التكتـيك، بضوء هذا الفهم، يأخذ معناه من خلال دعاته والـذين يختـارون إنتهاجه حسب مصالحهم ومتغيراتها. فهوأقرب الى ان يكون مناورةً، واحتيالاً.

لكـن، في التعـريف الـصحيح للتكتيـبك. وبصوء رؤية نزيهة، يمكن فرز شـكلين من التكتيك، أولهما، ذلك الذي يؤدي الى غاية شريفة ومقدسة، وهو- ايضاً - ينمُّ عن نزاهة وشرف. فهوتكتيك ملائم للمبدأ وللغايات النبيلة، أي انه يقترب من الهدف بالطبيعة.

وثانـيهما، التكتـيك العمـلي الـصرف، والذي يقترب من طبيعة الأسلوب العسكري للوصول الى الهدف.

وربـما كـان للميكافيلـية دورٌ خطـير فـى إعطـاء التكتـيك أبعـاداً شديدة الوحشية والتجرد في الاعتبارات الانسانية.

وفي حقـيقة الممارسة المحمدية كان صلح الحديبية تكتيكاً من طبيعة مبدأية وعملية، مُنزهة، فهويحمل الشوق الى الطواف في حرم الكعبة، ذلك الحلم الذي يتحرر من عقال الحياة الواقعية الكثيفة، ويبدو كأمنية الوصول الى كوكب دري

معشوق. فهو - بهذا المعنى - كان هدفاً مهماً من أهداف عاطفة بشرية، دينية، وتأريخية لا يمكن أن تخفت أوتتوارى. كما انه من جانب آخر - وهوالأهم - يرتبط بتحقيق غاية عظمى، هي غاية تجريد قريش من بعض أسلحتها تمهيداً لمعركة الفتح، المعركة التي كان محمد يرى فيها معركة الاسلام المصيرية، والتي كان - في الوقت ذاته - يخطط الى ان تكون معركة فتح بلا دماء مراقة، أوبأقل ما يمكن من الدماء. ولم يكن أغلب أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار قادرين على رؤية قيمة الصلح الواقعية الخطيرة، لأنهم كانوا يترقبون شيئاً آخر، فهم كانوا مؤمنين بتحقيق الغاية التي جاءوا من أجلها، وهي الحج، ولذلك فقد كانوا يطلبون الهجوم، وعدم العودة، وانتظار العام القادم طبقاً لبنود صلح الحديبية[1].

---

(١) وهذا ما أوقع (الخليفة) عمرو بن الخطاب في البعد المفهومي للتكتيك، حيت كان يرى ان كل تكتيك هونوع من الدنيّة في الدين. ولذا ذهب الى أبي بكر مستنكراً ومستفهماً: يا أبابكر، أليس برسول الله؟ قال بلى - قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى: قال: فعلام نُعطي الدّنيّة في ديننا؟ قال ابوبكر: يا عمر، ألزم غَرزه (أمره)، فإني أشهد إنّه رسولُالله، قال عمر: وأنا أشهد أنّه رسول الله، ثم أتى رسول الله وقال له ما قال لأبي بكر. فقال رسول الله، أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمرَه، ولن يُضيِّعني! قال: فكان عمر يقول: مازلتُ أتصدّق وأصوم أصلي وأعتق، مِن الذي صنعتُ يومئذٍ! مخافة كلامي الذي تكلمتُ به حتى رجوت أن يكون خيراً. انظر ابن هشام في السيرة النبوية ق ٢: ص ٣١٧ (المحقق).

فلو كان محمد ينظر الى قضية الحج قبل الصلح نظرة حاسمة لكانت الحرب واقعة لا محال. لكن الحساب المحمدي كان مرتبطاً بالهدف الأكبر، وهوالهدف الأكبر من قضية الحج واداء العمرة في هذا العام أوذاك. لقد كان يخطط لفتح مكة، بأصرار قيادي تأريخي يتعامل مع التفاصيل، والعقد المهمة في خط سيرها، تعامل ربط الجزء بالكل، والصغيرة بالكبيرة، والمحدود بالشامل.

من هنا كان غير قلق من تألم أصحابه الذين ما كان يرضيهم الصلح بعودتهم الى المدينة، والذي عبَّر عنه الحوار الدائر بين عمر وأبي‌بكر:

عمر - أبابكر، أليس برسول الله؟!

ابوبكر - بلى!

عمر - أولسنا بالمسلمين؟!

أبوبكر - بلى!

عمر - فعلامَ نُعطي الدنيّة في ديننا؟

أبوبكر - يا عمر الزم غرزَك، فاني اشهد انه رسول الله!

عمر - وأنا أشهد أنه رسول الله!

و«انقلب عمر بعد ذلك الى محمد وتحدث وإياه بمثل هذا الحديث وهومَغيظٌ محنق. لكن ذلك لم يغير من صبر النبي ولا من عزمه، وكل الذي قاله في ختام حديثه لعمر:

«إنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيّعني»[١].

كانت نتائج صلح الحديبية أكبر من أية محصلة لأية معركة محتملة حينذاك.

وانطلاقاً من المعطيات الواقعية نفسها كانت هناك نتائج رئيسية وأخرى ثانوية. من أول النتائج الرئيسية نقل قريش من موقع المهاجم الى موقع ابتغاء الصلح مع محمد، أي انه ضمن للاسلام مجالاً رحباً لحصول التناقض بين اعيان قريش وجمهرتها، بأشكال نسبية ولكن مهمة.

فقد كان خوف أعيان واسياد قريش العامل الاساسي وراء قبولهم بصلح الحديبية، فكان التراخي الناتج عن هذا قد أتاح لعامة قريش وحلفائها (أي لم يتوفر له ذلك) الانتباه الى نوع التجربة المحمدية، واجراء مراجعة في فهمها بدل الموقف التعصبي المتحجر والعدواني الذي كان مفروضاً من خلال سيادة مالية - وثنية (دينية) متزمته، والذي كان يحول دون نشوء أي فهم مستقل، وأية مراجعة إدراكية معقولة.

وقد أثّر على غالبية البسطاء من القرشيين وحلفائهم حب محمد وأصحابه لمكة وبيتها العتيق، وللقيم النبيلة المتوارثة، مما وضع التصورات السابقة (التصورات التي ترمي محمداً بالكفر والعدوانية والسحر والجنون، الخ...) موضع الشك. فشتان ما بين قادم متعرض للأذى بسبب الحب (حب

---

(١) محمد حسين هيكل: المصدر (المؤلف) والسيرة النبوية لأبن هشام ق ٢: ص ٣١٧ (المحقق).

لمكة، وللكعبة) وبين قادم من أجل العدوان الوهمي الذي رَوَّجهُ كبار قريش.

إن قدوم محمد من أجل الحج، والذي تمخض عنه صلح الحديبية، نثر بذوراً في الوسط الاجتماعي القرشي، أتت نتائجها لاحقاً، بدليل ان العام القادم، قضاء العمرة، كان العديد من أهل مكة يراقبون تعبيرات الحب المحمدي للكعبة بانتباه بالغ. فهم لم يروا أمامهم مسرحية، وطرازاً تمثيلياً من السلوك المتجاوب. بل رأوا تكاملاً طقوسياً، منشدّاً الى الطقوس الابراهيمية. ومن على سطح دار الندوة، والمرتفعات المطلة على الوادي، شهدوا - بدهشة - فرادةً في الوفاء للطقوس بإشراف إنسان - نبي، منكوب بالتشويه المرير من قِبَل مَن؟ من قبل قريش نفسها!

لقد أثمر صلح الحديبية؛ باعطاء ما كان محرماً على النبي والمسلمين، حقاً ثابتاً كما انه سحب البساط من تحت أقدام سيادة قريش في السيطرة المطلقة على الكعبة. واتيحت للبعض من قريش ممارسة حرية التفكير، والمراجعة، وإبداء التجاوب، والجرأة في إعلان الانتماء من قبل من أراد الانتماء.

وكانت أحداث عام ٦٢٩ م، حيث جرت مراسم عمرة القضاء، ذات مغزى كبير، على صعيد خلق إنعطاف إيجابي كبير نحومعسكر الاسلام، بعد ان كانت هناك سلبية عامة في الموقف: «كان يسود كُلّ الأحاديث الأمل في أن يكون النبي وأصحابه قد أوهنتهم حمى يثرب وأنهكهم صيفها الحار، فيأتون مكة في حالة من الضعف شديدة، ولكن الله أطلع رسوله على أمرهم، فقال لأصحابه:

«رحم الله إمراءاً. أراهم من نفسه قوة»[١].

وخلت مكة إلا من الجماعة التي احتشدت فوق سطح دار الندوة فكان سهلاً على الرسول ان يفتحها، غير ان نفسه الكريمة - التي لا ترضى بإقتراف مثل ذلك الغدر - كانت منصرفة الى الله وكلها خشوع وتقوى. فتقدم معتلياً ناقته القصواء مسلماً خطامها لعبدالله بن رواحة، ومن حوله موكب الصحابة، فاخترق في جلال ضواحي مكة تحت بصر الاعداء، ولم يشرفهم بنظرة واحدة من نظراته. فلما بلغ الموكب الكعبة نزل الرسول والتفَّ بردائه، ورفع أحد أطرافه كاشفاً كتفه وذراعه اليمنى، ثم أقبل، والمؤمنون يتبعونه، على الحجر الاسود، فلمسه وقضى الطواف، فهرول ثلاثاً ليرى المشركون ان له ولأصحابه قوة، فهز هؤلاء رؤوسهم وقالوا:

«أهؤلاء الذين زعمتم ان الحمى قد أوهنتهم»، واعترفوا فى أنفسهم ان مثل هؤلاء الرجال الذين تفوق صحة أخلاقهم صحة أبدانهم، ليس لهم إلا الفوزالمبين»[٢].

---

(١) اتيين دينيه: المصدر (المؤلف) ١ــ انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام ج ٣: ص ٨٢٧ تحقيق محي الدين عبدالحميد. البداية والنهاية لأبن كثير ج ٤: ص ٢٥٩، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٣٠٩، الثقات لأبن حبان ج ٢: ص ٢٧ (المحقق).

(٢) يروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم رسول اللهﷺ مكة لعمرة الزيارة، قالت قريش أن أصحاب محمد قد أوهنتهم حُمى يثرب، فأمرهم النبيﷺ بالرمل والأضطباع ليرى المشركين قوّتهم ففعلوا. أنظر فتح العزيز في شرح الوجيز، عبدالكريم بن محمد الرافعي

ولقد كان لنداء «لبيك لبيك! الذي هتف به المسلمون هتفةً واحدة، وأبواب البيت الحرام تفتح أمامهم، صدىً لا يعدله صدى في النفوس، لقد «انفرجت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد: لبيّك لبيّك! متوجهين بالقلوب والأرواح الى وجه الله ذي الجلال، مُحيطين في هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. والحق أنه كان مشهداً فذاً من مشاهد التأريخ التي اهتزت له أرجاؤه، والتي جذبت الى الاسلام قلوب أشد المشركين صلابة في وثنيته وفي عناده. وعلى هذا المشهد الفذ

(٦٢٣ هـ) ج ٧: ص ٣٢٥، بدائع الصنائع لأبي بكر الكاشاني ج ٢: ص ١٤٧، عون المعبود للعظيم آبادي ج ٥: ص ٢٣٧، وأحكام القرآن لأبي بكر الجصاص ج ١: ص ٩٥.

وينقل بن اسحاق: عن ابن عباس. قال: صفوا له (= أي المشركين) عند دار الندوة لينظروا إليه أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله أمراً أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم أستلم الركن، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك ان رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى اذا حج حجة الوداع فلزمها، فمضت السنة بها، انظر المصدر تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٣: ص ٨٢٧. وسميت عمرة القضاء بعمرة القصاص، لأنهم صدّوا رسول الله ﷺ في ذي العقدة في الشهر الحرام من سنة ست، فأقتص رسول الله ﷺ منهم فدخل مكة في ذي القعدة، في الشهر الحرام الذي صدّوه فيه، من سنة سبع، يقول ابن اسحاق، وبلغنا عن ابن عباس أنه قال: فأنزل الله في ذلك: «والحرمات قصاصٌ»، انظر السيرة النبوية لأبن هشام، ق٢: ص ٣٧٠ (المحقق).

كانت تقع عيون أهل مكة. وهذا الصوت المنبعث من القلوب يدوي: لبيّك! لبيّك! كان يخترق آذانهم فيهز قلوبهم هزاً...»[١].

وخلال الأيام الثلاثة التي سمح بها صلح الحديبية للبقاء بمكة، كانت صورة المسلمين تثير تعاطفاً كبيراً، فقد «خلت أم القرى من أهلها، فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذىً ولا يعترضهم أحد بسوء والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويزورون أصحابهم من الانصار إياها، وكأنما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين، وكلهم يسير سيرة الاسلام يُؤدي الى الله كل يوم صلواته، فيقتل في نفسه غرورها، ويعين قويُّهم ضعيفهم، ويَبَرُّ غنيّهم فقيرهم؛ والنبي ينتقل بينهم أباً محباً محبوباً يبسم لهذا، ويمزح مع ذاك، ثم لا يقول إلا حقاً. وقريش وسائر أهل مكة يُطِلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذ في التأريخ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم، لا يشربون خمراً، ولا يأتون معصية، ولا يغريهم الطعام ولا الشراب، ولا تفتنهم في الحياة فتنة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. أي أثر يترك هذا المنظر الذي سما بالانسان الى ما

---

(١) محمد حسين هيكل: المصدر (المؤلف) وانظر تاريخ اليعقوبي ج ١: ص ٢٥٦ والتلبية عند الرسول كمايقول ابن عباس هي: لبيك لبيك، اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، مسند أحمد بن حنبل ج ١: ص ٣٠٢ ويقول ابن عمر ولا يزيد عن هذه الكلمات انظر صحيح البخاري ج ٧: ص ٥٩ أما في صحيح مسلم فكان عبدالله بن عمر يُزيدعلى قول النبي انظر المصدر ج ٤: ص ٧ والزيادة هي: (لبيك لبيك وسعديك والخير بيديك لبيك والرغباء إليك والعمل» (المحقق).

فوق أسمى مراتب الانسان؟ من اليسير عليك ان تقدره حين تعلم ان محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين....»[١].

وكان التأثير الروحي والمعنوي الكبير الذي أطلقته (العُمرة) قد أثمر، فأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فتعززت جبهة الاسلام، وتعاظم نفوذه، واتسعت حرية التحرك، خاصة بعد ان توفر مجال أمني عريض من الجنوب، بعد التعاهد مع قريش على عدم الأقتتال.

من مجريات الوقائع التي اعقبت صلح الحديبية تَبيَّنت النتائج الأساسية لتركز الوحدة العربية المسلمة وتكتيكها، واتساع تأثيرها، توكيداً للقول الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٢].

ومن النتائج الثانوية، ما عبرَّت عنه قصة (أبوبصير)[٣] خير تعبير، فقد هرب المسلم (أبوبصير) من الذين عذبوه، ملتجئاً الى معسكر الاسلام.

وحسب الاتفاق كان إلزام اعادته الى قريش جارياً، فسلمه الرسول الى مندوبي قريش الذين عادا به من المدينة متجهين الى مكة.

---

(١) محمد حسين هيكل: (المصدر) (المؤلف) وأنظر سيرة لأبن هشام ق٢: ص ٤٠٦ (المحقق).

(٢) سورة الفتح. (المؤلف) سورة الفتح، الأية: ١-٢ (المحقق).

(٣) أبوبصير هوعتبه بن أسيد ابن جارية الثقفي، وهومسلم، وكان ممن حُبس بمكة (المؤلف).

وتمكن (ابوبصير) بحيلة ذكية من أخذ سيف العامري الموفد من قبل قريش، فقد كان العامري يتفاخر بسيفه مستلاً إياه قائلاً: «لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخرزج يوماً الى الليل»، فتساءل ابوبصير بدهشة مفتعلة تشجع زهوالعامري:«أوصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ أرينه».

وبضربةٍ سريعة فاتكة أجهز (أبوبصير) على العامري، وقتله في التو. ثم عاد الى الرسول: «يا رسول الله، وفت ذمّتك، وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني ان أفتتن فيه، أو يُعبث بي، وهذا سلب العامري: رحله وسيفه، فخمسه».

قال الرسول:«إذا خَمَّسته رأوني لم أف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بصاحبك، فاذهب حيث شئت»، ثم قال عنه، بعد ان ودَّعه ومضى:«ويل أمه! مسعر حرب ولوكان معه رجال!»[1].

---

(١) أنظر مسند أحمد بن حنبل ج ٤: ص ٣٣١، صحيح البخاري ج ٣: ص ١٨٣. سنن أبى داودج ١: ص ٦٣٠، سنن البيهقي ج ٩: ص ٢٢١، المصنف لعبد الرزاق ج ٥: ص ٣٤١، المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠: ص ١٥ تفسير مجمع البيان للطبرسي ج ٩: ص ١٩٩، جامع البيان للطبري ابن جرير ج ٢٦: ص ١٣١، وتفسير ابن كثير ج ٤: ص ٢١٤، الدر المنثور للسيوطي ج ٦: ص ٧٨، والأحكام لأبن حزم ج ٥: ص ٥٩٦ تاريخ مدينة دمشق ج ١٤: ص ١٣٥ وج ٥٧: ص ٢٣٠ واسد الغابة ج ٣: ص ٣٦٠، سير اعلام النبلاء للذهبي ج ٣: ص ٣٤٦، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٢٨٤ والبداية والنهاية ج ٤: ص ٢٠١، والسيرة النبوية لأبن كثير ج ٣: ص ٣٣٥. (المحقق).

كان إرجاع المسلمين الفارّين من قريش الى قريش نوعاً من الموافقة الصعبة التي يأباها المسلمون وهم ما عليه من حميّةٍ وغيرة في الدين. وقد استكثروا حتى على الرسول أن يقبل ببند الاتفاق هذا، خاصة ان منظر (أبي جندل) المسلم الذي استعاده أبوه القاسي، الى جهة قريش حيث التعذيب والاذلال، قد أفجعهم، وملأ صدورهم حزناً وحنقاً، كما فعل ذلك منظر (أبي‌بصير)، لذلك، عندما دعاهم الى نحر الضحايا، وحلق الرؤوس، كانوا واجمين، شاردين، بل ضعيفي الاستجابة. وشكا الأمر الى (أم سلمة) فقالت: «يا نبي الله أخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك» ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً للازدحام»[1].

كان إطمئنان محمد نابعاً من وعيه الثاقب الذي يخترق الزمن، ناظراً الى الأبعد، عارفاً معنى الايمان وقوته. فلوكان (المُرجعَون) الى قريش يتمتعون بصلابة الايمان لكن إيمانهم سفينة النجاة، وإن كانوا ضعاف الايمان، فلا حاجة للاسلام بهم.

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» (المؤلف) وانظر مسند أحمد ج ٤: ص ٣٣١، صحيح البخاري ج ٣: ص ١٨٢ سنن البيهقي ج ٥، ص ٢١٥، فتح الباري ج ٤: ص ٨، المصنف العبد الرزاق ج ٥: ص ٣٤٠ ومسند ابن راهويه ج ٤: ص ١٤ وصحيح ابن حبان ج ١١: ص ٢٢٥، والمعجم الكبير للطبراني ج ٢٠: ص ١٤ وجامع البيان للطبري الشيعي ج ٢: ص ٣٠٤ وج ٢٦: ص ١٣٠، تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٢١٤ والدر المنثور للسيوطي ج ٦: ص ٧٧ وتاريخ مدينة دمشق ج ٥٧: ص ٢٢٩ (المحقق).

وهكذا تأكد صدق بعد النظر لدى النبيّ، بما فيه من واقعية تامة، فقد تمكن (أبوبصير) من تكوين نواة من المسلمين المقاتلين، متخذاً من منطقة (العيص) الغنية بالنباتات الكثيفة، بؤرة له.

وحيث ان هذه المنطقة تقع على طريق تجارة قريش الى الشام، قرب البحر، فانها اصبحت مركز وثوب شديد الأذى على قوافل قريش وتجارتها.

واستطاع (ابوبصير) أن يؤسس مجموعة من المقاتلين الذين كانت إغاراتهم المتكررة على قوافل تجارة قريش ومؤونتها، قد هددت مكة بالمجاعة. فكان أن طلبت قريش، وبأشد ما يكون من الرجاء، إلغاء البند الذي اعتبرته نصراً لها في البداية، واغتمَّ له المسلمون، والحيلولة دون بقاء الفارّين في خارج المدينة. أي ان قريش ألحفت الرجاء في ان يُستعاد المغيرون والفاروّن الى المدينة ذاتها تحت نظر محمد ومحاسبته. فكان بذلك قد استعاد المسلمين من جانب، وقدّمَ لمكة وأهلها خدمةً لا تُنسى من جانبٍ آخر[1].

---

(١) خرج أبوبصير من رسول اللهﷺ بعد أن استطاع النجاة من الرجلين اللذين أرادا قتله، فقال فيه الرسول ما قال - وقد تقدم ذكره - فخرج أبوبصير الى سيف البحر وشَكّل عصابة قطعت على قريش تجارتها. وقد لحق بأبي بصير الكثير ممن أرادوا الاسلام والهروب من وثنية مكة وارستقراطية رجالها، فما ان هم يسمعون بعير خرجت لقريش الى الشام إلا اعترضوها وقتلوا رجالها وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش تناشد رسولاللهﷺ الله والرحم، وألغي بعدئذ هذا القرار من نص الوثيقة. انظر مسند أحمد بن حنبل ج ٤: ص ٣٣١: وصحيح البخاري ج ٣: ص ١٨٢ وسنن ابن أبي داود ج ١: ص ٦٢٩ والمستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣: ص ٢٧٧ وسنن البيهقي ج ٩: ص ١٤٤.

أمـا فيما يتعلق بالمهاجرات من قريش الى المدينة، فإن استردادهن من قبل قـريش لم يكـن مقـبولاً بـتاتاً، من قبل الرسول، ذلك لأن بند الأتفاق نصَّ على الرجال ولم ينصّ على النساء. «خرجت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط من بعد الهدنـة، فخـرج أخـواها عـماره والولـيد يطلـبان الى رسول الله أن يردها عليهما بحكم عهد الحديبية. لكن النبي أبى ورأى ان هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه، وان النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن. ثم ان المرأة إذا اسلمت لم تصبح حلاً لزوجها المشرك، فوجب التفريق بينه وبينها. وفي ذلك نزل قوله تعالى:

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِـإِيمَانِهِنَّ فَـإِنْ عَلِمْـتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُـمْ يَحِلُّـونَ لَهُـنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾[1].

وفي الاسـتمرارية المنـتظمة للـسياسة المرسـومَة باتجـاه فتح مكة، تجمعت بعـض أهـم العـناصر الأساسية للتكوين السياسي للقومية العربية، تجمعاً متيناً، وإن كان على نحو تدريجي، وقد برزت قضية خطيرة يصعب وضع حلٍ لها على

والمـزيد مـن التفـصيل في قصة ابي بصير في تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٢١٤ والسيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٣: ص ٧٨٧-٧٨٨ (المحقق)

(١) سـورة الممتحنة: الآية ١٠. (المؤلف) وانظر التفاصيل في السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٣: ص ٧٩٠ وتفسير ابن كثير ج ٤: ص ٣٧٦. (المحقق).

المستوى السياسي، والتنفيذي، تلك هي قضية العلاقة بين موضوعين مركزيين، من الناحية القومية والدينية:

الموضوع الأول: إستعادة مكة وقريش قلب العروبة ومركزها، الى حضيرة الاسلام.

أما الموضوع الثاني: فهو مجابهة الاحتلال الاجنبي للأمصار العربية من قبل الفرس والروم.

ووجه الصعوبة في الأمر، لأيهما تعطي الأسبقية؟ هل لاستعادة مكة وتأسيس دولة اسلامية موطدة أولاً، وبعد ذلك يمكن توسيع نطاق فعاليتها على الصعيد العربي، والتصدي للغزاة والمحتلين أولاً لتقديم انموذج في السياسة العربية التحريرية يخلق حَوله أوسع التفاف تضامني من قبل العرب الموزعين في قبائل متناحرة يحدوهم الى ذلك التأثر بعظمة المثال القومي التحرري الذي يصممه النبي؟

كان الجواب يجد حَلَّهُ في الممارسة التي برع بها محمد براعةً هائلة.

فقد وجه الى أرض الشام جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لمهاجمة الروم، وذلك عمل عظيم لا يمكن استيعاب مغزاه إلا من خلال قوة تنامي الخط العربي الاسلامي المناهض للاحتلال الاجنبي. ويخطىء خطأ كبيراً من يبحث عن عوامل معركة (مؤتة) التى زج بها الروم بقوة عسكرية قوامها مائة الف من الروم، ومائة ألف من المستعربة، في قتل أحد رسل محمد الى عامل (هرقل) على (بُصرى)، أو في قتل بعض أصحابه في (ذات الطَّلح)، ذلك لأن السببين

المذكـورين يُعـدان مـن الاسـباب الفردية المحدودة التي لا تعلل المعنى الحقيقي لمعركة (مؤتة) تعليلاً موضوعياً.

وعادة، تدخل الأسباب الفردية في مجرى فعالية عوامل موضوعية رئيسية أكـبر أهمية. وقد كان العامل الرئيسي لهذه المعركة هي حرب التحرير ضد الروم. وهي حرب غير متكافئة، سقط فيها ثلاثة قادة شهداء هم زيد بن حارثة وجعفر بن ابي‌طالب وعبدالله بن رواحة وعددٌ كبير من الشهداء الآخرين[1].

ويمكـن القـول ان في تلـك المعـركة كانت الخسائر المنظورة كبيرة، وبكى النبي فيها جعفراً أمر البكاء بعد ان كان فرحاً بعودته من الحبشة أشد الفرح قائلاً بعـد ان قـبله بين عينيه: «ما أدري بأيهما أنا أشد سروراً، أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[2] وبكى بقية الشهداء، ثم كفَّ وأوصى بعدم البكاء مستقبلاً في مثل ذلك.

---

(١) بالطـبع كانـت شـهادة هذا النفر قبل عمرة القضاء أو(القصاص) كما أُطلق عليها (سنن الـترمذي ج ٤: ص ٢١٨) ويذكـر البيهقـي عن غزوة مؤته: أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن حارثـة رضي الله عنه قائـداً للغـزوة وان قتل زيد فجعفر وان قتل جعفر فعبدالله بن رواحة انظر سنن البيهقي ج ٨: ص ١٥٤.

(٢) انظـر سـيرة ابـن هـشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٣: ص ٨١٨ والطبقات الكبرى لأبـن سعد (٢٣٠) ج ٢: ص ١٠٨ وج ٤: ص ٣٥ والكامل لعبدالله بن عدي ج ٥: ص ٢٤٣ واسـد الغابـة لأبـن الاثـير ج ١: ص ٢٨٧ سير اعلام النبلاء للذهبي ج ١: ص ٢١٣، تهـذيب الـتهذيب لأبـن حجـر ٢: ص ٨٤، تـاريخ الـيعقوبي ج ٢: ص ٥٦، والتنبـيه، والاشراف للمـسعودي: ص ٢٢٣، الـبداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٩١ ج ٤: ص ٢٣٤ وبشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري (٥٢٥ هـ): ص ١٦٣، (المحقق).

وخير دليل على الخسائر المنظورة ان الجيش «لما دنا من المدينة لقيهم رسول الله والمسلمون فاخذ جعفر الطيار فحمله بين يديه فجعل الناس يحثون التراب على الجيش، ويقولون: يا فرار في سبيل الله، ويقول رسول الله: ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى»[١].

وأعلنت قريش الشماتة، ونقضت صلح الحديبية؛ وفي ذلك يقول (محمد حسين هيكل): «أما أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم، حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أويقيم لعهدهم وزناً. فلتعد الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء. ولتعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية. ولتعد قريش حرباً على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخش من محمد قصاصاً[٢].

فكان ان شجعت جماعة من قريش (منهم عِكرِمة بن ابي جهل وبعض سادات قريش) بني الدّيل من بني بكر بن عبد مناة على ان يصيبوا من خزاعة (وهم حلفاء النبي) بثاراتهم. وبينما خزاعة ذات ليلة على ماءٍ لهم يدعى الوَتير إذ

---

(١) محمد حسين هيكل: المصدر (المؤلف)، انظر سيرة النبي لأبن هشام تحقيق محي الدين، ج ٣: ص ٨٣٦، السيرة النبوية لأبن كثير ج ٣: ص ٤٦٩ والبداية والنهاية، ج ٤: ص ٢٨٣، تاريخ الطبري ج ٢، ص ٣٢٣، شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد ج ١٥: ص ٧٠ . (المحقق).

(٢) ابن الاثير: (الكامل) (المؤلف).

فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرت خزاعة الى مكة[1].

كذلك تأثرت هيبة المسلمين التي ازدادت مَنَعة في الانتصارات العسكرية المتتالية، مما يبين بجلاء نوع الخسائر المنظورة في معركة (مؤتة) لكن هذه الخسائر المنظورة ليست بأكبر وزناً من الربح اللامنظور - ظاهرياً - والذي حققته الروح الاقتحامية الاسلامية الجديدة، التي لم يسمع بها أحد سابقاً، وبذلك الشكل الذي تجسدت فيه.

فكان ذلك مثار إعجاب القبائل العربية في الشام وفي الجوار، إذ«ان القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت الى فعال المسلمين بأشد الاعجاب.

وكان من ذلك ان أحد زعمائهم (فَروة بن عَمروالجُذامي وكان قائداً لفرقة من جيش الروم) ما لبث ان اعلن اسلامه، فقبضَ عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة، وكان هرقل على استعداد للأفراج عنه إذا هوعاد الى المسيحية، بل كان على الاستعداد أن يرده الى مركز القيادة الذي كان فيه. لكن فروه أبى وأصرَّ على إبائه وعلى اسلامه فَقُتل. وكان من ذلك ايضاً ان ازداد الاسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته.

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد (المؤلف) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين ج ٤: ص ٨٥١ والسيرة النبوية لأبن كثير ج ٣: ص ٥٢٦ والبداية والنهاية ج ٤: ص ٣١٧، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٣٢٣، (المحقق).

وزاد انضمام الناس الى الدين الجديد إضطراب احوال الدولة البيزنطية إضطراباً جعل احد عمال هِرقَل، وقد كلف ان يدفع للجيش رواتبه، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب:

«انسحبوا، فالامبراطور لايجد ما يدفع منه رواتب جنده الا بمشقة، وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه». فلا عجب ان ينصرف هؤلاء عن الامبراطور وعن جنده، وان يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم الى صدق الحقيقة السامية التى يبشر الناس بها. لذلك دخل في الاسلام، في هذه الفترة الوف من سُلَيم وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع وغَطَفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكبَ اليهود في خيبر، ومن عَبس ومن ذُبيان ومن فَزارة. فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة الى حدود الشام، وفي ازدياد الاسلام عزةً وقوةً ومَنَعةً»[1].

إذن، كانت الحملة العسكرية ضد الروم مؤشراً جديداً في تأريخ العرب، وهي عامل جوهري محرك من عوامل نقل العرب من مجتمعات قبلية متصارعة، الى مجتمع عربي موحد بواسطة الاسلام. وبذلك انفتح الطريق إلى مكة بقوة عشرة آلاف مسلم يريدون إستكمال البناء العربي بمضمونه الإسلامي والإنساني البليغ.

---

(١) المصدر نفسه. (المؤلف).

وبذلك يمكن الاقرار ان فتح مكة لا يجوز إرجاعه الى العامل الجزئي، الذي يتناوله - عادةً - أغلب كُتاب السيرة والباحثين، وهوالانتصاف لخزاعة من قريش، بل هو مشروع كفاحي عريق، وهدف مركزي واستراتيجي في الدعوة المحمدية، هيأ له محمد جميع مستلزماته البشرية والعسكرية والاقتصادية والسوقية والسياسية، مع تأمين كافة الشروط والتكتيكات الملائمة لذلك.

وكان فتح مكة إيذاناً بسقوط القبلية التسلطيّة، والتناحرية، عقلية وسلوكاً، وإحلال التآخي الذي اعطى لأمة العرب معنىً جديداً للحياة.

وتلا محمد الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وتحت صيحة الحق: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، تهاوت الاصنام؛ وتحررت الكعبة منها، وعادت بيت الله.

---

(١) محمد حسين هيكل: المصدر (المؤلف) والآية ١٣ من سورة الحجرات (المحقق).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

كـذلك تحررت مكة من عنجهية أسياد قريش، وتحررت قريش من خوفها من غضب النبي جزاء ما ألحقت به من عذابات لا توصف، مع صيحة الرسول: «فاذهبوا فانتم الطلقاء»[1].

(١) عـن ابـن اسحاق: ان رسول الله - بعد فتح مكة - قام على باب الكعبة وقال: لا إله إلاّ الله وحـده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة اودمٍ أومـالٍ يدعـى فهـو تحت قدميّ هاتـين، إلا سـدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة؛ مئة من الأبل أربعون منها في بطون أولادهـا، يامعـشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس مـن آدم، وآدم مـن تراب، ثم تلا هذه الآية «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى...» ثـم قـال يـا معشر قريش ماترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وأبن أخ كريم، قـال: اذهـبوا فأنـتم الطلقاء... انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين ج ٤: ص ٨٧٠ (المحقق).

الفصل السابع

الطريق إلى تعميق اكتشاف وتجسيد الهوية القومية

العروبة واكتشاف الذات القومية

بعد فتح مكة

كان فتح مكة منطلقاً مركزياً لاتمام عملية التحرير القومي للعرب، في الحلقات المتبقية. وما من شك في ان بعض قبائل العرب لم تستجب للدعوة الاسلامية، التي كانت العامل التاريخي الأول لبلورة الوجود العربي بلورة قومية، نظراً الى ان تلك القبائل كانت محكومة بقوة مصالحها القبيلة ذات البعد الطبقي.

وعلى الصعيد القومي، كانت العروبة قبل انتصار محمد احساساً منسحباً الى أضيق الحدود العشائرية، وكثيراً ما كان الاحساس العروبي يتمزق تحت وطأة الصراعات القبيلة الحادة بين العرب انفسهم، فكانت المباهاة بالعروبية تؤدي الى الاضرار بالعروبة، لأنها كانت تتحول الى خصيصة قبلية، بعبارة أخرى كانت العروبية تمر من خلال قناة قبلية، لذلك لم تتجاوز حدود الاحساس، فلم تصبح انتماءاً إلا في مستويات محدودة ؛ عاطفية بالتأكيد.

لكن، عبر فعالية محمد التأريخية، انصهر الوجود العربي بأطره القبلية في بوتقة الانتماء القومي؛ والوعي القومي اللذين أطلقا للعرب حرية التعبير عن انفسهم كأمة واحدة، لا كقبائل متناحرة. وقد تمَّ ذلك من خلال الاسلام، لا

من خلال أية أيديولوجية أخرى.

فالعرب- وذلك واقع تاريخي حاسم- اكتشفوا هويتهم القومية من خلال الاسلام، ولم تكن الديانتان اليهودية والنصرانية- قبل الاسلام- على صلة بالاحساس القومي العربي، وبالانتماء للعروبة، من داخل البيئة العربية. فهما ديانتان متصلتان إتصالاً أحادياً بأصول ومراجع غير عربية. فاليهودية كانت محدودة التوجه الى اليهود، من خلال الغاء السمات القومية للعنصر البشري (اذا ماجاز استخدام ذلك التعبير) بصهر تلك السمات والغائها نهائياً في اليهودية، محولة اليهودية الى بديل عن القومية وعن الانسانية.

على صعيد الديانة النصرانية كانت الرابطة الدينية تتوجه الى مرتكز خارج العرب والعروبة، (الى الروم مثلاً)، ولكن بعد تأجيج الشعور القومي للعرب من خلال الاسلام، وجد الكثير من النصارى العرب ارتباطاً فاصلاً بعروبتهم على صعيد الصراع بين العرب والروم.

فالاسلام الذي أعطى الدفع الثوري الأول للتبلور القومي لأمة العرب، نقل العرب من مواقع قبلية، الى موقع عربي قومي متماسك، كما انه أسهم في جذب أوساط وشخصيات اجتماعية عربية غير مسلمة (نصرانية بخاصة) الى مجرى الصراع القومي العربي، بقوة الوعي العربي، والاحساس العربي؛ ودور ذلك في صياغة موقف قومي ثابت، ومتطور عبر المراحل الأولى للقوة الاسلامية، وفيما بعد ذلك.

إذن، كان الاسلام هو المدخل التاريخي الاول الذي اكتشف فيه العرب

عـروبتهم إكتشافاً نقدياً جريئاً، متخلينّ- من خلال ذلك- عن ولاءاتهم الأولى: القبلية المتعصبة، والوثنية، وسوى ذلك.

ومـن مقـومات إكتـشاف الهـوية القومـية للعرب من داخل الاسلام، ان النبـي محمـداً عـربي أصـيل، وان القـرآن الكـريم جـاء بلغـة عربية وببيان عربي إعجازي.

أن ذلـك الطابـع العـربي الأصيل الذي اطلقته بأقصى طاقه، عروبة النبي وعـربيّة القرآن، أمدَّت العرب المتناثرين، والمتناحرين- طوال حياتهم- بأسباب الاتحـاد القومـي، والتحـرر، وتأسيس وجودهم القومي، على اشلاء قبلية وثنية عاجـزة، كـما انها- وهذا أمر شديد الأهمية- أمدّت العرب بطاقات جديدة ذات فعـل مـستقبلي أبـدي. وذلـك بتـزويد العرب بأمكانات الحضور والفعل داخل وسـط الأمـم والـشعوب التي اعتنقت (أو تعتنق) الإسلام، بفعل عروبة النبي، وعـربيّة القـرآن. أي ان الاسـلام حـلٌ- أساسـاً- مشكلة التناقض بين القومية والعالمية حلاً قوي النضج، ومبكراً تماماً، أبان ثورة محمد الساطعة في التاريخ.

فلم تكن عملية اكتشاف الهوية القومية للعرب، في سياق بناء وجود قومي يـتكامل حيـناً بعـد حـين، مـتجهة الى عنـصرية قومية، شوفينية ظالمة، بل كانت اكتـشافاً للوجـود القومـي، والحـضور القومـي، إنـما كان يتم في إطاره الانساني العريض، إطار التآخي البشري الذي يسوسه سلطان الحق، لا غيره.

لـذلك كانـت كـتائب الإسـلام الأولى (وهـي كتائب العروبة) تجذب الى صفوفها رموزاً بارزة في الإسلام، من قوميات أخرى (مثل سلمان الفارسي الذي

قال عنه محمد ﷺ: «سلمان منا آل البيت»[1]، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، الخ...).

لقد حمل الاسلام منذ البدء مسؤولية الانتماء العربي، كقومية لا كعرق، دفاعاً عن حقهم- أي العرب- في الحياة الحرة الموحدة، لكن في الوقت نفسه، بشمولية اسلامية، إنسانية، تتحول فيها مفاهيم الحق والعدل والصدق من تجريدات الى تطبيقات فعلية.

من هنا كان سلمان الفارسي منتمياً الى وسط العرب- بيئة وفكراً ولساناً وكفاحاً- بمنظور الاسرة البشرية الكبرى، التي تتحد فيها الأمم والشعوب والقوميات والأقليات تحت راية حكم الحق والعدل، والتساوي بين الناس في الحقوق والواجبات.

من الناحية التأريخية، كانت خطوات محمد التحررية ورسائلهُ الى الحكام الفرس والروم، تمهد لتعبئة واسعة لتحرير مكة، حيث قبلة الاسلام. لكن بعد فتح مكة، تجاوز الأمر حدود التعبئة التي تركزت في قاعدتها في (المدينة)، وأصبح الأمر هو كيفية الانتقال من دولة بلدية اسلامية في المدينة، متسعة

---

(١) أنظر ابن هشام في السيرة تحقيق محي الدين ج:١ ص ٤٦، ج٣: ص٧٠٨، الطبقات الكبرى ج٤: ص٨٣، ج٧: ص ٣١٩، تاريخ مدينة دمشق ج٤: ص٢٧٠، ج٢١: ص ٤٠٨، أسدالغابة ج٢: ص٣٣١، سير اعلام النبلاء ج١: ص ٥٤٠، تاريخ الطبري ج:٢ ص٢٣٥، البداية والنهاية ج٢: ص٢٢٧، ج٤: ص ١١٤، ج٥: ص٣٣٨ (المحقق)

ومتعاظمة، الى وضعٍ عربي اسلامي جديد، مستعيد في مكة المحررة لكعبة الاسلام، والرمز الأهلي العريق الذي ترتبط فيه ذكرى ابراهيم بنبوة محمد، في مسافة احتضنت في داخلها الرسل والانبياء، ثمَّ اختتمت بمحمد رسول الله، خاتم الرسل والانبياء.

بعد إنتصار مكة التأريخي المجيد الذي تدشن بلا دماء معبراً اعظم تعبير عن انحياز العروبة الى نفسها، بنحو فريدٍ من نوعه، أحكمت التخطيط له وادارته فكرياً وعملياً عقلية محمد المهتدية بالنور الأهلي، أخذ اعداء التطور القومي الجديد، والانساني المميز، يثير حفيظة نمطين من الاعداء: العدو الداخلي، والعدو الخارجي. كان العرب من هوازن وثقيف في أشد الاستياء من استعادة مكة الى روح محمد، ومن استمرار هيبة مكة وتعاظمها بعد الاسلام إكثر مما كانت في العهد الوثني.

لقد استكثروا ذلك على محمد الذي ظهر أمامهم بمنتهى الخطورة، كما استكثروا على مكة هذا الانحياز المدهش، الذي كان خيار الأكثرية، وعظمة القرار المحمدي. وتحركت الدوافع الاقتصادية التي كانت تحكمها المنافسة التقليدية (بين مكة والمدينة والطائف) بصورة متشددة، فكان اعلان هوازن وثقيف الحرب على الاسلام حال فتح مكة.

استطاع محمد ان يجابه هوازن وثقيف، ويحاصر الطائف، ويضربها بالمنجنيق، وربما كان سلمان الفارسي صاحب فكرة حفر الخندق في معركة

الاحزاب- هو- أيضاً – صاحب الفكرة، وربما سواه[1].

لكن الطائف كانت شديدة التحصين، وكان محمد يراقب صمود الطائف بقلعتها المنيعة، وذكرى مطاردته من قبل غوغاء الطائف، ورميه بالحجر، وبالأشواك التي تدمي قدميه، تدق في دماغه، لا لأنه نال من الأذى الشيء الكثير حينما كان يأمل- من الطائف – طيف رحمة، فقد نال ما نال من الأذى الكثير، قبل طواف الطائف وبعده، لكنه جاء الطائف باحساس السلام على مدينة العنب والشجر الجميل، المدينة التي لا تحتاج الى وثن، كانت مكة مدينة حجرية، في كل شيء، وكانت ألهتها أحجاراً وأشياء جامدة، لكن الطائف لماذا كانت وثنية، حجرية، لماذا؟

---

(١) يقول اليعقوبي في تاريخه: حفر الخندق كان في معركة الأحزاب بعد فتح مكة في السنة السادسة بعد مقدم رسول اللهﷺ بخمسة وخمسين شهراً، فاجتمع خلق من قريش إلى موضع يقال له سلع، وأشار عليه سلمان الفارسي أن يحفر خندقاً، فحفر الخندق وجعل لكل قبيلة حدّاً يحفرون إليه، وحفر رسول اللهﷺ معهم حتى فرغ من حفر الخندق (انظر المصدر ج٢: ٥٠، والنظر السيرة لأبن هشام ج٣: ٧٠٢ تحقيق محمد محي الدين.

وكان رسول اللهﷺ يشاركهم في حفر الخندق ويتمثل بأبيات لعبد الله بن رواحة:

اللهم لولا انت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا ... وثبت الاقدام ان لاقينا

ان الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة ابينا

انظر صحيح البخاري ج٤: ص ٢٥ (المحقق).

راقب- بوحي تلك الذكرى المريرة- ذلك الحصن المنيع للطائف، وهوحصن حجري أيضاً، لكنه كان يفكر كثيراً ان الطائف لن تكون ما كانت عليه، إنها ليست عاشقة الحجر فقط، ان وثنها هوأعنابها، تجارتها وعشقها. ترك- إذن- المنجنيق، والحصار، والهجوم، مُختاراً ضرب الطائف في صميم عشقها السري، وتعبدها اللاواعي، كان ذلك إنتصاراً رفيعاً، بالتحريق الذي اعمله في نخيلها بعد المحاصرة، وجاء الحق الى اهله، بقوة إنحياز العروبة الى العروبة، ذلك ما قالته أخت محمد في الرضاعة: الشيماء بنت الحارث ابن عبد العُزّى.

كانت القوة الاسلامية المتعاظمة، تحرص على تأمين الحدود الآمنة للوطن العربي، وقد جاءت أنباء تفيد بأن الروم يتهيأون لتوجيه ضربة ضد القوة الاسلامية هذه، وهم يأملون ان تكون هزيمة المسلمين نهائية، ليس مثل ما جرى في معركة (مؤته) التي انهزم العرب المسلمون فيها، لكن الجيش بقيادة خالد بن الوليد برع في إنقاذ نفسه، وتحقيق التراجع، والعودة الى موطنه الذي انطلق منه[1].

وهناك من يرى ان الروم لم يكونوا مستعدين لاعلان الحرب ضد المسلمين[2]، وبصرف النظر عن التباين في وجهات النظر وبيان أسباب غزوة

---

(١) أنظر مسند أحمد بن حنبل ج٦: ص٢٧، سنن البيهقي ج٨: ص ١٥٤، مجمع الزوائد للهيثمي ج٩: ص ٣٤٩، عن عبد الله بن جعفر قال: ان رسول الله ﷺ لما نعي أهل مؤتة، أعطى الراية الى سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه، أنظر سير اعلام النبلاء ج ١: ص ٣٦٦، مسند أحمد بن حنبل ج١: ص ٢٠٤ (المحقق).

(٢) وهوالرأي المعتمد على كتاب المغازي للواقدي (المؤلف).

تبوك، فان الامر المؤكد ان الرسول قاد بنفسه جيش الاسلام، الذي سمي بجيش العسرة. ووصل الى (تبوك). فلم يجد أي أثر لجيش الروم، الذين تراجعوا الى معاقلهم داخل حدود بلاد الشام، حسب رأي، أو الذين لم يتقدموا أصلاً لمواجهة العرب، حسب الرأي الآخر.

من الناحية العسكرية برهن جيش الاسلام انه القوة العسكرية القوية الوحيدة في شبه الجزيرة العربية، وإنه قادر- فعلاً- على تحدي الروم وغير الروم. مما كان لذلك أثر كبير في تحجيم حركة اعداء العرب (من الروم والفرس) واطماعهم التي كانت تدخل حيز التنفيذ بسهولة وبلا انقطاع. كما كان لذلك دوره في زيادة تمتين وحدة القوات الاسلامية (في القوة الواحدة)، وفرز نسبة كبيرة من غير المؤمنين، والمنافقين، والمرتزقة الباحثين عن الغنائم والمكاسب الضيّقة دونما اهتداء.

وفي التحصيل الواقعي توصل القائد العظيم محمد الى تحقيق معاهدات حدودية مثمرة، فقد أتاه يوحنا بن رؤبه صاحب أيله، فصالح رسول الله واعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرُح، فاعطوه الجزية.

وكانت المصالحات الحدودية على الجزية وليس على الاسلام[1]. وقد

---

(١) ويذكر ذلك، باختصار، سيف الدين سعيد آل يحي: ان الذين جاءوا لمصالحة الرسولﷺ في تبوك هم باختصار:

١- صاحب (أيله) يوحنا بن رؤبه.. ومن معه في التجارة من اهل الشام واليمن واهل البحر.

أمـدت النـتائج الايجابية الكبيرة لغزوة (تبوك) التي لم يحدث فيها اصطدام حربي مـع الروم، قوى الاسلام منعة فوق منعة، وأدركت القبائل العربية التي لم تسلم بعـد، أوالتـي لا تـزال بـين بـين، في حدود النظرة الضيقة للمصلحية القبلية، ان الاسلام هو القوة المسيطرة والجاذبة. فأسلم من أسلم. وكان العام- بعد تبوك- عام الوفود التي دخلت في دين الله.

وكانـت الطائـف التي حاصرها الرسول ثم تركها على حالها، لاتزال على عنادها الوثني، بل انها قتلت أحد سادة ثقيف عروة بن مسعود لاسلامة.

فـوجدت الطائـف نفسها- اثر ذلك- محاصرة من قبل الوسط الاسلامي الكثـيف الـذي يحـيط بهـا. إذ «لم يـذهب دم عروة هدراً، فان القبائل التي تحيط بالطائـف كانـت قـد اسـلمت كلهـا، ولـذلك رأت فيما صنعت ثقيف بسيد من سادتها إثماً ونكراً، ورأت ثقيف من أثر ذلك انهم صاروا لا يأمن لهم سرب، ولا يخـرج منهم رجل الا اقتطع. وايقنوا انهم إن لم يجدوا سبيلاً الى صلح أوهدنة مع المـسلمين فمصيرهـم لا ريب الى الفناء. وائتمر القوم فيما بينهم، وتحدثوا الى كبير منهم (عبد ياليل)، كي يذهب الى النبي يعرض عليه صلح ثقيف معه.

وكانت المصالحة على الجزية وليس على الاسلام.

٢- اهل (جَرْبا) و(أذرح) من أدنى أرض الشام، وكانت المصالحة على الجزية وليس على الاسلام.

٣- أهـل (دومـة الجـندل) من أدنى ارض الشام نحوالصحراء.. وكانت المصالحة على الجزية ايضا وليس على الاسلام.

وهوبذلك يرد على القائلين بأن القبائل العربية الخاضعة للروم قد دخلت الاسلام (المؤلف).

وخشى عبد ياليل أن يصيبه من قومه ما أصاب عروة بن مسعود، فلم يقبل ان يخرج الى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين[١].

وكانت مطالب الوفد هي ترك صنمهم اللات ثلاث سنين لايهدم، واعفاءهم من الصلاة، مع استعدادهم للاسلام.

فقابلهم النبي بعقائدية اسلامية حاسمة، و«أبى عليهم ما طلبوا من ذلك أشد إباء. ولقد نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين، ثم ان يدعها سنة، ثم ان يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم الى قومهم، لكن اباءه ذلك كان حاسماً لاتردد فيه ولا هوادة. وكيف تريد من نبيّ، يدعو الى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية، أن يتهاون في أمر صنم منها، وان كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف! فالانسان اما ان يؤمن، وإما ألا يؤمن، وليس بين الطرفين الا الارتياب والشك. والشك والايمان لايجتمعان في قلب كما لا يجتمع الايمان والكفر. وبقاء الات طاغية ثقيف علمٌ على انهم لا يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جل شأنه. وهذا اشراك بالله، والله لا يغفر ان يُشرَك به. وطلبت ثقيف اعفاءها من الصلاة، فرفض محمد قائلاً: «إنه لا خير في دين لا صلاة فيه...»[٢].

---

(١) محمد حسنين هيكل (حياه النبي)، المؤلف، وأنظر السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين ج٤: ص ٩٦٥ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف) وأنظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين ج٤: ص ٩٦٧ وتاريخ الطبري ج٢: ص ٣٦٥، البداية والنهاية ج٥: ص ٣٦، والسيرة النبوية لأبن كثير ج٤: ص ٥٦ (المحقق).

انتهى الأمر باسلام الطائف، بعد هدم اللات، وبذلك «كانت الحجاز كلها قد أسلمت، وكانت سطوة محمدﷺ قد امتدت من بلاد الروم في الشمال الى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضم الى الدين الجديد، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كل قوتها. وكان وفودها تسير بذلك من جهات مختلفة، قاصدة كلها الى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالاسلام»[1].

القومي والأممي (خلاصة):

في الحديث عن علاقة الاسلام بالقومية، وبالأممية، ينبغي التمييز بدقة في المعاني في العبارات والمصطلحات الايديولوجية، والسياسية.

ذلك لأن الالتباسات والتداخلات بين المعاني كثيرة جداً، وهي ناتجة- غالباً- عن المرض القديم- الجديد، مرض التعصب في الانحياز، الى الفكرة، وهو إمتداد التعصب للقبيلة، الذي هو- بذاته – ذاتية مفخمة من خلال القبيلة.

فبعض الذين ينظرون الى الاسلام ديناً للبشرية عموماً، ينكرون القومية ويتصدون اليها بإسم الدين وكأنها خطر داهم. وبعض الذين ينطلقون من الفكرة القومية... يترددون في استيعاب المعاني الحضارية للاسلام.

ولا مناص من التأكيد على ان الديانات تتجه الى البشرية عامة، وخاصة الاسلام، حسبما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

وَنَذِيرًا﴾[١] و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٢].

إلا ان ميزه الاسلام، انه بتوجهه الى البشرية، كان يحقق حضوره الواقعي في الوجود العربي، لأن ذلك التحقق هوالسبيل الوحيد لانتشار الدين الاسلامي انتشاراً عالمياً. حينذاك كان الجسد العربي غير مُحدّد قومياً إلاّ بتعبيرات مجزأة وبأساسٍ وجداني.

فاستطاع الاسلام ان يحقق عملية التوحيد القومي للعرب، بالدلالتين السياسية والحضارية. فكان في مرحلته تلك دين العرب- مجازاً- لصياغته الوجود العربي صياغة قومية تحررية بليغة، أي ان الدين الاسلامي أطلق فاعلية اللغة العربية، والوعي والحس القوميين، وكافة شروط التكون القومي، على طريق بناء الامة العربية.

وقد عَجَّل في عملية البناء القومي للأمة العربية اختيار أسلوب الكفاح التحرري ضد الهيمنتين الرومية والفارسية. ومن غير الممكن إسقاط مرحلة تاريخية عظمى، هي مرحلة تأسيس الوجود القومي للعرب من خلال الاسلام، من قبل أيٍ كان. هذا من جانب، أما من جانب آخر، فان استكمال التحرر القومي للعرب، هيأهم لتأدية دور عالمي، هونشر الاسلام بين أمم وشعوب العالم. ومن المؤكد ان هذا الدور لم يكن ممكناً اداؤه، فيما لوكان العرب قبائل

---

(١) سورة البقرة (المؤلف) سورة سبأ، الآية:٢٨ (المحقق).

(٢) سورة سبأ. (المؤلف) سورة الأعراف الآية:١٥٨ (المحقق).

شتى، متناحرة.

بكلمة محددة، ان عالمية الاسلام (أمميته، بشريته، الخ) تحققت- تأريخياً- من خلال العرب، الذين أصبحوا بفضل الاسلام أمة واحدة.

ان هذا الوضع الدقيق أتاح للعرب- أيديولوجياً وتأريخياً- إمكانية الربط الجدلي بين القومية والأممية. لأن العرب اكتشفوا قوميتهم العربية (أيام كانوا أشتاتاً) من خلال ديانة الاسلام البشريه، العالمية.

وقد انطلقوا- إي العرب- الى العالمية، من خلال الحقيقة القومية المتجسدة تأريخياً. إن هذه الاتاحة هي سمةٌ تأريخية للأمة العربية، بموجبها تسقط كل عنصرية (شوفينية قومية)، وكل عالمية رافضة لخصائص الوجود القومي للامم والشعوب في العالم. وقد لخصت الآية القرآنية ذلك أوجز واعظم تلخيص بالقول:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وشهادة الرسول على ذلك، تقدم إضاءةً واسعة للعلاقة بين الفرد، والجماعة، والأمة، والبشرية جميعاً.

لأن الرسول كان- بطبيعته وبفكره- يُجسّد وحدة هذه العلاقة تجسيداً تاماً، ويدعوا الى إنشاء صورة واقعية لها، بالغاء العوامل الذاتية والموضوعية،

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٤٣ (المحقق).

للتناحر بين الأفراد، والجماعات، والأمم، والشعوب.

وقد عَبرَّ عن تجسيده هذا في حديثه:

«بُعثتُ الى الناس كافة... فإن لم يستجيبوا لي، فإلى العرب ... فإن لم يستجيبوا لي، فإلى قريش ... فإن لم يستجيبوا لي، فإلى بني هاشم ... فإن لم يستجيبوا لي، فإليَّ وحدي»[1].

(١) أنظر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج١: ص ١٩٢، وعنه في كنز العمال ج١١: ص ٤٢٧ (المحقق).

الفصل الثامن

الواقعية المحمدية

وعبقرية التطبيق السياسي

واقعية محمد وعبقرية التطبيق

ثمة روايات وأخبار عديدة عن عدد الأنبياء والرسل، ومن أشهرها روايه أبي ذر الغفاري القائل: «ان الانبياء مائة واربعة وعشرون الف نبي، والمرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبياً»[1] وقد حمل كل نبيّ ورسول أعباء مسؤولية النبوة والرسالة، ضمن خصائص المجتمعات وظروفها المتميزة، وفي ظل حقب تأريخية قديمة.

فجاءت الرسالة المحمدية، بعد ذلك السياق التأريخي الطويل لتعاقب (النبوة) و(الرسالات)، بمثابة تتويج جامع وشامل لها، مستوفية انجازاتها الأصيلة، ومضيفة اليها إنجازات جديدة متميزة.

وفي القرآن إشارة واضحة الى وجود «تفاضل» بين الانبياء والرسل، كما نصت الآية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ..﴾[2]، والآية: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[3].

---

(١) ذكر السيوطي في كتابه الدر المنثور ج٢: ص ٧٤٦ روايه أبي ذر وقال أنها أشهر رواية عن النبيﷺ: إن الانبياء مائه وأربعة وعشرون ألف نبي، والمرسلون منهم ثلاثمائة (المحقق).

(٢)سورة البقرة الآية:٢٥٣.

(٣) سورة الأسراء الآية:٥٥.

و«يمكن ان يفرق بين شرائع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى قبل رسوله محمدﷺ من وجهين: أحدهما ان شرائعهم لم تكن جامعة لأحكام الله في الدين والدنيا، ولكنها كانت تتعلق بجوانب من الهدى. الوجه الاخر: ان رسالاتهم لم تكن للناس كافة كشريعة القرآن إذ يقول الله تعالى لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[1] و﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[2].

و«حكاية تعدد الرسالات وتتابعها على هذا النحو ان سنة الله في الكون تأخذ بالتدريج والتطور وتنكر الطفرة كما تنكر الجمود. فكانت الرسالات السابقة بمثابة تمهيد للرسالة المحمدية، وإعداد للبشرية ان تنتقل الى طور جديد من أطوار الحياة الفاضلة، تبلغ فيه رشدها وتأخذ طريقها الى النضج الحضاري واكتمال الشخصية الانسانية باعتبارها خليفة عن الله في الارض»[3].

إن الحجر الاساس في الرسالة المحمدية إعادة بناء واقع الانسان والمجتمع بضوء الايمان والهدى، وإجراء التغيير الواقعي في حياة البشر وتفكيرهم، أي ان الجانب العملي في الرسالة المحمدية ذو خصوصية شديدة التفرد.

وفي حقيقة الأمر ان قدرة محمد على تطبيق افكاره هي قدرة عبقرية لا يجود

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨ (المؤلف).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩ (المؤلف).

(٣) طالب الحسيني الرفاعي: (محمد وموقفه من الانبياء والرسل السابقين) (المؤلف).

الـزمن بمـثلها،وقد كان عقله الجبار المدعوم بالايحاءات الأهية، يستنبط قرارات العمـل بعد دراسة مستفيضة لطبائع البشر والإشياء في واقعها المحدد، فلم يكن تعاملـه مع الحياة حاصلاً إلا بقوة دفق الحياة الذي يتمتع به، والذي امتلك ذروة العقل النقدي.

وإذا أراد أحـد ان يتخـيّل صـورتين لنبـي (أو رسول) احداها هي صورة المـتأمل، القـديس، الـزاهد، النـصوح، الـواعظ، والاخـرى هـي صورة القائد المكـافح الذي يشق غمار الحياة وغمرات الاحداث بقوة الارادة مسنوداً بالدعم الأهـي، وموظفاً طاقاته الحيوية الكبرى: العقلية والنفسية والجسدية في منحناها الروحـي الفـذ، في كفاحه المجيد، فان الصورة الاخرى مقاربة لصفات محمدﷺ بما عليه من قداسة لقد تقدست الحياة في المفهوم المحمدي، بالحياة نفسها، وليس بالانعزال عنها، والعيش في هامش منها.

وقـد وضـع في الاعتـبار الاول أسـتخدام العـضوية الحياتـية لـوظائفها الحـيوية، استخداماً نشيطاً، متطوراً، يتناسب مع كون الانسان أرقى المخلوقات، وسيد الطبيعة، بالروح وبالعقل.

وينتمـي الانـسان الى الدنـيا، إنتماء الحي الى الحياة بشرط تطوير عناصرها النظيفة وأنسنتها، وتجنب الفساد والافساد تطبيقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَـنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ

فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

لـذلك لم يلغـي محمد الحياة الدنيا، ولم يهجرها؛ بل استنفذ الحياة فيها بكل ما أتاه الله من خير وحق، وقد قال: «لا تسبوا الدنيا فلنعم المطية للمؤمن، عليها يبلغ الخير، وعليها ينجومن الشر»[٢].

لقـد هدف- دائماً- إصلاح الدنيا من أجل الانسان المؤمن بأن الملك ملك الله لا ملـك البـشر الفانـين، الـذين يقتلون الاخرين دفاعاً عن وهمهم بأن الدنيا إقطاعـاتهم الخاصـة، لقد أراد إصلاح الدنيا لا هجرها. فقال:«اصلحوا دنياكم، واعملوا لآخرتكم»[٣].

إن اطلاق الأبعاد الصحيحة والغنية للحياة الماثلة في الانسان لخير الانسان والكائـنات الحية عموماً هوالخليفة الكبيرة، التي يمكن من خلالها فهم النشاطية العجيـبة، للرسـول في تأديـة المهـمات الـسياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تـولى- عـبرها- قـيادة مجـتمع صـعب القيادة، كذلك يمكن- من خلالها- فهم قدرته الثاقية على معرفة قدرات البشر وامكانات التغيير.

وينبع حبه للناس، وسعيه العبقري من إجل إنقاذهم من واقعهم الوثني-

---

(١) سورة القصص (المؤلف)، سورة القصص الآية:٧٧ (المحقق).

(٢) انظر كنز العمال للمتقي الهندي ج٣: ص ٢٣٩ (المحقق).

(٣) ومـثله حكمـة الإمام الصادقؑ: «عليكم بحسن الصلاة واعملوا لآخرتكم واختاروا لأنفـسكم فـإن الـرجل قـد يكـون كيـساً في امر الدنيا، فيقال ما أكيس فلاناً وإنما الكيس كيس الآخرة» (المحقق).

الـربوي الفاسـد، مـن إدراكـه الـتام لقيمة الحياة، التي هي عطيّة الله. إن عوامل إفـساد الحـياة هي اعتداء على المنحة الأهية، وهي عدوان صارخ ضد حق الحياة، الذي هوحق ثابت ومشروع للانسان لايمكن سلبه، ولا قهره.

وعبقرية محمد التطبيقية، ذات مراتب من الأهميات لا حدود لها، نظراً الى ان الرسول لم ينشغل بحلول فردية، وباصلاحات جزئية، بل كان منصرفاً بكليته الى قلب عالم جزيرة العرب، ومن ثم التوجه الى البشر كافة.

وبالعـودة الى حقـيقة الانقـلاب الاسـلامي الهائـل الـذي قادتـه وحققته وجسدّت أعظم مضامينه القيادة المحمدية، يمكن استيعاب الخصائص الجوهرية في العملـية القـيادية، لمحمـد ؛ والتـي جعلت من اليتيم، راعي الغنم، والمطارَّد، والمدمى تحت وطاة الملاحقات العدوانية، قائداً لا حدود لسلطانه الاسلامي.

العبقرية السياسية لمحمد:

يعطـي أنمـوذج (المدينـة المـنورة) دروسـاً عديـدة في مـستويات العبقرية الـسياسية لمحمـد، في المراحل المختلفة إذ ان الخطوات المتعاقبة التي ابتدأت منذ محـاصرة قريش لمحمد في مكة، وتواصلت باجتماعة ببعض اهالي يثرب القادمين الى مكـة في مواسـم الحـج، وتطـور ذلـك الى الهجـرة الى يثرب، وتتويج المسيرة بتحويل يثرب الى معقل الاسلام، هي خطوات تفصح عن قدرة تخطيطية متصلة الحلقات، وهي أبعد ما تكون عن العفوية، والارتجال.

فحـين كانـت مكـة تُـضيق الخـناق على محمد وأصحابه، كانت فرصته في

مغـادرة مكة، غير واردة، ذلك لأن ميدان عمله في مكة كان ميداناً أساساً، فمكة هي مسقط رأسه وأهله وعشيرته، وهي المكان الذي يحتضن البيت العتيق، وهي مهبط الوحي، ومبعث الرسالة، وبالتالي هي هدفه في مسعاه النبوي والرسالي.

إن مجـرد مغـادرة مكـة، يـبدو وكأنـه مغـادرة لكـل هذه المعاني الأساسية لحقيقته الشخصية. كانت الامكانية (البادية كامكانية وحيدة) هي العمل في مكة في ظـل الشروط المتوفرة فيها، وحسب القدرات الممكنة له ولأصحابه، بما يؤديه ذلـك الى نـتائج يـصعب الـتكهن بهـا. ولكن عقل محمد أدرك ان مكة لاتسمح أطرها الثقيلة بأن يستمر فيها نبي ورسول.

لقـد اغلقـت أبـوابها الوثنية الثقيلة على أرضها وسمائها، فلم تتنفس غير هواء الشياطين.

بـلا شك انه استطاع معرفة نقاط الضعف في القلعة الوثنية، لكنه أدرك ببصيرة نافـذة ان العمـل ضـمن هـذه المعرفة لن يؤدي الى النتائج الكبرى التي تمخضت عنها الاحداث اللاحقة.

فكان اختيار العمل من مدينة أخرى قراراً نادراً لم يباشره- في التاريخ- من قبل ومن بعد، خاصة في منطقة مثل الجزيرة العربية، كانت لكُلّ مدينة سلطتها الخاصة، في عـالم مـن الصراعات الرهيبة. وقد منحتهُ تجربة ذهابه الى (الطائف) فائدة عملية، على مـستوى إبـلاغ الدعودة وتطوير أساليبها. إنما كانت دراسته لطبيعة يثرب الاجتماعية والدينـية، والاقتـصادية؛ هـي التـي حـددت المـؤشرات القادمـة للعمـل الـسياسي والعسكري.

تقليدياً، كان محمد يبحث عن الناس القادمين من وراء مكة الى البيت العتيق لتأدية فروض الحج والعمرة، وكان يعمد الى إنتهاج اسلوبين: اسلوب اللقاء بالشخصيات ذات النفوذ القبلي والاجتماعي، لآن كسبها كان يؤدي الى كسب جماعاتها[1].

أما الأسلوب الآخر، فكان الاتصال المباشر بالناس عامة، أي الجماعات الشعبية مباشرة.

ويثرب مدينة قديمة تأسست قبل الف وستمائة سنة قبل المسيح، أو٢٢٢٢ سنة قبل الهجرة، وقد سميت باسم يثرب، إبن عبيل بن عوص بن إرم بن سام من رؤوس العمالقة، وقيل- ايضاً- ان اول من سكنها هو يثرب بن قاين بن مهلاييل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وهي مدينة قبلية، ضمَّت الأوس والخزرج وثلاث قبائل يهودية هي بنوقينقاع، وبنوالنضير، وبنوقريظة، ولم تكن يثرب تعرف حكماً سياسياً، كما ان الانموذج المكي كان بعيداً عن طبيعتها، ذلك لأن الطابع القبلي لها مختلف تماماً عن الطابع القبلي لمكة. ففي مكة كانت قبيلة قريش هي المسيطرة،؛ وقد توزعت مسؤوليات ووظائف الادارة فيها، بيوتاتها وأسرها الكبيرة، وهي ممثلة في رئاسة دار الندوة ؛ واللواء (رمز لقيادة الجيش).

و(الحجابة (وهي خدمة الكعبة وفتح بابها)، والسقاية (وهي سقي

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ج٢: ص ٣٧-٣٨ ، البداية والنهاية ج٣: ص ١٨٢ (المحقق).

الحجيج)، والرفادة (وهي اطعام من لازاد معه من الحجاج)[١] وفي ذلك نوع من التنظيم، حسبه كارليل حكومة هي «ضرب من الجمهورية الأرسطوقراسية عليها صبغة دينية»[٢].

وحيث لم تستطع يثرب مضاهاة مكة؛ فانها كانت عاجزة عن تأسيس دولة على غرار دول المناذرة؛ والغساسنة وكندة. نظراً الى ان الحرب بين الأوس والخزرج، والدور الانقسامي، التصفوي لليهود، كانا يعرقلان أي نمو سياسي باتجاه إقامة حكومة، أو أي تنظيم إداري متقدم نوعاً ما.

وارتبطت فكرة تأسيس شكل إداري يقود يثرب وينظم حياتها؛ بأطماع شخصية عبدالله بن أبي بن سلول[٣]، التي كانت تخطط باتجاه الهيمنة على يثرب، وأن يكون أميراً لها.

لذلك لم تتحقق خطوة واحدة- ولوصغيرة- على هذا السبيل. واكثر من ذلك كانت أطماع تلك الشخصية الارستقراطية- المالية، تسهم في تعميق الأزمة الداخلية للحياة في يثرب.

---

(١) ابراهيم علي سالم: «النفاق والمنافقون- عرض- (المؤلف).

(٢) توماس كارليل: «الابطال» (المؤلف).

(٣) لعبا دوراً نفاقياً كبيراً في زمن الرسول حتى نزلتا فيه كثير من الأيات ومنها الآية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. انظر الطوسي في الرسائل العشر: ص ١٣٢.

وحين التقى محمد[١] باليثربيين، كان يستشف من خلالهم صدق دراسته لواقع يثرب المدينة التي طحنتها حروب الاخوة- الاعداء: الأوس والخزرج، وكانت آخر معركة (بُعاث)[٢] قد أنهكت الأوس والخزرج، واستنزفت المدينة استنزافاً كبيراً، استثمره اليهود- كعادتهم- استثماراً شيطانياً لتعزيز سيطرتهم الطبقية، وتوسيع نطاق نفوذهم الديني، ان يثرب (وهي محاطة بيهود خيبر، وفدك، وتيماء) وفي داخلها يهود من بني قينقاع وبني قريظة وبني النظير، ومعهم حلفاؤهم، كانت جاهزة للسقوط بيد اليهود، الذين يملكون المال، والقوة، والمواقع الاقتصادية، والعدد البشري، والدهاء.

كانت يثرب- إذن- المدينة المثالية لعمل محمد، فهي تحتاج إلى منقذ عربي يمنع استمرارها السير في درب الأنكسار، ويعزز مكانتها الأقتصادية، خاصة وانها تقع على طريق تجارة مكة، الشام من الشمال. أي ان انقاذ يثرب من أزمتها الكيانية العميقة، واستعادة وحدة أهلها، قمين بتحقيق دور متعاظم لها، في

---

(١) يرى البعض من الكتاب ان النبي وجد فائدةً جمةً من اقربائه لأمه من الخزرج، في هجرته، ودعمه، وذلك أمر لاغبار عليه، إلا ان المبالغة فيه لا داعي لها، مقاربة مع وضع يثرب الخاص، ووضع اليهود وكذلك وضع عبدالله بن ابي بن سلول وعلاقاته الداخلية والخارجية. (المؤلف).

(٢) تاريخ الطبري ج٢: ص ٨٥ والتنبيه والاشراف للمسعودي: ص ١٧٧ البداية والنهاية لأبن كثير ج٣: ص ١٨١ ويقول أبن خلدون و(بعاث) من أشهر الوقائع بين الأوس والخزرج قبل المبعث، أنظر تاريخ ابن خلدون ق ١ ج٢: ص ٢٨٩ (المحقق).

الضغط على مكة، في خطته الاستراتيجية التي تقع مكة في صلبها.

وبرؤيته النافذة أقدم محمد على إعطاء علاقته باليثربيين بعداً واقعياً تطبيقياً، أي بُعداً تنظيمياً سرياً. وكان ذلك إيذاناً بنشوء أول شكل من أشكال التنظيم السري الخلوي. إن المؤكد- هنا «ان الرسول حين اتفق مع الستة اوالسبعة من حجاج يثرب اعضاء أول خلية كوَّنها من خارج مكة[1]، على ان يعملوا على نشر مبادىء الدعوة بين أهل يثرب لا يعني انه ترك الأمور بغير تنظيم.. إذ لم يكن هناك أدنى ضمانات في ان لا يرتد هؤلاء المؤمنون الجدد عن ايمانهم وعن وعدهم بالعمل على نشر الدعوة.. خصوصاً وان مرور عام كامل وهو المدة الزمنية التي تفصل بين موسم وموسم آخر، كفيل بأن يوهن من عزيمتهم ويقلل من إندفاعهم خصوصاً وانهم لم يتلقوا التعاليم كاملة ويتفهموها بعمق وعن معرفة كاملة بحيث يكونون دعاة على مستوى عالٍ من الفهم والقدرة على الاقناع وعلى تجنيد آخرين. كذلك لم يكن هناك أي إتصال مباشر اوغير مباشر بين الرسول وبينهم طيلة العام. وانعدام الارتباط التنظيمي يؤدي بالضرورة الى تحلل أي جماعة وعدم انضباطها وترابطها وتشتت جهود

---

(١) ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية، كان هؤلاء من خارج مكة، أي من المدينة، وهم ثمان: ١- معاذ بن عفراء ؛٢- أسعد بن زرارة، ٣- رافع بن مالك، ٤- ذكوان ابن عبد شمس، ٥- عبادة بن الصامت، ٦- ابوعبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، ٧- ابوالهيثم ابن التيهان، ٨- عويم بن ساعدة. انظر المصدر ج٣: ص ١٨٣ (المحقق).

افرادها وفشلهم بالتالي»[١].

وكان لا بد من تأمين مسؤولين للخلايا أو الحلقات الاسلامية، وحين جاء العام الثاني للحج، وبعد ان جاء اثنا عشر رجلاً[٢]،كان ذلك يعني «ان الدعوة حققت نجاحاً أصبح يتطلب التركيز الشديد في العمل والتخطيط الكفء لانجاحه ولاستغلال هذا النجاح.. لهذا لم يكن ممكناً ان يترك الرسول الأمر في ايدي المسلمين الجدد وحدهم ودون تنظيم اكثر فعالية ودقة. إذ ان معرفتهم بالدين محدودة، وزيادة عددهم مع إنخفاض مستوى وعيهم سيؤدي حتماً الى ادخال تشويهات وتحريفات بفعل الاجتهادات الشخصية التي يمكن أن تحدث نتيجة للحوار بينهم وبين الذين يريدون تجنيدهم للدعوة الجديدة، خصوصاً مع وجود عدد لا يستهان به من اليهود في يثرب. كما وان الصلة مقطوعة بين الرسول وبينهم... أي بين القيادة الأيديولوجية وبين أنصارها الذين لم يصلوا الى مستوى كامل من الفهم والوعي... وبالتالي فان هذا التطور أصبح يتطلب تعيين مسؤول موثوق في قدرته وتشبعه بأصول الدين الجديد مع دراية بأساليب العمل والتنظيم، ومن هنا تم إرسال مصعب بن عمير الى يثرب، مع الأثني عشر مسلماً، ليشرف بنفسه على سير العمل وتخطيطه والتمهيد لمرحلة أخرى...»[٣].

---

(١) حسنين كروم: (نظريه الثوره والتنظيم) (المؤلف).

(٢) انظر تاريخ اليعقوبي ج٢: ص ٣٨ والبداية والنهاية ج٣: ص ١٨٢ (المحقق).

(٣) المصدر نفسه: (المؤلف) وانظر مسند أحمد بن حنبل ج١: ص ٣، ج ٤ ص ٢٨٤ صحيح

ولعبت الكوادر المكية دورها الطليعي في تنظيم الأنصار في يثرب، فكان ذلك صورة من الترحيل (بعد الهجرة) والتآلف المؤسس على رابطة تنظيمية ذات مضمون سياسي واقتصادي واجتماعي.

وهكذا فان أخوة المهاجرين والانصار، ما كان لها ان تصل الى مستوى الأخوة في الحقوق والواجبات، مالأخوة النسب، لولا الاساس العقائدي والقناة التنظيمية، اللذين عززا الألفة تعزيزاً عميقاً، مصداقية لقوله تعالى:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

القواعد الحقوقية والتنظيمية للدولة البلدية الجديدة في المدينة:

إن وحدة الأوس والخزرج، والانصار والمهاجرين أضحت الركيزة الاولى للوحدة السياسية لعرب المدينة، التي تحققت عبر خطوات تدريجية متكاملة سياسياً، واقتصادياً وعسكرياً بالمحتوى الاسلامي.

ويمكن القول ان الخطوات السياسية الرصينة، التي كانت معبرة عن

البخاري ج٦: ص ٨٢، سنن البيهقي ج٣: ص ١٧٩، وج ٩: ص ١٠ مجمع الزوائد للهيثمي ج٦: ص ٤١، ومسند أبي داود: ص ٩٦، المصنف لعبد الرزاق ج٣: ص ١٦٠ وسنن النسائي ج٦: ص ٥١٣، مسند أبي يعلى الموصلي ج٣: ص ٢٦٢، صحيح بن حبان ج١٥: ص ٢٩٠ (المحقق).

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٣ (المحقق).

إرادة الجماهير وتحظى بدعمها التام، قد أثمرت في تكوين (دولة بلدية) في المدينة، مستوفية عناصرها النواتية، وقد نظمتها المعاهدة التي أوعز بكتابتها رسول الله، بين المهاجرين والأنصار واليهود. وتعتبر المعاهدة المذكورة دستور الدولة البلدية، وهو أول عقد سياسي- اجتماعي. ينقل الحياة الاجتماعية من القبلية المتنافرة الى الوحدة السياسية لمجتمع يتبلور قومياً عبر الممارسة الاسلامية، وهو أول عقد سياسي عرفة التاريخ يضمن حرية العقيدة ويحميها.

وقد حث القرآن على الايفاء بالعقود والعهود، لتحقيق الوحدة السياسية للأمة المصغرة، وتقويتها، فقد ذكر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾[1] و﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

وتضمنت المعاهدة المبادىء الآتية:

- وحدة الامة المسلمة من غير تفرقة بينها.
- تساوي أبناء الامة جميعاً في الحقوق والكرامة، يُجير أدناهم على أعلاهم.

---

(١) سورة المائدة (المؤلف)، سورة المائدة الآية: ١ (المحقق).

(٢) سورة النحل (المؤلف)، سورة النحل الآية: ٩١-٩٢ (المحقق).

- تكاتف الامة كلها دون الظلم والاثم والعدوان والفساد كائناً من كان الظالم والمفسد.
- اشتراك الامة في تقرير العلاقات مع اعدائها، لا يسالم مؤمن دون مؤمن.
- تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها.
- مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام، ووجوب الامتناع عن نصرتهم.
- حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالماً متعاوناً، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم.
- لغير المسلمين دينهم وأموالهم، لا يُجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم.
- على غير المسلمين ان يساهموا في نفقات الدولة كما يُساهم المسلون.
- على غير المسلمين- في الدولة الاسلامية- ان يتعاونوا معهم لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان.
- وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال ما داموا محاربين.
- وعلى الدولة أن تنصر من يُظلَمُ منهم كما تنصر كل مسلم يُعتدى عليه.
- على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية اعداء الدولة ومن يناصرهم.
- اذا كانت مصلحة الأمة في الصلح وجب على جميع ابنائها مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا الصلح.
- لا يؤاخذن إنسان بذنب غيره ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.
- حرية الانتقال في داخل الدولة والى خارجها مصونة بحماية الدولة.

- لا حمية لآثم ولا لظالم.
- المجتمع يقوم على اساس التعاون على البر والتقوى لا على الأثم والعدوان.
- هذه المبادىء تحميها قوتان: قوة معنوية هي ايمان الشعب بالله ومراقبتهُ له ورعاية الله لمن برَّ ووفى. وقوة مادية هي رئاسة الدولة التي يمثلها محمدﷺ»[1].

وقد توفرت للدولة البلدية مؤسستها العسكرية (الجيش) بصورة رائدة ومتميزة. كما توفر للدولة جهازها الفني والسياسي ممثلاً بالكتبة، والمترجمين، والسفراء. فمن اسماء الكُتاب (علي بن ابي طالب) و(أبي بن كعب الانصاري) و(زيد بن ثابت) و(الأرقم بن أبي الأرقم الزهري) و(عبدالله بن رواحة الانصاري) و(معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي) و(الحصين بن نمير الانصاري) و(المغيرة بن شعبة) و(الزبير بن العوام) و(جهيم بن الصلت) و(حذيفة بن اليمان) الخ...

وقد كان اولئك الكتبة يتولون كتابة العقود والعهود والمواثيق والمراسلات، و«منهم من كان يحرر الشروط والمداينات والمعاملات المالية والمنح والاقطاعات التي تُعطى الى امراء الاجناد، أوالى من يرغب في احياء الارض واستصلاحها واستزراعها. ومنهم من كان يدوّن الاموال التي تجمع من الزكاة وغير من الصدقات. ومنهم من كان يكتب قوائم المحاربين في الجيش، ومقدار

---

(١) عزة الدين بليق: (منهاج الصالحين) (المؤلف).

العطاء الذي يخصُّ كل محارب وما يحتاجه في تجهيز نفسه للحرب من خيل وأدوات قتال»[١].

أما «المترجمون منهم الذين كانوا يقومون بأعمال الكتابة باللغات غير العربية الى غير العرب، وأيضاً بترجمة الرسائل غير العربية الواردة الى الدولة الجديدة كما كانوا يقومون بالترجمة بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام للخطب والاحاديث المتبادلة في حضرة السفراء والوفود القادمة من خارج شبه الجزيرة العربية... وفي مقدمة الذين ذكرتهم لنا كتب التاريخ. من الذين قاموا بعمل الترجمة هذا زيد بن ثابت الأنصاري النجاري «الذي كان يكتب للملوك، ويجيب بحضرة النبي وكان ترجماته بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية... تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن»[٢].

أما السفراء، فرغم اختلافهم واختلاف مهماتهم، فانهم كانوا جميعاً«من المتميزين بميزة جذابة، كالشجاعة؛ أو السابقة في الاسلام، أو شهود بدر؛ أوالدهاء، أوالصبر على المكاره، أوجمال الهيئة، أوانهم كانوا يكثرون التردد على الجهة التي بعثوا اليها»[٣].

و«هم لم يكونوا على نسق واحد. لقد اختار بعضهم رسول اللهﷺ مباشرة

---

(١) محمد عمارة: (محمد وأول دستور للدولة الاسلامية) (المؤلف).

(٢) المصدر نفسه: (المؤلف) إنظر صحيح البخاري ج٥: ص ٢١٠، وسنن البيهقي ج٦: ص ٢١١ (المحقق).

(٣) عزالدين بليق (المؤلف).

كعمرو بن امية، اختاره للنجاشي، وعمرو بن العاص اختاره لجيفر وعبد ابني الجلندي. وبعضهم تطوع من تلقاء نفسه على أثر الطلب العام الذي كان يطلقه رسول الله، كقوله: «أيكم ينطلق بكتابي هذا الى...» وكان يريد السفارة الى المقوقس، فتطوع لذلك حاطب بن أبي بلتعه»[1].

وكان في مقدمة السفراء (دحية الكلبي) الذي توجه برسالة الرسول الى قيصر الروم[2]. و(عبد الله بن حذاقة السهمي) السفير الى كسرى الفرس و(عمر بن عمير بن سلمة اللخمي) و(عمر بن أمية الضمري)، الخ...

ومن صور ذكاء السفراء، حوار المقوقس حاكم مصر مع السفير حاطب، ورد السفير عليه:

المقوقس: ما منعه ان كان نبياً ان يدعو ربه أن يسلط عليهم بعد ان خالفوه وأخرجوه؟

حاطب: ما منع عيسى عليه السلام ان يدعو ربه على قومه بعد ان خالفوه وأرادوا أن يقتلوه.

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف) وانظر كشف الغطاء ج١: ص ١٥ والطرائف لأبن طاووس الحسني:ص ٩٧ وتفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ج٣ ص ٢٨٦، والاصل في حديث حاطب، أنه كتب الى أهل مكة ان محمداً يغزوكم فخذوا حذركم، وفيه نزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ الممتحنة الآية: ١. أنظر السير الكبير للشيباني ج١: ص ٣٠٥ وقصص الانبياء للراوندي: ص ٣٤٥ (المحقق).

(٢) انظر صحيح البخاري ج٨: ص ١٣٦، مجمع الزوائد للهيتمي ج٨: ص ٢٣٤، فتح الباري لأبن حجر ج١: ص ٣٥ وج ١٣ ص ٢٠٥ (المحقق).

المقوقس: انت حكيم جئت من عند حكيم.

حاطب: ان دعاءنا أياك الى القرآن كدعائك أهل التوراة الى الانجيل، وكل نبيّ أدرك قوماً فهم أمته، وحقه عليهم أن يطيعوه؛ وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به...[1].

أما على الصعيد الاعلامي والدعائي، فان الشعراء «كانوا يتصدون لدعايات الخصوم وأكاذيبهم، فكانوا بمثابة أجهزة للاعلام والمناظرة والدعاية والاثارة والتوجيه..

ويذكر لنا التاريخ في مقدمتهم (حسان بن ثابت الانصاري) و(عبدالله بن رواحة) و(كعب بن مالك)...[2].

وقد كان لمراسلات الدولة شعار رسمي هو الخاتم الذي أصطنعه رسول الله لهذا الغرض، وكان لهذا الخاتم من يختص بحمله وهو(المعيقب بن ابي فاطمة الدوسي) حليف آل سعد بن العاص...»[3].

كما «أقامت الدولة (دار ضيافة) عامة ينزل فيها الزوار والوفود.

ولقد اتخذوا لذلك (داراً واسعة فيها نخل) هي دار (رملة بنت الحارث

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف) تاريخ اليعقوبي ج ٢: ص ٨٧ تاريخ الطبري ج٢: ص ٢٨٩ (المحقق).

(٢) محمد عمارة: المصدر (المؤلف).

(٣) المصدر (المؤلف) وانظر الآحاد والمثاني للضحاك ج١: ص ٢٣٧ والمعجم الكبير للطبراني ج٢٠: ص ٣٤٩، وكنز العمال ج١٠: ص ٩٦ (المحقق).

النجارية)،... وممن كان يقوم على أمر دار الضيافة هذه (خالد بن سعيد بن العاص) و(بلال بن رباح) و(ثوبان) غلام الرسول ﷺ»[1].

الوالي العادل وعلاقته بالمواطن:

واعتمد الرسول على شخصيات اسلامية عالية الجدارة في حكم الأقاليم، وفي القبض على زمام الادارة، وقد عرفت دولة المدينة منذ وقت مبكر نظام الحكام الاداريين على المدن والاقاليم... و«اول ما عرفت هذا النظام عرفته في المدينة، العاصمة، عند ما كان الرسول ﷺ يغادرها على رأس الجيش المحارب في الغزوات... فكان يستخلف على العاصمة من ينوب عنه فيها مدة غيابه عنها... وممن قام مقام الرسول في مهمة الحكم السياسي والاداري هذه، في تلك الفترات، (علي بن ابي طالب) و(سعد بن عبادة) و (محمد بن سلمة الانصاري)...»[2].

وتعتبر مسؤولية الحكم في الاسلام مسؤولية خطيرة، تنبيء عنها الآيات الكريمة:

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف) وانظر مسند ابن راهويه (٢٣٨هـ) ج٥: ص ١٠ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف) انظر سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ج٥: ص ٤٤٢ وذكر بعض المؤرخين أن أبو رهم كلثوم بن حصين بن خالد بن العسعس الغفاري، استخلفه النبي ﷺ على المدينه ١٣ مره ومنها في غزوه فتح، انظر الاصابة ج: ٤ ص ٧١، تهذيب التهذيب ج٨: ص ٤٤٣، أُسد الغابة ج٤: ص ٢٥، الاستيعاب ج٣: ص ٣١٦، السقيفه وفدك للجوهري: ص ٤٧ (المحقق).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١]، تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[٢] و﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[٣].

إن هذه المساءلة والحساب أمام الله الرقيب، تضع للحكم والحاكم شروطاً شديدة في الحق والعدالة على أساس وحدة المسؤولية التي أخبر عنها محمدﷺ بحديثه:

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته...»[٤].

إذ ان مصلحة المجتمعات لا تتحقق، الا بتوفر جملة شروط، في مقدمتها شرط الإمام العادل، والحليم، الذي يحب الناس ويحبونه.

فكما ورد في الحديث النبوي:

«خيارُ ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم...»[٥].

---

(١) سورة الحجر (المؤلف) سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣ (المحقق).

(٢) سورة النحل (المؤلف) سورة النحل الآية: ٥٦ (المحقق).

(٣) سورة الزخرف (المؤلف) سورة الزخرف الآية: ٤٤ (المحقق).

(٤) أنظر سنن أبي داود ج٢: ص ١٣، الآحاد والمثاني للضحاك ج٢: ص ٥٧، سنن النسائي ج٥: ص ٣٧٤، مسند أبي يعلى الموصلي ج١٠: ص ١٩٩، صحيح ابن حبان ج١٠ ص ٣٤٣ (المحقق).

(٥) مسند أحمد بن حنبل ج٦: ص ٢٤، سنن الدارمي ج٢: ص٣٢٤، صحيح مسلم ج٦: ص ٢٤، سنن البيهقي ج٨: ص ١٥٨، صحيح ابن حبان ج١٠: ص٤٤٩، المعجم الكبير للطبراني ج١٨: ص ٦٢ (المحقق).

وفي الحديث: «اذا اراد الله بقوم خيراً ولى عليهم حلماءَهم وقضى بينهم علماؤهم وجعل المال في سمحائهم. وإذا أراد بقومٍ شراً ولّى عليهم سفاءَهم وقضى بينهم جُهالُهم وجعل المال في بخلائهم»[1].

وشدد محمدﷺ على «ان شرّ الرِعاء الحُطَمَةُ»[2] موجهاً إدانةٌ حاسمة للظلم والقسوة.

لذلك كان حرص محمد في التجربة الاسلامية الاولى في المدينة، على تأمين شروط الوالي العادل، والحليم والانساني، والديمقراطي الذي يأخذ الأمور بالشورى، حرصاً مبدئياً توخى به – خلال حياته- وضع اسس متينة للمتجتمع الاسلامي العادل الذي يصون حقوق وحريات الجماعة والفرد... وقد كانت تطبيقات الرسول في المدينة أنموذجية على مستوى وحدة الرابطة بين الحكم والناس، في تداخل لا يعرف التراتب الطبقي ولا ثنائية الحاكم والمحكوم. لأن الحاكم هو مواطن يؤدي مسؤولية خدمة الجماعة، وإن المواطن يُساهم في الحكم

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج١: ص٣٣٧ (المحقق).

(٢) الرعاء جمع راع والحطمة العنيف برعاية الابل (المؤلف). مسند أحمد بن حنبل ج٥: ص ٦٤، صحيح مسلم ج٦: ص ٩، سنن البيهقي ج٨: ص١٦١، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٥: ص٢١٢، مسند ابن الجعد: ص ٢٠٥، صحيح ابن حبان ج١٠ ص٣٦٩، المعجم الكبير للطبراني ج١٨ ص١٧، الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص٣٤٨، كنز العمال ج ٥، ص٧٦٢، وج٦ ص٢٦، تاريخ مدينه دمشق ج١٩ ص٢٠١وج٣٥ ص ٢١٧ وج٣٧ ص ٤٤٦ وتهذيب الكمال للمزي ج٤ ص٤٨٣ (المحقق).

مساهمة ذاتية ضمن الادارة الذاتية العامة لشؤون المجتمع بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وتوفر الممارسة الديمقراطية الحرة، والمتبادلة بين الحاكم والمحكوم، الكثير من المزايا للتطور الاجتماعي الحر الذي لا تعوقه البيروقراطية، والمؤسسة البوليسية المتنامية، فالفرد عندما يؤدي دوره الحقيقي في بناء مجتمعه، والدولة التي يُحس ويؤمن بأنها دولته، ليس محتاجاً الى جهاز وظيفي قمعي معقد يمتص نسبة كبيرة من موارد الدولة، ومقومات بناء حياة إنسانية مسعدة للمواطنين، ويبتكر لنفسه وظائف عدوانية لا مبرر لها.

وحين أبدى محمد تخوفه على أمته من ست خصال- سنذكرها- إنما ان يزود البشرية برؤية تأريخية مذهلة يمكن الاستدلال منها على الملامح الأساسية للدولة الصحيحة، القريبة من شكل المجتمع، والتي تمتلك خصائص التطور الاجتماعي، أكثر مما تمتلك خصائص السلطة المتسلّطة.

والمقصود بالدولة - وفقاً لذلك- دولة الشعب التي تمتلك حرية تأدية واجبها في خدمة وتنظيم أمور الشعب بسهولة من خلال إفساحها أوسع المجال للجماهير للتعبير عن ارادتها وتجسيدها في سياسة الدولة. وقد كانت الدولة البلدية الاولى في المدينة، غير باهظة، فهي غير مثقلة بالاجهزة البيروقراطية، والقمعية، بل هي دولة جماهيرية، ديمقراطية، بسيطة، من خلال استلهام المبادئ، في التطبيق غير المعقد. انها دولة تشبه الأسرة المنسجمة السعيدة التي تدير نفسها بنفسها بقيادة عادلة.

جاء «سمعت رسول الله ﷺ يتخوف على أمته ست خصال: إمرة الصبيان، وكثرة الشرط، والرشوة في الحكم، وقطيعة الرحم، واستخفافاً بالدم، ونشوَ يتخذون القرآن مزامير، يقدمون الرجل ليس بأفقههم ولا بأفضلهم يُغنيهم غناءً»[1].

إن مقابلة جملة من إحاديث النبي العظيم في الولاية، والامارة، وادارة الدولة بأنموذج بناء الدولة المصغرة الأولى للاسلام، وهي الدولة البلدية العربية في المدينة، تقود الى فهم الأهمية الخاصة للمطابقة بين المبادى، والنشاط السياسي والاقتصادي العام. وهي مطابقة تدعو إلى استلهام الانموذج المحمدي في تأسيس باكورة الدولة العربية الاسلامية غير المعقدة.

ومن المفروغ منه ان بعض الاجهزة تشكل عماد الدولة، وخاصة الجهازين القضائي والمالي، ولذلك فقد أشرف الرسول بنفسه عليهما في ادارة شؤون المدينة.

فعلى صعيد الجهاز المالي، اتخذ الرسول بعد هجرته من مكة الى المدينة «قراراً ذا دلالة هامة على الطابع السياسي والملامح المالية والاقتصادية لذلك

---

(١) أحمد بن حنبل (المسند) (المؤلف) وانظر المعجم الكبير للطبراني ج١٨ ص ٣٧، المعجم الاوسط للطبراني ج١ ص٢١٢، مجمع الزوائد للهيثمي ج٢ ص ٣١٦، كنز العمال للمتقي الهندي ج١١ ص ١١٦، مسند الرضا عليه السلام لداود بن سليمان الغازي (٢٠٣ هـ) ص ١٤٩ (المحقق).

البناء الجديد الذي أقامهُ المسلمون هناك.

فلقد قام بتوحيد المكاييل والموازين في المجتمع الجديد، واختار في عملية التوحيد هذه وحدات المكاييل التي كانت مستعملة بالمدينة، لأنها كانت موطن الزراعة والمحاصيل، كما اختار ايضاً وحدات الموازين التي كانت مستعملة في مكة، لأنها كانت موطن التجارة، وسوق العرب الكبرى في ذلك الحين. ولقد عبَّر بذلك عن الارتباط الوثيق بين بناء الدولة الجديدة ودوافع المجتمع الذي تُبنى فيه، وعن ان شؤون الحياة هذه إنما هي محكومة بمصالح الناس في هذه الحياة»[١].

وشمل الجهاز المالي فئة المشرفين على غنائم الحرب، وتولاها في ذلك العهد (أبواليسر كعب بن عمرو بن زيد الانصاري)[٢] و(أبوالجهم بن حذيفة بن غانم القرشي) و(بديل بن ورقاء الخزاعي) و(مسعود بن عمرو القاري)[٣].

أما جباية الأموال فقد كان يتولاها موظف متخصص، الى جانب الحاكم الاداري والسياسي للأقليم، ويتولى وظيفته هذه بكتاب خاص (عهد) متميز،

---

(١) محمد عمارة: المصدر (المؤلف).

(٢) شهد العقبة وله عشرون سنة وقد شهد صفين مع عليؑ ومات سنة: ٥ هـ انظر سير اعلام النبلاء ج٢: ص ٥٣٧ والمستدرك للحاكم النيسابوري ج٣ ص ٤٩١، ويقول الهيثمي: انه آخر من مات من أهل بدر في المدينه انظر مجمع الزوائد ج٩ ص ٣١٦. (المحقق).

(٣) المصدر نفسه (المؤلف).

يقرؤه على أهل الأقليم الذي تعين فيه. وممن تولى هذا العمل على عهد الرسول ﷺ (علي بن ابي طالب) و(عمر بن الخطاب)، و(خالد بن سعيد بن العاص) و(معاذ بن جبل) و(أبي بن كعب) و(عدي بن حاتم الطائي) و(الزبرقان بن بدر) و(قيس بن عاصم) و(ابن اللتبيه) كما تولى جمع الضريبة من غير المسلمين (ابوعبيدة بن الجراح) و(معاذ بن جبل الانصاري) و(مروان بن الجدع بن زيد بن الحارث) و(مرداس بن مروان)[١].

أما مراقبة الأسواق وقوانينه وأسعار السلع، فقد كانت جزءاً من عمل (المحتسب). أما المواريث وما كانت تحتاجه من حسابات فكان يتولاها (زيد بن ثابت) وكانت وظيفتهُ هذه تسمى وظيفة (فارض المواريث)[٢].

كما كانت هناك وظائف للذين يقدرون الثروة قبل تحديد ما عليها من الضرائب وتمهيداً لهذا التحديد، وكانوا يسمونه (الخارص)[٣]... وممن تولى هذه الوظيفة (عبدالله بن رواحة) و(جبار بن صخر بن أمية) و(أبوحثمة).

وكان الرسول يشرف مباشرة على القضاء ذلك لأنه أداة الاسلام في تطبيق العدالة، وحل المنازعات، وتنفيذ العقوبات، وقد اعتمد الرسول- في هذا

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

(٣) انظر البيان للشهيد الاول ص ١٨٢ والمهذب البارع لابن فهد الحلي ج٢ ص ٥٦٩ (المحقق).

الميدان- أيضا على (علي بن ابي طالب) و(عمر بن الخطاب) و(محمد بن مسلمة الانصاري).

و«قد عرفت الدولة الوليدة من أجهزة العقاب المشهورة (السجن) واتخذ لذلك في المدينة مكان هو دار امرأة من الانصار تسمى (بنت الحارث)، كما اتخذ بباب المسجد (حظيرة) حُبست فيها بعض النساء... كما قام بالمدينة نظام وليد للشرطة (العسس)..»[1].

الشورى: الديمقراطية الرائدة في التاريخ السياسي

اهتدت سياسة محمد في ادارة شؤون المسلمين في الدولة البلدية الفتية، سواء في السلم أو في الحرب بالقول القرآني المجيد: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2] مجسداً بذلك منهجاً ديمقراطياً أصيلاً وثابتاً.

ويضعنا النهج الديمقراطي لمحمد أمام مصداقية تأريخية للديمقراطية، وخاصة بمقارنتها بصيغ الحكم المختلفة والتي تعلن- رسمياً- إيمانها بالديمقراطية، لكنها- عملياً- لا تطبق إلاّ القليل من الديمقراطية.

وعلى الصعيد الاسلامي تصلح ممارسة محمد الديمقراطية القصوى أن تكون مثلاً اعلى، وقدوة كبيرة، وخاصة لأن (الوحي) يثير إفتراضاً- للوهلة الاولى- بأن محمداً لا يحتاج الى المشاورة مادامت تلقياته عن الوحي توفر له

---

(١) محمد عمارة المصدر (المؤلف).

(٢) سورة الشورى (المؤلف) سورة الشورى الآية: ٣٨ (المحقق).

الحلول والآراء الضرورية.

قياساً الى الصورة النبوية في جمع الايحاءات مع سياسة الشورى، تبدو صورة رئاسات الحكم الزمني، غير المزودة بأي إمدادات إيحائية أوقريبة منها، (ولا يمكن لها ان تدعي ذلك) متضائلة كثيراً في التمسك بالحد اللأدنى من سياسة الشورى المحمدية.

وفي واقع حياة محمد كانت المشاورة مبدأ أصيلاً من مبادئ، حياته، نابعاً من طبيعته الروحية، والعقلية، ومن خبرته العميقة. فالديمقراطية فطرة في طبعه، مثلما هي إختيار سياسي صلب، شديد الأمانة لمنطلقاته.

ولا مفر من التأكيد- هنا- ان الديمقراطية- من الناحية الفردية- ترتبط ارتباطاً تاماً بطبيعة الشخص وطبعه. وهي – من الناحية الموضوعية والعامة- ترتبط بالمبادئ والقوانين التي تسوس الدولة وتنظم حركة المجتمع، وتلغي الدكتاتورية والاستبداد الفردي المطلق.

ومع ان محمداً ﷺ المحاط بأصحابه ومريديه، وهم جيش أنموذجي، يبرهن- بلاحاجة الى برهان- على جماعية الحياة الاسلامية، وديموقراطيتها، وعلى الولاء المثالي من قبل المؤمنين نحو نبيّهم الكريم، الى درجة الولاء المطلق، والاستشهادي، إلا انه كان يتشاور تشاوراً صادقاً، حقيقياً تتهافت أمامه كافة اشكال الممارسات التشاورية الشكلية والجزئية، والتمثيلية. إن الديمقراطية الطبيعية ترسخت في حياة الجماعة الاسلامية المؤمنة كمبدأ عام.

وفي جميع مراحل حياة محمد ﷺ تجسَّدَ المنطق الديمقراطي، ومبدأ

الشورى، في سلوك واضح، أتم ما يكون الوضوح.

وثمة أدلة كثيرة تشير الى اهمية انتهاج النهج الديمقراطي (الشورى) في المناسبات الخطيرة. ففي بواكير معركة بدر الكبرى، وحين كانت فرضية عدم مشاركة الانصار في محاربة قريش، لأن الانصار عاهدوا الرسول على حمايته، في الحالة الدفاعية التي يتعرض فيها الى العدوان، أعلن الرسول ضرورة المشاورة في أمر الحرب كلها.

جاء في الخبر: «قام أبوبكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما اراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنواسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)، ولكن اذهب أنت وربُك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا الى برك الغماد (موضع باليمن)، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسوله الله خيراً ودعا له[1].

ثم قال رسول الله: أشيروا عليَّ ايها الناس، ويريد الأنصار، وذلك انهم عدد الناس، وانهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا يا رسول الله، إنا براء من ذمامك

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج٣ ص ١٠٥، صحيح مسلم ج٥ ص ١٧٠، المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣ ص٢٥٣، سنن البيهقي ج١٠ ص١٠٩، المصنف لعبد الرزاق (٢١١ هـ) ج٥ ص٣٥٠، المصنف لأبن ابي شيبة ج٨ ص٤٦٩، سنن النسائي ج٥ ص ٩٢وج٦ ص٣٣٤، مسند أبي يعلى الموصلي ج٦ ص ٤٠٧ (المحقق).

حتى تصل الى ديارنا، فاذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبنائنا ونساءنا. فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هوالحق، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما اردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه، ما تخلفّ منا رجل واحد، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبْرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُ به عينك. فسِرْ بنا على بركة الله»[1].

وضرب محمدﷺ مثلاً كبيراً في ضرورة التشاور، والأخذ برآي الأغلبية، حتى في الحالات التي كانت مُسببةً الاخطار للمسلمين، كما جرى في معركة (أحد). فقد كان رأي محمدﷺ عدم الخروج من المدينة وملاقاة قريش، وذلك باعتماد التحصن بالمدينة نفسها وصدّ هجوم قريش.

ويبين الحوار التالي كيف ان الرسول كان ينظر بتقدير عالٍ لرأي الاخرين

---

(١) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢ ص ٤٤٨ وانظر السيرة النبوية لأبن كثير ج٢ ص٣٩٢، قصص الانبياء لأبن كثير ج٢ ص١٠٠، عيون الأثر لأبن سيد الناس ج١ ص٣٣٨، والبداية والنهاية ج٣ ص٣٢١ وتاريخ الطبري ج٢ ص١٤١، والطبقات الكبرى لأبن سعد ج٢ ص١٤، والتفسير لأبن كثير ج٢ ص٣٠١، وتفسير القرطبي ج٧ ص٣٧٤، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج٩ ص٢٤٦، فيض القدير للمناوي ج٢ ص٢٦٨ وشرح نهج البلاغه لأبن ابي الحديد ج١٤ ص١١٢، وذكره من المعاصرين العلامة مرتضي العسكري في معالم المدرستين ج١ ص١٧٠ (المحقق).

رغم قناعته بخطأ ذلك الرأي. وكيف انهُ يهجر رأيه آخذاً برأي اصحابه، مع ما يعنيه ذلك من نتائج سلبية كنتائج معركة (احد) المريرة.

قال أسيد بن حُضيْر وكان من الذين أرادوا التحصن بالمدينة، مخاطباً اولئك الذين أرادوا منازلة قريش خارج المدينة: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره، فردّوا الأمر اليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوىً أو رأياً فاطيعوه»[1] فشعر الرافضون للتحصن بالمدينة بالأثم، وحينما رأوا الرسول مقبلاً لابساً درعه ومتقلداً سيفه، قالوا له:

«ما كان لنا يا رسول الله ان نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا ان نستكرهك، والأمر الى الله ثم اليك»، فقال محمدﷺ: «قد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم، وما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمَتَهُ ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه انظروا ما أمركم به فاتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم»[2].

ويجلب الانتباه ان الهيبة العظمى لمحمدﷺ لم تكن لتمنع أصحابه من أبداء الرأي، ذلك لأن طبعه الديمقراطي متأصل في تلك الهيبة، متمازج معها، كما انه

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج١٤ ص٢٢٥ (المحقق).

(٢) ن.م. لأبن أبي الحديد ج١٤ ص٢٢٥، وانظر تفسير القرطبي ج٤ ص٢٤٤ وهو يستعرض احتمالات كثيره للذين خالفوا رأي الرسولﷺ وربما كانت أغلبها أراء منطقية فرضتها ظروف المعركة (المحقق).

في تربيته لأصحابه علمهم قيمة بناء الانسان على نواة الفطرة الحقيقية السليمة، لا بالتنصل عنها، والأ نخداع بمعالم الحياة الجديدة فظلت الشجاعة البدوية الفطرية، ماثلة في إبداء الرأي ووجدت تشجيعاً وتطويراً لها من قبل الرسول، لأن الحياة الاسلامية الثورية الجديدة لا تنسف ولا تنقض الخصال الفطرية الايجابية، بل تعمل على تطويرها وإغنائها.

لذلك كان أصحاب الرسولﷺ لا يتحرجون من اطلاق العنان لأفكارهم وآرائهم، صائبة كانت أم خائبة وكان الرسولﷺ يرى في حرية الحوار وتداول الآراء مبدأً ثابتاً.

فعندما أراد الرسولﷺ ان ينزل في مكانٍ ما، للتهيئ لغزوة بدر، قال له الحباب بن المنذر: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هوالرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فان هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ماوراءه من القلب، ثم نبي عليه حوضاً فنملوءه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: لقد أشرت بالرأي»[1].

إن علاقة محمدﷺ بجماعته عامرة بالأمثلة على التشاور وتهيئة الاجواء

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبن كثير ج٢ ص٤٠٢، وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٣٠، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٥٤٤ هـ) ج٢ ص١٨٤ ومن المعاصرين الشيخ محمود أبورية في كتابه اضواء على السنة المحمدية ص ٤٣ (المحقق).

الديمقراطية لابداء الآراء، واتخاذ المواقف، وقضية الموقف من أسرى بدر تبين بجلاءٍ تام، كيف يتدارس المسلمون الموضوع بحرية تامة، حتى يتوصلوا الى الرأي النهائي وقد يستغرق الحوار والتشاور زمناً طويلاً نسبياً لحين إنضاج الموقف الموحّد، أوالموقف الاخير بصورة عامة.

إن التعقيد الوارد في قضية أسرى بدر هو: هل الأصح قتلهم أم أخذ الفداء منهم؟ وكان بعض الاسرى أقوياء، حاقدين، وزادهم اللأسر حقداً، فاذا ما أطلق سراحهم بفدية، كانوا وبالاً على الاسلام، وخطراً في المعارك القادمة. وإن جرى قتلهم فإن ذلك يثير ثائرة قريش، التي ربما ترى في الفداء ما يجعلها أكثر ليناً.

وحين تناول المسلمون الموضوع بالمناقشة، كان لهم الخيار في إتخاذ القرار، وكان ابوبكر داعياً الى معالجة الامر بقبول الفدية قائلاً: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنوالعم والأخوان، وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم من الله عليك، أوفادِهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم»[1] وسكت محمدﷺ فلم يجبه، فقام ابوبكر وتنحى، وجاء عمر بن الخطاب فجلس مجلسه وقال: «يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة يوطئ الله بهم الاسلام ويذل بهم أهل

(١) انظر شرح ابن ابي الحديد ج١٤ ص ١٧٤ (المحقق).

الشرك»[١]. ولم يجب محمدﷺ. فعاد ابوبكر الى مقعده الاول وجعل يتلطف ويستعطف، ويذكر القرابة والرحم، ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أبقى على حياتهم، وعاد عمر مثال العدل الصارم لاتأخذه فيه هوادة ولارحمة. ولما فرغ ابوبكر وعمر من كلامهما، قام محمدﷺ فدخل قُبَّته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم، يقف بعضهم في صف ابي بكر، ويقف آخرون في صف عمر، فشاورهم فيما يصنع، وضرب لهم في أبي بكر وفي عمر مثلاً.

فأما ابوبكر في الملائكة كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده، ومثله في الانبياء كمثل ابراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدّمه قومه الى النار، وطرحوه فيها فما زاد على ان قال: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢] وأن قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤]، ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على اعداء الله ومثله في الانبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٥] وكمثل موسي إذ يقول: ﴿رَبَّنَا

---

(١) نفس المصدر لأبن أبي الحديد. (المحقق).

(٢) سورة الأنبياء الآية:٦٧ (المؤلف).

(٣) سورة ابراهيم الآية:٣٦ (المؤلف).

(٤) سورة المائدة الآية: ١١٨ (المؤلف).

(٥) سورة نوح، الآية:٢٦ (المحقق).

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[1].

ثم قال: وإن بكم عَيْلَةً فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء اوضربة عنق. وتشاور القوم فيما بينهم.. وظل المسلمون في تشاورهم زمناً انتهوا بعده الى قبول الفداء وفي قبولهم نزلت هذه الآية الكريمة:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وحين يستذكر المحللون السياسيون والمؤرخون الأنموذج الديمقراطي الأثيني، ومبدأ الحوارات الديمقراطية العامة، فانهم- بلا شك- يتجاهلون ان ذلك الانموذج صغير بالقياس الى الانموذج الاسلامي، فقد كان القائد العظيم محمدﷺ عائشاً في وسط جماعة المسلمين كأي واحد منهم، وكان المسجد المكان الذي يتساوى فيه الجميع في عرض الآراء ومناقشتها، وكانت الحياة الاسلامية (العامة والخاصة) قيد الدرس والمداولة، وكانت آراء محمدﷺ نبراساً... يهتدي به.

أي ان الجماعة الاسلامية كانت تنشئُ نفسها بنفسها يومياً عبر ديمقراطية الرأي، وعبر النشاط الجماعي الملموس. فلم يكن هناك عزل بين الافكار

---

(١) سورة يونس الآية:٨٨ (المحقق).

(٢) محمد حسين هيكل (حياة محمد) (المؤلف) والآية من سورة الأنفال: ٦٧ وانظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢ ص٤٩٩ والسيرة النبوية لأبن كثير ج٢ ص ٤٥٨ (المحقق).

والممارسة، كما لم يكن هناك نمطان لحياة الشخص، نمط داخلي ونمط خارجي. بل كان المسلم صورة واحدة متجانسة، قولاً وفعلاً، ومتماسكة دونما ثغرات وفجوات في الشخصية.

ومن المهم ملاحظة ان وحدة الشخصية في المسلم هي امتداد متطور نوعياً لوحدة شخصية البدوي المتطابق مع ذاته. وقد استطاع الاسلام تحرير الشخصية البدوية من جاهليتها، ومن ضيق أفقها القبلي، ناقلاً إياها الى الصعيد الاجتماعي والقومي والانساني الواسع، في سياق شمولية الانتماء الكوني.

ولم يتحقق النموالمثالي الاسلامي لوحدة الشخصية إلا في الحق الاساسي الذي تمتعت به الجماعة الاسلامية الاولى وهوحق الحرية، أي النموالطبيعي لممارسة الانسان، بما هوإنسان حُرّ.

ولم تنشأ الازدواجية إلاّ بعد التفريط بحق الحرية، في العهود الاسلامية الاخرى التي لم تستوعب - في التطبيق- المغزى الكبير في التجربة الديمقراطية الاسلامية. فتحولت مبادئ الاسلام- بالمؤثرات الاسلامية الرسمية والفوقية- الى قوالب جامدة لا صلة لها بالممارسة. فأصبح الفرد المسلم مسلماً بتأدية الفروض، ومحروماً من تأدية دوره الواعي في الحياة الاسلامية، أي في إدارة شؤون المجتمع والدولة. انه مواطن مأمور، منفذ، مقموع، لايُسمح له حتى بسماع صوته باعتباره انساناً حراً له صوت. فكان ذلك من بين عوامل عديدة أسهمت في إنتكاسة المجتمعات الاسلامية، على مرّ الأزمان.

إن للفرد في الاسلام، وفي رؤية وتطبيقات محمدﷺ مكانة أساسية ليست

قابلة للانتقاص، وضمناً، فهو- أي الفرد- يتمتع بحق إختيار الحاكم الذي لا يجوز ان يُنصّب تنصيباً فوقياً، أويُفرض فرضاً. وقد قال الرسولﷺ: «من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا الذي بايعه»[1].

ولما كان الفرد فاعلاً وفعالاً على النحوالمذكور في تقرير صورة النظام السياسي، وفي إختيار الحاكم، فقد تحرر من القيود التنظيمية التي تفرض الوصاية على الانسان وتخنق إرادته. تلك القيود التي كانت من صنع الحكومات الامبراطورية والملوك الطغاة، فجاء الاسلام ليدحرها، معيداً الانسان الى طبيعته الواعية بكونه كائناً بشرياً حُرّاً.

---

(١) انظر كنز الأعمال ج٥: ٦٤٧ أما في تايخ المدينة لأبن شبة النمري ج٣: ٩٣٦، وفيه يقول: ان عمروبن الخطاب قال: من دعا إلى إمارة لنفسه من غير مشورة المسلمين فلا يحل لكم إلا أن تقاتلوه. ونلاحظ من خلال القولين، قول الرسولﷺ، وقول عمرو بن الخطاب، فرقاً واضحاً وظاهراً فالرسولﷺ قال: لن تقبل منه البيعة ولا تصح البيعة للأمير، فالقول ليس فيه من القوة والعنف لممارسة ذلك على الأمير والمبايع. أما في قول عمرو، فهو يدعوا إلى قتالهما! وهذا وفي كثير من المواقف يبدو على الخليفة عمر كثير من الحديّة والحزم الصارم دون أي مرونة، ولذا قال الرسولﷺ واصفاً آياه في مسألة مشاورته في أسرى بدر والذي طلب فيها عمرو ان يُقتلوا جميعاً - أي الأسرى - فقال الرسول فيه: مثل عمر كمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (سورة يونس، الآية ٨٨) (المحقق).

الحرية ورفع الوصايات الكهنوتية:

في قوله (هـ ج ويلز) المفكر الانكليزي المعروف عن محمدﷺ بأنه «أوصل مبادئ الاسلام الجذابة الى سويداء قلب البشرية دون الاستعانة بالرموز المبهمة. وبتعتيم الهياكل، ودون ما حاجة لتراتيل القسس..» دلالة عظيمة، من الدلالات المستنبطة من حقيقة الاسلام، والطبيعة المحمدية[1].

---

(١) وهناك الكثير من مفكري الغرب قرأوا الاسلام قراءة منصفة فمنهم: يقول الكونت هندريك: «إن المسلمين امتازوا بالمسالمة وحرية الأفكار في المعاملات ومحاستهم المخالفين، وهذا يحملنا على تصديق ما قاله روبنسن: أن شيعة محمدn هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم، وهذه المحبة هي التي دفعت العرب الى طريق الفتح، فلم يتركوا أثراً للإفك في طريقهم إلا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال ولم يقتلوا أمة رفضت الاسلام».

وقال غوستاف لوبون: «إن القوة لم تصمد أمام قوة القرآن، وأن العرب تركوا الماديين أحراراً في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغةً لهم، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السبُل التي لم تعرفها الأديان الأخرى، فقد عاملوا أهل سوريا ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطفٍ عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب» (حضارة العرب، غوستاف لوبون: ١٤٥و١٤٦، والشيرازي: ٤١ السلم والسلام. ويقصد غوستاف ان فضل الإسلام جعل العرب رحماء متسامحين، وإلاَّ فان تاريخ العرب الجاهلي مليءٌ بالعنف والإرهاب).

وقال مونتجومري وات: «كان السبب الأول في نجاح محمدﷺ جاذبية الإسلام، وقيمته كنظام ديني واجتماعي لسد حاجات العرب الدينية والاجتماعية، كما أن بصيرة محمدﷺ ودبلوماسيته ومهارته الإدارية لعبت دوراً كبيراً في نجاحه.. يضاف إلى ذلك أن مهارته في إدارة التحالف الذي يرأسه.. جعل الكل يشعرون، ما عدا أقلية لا أهمية لها، أنهم يعاملون معاملة حسنة، زادت الفرق بين شعور الانسجام والرضى في الأمة الاسلامية وشعور القلق في مكة، ولا شك أن ذلك أثر في كثير من الناس وجذبهم إلى محمد» (محمد في المدينة، مونتجومري وات: ١٠٣، ١٠٤ ترجمة شعبان بركات).

وقال توماس كاريل: «إن اتهام محمد بالتعويل على السيف في حمل الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم»(حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد: ٢٢٧).

وقال البطريك(سيمون): «إن العرب الذين أورثهم الله ملك الأرض لا يهاجمون الدين المسيحي ابداً.. انهم يساعدوننا ويحترمون إلهنا وقديسنا» (روح الإسلام، سيد أمير علي: ٢٦٥).

وقال روبرتسون: «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو اتباع الاديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في اقامة شعائرهم الدينية»(٤).

وقال المسيوبونه موري: «الاسباب التي جعلت للإسلام الفوز في افريقيا بين السود، وأهم هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية التي تنحصر في كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.. كذلك الإسلام ليس فيه طبقات ودرجات، فالزنجي لا يرى نفسه محتقراً في الجماعة الإسلامية» (حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد٣: ٣، دار الفكر، بيروت).

ومن القول البليغ جداً، ان يقول الأب ميشون: «ان من المحزن للأمم المسيحية ان يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب، هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين»(مقارنة الأديان، د. أحمد شبلي٣: ١٨٥-١٨٨).

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ۱۳۷۴

ففي تأريخ المسيحية، انبثقت مؤسسات دينية ارستقراطية، هائلة السلطة، خلافاً لطبيعة المسيح وبساطته. أي ان الكهنوت تحوّل إلى وسيط بين البشر والرب، عبردمجٍ عاتٍ بين السلطتين اللاهوتية والزمنية، فاحكموا خنق الحياة البشرية، وسدوا عليها المنافذ.

إي ان بطانة الكهنوت المترفعة، أصبحت حكومة من طرازٍ إرهابي لا يعرف ذرة من الرحمة، حتى مع بعض أفراده الذين اختاروا هامش الاجتهاد، مهما كان ضئيلاً.

إن سلطة الكهنوت، هي الطاغوت الذي غدر بالمسيح الرحيم الذي بَشَّر بالحب والبساطة.

ومثلما اسرعت سلطة الكهنوت المسيحي في الاستحواذ على السلطة وتحويلها الى سلطة رئاسية من طرازٍ جديد، شديد الضراوة، كانت تُسرع في إشاعة أفكارها عن التثليث، وتجسيد الله بصورة إنسان، على تناقضٍ تام مع أطروحات عيسى النبي الجليل.

كان الاسلام، في زمن محمدﷺ وحين أضحى سلطةً، يرفض نشوء فئة لاهوتية اسلامية وصيّة، ففي الاسلام لا توجد وصاية كهنوتية، حتى ان

أما الكاتبة الايطالية لورا فيشيا فاغليري فتقول: «ان الإسلام لا يبيح امتشاق الحسام إلا دفاعاً عن النفس، وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً.. وأباحت الشريعة القتال للمسلمين دفاعاً عن حُرية الضمير لأقرار السلم واستتاب الأمن والنظام»(دفاع عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليري: ١١، ١٢، دار العلم، بيروت).

مصطلح رجل دين لا وجود له، لأن المواطن المسلم: المواطن، أوالحاكم: هو في الحالين إنسان لايتمتع بسلطة مشتقة من الدين، يُسيطر بها على سواه، إنه إنسان يؤدي وظيفة سياسية، من داخل القاعدة الشعبية الواسعة التي تقرر – بالنهاية– كل شيء.

إن الأناس المؤمنين الكبار، ليسوا رهطاً حاكماً، متعالياً، يتمسك بسلطتين زمنية ولاهوتية، إنهم مؤمنون فقط، لايملكون مع سواهم غير حق الاخوة، وفقاً لمعنى القول الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

وفي زمن السلطة الاسلامية المحمدية، كانت صورة الجمهور المسلم صورة جماعية، تعاونية، ديمقراطية، متضامنة ومتطامنة في المساواة، والعدل، بمعنى انها لم تكُ تعرف الطبقية، والتراتبية[2]، بإسم الدين.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠ (المحقق).

(٢) مصطلح التراتيبية = مصطلح الشأنية، كون ان الشأنية تؤدي الى الطبقية في المجتمع، والحق، ان مفهوم الشأنية والتراتيبية ليس لها وجود في الفكر الاسلامي المحمدي، ولوكان لها لبان في عهد الرسولﷺ أو في عهد علي بن ابي طالبؑ، بل لم يكن لها حتى حضوراً في الذهنية الاسلامية المتكاملة، ولذا قد غفل أحد الأنصار حينما اعترض على موقف الإمام عليؑ في توزيع الحقوق والمساواة بينه وبين عبده الذي أعتقه منذ فترةٍ وجيزة، حيث أعطى الإمامؑ لكل منها ثلاثة دنانيز فساوى بينهما. فقال له الأنصاري: «يا أمير المومنين هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني إياه سواء» فقال لهؑ: اني نظرتُ في كتاب الله فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحاق فضلاً»، الكافي٨: ٦٩، ومن امثال

واستمر ذلك في عصور الاسلام، وحتى في المراحل التي أسهم فيها بعض الخلفاء- وما اكثرهم!- في حرف الاسلام عن جوهره، لم يستطع احد مباشرة ذلك بصورة إمارة- كهنوتية- طبقية متحكمة، إنما كان الفقهاء- رغم كونهم جزءاً من البنية الطبقية للسلطة التي احتضنتهم كانوا أبعد ما يكون عن تشكيل فئة ذات وصاية عليا إي فئة دنيوية احادية السلطة.

إنهم ظلّوا- ورغم كل الاخطاء والاخطاء الهائلة- لا يدعون الوصاية، حتى وان مارسوها ضمناً، باعتبارهم جزءاً من السلطة، أومتحولين الى أداة بيدها.

ففي الاسلام لا يوجد كهنوت «لذلك لا يوجد نظرياً ما يمكن ان نسميه في الاسلام رجل الدين. ولكن بما ان الدين الاسلامي يحوي حقولا عديدة من العلوم ولا بد من التخصص فيها ومن شروط الاجادة فيها ان يُلم الباحث بأصولها لذا نرى ما يراه بعض المعاصرين من ان التسمية الأوفق هي رجال علوم الدين الإسلامي وهم الفقهاء في التعبير القديم»[1].

لقد كان محمدﷺ ينفر من التضييق على الفرد، والأمة، فمن ضَيَّقَ على نفسه ضَيَّقَ الله عليه[2]، ذلك جوهر ما ورد في حديث له. ومن الملاحظ، ان

ذلك شواهد كثيرة فقصته مع أخيه عقيل ابن ابي طالب تكفي على ان منهجية الاسلام وفكره يأبى الطبقية في المجتمع (المحقق).

(١) محمد سيد محمد: «المسؤولية الاعلامية في الاسلام» (المؤلف).

(٢) أصل الحديث: فمن ضيّق على نفسه الزمه ، فتح الباري لأبن حجر ج٩ ص ٣٠٠ وتفسير القرطبي ج٣ ص ١٢٩ (المحقق).

الكتاب الغربيّن الموضوعيّين، نظروا الى الاسلام باعجاب، من خلال انتباههم الى الصورة المشرقة لمحمدﷺ الذي بدا امامهم انموذجاً فذاً من القيادة، والسلطة، الهائلة، القائمة على الحرية، والبساطة الديمقراطية، ورفض التعقيد. ففي زمن الحكم المحمدي - مجازاً - لم تكن هناك مؤسسات حكم بيروقراطية دينية، فالسواد الاعظم من الناس كان في العراء تحت خيمة السماء وكلمة الحق، سواسيةً كأسنان المشط[1]. بمثل هذا التعبير الذي استخدمه النبي العظيم ألغى - تطبيقياً- الأمارة الكبيرة، والأمارات الصغيرة، التي غزت العرب غزواً نفسياً- (مازوكياً) طويل الأمد.

واستناداً الى كل خبرة تأريخية- إسلامية، إن العودة الى الناموس المحمدي هي التعبير الوحيد عن الاسلام الحقيقي.

إذ لم يعد في الممارسة الاسلامية الجماعية وجود لتكريس الايمان بالله والاسلام في امتيازات دنيوية فالمواطن: إما اخوك في الدين، أونظيرك في الخلق[2]

---

(١) سبل السلام للعسقلاني ج٣ ص ١٢٩، من لايحضره الفقيه للصدوق ج٤ ص ٣٧٩، تحف العقول لأبن شعبة الحراني: ص ٣٦٨، مستدرك الوسائل ج٨ ص٣٢٧، كنز العمال ج٩ ص٣٨، تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٠٠، الكامل لأبن عدي ج٣ ص٢٤٨، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٧ ص٦٢، تاريخ مدينه دمشق لأبن عساكر ج٥ ص٤٧٨، مسند الشهاب لأبن سلامة ج١ ص١٤٥ (المحقق).

(٢) وهذا القول هوقول شائع لعلي بن ابي طالبؑ من وصيته الى مالك الأشترؓ عندما عيّنه أميراً على مصر:... وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم،

وفيما عدا ذلك لا سلطان لك عليه الا بالتقوى، والهدى، وهما صفتان تحلّان اشكالية العلاقة التناقضية بين الواحد والآخر. فالتقوى للفرد- لكونها تقوى نفس- أما الهدى، فهي ممارسة تنوير (الآخر) بالهدى، ضمن المضمون الواقعي- الاعتباري لمصطلح التبشير...

وإنطلاقاً من فهم الذهنية العميقة والواسعة للنبي الكريم محمدﷺ يمكن القول- بلا تردد- ان اكبر ما أساء الى الاسلام، من داخل المعسكر الاسلامي، الطبيعة التزمتية الضيقة، على سعة معارفها.

فالتزمت- دوماً- لصيق وقرين الاستعانة بالخرافات والشعوذات التي تسيء الى منجزات العقل البشري، ووظيفته التفحصية والاستدلالية. لقد ادخل محمدﷺ العلم في السياسة والاقتصاد، والاجتماع، والثقافة، بوصفه علما إنسانياً، وليس علماً مجرداً. اي، علماً يخدم حرية الانسان وحقوقه الجماعية والفردية.

ورغم ما أنطوي عليه من قدرات خارقة (نلمسها نحن بالنتائج العالمية- التأريخية الهائلة)، فانه كان يُعلّم المسلمين العلم. ذلك ما توضحه قصة الكسوف حين موت ولده ابراهيم فقد كان المسلمون يرون ان الشمس انكسفت حزناً لموت ابراهيم، لكن النبي- وهو في شدة حزنه- بَيّنَ لهم خطأهم قائلاً: «ان

ولاتكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فأنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل... انظر نهج البلاغه شرح محمدعبده ج٣: ص٨٤. (المحقق).

الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله بالصلاة»[١]. إن ذلك يوضح البعد العميق لدين الفطرة، بدلالتة المحمدية، أي الإلهية بصورتها الختامية.

إن الفطرة ليست براءة ساذجة بل هي نداء القلب (الحب، الجمال، العدل، المؤاخاة، الرحمة) الذي يؤطر نشاط العقل (العلم، التأسيس... الخ).

الفطرة، بمعناها الذي ترفض فيه الملكية المستغلة، والسيطرة العدوانية، والوصاية اللامعقوله.

إن هذه الحقيقة جعلت الاسلام ديناً عملياً، كما قال عنه فيليب حتي وجرجي زيدان وجبور، فهو «دين عملي صريح، وقلما يشير القرآن إلى هدفٍ عالٍ يصعب نواله، ويكاد يكون خلواً من العقد اللاهوتية، وليس فيه أثر للاسرار الرمزية المقدسة، اومراتب الكهنوت، أو ما رتبته اصول الرسامة والمسح والتكريس والخلافة الرسولية»[٢].

---

(١) انظر الخلاف للطوسي ج١: ص ٦٧٨، المصنف لأبن أبي شيبة ج٢: ص٣٥٦ منتخب مسند عبد بن حميد الكسي: ص٢٢٨، تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة: ص٢٤٥، سنن النسائي ج١: ص ٥٦٦، ومسند أبي يعلى الموصلي ج٤: ص٤٧٦ وج١٣: ص١٣٧، صحيح ابن حبان ج٧: ص٦٧ وج١٣ ص ٤٩٩ وكتاب الدعاء للطبراني: ص٦٠٨ والمعجم الكبيرللطبراني ج١٠ ص٩٤ ووسائل الشيعة للحر العاملي ج٧ ص٤٨٥ رقم ١٠ (٩٩٢٣) تحقيق مؤسسة آل البيتعليهم السلام (المحقق).

(٢) تأريخ العرب ج١: إقتباساً من تاريخ فلسفة محمد- محمد جميل بيهم(المؤلف).

الحرية والمجادلة في الدين وغير الدين:

وتعتبر سياسة الشوري الأنموذجية الركيزة العريضة للديمقراطية المحمدية العامة[1]، والتي يصح القول أنها فريدة من نوعها على مستويين: الأول:

---

(١) الشورى إصطلاحاً: هي أستخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض (المعجم الوسيط١١: ٤٩٩وفي تفسير الطبري: هي المفاوضه في الكلام ليظهر الحق (تفسير الطبري٩: ٣٣).

وذكرت الشورى في النص القرآني:

١. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران، الآية: ١٥٩).

٢. ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى، الآية: ٣٨).

ويبقى السؤال، هل أن النبيﷺيحتاج إلى الشورى؟ والذي هو كما وصفه سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم، الآيات: ٣و٤). فقال البيضاوي إن المراد من الشورى عند الرسولﷺ ان يعامل الناس معاملة العفو والصفح وطلب المغفرة لهم والاستظهار برأيهم ومشاورتهم في أمر الحرب وفي كلّ ما تصح به المشاورة، لتطيب نفوسهم، ولتمهيد سنة المشاورة من بعده(تفسير البيضاوي٢: ٥٠).

وفي السنن الكبرى للبيهقي، عن الحسن البصري إنه قال: «قد علم الله أنه ما به - يعني الرسولﷺ - إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده» (السنن الكبرى للبيهقي ٧: ٤٦و١٠: ١٠٩).

ومن مجمل التفاسير يتضح أن أمر الشورى هو لأمرٍ دنيوي وليس لأمرٍ ديني لأن الأمر الديني مكفولٌ بالنص القرآني ويعززه ما جاء من سنة الرسولﷺ من أقواله وافعاله وتقريراته.

ولا نرى هنا مزيد من الحاجة في الخوض حول أمر الشورى في الحكم بعد رحيل الرسولﷺ.

لأن هذا ما خاض فيه الكثير من علماء الفرق الإسلامية ولا زال محل خلاف، بل هو الخلاف الوحيد الذي أفترق عليه المسلمون وقد أوضحنا في كتابنا «أخلاقية الحوار» بعد أن أفردنا فصلاً كاملاًعن أُحقية علي بن أبي طالبعليه السلام في الخلافة من خلال النص والحديث النبوي وأقوالهعليه السلام.

وأما ما نعتقده من أمر الشورى، هو الأمر الدنيوي الذي لم يكن فيه نصاً أو قولاً مأثوراً بما يحيط الإنسان والمجتمع من أمر الدنيا، وإن كانت آلية الخلافة هي من أمر الدنيا لتنظيم شؤون الناس إلا أنها خضعت - كما نعتقد ونؤمن - للنص القرآني والحديث النبوي، والوصايا الكثيرة في المواقع المتعددة والمختلفة للرسولﷺ وهو يوصي إلى من بعده.

ولذا فإن القراءة الموضوعية في أقوال الرسولﷺ حول أمر الشورى تتضح جلياً من خلال المصاديق التي جسدها من سيرته لاستظهار الرأي الصائب في أمور الحياة وإن كان هو غير ملزم بممارستها كونه المعصوم والمسدد من الخالق سبحانه وتعالى، ولكن مارسها لكي تكون سنة حسنةً من بعده لحل مشاكل ومعاضل الحياة وأمورها المعقدة.

ولذا فهو يقولﷺ: «المستشار مؤتمن» (رواه أبو داود٢: ٦٢٦، وابن ماجة٢: ١٢٣٣ وسنن البيهقي١٠: ١١٢ وسنن الدرامي٢: ٢١٩)، وقوله أيضاً: «المستشار مؤتمن، فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه» (مجمع الزوائد٨: ٩٦).

وقالﷺ: «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه» (تفسير ابن كثير١: ٤٢٠، وابن ماجة٢: ١٢٣٣).

وقالﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من أقتصد»(مجمع الزوائد٨: ٩٦).

وقالﷺ: «ما يستغنى رجل عن مشورة» (سنن البيهقي١٠: ١٠٩).

وقالﷺ: «من أراد أمراً فشاور فيه وقضى هدى لأرشد الأمور»(تفسير الرازي٩: ٦٦،

وتفسير الطبرسي٩: ٣٣، ومجمع الزوائد٨: ٩٦).

وعنه عليه أفضل الصلاة والسلام، قال: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» (سنن الترمذي٤: ٥٢٩).

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قلت لرسول الله ﷺ أن عُرض لي أمر لم ينزل قضاء في أمره ولا سنة، كيف تأمرني؟ قال تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين، ولا تقض فيه برأيك خاصة» (اعلام الموقعين لابن القيم١: ٧٤).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام -أيضاً-: «لا صواب مع ترك المشورة» (الصواعق المحرقة: ١٢٧).

وقال عليه السلام: «وفي المشورة سبع خصال حميدة: استنباط الصواب، واكتساب الرأي، والتحصن من الخطأ، والتحرز من الملامة، والنجاة من الندامة، وألفة القلوب، واتباع الأثر» (رسالة في الخلافة، عبد الفتاح عبدالرحمن الجوهري: ٧٠).

مصاديق ممارسة الرسول ﷺ للشورى:

أولاً: معركة بدر

١- عندما خرج رسول الله ﷺ على رأس أصحابه من المدينة متجهاً إلى موقع «بدر» - وقبل الوصول إليه، آتاه الخبر؛ بأن قريشاً ساروا بقافلة تجارية من الشام إلى مكة، وهي فرصة لمنع وصول القافلة، فأستشار الرسول ﷺ بعض أصحابه، فقال أبوبكر: أحسن وقال عمر بن الخطاب: أحسن، ثم قال المقداد بن عمرو، فقال: «يا رسول الله! امضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لا كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة، الآية: ٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سِرْتَ بنا إلى (برك الغماد) لجادلنا معك من دونه حتى

تبلغه» فأثنى عليه الرسول ودعا له، ثم قال الرسولﷺ : «أشيروا عليَّ أيها الناس» (جوامع السيرة لأبن حزم: ١١٣).

٢- وصل الرسولﷺ وأصحابه إلى ماء بدر وقال لأصحابه: «أشيرو عليَّ في المنزل» فقال الحباب بن المنذر بن الجموع: «يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قالﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نعور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون»، وأخذ الرسولﷺ بهذا الرأي (سيرة ابن هشام٢: ٢٥٩-٢٦٠، وطبقات ابن سعد٢: ١٥ ومغازي الواقدي١: ٥٣-٥٤، وتفسير ابن كثير١: ٤٣٠، وتفسير المنار ٤: ٢٠٠٠، وجوامع السيرة: ١١٢.

٣-مع أسرى بدر، أشار الرسولﷺ إلى أبي بكر وعمر بن الخطاب إلى الرأي الصائب في التعامل مع الأسرى المشركين فقال أبوبكر: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والأخوان وبنوالعم، وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم منَّ الله عليك، أوفادهم يستفدهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك! وأما عمربن الخطاب، فقال: يا رسول الله! هم أعداء الله، كذبوك، وقاتلوك وأخرجوك! أضرب رقابهم، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطئ الله عزوجل بهم الإسلام، ويذل بهم أهل الشرك» فسكت الرسول ولم يجبه.

ثم عاد أبوبكر قائلاً: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والأخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم أوفادهم، هم عترتك وقومك، ولا تكن أول من يستأصلهم يهديهم الله خير من أن تهلكهم، فسكت رسول اللهﷺ ولم

يرد عليه شيئاً.

ثم عاد عمر بن الخطاب قائلاً: يا رسول الله! ما تنظر بهم؟ اضرب اعناقهم يوطئ الله بهم الإسلام ويذل أهل الشرك، هم أعداء الله، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك! يا رسول الله! اشف صدور المؤمنين، لو قدروا على مثل هذا منا ما أقالونا أبداً! فسكت رسول اللهﷺ ولم يجبه.

بعدها قام الرسولﷺ ودخل قبته فمكث فيها ساعة، ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم وقبل رسول الله منهم الفداء، وقال لصاحبيه: «لو اجتمعتما ما عصيتكما» وكان رأيه موافقاً لرأي أبي بكر(انظر التفاصيل في مغازي الواقدي١: ١٠٧-١١٠).

ثانياً: غزوة أُحد

بعد وصول جيش قريش إلى مشارف المدينة المنورة، قال الرسولﷺ لأصحابهِ: «أشيروا علي».

وحينها قام عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: يا رسول الله! كنا نقاتل في الجاهلية فيها - داخل المدينة - ونجعل الذراري والنساء في هذه الصياصي(=الحصن) ونجعل معهم الحجارة. والله، لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا، ونشبك المدينة بالبنيان. فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام (=البيت المرتفع)، ونقاتل بأسيافنا في السكك، يا رسول الله! ان مدينتا عذراء ما فضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا ما أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فانهم أن أقاموا أقاموا بشر محبس، وان رجعوا رجعوا خائبين مغلوبي، لم ينالوا الخير. يا رسول الله! أطعني في هذا الأمر، واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة.

وقد أجمع أكابر صحابة الرسولﷺ على هذا الرأي، وكان رأي الرسول مع رأيهم(انظر أسد الغابة٤:

مستوى التطبيق، بالمقارنة مع تجارب ديمقراطية اخرى في العالم، أخذاً بعين الاعتبار الفترة الزمنية، لأية تجربة. أما الثاني: فهو كون التجربة تتحقق في عالم جاهلي غريب، بمتناقضاته وصراعاته،عالم مشدود بين البدائية البدوية من

٢٨١، والاصابة٦: ٢٥، والاستيعاب٤: ١٣٥٢، وسيرة ابن هشام٣: ٧٩، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد).

بيد أن غالبية الأتباع كانوا على خلاف هذا الرأي، فهم يريدون الخروج من المدينة ومواجهة العدو وجهاً لوجه، خلاف ما أراده الرسول من ان تكون المعركة بما يسمى معاصراً قتال المدن والشوارع لما فيه من المنفعة للمُدافع والخسارة الكبيرة للمُهاجم.

واجمالاً امتثل الرسولﷺ لأغلبية الآراء وإن كان يعلم بالنتيجة المصيرية فهو أراد أن يُعلم أصحابه على ممارسة الشورى حتى في أدق الظروف وأخطر اللحظات، فكان يستمع لآرائهم دون ملل أو كلل ولا مقاطعة فكانت عملية تشجيع وتربية عالية وراقية على إبداء الرأي حتى ولو كان مخالفاً. ولا نرى دليلاً أكثر نصوعاً وبلاغةً من هذا الموقف الذي عبر عن حُرية الرأي بكل مظاهرها وصورها وأشكالها وروحها.

ومع ما أودى هذا الموقف إلى خسارة المعركة إلا أن الرسول أراد أن يؤكد على ما يلي:

١- الاستمرار على صحة ممارسة أمر الشورى.

٢- إذا أجمعت الشورى على رأي فلابد للقائد ان يأخذ بهذا الرأي ولاحق له نبذه أو العمل خلافة، فعليه العزم والتوكل على الله.

٣- ترجيح أخف الضرر، فالرسولﷺ يرى أن التوهين بالعزيمة وافشال الشورى وانعدام الثقة أشد ضرراً من الخسارة العسكرية ومن هنا تأتي أهمية وعظمة منهج الرسالة والرسول في التربية وللأستفادة من دروس النكسة وأخذ العبر منها(المحقق).

جانب، والحضارة التجارية من جانب آخر، بين الوثنية الواسعة من جانب، والكتابية والحنفية من جانب ثان. بين الفراغ الجغرافي الواسع من جهة ومواقع المدن والدساكر، والثَغور، من جهة اخرى.

كذلك كان العالم الجاهلي يتسم بفجاجة قاسية، تبدو أية ديمقراطية لعبور أسيجة الانعزالية، والعداوات القبلية، نوعاً من الممارسات المذهلة التي تبدوا أكبر من سحر، وألا كيف يتهيأ لها- ممارسة- ان تنقل الاعداء (من هوية عربية واحدة، ولكن من قبائل متنافرة) الى ساحة الأخوة التامة، والعلاقة الديمقراطية الأصيلة؟

ومما اكسب تلك الممارسة الديمقراطية فرادةً خاصة انها وضعت الاسس الديمقراطية للمؤاخاة الدينية، التي تصدّى لها اليهود بدهاء دبلوماسي، تارة وبضراوة تارة اخرى.

وإن التعبير عن حرية الأعتقاد وجد صياغته في المعاهدة المبرمة مع اليهود وفي استلهام السياسة الواقعية في حل علاقة الاسلام بالديانات الكتابية الأخرى على اساس الأحترام، وأكثر من ذلك ان القرآن الكريم نهى عن مجادلة أهل الكتاب، إلا بالتي هي أحسن، فظلت المجادلة البناءة شعاراً نظرياً وممارسة تطبيقية رائدة.

وذلك، إنطلاقاً من توجيه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٦ (المؤلف).

ويُعد التأكيد القرآني على الانبياء والرسل السابقين وتقديس ذكرهم، نهجاً ثابتاً للرسول محمدﷺ وشجباً مبدأياً ثابتاً لأي استفزاز أواستفزاز متبادل.

وحيث ان مهمة الرسول هي البلاغ المبين انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1]. فقد أعلى الرسول من شأن التبليغ والتذكير، ورفض منطق السيطرة مستنداً بذلك الى مغزى الآية.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[2].

ووفقا لمنطق القرآن في ان المشيئة الإلهية هي التي تتولى ذاتها بذاتها، فان مصائر البشر الفكرية والايمانية لا يمكن فرضها بالاكراه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3].

وهذه الحبكة الفذة من الدلائل والاشارات، هي التي تجعل اشعاع الحرية لا نظير له في القول الرباني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[4] إذ ان مشيئة الفرد لا تعالج بالاكراه، والكبت، والدحر والمحاصرة، بل تعالج من خلال نمو المعرفة في مناخ الحرية التي لم يهبها السادة والامراء والقياصرة للانسان الفرد، بل هي هبة الله التي لا يستطيع أحد سحبها، وسحب حق الانسان في التمتع بها، إلا بارتكاب

---

(١) سورة النور الآية:٥٤ (المحقق).

(٢) سورة الغاشية الآيات:٢١-٢٢ (المؤلف).

(٣) سورة يونس الآية: ٩٩ (المؤلف).

(٤) سورة البقرة الآية:٢٥٦ (المؤلف).

ظلم واقتراف باطل.

وفي الواقع أراد القرآن، فض تأريخ الانسان اللا انساني، القائم على الاكراهات والضغوط القاتلة، التي هددت الحرية والكرامة الانسانيتين، على امتداد الحقب الزمنية المتعاقبة.

ولذلك خصّص طائفة من التوجيهات التي تشكل الدليل الذي يجب انتهاجه، وهوالبديل عن كل سياسة قمعية، وإكراه.

إن العلاقة بين المعرفة والايمان تحتاج الى تفهم ديمقراطي واعٍ، لا الى اسلوب استحواذي، قسري، طاغٍ، يعمد الى قتل الدماغ (أو غسلة بالأرهاب) وسحق الضمير، واستحصال الطاعة المطلقة بتشجيع ظاهرة الرياء، الوجة الآخر من التكيف المذعور.

فالمعرفة تجد حلها في تشخيص الافكار الصحيحة، عبر معرفة ذاتها، ولذلك فإن الحوار الديمقراطي هوالسبيل الوحيد لتحقيق القناعات الأيديولوجية.

وقد كرّم القرآن الجدل فدعا الى ان يتصف بالحكمة، والموعظة، وبالاغتناء بأحسن الافكار، وأحسن الاخلاق. فربما يعرض شخص افكاراً حسنة ولكن باسلوبٍ خشنٍ جارح، أو بعدوانية أكبر، وهذا غير لائق وغير صحيح.

وقد ورد في القرآن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ولم يضع طريقا آخر الى سبيل الرب، غير الحكمة

(١) سورة النحل ، الآية:١٢٥ (المؤلف).

والموعظة والمجادلة بالأحسن، وهي خيارات ملزمة للعارف المؤمن، ولا يحل سواها.

ويُقدم القرآن الكريم حجة عظمى لصالح حوار المعرفة، ورفض منطق الضغط والاكراه، بتقديم تعليم تربوي توجيهي، واضح في التعامل حتى مع الوثنين والمشركين، حتى مع اولئك يحث القرآن على عدم توجيه الطعن والسب لهم قائلاً: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨ (المؤلف)، شكل الحوار محوراً أساسياً في المنظومة الاسلامية، فالقرآن الكريم مليء بالنصوص الحوارية، ففي دعوته لأهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران، الآية: ٦٤) أو قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ، الآية: ٢٤).

أو في قوله تعالى: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ، الآية: ٢٥)، أو في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ، الآية: ٢٦)، ولم يخف على المتتبع للكتاب الكريم من رؤية مساحة واسعة من الآيات الحوارية وباشكال متعددة الاغراض والاهداف وفق مارسمه سبحانه تعالى من معطيات تربوية عن لسان انبيائه في حواراتهم مع مخالفيهم وتميزت بأفضل واكمل ما يكون الاسلوب الذي ينبغي أن يتبعه القدوة من الصالحين في دائرة بث الدعوة والتعامل الخلقي مع الناس ووفق ما تطمح له الفطرة الانسانية من استتباب الأمن وشيوع المحبة والسلام فضلاً عن المجال الأوسع والأرحب لانشاد الحق أوالوصول إلى ما يقترب منه، ضمن مسار تعاملية الحقيقة مع ما فيها من فاعلية واضحة لمدارك العقل وحركيته في الامتناع بعيداً عن التعصب والتحجر والانغلاق.

أساس متين:

إن الاسلام وضع أساساً متيناً لوحدة البشرية، بتعدد دياناتها وطوائفها المذهبية، باستيعابه الأسباب العميقة للتباين في العقائد الدينية، سواء من الناحية التأريخية أم من الناحية الواقعية.

كذلك، لأن حقائق الحياة متغيرة، ظل منطق الاسلام الجوهري مؤكداً على ضرورة التعايش، مثلما أوحي بذلك القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وقد ربط القرآن ربطاً محكماً بين الايمان بالله، والحياة الاخرى، والعمل الصالح، صائغاً بذلك ميثاقاً للعلاقة بين الديانات.

اما رسول الله ﷺ فقد شهدت سيرته على مزاولة الحوار والمشورة في اغلب المواقف. فعن أبن هشام في السيرة النبوية: قال أبن أسحاق: أنهم ذكروا، ان الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً انزلكه الله، ليس لنا ان نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هوالرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله، فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملوءه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون، فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأي. أبن هشام ق١: ص ٦٢٠ تحقيق أساتذه مصر.

(١) سورة البقرة، الآية:٦٢ (المحقق).

وحين تمرد اليهود على هذا الميثاق (ومعاهدته السياسية) اشتجر الصراع لا لأسباب دينية بل لأسباب سياسية. أي ان محمداًﷺ أعلن الحرب على اليهود بعد الفتن والمؤامرات واللعب السياسية التي لم يكفوا عن مواصلتها ضد الاسلام ونبيه الكريم.

وحين حصلت متغيرات كثيرة، مشفوعة بآيات قرآنية، بمثابة البوصلة (الدليل، والهادي) لم يكن ذلك ليعني إبطال مفعول أية آية قرآنية، بنسخها من قبل سواها، إلا بانتهاء الظروف وميلاد ظروف جديدة، على صعيد تطور المجتمع.

ذلك لأن القرآن الكريم هو (كلٌّ) متكامل، في مواكبته حقائق الحياة المتغيّرة والتي لم تخضع لطفرات فجائية تنقل البشرية من حال الى حال لاصلة لها بالحالة الاولى.

فكل آية كريمة يمكن الاستنباط منها الدلائل الخيّرة التي تخدم البشر.

وفي الواقع لم تمتحن البشرية بشيء مثل إمتحانها بمخاطر الصراعات المذهبية. فاليهودية والنصرانية ومن ثم الاسلام توزعت على عشرات الفرق المتناحرة.

وقد لمس محمدﷺ بنفسه الآثار المريرة الناجمة عن صراعات الفرق المتناحرة في الدين الواحد، والضرر الكبير الذي جلبته على وحدة المجتمع، وتطوره الانساني.

إن الانشقاقات المذهبية عرقلت مساعي الديانات الموحدة وخلقت

ازمات سياسية واجتماعية حادة، ومن هنا كان حرص محمدﷺ شديداً على وحدة البشرية، بطوائفها الدينية، على الصعيد العام، أما على الصعيد الخاص (أي القومي العربي)، فقد كان يقاوم بشدة الاقطاعية القبلية الاولى، ويحث على ان تمارس الأديان الموحدة دورها في دحر تلك الاقطاعية.

لكن الصراعات المذهبيّة داخل الديانة الواحدة، كانت تضيف الى الاقطاعية القبلية التقليدية اقطاعية جديدة هي الاقطاعية المذهبيّة.

ولم يقدم الاسلام حلولاً لتلك المرحلة فقط، ممثلةً في وحدة الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، بل قدَّم حلاً يصلح - أيضاً - لكل وقت، ما دامت ظروف البشر متشابهة، من حيث الواقع، في الصراعات المذهبية المتفاقمة.

ومن المهم - دوماً - التفريق بين الرؤية الدينية القرآنية، التي عبَّرت عنها الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ...﴾ وبين الموقف السياسي الذي أضطر إليه الاسلام في محاربة اليهود[1].

---

(١) عند ما دخل الرسولﷺ المدينة سَنَّ (صحيفة) أودستوراً للتعايش السلمي بين أصحاب الديانات المختلفة ومنهم اليهود بالخصوص، لهم مثل حقوق المسلمين في الأمن والمعاش فيما لوألتزموا بنود الدستور، وأهم ما فيه الدفاع عن المدينة من غزوات المشركين وهوما يساوي الدفاع عن انفسهم من خطر الغازين. فالرؤية الاسلامية تدعوا الى التعايش السلمي بين رجالات كل الاديان السماوية في أرض واحدة وحقوق وواجبات واحدة ولذا نرى أن علياًعليه السلام سجل مواقف كثيرة كان يدعو فيها الى احترام ومراعاة اصحاب الديانات الاخرى - الاقلية الدينية في المجتمع - ففي عهده، كتب الى محمد بين أبي بكر:

لأن الموقف السياسي كان بمواجهة فئة معادية، لا بمواجهة أهل كتاب. ولا يتعارض التعايش بين الديانات والمذاهب مع حق التبشير بأية ديانة ما دامت

«هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنينعليه السلام إلى محمد بن ابي بكر حين ولاه مصر، امره بتقوى الله في السر والعلانية وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد، وباللين للمسلم وبالغلظة على الفاجر وبالعدل عل أهل الذمة وبالانصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن الناس وبالاحسان ما استطاع والله يجزي المحسنين» الغارات ١ :١٤١ .

وانساب الاشراف: ١٩٣، وقال عليعليه السلام لجارية ابن قدامة لما ودعه: «ولا تحقر مسلماً ولا معاهداً» شرح نهج البلاغه ٣: ٢٨٢ لأبن ابي الحديد والطبقات الكبرى لأبن سعد٦ :٨٣، وقالعليه السلام: «لاايمان لمن يقتل مسلماً أو معاهداً» عوالي اللئالي ١٢ :٢٤١ ب ٢ ح٨ ومن ذلك يتضح ان منهجيةالاسلام المتمثلة بعليعليه السلام تدلل على شموليتها ورعايتها للاديان الاخرى فمثلما يكون الانسان المسلم محترماً وله حقوقه الكاملة، يكون بنفس المقدار من الحقوق والاحترام للانسان غير المسلم، ولم يكن في المنظومة الاسلامية كرهاً في الفكر والعقيدة أو تمايزاً في الحقوق والواجبات، فالرؤية الاسلامية للوضع الحقوقي للانسان بشكل مطلق تركّز على صون المواطنة في المجتمع ومقدار احترام الآخر لأمن المجتمع.

والبليغ من القول - بهذا الخصوص - ما طرحه السيد عزيز السيد جاسم في كتابه (علي بن أبي طالبعليه السلام... سلطة الحق) فهويقول كان تأكيد علي بن ابي طالب على فكرة «النظير في الخلق' تظاهي فكرة الركن الاول «الأخوة في الدين» وتضع اساساً لديمقراطية العلاقة بين جميع الناس من مختلف الملل والنحل، والاحزاب، والطوائف والأقليات القومية، وتحدد الإطار الحقوقي لحُرية الاعتقاد تلك الحرية التي لايمكن قهرها. انظر المصدر، تحقيق صادق جعفر الروازق: ٤٦٦ الطبعه الأولى، دار الغدير ٢٠٠٧ م.

شروط التبشير غير مجافية للحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى.

ان ذلك ليخضع عموماً الى حق الانسان الذي كرمه الله في حرية الاعتقاد، وضرورة ضمان تلك الحرية جماعياً وفردياً وفقاً لقواعد تنظم سلامة العلاقة الاجتماعية بجوهر انساني لا أثم فيه ولا عدوان.

في السياسة الخارجية:

الدلالة السياسية لرسائل محمد رسول الله إلى قيصر وكسرى

وجه الرسول محمدﷺ رسالة الى قيصر جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من محمد بن عبدالله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم.

«سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فأني أدعوك بدعاية الاسلام. أسلم تسلم. واسلم يؤتِك الله اجرك مرتين. فأن توليت فعليك إثم الاريسّيين. و ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1].

كما وجه رسالة الى كسرى فارس جاء فيها:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤ وانظر تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٧٧، تاريخ الطبري ج١ ص ٤٣٦ (المحقق).

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس:

«سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وان محمداً عبده ورسوله.

وادعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة، لانذر من كان حياً، ويحقَّ القولُ على الكافرين. فأسلم تسلم. فإن ابيتَ فان إثم المجوس عليك»[1].

والذي يتأمل هاتين الرسالتين الأكثر خطورة من بقية الرسائل يستغرب صدورهما من قبل الرسول، وهو لما يَزل يخوض صراعات شديدة على الصعيدين الخارجي والداخلي، رغم ما أتاحهُ له صلح الحديبية من جو سلمي نسبي على صعيد العلاقة المؤقتة مع قريش.

والصلح، من قبل قريش، قابل للنقض، في الظروف التي ترى فيها ان المسلمين يمرون بأزمة قوية، أي انها (وكما ثبت ذلك بعد معركة مؤتة) تنظر الى الصلح نظرة تكتيكية مصلحية يمكن التنصل بها، والغدر بالمسلمين في الظروف المؤاتية.

كما ان اليهود وحلفاءهم كانوا لا يزالون يشكلون تهديداً خطيراً ضد التجربة الاسلامية الرائدة في المدينة، إضافة الى ان هناك قبائل عديدة لا ترضيها

---

(١) السيرة النبوية لأبن كثير ج٣: ص٥٠٨، البداية والنهاية ج٤ ص٣٠٧، تاريخ الطبري ج ٢: ص٢٩٦ (المحقق).

ما آلت اليه المدينة من مكانة متقدمة في ظل الاسلام وتحت راية النبي محمدﷺ.

وبصرف النظر عن مستوى حدة الصراع والتفاوت في درجاته، فان موازين القوى تؤشر لصالح قوة الروم والفرس اللذين اقتسما مناطق نفوذهما على الساحة العربية، فالفرس كانوا مسيطرين على العراق وعمان وشرق الجزيرة العربية، واليمن، وكان الروم مسيطرين على الشام.

وتبرهن الرسائل على قوة النبي محمد الهائلة التي حفزته الى مخاطبة قيصر وكسرى مع ما يتمتعان به من جبروت بتلك السلطة العجيبة التي تنم عنها سطور كل رسالة، ببساطة طرحها.

إن الرسالتين الموجهتين الى قيصر وكسرى تعبران في كيفية مخاطبتهما لسلطتين متجبرتين، مستحوذتين على مناطق نفوذ واسعة، تعكسان الآية، فيبدوا المخاطِب(بكسر الطاء) هوالقوي أما المخاطَب (بفتح الطاء) فهو الضعيف. ترى هل ان ذلك هو واقع الحال؟

على صعيد جبروت السلطة والقوة العسكرية، والاحتلال، كان الروم والفرس سادة العالم، إذن أين تكمن قوة محمدﷺ؟ لا يمكن هنا إعطاء جواب حقيقي شافٍ إلا باستيعاب عظمة الرسالة الألهيةِ التي حملها محمدﷺ والتي جعلته يتحدث لا بقوته كفرد، مهما كان قائدا، ولا بقوة (المدينة) بالانصار والمهاجرين والقبائل الموالية. إنه كان يتحدث باللغة البسيطة الاعتيادية، ولكنها المنذرة، بقوة إلهية لايمكن إلا استشعار خطورتها.

وكثيراً، ما كان يحلو لبعض المستشرقين اللاهوتيين الحاقدين على

الاسلام، والذين كانوا يصورون العربي راكب البعير، وصاحب الشيح والصديم، والذي لا يجيد غير مقاتلة العربي من قبيلة أخرى، لا يستطيعون التوصل الى ادراك: كيف يستطيع العربي محمدﷺ أن يتحدى الملوك والقياصرة والأكاسرة، رغم انه ليس ملكا ولا حاكماً بل إنسان بسيط ليس لديه سوى قيادة الجماعة المؤمنة؟!

وفقاً لجميع المقاييس والاعتبارات في التحليل السياسي والعسكري، لا يستطيع أي قائد - غير محمدﷺ - أن يتحدى برسائل منذرة، طغاة العالم..

وحيث فعل محمدﷺ - وحده! - ذلك، فلأنه ذو رسالة، يحمل في أعماقه عظمة ما أوحي إليه. إن الرسالة الإلهية، التي جعلته خاتم الانبياء والوريث الاعظم لكل الرسالات المقدسة، يتحدى السلطتين الكبيرتين: القيصر وكسرى، هي التي وهبته قوة التحدي، واستصغار الخصم مهما كان جباراً عتياً. هذه هي النقطة الاولى في التحليل، وهي ضرورية جداً، وبدونها لا يمكن وضع اليد على النقاط الاخرى، التي تتصل بالموهبة السياسية والدبلوماسية الكبرى لمحمد.

من الناحية العملية، التطبيقية، كانت الممارسة المذكورة، ممارسة دفع الرسائل إلى حاكمي الروم والفرس، سياسة دبلوماسية مرتبطة ارتباطاً صميمياً بطبيعة الثورة المحمدية الكبرى.

فالدبلوماسية، في أصح الاحوال، هي وسيلة السياسة الجوهرية، في تمشية الأمور، وحل مشكلات العلاقة، وإجراء ترتيب في ميدان المتعارضات، لصالح الخط السياسي الاستراتيجي.

أي ان الدبلوماسية ليست إنسراحاً، أوممارسة اعتباطية، قد تصيب أولا تصيب بل هي نشاط مبرمج مرتبط بدقة بالاتجاه السياسي العام الهادف الى تحقيق الغايات المرحلية والاستراتيجية.

وتتضح القدرة الفذة في النهج المحمدي في ذلك التلاؤم الحيوي، المبدع، بين الاستراتيجية والتكتيك، وبين النهج الثوري الجذري، والدبلوماسية، وبين المقاومة والمعاهدات، في إطار الخط الاسلامي المحمدي الجريء..

لقد كانت الثورة المحمدية تأخذ نَفَس الاستراحة في صلح الحديبية، لأنها تواصل إشعال الحرائق الثورية لتصفية جيوب المتآمرين والاعداء الوثنيين، والمنافقين. وحين خاطب محمدﷺ، قيصر وكسرى، وسواهما بالرسائل الصارخة بالدعوة إلى الاسلام (أسلِم تَسلَم) كان الشعور القومي يتبلور بشكل جيد، لدى العرب وبخاصة وهم يرون أبعاد السيطرة الاجنبية على أراضيهم ومقدراتهم تزداد انتهاكاً لحقوقهم.

كانت رسائل محمدﷺ وسائل الدعوة الذاتية الى التحرير القومي من الاحتلال الأجنبي، كما كانت تهديداً مباشراً لقوى الفرس والروم العدوانية، التي تبدو قوى كثيفة قاهرة لا يفكر احد بالتصدي لها، فكانت الرسائل قد أشعلت فتيل الثورة، وقدمت لقبائل العرب درساً يناسب القيم الاخلاقية التي يتمتعون بها: قيم الشجاعة، والكرامة، والحرية، ورفض العبودية.

ويستطيع المرء أن يقدّر دور الرسائل الدبلوماسية في إطارها العام، والثورية في جوهرها، في تحريك الطاقات الثورية لدى العرب والتي أُصْمِتَتْ،

بسبب التمزق القبلي الذي فتح الابواب مشرعة أمام موجات العدوان والاحتلال والنهب.

كان عرب الجاهلية، بلا وعي حضاري وبلا حضور تأريخي راسخ... وبلا علم مُميَّز، لكنهم كانوا ذوي حميّة وأخلاقية عالية، في إطار قبلي ضيّق... وكان سلاحهم موظفاً في صراعات قبلية، وتجارية، ورعوية، لأن حدود الوعي كانت - لديهم - أقل من ان تصل الى مستوى الحد الأدنى من الوعي السياسي - القومي.

حينذاك، في فترة ميلاد محمدﷺ وحتى بعثته، كان العربي إما تاجراً، أو مزارعاً، أو راعياً، أو بدوياً متنقلاً. وكان العربي التاجر - في المدن - لولب الحياة المسيطرة على قسم مهم من أرض شبه الجزيرة العربية، مما حدا بـ(سترابون) أحد جغرافيي اليونان القدماء، الى القول: «ان كل عربي هوتاجر»، على ما في ذلك من مبالغة، بسبب الطابع الرعوي الغالب.

وكانت مكة والمناطق التجارية تتمتع باستقلالية خاصة، وبحرية، أما المناطق الزراعية فقد تعرضت لأطماع الغزاة والمحتلين من الروم والفرس، وخاصة المناطق التي تعد تجارية - زراعية في الوقت ذاته.

وكان محمدﷺ يطمح، وهوعلى ثقة تامة بان الطغاة الروم والفرس ليسوا من النوع البسيط، الى تثوير وتحرير العرب المستباحين سياسياً واقتصادياً.

إن مبادئة كانت تتجه نحو حرية المستعمَرين (بفتح الميم) والمستثمرين (بفتح الميم) من الكادحين والفقراء الذين كان المحتلون يسوقونهم سوق العبيد، ويسرقون قوة عملهم كأنهم أجراء أبديون في نير الاستغلال.

في الرسالة الثانية الى امبراطور الروم، كان الحديث مباشراً وباتاً، حول علاقة الفلاحين بالاسلام، فاذا لم يسلم امبراطور الروم، ويدخل في ميدان الاسلام بكل مبادئه واقتصادياته، (وهذا أمر محال، ولكن ثمة ضرورة اخرى وراء تلك الدعوة)، إذن فليترك الفلاحين وحقهم في حرية العقيدة، والانتماء الى عالم الاسلام. أي ان الكادحين، والفلاحين، (تواصلاً مع اليتامى والرعاة، والعمال...) هم مادة الاسلام التي يجب انتزاعها من براثن الهيمنة الأجنبية واعادة خلق وحدة العرب العاملين والمنتجين على سطح أرضهم المعطاء بأخوية، متبادلة المَنْح والتَضْحية.

كانت الدعوة لترك الفلاحين وحقهم في تقرير المصير، يقيناً لا يخطيء في ان الفلاحين مسلمون، أوسيكونون من أسرع الناس دخولاً الى الاسلام، شأنهم في ذلك شأن المستضعفين، وشأن الذين فُطِرَت قلوبهم على الطيبة والايمان.

جاء في الكتاب الآخر الى امبراطور الروم، من قبل محمد رسول الله: إني ادعوك الى الاسلام. فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. فأن لم تدخل في الاسلام فأعطِ الجزية فان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1]. وإلا

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩ وانظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين ج٤ ص٩٧٤، بغية الباحث للحارث بن أبي أسامة ص ٢٠٢ (المحقق).

فلا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه. أويُعطوا الجزية».

إن السياسة - وفقاً لهذه المتابعة - ليست فناً مجرداً، خالصاً، بل هي منطلقة من حقيقة أساسية هي المسألة الاجتماعية. فكل خط سياسي يمثل - بالحتم والضرورة - قضية اجتماعية متوعاة في مبادئ ومعطيات سياسية، وحيث كانت البداية الأرضية لمحمدﷺ (بداية الرعي والعمل..) أساساً لاستجلاب الكادحين، العاملين، المنتجين، العادلين، فان الساحة واسعة لكل مؤمن بالعدالة الاسلامية، لكي يتعاطى الاخوية الاسلامية، مهما كانت درجة ثرائه، في التشاركية الاسلامية، الانسانية الصادقة، لقد كانت سياسة محمدﷺ ودبلوماسيته دقيقة الانشداد بالاعتبارات الألهية، وبالاعتبارات الانسانية المثلى التي يظل المثل الاعلى فيها، ما يبدعه العمل العقلي، والعمل اليدوي، بحرية وكرامة تامتين، تعيدان فهم معنى السمو الألهي في أعماق الانسان.

الفصل التاسع

العبقرية المحمدية
في التطبيق العسكري

العبقرية العسكرية لمحمد في التطبيق (*)

إن المستشرقين والمؤرخين والكتاب الغربين الذين رددوا - الى حدّ الاسفاف - رأياً متهافتاً مؤداه ان محمداً ﷺ رجل دموي عنيف، ينطلقون من عداءٍ تقليدي للاسلام وللنبي الكريم[1].

(*) يوجد ملحق في آخر الكتاب باسماء وعدد الغزوات التي قادرها الرسول ﷺ بنفسه (انظر ملحق رقم١) (المؤلف).

(١) ليس بعيداً عن العجب، بل هو العجب بنفسه، أن تُصدِّر دوائر الأمم المتحدة ذات العلاقة بالشأن الإنساني وحقوقه، بيانات وقرارات تشرّع له حق ممارسة الكفاح المسلح والدفاع عن مظلوميته وسواء كان بنفسه أو بالاشتراك مع مجموعة آخرى، ضمن اطار عمل مسلح خاص بهم.

في حين أن دعوة الرسول ﷺ وفي بادئ أمرها في مكة هو وأصحابه لم يمارسوا هذا الحق وتدرجوا بسياسة الدعوة السلميّة، ومع كل هذا يصفها المستشرقون بانها دعوة قامت بحد السيف ومنطق القوة بعيداً عن لغة الحوار والحب والتسامح والصفح والعفو، وكأنهم أرادوا فصل هذه الدعوة الخيرة عن دعوة عيسى عليه السلام كون ان دعوته أتسمت بالحب والود والسلام، وما يدرينا لوان الرومان لم يُعجّلوا بإعدامه عليه السلام وهو في سن الثلاثين من العمر لكافح كفاحاً مسلحاً من أجل ادامة دعوته السلمية وأسلوبها العامر بالمودة والإنسانية!! ففي الوقت الذي يُشكل به المستشرقون على أسلوب الدعوة

الإسلامية، هُم أنفسهم يكتبون بنود ديباجة حق الكفاح المسلح في عصرنا الحاضر ويجعلون منها حقاً مشروعاً في الدفاع عن الفكر والعقيدة والمذهب، بل وتحسين الوضع السياسي وتغييره إن أمكن!

فما أجازوه من قوة السلاح في عصرنا المتحضر ما لم يجيزوه للرسولﷺ في عصرٍ كان لا يعرف إلاَّ لغة السيف والقوة، ومع كُلّ ذلك سارت الدعوة بطرقها السلميّة، حتى آخر لحظة من حياة الرسول الكريم ' فَقَهر سيوف المشركين، وعقلية الغلبة، ومنهج السلب والنهب والغزوات، حتى أنه قَنّنَ الأخيرة بمنهج مسالمٍ ملئه الحكمة والموعظة، والرحمة، والحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن.

(نص ديباجة الأمم المتحدة).

من مراجعة الأعمال التحضيرية للفقره الثالثه من ديباجة الإعلان العالمي تشير الوثائق ومحاضر المناقشات الى ان تركيز المشروع الاصلي لهذه الفقرة كان منصباً على تكريس الحق بالثورة أو التمرد كما ورد في الماده ٣٣ من اعلان حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا عام ١٧٩٣ التي نصت على أن مقاومة الاضطهاد وهي نتيجة لحقوق الانسان الأخرى. وكان النص الاصلي المقدم من الامانة العامة للأمم المتحده كما يلي: ((كل فرد له الحق بمقاومة الاستبداد بنفسه أوبالاشتراك مع الآخرين)) وما ورد في ديباجة الاعلان العالمي يفسر خلفية تكريس مشروعية ممارسة الشعوب بمقاومه الاستبداد وخاصة الاستعمار بكافة الوسائل بما فيها الكفاح المسلح، علماً بان الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أكدت في العديد من القرارت بأن الاستعمار والعدوان والاحتلال الاجنبي والمساس بالسيادة الوطنية والعنصرية بكافة أشكالها تشكل بحد ذاتها انتهاكات خطيرة لحقوق الانسان ونشير على سبيل المثال الى القرار المرقم ٣٢/ ١٣٠ بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٧٧ بما يؤكد بأن ممارسة الشعوب المستعمرة للكفاح المسلح هي رد طبيعي على الانتهاكات الخطيرة

أما اولئك الذين لم تواتهم فرصة الاطلاع على الحقائق الاسلامية التأريخية، فهم غير معذورين، لأن الرأي الظالم والتهجمي قد يصح إطلاقه على أفراد عتاة مثل (جنكيز خان) و(أتيلا)؛ لا على أنبياء ورسل، إضافة الى ذلك، إن محمداً ﷺ المدعوم بالوحي (لأنه نبي مرسل) كان أيضا - يتمتع بمعرفة شاملة، تدل عليها أحاديثه الشريفة، وتطبيقاته المبدعة التي ألهمت أصحابه الذين قادوا الدولة الاسلامية بعد وفاته.

ويقع في خطا مقابل أولئك الذين يردون على الاتهام الظالم الذي أصرَّ عليه المغرضون من مفكري ومؤرخي الغرب والذين يعمدون الى البرهنة على ان النبي محمداً ﷺ كان مسالماً، وديعاً الى آخر ما تعنيه صفته المسالمة والوداعة.

ففي واقع المسيرة المحمدية، كان محمد ابن الصراع، الذي خاض معترك الكفاح في جميع جوانبه، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية بعامة.

وقد كانت القضية الاسلامية التي دعا اليها، ملهماً بكلمات الله، ومدعوماً بقوة ايمانه الشخصي الشديد، هي الحق المتلألئ - على صغره منذ البدء - في عالم الصحراء وقد توجه نحو قضيته باخلاص عميق تسوقه العناية الربانية وتتجلى فيه طاقات انسان قائد.

لحقوق الانسان التي كانت هذه الشعوب ضحيتها.

«انظر تفاصيل الأكثر من هذه الديباجة في كتاب الجهاد فكراً وممارسة: ٣٦٢ مجموعه با حثين اعمال الندوة العربية بيت الحكمة بغداد ٢٠٠٢ م». (المحقق).

ومن المؤكد ان قضيتهُ تطلبت منذ الوهلة الأولى خوض صراع لايمكن إلا ان يكون شديداً، ولوكان بالمستطاع تحقيق الهدف الاسلامي، بالسلم والمجادلة لكان في ذلك الخير كل الخير، لقد كانت موازين القوى السائدة في مكة (بخاصة) والجزيرة العربية (بعامة) تشير الى أن محمداًﷺ مقبل على قتال شديد ومتنوع اي ان الحرب كانت محتومة وقد كانت واردة في ذهنه منذ أن صغى الى كلمة الله التي حملته الرسالة.

من هنا، فان جميع الوقائع القتالية التي حصلت، كان لابدّ ان تحصل، وفقاً للسيرورة التي تمت بها، ذلك لأن الحروب لاتقررها الرغبات بل المصالح الحيوية المتصارعة، والتي تواجهها التهديدات المقابلة لها. إن محاولات تجميع الحوادث ووضعها في سياق البرهنة على مسالمة محمدﷺ من قبل بعض الكتاب العرب لا معنى لها، لان محمداً لم يأت مسالماً، بل جاء حاملاً معول تهديم أوتان قريش وعصبياتها الاساسية في المال والجاه والقوة.

بالتأكيد انه نبي الرحمة، والسلام لكن تحقيق الرحمة والسلام كان مستحيلاً بدون تحقيق القضية الاسلامية، فقد قرن القرآن الكريم السلام بالايمان، ودعا المؤمنين الى السلم لأنه هدف انساني شامل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1].

---

(١) سورة البقره (المؤلف)، سورة البقره الاية: ٢٠٨ (المحقق).

من هم اعداء السلام؟ هم اعداء الايمان... منهم اعداء الايمان؟ هم اعداء الله واعداء الانسان إذن... كان الصراع الذي خاضه محمدﷺ قراراً استوحاه من المشيئة الالهية، وتهيات له كل جوارحه.

ومن هذا المنطلق تفاقم الصراع، وازدادت حدته، وكثرت المعارك والحروب، التي كانت حتمية لا رادَّ لها. إن إظهارا محمدﷺ - من قبل بعض الكتاب - بصورة من يتحاشى القتال، محملاً ذلك التحاشي قيمة أكبر من الحجم الحقيقي لقيمته الواقعية هو إسقاط تسووي، نفاقي، يسحب من محمد رسالته المقدسة، ويجرده من قدرته التاريخية الفذة التي أسهمت في تكوينه أمة عربية، كانت هملاً مبعثراً في قوالب قبلية متنابذة متحاربة.

وهذا الاسقاط هو الذي يتجاوب مع المنطق التأويلي المزيف لحكاية (الغرانيق العلا)[1] أو هو وإياه، وجهان لعملة واحدة فقد كان الذين عمدوا الى

---

(١) بالطبع ليس هناك فرقة من المسلمين أقرت هذه الإضافة المتهافته التي لم تصمد أمام عصمة النبيﷺ في تبليغ ما أنزل عليه من الوحي. يقول ابن أبي الحديد مستعرضاً أقوال المتكلمين فمنهم من قال: يجوز الغلط عند الأنبياء فيما لم تكن الحدة فيه مجرد خبرهم، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه، كما وقع من النبيﷺ في هذه الصورة، فإن قوله ذلك بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجى شفاعتها، فأما ما كان السبيل إليه مجرد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة باخبارهم.

وقال قوم منهم: إن الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم إذا لم تجر تلك الافعال مجرى بيان الوحي، كبيانهﷺ لنا الشريعة و لا يجوز عليه الخطأ في غير حال البيان، وإن كان

الوضع المشبوه، لـ«الغرانيق العلا. ان شفاعتهن ترتجى» في سياق سورة النجم يريدون البرهنة على حصول تسوية بين محمدﷺ والمشركين، بقبوله أوثان قريش ومديحهُ إياها، للتكيّف معها، وتجنب خوض الصراع الدامي. لكن ذلك التشويه الافترائي لم يكن بذي أثر على تيار الدعوة الاسلامية الذي شقَّ طريقهُ بقوة(*).

يجوز عليه ذلك في غير حال البيان، إلا أنه لا يجوز أن يخطأ فيما أنزل عليه من تبليغ الوحي، لأنه حُجة الله على عباده، فأما في أقواله الخارجة عن التبليغ، فيجوز.

أما عن متكلمي المعتزلة، فيقول ابن أبي الحديد: فمنهم من دفع الخبر أصلاً ولم يقبله وطعن في رواته، ومنهم من اعترف بكونه قرآناً منزلاً وهم فريقان: أحدهما يقول بأنه كان وصفاً للملائكة، فلما ظن المشركون أنه وصف آلهتهم، رفع ونهى عن تلاوته، وثانيهما القائلون: أنه خارج على وجه الاستفهام بمعنى الانكار، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته.

ومنهم من قال: ليس بقرآن منزل، بل هو كلام تكلم به رسول اللهﷺ من قبل نفسه عن طريق الانكار والهزء بقريش، فظنوا أنه يريد التحقيق، فنسخه الله.

ونقول: أن هذا المتهافت الذي طَبَّل له المشركون لا يصمد أمام ما وصف به النبي في آياتٍ كثيرة، ومنها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ (الحج، الآية: ٥٢) أو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان، الآية: ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (الأعلى، الآية: ٦)، أوقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦) (المحقق).

(*) سياق سورة النجم: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ

كان محمد يفضل السلم على القتال، ذلك أمر لا شك فيه، بشرط واحد، وهو ان يؤدي السلم الى تحقيق الهدف، وقد كان لا يمنع أية محاولة لتجنب القتال، مدخلاً في حسابه مصلحة القضية الاسلامية.

بمعنى انه كان ينتهج كل الاساليب السلمية الممكنة والتي يمكن ان توفر للدعوة الاسلامية نجاحاً فعلياً، غير ان تلك الاساليب لم تكن هي الوسيلة الرئيسة لتحقيق الانتصار، استناداً الى دراسة طبيعة العدو الوثني وإمكاناته المادية والعسكرية والبشرية ونوع تفكيره.

ومن هذا المدخل يمكن القول ان عظمة محمدﷺ لا يُساء لها البته بالتحدث عن الغزوات القتالية والمعارك الكثيرة التي قادها بنفسه، والعكس هوالصحيح، إذ ان الممارسة العسكرية العملاقة لمحمدﷺ هي من مصادر ومزايا عظمته. ومن المؤكد ان الاسلام ماكان لينتصر لولا تلك الممارسة العسكرية الجبارة.

الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (الآيات: ١٨-٢٣).

اما التزييف فقد وضع إضافه ضمن السياق المذكور على هذا النحو:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (النجم، الآيات: ١٩-٢٣) وهو دس مفضوح ووضع متهافت (المؤلف).

ولا بـد من التأكيد هنا الى ان حقيقته العسكرية ليست مقطوعة عن نوعية الكفـاءة الحـيوية، فالعـسكرية لاتنبـثق إنبـثاقاً سحرياً، بل هي تنطلق من خلفية المـؤهلات العملـية الشخـصية ثـم يجـري اعدادها وتطويرها على نحوٍ اكتسابي ملموس.

وقـد توفرت في محمدﷺ كل المؤهلات العظيمة، قبل البعث، ليكون قائداً اجتماعـياً ومـصلحاً عظيماً، وذا جدارة عسكرية دفينة لا تنطلق إلاّ في الفعاليات العسكرية.

ولعـل بدايـة عملية الهجرة من مكة الى المدينة خير بيان بالقدرة العسكرية لمحمـدﷺ ذلك انه - وهوالمستهدف - من قبل قريش التي ما كانت ترضى بغير قـتله - ظَـلّ يواصـل الاشراف عـلى هجـرة اصـحابه المعذبـين والمستـضعفين والمحارَبـين حتـى استكمل ذلك نهائياً، دون ان يثير ريبة قريش، متمكناً في ذلك مـن الاطمئـنان عـلى مـصير اصـحابه (جنده) اولاً، ومعطياً صورة جليلة لدور القائـد في شـجاعته وقـيادته لتفاصيل عملية الهجرة ثانياً، رغم انها كانت زاخرة بعوامل مأساوية.

وتكـشف عملـية الهجرة عن ان الرسول لم يكن ليترك الامور على مجراها، لأنه - بطبيعة رسالته وطبيعة شخصيته - يرفض الامتثال للظروف، ولا يسمح لنفسه ان يبقى محشوراً في الزاوية المفروضة عليه من الخصم، بل كان حريصاً على تسلم زمام المبادرة وإدارة دفة الحدث الذي يتعلق بالقضية الاسلامية.

إن عملـية الهجـرة تكـشفت عـن جدارة قائد ذي عقل تنظيمي قادر على

الامساك بالخيوط من الجانبين: تهجير وإبعاد اصحابه عن قبضة قريش العدوانية من جانب، وإيهام قريش بوجوده، وبهدوء الجبهة (جبهة قريش وما ينطوي عليه داخلها) من جانب آخر.

وحين ابتدأت الهجرة، كانت مرحلة اولى قد انطوت، تلك هي مرحلة تحقيق الفوز بالجدال، فقد كان محمدﷺ يستلهم سلوكه من الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

ولكن اعداء الله كانوا لا يعرفون غير العنف فكان الرد على العنف بالعنف، الجواب الوحيد الذي انجزته مرحلة ما بعد الهجرة.

وباقتران مرحلة المدينة بالغزوات، والمعارك، والقتال بصورة عامة، تبدأ المرحلة العظمى في الاسلام، ومن هذه المرحلة الطويلة استقى المّحرفون من المستشرقين ومؤرخين غربيين شواهدهم للبرهنة على دموية محمدﷺ وحبه للقتال، متناولين القتال بمعناه المجرد، لا بمعناه الحسي، العياني، التأريخي المشروط.

وهم - المحرفين والمغرضين - لم تعوزهم الأدلة الشكلية البحتة في بيان افتراءاتهم، مستندين الى معلومات ذات طبيعة كمية في تطور القتال، دونما بذل أي جهد تمحيصي، للحقائق النوعية في التطور المذكور.

ان تصعيد القتال بعد الهجرة الى المدينة أغرى أولئك المبغضين بنسج تهمة

---

(١) سورة النحل، الآية:١٢٥ (المحقق).

النـزوع الى القـتل، في حـين كـان التصعيد عملية بلورة للقوى الاسلامية بمادتها البـشرية العـربية الفتـية، كـان يـترتب علـيها إما ميلاد الحياة العربية الاسلامية الجديدة، أوإخفاقها.

من زاوية اخرى، ان بعض الكتاب العرب في تناوله للغزوات والمعارك - قـيد الحـديث - يـضع المـسلمين في موضـع رد الفعـل، أوالاجابـة مـن جهة السلب، غالباً باتباع المنهج الذي يظهر قريش والمشركين في حالة هجوم، ويظهر محمدﷺ ومعسكره في حالة دفاع المضطَّر.

يـترتب عـلى المنهج المذكور تصوير معارك وغزوات المسلمين، وكأنها غير منهجـية، غـير مدروسـة، تجريبية غير مشروطة بأهداف هجومية، وهذا هو خطأ فادح في دراسة التاريخ العربي الاسلامي، في أهم واخطر مرحلة من مراحله هي مرحلة صدر(صدر الاسلام) والتي تعتبر الدرة النفيسة في كل تأريخ العرب، إن الخطـأ المذكـور يغـرق تلـك الـدرة النفيسة (التجربة الرائدة في تجارب ما تسمى بالمدن الفاضلة، والجمهوريات المثالية) في مياه التحليلات السطحية.

لقـد كـان تـصعيد القـتال مدروسـاً، ومخططاً له، ومرتبطاً بهدف كبير هو هـدف بـناءً المجـتمع العـربي، بـناءً إسلامياً، من خلال استعادة بيت الله، ومكة، والمـدن العـربية، وترصـين وحـدة الـرابطة العـربية في شـبه الجزيـرة العـربية، وخارجهـا، وكـان ضرورياً، ضـمن الـتوجه المذكـور، فتح مكة القلعة المتجبرة بأهلها الوثنيين، وبأصنامها، من خلال رفع مستوى المعارك الموجهة، تساوقاً مع خطـط اخـرى في الحـصار الاقتصادي، وإقامة التحالفات القبلية، وكان لا بد -

حينذاك - من التأكيد على تغيير قبلة المصلين من المسجد الأقصى الى مكة، لأن مكة كانت هدف الإسلام.

إن التكامل في الخطوات على طريق بناء المجتمع العربي الاسلامي، يقوم - اساساً - على التكامل في العمليات العسكرية، التي كان بيدها الحسم الرئيسي.

بهذه الرؤية تُستبعد الآراء التي تفترض ان لكل معركة يخوضها المسلمون اسباباً عدوانية مباشرة فقط (من قبل قريش، أوهوازن وثقيف، اومن قبل الروم والفرس، الخ...) لقد نشأ الاسلام، ونما، وترعرع، وتعاظم، من خلال الهجوم، لا من خلال الاكتفاء بصد الأذى، ورد العدوان.

كانت الآية القرآنية الأولى التي اعلنت مشروعية القتال هي:

﴿يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

بعد أن كان قد نهي عنه في نيف وسبعين آية[2] تقديراً لظرف المسلمين المستضعفين في مكة.

---

(١) سورة الحج (المؤلف) سورة الحج، الآية: ٣٩-٤٠ (المحقق).

(٢) د. الحسيني ابو فرحه (فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة) (المؤلف).

و«يقول ابن القيم: «ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة وكان محرماً ثم مأذوناً به. ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين»[1].

وقد أبدت خطوات النبي محمد القتالية، المستلهمة من الآي الكريم دليلها النظري، ملاءمة شديدة الذكاء بين قوة المسلمين المتنامية وبين قوة الحركة القتالية. فلم يُحمّل المجتمع الاسلامي أكثر من طاقته، لأن ذلك قد يؤدي الى انتكاسات بالغة فكانت الخطوة القتالية بمستوى القدرة.

فكان القتال الأول صداً حازماً للمعتدين على الاسلام تطبيقاً لقوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2].

وتطورت القوة الاسلامية الثورية، فأصبحت الضرورة متطلبة تكثيف الهجوم الاسلامي على معاقل الشرك والكفر أينما كانت، وذلك لنقل المعركة من حدودها الأولى، حدود التضييق على حركة الاسلام، وتحجيمها، الى حدودها الجديدة: المبادرة الهجومية، وفرض الدفاع على المشركين.

كما جاء في الآي الكريم:

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

---

(١) وانظر سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ج٤: ص٥ (المحقق).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠ (المحقق).

فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

و«لما كان الأمر بقتال المشركين على الاطلاق في جميع الاحوال مما يشق على النفوس، نفوس البعض، عالج القرآن تلك الكراهية علاجاً فطرياً ناجعاً. فقال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وفي الخط البياني لتصاعد مراحل القتال، وتنامي قوة المسلمين، وما رافقها من خطط سياسية ودبلوماسية، وأنشطة اقتصادية، كان الابداع المحمدي متمثلاً في إبتكار أساليب جديدة للقتال واذا ما لجأنا الى مقارنات ضرورية من حيث الاسلوب (والشكل) لا من حيث المحتوى، يمكن القول ان محمداً ﷺ هوالمبتكر الاول لـ (البؤر الثورية) وخاصة في تأسيس بؤرة (المدينة) الاسلامية التي اصبحت القاعدة العسكرية الاولى للاسلام ومنها شن المسلمون طرازاً من الحرب، من إبتكار النبي، وهوطراز ما يسمى الآن بـ(الكفاح المسلح) والذي كانت تقوم به فصائل المسلمين الثورية المسلحة بطرق غير مألوفة.

وكانت عمليات الكفاح المسلح تهدف الى ضرب بعض مواقع ومرتكزات العدو الوثني، وتدمير مصادر تنميته الاقتصادية وروافد قوته

---

(١) سورة التوبة، الآية:٥ (المحقق).

(٢) سورة البقرة، الآية:٢١٦ (المحقق).

العسكرية، إضافة الى انها كانت تهدف الى ضرب تحالفات العدو؛ وكسب بعض الحلفاء أوتحييد قسم من القبائل في الصراع الدائر بين الاسلام والشرك[1].

---

(١) لم تترك الرساله في منهجها أصولاً وثوابت للجهاد- القتالي إلا وحددت هذه الأصول لألى يعم القتل والدمار للأبرياء والمحسنين من غير المسلمين، لأن غير المسلمين ليس بالضروره جميعهم مشركين يكنون العداء والظلم للمسلمين وربما هذا هو أحد معالم أصول الجهاد القتالي الذي منح شريحة من الناس رحمة العدل الاسلامي، وأثار في نفوسهم حباً لهذا المنهج الجديد الذي يقاتل من إجله أحرار الجزيرة العربية آنذاك.

وقد برّزت النصوص القرآنية هذه الأصول ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة، الآية: ٨ ٨).

وقوله تعالى:﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، الآية: ٩٠).

وكما أدت بعض النصوص المقدسه أعلاه بعدم مقاتله المسالمين والحياديين.

هناك نصوص أيضاً أكدت على عدم محاربة وقتال المعاهدين وباحترام عهد المعاهدين ما احترموه، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد اكدت وقائع السيرة النبوية ان جميع حروب الرسولﷺ كانت حروب تعتليها الرحمة والرفق والعفو والصفح عن الضعيف حتى وان كان مشركاً. وكان يوصي أصحابه بجعل الألفه بين قلوب الناس والرفق بهم، وهويقول لهمﷺ:«انطلقوا بأسم الله وعلى ملة رسول اللهﷺ، لاتقتلوا شيخاً فانياً، ولاطفلاً صغيراً ولا امرأة، ولاتغلوا – اي ولاتغدروا-، وأصلحوا

كانت عمليات الكفاح المسلح (والتي تسمى حينذاك بالغزو لا تهدف بالدرجة الاولى الى كسب الارض والاستمكان فيها، بل كانت تهدف الى تدمير مصادرة قوة العدو الوثني أولاً وفي حالة كسب جماعة من العرب في منطقة معينة، فانهم يعهدون اليها ادارة شؤونها بنفسها، تحت إشراف مبعوث من النبي،

وأحسنوا ان الله يحب المحسنين»(نصب الراية للزيعلي ٣: ٣٨٦). ومن وصاياه أيضاً: «سيروا باسم الله في سبيل الله تقاتلون عدوالله، ولاتغلوا، ولاتغدروا ولاتمثلوا، ولاتقتلوا وليداً (السنن الكبرى للنسائي ٥: ٢٦٠). وقالﷺ يوصي خالد بن الوليد: «لا تقتل ذرية ولا عسيفاً أي أجيراً» (السنن الكبرى للنسائي ٥: ١٨٧).

بعد ذلك، هَمَّ الرسولﷺ على تقوية جيش المسلمين وان يكونوا على هبة الاستعداد في الدفاع عن كيانهم وكيان الاسلام وحفظ فكره وعقائده، فانزل الله تعالى قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦٠-٦١).

ويتضح مما تقدم أن الجهاد القتالي، هومسألة مباحة ومشروعه في كل قوانين الأمم طالما يستهدف الدفاع عن النفس ودفع الظلم.بل هومكمون بالفطرة التي جبلت مع النفس، فلا يمكن أن يعتدى على شخص وتُهدد حيثياته وأصله ووجوده وكيانه ولم يشهر سيف الدفاع عن نفسه! فكل الاديان السماوية والأنظمة الوضعية تَقرّ بمنطق الدفاع عن النفس، رغم ما فيها من نصائح وتعاليم السماحة والعفو والصفح. بيد أن الدفاع عن النفس لا ينضوي تحت هذه التعاليم إلا لمن قدر فعفى.

أو من بين الجماعة نفسها، وخاصة اذا كان كبيرها، استناداً الى قول محمدﷺ «خياركم في الجاهلية، خياركم في الاسلام اذا فقهوا»[1].

لقد أخذت جميع مدارس الحرب الثورية اسلوب البؤر الثورية والكفاح المسلح، من تجارب كفاحية قريبة، لكن الأصل البعيد لجميع هذه التجارب، هو الاسلوب المحمدي في الحرب الثورية التي كانت شعبية وعسكرية في آنٍ واحد لأن المواطن المسلم هوالجندي ايضاً.

إن تضليل بعض المستشرقين؛ وبعض المؤرخين الغربيين، ماثلٌ في تركيزه السيء على كلمة (غزو) بمحمولها الجاهلي، إي ان كلمة (غزو) جردت من معناها الاسلامي الثوري، وأعطيت معناها الجاهلي، حيث كان الغزو لأجل الغزو والسلب والنهب والانتقام مسلكاً سائداً.

إن الغزوالاسلامي، كان يحمل مضموناً تحريرياً، هومضمون ضرب معسكر الكفر والوثنية و(الربوية) في مواطن ضعفها، وفي مناطقها الحساسة، تمهيداً لضربها في الصميم. وهو - بهذا المعنى - ذروة الثورة الانسانية، ثورة التوحيد والعدل. هذا الملحظ، ملحظ عصري، فيه مقاربة ضرورية للتوضيح، لكن المنطق الاسلامي،

---

(١) انظر المجموع لمحي الدين النووي ج١٦: ص ١٨٣، والمبسوط للسرخسي ج١: ص ٣، نيل الاوطار للشوكاني ج٦: ص ٢٦٢، مسند أحمد بن حنبل ج٢: ص ٤٨٥، المصنف للصنعاني عبدالرزاق ج١١: ص ٣١٦، كنز العمال ج١٠: ص ١٥٢، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج٣: ص ٦٢٠ (المحقق).

يحدد معنى كلمة الغزو بـ(الجهاد) الذي هومبدأ، وفريضة ونهج.

إن الجهـاد هوالمقاتلة في سبيل الله، ومن إجل خير المجتمع وأمنه وسلامه، وذلـك بدحـر الوثنـية والـسمات الـشريرة في الحياة الجاهلية. في هذا الاطار كان محمدﷺ يحث على الغزو:

«مـن لم يغـزو، أويجهـز غازيـاً، أو يخلـف غازياً فى أهله بخير، أصابه الله بقارعة، قبل يوم القيامة»[1].

وقـال: «مـن مـات ولم يغـزُ، ولم يُحـدث نفسه بغزو، مات على شعبةٍ من النفاق»[2].

وحين يتحتم فهم التأكيد (من قبل محمدﷺ) على الغزو، من خلال نظرة غـير اسـلامية، اوغـربية مثلاً، فبالأقل، يجب أدراك طبيعة المرحلة الانتقالية من (الجاهلـية، الـشرك، الـربوية، الفـساد) الـى (الاسـلام، العدالـة، بـناء الوحدة الـسياسية للعـرب، التصدي للمشكلات المعقدة). فقد كانت الصراعات الحادة

---

(١) انظر سنن أبي داود ج١: ص ٥٦٢، سنن البيهقي ج٩: ص ٤٨، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٥: ص ٢٨٤، المعجـم الأوسـط للطـبراني ج٨: ص١٨٠، مـسند الشاميين للطبراني ج١: ص ١٧٠، ريـاض الصالحين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ): ص٥٣٩، كنز العمال ج ٤: ص٢٩٣، علـل الـدار قطنـي ج١١: ص٨١، تـاريخ مدينـة دمشق ج٣٧: ص١١٢، (المحقق).

(٢) سـنن البيهقـي ج٩: ص٤٨، الـدر المنـثور للـسيوطي ج١: ص٢٤٥، الـتاريخ الكبـير للبخاري ج٦: ص١٩٢ (المحقق).

على جميع الجبهات، وفي جميع الزوايا، التى شهدت المخاض الكبير.

فالدلالة الجهادية - إذاً - هي الدلالة الاسلامية الوحيدة التي كانت تعنيها كلمة الغزو وفي واقع الحال كان الجهاد هوالطريق الوحيد لنشوء الاسلام وقوته وانتشاره[1].

---

(١) وهذا ما لايمكن أن نتفق مع المؤلف فى تصوره عن الدلالة الجهادية عند المسلمين الأوائل كونها تعني الغزو فقط وفقط!! بل أن كملة الجهاد تعني العمل على كل الأصعدة السلمية والعسكرية. ولذا يعتقد البعض ان الاسلام أنتشر في بقاع العالم من خلال قوة السيف! وربما يكون ذلك استشهاداً بكلمة الجهاد التي ذكرت في موارد مختلفة وعديدة في النص القرآني. والانكى ان في عصرنا الحاضر أصبحت كلمة الجهاد توّظف وفق أطر سياسية تصطبغ بالصبغة الدينية وتعلن حالة الجهاد شعاراً لها، دون ان تستكمل الشروط الحقيقية لمعنى الجهاد أو ما توافق من توظيفها في عهد الرسولﷺ والخلفاء. ولذا فإن التركيز الاعلامي على ما يسمى بالحالات الجهادية لبعض المجامع السياسية - الدينية، أودت في كثير من الأحيان الى تشويه حقيقة هذه المفردة المقدّسة في معناها وصدق توظيفها، وهذا مما ينعكس على صورة الاسلام وكأنه دين الأرهاب والخوف والقوة، وليس دين الحب والتسامح والسلام. هذا فضلاً عن البحوث التي تُظهر إن الرسولﷺ مارس الجهاد بعد ان قويت شوكته وكثر انصاره في المدينة ولذا فإن آيات الجهاد هي آيات مدينة ولم يكن له معنى فى الآيات المكية التي دلت على السلم والسلام والدعوة بدون السيف والقوه!

أي ان صورة الجهاد طبعت بطابع القتال وما فيه من الهجوم والدفاع! وبعبارة أخرى يتبادر من خلالها الى الذهن فوراً الى إراقة الدماء وإشعال الحروب وهذا ما يعزز أقوال

المستشرقين من ان الاسلام انتشر بِحَدّ السيف، خلاف حقيقة اعتماده على العقل والمنطق. وربما يعد ذلك من اكبر التهم الموّجه للإسلام والمسلمين.

والحقيقة ان هذه المزاعم والاتهامات لاتستند الى أساس من الحقائق العلمية أوالوقائع التأريخية، لأن أستقراء النصوص الجهادية تقوم أولاً على إصلاح النفس وإصلاح الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة قبل ان تقوم بقوة السيف في الدفاع عن العقيدة وعن الظلم الذي لحق بأصحاب الرسالة.

ولذا من الخطأ ان أُولى آيات الجهاد نزلت فى المدينة بل نزلت في الفترة التي كان فيها الرسولﷺ في مكة وهي تأمر المسلمين جهاد اعدائهم بالقرآن قبل جهادهم لهم بالسلاح. فكانت وسيلة الدعوة هي (الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن) (النحل: ١٢٥). وهذا يشير الى أن اساس الدعوة في الاسلام هوالحكمة والموعظة الحسنة فهي القاعدة الاساسية لدعوة الناس واقناعهم بمباديء الاسلام، لأن الأساس في كل عقيدة هوالاعتقاد والايمان وهذا لا طريق له إلا الحكمة والعقل والمنطق وليس القهر والأجبار.

ومن هنا نلاحظ ان أقدم الآيات القرآنية أستخدمت مصطلح الجهاد بمفهومهُ السلمي فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢) فالامر الألهي يخاطب الرسولﷺ بعدم الطاعة في عبادة الأوثان، وان يجاهد المشركين بالقرآن ويعرض عليهم مبادئ الاسلام عسى أن يؤمنوا بها.

وهذه الآية هي من السور المكية التي أهتمت بمعنى الجهاد في مفهومه السلمي وليس فيه ما يدعوالى القتال لأن القتال جاء في النصوص المدنية (نسبة الى المدينة) التي اجبر المسلمون على ممارسة أسلوب الدفاع عن مظلوميتهم والحفاظ على عقيدتهم من هجمات وأساليب اخرى من المكر والخديعة التي مارسها المشركون ضدهم فكان معنى الجهاد

بالسور المدنية يعنى حالة الدفاع بشروع القتال.

فالسور المكية لاتخلو من مفهوم الجهاد السلمي، وقد ورد مصطلح الجهاد في أربع آيات (مكية) على الاقل نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (لقمان، الآية: ١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت، الآية: ٦٩).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل، الآية: ١١٠).

ومن هنا يبدوا واضحاً الرأي الخاطئ ان آيات الجهاد شرعت منذ النزول واحلّ للرسولﷺ قتال الاعداء ! وذلك لأن مفهوم الجهاد اوسع من مفهوم القتال والصحيح ان آيات القتال في سبيل الله نزلت في المدينة وفق الظروف الخاصة بالمسلمين. ونرى ان الدلالة من مفهومي الجهاد - القتالي والسلمي - من مجمل النصوص المقدّسة للدعوة الاسلامية صادرة من محبة الرسولﷺ لقومه وحرصه على هدايتهم دون ان يكون في ذلك المصلحة والمنفعة السياسية - الذاتية- كما يبتغيها زعماء السياسة اليوم فقال تعالى:﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، الآية: ١٢٨).

وقال تعالى:﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى، الآية:٢٣).

وقال تعالى:﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف، الآية:١٠٤).

كما وقد أوضح سبحانه تعالى الى رسولهﷺ ان كل انسان مسؤول عن عمله، ثم ليس عليه ارغامه على إرادة غير إرادته فقال تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر، الآية:٤١).

وقال تعالى:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى، الآية: ٤٨).

وأكثر من ذلك حينما خاطب سبحانه تعالى المسلمين بعدم التعرض الى الإساءة وسَبّ معبودات المشركين، وفي هذا أبلغ قرار إلهي في احترام عقائد الناس والعدالة الإلهية بمصاديقها حينما يأمرهم بعدم السب لألى يأخذهم التعصب بالمثل وهذا ما يظهر جلياً من النص: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام، الآية: ١٠٨) والأبلغ من ذلك حينما اتضح تعصب المشركين وأصرارهم على عدم الايمان بالرسالة، دعاهم الرسول الى حرية العقيدة والمعتقد دون أي إكراه فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون، الآيات:١-٦).

كما قال سبحانه تعالى:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦). وايضاً معنى قوله تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ومن هنا يتضح ان الاختلافات وليس الخلافات هي حالة طبيعية اقتضتها سنة الله في الحياة ومن ثم فلا حاجة لأن يكون جميع الناس كلهم على عقيدة واحدة فبوجود الاختلافات يحصل التدافع في الفكر وتتسع دائرة الحوار وانضاج العقل وبلورة الفكر.

وهذا مما يؤكد على ان العلاقة بين الناس هي السلام وليس الحرب، فالحرب هي الإستثناء ولابد لهذا الإستثناء من مشرّع يقرّهُ الاسلام.

ولذا فإن الرسالة بُعثت رحمة للناس وللعالمين جميعاً وليس الغرض منها شق وحدة المجتمع وتمزيقه وتفريقهُ وفرض عقيدة خلاف عقائدهم بل ان الرحمة ولغة المنطق والعقل والحكمة والموعظة الحسنة كانت أساليب نشر الدعوة. فالرسول وكما قال سبحانه تعالى:

كـذلك يمكـن القول - بدون تردد - ان انتكاسة الاسلام أبتدأت بعد ان تقلص مفهوم الجهاد في التطبيق، تقلصاً متطرفاً، وينطبق الاستنتاج المذكور على العـرب بالدرجـة الاولـى، لانهـم اكتـشفوا هويـتهم القومية من خلال السياق

﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِـينَ﴾ سـورة الأنبـياء: ١٠٧، أي أنّ ذلـك أن الرسـالة والرسـول همـا الـرحمة ولـيس الفرقة والمحاربة والشقاق. وعليه فكيف تدرجت الأمور وتطـورت احكام الرسالة الى لغة الجهاد (القتالي) وهل كان هذا الجهاد غزواً بمفهومه ام رحمة بشمول المعنى؟

هـذا مـا يمكن ان نستقرءهُ من خلال النصوص والوقائع التاريخة التي أكدت دون أدنى شك ان الجهـاد القـتالي هـو رحمة بـشمول المعنـى ولـيس غزواً أو نهباً أو فرضاً على الاخر كما صوّره البعض من المستشرقين وخالج البعض من الكتاب الاسلاميين.

ولـوكان الرسـولﷺ أو مـنهج الرسـالة يدعـو الى ممارسة بعض أساليب الحماية عن النفس كالأغتـيال والغـدر والقـتل والأحـتيال تخلـصاً مـن اضـطهاد المـشركين لمورسـت هـذه الاسـاليب حتـى في أول الدعـوه ولكـن حـرّم ذلك على المسلمين كون القيم الاسلامية (الجديـدة) هـي قـيم لبناء حضارة جديدية تخالف حضارة العصر الجاهلي وقيمه. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ويروى انهـا نـزلت بـسبب المؤمنـين لمـا كثروا بمكة وآذا هم الكفار وهاجر من هاجر الى أرض الحبشه أراد بعض مؤمني مكة ان يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال فنزلت هذه الآية الى قوله (كفور) (جامع أحكام القرآن ١٢ : ٦٧) فالقرآن الكريم نهى عن هذه الأسـاليب وعـدّها نـوعاً مـن الخـيانة لا تـتوافق مـع أسـلوب الدعـوة بالحكمة والعقل والمنطق. (المحقق).

التاريخي للاسلام بجهاديته واستشهاديته الخالصتين.

ان استمرار الجهادية هو نسغ الاستمرارية التأريخية للعرب والمسلمين، وهو- في معناه المعاصر- لا يعني فرض الاسلام على شعوب البلدان غير الاسلامية، بل يعني مواصلة الجهاد التحرري والتربوي، على كافة الأصعدة لضمان إستقلالية الشعوب المسلمة وتحررها الناجز.

ولقد تلازم فى الاسلام جهاد النفس مع الجهاد من أجل الحق (الجهاد في سبيل الله، الجهاد من أجل إسعاد المجتمع..).

فجهاد النفس هو صميم الجهاد ولبُّه[1] لأنه يعني خلق الانسان الجديد من بين مواصفات الانسان التقليدي، بكل ابعاد وضعه الاجتماعي والثقافي الشائع.

إنه تثوير النفس الانسانية ضد التموضعات الزائفة، والروتينية، والدنيوية اللزقة، فما ان تولد النفس الحرة للانسان، في ظل الايمان الجديد، حتى يصبح الانسان الواحد يعدل العشرات (وأكثر) من الاعداء.

هنا، كانت تطبيقات محمدﷺ العسكرية قائمة على أهمية النوع، لا على

---

(١) عن السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ان النبيﷺ بعث بسرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله وما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس. انظر الكافي للشيخ الكليني ج٥ ص ١٢ رقم ٣ وآمالي الصدوق: ص ٥٥٣ رقم ٧٤٠/ ٩ ومثله في روضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ٤٢٠؛ ووسائل الشيعه تحقيق مؤسسه آل البيت ج١٥ ص ١٦١ ومستدرك الوسائل ج١١ ص ١٣٧، والكافي ج٥ ص ١٢/ ٣ (المحقق).

أهمية الكم، على الصعيد البشري ومن حيث البنية العسكرية.

فقد «نظرت القيادة العسكرية الاسلامية الى الحرب نظرة جديدة، فاهتمت بالفرد كمحارب، ومن هنا قامت النظرية الجديدة التى تعتمد على الكيف دون الكم. أعني على الرجال لا على عددهم وكثرتهم، وإنما على قدارتهم وامكاناتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم وأصبح الاهتمام موجهاً أساساً الى المقاتل بشخصه وذاته... أي الى اليد القوية التي تحمل السلاح، والقلب المؤمن الذي يخفق من خلف السلاح، والعقل المفكر الذي يدبر وسائل استخدام السلاح. واعتماداً على هذه النظرية الجديدة خاض الاسلام معاركه التأريخية الكبرى، وكسب هذه المعارك وكتب جنده أروع وأشرف صفحات في النضال المسلح.

ففي اول معارك الاسلام حارب المسلمون قريشاً في بدر وكانوا قلة لا يتجاوز عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من وسائل الركوب سوى سبعين بعيراً يتعقبون عليها، وكانت تنقصهم معدات القتال كالدروع، كما كانت قوة الفرسان معدومة إذ لم يكن لهم سوى فرسين، بينما كان عدوهم يفوقهم عدداً وعدة، فقد بلغ زهاء الف مقاتل، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير. وكان الخارجون جميعاً مسلحين بالدروع والسيوف والنبال، ورغم قلة المسلمين وندرة سلاحهم، فقد كان النصر في جانبهم، وانهزمت قريش مع كثرتها»[1].

---

(١) محمد فرج «الاستراتيجية العسكرية الاسلامية» (المؤلف). وانظر مزيداً من التفاصيل الدقيقة حول معركة بدر في السيرة النبوية لأبن هشام ق ١: ص ٦١٦ فما بعد (المحقق).

وفي أحد حشدت قريش ثلاثة آلاف، وانضم اليها عبد بن عمر و بن صِفي - الذي كان يُلقب بالراهب والذي سماه رسول الله لمغالاته في عداوته بالفاسق - في رهط من الأوس، وعبدالله بن أبي بن سلول الذي كان يداعبهُ أمل الوصول الى عرش المدينة، وخرجت مع قريش سبع عشرة امرأة منهن أم حكيم بنت الحرث زوجة عكرمة بن أبي جهل، وبرزة بنت مسعود زوجة صفوان ابن أمية، وربطة بنت منبه زوجة عمرو بن العاص، وسلافة بنت سعد زوجة طلحة بن أبي طلحة، وكان خروجهن بطلب هند بنت عتبة. وكان قد اجتمع من المسلمين في أحد سبعمائة رجل، عقد لهم الرسول ثلاثة ألوية، وكان معهم مائة دارع وفَرَسان، أحدهما للرسول والآخر لأبي بردة...»[1].

إن نظرية اعتماد (النوع) في العمل العسكري والانقلاب الثوري، والبناء الجديد للحياة السياسية والاجتماعية، اكثر صدقاً ونجاحاً من نظرية اعتماد (الكم) التقليدية. ويحقق تطبيق تلك النظرية (اعتماد النوع) نجاحات مؤكدة، وإضافة الى ذلك، فأنها تحقق تطوراً كمياً على مستوى كسب الانصار والمؤيدين.

وتبدأ مجدداً مشكلة النوع والكم، إنما بعرض جديد، مغاير للعرض السابق؛ لأن (النوع) الثوري في جذبه عدداً (واعداداً) من الأنصار والمؤيدين، ينشأ له (كم) جديد، وتبدأ إشكالات جديدة، بسبب الأنبهار بنجاح التجربة فيما تحققه من جماهيرية واسعة.

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

وقلةٌ نادرة تستطيع - بفطنتها - ادراك مخاطر موجات التأييد البشري فيما اذا لم توضع ضوابط معينة تحول دون تلبس الكم الجديد بلباس النوع، وارتقائه الى مراكز القيادة والتأثير.

لقد كان العقل المحمدي، السياسي الباهر، مسترشداً على الدوام بالامدادات الألهية، وبالوعي الثوري السليم، فمهما ازدادت نسبة المنتمين الى معسكر الاسلام، لم يحصل أي خلل على صعيد البنية التراتبية المجربة للقيادة. فقد ظل الصحابة الطليعة الأساسية التي قال فيها: «اصحابي كالنجوم الزاهرة... بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1]. أي ان طيّات الموج الجماهيري المسلم المتعاظم، لم يطغ على واقعية العلاقة الطليعية القيادية التي تكونت في حضن الرعاية المحمدية. ولم يحصل، مثلما حصل في جميع تجارب الانقلابات في العالم، حيث يجري استبدال الوجوه القيادية، بعد مرور فترة زمنية وجيزة.

ولذلك قيل ويقال كثيراً: ان الثورات تأكل قادتها، وابناءها، واحد أسباب ذلك طغيان الانتماء الجماهيري الذي يولد - من داخله ايضاً - عبادة الفرد، وبالتالي صراع الافراد الذين سرعان ما يتقاتلون، بسبب دوافع السلطة، إن المبادئ العليا، وحدها، التي تمنح للأفراد المؤمنين تعالياً فوق اعتبارات السلطة، والاستحواذ، لأنها تقود الى تجاوز المعابر الضيقة، ناظرةً الى الأبعد.

---

(١) ذكره ابن حجر في لسان الميزان ج٢: ١٣٧ عن الدراقطني في غرائب مالك، ويعتقد الشيعة ان هذا الحديث وأمثاله بخصوص الصحابة لاتنهض مع حقيقة واقع بعض الصحابة وما هم عليه من أمور لاتتوافق مع الاستقامة. (المحقق).

ولم يستفد المسلمون من تجربة النبي محمدﷺ العملية في قدرته على جمع أعظم واعجب القادة العرب، والزهاد والعباقرة من العرب وغير العرب في حظيرة الاسلام، في مستوى المساواة مع البدوي المسلم، في اجتماع الحق والعدل، ولا اجتماع سواه. وظلت الطليعة المسلمة، في زمنه، متمتعة بالحيوية، وبالتضامن، الى الحد الذي يصعب فيه العثور على متناقضات صراعية بيّنة داخلها، لأن أي صحابي طليعي لم ترد في باله أية فكرة عن ممارسة السلطة. إن شاغله الوحيد وهاجسه الأوحد، هوالاستشهاد من أجل القضية الاسلامية، والاستشهاد هوالنقيض القاطع لأية فردية، بل السلطوية؟

كان محمدﷺ يحل كل الاشكالات الممكنة الحدوث، من خلال القدوة التي كان يمثلها، وكان الصحابيون يتتلمذون عليها تتلمذ المؤمن، المخلص، الوفي، في جميع مجابهات الحياة الصراعية الصعبة. لقد كانوا تلامذة، مفكرين، وأقوياء. جمعوا يقظة العقل مع صلابة الجسد، وحدّية الموقف، فكانوا في زمن محمد حواريين، لا من الطراز العيسوي، الذين صلب المسيح أمامهم، حواريين يقودون الكتائب العسكرية، ويمارسون الحرب بالبساطة نفسها التي يخوضون فيها الجدال. لقد رفعت حرارة الجزيرة العربية، درجة حرارة فكرهم، وقوتهم على مقارعة الطبيعة العارية إلا من لباس الشمس العاتي في حرارته.. كانوا مقاتلين من طراز نادر، ولوكانوا في اليونان، لكانوا في ببلوغرافيا آلهة الأغريق، أكبر الآلهة!

لكنهم - في الاسلام - تحت عباءة محمدﷺ كانوا مواطنين، جُنْداً،

اكتشفوا ذاتهم الجديدة في الذات المحمدية، التي هي موطن الرضوان الأهي، حيث تتدفق الرسالة من الرب الى ابن آدم، الفقيرة اليتيم، الراعي، الذي يرعى الاغنام ليعيش، ويرعى حركة الكواكب السماوية، متبصراً بعظمة الخلق و(سرّانيته)، متسائلاً عمّا وراء الظواهر العجيبة، عما وراء الوجود الفيزيقي للانسان، عما وراء ذلك، وعمّا وراء الوراء...

كان محمد نبياً رسولاً... لم (يدّعي) الألوهية، ولا العظمة، جاء - رغم معجزة البعث الأهي: نبوة ورسالة - جاء بكلمة البشر، بكدح البشر، بعرق جبين البشر، جاء الانسان ابن الانسان، لا ابن الله، لأن الله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] جاء إنساناً، بشراً سوياً، بل معرضاً للخطأ، فيأتيه اللوم الأهي، الذي يرجعه الى الارض المعطاء، الى الفقراء المستضعفين الكادحين، الى الناس المتساوين في الخلق الأهي، والذين هم على درجات في العلم والفضيلة، في الناموس الأهي، لكنهم في الناموس البشري اللامعقول، اللامنطقي، الذي لايعرف العدل، طبقات الظالم يجلد ظهر المظلوم، كأن السرقة ليست بكافية، تجمعت الثورة والسياط في الايدي القليلة، وتجمع البؤس والعذاب على النفوس الكثيرة. فجاء محمدﷺ ليدمر ذلك، جاء إنساناً، ابن انسان، وابن ابن انسان الى آخر اسم. جاء يتيماً، جاء راعياً، وظل يخصف نعله، ويرقع ثوبه، وهو سيد الغافقين. فكيف لاتكون القدوة العظيمة؟

---

(١) سورة الاخلاص، الآية:٣-٤ (المحقق).

هـو بيـنهم - أصحابه وجنده وجمهرة المسلمين - كواحدٍ منهم، في السلم وفي الحرب.

وكانـت الحرب محكاً كبيراً. فما كان الانبياء والرسل - من قبل - يقودون الجيوش ويقاتلون، وهم يؤسسون دولة في الوقت ذاته. محمدﷺ - وحده - فعل ذلك بعبقرية الاستطاعة الحقيقة، الخلاقة.

وكـان - في الواقـع - قـادراً عـلى قهـر الاعـداء، بعـد ان تمكن من قهر الذاتية القاسية في نفوس بعض أصحابه الذين كانوا قبل الاسلام شديدي القوة، والخشونة.

لقـد قـاد عمليـة الجهـاد ضـد الفـردية الخـشنة، وضـد التملكية التمايزية المتعالـية، وضـد سـوء الاخـلاق، فكـان أن بـاشر التطهـير الجـذري في نفـوس أصـحابه، وفي علاقـاتهم، مؤسـساً أرضـية اسـلامية متينة، تنطلق منها النفوس طالبة الاستشهاد، من أجل الحق.

كـان عـالم قـديم، يزول، ويحل - محله - عالمٌ جديد. ولم يكن العالم القديم مُتهـرئاً، بـل كـان عالمـاً صـلباً عنيداً، مقاوماً، فكان القتال لامفر منه، لأجتثاث الكفر من جذره.

وقـد كـان الاقـتداء بمحمـد عاملاً كبيراً في تحقيق الانتصارات العسكرية وتعزيزها.

ففـي معـركة (بـدر) كـان النبي أقرب الناس الى العدو، وأشهدهم بأساً، وكـان أصـحابه يلوذون به، وهذا ما قاله (علي بن ابي طالب) المعروف بشجاعته الـنادرة التـي كانـت وظلت مضرب الأمثال على طول العهود: «إنّا كنا اذا اشتدّ

البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله، فما يكون احد أقرب الى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي عليه السلام وهوأقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[١].

وكان محمدﷺ في وسط معركة بدر يرمي وجوه المشركين بالحصباء قائلاً: شاهت الوجوه[٢]، وهويشد عليهم محرِّضاً المسلمين على القتال، مستجيباً للامر الالهي الوارد في الآي الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

أما في معركة «احد» فكان صموده هوالذي تدارك الأمر بعد هزيمة المسلمين، فقد «ثبت النبيﷺ كالجبل الأشم يدافع جموع المشركين المحيطين به

---

(١) أنظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٥٤٤ هـ) ج١: ١١٦ وعيون الأثر لأبن سيد الناس: ج٢ ص ٤٢٢ (المحقق).

(٢) بمعنى: قبحت، انظر الارشاد للشيخ المفيد ج١: ص ٦٩ ومناقب آل ابي طالب، ابن شهر اشوب ج١: ص ٦٤ والجمل لأبن شدقم المدني ص ١٤٥ ومسند أحمد بن حنبل ج ١: ص ٣٠٣ وسنن الدارمي ج٢: ص ٢١٩ (المحقق).

(٣) سورة الانفال، الآيتان: ٦٥و٦٦ (المؤلف).

مـن كل ناحية، وهويقول: إليَّ عباد الله[١]. ففاء إليه الكثيرون ممن أذهلتهم إشاعة إنه قد قتل. فقعدوا عن القتال كما فاء إليه من تفرقوا يقاتلون بين الصفوف حتى تكـونت حـوله ثلـة مـن أصحابه فسار بهم حتى وصل الى الصخرة فوق الجبل. روى البيهقـي عـن المقداد قال: فوالذي بعثه بالحق، ما زالت قدمه شبراً واحداً، وإنه لفي وجه العدو، وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة، وتفترق مرة، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه، ويرمي بالحجر حتى انحازوا عنه»[٢].

و«روى الحـاكم في المـستدرك بـسند عـلى شرط مسلم، عن سعد: لما جال الـناس عـن رسـول اللهﷺ تلـك الجولة يوم أحد، قلت أزود عن نفسي، فأما أن أستشهد وأما أن ألحق حتى ألقي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فبينما أنا كذلك إذا بـرجل مخمّـر وجهـه ما أدري من هو فأقبل المشركون، حتى قلت قد ركبوه، فملأ يده من الحصى ثم رمى به في وجوهم، فتنكبوا على اعقابهم القهقرى حتى يأتـوا الجـبل. ففعـل ذلـك مراراً ولا أدري من هو، وبيني وبينه المقداد. فبينا انا أريـد ان اسأل المقداد عنه، إذ قال المقداد: يا سعد هذا رسول الله يدعوك. فقلت وأين هو؟ فأشار اليه فقمت، ولكأنه لم يصبني شيء من الأذى...»[٣].

---

(١) انظـر الـنص والاجتهاد للسيد شرف الدين ص ٣٢٦ (عن تاريخ الطبري ج٢: ص ٢٥٣، والكامل لأبن الاثير ج٢: ص ١١٠، السيرة الحلبية ج٢) وانظر تفسير الثعالبي ج٢: ص١٢٦ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

(٣) المـصدر نفـسه (المؤلـف) وانظـر المـستدرك للحـاكم الينسابوري ج٣: ص ٢٦، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٦: ص ١١٣ (المحقق).

كانت الهزيمة كبيرة، ولم يصمد مع النبي من المسلمين غير قلة، إذ تختلف الروايات في عدد من ثبت معه. فمسلم يثبت تسعة، والبخاري يذكر انهم اثنا عشر، وإبن سعد يثبت أربعة عشر، والطبري ثلاثين.

في معركة احد جرح الرسولﷺ وشج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته، وشفته السفلى من باطنها، ووهن منكبه من ضربة «ابن قمِئة وجحشت ركبته»[1].

و«كان ابوعامر الفاسق قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع في حفرة منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاخذ علي بن أبي طالب بيده، واحتضنه «طلحة» حتى استوى قائماً، وقد جحشت ركبته. واقبل «أبيّ بن خلف» يوم احد الى النبي، فاعترضه رجال من المؤمنين، فأمرهم صلى الله عليه وسلم فخلوا سبيله، ورأى رسول الله ترقوة«ابيّ»، من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته فسقط عن فرسه؛ ولم يخرج من طعنته دم. فكسر ضلعاً من اضلاعه فأتاه اصحابه وهويخور خور الثور، فقالوا له: ما اعجزك إنما هي خدش. فذكر لهم قول الرسول: بل أنا أقتل (أبيّاً). ثم قال: والذي نفسي بيده لوكان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا اجمعين»[2].

---

(١) أنظر فتح الباري لأبن حجر ج٧ ص ٢٨٦ (المحقق).

(٢) أنظر تفسير ابن كثير ج١: ص ٤٢٥، تفسير الجلالين (المحلى، السيوطي): ص٤٠١، والبدايه والنهايه لأبن كثير ج٤: ص٣٦، والسيرة النبوية لأبن كثير ج٣: ص ٦٣، وجميع هذه المصادر ذكرت النص بما هو: «.... لماتوا أجمعون) (المحقق).

وحينما هزم المسلمون في معركة (حنين)، بعد ان هاجمتهم قبائل هوازن وثقيف وهم في الوادي، وفروا - على كثرتهم - ظل النبي صامداً صموداً بطولياً ومعه أهله وتحيط به جماعة من المهاجرين والانصار، كان الموقف حاسماً، والمسلمون في اضطراب عظيم، وقد عادوا منهزمين وأخذ الخوف والفزع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقية للريح وحتى قال أبوسفيان بن حرب وعلى شفتيه إبتسامة المغتبط لفشل اولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش: لاتنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثاري من محمد وكان أبوه قد قتل في غزوة أُحد. وقال كلدة بن حنبل: ألا بَطَل السحر اليوم[1].

تقع هذه الاحاديث والجيش يختلط حابله بنابله والنبي في المؤخرة تمر عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مهزومة لاتلوي على شيء.

و«نادى محمدﷺ: اين ايها الناس ! أين؟... لكن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لايسمعون الى شيء ولايدور بتصورهم إلا هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمها بالقمم تطاردانهم حتى تأتيها عليهم. ولم يخطئ تصورهم، فقد انحدرت هوازن من مكانها يتقدمها رجل على جمل له أحمر، بيده

---

(١) انظر السيرة لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج٤: ص ٨٩٤، البداية والنهاية لأبن كثير ج٤: ص ٣٧٤، تاريخ الطبري ج٢: ص ٣٤٧، تاريخ اليعقوبي ج٢: ص٦٢ (المحقق).

رايـة سـوداء في رأس رمح طويل، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه، وهوازن وثقيف وانصارهما منحدرون من ورائه يطعنون»[1].

في هذه اللوحة الهروبية المخيبة للآمال، والتي وضعت الاسلام على كف عفـريت، كـان صـمود محمدﷺ هو الذي قلب الصورة. فعاد المهزومون بعد ان سـمعوا صيحة العباس بن عبدالمطلب، وقد كان رجلاً جسيماً جهوري الصوت قـويه، إذ نـادى بـما أسمع الناس جميعاً من كل فج: يا معشر الانصار الذين أووا ونـصروا، يامعـشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة! إن محمداً حيّ فهلموا! وكـرر العـباس الـنداء حتـى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه وهنا كانت المعجـرة سـمع اصـحاب العقـبة اسـم العقـبة فذكـروا محمداً وذكروا عهودهم وشرفهـم. وسـمع المهاجـرون اسـم محمـد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء واولئك بسكينة محمد وثباته في نفر قليل من المهاجرين والانصار، كثـباته يـوم احـد، في وجه هذا العدوالزاحف، صوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم اياه من تغلّب المشركين على دين الله، وكان نداء العباس اثناء ذلك ما يزال يدوّي في آذانهم، وتهتز لأصدائه أوتار قلوبهم.

هـنالك تـصايحوا مـن كـل صـوب: لبـيّك لبـيّك! وارتـدوا الـى المعركة مستبسلين».

و«اندفـع المسلمون الى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، مؤمنين بأن

---

(١) محمد حسين هيكل، (حياة محمد) (المؤلف).

النصر لامحالة آت وإن من استشهد منهم فله من النصر أكبر من نصيب من بقي. وكان البلاء شديداً، حتى ان هوازن وثقيفاً ومن معهم مالبثوا، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وانهم معرضَّون للفناء عن آخرهم، أن فروا منهزمين لايلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وابناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين الفا من الأبل واربعين الفاً من الشاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما الاسرى وعددهم ستة الآف فقد نقلوا محروسين الى وادي الجعرانة حيث أووا الى ان يعود المسلمون من مطاردة عدوهم ومن حصار ثقيف بالطائف»[1].

وعن معركة (حُنين) وعبرها ودروسها جاء في القرآن الكريم تلخيص مكثف عن حكمة الايمان والسكينة الأهية التي تصنع الاعاجيب:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

لقد كان محمد ﷺ ببسالته الفائقة الانموذج المثالي للصمود، وتحويل

---

(١) محمد حسين هيكل: المصدر (المؤلف).

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٢٥،٢٦،٢٧ (المؤلف).

الهزيمة الى نصر. كذلك كان عقله العسكري المسؤول الأول عن وضع الخطط العسكرية والاشراف على تنفيذها. ولم يكن البلاء الذي حلَّ بالمسلمين في هزيمتهم بمعركة (أُحد) إلا نتيجة متوقعة لعدم الالتزام بأهم بند من بنود الخطة العسكرية في تلك المعركة؛ ذلك بأن محمداًﷺ أوعز الى مجموع الرماة بالوقوف على شعب في الجبل قائلاً لهم:

«احموا لنا ظهورنا فإنا نخاف ان يجيئونا من ورائنا. والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا. وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل. فان الخيل لا تقدم على النبل»[1].

لكن الرماة لم يلتزموا، بعد ان رأوا ظفر المسلمين في صبيحة أحد، وسال لعابهم لمرأى الغنائم. فعصواً أمر مسؤولهم عبدالله بن جبير، وانطلقوا الى الساحة، وشغلوا بالغنائم كما شُغِل سائر المسلمين. حينذاك التف خالد بن الوليد على المسلمين من جهة الجبل، منقضاً على من تبقى من الرماة، ومهاجماً المسلمين المأخوذين بسحر الغنائم، من الخلف ملحقاً بهم هزيمة كبيرة.

وكان محمدﷺ، حين يضع الخطة العسكرية يتبادل المشورة مع أصحابه ويأخذ بالرأي الوجيه، مثال ذلك في معركة الخندق؛ حين عمل برأي (سلمان الفارسي) في فتح خندق يحيط بأهم جهات المدينة ويفصل بينها وبين قريش

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج١٤: ص ٢٣٥ (المحقق).

وحلفائها[١].

ولم تتوقف قيادته العسكرية لمعسكر المسلمين على المعارك التأريخية الكبرى، بل شملت الغزوات الصغيرة، والمحدودة التي كان يتولى قيادتها بنفسه.

وسواء أكانت أهداف بعض الغزوات المحدودة تكتيكية، أوذات فوائد معينة، فإنها على العموم. كانت تعزز مكانة وهيبة المسلمين في الجزيرة العربية، التي ساد فيها لفترة طويلة منطق القوة في علاقات العشائر والقبائل المتناحرة.

إن الاسلام الذي نما وانتشر بالقوة فعلاً، في وسط عوامل الصراع الحاد، وظواهر القوة السائدة كان ينسج في الوقت ذاته آداباً للجهاد، فكان إذا بعث سرية قال:

بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، لا تغُلّوا[٢] ولا تغدروا ولاتمثلوا ولا تقتلو وليداً ولا إمرأة ولاشيخاً كبيراً»[٣].

---

(١) كما وردت في عدة مواضع أهمية المشورة في الحرب وغير الحرب وفي القضايا الحاسمة وسواها (المؤلف).

(٢) تغلوا أخذ الغنيمة بدون اذن القائد (المؤلف).

(٣) انظر سنن البيهقي ج٩: ص ٩١، المعجم الصغير للطبراني ج١: ص ١٢٣، والاوسط ج١: ص ٤٩، وج٢: ص ١١٥ وشرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج١٧: ص ١٨٤، كنز العمال ج٤: ص ٤٧٨، وج١٠: ص٥٧٩، وتاريخ بغداد ج٤: ص ١٦٠، وج١٠ ص٤١، وتاريخ مدينة دمشق ج٢: ص ٥٠، وتاريخ الطبري ج٢: ص ٤٦٣، وج٧: ص ٣٣٢ (المحقق).

وكـان يـستنكر القـتال الاعمى، والعصبية القبلية، والخروج على مبادئ الجماعة، فقال:

«مـن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتةً جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميّةٍ يدعو الى عصبية أو يغضب لعصبية فَقُتِلَ فقتلةً جاهلية»[1].

كـذلك ربـط الجهـاد بقيم والتزامات أخلاقية، فـ«من ضَيَّق منزلاً أوقطع طـريقاً أو آذى مؤمـناً فـلا جهاد له»[2] وكذلك لا جهاد ولا شهادة لمن كان عليه

---

(١) انظـر الغديـر للعلامـة الاميني ج١٠: ص ٢٧٢، عن صحيح مسلم ج٦: ص٢١، وسنن البيهقـى ٨: ١٥٦، ومـسنداحمد ج٢: ص ٢٩٦، وتيـسير الوصـول ج٢: ص ٣٩، وانظر مـسند احمد بن حنبل ج٢: ص ٢٩٦، وصحيح مسلم ج٦: ص ٢١، وسنن البيهقى ج٨: ص ١٥٦، وج١٠: ص٢٣٤، المصنف لأبن أبي شيبة الكوفي ج٨: ص ٦١٢، ومسند ابن راهـويه ج١: ص ١٩٢، وكـتاب الإيـمان لمحمـد بـن يحيـى العدني (٢٤٣ هـ) ص ١١٥ (المحقق).

(٢) مسند احمد بن حنبل ج٣ ص ٤٤١، سنن أبى داود ج١ ص ٥٩٢، سنن البيهقي ج٩ ص ١٥٢، المفاريـد عـن رسـول اللهﷺ لأبي يعـلى الموصـلي (٣٠٧ هـ) ص ٢٣، مسند أبى يعلـى الموصلي ج٣ص٦٠، والمعجم الكبير الطبراني ج٢٠ ص ١٩٤، كنز العمال ج٤ ص ٣٦٠، فـيض القديـر شرح الجامع الصغير للمناوي ج٦ ص ٢٢٦، السير الكبير الشيباني ج١ ص ٣٢، علـل الدار قطني ج٦ ص ٩١، تاريخ مدينة دمشق ج٤٨ ص ٢٧٥، وأسد الغابة ج٥ ص ٣٥٤، تهذيب الكمال للمزي ج٣ ص ٢٤٤ والاصابة لأبن حجر ج٣ ص ٢٤٥.

دَيْن فـ«القتل في سبيل الله يكفِّر كل شيء الا الدَيْن»[١].

ورغـم ان القـتال كـان يستوعب دخول مقاتلين لأغراض الارتزاق ونيل الغـنائم، في جميع أصـناف القـتال، وذلـك لـتقوية جـبهة القـتال، وسـد بعض الـنواقص الـناجمة عـن محدودية حجم المقاتلين،؛ أولأحراز انتصارات ضد عدو يتمـتع بالقوة، إلاّ ان الرسول محمداًﷺ كان يرفض الاستعانة بالمشركين في قتاله ضد المشركين قائلاً: « إنا لانستعين بالمشركين على المشركين»[٢].

---

(١)قـال رسـول اللهﷺ: «ان قـتلت في سـبيل الله مقـبلاً غـير مدبر كفّر الله عن خطاياك إلاّ الـدين» انظـر مسند أحمد بن حنبل ج٥ ص ٢٩٧، صحيح مسلم ج٦ ص ٣٨، المستدرك للنيـسابوري ج٢ ص ١١٩، سـنن البيهقي ج٥ ص ٣٥٥، وج٩ ص ٢٥، المعجم الكبير للطبراني ج٦ ص ٧٣، الكامل لأبن عدي ج١ ص ٣٨٤، اسد الغابة لأبن الأثير ج٤ ص ٣٢٤ (المحقق).

(٢) انظـر المـستدرك للحـاكم النيـسابوري ج٢ ص ١٢٢، سنن البيهقي ج٩ ص ٣٧، مجمع الـزوائد للهيثمـي ج٥ ص ٣٠٣، المـصنف لأبـن شـيبة الكـوفي ج٧ ص ٦٦٠، الآحـاد والمـثاني للضحاك ج٤ ص ٩٨، وج٥ ص ٢٣٣، المعجم الاوسط للطبراني ج٥ ص ٢٢١ ، دلائل النبوة للاصبهاني اسماعيل (٥٣٥ هـ) ص ١٠٩، والجامع الصغير للسيوطي ج١ : ص ٣٨٦، كنـز العمـل ج٤ ص ٣٥٨، وج١٠ ص ٤٣٤، وج١٣ ص ٢٧٦، وطبقات ابـن سعد ج ٢ ص ٤٨، وج ٣ ص ٥٣٥، وطبقات خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) ص ١٧٩ ، وتـاريخ البخاري ج٣ ص ٣٠٩، وأسد الغابة لأبن الاثير ج٢ ص ١٠٢، اعلام النبلاء للذهبـي في ترجمة (خبيب بن يساف) ج١ ص ٥٠١، الأصابة لأبن حجر ج٢ ص ٢٢٥، والبداية والنهاية لأبن كثير ج٦ ص ١٨٢ (المحقق).

من الناحية التكتيكية اظهرت قيادة الرسولﷺ للمعارك والغزوات قدرات تكتيكية ماهرة؛ في رسم خط سير المعركة، واختيار المكان والزمان،؛ وفرض المبادرة العسكرية الاسلامية على الخصم. أي ان توجيه الضربة الأولى وإدامتها كان خطاً عسكرياً ناجحاً.

ومع بروز هذا الخط كممارسة قتالية اسلامية مشهورة، إلا ان التعمية كانت ضرورية للتأثير على معرفة العدو بتحركات قوات المسلمين. وكثيراً ما كان خط سير قوات المسلمين يمضي باتجاه بعيد عن الهدف وعن وجهة تلك القوات، مؤقتاً، للقيام بالتفاف مُفاجئ وصاعق.

الفصل العاشر

واقعية المبدأية ومبدأية الواقعية

في زواج النبي

المقاصد المبدأية والعملية في الزواج المتعدد للنبي

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[1].

مدخل أولي لابد منه لادراك مغزى الزواج في حياة النبي، ذلك لأن محمداً ﷺ - ابتداءاً وانتهاءاً - رفض رفضاً باتاً وأد الخصائص الطبيعية للانسان بأسم الاعتبارات الروحية. وقد كان خلال دعوته لصيقاً بالناس والأرض والعمل، وفي وسط الحياة الاجتماعية ولم ينعزل عنها إلا في الفترات المعروفة (فترات التحنث، واستقبال الوحي).

وقد شهدت شبه الجزيرة العربية زهاداً فاضّ بهم الزهد الى درجة العزلة والانقطاع عن الدنيا، وقمع كُلّ شهوة طبيعية واردة في صلب التكوين البيولوجي للانسان، ولوامتدت الحياة وفقاً لوجهات نظر اولئك الزهاد ومسلكهم لما كان للحياة عامل الاستمرار، وذلك بانقطاع التواصل الانسالي، وهذا جرم عظيم بحق البشرية، التي لا تعاني من وجودها ذاته، بل هي تعاني من انعدام العدل المسؤول عن تشويه هذا الوجود.

والزواج حق مشروع، مضمون شرعاً وقانوناً، يحقق حماية النوع البشري،

---

(١)سورة الكهف، الآية: ١١٠ (المؤلف).

واستمراريته، كما يوفر تأميناً للتعاشر والتساكن بين الرجل والمرأة، تتحد بموجبه الرغبات البشرية المشروعة، ويتوفر أساس للوحدة الاجتماعية للعائلة وامتداداتها.

ويحلو للعديد من كتاب الغرب المعادين للاسلام ان يتناولوا شخصية محمدﷺ وكأنه زير نساء، شهوي وحين يجبههم أحد بالحجة الواضحة وهي ان الزواج صيغة مضمونة في الرسالات المقدسة، وهي نقيض العلاقات الجنسية المحرمة، لا يستطيعون ان ينبسوا بشيء لكنهم ينقلون المعركة الى وجه آخر.

ذلك لأن الأنموذج الغربي (انموذج الملوك والرؤساء والفاتحين من الغربس يباشرون رغباتهم الجنسية خارج المشروعية أي خارج حق الزواج.

وهم إذ يقرنون ذلك بعظمة الشخصيات التأريخية الغربية، فانهم لا يعاينون المنافاة التامة للشرائع المقدسة، في مسلك المعاشرات الجنسية المحرّمة.

إن تكفير وتجريم الزنا لا يُعَدُّ من هموم أولئك الكتاب الأساسية، لذلك يغفلون قيمة المشروعية التي ارتكز عليها نظام العالم الانساني منذ المراحل الاولى للتحضر باحثين عن صورة انموذج شرقي قابل للاتهام.

وهو أنموذج جاهز - دوماً - في عقولهم، ولا يحتاجون إلا الى البحث عن مثال لتطبيق تصوراتهم المسبقة. وربما لوكان الاسكندر المقدوني، وفردريك الاكبر شرقيين لأنبتَ لهم اولئك الكتاب قروناً، وصوروهم متوحشين، جنسيين، معربدين، لا يعرفون غير القتل.

لا غضاضة في ان يكون إنسان عظيم ذا قوة غريزية كبيرة، فالناس - في

الطاقة الغريزية - متباينون - مثل تباينهم في مستويات الذكاء إلا ان المهم هو مدى التأنسن الغريزي الماثل في الضوابط الانسانية التي اكتسبت - بإرادة البشرية نفسها - حق الشرعية.

ان النبي محمدﷺ في تصور المرجفين من كتاب ومؤرخي الغرب، انموذج اعلى للامير الشرقي، معتمدين على العموميّة السطحية في اقتناص وتجميع المعلومات. ولأن المعلومات لاتنفعهم في تقديم أتهامات بصدد الحرية الجنسية الفوضوية، فانهم يتوقفون عند حدود تعدد الزوجات مدّعين ان حق الزواج بأربع زوجات، والذى نصَّ عليه القرآن الكريم:

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] هو حق لم يحافظ عليه النبي محمدﷺ بدليل زواجه بأكثر من أربع.

يرد على ذلك محمد حسين هيكل قائلاً:«ان محمداً نصح بالزوجة الواحدة في الحياة العادية، هو قد دعا الى ذلك بمثله الذي ضربه في حياة خديجة، وان الآية ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[2] في أخريات السنة الثامنة للهجرة. بعد ان كان قد بنى، بأزواجه جميعاً. ونزل تحديد عدد الزوجات بأربع وقد كان الى حين نزولها لا

(١) سورة النساء، الآية:٣ ٣ (المؤلف).

(٢) سورة النساء، الآية:١٢٩ (المحقق).

حدَّ له، مما يسقط قول القائلين بأن محمداًﷺ أباح لنفسه ما حرّم على الناس. ثم نـزلت لتـشيد بفـضل الـزوجة الواحدة وتأمر بها لمجرد الخوف من عدم العدل، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع.

علـى انـه رأى في ظـروف حياة الجماعة الاستثنائية. إمكان الحاجة للتعدد الـى أربـع علـى شرط العـدل. وهـوقد دعـا الـى ذلك بمثله الذي ضرب أيام غـزوات المـسلمين واستـشهاد من استشهد منهم ولعمرك هل تستطيع ان تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة، حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألـوف الـرجال وملايـينها، خـير مـن هـذا الـتعدد الـذي أبـيح علـى طـريق الاستثناء؟!»[1].

كـان ممكـنا ان لا يـتغافل الكُـتّاب الغـربيون مـن الـذين لم ينـصفوا، عن الـشروط الاجتماعـية والاقتـصادية الـسائدة في حياة العرب، حينما قامت دعوة محمـدﷺ، حـيث كـان تعـدد الـزوجات مـبدأ شائعاً، تعززت - بسببه - مكانة الـرجل الاقتـصادية والاجتماعية والعسكرية، وخاصة لتكاثر النسل من الأولاد الـذين يـشكلون الكـتلة البـشرية الأساسـية المهـيأ للعمـل الانتاجـي، وللغـزو والقتال.

واذا مـا قـدَّرنا ان الغـزو كـان يشكل أكثرية مشاغل وانشطة القبائل، فان عمـل الذكـور مـن المجتمع هو العمل السائد. لذلك كانت أفضلية الذكور تجد

---

(١)محمد حسين هيكل (المؤلف).

طـريقها التنفـيذي في كثـرة الانجـاب، وتعـدد الزوجات. بهذا المعنى كان تعدد الـزوجات دلـيلاً على الطبقية والهيبة الاجتماعية، والمكانة الاقتصادية،؛ واحراز القـوة،؛ أكثـر مـن كـونه تجسيداً للشهوانية، حتى وإن كانت الشهوانيّة موجودة فعلاً.

وكـان مـن المنطقـي ان يتوصـل أولـئك، الكـتاب. بعـد تنحـية الغفلـة (اوالـتغافل) جانـباً، الى إدراك مسلمة واضحة وهي إن الحلول الايجابية لا تأتي مـن الفـضاء، أوتبـتدع إبـتداعاً، بـل هـي تنـشأ في لحمـة الـشروط الاجتماعـية والاقتصادية والثقافية السائدة.

لقـد اسـتطاع محمـدﷺ ان يوظـف تعـدد الـزوجات - الموجود أصلاً - لـصالح الحكمـة العمليـة، علـى ان يُمَـنْهج ذلـك تدريجـياً في الحـياة الاسلامية المتفـتحة في مـناخ الجهـاد والمقـبلة علـى حروب الفتح، بحسبانه ضرورة ملحه حينذاك.

ولا يمكـن ان يتـبرأ إنـسان صـحيح البنية، قوي الطاقة، من لذة المعاشرة الـزوجية حتـى ولوكان نبيّاً لأن القوة الشهوية تجد تصريفها في الزواج مثلما يجد الذكاء تصريفه في إنتاج الأفعال وإنجاز الاشياء.

وكثيراً ماتكون أمور الغريزة، المحلولة في العلاقة الزوجية ؛ على الطبيعة، مدعاةً لدفع الكبت، والهزات النفسية الناجمة عن ذلك.

إنما يدخل ذلك - في سيرة الانبياء العظماء - في نطاق القوة البشرية المتميزة المـوظفة مـن أجـل التغيـير، وخلق حياة بشرية جديدة، قائمة على الايمان بالله،

والحق، والعدل.

فالانبياء المرسلون، مرتبطون - نهائياً - برسالاتهم، أي بالغايات العظمى التي يكافحون من أجلها بهدي الايحاءات الألهية، التي تكشف أمام بصرهم الدروب.

وتعدد الزوجات، في إطاره الاجتماعي - التاريخي، هو لدى الأنبياء بصورة مغايرة تماماً لتعدد الزواج لدى رؤساء القبائل والامراء والشخصيات الاجتماعية الكبيرة، لأنه مرتبط - جوهرياً - بحقيقة الاهداف الرسالية والغايات السامية لنضال الانبياء المرير.

وأننا نقع على تعدد الزوجات في حياة كثيرة من الشخصيات الدينية العظيمة، فابراهيم، الذي يتمتع باجلال اكثر من نصف الجنس البشري، لم يقتصر على زوجة واحدة. وكذلك فعل يعقوب، وموسى، وداود. ويروى عن سليمان انه قد أسرف فاتخذ من الزوجات مئات. وكان هؤلاء هم أسلاف يسوع.

أما يسوع نفسه فلم يتزوج حتى امرأة واحدة، كما تظهر الأناجيل...»[1].

وحين يرى مفسرو التاريخ، من الرهط المشار اليه، ان محمداً في حله وترحاله - كان ينقل معه بعض زوجاته وان ذلك دليل على شبقية حادة، فانهم يضيفون الى الأمر من عندياتهم الشيء الكثير ذلك - ورغم ان ما يقولونه لاضير فيه - لأن حياة النبي - غالباً - كانت حياةً فوق ظهر ناقة أو فرس، لأنه

---

(١) مولانا محمد علي (حياة محمد ورسالته) (المؤلف).

كـان في الجهـاد الـدائم. فهـو لم يكن قيصراً أو ملكاً غربياً تحيط به قصوره المنيفة الملأى بالزوجات والمحظيّات.

إن المـنطلق الواضـح جـداً في زواج محمـدﷺ المتعدد، هوالحكمة العملية التـي ينبغـي أن تبقـى مفهمـومة دائماً. وهي حكمة المبدأ وخبرة الواقع، في أطار الـسيرة النبوية وزواج خديجة، وحده الذي كان الصورة الجليلة لطبيعة محمدﷺ ونظرته الى الزواج.

فقـد ظلت علاقة محمدﷺ بخديجة ثمانية وعشرين عاماً[1]، دون ان يتخذ معهـا شريكة، رغم انه كان في قوة شبابه - في بداية الزواج - وكان، بعد ذلك في ذروة نشاطه.

في ذلـك يقـول محمد حسين هيكل، بأدق ايضاح: «فهو - أي محمدﷺ - قـد تزوج خديجة وهو في الثالثه والعشرين من عمره وهو في شرخ الصبا وريعان

---

(١) نقـول: مـا يقـترب مـن ذلـك، كـونهﷺ تزوج بها وهو في عمر(٢٥) عاماً وأنزل عليه الوحـي وهـو في عمـره ٤٠ عامـاً أي ١٥ عامـاً ومن ثم ثلاث سنوات في الدعوة السرية وثلاث سنوات في حصار شعاب أبي طالب، فكانت خديجةﷺ مرافقه له في كل ذلك ثم على قول ابن سعد في الطبقات ج٨ ص ٥٣ تزوج من (سودة) في رمضان سنه عشرة من النـبوة أي لابـد انهـاﷺ توفيت قبل زواجه الثاني بفترة؛ ولكن ما هو مقدار هذه الفترة؟ يقـول أبـن الأثـير انها توفيت وله من العمر ٦٥ عاماً كما فى مصدره أسد الغابة ج١ ص ١٩ ويتـضح مـن خلال ذلك أنها عاشت مع الرسولﷺ بحدود ٢٥ عاماً. وكان عمر الرسولﷺ عند وفاتها (٥٠) عاماً (المحقق).

الفتوة ووسامة الطلعة وجمال القسمات وكمال الرجولية. ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجة ثمانياً وعشرين سنة، حتى تخطى الخمسين[1]، هذا على حين كانﷺ تعدد الزوجات أمراً شائعاً بين العرب في ذلك العهد، وعلى حين كان لمحمدﷺ مندوحة في التزوج على خديجة، أن لم يعش له منها ذكر؛ وفي وقت كانت توأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم الذين يعتبرون خلفاً. وقد ظل محمدﷺ مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه واحدى عشرة سنه بعده[2] وهو لا يفكر قط في أن يشرك معها غيرها في فراشه.

ولم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء يتبرجن فيه ويبدين من زينتهن، ما حرَّم الاسلام من بعد. فمن غير الطبيعي ان تراه وقد تخطى الخمسين ينقلب فجأة...» و«ليس من الطبيعي ان تراه، وقد تخطى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات وفي سبع سنوات

---

(١) كان عمرهُ الشريف على رواية هيكل ٤٨ عاماً. وعلى رواية المؤرخين ٥٠ عاماً كما بينا ذلك فى الهامش السابق (المحقق).

(٢) والصحيح خمسة عشر عاماً قبل البعثة وعشرة سنين بعد البعثة وتوفيت عليها السلام قبل هجرة الرسولﷺ الى المدينة بسنتين وسمي عام وفاتها بعام الحزن حيث توفي فيه عم النبيﷺ أبي طالبؑ حامي الرسول، ولم يكن هناك قطع في أي منهما توفي قبل!! يقول ابن شهر اشوب في مناقبه توفيت خديجه بعد موت أبي طالب بثلاثه أيام ج١ ص ١٥٠ (المحقق).

تسع زوجات، وذلك كله بدافع من الرغبة في النساء...»[١].

وعوداً الى ما قبل زواجه بخديجة، كانت حياته مثالاً للخلق الكريم، والطهارة حتى انه لم يحضر مناسبات الأفراح والمتعة، وحين حاول ذلك – مرة – في فتوته، وجد نفسه نائماً على مبعدةٍ من مكان المتعة ذلك لأن إرادته الطهرية كانت أقوى من أية رغبة لقد كان انموذجاً للزهد الأخلاقي.

و«في بلد شديد القيظ، مثل بلاد العرب، عاش حياة عفيفة،؛ بوصفه عزباً حتى السن التي تزوج فيها، إن طهارة خلقه قد طبق ذكرها الافاق وبعد ذلك عاش مع زوجة واحدة – زوجة كانت أرملة أيضا، وأكبر منه...»[٢].

إن زواجه من خديجة – إذن – كان التعبير الواضح، والثابت عن حقيقة محمدﷺ ورأيه في الزواج قبل نشوء متطلبات الحكمة العملية بعد البعث وبعد وفاة خديجة ضبطاً. ودليل ذلك ان ذكرياتهُ عن خديجة بقيت راسخة في رفقتها له رغم وفاتها وزواجه بعائشة وغير عائشة.

وقد كان حب محمدﷺ لزوجته المتوفاة خديجة يثير غيرة عائشة التي كانت تقول: إنها لم تجد في نفسها غيرة من أحد من نساء النبي ما وجدت من ذكر خديجة[٣] لقد كانت مقتضيات الحكمة العملية النابعة من الرسالة ومسؤولية بناء

---

(١) محمد حسين هيكل (المؤلف).

(٢) مولانا محمد علي (حياة محمد ورسالته) (المؤلف).

(٣) قبل البدء بالحديث عن غيرة السيدة عائشة لابد من توضيح منزلة السيدة خديجة بنت خويلد عند ربها اولاً: عن أبي هريرة: «اتى جبريل النبيﷺ، فقال: يا رسول الله هذه

كيان عربي إسلامي، تقرر صيغ الزواج التي تمت، فكان زواجه من عائشة بنت أبي بكر الصديق، (التي خطبها الى ابيها وهي ما تزال في التاسعة من عمرها وقد بقيت سنتين قبل ان يبنى بها)[1]. وزواجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب من

خديجة قد أتت معها إناء وشراب، فإذا هي أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولانصب» صحيح النجاري ج٤ ص ٢٣١، ثانياً: منزلتها عند الرسولﷺ وبيان غيرة السيدة عائشة، في كتاب المغازي لمحمد بن أسحاق باسناده عن ام رومان، قالت: كان لرسول اللهﷺ جارة قد أوصته بأن يتعهدها، فحضر عنده شيء من المأكل، فأمر بأعطائها وقال: هذه أمرتني خديجة بأن يتعهدها، قالت عائشة، وكنت احسدها لكثرة ذكره لها فقلت: يا رسول الله لا تزال تذكر خديجة كان لم يكن على ظهر الارض غيرها فقال: قومي، فقامت الى ناحية منه في البيت فقالت أم رومان: فقلت له: يارسول الله لا تؤاخذ عائشة فأنها حديثة سن، فناداها فقال: يا عائشة أن خديجة آمنت بي إذ كفر بي قومك ورزقت منها الولد وحرمتموه... انظر العمده لابن البطريق: ص٣٩٤، وأيضاً مارواه هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشه—نفسها- قالت:ما غرت على أمراة من نساء النبيﷺ إلا على خديجة، واني لم أدركها، قالت: وكان رسول اللهﷺ إذا ذبح الشاه يقول: أرسلوا بها الى أصدقاء خديجة قالت فأغضبت يوماً فقلت: خديجة قال: أني قد رزقت حبها» انظر كتاب الاربعين لمحمد بن طاهر القمي الشيرازي - تحقيق مهدى رجائي- عن صحيح مسلم ج٤ ١٨٨٨م ح٧٥ (المحقق).

(١) انظر شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج٩: ١٩٠ ومسند أبي يعلى الموصلي ج٨: ٧٤ (المحقق).

أجل تمتين أواصر الجماعة الاسلامية الناشئة في شخصي وزيريه: أبي بكر وعمر[1]:

«إن هـذا الاعتبار هوالذي دعا محمدﷺ ان يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتـزوج مـن ابنتـيهما، كـما دعاه ان يرتبط بعثمان وبعلي برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما.

وإذا صـحَّ القول في عائشة وفي حبه إياها، فإنما ذلك حب نشأ بعد الزواج لاحيـنه. فهـو قـد خطـبها الـى ابيها وما تزال في التاسعة من عمرها، وقد بقيت سـنتين قـبل أن يبنى بها. فليس مما يرضاه المنطق ان يكون قد أحبها وهي في هذه السنّ الصغيرة.

يـؤيد ذلـك زواجـه من حفصة بنت عمر في غير حب بشهادة أبيها نفسه. قال عمر:

«والله إن كـنا فـى الجاهلية ما نَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقـسم لهن ما قسم. قال: «فبينما أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي: لوصنعت كذا وكـذا! فقلـت لهـا: ومالكِ أنت ولما ها هنا وما تكلفك في أمر أريده! فقالت لي: عجـباً لـك يا ابن الخطاب! ما تريد ان تراجع أنت وإن إبنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان! فقال عمر: فأخذ ردائي ثم اخرج مكاني حتى أدخل على حفصة. فقلت لها: يا بنيّة إنك لتراجعي رسول الله صلى الله علـيه وسـلم حـيث يظـل يـومه غـضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه.

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

فقلت: تعلمين إني احذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يابنية لايغرنك هذه التي قد اعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها.. وقال: والله لقد علمت ان رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك»(*)(١).

وكان زواجه الثاني، بعد وفاة خديجة، من سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس(٢) و«لم يَرِ راوٍ أن سودة كانت من الجمال أومن الثروة

(*) لقد ترملت حفصه بنت عمر بعد معركة بدر إثر استشهاد زوجها خنيس في الميدان، وعرض عمر على أبي بكر، ثم على عثمان الزواج بها، فلم يتيسر ذلك فتزوجها الرسول (المؤلف).

(١) محمد حسين هيكل: (المؤلف) وانظر صحيح مسلم ج٤ ص ١٦٥، والجامع لأحكام القرآن ج١٨ ص١٩٠، والصحيح من السيرة للسيد جعفر مرتضى العاملي ج٥ ص٢٥٨ ، ويؤكد السيد العاملي ان زواجه من عائشه وحفصه زواجاً سياسياً والدليل ما قاله عمر بن الخطاب لابنته حفصه» وراجع ايضا ما قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩ ص ٢٤٤ وابن الأثير في أسد الغابة ج٥ ص ٤٢٦ والاصابة ج٤ ص ٢٧٣ والاستيعاب بهامش الأصابة ج ٤ ص ٢٦٩ (المحقق).

(٢) انظر السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٤ ص ١٠٥٩، إعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ج١: ص ٢٧٦، عيون الاثر لأبن سيد الناس ج٢ ص ٣٨١، السيرة النبوية لأبن كثير ج٢ ص ١٤٥، وج ٤ ص٥٨٤، تاريخ الطبري ج٢ ص ٤١١، كتاب المحبر لمحمد بن حبيب البغدادي ص ٧٩، الانساب للسمعاني ج٤ ص ١١٧، الاعلام لخير الدين الزركلي ج٥ ص٢٦٠، سير اعلام النبلاء ج٢ ص ٢٦٥، تهذيب الكمال ج٣٥ ص ٢٠٠، أسد الغابة لأبن الأثير ج٥ ص٤٨٤، تاريخ مدينة دمشق ج٣ ص ١٦٤ والتعديل والتجريح ج٣ ص ١٤٩٩، الثقات لأبن حبان ج٢ ص ١٣٨ والطبقات الكبرى لأبن سعد ج٨ ص ٥٢، تفسير القرطبي ج١٤ ص ١٦٤ (المحقق).

أوالمكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثراً في زواجه منها. إنما كانت سودة زوجاً لرجل من السابقين الى الاسلام الذين أحتملوا في سبيله الأذى والذين هاجروا الى الحبشة بعد ان امرهم النبي بالهجرة وراء البحر اليها. وقد أسلمت سودة وهاجرت معه، وعانت من المشاق ما عانى، ولقيت من الأذى ما لقي فإذا تزوجها محمدﷺ بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجل الحمد» كذلك «ليعلم المجاهدين من المسلمين انهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم عَيْلَة»[1].

وكذلك قصة زواجهُ من زينب بنت خزيمة، وأم سلمة[2]، «فقد كانت زينب زوجاً لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، ولم تكن ذات جمال وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقّبتْ إم المساكين وكانت قد تخطَّت الشباب، فلم يك إلا سنة اوسنتان ثم قبضها الله، فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله» أما أم سلمة (فكانت زوجاً لأبي سلمة وكان لها منه أبناء عدة، وإن أبا سلمة جُرح في أُحد، ثم برأ جرحه، فعقد له النبي لحرب بني أسد فشتَّهم وعاد الى المدينة بما غنم، ثم نَغَر عليه جرح أُحد وما زال به حتي قضي عليه وقد حضره النبي وهوعلى فراش موته، وظل الى جانبه يدعو

---

(١) انظر سنن البيهقي ج٧ ص ٧٢، والمحبر لمحمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥ هـ) ص ٨٣، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٨٤، وابن هشام في السيرة النبوية ج٤ ص ٣٦٦ النسخة المعتمدة عندالبوسفي الغروي في كتابه موسوعه التاريخ الاسلامي ج٢ ص ٢٤٧ (المحقق).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج٣ ص ٢٤١ (المحقق).

لـه بخـير حتـى مـات فأسـبل عينيه، وبعد أربعة أشهر من وفاته خطب محمد أم سـلمة الى نفسها، فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطت الشباب، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى اخذ نفسه بالعناية بتنشئة ابنائها»[١].

كذلك تزوج الرسول أم حبيبة بنت ابي سفيان[٢] وكانت من بين المهاجرين الى الحبشة، وقد دخل زوجها عبيدالله بن جحش في النصرانية، ومات في الحبشة، فكـان زواجـه مـنها وهـي في الحبـشة مـثالاً عظيماً في الرعاية والاحتضان. وقد وفدت الى المدينة في السنة السابعة للهجرة، وبلغ من أجلالها لزوجها الرسول ان أباهـا (أبـا سـفيان) أراد الجلـوس عـلى فـراش النبي، في زيارته إياها، فطوتهُ أم حبيـبة، لأن الفـراش فـراش رسـول الله، وإن أباهـا رجل مشرك نجس. فبتلك الصلابة الاخلاقية اغضبت أباها وليكن ما يكون[٣].

وتثـير قـصة زواج محمـدﷺ مـن صـفية بنت حيي بن أخطب[٤] اليهودية

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد (المؤلف).

(٢) شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي ج٢ ص ١٠٩ وأكد محقق الكتاب ان أسمها رملة وليس ميمونة انظر ج٣ ص ١٥٢ منه، تاج المواليد للطبرسي ص ١٠ وسنن البيهقي ج٧ ص ١٣٩، كتاب النكاح باب الوكالة في النكاح والمحاسن ص ٤١٨ (المحقق).

(٣) انظـر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج٨ ص ١٠٠ الثقات لأبن حبان ج٢ ص ٣٨، تاريخ مدينـة دمـشق ج٦٩ ص ١٥٠، سـير اعـلام النـبلاء للذهبي ج٢ ص ٢٢٣، سبل الهدى والرشاد ج١١ ص١٩٦. (المحقق).

(٤) انظـر تـاريخ المدينـة لأبـن شـبة النمـري ج٢ ص ٤٦٤، تـاريخ اليـعقوبي ج٢ ص ٥٦،

المعروفة درساً عظيماً في المبدأية والواقعية العملية على حد سواء. إذ ان ذلك الزواج يعبر بأبلغ دلالة عن نفسية محمدﷺ وإنسانيته الكبيرة المجبولة على نظرة التآخي والوحدة البشرية التي ترفض التمايز العرقي والطائفي، والعنصري من أي شكل ولون. والذي يعطي للزواج أهمية مضاعفة ان صفية (سيدة بني قريظة والنضير) كانت أسيرة بعد إنتصار المسلمين على يهود خيبر إنتصاراً ساحقاً، فهي يهودية نضيرية أولاً، ومن أسرة من رؤساء اليهود ثانياً، وهي اسيرة ثالثاً، وقد قتل المسلمون أباها وزوجها وقومها بعد حرب كان اليهود مشعليها.

ان تكريمها، وهي فيما هي عليه من كَرَبٍ كبير، على ذلك المستوى الرفيع من عقد رابطة الزواج، درسٌ نادر في تأريخ الانسانية، لم تكن حدود فائدته مجرد إنقاذ الوضع النفسي لامرأة يهودية شبه متحطمة بل أبعد من ذلك بكثير في تأكيد المدى الذي يمكن ان يحققه التعاطف البشري وإحلال بدائل عن الحروب والمؤامرات هي بدائل التضامن بأقصى المستطاع.

ومن الواضح ان رحمة النبي - في أنتصار المسلمين في معركة خيبر القاسية- أفردت للمرأة مكانةً خاصة، عند التعامل مع الأسرى وذلك جزء من رؤية النبي الكريمة لقيمة المرأة وسياسته التطبيقية الثابتة في أحتضانها ورعايتها

والبداية والنهاية ج٤ ص ٢١٨، وعيون الاثر لأبن سيد الناس ج٢ ص ١٣٦ والسيرة النبوية لأبن كثير ج٤ ص ٥٨٦ الاصابة ج٤ ص ٣٤٧ وطبقات ابن سعد ج٨ ص ٩٠ والصحيح من السيرة للعاملي ج٣ ص ٢٩٤ (المحقق).

بإعزاز وإكرام.

وبإزاء عظمة السلوك المحمدي في اختيار صفية زوجة له، كان وفاء صفية مسلكاً متوقعاً من قبل امرأة رأت بنفسها علو مستوى الرجل المتمثل في النبي محمدﷺ.

هكذا حكت قصة إخلاص صفية لبعلها محمد، عند مرضه، وبعد وفاته والى حين وافاها الاجل.

في ذلك يقول محمد حسين هيكل: «على ان صفية أقامت على الوفاء لمحمدﷺ حتى قبضه الله اليه. وقد اجتمع نساؤه حوله في مرضه الاخير فقالت صفية:

أما والله يا نبي الله لوددتُ ان الذي بك بي. فتغامز بها أزواج النبي. فقال لهن: مَضْمِضْن قلن: من أي شيء يانبي الله؟

قال: من تغامزكن بصاحبتكن والله إنها لصادقة[1] وبقيت صفية بعد النبي حتى خلافة معاوية وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع»[2].

ويعكس زواج النبي بميمونة[3]، وهي في السادسة والعشرين من عمرها،

---

(١) الطبقات الكبرى لأبن سعد ج٢ ص ٣١٣ وج٨ ص ١٢٨، سير اعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص ٢٣٥ والاصابه لأبن حجر ج٨ ص ٢١٢ (المحقق).

(٢) محمد حسين هيكل المصدر (المؤلف).

(٣) أنظر الاستيعاب ج٤ ص ٤٠٤، والطبقات الكبرى لأبن سعد ج٧ ص ٣٧١ والبداية والنهاية ج٥ ص ٣٠٤ (المحقق).

قوه النظرة العملية في نهج محمدﷺ فقد كان ذلك الزواج تقوية لأواصر الاسلام، ولمكانة المرأه المسلمة، ذلك لأن ميمونة تأثرت أشد التأثر وهي ترى لأول مرة المسلمين يؤدون عمرة القضاء بمكة بأروع صور التعبّد وبأحسن الطقوس وبأفضل أشكال العلاقة فيما بينهم، فانجذبت الى الاسلام حالاً.

إضافة الى ذلك، كان زواج محمدﷺ بها تعزيزاً لأواصر القرابة، لأنها أخت ام الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبي الذي عضد النبي كثيرا قبل ان يشهر اسلامه.

ويؤخذ في الاعتبار ان الزواج تم في أول دخول للمسلمين الى مكة، بعد ان أبعدوا عنها قسراً، وكانوا على ضعف. فكان مجيئهم الآن شاهد قوة، ودليل انتصار.

إن الزواج كان استكمالاً لعناصر لوجه الانتصار، الذي جرى في إحتفالٍ ديني مهيب، آسر. وهو غنيّ بالدلالة في تأثيره على السايكولوجية الجماعية لقريش، ذلك لأن ما يجري هو إجراء زيجة داخل الوسط القرشي، بعد خاتمة مراحل العدوانية القريشية الظالمة ضد ابناء قريش النجباء.

وحيث ان مدة مكوث النبي والمسلمين في مكة، حسب بنود صلح الحديبية ثلاثة أيام، فان مغادرة مكة (والعودة الى المدينة) جرت على نحو دراماتيكي مثير، ذلك لأن محمداًﷺ غادر مكة منتصراً مثلما دخلها.

فمن الناحية السايكولوجية تترك المغادرة ندوبها، خاصة بعد ابتهاج ثلاثة أيام التي لايمكن أن تكون معادلاً لأشواق العودة الى مكة، مسقط الرأس

والهدى، الأصل والمنبت.

بعد الانسحاب، ومغادرة مكة، قد تتحول الأيام الثلاثة الى حلم، ثم الى وهم، في عواطف أناس مولهين بمكة، التي لا يزال اسيادها اعداء لهم فمن يدري ماذا تخبئ قريش غداً لهم؟

كان زواج النبي يمد حضور المسلمين في عمرة القضاء بقوة الحدث الذي يظل - إضافة الى الممارسات الاسلامية الاخرى في أيام العمرة - منطبعاً برسوخ في ذاكرتهم.

بين الجانب الاخر كان الانطباع في ذاكرة قريش ان محمداًﷺ انتزع منهم إمرأة بقوة العقيدة الاسلامية. إنه يسلب منهم حيناً بعد حين عنصراً من عناصر قوتهم ويمهد للهيمنة عليهم في يوم موعود لا رادَّ له.

وقد بالغ بعض المستشرقين والكتاب في تأويل قصة زواج محمدﷺ من زينب بنت جحش، مُلحقين الأكاذيب بالآية الناصعة: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

والقصة هي ان زينب بنت جحش هي زوجة زيد الذي اعتقه النبي وتبناه، وبعد ذلك طلقها زيد وتزوج النبي منها. فأصبحت القصة مادة يلهو بها الخيال وكأن النبي قد بهره جمال زينب وهي في عاتق زيد، فأمره بتطليقه إياها كيما

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف) والآية من سورة الأحزاب:٣٧ (المحقق).

يحقق رغبته بالتزوج منها.

فقد «أطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين تحدثوا عن تأريخ محمدﷺ في هذا الموضوع. حتى ليصور بعضهم زنيب ساعة رآها النبي وهي نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يمكنه من كل معاني الهوى. وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما في نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً! وأمثال هذه الصورة التي أبدعها الخيال كثير. تراه في (مُوير) وفي (دِرِمْنجمُ) وفي (واشنطن إرْفنجْ) وفي (لامَنس) وغيرهم من المستشرقين والمبشرين. ومما يدعو الى أشدَّ الأسف ان هؤلاء جميعاً اعتمدوا في روايتهم على ما ورد في بعض كتب السيرة والكثير من الحديث، ثم أقاموا على ما صوّروا قصوراً من الخيال في شأن محمدﷺ وصلته بالمرأة، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعاً في القول الراجح، وحتى بلغن أكثر من ذلك في بعض الروايات»[1].

إن ظاهر القصة يبدو مثيراً ويجد التصديق لدى أولئك الذين يتأثرون بأقوال المستشرقين من بعض الشباب العربي المثقف الذي جنحت به بعض الأفكار المادية جنوح الميل الى تصديق (المثير) و(الغريب) فيما يقدمه المستشرقون

---

(١) محمدحسين هيكل: المصدر، (المؤلف).

عـن التأريخ العربي الاسلامي. والعمل على نشره بحماسة غامضة، ويُغذي ذلك - أحـيانا - ردود فعـل بعـض الـشباب مـن الطريقة المدرسية الجامدة، والبليدة والمملـة في تـدريس كـتب الـتأريخ، فينتاب الشاب نزوع الى التمرد، يجعله مهيأ لقبول غريب الأراء والمعلومات وكل ما هو فضائحي، وشاذ.

ويُحـرض - اكثـر فأكثر - على التمرد الواهي وتقبل شاذ الأخبار، العجز عـن ممارسـة الديمقـراطية مـع الـشباب في الحوار، وضمان حق التساؤل، وإبداء الآراء ودراسـة التأريخ بحرية وموضوعية لاينال منهما القمع الفكري التقليدي الذي يلجأ الى التكفير المُتسرّع.

لقـد جـرى الترويج الملفَّق لقصة عشق النبي لزينب بنت جحش وزواجه مـنها بعـد قـضاء زيد وطره منها، من أعلى مستوى (في الاستشراق والتبشير) في أوربـا والى أبعد نقطه في المدن الاسلامية حيث صَدَّق التلفيق طلبة ومثقفون هم في مرحلة القلق، وعدم التّيقن من جدّية معتقداتهم.

وبطبـيعة الحال ان سريان القصة المشبوهة في عقول بعض الناشئة والطلبة والمثقفـين في الـبلدان الاسـلامية، يهدف - أصلاً- الى التشكيك بعظمة شخصية محمدﷺ والطعن برسالته، وتسفيه التأريخ العربي الاسلامي من أصله وجذره.

والغـريب ان مـواد كـتب الـتأريخ الاسـلامي مـا كانـت معنية بالرد على الافـتراء الجـاري والمنتشر، كذلك لم يفعل العديد من مدرسي التأريخ الاسلامي مـثل ذلـك لأنهـم كانـوا يحـتمون بالكليـشيهات والنصوص المحفوظة، التي لا يضيفون إليها شيء ولا يملكون القدرة على الحوار خارج أطرها.

عملياً كانت آراء قسم من الشبيبة المتشككة برسالة محمدﷺ والتي تستقبل باهتمام وحماس، قصة زواج محمدﷺ من زينب، وأمثالها، مفضيةً الى الالحاد.

ونظرا الى ان المراجعات الثقافية كانت تجري في الاطار السياسي، فقد امتزج الالحاد - بصورة ملموسة - بالطرح السياسي (المسمّى بالطرح الثوري) وبذلك كانت الاطروحات التقدمية عن الحرية والمستقبل السعيد للمجتمع لاتقيم وزناً للتأريخ العربي الاسلامي ورموزه المضيئة، بسبب شطبها على المنطلق المتمثل في الثورة المحمدية العظمى. وفقاً لذلك، لم تكن هناك أية مصداقية لأفكار تبشر بالغد الزاهي للمجتمعات، وهي تقف - على طول الخط- وقفة العداء للتأريخ الاسلامي الزاهي.

وعلى جسر واحد التقى دعاه التبشر من كتائب الاستعمار الثقافية، وبعض فئات تسييس الماركسية (على الصعيد العربي) في تشويه طليعة تأريخ العرب الاسلامي وشخصية محمدﷺ وفي التعالي على التأريخ القومي والاسلامي ونبذه برمته(*).

إن قصة زنيب الملفقة سريعة التهافت أمام قوة الحقائق الصادقة. فقد كانت زينب بنت جحش إبنة عمة النبي - إبنة أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله) وهوالذي أشرف على تربيتها وهوالذي أقدم على تزويجها من زيد

(*) وقد حصلت مراجعات إيجابية في هذا الميدان وهي تنتظر المزيد من التوسع في تعديل المنطلقات (المؤلف).

الذي تبناه وهوالذي ساق اليها مهرها عنه.

وقد كان قبول زينب بالزواج على مضض، ذلك لأنها وأخاها كانا رافضين للزواج بسبب العصبية القريشية ونظرة (الدون) الى زيد، الذي كان من الأرقاء في عرفهما. أي ان الزواج حمل عوامل فشله منذ الوهلة الأولى، لكن محمداً كان مضطراً الى إجرائه للتأكيد على المساواة وإلغاء العصبيات الطبقية والعنصرية من أي شكل.

في ذلك يقول محمد حسين هيكل«ماذا يثبت التاريخ ايضاً؟ يثبت ان محمداًﷺ خطب ابنة عمته زينب على مولاة زيد، فأبى أخوها عبدالله بن جحش أن تكون أخته وهي قرشية هاشمية، وهي فوق ذلك إبنة عمه الرسول تحت عبد رق اشترته خديجة ثم اعتقه محمدﷺ ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً وكان ذلك عاراً حقاً عند العرب، كبيراً. فلم تكن بنات الاشراف الشريفات ليتزوجن من موالٍ وإن اعتقوا.

لكن محمداًﷺ يريد ان تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة في النفوس على العصبية وحدها، وأن يُدرك الناس جميعاً ان لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] وهو لا يرى أن يستكره لذلك أمرأة من غير اهله فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، معرضة في ذلك عما يقول الناس عنها مما

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

تخشى سماعه، وليكن زيد مولاه الذي تبنّى والذي اصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في ان يرثه كسائر أبنائه سواء، هوالذي يتزوجها»[١].

وبعد الزواج، لم يسلس لزيد قياد زينب، ولا لان اباؤها، بل جعلت تؤذي زيداً وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجرِ عليها رق، واشتكى زيد الى النبي غير مرة من سوء معاملتها إياه واستاذنه غير مرة في تطليقها فكان النبي يجيبه: «امسك عليك زوجك واتق الله» لكن زيدا لم يطق معاشرة زينب وإباءها عليه طويلا فطلقها.

وكأن الشارع الحكيم قد أراد ان يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابهم ومن إعطاء الدعيّ جميع حقوق الابن، ومن اجرائهم عليه احكامه حتى في الميراث وحرمة النسب، ولا يجعل للمتبني واللصق إلا حق المولى والاخ في الدين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٢].

ومعنى هذا انه يزوج للمدعي ان يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادّعاه، ويجوز للمتبني ان يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبّناه ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا؟ وَمَنْ مِن العرب يستطيعهُ وينقض به تقاليد الاجيال السابقة جميعاً؟ ان محمداً ﷺ نفسه على قوة عزيمته وعميق ادراكه لحكمة الله في أمره، قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد أياها، ودار

---

(١) محمد حسين هيكل (المؤلف).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقة هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب، وذلك ما يريده تعالى في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[1].

لكن محمداً كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقي عليه أن يبلغه للناس فلا يخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئاً الى جانب خشية الله بتنفيذ أمره، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنّي، والأدعاء[2] وفي ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧ (المحقق).

(٢) قيل: ان العرب كانوا ينزلون الادعياء منزلة الأبناء في الحكم فأرادﷺ أن يبطل ذلك بالكلية وينسخ سنة جاهلية من خلال هذه التوسعة على المؤمنين حتى لايكون أثم في أن يتزوجوا أزواج أدعيائهم الذين تبنوهم إذا قضى الادعياء عليهن حاجتهم وفارقوهن، كما وقد جاء في الحديث أن زينب كانت تفتخر على سائر نساء النبيﷺ وتقول: زوجني الله من النبي وأنتن انما زوجكن أولياؤكن، ويروى عن انس بن مالك قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول اللهﷺ لزيد: إذهب فاذكرها علي قال زيد: فانطلقت فقلت: يا زينب أبشري قد أرسلني رسول اللهﷺ يذكرك، ونزل القرآن وجاء رسول اللهﷺ فدخل عليها بغير إذن لقوله: «زوجناكها» انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج٧ ص ٩١، مسند ابن راهوية ج٤ ص ٤١، فوائد العراقيين لأبن عمرو النقاش (٤١٤هـ) ص ١٠١، وتفسير الإمام العسكري ص ٦٤٥، والتبيان للطوسي ج٨ ص ٣٤٢ وتفسير مجمع البيان للطبرسي ج٨ ص١٥٩، فقه القرآن للقطب الراوندي ج٢ ص٢٠٩ (المحقق).

قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1].

ثمة - إذن - حالات استثنائية كان يمر بها الاسلام، من خلال الظروف الزوجية، والعائلية، للصحابة والمؤمنين. وكان من غير الصحيح ترك هذه الحالات الاستثنائية تتفاقم الى ما هواكثر سلبية، مما يُعرقل عملية رسم المعالم الثابتة للحياة الاسلامية الجديدة، ويوفر الشقوق التي تنطلق وتنبعث منها الظواهر الجاهلية، واللااسلامية، مما يسمح بتجميع عناصر الرده، من ميادين مختلفة.

إن تعدد الحالات الاستثنائية، لا يعني انها حالات فردية متناثرة، ذلك لإنها قد تكون أكبر من ذلك بكثير، لاسيما ان الأساس الجاهلي للحالات الاستثنائية، مؤهل - على الدوام - لتصعيدها، وتحويلها الى ظاهرة خطيرة.

و«لكن الاسلام بوصفه ديناً كونياً محتاج، لأن يحتاط لمختلف ضروب الحالات الاستثنائية غير السوية. وتعدد الزوجات هو أحد هذه الاحتياطات، التي لا يسمح بها إلا حين تدعو الى ذلك بعض الحالات الشاذة فحين تنشأ حالات مثل هذه فعلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة لابد منها».

«وكان على الرسول، ان يكون قدوة كاملة للجنس البشري كله. ومن هنا كان ضرورياً بصرف النظر عن إنفاقه كامل شبابه بل الجزء الاعظم من شيخوخته مع زوجة مفردة، ان يتخذ عدة زوجات عندما أفضت الحرب الى

---

(١) مولانا محمدعلي: المصدر ذاته (المؤلف).

جعل عدد الاناث اكبر من عدد الذكور، بين المسلمين».

«فقد احدثت حالة الحرب السرمدية تفاوتاً بين عدد النساء وعدد الرجال في المجتمع. لقد استشهد الرجال في ميدان القتال، فكان لا بد من إعالة اراملهن»[1].

وليس الأمرُ إعالة فقط، بل هوأمر حماية للطهر والعفة وأمرُ تصدٍّ لكل السلبيات الاخلاقية المحتملة.

فالأرامل والمطلقات يعشن - حكماً - في صعوبات العيش والحاجات البيولوجية، والتعقيدات المتصلة بالسمعة الاخلاقية، والخيارات المحدودة، فكان - ضرورياً - أخذ زمام المبادرة لوضع الحلول والمعالجات بصورة تؤكد قيم الاسلام، واعتبارات الأخوة الوطيدة بين المؤمنين بضوء الاعتراف بفضل الأكثر إيماناً وتضحيةً من أجل الاسلام، وعدم المسّ بسمعتهم - أحياءاً أواموتاً- من خلال الظاهرة المذكورة.

خلاصة الموضوع ان رسالة محمدﷺ التي توجهت لأنقاذ الانسانية فرضت عليه - إضافة الى كونه بشراً سوياً - مسؤوليات كبرى ذات مراتب ودرجات تبتدئ من الادنى وترتفع الى الاعلى أوتبتدئ من الاعلى وتصل الى الأدنى في وحدة علاقة المسؤولية فكان القائد، والاب، والمنظم والموجه، والمنقذ والمؤسس، الذي فجَّر عالماً غاشماً وبنى عالماً جديداً.

كان العالم الفظيع عالم وأد البنات وكراهية المرأة (من حيث تحويلها الى

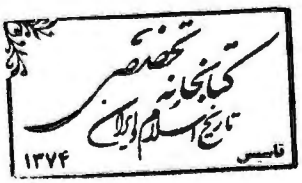

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

مـرتبة الـدون) فجاء محمدﷺ ليضرب بعادات وقيم ذلك العالم المقلـوب بتكريم المرأة الأم، والمرأة الزوج، ومن خلالهما كان تكريم عموم المرأة.

فعـلى صعيد تكريم الأم، فهو وارد ضمن تكريم الوالدين، بأمتياز معطىً لـلأم. وبـضوء مفاهـيم القـرآن الكريم ودعوته، جاء الاحسان للوالدين مقترناً بعـبادة الله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1].

كـذلك: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2].

وأفرد القرآن للأم مكانة خاصة: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[3].

كـذلك: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

(١) سورة الاسراء، الآية: ٢٣-٢٤ (المحقق).

(٢) سورة الانعام، الآية: ١٥١ (المحقق).

(٣) سورة لقمان، الآية: ١١٤ (المحقق).

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

ورفع الرسول العلاقة بالوالدين الى مستوى من الأهمية يتقرر به أعلى حد للعقاب والثواب، فالوالدان هما الجنة أو النار. قال(ابن ماجة): «سئل صلى الله عليه وسلم عن الوالدين. فقالﷺ للسائل: هما جنتك ونارك»[٢].

وفي سياق هذا التكريم الغني للوالدين خُصَّت الأم بمكانة أولى.

«جاء رجل الى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله من أحَقّ الناس بحسن صَحابتي؟ قال: «أمك» ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثُمَّ من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[٣].

وقد أكد محمدﷺ على ان خيار الرجال خيارهم لنسائهم قائلاً: «خيارُكم خيارُكم لنسائهم»[٤] فالنساء في عرف محمدﷺ هن شقائق الرجال كَما ورد في حديثه الطاهر، مثبتاً بذلك الوعي القرآني السديد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

---

(١) سورة الاحقاف، الآية: ١٥ (المحقق).

(٢) انظر سنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد القزويني (٢٧٥ هـ) ج٢ ص ١٢٠٨.

(٣) انظر صحيح البخاري ج٧ ص ٦٩، صحيح مسلم ج٨ ص ٢، رياض الصالحين ليحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ) ص ٢٠٠، تفسير القرطبي ج١ ص ٢٣٩، المغني لعبد الله بن قدامة (٦٢٠هـ) ج٣ ص ١٩٧، والشرح الكبير لعبد الرحمن بن قدامة (٦٨٢ هـ) ج٣ ص ١٨٩، المحلى لأبن حزم ج١٠ ص ٣٢٣، القواعد والفوائد للشهيد الأول ج٢ ص ٥٨، مستدرك الوسائل ج١٥ ص ١٨٢ (المحقق).

(٤) انظر مسند احمد بن حنبل ج٢ ص ٤٧٢، صحيح ابن حبان ج٩ ص ٤٨٣ (المحقق).

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1].

و﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

حتى على صعيد الاهتمام بالأولاد، والمساواة فيما بينهم بالعطية كان يُفضّل النساء فيما اذا كان هناك تفضيل قال: « سَوّوا بين أولادكم في العطيّة فلو كنتُ مفضلاً أحداً لفضّلتُ النساء»[3].

وحين كان الجاهليون يقتلون البنات خشية الاملاق جاء الرد القرآني صارخاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١ (المحقق).

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١ (المحقق).

(٣) انظر كنز العمال للمتقي الهندي ج١٦ ص ٤٤٤، فيض القدير للمناوي ج٤ ص ١١١، الكامل لأبن عدي ج٣ ص ٣٨١ع تاريخ بغداد ج١١ ص ١٠٩، تاريخ مدينة دمشق ج ٢١ ص ٣٣٣، تهذيب الكمال للمزي ج١١ ص ١٢٦، تهذيب التهذيب لأبن حجر ج٤ ص ٩١، الخلاف للطوسي ج٣ ص ٥٦٤ عن السنن الكبرى ج٦ ص ١٧٧، ومجمع الزوائد ج٤ ص ١٥٣، والحدائق الناظرة للشيخ يوسف البحراني ج٢٢ ص ٣٢١، والمغني لعبد الله بن قدامه ج٦ ص ٢٦٧، سُبل السلام للعسقلاني ابن خجر ج٣ ص ٨٩ ، ونيل الاوطار للشوكاني ج٦ ص ١١٠ (المحقق).

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ (المحقق).

وفي اطار التوجه العادل لتهذيب النفوس وتحريرها من نزعة التخلف وجنون الوأد ركَّزَ محمدﷺ على قيمة البنت بصورة خاصة قائلاً:«ما من مسلم تُدرِكُ عنده ابنتان فيُحسِنُ صُحبتهما إلا أدخَلَتاه الجنة»[1].

وقال: «من عالَ ثلاث بنات اوثلاث اخوات وَجَبت له الجنة»[2].

هذه هي معالم موجزة للرؤية المحمدية نحو المرأة وللموقف الاسلامي المثبت على يدي محمدﷺ.

أي ان زواجه بصفيّة متصلٍ بسلسلة من القيم المتكاملة، اضافة الى ذلك كان العدل بين الزوجات مبدأً ثابتاً في فكر وسلوك الرسول الكريم. بمعنى انها لم تدخل عالم زوجات النبي بدرجة أقل من مكانة زوجاته الأُخر، إذ ليست هناك طبقية خاصة ومراتبية تمايزية بين نساء الرسول، وهو في ذلك يجسد السلوك الصائب الذي أوحى به في قوله «من كان له امرأتان فمالَ الى احداهما

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج١ ص ٣٦٣، سنن ابن ماجة ج٢ ص ١٢١٠، الادب المفرد للبخاري ص ٢٨، مسند أبي يعلى الموصلي ج٤ ص ٤٤٥، وج٥ ص ١٢٨، صحيح ابن حبان ج٧ ص ٢٠٧، المعجم الكبير للطبراني ج١٠ ص ٣٣٨، موارد الظمآن للبيهقي ص ٥٠٠، العهود المحمدية للشعراني ص ٣٤٠، كنز العمال ج١٦ ص ٤٤٨ الدر المنثور للسيوطي ج١ ص ٣٣٨ (المحقق).

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج٣ ص ٩٧، سنن ابي داود ج٢ ص ٥٠٨، المصنف لأبن أبي شيبة ج٦ ص ١٠٣، الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ٦٢٢، كنز العمال ج١٦ ص ٤٤٩، فيض القدير للمناوي ج٦ ص ٢٣٠، تاريخ بغداد ج٨ ص ٣١١ (المحقق).

جاءَ يومَ القيامة وشقّه مائل»[1].

وضمن المعنى الواقعي للرسالة التأريخية المحمدية، كان يستحيل العمل من أجل تحرير المراة، ورفع مستوى فعاليتها وتعديل وجهة نظر الرجل عنها، من خلال صدم المجتمع بقسوة، وتشريع الأمور بمعاكسته، فذلك يتنافى مع معنى الرسالة اولاً، كما انه لا يحقق أية فائدة للمرأة ثانياً، لان تحرر المراة رهين بحركة المجتمع المتطورة، والمنتظمة، والمتصاعدة.

وكان النبي يقود حركة التطوير الشامل للمجتمع، بنفسه، ويخص المرأة بأكبر قدر من الاهتمام تعويضاً لها عن الظلم المركب، والشديد، الفائت بحقها. كان نصب عينيه، تقديم الحلول المركزة، الفعالة التي تخدم الاسلام اولاً، كحركة ثورية فتية، يناصبها العداء عالم واسع مترامي الاطراف، شديد الوحشية، وتخدم المراة ثانياً في مجابهة ظروفها السلبية الخاصة والعامة؛ فهو يتزوج من المرأة المسلمة المنكوبة بوفاة زوجها المؤمن، المقاتل الشهيد، أو المهاجر البطل، أويتزوج من يهودية منكوبة بأهلها وقومها في حرب ربحها النبي والمسلمون، مقدماً مثالاً

---

(١) كنز العمال للمتقي الهندي ج١٦ ص ٣٤١، تفسير القرطبي ج٥ ص ٤٠٧، وج١٤ ص ٢١٨، ذكر اخبار اصبهان ج١ ص ٣٢٨، وج ٢ ص ٣٠٠، المبسوط للطوسي ج٤ ص ٣٢٦، مسائل الافهام للشهيد الثاني ج٨ ص ٣١٤، والشهيد الثاني هوالشيخ زين الدين بن علي بن احمد العاملي (استشهد ٩٦٥ هـ). جواهر الكلام ج٣١ ص ١٥٨، معني المحتاج لمحمد بن الشربيني ج٣ ص ٢٥١، بدائع الصنائع لأبي بكر الكاشاني(٥٨٧هـ) ٢ ص ٣٣٢، والمغني لعبد الله بن قدامة (٦٢٠ هـ) ج٨ ص ١٣٨ (المحقق).

نـادراً، ومذهلاً عن التعاطف الانساني مع العدو - المغلوب ممثلاً في جنس المرأة التـي تُعـاني اكثر من سواها في معسكر الأسرى، فهي مبتلاة بعذابات مضاعفة، مـركّبة، مدمـرة، فكـان يُمـدّ الـيها يد الانقاذ من خلال عمل لا يقوى على فعله المـسلم البـسيط الـذي قاتـل الـيهود الـذين حاربـوه في الـصميم بل كان يفعله (ويفعله فقط!) نبي ورسول وقائد.

بـذلك نـصل في التحليل الى النقطة الثالثة، وهي ان النبي محمداً كان يقدم المـثال العجـيب كـيما يصلح ذلك أن يُهتدى به قدوة في النظرة الانسانية الشاملة، وفي المـؤاخاة بـين الاديـان والعقائـد، وفي تأسـيس ديمقراطية العلاقات الدينية والقومية، على ركائز مادية - اجتماعية، لا على أقوال وديباجات لا حضور لها في التطبـيق. لان مـثل هـذه وتلـك الأقول والديباجات تطير بتغير اتجاهات حركة الواقع السياسي والاقتصادي فهي لا معنى لها ان لم تكن مُترصّنة في التطبيق على قواعد ومرتكزات مادية حقيقية ذات فعل خلاق، ومقاومة جادة ضد كل ما هو متخلف.

كـان الدرس المحمدي في زواجه بصفية بنت حيي بن أخطب رفضاً لكل عنصرية دينية ممثلة في التعصب وضيق الأفق والانعزالية العدوانية.

ويـرتبط المسلك المحمدي - هنا - باعتباره انفتاحاً صميمياً مركباً بعظمة رسـالة محمـدﷺ فظاهرة زواجه هذه تعبر أولاً عن طبيعة سمحاء وعن أخلاقية متـسامحة، اي عـن نظـرة انـسانية ذات جـذر عمـيق شـامل بعيد المدى في قيمة الانسان بكونه إنساناً.

وهـي في مـرحلة تالـية تعبر عن شفقة لا مثيل لها في مساعدة إمرأة يهودية أسـيرة، مـنكوبة، عـلى استعادة ذاتها، وانقلابها التدريجي ضد الخطأ الشائع. لقد كانـت - هـي أصـلاً- أسـيرة ليهوديـتها - وأسيرة بنيتها الطبقية الارستقراطية الثـرية، وكـل مـا نجـم عن ذلك من مآسٍ، كانت، كأنسانة، عاجزة عن إمتلاك نظـرة إنـسانية خـارج وضـعها اليهودي - الطبقي، بل كانت أداة ذلك الوضع، الأداة المتقدمة الخطيرة، المؤذية، لانها في طليعة فئة اليهود الجشعين، والعدوانين، المـرابين، المـضاربين، فـأي أمـل - إذن - يـوجد في حـصولها على بعض إنتباهة متناقضة مع وضعها؟

اسـتطاع محمـدﷺ بقـدرة غـير مصطنعة، قدرة نابعة من طبيعة الانسانية إنتـشالها مـن الأسر، ونقلها الى اكرم درجة، ان تكون زوجته، رغم ما يثيره ذلك من قلق زوجاته.

بـذلك اسـتطاع ان يحقق دعماً خارقاً للجانب الانساني الحر الضئيل القابع في أعماق إمراة يهودية مسبية كانت سيدة قومها اليهود.

أي الجانـب الـذي لم تعرفه هي، وتفاجأت به ينطلق من داخلها - فيما بعد - تحـت خـيمة محمـدﷺ لقد تحدى (المسيح) بأخلاقيته النادرة وحبه المديد معلمي الـشريعة والفريـسيين عـندما أتوا بامرأة زانية لمحاكمتها، ورجمها حسب شريعة موسـى، فقـال لهـم «**مـن يعلـم مـنكم انـه بـلا خطيـئة فليرمها بالحجر الاول!**» فانـسحب معلمـوا الـشريعة واحـداً بعـد الآخر. وقال للخاطئة:«انا لا أدينك، الوداع، ولا تعودي الى الخطيئة مستقبلاً».

بهذه الروحية تعاطف المسيح ايضا مع امرأة في بيت (سمعان) كانت حياتها مليئة بالأخطاء وأرادت التوبة متأثرة بتعاليمه، فارتمت على قدميه وبللتهما بالدموع اثناء التقبيل، ومسحتهما بشعرها ودهنتهما بالزيت من قارورة الطيب التي حملتها، فأثار ذلك الفريسيين فخاطب عيسى سمعان قائلاً: انظر هنا (مشيراً إلى المرأة) اني دخلت لبيتك فلم تقديم إليَّ ماء لأغسل قدمي. أما هي فقد بللتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها. انت لم تقبلني أما هي فلم تعتبر ان تقبيلها قدمي يحط من كرامتها. أنت لم تدهن رأسي بزيت أما هي فبالطيب النفيس دهنت قدميَّ. إن امرأة قادرة على حبٍ كهذا واعترافٍ كهذا، ستُغفر لها خطاياها مهما كانت كثيرة، لان البرودة في العواطف النبيلة على هذا النحو تشهد ان لا رجوع الى الفضيلة المترفعة عن الاغراض». ثم قال يسوع للمرأة: إنها لسعادة إلهية أن اشهد انتصار ايمانك في ذاتك، وثقتك في انك مازلت قادرة على فعل الخير وعلى شجاعتك فعيشي بسلام»[1].

طبعاً لم يتزوجها عيسى إنما أسبغ عليها حنانهُ وانقذها من جريرتها التي كانت عليها وقد كانت من ذات النسيج الاجتماعي الديني العام.

على هذا النحو كان عيسى يتعاطف مع المرأة الخاطئة وعلى نحو آخر.

كان تعاطف محمدﷺ مع المرأة، لقد انقذ صفيته (اليهودية الأسيرة والحاقدة حتماً) من الموت والأسر والعذاب الذاتي، وأطلق سراحها في ذروة

---

(١) هيجل: «حياه يسوع» (المؤلف).

العناية والاحترام، الاحترام الذي لا مثيل له، وليست هناك، الى مِنَصَّتِهِ درجات موصلة.

اختارها زوجة، وهي من غير نسيجه، بل من النقيض المعادي، على صعيدين متحدّين: يهودية بورجوازية(*)، وبورجوازية يهودية، لم تتفكك عراهما أبداً على صعيد قيادة التجمع اليهودي التأريخي.

هنا، لابدّ من التذكر بأن الزواج كان يكتسب مكانة مقدسة لاتمس، في الجاهلية وفي الاسلام بمعنى انه - على الصعيد العربي والاسلامي - كان أقدس المزاولات والعلاقات الاجتماعية وأساسها الثابت.

ويوضح ذلك قول محمدﷺ «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر»(١).

هذا يشير الى ان ما فعله محمدﷺ لم يستطع احد أن يفعل مثله في الرؤية المتكاملة رؤية محمدﷺ ذاتها.

من الناحية الواقعية يمكن القول ان طريقة النبي المرسل محمدﷺ تعكس

(*) تؤخذ البورجوازية هنا بصورة الاصطلاح المجازي (المؤلف).

(١) انظر الكافي للكليني ج٥ ص ٣٢٩ رقم ٢، من لايحضر الفقيه للصدوق ج٣ ص ٣٨٣ رقم ٤٣٤٢، وسائل الشيعة للحر العاملي تحقيق مؤسسة آل البيت ج٢٠ ص ١٧، رقم ٢٤٩٠٨/ ١١، والامالي الشيخ الطوسي ص ٥١٨ ومكارم الاخلاق للطبرسي ص١٩٦، الفصول المهمة في أصول الائمة للحُر العاملي ج٢ ص ٣٢٢، ودُرَر الاخبار لمهدي حجازي ص ٧١٨، كشف الغطاء للعجلوني ج٢ ص ٢٣٩ (المحقق).

وتبلور الفكرة القرآنية عن محمد خاتم الأنبياء وعن الاسلام خاتم الديانات وأوسعها وأكثرها رحابة.

تلك الفكرة التي صممم محمدﷺ إنموذجها التطبيقي في سعته الفكرية والروحية والاخلاقية، التي كانت تسع الناس جميعاً، مِمَّن أوتوا الايمان بالله وبالانسان.

ان ذلك يعني ان محمداًﷺ لم يتزوج بصفية اليهودية لأسباب تكتيكية مصلحية بحتة، كما يتوهم ذلك ممن فهم العرض المذكور فهماً سلبياً أو ممن تحركه مفاهيم مسبقه، ومقاصد معلومة أوخفية، بل ان زواجه متصل بسعة أفكاره الانسانية وعمقها، أي انه متصل بمفاصل مسلك طبيعي واضح تماماً على الصعيد الفكري والديني والانساني بعامة لقد وقف - يوماً ما - تكريماً لجنازة إنسان قالوا له:إنها جنازة يهودي يا رسول الله، قال: «أوليست نفساً خلقها الله».

إن زواجه بصفية، مرتبط بهذا المسلك، وسواه من المواقف الانسانية العالية، وذلك كله يعبر تعبيراً ناصعاً عن طبيعة محمدﷺ التامة الانسانية والتامة الديمقراطية.

وفي خاتمة الموضوع هذا، وضمن سياق انسانية محمدﷺ الواقعية، ومبدأيته الثابتة، في الزواج، يمكن استحضار صورتين من صورة حياة الرسول الزوجية جديرتين بالاهتمام. هما صورة عائشة زوجة الرسول وحديث الأفك، والصورة الثانية اعتكاف الرسول وانقطاعه عن زوجاته وتهديده بطلاقهن.

من المعلوم ان علاقه الزوج بالزوجة تكشف الى حد بعيد عن طبيعة

نفسيّة الزوج وأفكاره (وكذلك الزوجة) وعلى صعيد السلطة، أي في حالة كون الزوج سلطاناً، فان افكاره وطباعهُ تحدد نوع تعامله مع المرأة وفي تاريخ العالم أباطرة وقياصرة وعظماء مستبدون كانوا يفضلون الخليلة على الزوجة، وكانوا ينظرون الى الزوجة نظرة استهتارية، فهي قيد الاهمال والاحتقار والنبذ مثل إناء عتيق. إن ذلك حاصل بدافع جنون العظمة والغرور الاكبر الذي يعززه سايكولوجياً إرتماء الناس - في شتى الامصار - تحت قدميه ولاءً وانطواء الاراضي البعيدة تحت حوافر الخيل، في هجمات التوسع والسيطرة.

وقد توفرت لمحمدﷺ جميع الظواهر، المخبرة عن كونه قائداً عظيماً لايضاهيه احد، على صعيد إنشاء السلطة والفتح، لكن سلطته الواسعة لم تنعكس على علاقته بالزوجة بصورة تسلطية تملكية رغم ان الزوجة لم تتعامل مع قائد ورئيس بل مع نبي تؤدي نحوه فرض الطاعة الذي يحتمه الايمان مثل ما هوحاصل في الديانات الاخرى وأكبر من ذلك بكثير.

بعد غزوة بني المصطلق كان النبي والمسلمون قد عادوا الى المدينة وحينما تفقد النبي عائشة لم يجدها في بيتها وحين حلَّ الصباح دخلت عائشة المدينة مع صفوان وهو فتىً وسيم.

كانت عوامل الشك قويةً، فقد تزوج الرسول بـ«جويرية بنت الحارث» في انتصاره في غزوة بني المصطلق فشحنت عائشة بالغيرة والألم.

كان زواجه من جُويرية ذا هدف ديني - سياسي، وإنساني وقد «كان نعمة عظمى على قومها، إنه لم يضع حداً لعداوة بني المصطَلِق المريرة فحسب، ولكنه

شَـدَّهم الى المـسلمين بـرباط مـن الـصداقة قوي ايضاً. وفوق هذا، فقد كان من النتائج المباشرة لذلك الزواج إطلاق سراح مئات الأسرى من أبناء تلك القبيلة. فهل كان غرضه من هذا الزواج شيئاً آخر غير الغرض الديني؟[1].

إلا ان عائـشة المـرأة الأثـيرة، لم تنظـر الى تلـك الاعتـبارات بعين الاهتمام الخاص، لأنها - في غيرتها وألمها - كانت شديدة الانفعال من مزاحمةٍ جميلة.

ومبيتها ليلة خارج المدينة، وقدومها مع صفوان الشاب الوسيم، يثيران ما هـو أكـبر مـن الـشك لدى الناس عامة، فكيف الحال مع الرسول؟ ثم ان ذلك الأمـر كـان مـن شأنه - حتماً - إثارة تداعيات عن وضع عائشة وفارق العمر في زواج محمدﷺ بها.

جـميع هـذه التفاصـيل وسـواها ليـست في صالح عائشة، ولو مرَّ سلطان اوقائـد أو أمير بموقف مشابه، لكانت اجراءات العقاب قاصمة: القتل أو ما هو دونـه بقلـيل في الدرجـة، وأشـد مـنه في الـنكاية. لكـن نفس محمدﷺ الانسانية العادلـة، كانـت تأبـى: إصـدار قـرار ظـالم، فالعدالة مسؤولية عظمى لا تدانيها مسؤولية. والقضية هي قضية براءة امرأة أم عدم براء تها.

ربـما كـان الطـلاق حـلاً مـع بعـض اجراءات لازمة وثمة ظروف كانت تـشجع ذلـك، منها إنشغال الرسول بخبر استعداد قريش للهجوم الفاصل ضد

---

(١) انظـر المـستجاد مـن الارشـاد للعلامة الحلي ص ٧٣ السيرة النبوية لأبن هشام ق ٢ ج١ ص ٢٩٤ ومستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي ج٧ ص ٥٧٦ (المحقق).

المدينة والاسلام، والذي هيأت له أوسع الامكانات البشرية والتسلحية والتعبوية، مدعومة بحلفائها من القبائل المختلفة، ومن اليهود المتأمرين.

إن رسالتهُ التاريخية تتعرض الى أخطر مرحلة، عبَّر عنها أبوذر الغفاري: «إنها لمحنة جديدة يثيرها اعداء محمدﷺ ليطعنوه في عرضه ايضاً لا تنشغلوا بهذا أيها الناس... استعدوا لما تعده لكم قريش وحلفاؤها»[1] أي شيء في وقت عصيب يتهدد فيه الاسلام ووجود محمدﷺ نفسه؛ هجوم ضخم، يمكن ان يشغل الرسول؟

فقط حديث الإفك، اكتسبت تلك الاهمية، لا بما خلقه من بلبلة وشكوك وتساؤلات، دفعت المنافقين للغمز من قناة النبي، ومن المسلمين، ولكن بسبب العدالة التي لم تكن القرائن الظاهرية تخدمها لصالح عائشة. كانت رواية عائشة: «قمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي، فلمست صدري فاذا عقد لي قد انقطع، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون اني فيه.. ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فيممت منزلي الذي كنت به وظننت انهم سيفقدونني فيرجعون اليَّ. فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمْت وكان صفوان بن المعظل السلمي، ثم

(١) عبدالرحمن الشرقاوي «محمد رسول الحرية»(المؤلف).

الذكواني من وراء الجيش. فأصبح عند منزلي. فرآى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي. والله ما تكلمنا بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى اناخ راحلته فوطيء على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة»[1].

ومع ان تعدد الزوجات يقلل الى حدٍ كبير من تعلق الزوج بامرأةٍ واحدة، ومع ان ظرف محمدﷺ النفسي كان شديد العناء، في ظل إنتصار غزوة بني المصطلق التي عمل المنافقون و(ابن أبي) بالذات على إفسادها بمحاولة إثارة الفتنة بين الأنصار والمهاجرين وفي مرحلة كانت قريش جاهزة لتدمير قوة المسلمين، والنتائج الايجابية لغزوة بني المصطلق أي مع كل الظروف والمبررات والعوامل التي تغذي الاتهام الخطير الموجه ضد عائشة فإن محمداًﷺ يناقش - رغم الألم الهائل، المه هو! - قضية عائشة من جميع جوانبها، مع نفسه ومع اهله واصحابه لم يفعل حتى الحد الادنى من الموقف الذي غالباً ما يلجأ اليه الازواج العقلاء، وهوطردها من بيت الزوجية مؤقتاً

---

(١) انظر مسند ابن راهويه ج٢ ص ٥١٩، السنن الكبرى للنسائي ج٥ ص ٢٩٥ وج ٦ ص ٤١٦، ومسند ابي يعلى الموصلي ج٨ ص ٣٢٤ صحيح ابن حبان ج١٠ ص ١٤، وج ١٦ ص ١٤ والمعجم الكبير للطبراني ج٢٣ ص ٥١، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج١٨ ص١١٨، اسباب النزول للواحدي ص ٢١٤ تفسير ابن كثير ج ٣ ص٢٧٨،تفسير الجلالين ص ٤٥٨ تأريخ المدينة لأبن شبة النمري ج١ ص ٣١٢ (المحقق).

أونهائياً كان فقط لا يطيق النظر اليها في بيته، وحين مرضت طلبت أن تذهب الى بيت امها لتمرضها.

إن إحساس محمدﷺ بالعدالة أقوى وأعظم من الصدمة الشخصية؛ ومن الأزمة العامة، وكذلك أقوى من الضرورات الحاسمة التي تقتضي شدة إلتزام نساء النبي؛ لأنهن أمهات المؤمنين باقصى الضوابط.

جاء الفصل في قرار التبرئة الذي اعلنته الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

إن هذا الدرس العالي في تقصي العدالة رغم هول الصدمة، وعظمة الأزمة، وصعوبة الظروف التي مَرَّ بها الاسلام في تلك المرحلة، ورغم ان الظواهر بَيّنات في غير صالح عائشة، هو درس نادر شديد السمو، ولم يتكرر أبداً على مستوى العظماء من البشر، أو على مستوى الناس عامة.

---

(١) سورة النور، الآية: ١١ (المحقق).

(٢) سورة النور، الآيات: ١٦-١٩١٩ (المحقق).

أما الصورة الثانية فهي صورة الزوجات اللاتي تلعب بهن الغيرة، وخاصة بعد ولادة ابراهيم إبن النبي من ماريا القبطية، وهي غيرة فيها ما فيها من دوافع عاطفية (حب النبي) وكذلك طبقية، لأن بعض زوجات النبي يشعرن بأنهن أعلى مكانة من ماريا التي لم تكن إلا جارية أرسلها المقوقس هدية إلى النبي[1].

ولم تتحرر بعض زوجات الرسول من طموحات التشبه بزوجات عظماء القادة والملوك، بما أردن من امتيازات في الغنائم والهدايا، إلا ان عدل الرسول الحازم كان يجابه أية طموحات طبقية متميزة بالرفض البات.

ذلك لأنه، وقد جاء ما جاءه من سلطان وخير، لم يراقب غير حقيقته العادلة، حقيقة الارتباط بالفقراء من أعمق جذر، حقيقة التخلي عن كل ما يبعده عن جوهره الانساني الذي تتجمع في حضرته أخوة المستضعفين الذين يوحدهم المبدأ العادل.

إن إقترابه الشعاعي من الرب كان يجرده من الملكية تجريداً لحظياً وأبدياً.

«لقد استهل حياته يتيماً، ومن هذا الدَرْك إرتقى الى ذروة المجد الملكي، ولكن ذلك لم يحدث ايما تغير في أسلوب عيشه. فقد ظل يحيا على نفس الطعام الذي اغتذى به من قبل، ويرتدي عين الملابس البسيطة التي ارتداها دائماً، ولزم في كل شأن من شؤونه اسلوب الحياة ذاته الذي اصطنعه يوم أن كان مجرد يتيم بائس. ان من العسير على المرء ان يتخلى عن عرش ملكيّ ويحيا حياة ناسك.

---

(١) الثقات لأبن حبان ج٢ ص ٨٣ (المحقق).

ولكن أصعب من ذلك بكثير ان يتقلد صولجان المُلك ويحيا في الوقت نفسه حياة ناسك، أن يملك السطوة والثروة ثم لا يصطنعهما إلا لخير البشر، أن تكون أكثر المفاتن إغراءً معروضة أمام ناظريه ثم لايجيز لها ان تأسره لحظة واحدة»[1].

كان التعارض عظيماً بين مكاسب الاسلام المادية والمالية. وبين شظف العيش الذي اختاره النبي لنفسه ولأسرته.

«كانت الجزيرة العربية قد دانت جميعها بالاسلام، وكان المسلمون قد انتعشت معايشهم بما أفاء الله عليهم من غنائم ومغانم وكانت ضريبة الزكاة تحمل الى المدينة من شمالي الجزيرة وجنوبها في مواسم الحصاد والعطاء.. ومن الأبل والغنم والأموال وأخذ الرغد النسبي طريقه الى كل دار وكل اسرة، لكن اسرة واحدة ظلت مثابرة على شظف العيش لا تتحول عنه ولا تريم، يمر الشهر والشهران والثلاثة دون ان توقد هذه الأسرة ناراً تطهوعليها شيئاً من ألوان الطعام.. تلك هي أسرة رسول الله!!

أسرته جميعاً...

كانت زوجاته يقمن في حجرات منفصلة الى جوار المسجد، لكُل منهن حجرتها ومسكنها.. وكنَّ جميعاً في شظف العيش سواء..

ليس ذلك فحسب... بل امتدَّ الشظف الى بنت الرسول (فاطمة الزهراء) التي تعيش بعيداً مع زوجها الامام علي عليه السلام.. فكانت كلما ذهبت الى ابيها

---

(١) مولانا محمد علي (حياة محمد ورسالته) (المؤلف).

الرسول تسأله من العطاء الذي يعطي منه الناس جميعاً، تسمع منه هذا الجواب:

«لا أعطيك وأدَع فقراء المسلمين»...!!

ثم يضمّها الى صدره حين يرى الدمع يترقرق في مآقيها، ويقول لها:

ألا أدلك على خير من ذلك...

«سبحي الله ثلاثا وثلاثين

واحمدي الله ثلاثا وثلاثين

وكبّري الله أربعاً وثلاثين»...[1].

ورغم ان نساء النبي أخذن من تربيته إيّاهُنَّ دروساً كبرى، إلا أنّ دافع الرغبة، كان يُلح عليهن بطلب المتارف والتنعم، وهوطلب لايتناسب مع طبيعة نبي، عرفْنَهُ معرفة تامة، وهنَّ يرينه ينام على حصير يابس، يترك آثاره المؤلمة على جسده، فاذا ما رجاه عمر بن الخطاب النوم على فراش لين، كان جوابه:« يا عمر! انها نبوّة، لا مُلْك».

من هنا كانت غرابة الطلب، والالحاح..

و«هكذا، رأيناه يغضب، حين رأى زوجاته يردْنَ الخروج الى الدنيا... الى نعيمها، ومباهجها وزينتها... وينزل الوحي بتأييد موقفه، وبرفض موقف الزوجات:

---

(١) خالد محمد خالد: (اسلاميات) (المؤلف) وانظر نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص ١٩٣ (المحقق).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

أجل... لا مكان للدنيا في بيت النبوة، والله لا يريد لهن إرغاماً.. فمن شاءت الدنيا وزينتها فلتغادر بيت النبوة ولتتخلَّ عن مكان القدوة... ولتأخذ من طيّبات الدنيا بعد ذلك ما يأخذ بقية الناس.

أما من كانت تريد الله ورسوله، والدار الآخرة، فلها ذلك، ولها الأجر العظيم من الله، شريطه ان تنبذ الدنيا وراءها ظهرياً، وأن تتقبل في غبطة وراحة شظف الحياة في بيت النبوة والوحي واليقين..!!

ونهض الرسول الى زوجاته يتلوعليهن واحدة بعد واحده كلمات الله، ويبلغهن حكمه وتخييره. بدأ بعائشه ثم بقية الزوجات... وما منهن واحدة تسمع آي الله إلاّ تصيح:

«بل اختار الله ورسوله»[2].

ان الرسول بعد هجره لنسائه شهراً، وتهديده بتطليقهن، كان يحسم أموره بالحق، لردع النوازع والطموحات الترفهيَّة، والمشاعر الذاتية الضيّقة، غير ان التطليق كان شديد القسوة، فيما لوتحقق... وكان قمينا به ان يخلف صدمة كبرى

---

(١)سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨و٢٩ (المؤلف).

(٢) خالد محمد خالد: المصدر نفسه (المؤلف).

وأزمة حادة.

فكان – بالتخيير – أن وجدْنَ فرصتهنَّ الوحيدة للاعتذار والتبرؤ من خطأهن الفادح.

إن عدالة النبي وحبه لنسائه كانا عوناً لزوجاته في الحيلولة دون حلول مصير الطلاق، بعد ان صدع بما أمرت به الآيتان الكريمتان في سورة الاحزاب.

وإذا ما تفحصنا إدعاءات بعض الكتاب المستشرقين المحرّفين، والقائلة بأن دوافع زواج النبي محمدﷺ كانت جنسية متفاقمة، ومصلحية، فانها تبدو متهافتة ازاء موقف محمدﷺ في إحتضان زوجاته في أوج قوة الاسلام، ففي ذروة قوته لم يكن محتاجاً الى الاعتبارات المصلحية التي كانت تفترضها مرحلة بدء الدعوة الاسلامية، وهي محاصرة، محاربة.

مما يعني ان الزوج في حياة محمدﷺ لم يكن مصلحياً وإن كان عملياً، وقد دخل منذ أول لحظة في مكانته المكرمة (التي تتكرم فيها المرأة الزوجة) وحتى آخر لحظة، أي حتى وفاة النبي، وهو في استكمال العز الأهلي والمجد الاسلامي المنتشر فوق ربوع ارض العرب.

اما اعتبارات الجنس فهي ليست رهن الوثاق الكاثوليكي للزواج، بمعنى انها بالصيغة التي قال بها اولئك المستشرقون تجد الحل مفتوحاً أمامها في عقد زيجات جديدة، لا في الحرص على الزوجات الموجودات.

فما المانع من أن يتزوج الرسول. بعد ان يطلق ما شاء من زوجاته اللواتي جابهنه بالتنغيص، في الوقت الذي كانت فيها مسؤوليات العصر الاسلامي

الجديد متعاظمة، أكبر بكثير مما كانت في مراحل الدعوة، والحروب الأولى؟!

كان المانع عدل محمدﷺ وإلتزامه بالمبادئ والقيم التي استوحاها من الرب، والتي استنبط منها منهاج حياته وعلاقاته التي توخى منها صلاح العرب، والبشرية جميعاً.

ولا يمكن ان يغيب عن النظر ان زوجات النبي كان لهن دورٌ مهم في إنقاذ تعاليم الاسلام، وترجمة أفكار الرسول وحلوله ترجمة عملية، على صعيد المرأة. ولذلك كان بيت النبي ليس بيتاً للزوجية، قائماً بأسراره الخاصة، لقد كان بيت قيادة الحركة الاسلامية، وكان على نساء النبي «حفظ ما سمعن وتعلمن من طريق إتصالهن المستمر بالرسول لمصلحة الجنس البشري بعامة، وبنات جنسهن بخاصة»[1].

و«ثم ان ثمة نقاطاً في الشريعة الاسلامية خاصة بالنساء دون غيرهن، ولا سبيل الى نشرها الا من طريق أفراد الجنس الواحد، ولكي لا يُحرم العالم من تلك الاقول والافعال التي لا يمكن ان تجد تعبيرها إلا في البيوت، ولكي يكون في الامكان نقل هذه الاشياء إلى الذُرّية عُهِدَ الى نساء النبي في ان يحفظن كل ما سمعن أو رأين وإبلاغ النساء الأخريات ذلك كله».

و«الروايات تحدثنا عن نساءٍ وفدنا على الرسول، في مُناسباتٍ عديدة، ليسألنه في أمور خاصة تتصل بجنسهن، فأحالهن الى واحدة من زوجاته قادرة

---

(١) مولانا محمد علي (حياة محمد ورسالته) (المؤلف).

عـلى اعطـائهن المعلومات الضرورية، وفوق هذا، فان كثيراً من مفاهيم الرسول الاخلاقـية التـي لم يكن في الامكان تطبيقها إلا ضمن نطاق الاسرة تحدَّرت الينا مـن طـريق زوجاته. والقول بأن امرأة مفردة تستطيع ان تقوم بذلك إنما ينطوي عـلى إسراف في تقديـر قوة الذاكرة البشرية. فقد كان الموقف يقتضي وجود نسوة ذوات أمـزجة متباينـة، ومـن ثـم ذوات إهتمامات وأشواق متباينة، لكي يفهمن ويحفظـن أحـسن مـا يكـون الفهـم والحفـظ مختلف الاشـياء التـي تقـع تحـت أبصارهن..»[1].

وفي خاتمـة عـرض الحكمـة العمليـة يمكـن التأكيد على ان حب الرسول للمـرأة وتقديـره واحـترامه لهـا بـصورة فريدة، عبَّر عن نفسه - مثلما عبَّر مراراً وتكـراراً - في مناسـبة خطبة الوداع بأجلى ما يكون الحب والعناية، ذلك لأنه في تلـك الخطـبة التـي كانت إيذاناً بموت جسده، وإقبال المسلمين على عهد جديد لـيس نبـيهم (حياً) بينهم، بالملموس، يعلمهم الفكرة، والممارسة بالقدرة، والمثل الحـي المـباشر، كانـت تركز على الوصايا الأساسية، التي تتصل بالأزمنة القادمة كلها، وتخص البشرية عموماً.

مـن بين تلك الوصايا اختص المرأة بالوصية البالغة، مخاطباً بذلك الرجال جميعاً:«واستوصوا بالنساء خيراً»[2].

---

(١) مولانا محمد علي: المصدر نفسه (المؤلف).

(٢) صـحيح الـبخاري ج٦ ص ١٤٥، صحيح مسلم ج٤ ص١٧٨، سنن ابن ماجة ج١ ص

ولكأنه - بذلك - كان يرى قطع الليل، التي تهدد حقوق المرأة وانسانيتها آتيةً من جوف الزمن، حين تنبعث - فيما بعد - شياطين المال والسلطة، وتصنع للرجال عالماً وثنياً، ينزاح عنه الايمان البشري، والحب، والعدالة... وتقوم نصب الكفر والظلم والضلال، مدججةً بغريب الاسلحة.

إن العرض المذكور يتدرج في توضيح الحكمة العملية، في زواج محمدﷺ، وهي ممارسة واقعية قائمة على طرفي المبدأ والواقع المتلازمين والمتفاعلين بقيادة وتوجيه الرؤية النبوية الحكيمة.

فالحكمة - دائما - أوسع وأكبر من المبادئ، لأنها هي ينبوع الألهام الذي تُستقى منه المبادئ النظرية والعملية.

أما الجانب الآخر في تأريخ زواج النبي وفصوله، فيندرج تحت عنوان الحكمة الألهية التي أوصلت الاحداث والوقائع الى مجراها المحدد الذي لا مجرى سواه، فعلى كثرة زوجات النبي لم تلد منه إلا خديجة وماريا القبطية.

ومات جميع وُلْدِ وبنات خديجة إلا فاطمة كما مات ابراهيم إبنه من ماريا... فانحصر عبقه في ابنته فاطمة زوجة ابن عمه علي بن ابي طالب.

٥٩٤، سنن الترمذي ج٢ ص ٣١٥، وج٤ ص ٣٣٨، مجمع الزوائد للهيثمي ج٤ ص ٣٠٢، فتح الباري لأبن حجر ج ٩ ص ٢٠٧، المصنف لأبن ابي شيبة ج٤ ص ١٨٤، مسند ابن راهويه ج١ ص ٢٥٠، الآحاد والمثاني للضحاك ج٤ ص ٣٩٤، سنن النسائي ج٥ ص ٣٧٢، مسند ابي يعلى الموصلي ج١١ ص ٨٥، المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠ ص ٢٧٤ (المحقق).

وقد خصَّ النبي زواج فاطمة بخطبة خاصة، قال فيها: إن ربي امرني أن أزوّج فاطمة من علي بن ابي طالب..» فأضفى على ذلك الزواج أهمية خاصة بالأمر الربّاني.

قال الرسول: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المرهوب من عذابه، المرغوب فيما عنده، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميّزهم بأحكامه وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد، ثم ان الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، ووشج به الأرحام، وألزمة الأنام، قال تبارك اسمه، وتعالى ذكره ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ فأمر الله يجري الى قضائه، ولكل قضاءٍ قَدَر، ولكل قدرٍ أجَل ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ثم إن ربي أمرني أن أزوج فاطمة من علي بن ابي طالب، وقد زوجتها إياه على أربعمائة مثقال فضه، إن رضيَ بذلك عليّ»[1].

ومن ذلك الزواج الطاهر ظهرت الى الدنيا الذرية الطاهرة، سلالة النبي الكريم: الحسن والحسين اللذين حملا بجسديهما وروحيهما شعلة النبي جدهما وأبيهما، فهما نسله وأهل بيته، وحملة جذوته الى يوم الدين.

---

(١) انظر مكارم الاخلاق للشيخ الطبرسي: ص٢٠٧، مناقب ابن شهر اشوب ج٣ ص ١٢٧ ، ذخائر العقبى للمحب الطبري ص٣٠، مسند الإمام الرضاA ج٢ ص ٢٦٠ ومناقب الخوارزمي ص ٣٣٦ (المحقق).

الفصل الحادي عشر

جواهر العقائدية المحمدية

منطلق الكفاح العقائدي

تقرَّر بدء المسيرة العقائدية لمحمدﷺ فى استقباله الوحي القرآني الذي كان ملهمه في إنتهاجه طريق الكفاح ضد الوثنية والشرك والضلال. ولقد كان امتثال النبى للقرآن امتثالاً نهائياً، حتى انه كان يصحح بعض مظاهر السلوك الشخصي أو بعض الآراء الشخصية حسب هاتف الآيات القرآنية وبلاغها.

ومن الواضح جداً، حسب جميع روايات كتب السيرة النبوية وأخبارها ان الآيات القرآنية إحتوت محمداًﷺ احتواءً تاماً، وقد كان يبذل جهداً لا حدود له لترديد الآيات القرآنية، مع نفسه، لترسيخها في وعيه وفي باطنه، ومع اصحابه في الخلوات الأولى، وفي دار الأرقم بن أبي الارقم[1] ثم في المجموعة الاسلامية، لتحقيق الاستيعاب الفعال، ولصياغة النفوس صياغة إسلامية مؤهلة للكفاح والجهاد؛ وبذل الذات،؛ والأستعداد التام لبناء انموذج الانسان المسلم، والمجتمع الاسلامي وكان القرآن حجة الرسول في حرب الجدل مرجعه الوحي

---

(١) انظر الأصابة لابن حجر ج١: ص ١٩، ودار الارقم بن ابى الارقم المخزومي كان الرسولﷺ يختبئ فيها عن المشركين ويجتمع فيها مع أصحابه يقرأ عليهم القرآن ويعلمهم، وهي الآن مسجد في جنب الصفا، انظر كلمه التقوى للشيخ محمد أمين زين الدين ج٣ ص ٤٩٩ (المحقق).

الذي عَبَّرت عنه سورة النجم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾[1].

وأعطت الاستلهامات القرآنية بعداً شاملاً للمعرفة النبوية، هو البعد الكوني الاستشرافي، الذي يجمع المعاني والدلالات الظاهرية والخفية لعالمي الحياة والموت، ولقضية الخلق، وبعداً آخر هو البُعد الوضعي المختص بأمور البشر وعلاقاتهم، وأحوالهم، ومصالحهم، ومشكلاتهم، وهو بُعد الايفاء بالمعالجات والحلول والتقويمات المتواصلة.

وإذ جمع القرآن البُعدين الكوني والوضعي في إعجاز عجيب فأنه كان يستعرض بمنطق المتحدي قدرته اللغوية والأدبية باعجازها المُبهر، الذي كان يواجه أناساً عرباً أوتوا قدرة فائقة في شحذ اللغة.

حقاً كانت عبقرية العربي عبقرية اللغة، وامتياز الشعر، وكان ذلك نتاج وضع بأكمله، هو وضع العربي والصحراء وتقاطيع شبه جزيرة العرب.

كانت كل قبيلة عربية، في فلك اللغة العربية، تبدع إضافاتها اللغوية، فكانت هناك اللغة العربية التي يشترك فيها جميع العرب من كل أصناف القبائل كما كانت هناك تجديدات القبائل في إبتكار المفردات والصور والعلاقات اللغوية.

كان- إذن- يستحيل استسلام العربي في تحدّيات اللغة والأدب والبيان

---

(١) سورة النجم، الآيات ١و٢و٣و٤و١١و١٢و١٣ (المؤلف).

بعامة، لأنه كان سيد البيان المتفرغ له تفرغاً مخلصاً منذ بدء الحياة العربية الواعية.

ترى هل كان عتبة بن ربيعة سيد قومه، سيندهش مأخوذاً بما سمعه من النبي محمدﷺ من كلمات، لو لم تكن تلك الكلمات مشحونة بطاقة أكبر مما تعارف عليه العرب في استعمالات اللغة العربية وإبداعاتها؟[1].

---

(١) جاء في مسند عبد بن حميد (٢٤٩هـ) ص ٣٣٨، جاء عتبة الى رسول اللهﷺ فقال: يا محمد انت خير ام عبدالله فسكت الرسولﷺ قال: بأنت خير أم عبدالمطلب فسكت الرسولﷺ فان كنت تزعم ان هؤلاء خيرمنك قد عبدوا الأله التى عبتْ وأن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حيت نسمع قولك، اما والله مارأينا سخطةً أشام على قومك منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى طار فيهم ان في قريش سامراً وأن في قريش كاهناً ما ينتظر الامثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل إن كان إنما بك حاجة جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشراً فقال له الرسولﷺ أفرغت؟

قال: نعم فقال رسول اللهﷺ: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال عتبه: حسبك، حسبك ماعندك غير هذا قال: لا، فرجع الى قريش: فقالوا ماوراءك، فقال: ماتركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم ؛ قال والذي نصها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك يكلمك رجل بالعربية فلا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة «ومثله في مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ) ج٦ ص ٢٢٤ ومسند ابي يعلي الموصلي ج٣ ص ٣٤٩. (المحقق).

نعـم... كان قد سمع، ما عقَّب عليه قائلاً وهو حائر مشدوه: لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

كانت نفسه تحت ضغط موجات سورة (فصلت):

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حـم * تَنْـزِيلٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[1].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُـلُ مِـنْ بَـيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَـةً فَإِنَّـا بِـمَا أُرْسِـلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُـوا مَـنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِـنَا يَجْحَـدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَـيَاةِ الدُّنْـيَا وَلَعَـذَابُ الْآخِـرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْـنَاهُمْ فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْـسِبُونَ * وَنَجَّيْـنَا الَّـذِينَ آمَـنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُـمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِـمَا كَانُـوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١و٢و٣و٤و٥ (المؤلف).

كُـلَّ شَيْءٍ وَهُـوَ خَلَقَكُـمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَـيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُـونَ * وَذَلِكُـمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[1].

و﴿إِنَّ الَّـذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْـزَنُوا وَأَبْـشِرُوا بِالْجَـنَّةِ الَّتِـي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَلَكُـمْ فِـيهَا مَـا تَـشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[2].

كـذلك جاء عمر بن الخطاب الى الاسلام متأثراً بقوة شحنات القرآن. ولم يكـن رأي الولـيد بـن المغـيرة المعروف بقوة البيان والفصاحة ومباهاته الشديدة بجدارته الأدبية إلا رأي كل من أصغى الى التلاوة القرآنية، لقد قال حين سمع: «لقد سمعت كلاماً ما هومن كلام الانس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن اعلاه لمثمر وإن اسفَله لمُغدق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه»[3].

ومـن المنطقـي ان الأذن العـربية التي سمعت آيات القرآن الكريم، كانت

---

(١) الآيات من (١٣) الى (٢٤)، من سورة فصلت (المؤلف).

(٢) الآيات من (٣٠) الى (٣٢)، من سورة فصلت (المؤلف).

(٣) انظـر تفسير القرطبي ج١٩ ص ٧٤، تفسير الثعالبي ج٥ ص ٥١٣، البداية والنهاية ج٣ ص ٧٨ (المحقق).

تضع نفس العربي وعقله امام مقارنات مباشرة بين الشعر الجاهلي والآي الكريم فكان جمال الصورة الأدبية يسحره اكثر من الشعر، بل أن الشعراء أنفسهم أخذوا بالرجفة، وبعضهم انهى شعره، وتوقف مثلما فعل لبيد بن ربيعة الذي كان شعره يُعلق على الكعبة[1].

وتثير لغة القرآن غنىً مركباً غني الصورة البلاغية وغني الافكار. وكانت نفس العربي نفساً بدوية، تستقبل أعطيات اللغة ومحمولاتها، فـ«النفس البدوية طروب في جوهرها، وجميع مطامحها وانفعالاتها واندفاعاتها، إنما تتجلي في تعبير موسيقي موزون، هو بيت الشعر الذي سيكون مقياسه خطوة الجمل السريعة والطويلة وعلم العروض نفسه في جوهره بدوي، إذ ان صورة العبقرية البدوية قد انطبعت في الشعر.

---

(١) هو لبيد بي ربيعة بن مالك، من شعراء الجاهلية الكبار، أدرك الاسلام وقدم على رسول الله في وفد بني كلاب فأسلموا ورجعوا الى بلادهم لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً هو:

الحمد لله إذ لم يأتني اجلي ... حتى كساني من الإسلام سربالا

قال له عمر بن خطاب: انشدني (من شعرك) فقرأ سورة البقره وقال: ماكنت لأقول شعراً بعد إن علمني الله (سورة) البقرة وآل عمران.

ومما يستجاد له قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ ... وكل نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

إذ المرءُ اسرى ليلة ظن انه ... قضى عملاً والمرءُ ما عاش أملُ

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (المؤلف).

هـذه اللغـة الـرخيمة التـي تردد خلالها صهيل الخيل، ودوَّت في جوانبها قعقعة السيوف الهندية، حيث كانت تقصف هنا وهناك صيحات الحرب يطلقها الفتيان في كـل مكان، إنما تعبر عن الحماسة الاسطورية التي كان بطلها (عنترة)، أو عـن النـشوة الـشعرية التي كان فتاها (امرؤ القيس). والمجاز في اللغة العربية يستعير عناصره من سماء بلا سحاب، ومن صحراء بلا حدود، تعبرها القطا، أو تـشب خلالهـا الآرام، فهي لا تعبر عن أية حيرة روحية أو ميتافيزيقية وهي تجهل دقائق المنطق، وتجريد الفكر الفلسفي، أو العلمي أو الديني.

وثـروتها اللفظية هي تلك التي تحقق حاجات الحياة البسيطة الخارجية، أو الداخلـية، لـبدوي لا لحـضري. تلـك هي الخصائص العامة لهذه اللغة الجاهلية الوثنية، المتزحلة، البرية التي سيطويها القرآن «بعبقريته الخاصة»[1].

عـلى صـعيد افـتخار العـربي بالـشعر، كـان القـرآن يغنـيه بالآيـة القرآنية و«سـيختار القـرآن للتعبير عن هذه الفكرة صورة جديدة هي: (الجملة). فالآية القـرآنية ستقصي ناحية شعر البادية، ولكن نسقه سيبقى على كل حال، إذ هي قد تحررت من الوزن فحسب فاتسع مجالها»[2].

وكـما اسـتوفى القـرآن جمالـية الصورة اللغوية التي سحرت العربي كذلك أمدّه بالغذاء العقلي، وبالثقافة الجديدة، وهي ثقافة حسيّة تمثل تطلع العرب لبناء

---

(١) مالك بن بني: الظاهرة القرآنية (المؤلف).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

دولـة عـربية إسلامية متحضرة، وتقدم الأجوبة والحلول للمشكلات الأساسية المرافقة للمشروع الجديد.

وفي هـذا الاتجاه حققت اللغة القرآنية قفزةً فريدةً على صعيد اللغة العربية «إذ لم يحـدث للغـة العـربية تطـور تدريجـي، بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المـباغت، كـما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة. وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفـرة مـن المـرحلة اللهجية الجاهلية الى لغة منظمة فنّياً، لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة».

ومن الثابت ان المعرفة القرآنية التي حملتها الآيات المقدّسة وفّرت للبشرية هدايـة معمقـة، متواصـلة، في أطـار التواصـل المـباشر وغـير المباشر مع شؤون المجتمعات ومسيرتها.

بمعنـى ان الآيات القرآنية حفظت الرابطة المثيرة بين السماوي والأرضي، بـين المطلـق والنـسبي. فهـي إذ تصوّر أبعاد السماء والغيب، شأن الديانات التي سـبقت الاسـلام، باتـساع أعظـم، فانهـا تلـتقط قـضايا المجـتمع، والانـسان، ومـشكلاته، وحلـولها، ألـتقاطاً مدهـشاً، يخـترق عمـق الـصيرورة الاجتماعية، والعمق النفسي للفرد، لدمج الحل الانساني بالحل الكوني.

فالآيات القرآنية زاخرةً بتفصيلات جمة لأحداث وقصص العصر النبوي، ومـا قـبله، ومـا بعـده، كـأروع مـن تـسجيل تأريخـي وهـي – في الوقت ذاته– تستعرض أبعاد الحكمة الأزلية في إلهيةٍ تأبى مفارقة الانسان والتنصل منه.

وكـان الحـديث النبوي مظهراً عظيماً من مظاهر توجيه الأحداث وتنظيم

الحياة السياسية والاجتماعية الاسلامية بقوة وفاعلية الفكر. فالحديث النبوي الذي يأخذ من القرآن معلوماته النهائية كان يؤدي وظيفة إسلامية موضوعية عامة، بسبب كونه جامع العقيدة، ومصدرها الوحيد.

كما انه كان يعكس الارتفاع المحمدي المستمر الى مستوى النداء الإلهي، إن النبي ظل طوال فترة النبوة في حوار دائم مع الله ومع ذاته ومع البشر ومع الكون، فجاءت الاحاديث النبوية ترجماناً عظيماً لهذا الحوار.

من هذا المدخل الشمولي احتوى الحديث النبوي منابع الحكمة وأطرافها، وحق الدين والدنيا، باستلهام القرآن في الدلالات المضمونية، ذلك لأن معاني ومضامين الأحاديث النبوية نابعة من مصدرها القرآني، فيما ظلت الصياغة (أي لغة الحديث) لاتشابه الصياغة القرآنية.

وكما يقول مالك بن نبي: «من المقطوع به ان الاحاديث المحمدية، والوحي القرآني يمثلان اسلوبين لكل منهما طابعه، وصياغته الخاصة، فالعبارة القرآنية لها نسق، وجرس تعرفه الآذن، ولها هيئة تركيبية، وألفاظ خاصة، فليس من الخطأ أو الغلو في شيء أن يقال: إن الأسلوب القرآني معجز، لا يتسنى لأحد الأتيان بمثله»[1].

حدثان كبيران في المسار العقائدي:

إن تطور الدعوة المحمدية، بعد اجتذابها الى صفوفها خيرة العناصر

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

المؤمنة، أستند- في الدفاع والهجوم- على تكريس الايمان بالله، وهجر الشرك، ونبذ الأصنام، والتبصير بالعقاب والثواب، وترويج أخلاقية الاسلام.

وقد كان مسار الدعوة المحمدية، قد وصل الى مرحلة جديدة على الصعيدين الروحي والاجتماعي، بعد حدثين كبيرين، يتصفان بالسمعة النوعية الجديدة في الدعوة الاسلامية.

الحدث الأول هو الإسراء والمعراج الذي يعني ابتداء مرحلة جديدة في الحياة الروحية لمحمدﷺ وهي مرحلة إستشراف مسافات واسعة على الارض، وفي السماء من خلال البصيرة الروحية فـ«في الاسراء والمعراج في حياة محمدﷺ الروحية معنى سام غاية السمو. معنى اكبر من هذا الذي يصورون، والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب خطٌ غير قليل. فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها. لم يقف أمام ذهن محمدﷺ وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبيا محدوداً بحدود قوانا المُحِسَّة والمدبِّرة، والعاقلة. تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمدﷺ، واجتمع الكون كله في روحه، فوعا منذ أزله الى أبده، وصوَّرة في تطور وحدته الى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة»[1].

---

(١) محمد حسين هيكل (المؤلف).

وتعرض كتب السيرة الاسراء والمعراج بتباين في المعلومات والآراء و«قد اختلف أيضا في الاسراء والمعراج هل كانا في ليلة واحدة أم لا؟ وهل كانا أواحدهما يقظة أو مناماً؟ وهل كان المعراج مرة أو مرات... » وتوضح الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[1].

تلك الزيارة النبوية، التي لم يطق بعض المسلمين تصديقها، فكيف يمكن أن يطيقها الكافرون؟![2].

ويكشف استهزاء أبي جهل بقصة الاسراء والمعراج، عن كيفية استغلال المشركين الحدث المذكور للتأليب على محمدﷺ وإتهامه بالكذب، والتدليس وبالجنون كان محمدﷺ جالسا في المسجد مغموماً فمرَّ به أبوجهل فقال له كالمستهزئ: هل استفدت الليلة شيئاً؟ قال: نعم، أسرى بي الليلة الى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا قال:نعم فخاف ان يخبر بذلك عنه فيجحده النبي، فقال: أتخبر قومك بذلك؟ فقال نعم. فقال أبوجهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فاقبلوا فحدثهم النبي، فمن بين مصدق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه، وأرتدَّ الناس ممن كان آمن به وصدقه.. »[3].

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ١ (المؤلف).

(٢) سيرة ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢ ص ٢٦٨، السيرة النبوية لأبن كثير ج ٢ ص ١٠٦، الغارات للثقفي ج١ ص ١٧٠، فتح الباري ج ١٣ ص ٣٩٩ وص ٤٠٥، كنز العمال للمتقي الهندي ج٢ ص ٧ (المحقق).

(٣) ابن الأثير (المؤلف).

مـن الناحـية الظاهـرية كان ذكر قصة الاسراء والمعراج لم يخدم محمداًﷺ حـيث كان أغلب الناس يرون في هذه القصة مزاعم وتخيلات مريضة، تؤدي الى تسفيه دعوة محمدﷺ.

ورغـم ان النبـي قـدم للمتـسائلين وصـفاً للطريق الى بيت المقدس، وللبيت نفسه، بدقة عجيبة، إلا ان ردود الفعل كانت متشددة ضد قوله بالاسراء والمعراج.

عـلى الـصعيد الروحـي كـان الـتطور الـذي فـتحت أطـرهُ قصة الاسراء والمعـراج هي ان النبي رأى ربه بعينه، في حين كانت علاقته بربه- قبل ذاك- تتم من خلال الوحي فقط.

لقـد تـرتب على الاسراء والمعراج فقدان محمدﷺ العديد من الذين آمنوا بـه، في وقت كان في امس الحاجة فيها الى المناصرين والأعوان المؤمنين، وخاصة في ظرف اشتداد الهجمة القرشية ضده، وضد أصحابه العُزّل والمستضعفين.

لكـن، لم يكـن أمامه من سبيل غير إبلاغ الناس باسرائه، مهما تكن النتائج ضارة وفي غير صالح دعوته مرحلياً.

من هنا نفهم ردّه على أم هانيء، حينما أبلغته الرأي فـ(لما أشفقت السيدة أم هـانيء رضي الله عـنها عـلى رسـول اللهﷺ لمـا أخبرها الخبر وقال: انه سيحدث الـناس به، فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة: «انهم سيكذبونك فلم يستجب صلوات الله وسلامه عليه لنصيحتها، لأن الحق ينبغي ان يذاع»[1].

---

(١) عبد الحليم محمود: الاسراء والمعراج (المؤلف).

مما يؤكد ان دوافع الخبر، ذات أهمية خاصة، لايمكن ان تسمح بالتأجيل. لذلك فان تراجع بعض المسلمين عن إيمانهم جاء كسباً مهما على صعيد النوع، رغم انه يبدو خسارةً على صعيد الكم. وهذا يعني ان الغربلة التي حصلت في مجموعة المسلمين، كانت ضرورية جداً، ومطلوبة، حسب مقتضيات اشتداد الصراع وتعقده.

و«من الثمار التي جنتها الأمة الاسلامية، والتي كانت من مقاصد إذاعة النبأ: إنفصال ضعاف النفوس، والشاين، والمترددين، إنفصال كل هؤلاء عن الامة الاسلامية الناشئة.

لقد كفر- عند سماع النبأ- من كفر بعد إسلامه وارتد من ارتد بعد إيمانه، وما كان هؤلاء، لو بقوا إلا عاملاً من عوامل الضعف الكُثُر من ان يكونوا عاملاً من عوامل القوة. ان هؤلاء المكيين الذين آمنوا وصبروا على الحوادث القاسية، على التعذيب وعلى الآلام، وعلى الفتنة في جميع مظاهرها، ان هؤلاء المكيين الذين صبروا، وصابروا، وتخلصت انفسهم من جميع النزعات المادية، ومن جميع الأهواء فأصبحت خالصة لله وحده، ان هؤلاء المكيين الذين كان في تقدير الله سبحانه وتعالى: ان تقوم عليهم الدولة في نشأتها، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات، نقول: ان هؤلاء المكيين يجب ان يُصفَّوا تصفية تامة كاملة. ومن وسائل هذه التصفية اذاعة نبأ الاسراء والمعراج»[1].

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

وجاء في القرآن ردٌّ على اولئك المارين والمكذبين، والذين توهموا ان مساً من الجنون قد اصاب رسول الله وقد حفلت الآيات الشريفة في سورة النجم بالتوضيح والرد:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى *مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1] وجاء في القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[2].

ان الانعطاف الروحي الكبير الذي حققه الاسراء والمعراج أشَّرَ الحد الفاصل بين الديانة الاسلامية وسواها من أفكار مثالة وروحانية، ذلك لأن عملية الاسراء تشكل قمة الأفكار المتعلقة بطاقة الروح ونشاطها، محمولةً على بساط الاسعاف الألهي.

وبصرف النظر عن الخسائر الظاهرية التي حصلت على صعيد معسكر

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١-١٨ (المؤلف).

(٢) سورة التكوير، الآيات: ١٩-٢٤ (المؤلف).

الأتباع، فان الطرح الروحاني استكمل دائرته في الأسراء، كدليل على الروح الفعّالة لا الروح المنفعلة فقط.

وكان الانعطاف الآخر في المسيرة العقائدية، من نوع ثانٍ ينتسب الى عالم البشر والعقيدة. أي انه ارتفاع في مستوى التبشير بالدعوة، وكسب المؤمنين الذين يبدو ان معسكرهم قد تأثر سلبياً بقصة الاسراء والمعراج.

وقد تم ذلك خارج الجو المكي، الذي كانت فيه الهيمنة لعالم الأوثان والأموال. والنزعات المادية والحسيّة الضيّقة وللأفكار الاستهزائية، والشكوكية.

لقد انغلقت مكة بقساوة إلا من قبل بعض المكيين الابطال الذين اخلصوا لرسول الله، وكأنها لن تتهيأ إلا للفتح القادم، أما قبله، فلا أمل ولا وعد.

في مكان يُدعى العقبة، التقى محمدﷺ بستة من الخزرج (وقيل سبعة).

- من أنتم أيها السادة؟

- نفر من الخزرج؟

- أمن موالي يهود يثرب؟

- نعم.

- أفلا تجلسون أكلمكم؟

- بلي.

جلس القوم بجواره فدعاهم الى الله عزوجل، وعرض عليهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن.

سحرهم القرآن ببلاغته وجدة اسلوبه، فاصغوا في إنتباه وأخذوا يفكرون

كان يهود يثرب تخشى سيطرة العرب فيها وكان اليهود أهل كتاب وعلم، فاذا كان بينهم وبين العرب شيء قالوا: «إن نبياً مبعوثاً الآن، قد أطلَّ زمانه، نتبعه، وبفضل عونه سننتصر عليكم، ونصير به سادتكم» فلما كلم الرسول اولئك النفر نظر بعضهم الى بعض قائلين: «ها هو ذا والله النبي الذي تهددنا به اليهود وسوف لا نتركهم يسبقوننا اليه»[1].

وأجابوا دعوته قائلين: «إنا تركنا قومنا، الأوس والخزرج وبينهم من العداوة والشر، ما بينهم، وعسى ان يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم وندعوهم الى امرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك عليه من هذا الدين، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك» كانت تلك فاتحة البيعتين: بيعة العقبة الاولى وبيعة العقبة الثانية.

ففي العام المقبل، بايع رسول الله اثنا[2] عشر رجلاً من الأنصار، وقد بعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن، ويثقفهم ثقافة إسلامية وفي ذلك تتجلى الأهمية الخاصة التي كان محمدﷺ يوليها للتوعية الاسلامية، ودور المبشرين الطليعيين فيها.

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج١ ص ٣٠٣، المستدرك للنيسابوري ج١ ص ١٦٣ وصحيح ابن حبان ج١٤ ص ٤٣٠ (المحقق).

(٢) مسند احمد بن حنبل ج٤ ص ٢٨٤، صحيح البخاري ج٦ ص ٨٢، المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٦٢٨ (المحقق).

وقد اصبح اسلوب اعتماد المبشرين والدعاة والمعلمين من أنجع الاساليب في نشر الدعوة الاسلامية وتمكينها من النفوس. وقد استفادت حركات عديدة، دينية وغير دينية، سياسية، وأيديولوجية من الاسلوب المذكور الذي كان الاسلام أول من اعتمده في عهد النبي وبخاصة في المراحل الحاسمة من الدعوة.

وهو يختلف- قطعاً- عن الاسلوب المتبع من قبل الدول والحكومات والأوساط الرسمية، والذي تتحدد صيغته بواسطة السفراء والمبعوثين. ذلك لأنه اسلوب ثوري بالأصل، وقد انتهجه النبي في مرحلة الكفاح الاسلامي الثوري الصعب، والمليء بالتضحيات.

وحيث ان الصراع بين الأوس والخزرج كان مظهراً مأساوياً من مظاهر الصراع بين العرب انفسهم، والمنقسمين الى عشائر وقبائل، فان قضية الدين كان مقدّراً لها، إما ان تكون ضحية ذلك الصراع، باستثماره كأداة لقبيلة ضد اخرى، في ظل ظروف متحكمة، أو أن تكون عامل إنقاذ يرتفع فيه الطرفان (الأوس والخزرج) على عوامل صراعهما ملتقين في وحدة تماسكية متطورة.

وفي الواقع، ان التقدير الثاني، ما كان لينهضُ به أي دين، بدليل ان اليهودية نفسها لم تستطع تحقيق مثل ذلك على صعيد العلاقة التناحرية بين الأوس والخزرج. بل ان اليهودية كانت تتغذى من عوامل الانقسام والصراع والفتنة بينهما.

إن المزايا الفريدة للدعوة المحمدية، ولشخصية محمد ﷺ القيادية الآسرة،

كانت قد أفلحت في تحقيق نجاح عملي على مستوى اللقاء الأخوي بين العشيرتين المتعاديتين.

وكان ما تمخضت عنه بيعة العقبة الأولى من نصرة النبي من قبل عشرة من الخزرج واثنين من الأوس، بداية متواضعة، ولكنها جادة وذات أهمية متقدمة، من حيث النتيجة التوحيدية.

في موسم الحج القادم، كانت محصلة الأيمان مبهمة حقاً. فقد أتى مبايعاً ثم أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه ذرارينا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب[1]. فاعترض الكلام أبوالهيثم بن التيهان فقال:

يا رسول الله بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن أظهرك الله عزوجل ان ترجع الى قومك وتدعنا. فتبسم رسول الله وقال:بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم[2].

---

(١) انظر مسند أحمد بن حنبل ج ٣: ص ٦٥٢، المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣: ص ١٨١، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٦: ص ٤٢، فتح الباري لأبن حجر ج ٧: ص ١٧٢، صحيح ابن خريمة ج ١: ص ٢٢٣، الفائق في غريب الحديث (٥٣٨ هـ) ج ١:ص ٣٥ كنز العمال للمتقي الهندي ج ٨: ص ٢٨ (المحقق).

(٢) انظر تاريخ الطبري ج٢، ص٩٣، وسيرة ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢: ٤٧ -٥٦ والهدم يروى بسكون الدال وفتحها، فالهدم بالتحريك تعني القبر أي: أني أقبر حيثُ تقبرون، وقيل هو المنزل، وبالسكون والفتح أيضاً إهدار دم القتيل والمعنى إن طُلبَ دمكم فقد طُلب دمي. وذكره الطبراني أيضاً في المعجم الكبير ج١٩: ص٨٩. (المحقق).

وقال رسول الله: أخرجوا إليَّ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[١].

وقال لهم العباس بن عبادة الأنصاري:

يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود. فإن كنتم ترون انكم إذا نهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلاً اسلمتموه، فمن الآن فهوو الله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون إنكم وافون له فخذوه فهوو الله خير الدنيا والآخرة. قالوا فإنا نإخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك، فبايعوه،فكان أول من بايعه أسعد بن زراره، وأبوالهيثم بن التيهان؛ ثم البراء بن معرور، ثم بايعه الباقون، وسموا من ذلك الحين بالأنصار»[٢].

كانت الآيات القرآنية حجة محمدﷺ الكبرى، ومصدر قوته،وقد

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج ٣: ص ٦٤٢، المعجم الكبير للطبراني ج ١٩: ص ٨٩ والفائق في غريب الحديث ج ١: ص ٢١٩، كنز العمال للمتقي الهندي ج ٨: ص ٣٠ وأبو الهيثم بن التيهان أسمه مالك شهد بدر وهو من النقباء ولا عقب له. انظر المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣: ص ٢٨٥ (المحقق).

(٢) كانت العرب تسمي الخزرج والأوس بذلك (المؤلف) وانظر السيرة لأبن هشام ج ٢: ص ٣٠٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢: ص ٢٠١ وجامع البيان لأبن جرير الطبري ج ٢٨: ص ١١٥، اسد الغابة ج ٣: ص ١٠٨ البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ١٩٨ (المحقق).

خاطبت زمرة الكفر الحاكمة في مكة،بالتهديد برهبة الساعة الآتية، وعذاب جهنم، لكنها من الجانب الآخر حفلت بمخاطبة الانصار، وقبلهم من الذين آمنوا، بالوعد الأهي للاتقياء، بالجنة التي يَمتد نعيمها الى قلوب المؤمنين، والمنفقين من أموالهم الى الفقراء، والذين يتمسكون بالحق والخير ويردون الباطل.

ولم تكن صورة الجنة إلا لتثير في النفوس أشواقاً كبيرة لتغيير الواقع الفاسد الذي يعيش فيه الناس، وهوواقع البؤس والتخلف والقتل واللصوصيات الجائرة التي كانت غالبية القوم ضحية لها.

فكانت صورة الجنة تجمع أشواقهم الأرضية الى أمانيهم السماوية فأصغوا باعجاب وولاء متزايد الى الآيات.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ

(١) سورة الرعد، الآيات: ٢٢ – ٢٣ (المؤلف).

مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾[٢].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾[٣].

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾[٤].

فجرّت احداث البيعتين العداء المكي بأخطر أشكاله، وأكثرها حدةً، فكانت المدينة قبلة انظار المهاجرين الذين دعاهم محمدﷺ الى التوجه نحوها، تخليصاً لهم من بطش مكة، فيما ظل هو وعلي بن أبي طالب وأبوبكر الصديق.

ولم يكن المكيّون المتسلطون قادرين على أي صبر أوتساهل. ذلك لأن المدينة ستكون من وجهة نظرهم، الخصم الخطير الذي سيهدد مكانتهم الاقتصادية المسيطرة في شبه الجزيرة العربية، خاصة وإن الممر التجاري الى الشام يقع تحت ذراع المدينة.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٥ (المؤلف).

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٢٢-٢٥ (المؤلف).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣ (المؤلف).

(٤) سورة الصف، الآيتان: ١٣ و١٤ (المؤلف).

وبعد ان كان الفشل في جميع مراحل العداوة ضد محمدﷺ، من نصيب اولئك المكيين الأشرار، فان المرحلة هذه، ما بعد هجرة الصحابة الى يثرب، فرضت عليهم التفكير بالحل النهائي الحاسم. وكانت دار الندوة المكان الذي اجتمع فيه القرشيون، وهي – أصلاً – دار قصي بن كلاب. قال شيخ نجدي:أنا من أهل نجد، سمعت بخبركم فحضرت وعسى أن لا تعدموا مني رأياً. وكان الحضور عتبه، وشيبه، وأبا سفيان، وطعيمة بن عدي، وحبيب بن مطعم، والحرث بن عامر، والنضر بن الحرث، وأبا البختري بن هشام، وربيعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأبا جهل، وبنيها، ومنبهاً إبني الحجاج، وأمية بن خلف وغيرهم. فقال بعضهم لبعض: ان هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه، فاجمعوا فيه رأياً، فقال بعضهم: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب الشعراء قبله. فقال النجدي: ما هذا لكم برأي لوحبستموه يخرج أمره من وراء الباب الى اصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم. قال آخر:نخرجه وننفيه من بلدنا ولا نبالي أين وقع إذا غاب عنا. فقال النجدي: ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه؟ لوفعلتم ذلك لحل على حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بحلاوة منطقه ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم ويأخذ أمركم من أيديكم، فقال أبوجهل:أرى ان نأخذ من كل قبيلة فتى نسيباً، ونعطي لكل فتى منهم سيفاً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها، فلم يقدر بنوعبد مناف على حرب قومهم جميعاً ورضوا منا بالقفل. فقال النجدي: القول ما قال

الرجل، هذا الرأي. فتفرقوا على ذلك»[1].

أصبح قتل محمدﷺ الحل الأوحد الذي اجمع عليه السادة الوثنيون، وهم لم يصلوا الى هذا القرار المصيري، اللا أخلاقي قبل اي اعتبار آخر، (الاخلاقية بمعناها العام والسائد حينذاك) دفاعاً عن أوثان واصنام وعبادات جاهلية. لقد ادركوا بحاسة مصالحهم البورجوازية، والاستعبادية، وبحكم دواعي ارستقراطيتهم المالية والتقليدية، ان محمداًﷺ مدعوماً بالمهاجرين والأنصار سيزحزح الوجود الارستقراطي – التجاري المكي من قواعده وأسسه.

وذلك إدراك اكبر من الادراك ذاته. لأنه نداء سلطان الوجود الأستغلالي، المصلحي، المتنفذ، إن عالم الفقراء، والأيتام، والمستضعفين، والنساء، يرعبهم ذكر إسمه، فكيف اذا كان هو العالم المحمدي الذي يواجههم به، بأسم الله؟

الله – تعالى– لم يقلقهم، وذلك واضح في ان الحنيفية والنصرانية واليهودية موجودة خارج مكة، وحتى في مكة، وإن بصورة ضئيلة جداً، وللنصرانية خرائط من المدن العربية ومن الدول (دولة الروم وحلفائها)، إنما اقلقهم محمدﷺ بدعوته الاسلامية المميزة، حيث الله نصير الفقراء والمستعضعفين

---

(١) انظر سيرة ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢: ٣٣٢، تاريخ اليعقوبي ج٢: ص٣٩ والبداية والنهاية لأبن كثير ج٣: ص٢١٦ وسيرته ج٢: ص٢٢٩، الثقات لأبن حبان ج ١: ص ١١٥ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ١: ص ٢٢٧، تفسير الثعالبي ج ٣: ص ١٢٧، لباب النقول للسيوطي جلال الدين (٩١١ هـ): ص ٩٧ (المحقق).

والعدواللدود للمرابين، وحيث ان الاسلام يدعو الى تغيير جذري للواقع الاجتماعي والاقتصادي، على قواعد الحق والعدل.

لقد كانوا مستعدين لوكان الطرح المحمدي نوعاً من العرض الديني الاعتيادي التساهلي المقبول، إنما جوبهوا بتكامل متماسك من الألهية، والعدل،لا فجوة فيه. وهذا أمر أثار فيهم أكثر من الفزع، أثار فيهم غريزة الدفاع عن الذات الأرستقراطية، الاسترقاقية، الربوية، غريزة القتل!

كانت شجاعة محمدﷺ التي نظمت الاشراف على هجرة الصحابة الى المدينة، قادرة على إختيار البقاء في مكة، لكن الجانب العملي في الدعوة الاسلامية كان يتطلب الولوج الى ميدان تطبيق ألف باء الدعوة الاسلامية، وتكوين النواة الاجتماعية الاسلامية الحصينة.

إن طبيعة الظرف المكي لم تكن تسمح له بأكثر من مواصلة الكفاح وكسب المؤيدين، ومجابهة الخصوم، إضافة الى ما يحمله من أخطار متفاقمة، وحين قرّر المكيون قتل محمدﷺ كانت الهجرة لا مناص منها.

المدينة العقائدية: المدينة المنورة

تنورت يثرب بطلعة النبي الكريم، وكان الاستقبال الجماهيري الحاشد قد ملأ شوارع المدينة التي كانت تسمى (يثرب)، فيما غطّت سطوح البيوت مجاميع من النسوة والبنات، في فرح لا يوصف، وهن يهزجن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجـــب الـــشكر عليـــنا مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المـــبعوث فيـــنا جـــئت بالأمـــر المطـــاع[1]

كانـت فكـرة اقامة مسجد يجمع المؤمنين في وحدة الصلاة الجماعية، فكرة مركـزية في العقيدة المحمدية، فالناس المؤمنون لا يتحاورون بالنجوى والأفكار المجردة، فتظل طقوس العبادة كلمات وعبارات سرعان ما يذهب تأثيرها.

كـان لا بـد للجماعـات المتـشيعة للنبـي أن تكون متّحداً اجتماعياً عقايدياً متراصـاً، وكـان لا بـد للمـؤمن الفرد أن يجد في الجماعة الدينية انتماءه الروحي، وحـضوره الاجتماعـي المتـنافي مـن المؤكد ان المجتمع القبلي هومجتمع الجماعات المتعارضة، والمتصارعة، وهو مبنيّ على فردية الفرد المنصهر في القبيلة، بمعنى انه فـرد إنعـزالي، ذوأفكـار ذاتية (شخصية وقبلية) ضيّقة. وكان الأمر الأول صهر هـذه الذاتـية الشخـصية والقبلـية الـضيّقة في وحدة الشعور بالجماعية الجديدة، الجماعـية اللاقبلـية، التـي تعتبر الركيزة الأولى للبناء الاسلامي من وجه، والبناء القومي من وجه آخر.

كـان اول مسجد في الاسلام عمل الرسول على إنشائه في (قباء) التي تبعد قليلاً

---

(١) الـثقات لأبـن حـبان ج ١: ص ١٣١، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٢٤١ وج ٥: ص ٢٨ الـسيرة النبوية لأبن كثير ج ٢: ص ٢٦٩، وج ٤: ص ٤٢، البيهقي في الدلائل ج٥٠: ص ٢٢٦ ومعجـم مـا اسـتعجم للبكـري الأندلسي (٤٨٧هـ) ج ٤: ص ١٣٧٣ وهذا ما لم نجد له أثراً عند ابن هشام في السيرة. (المحقق).

عـن يثرب، وهو(مسجد التقوى) الذي جاءت فيه الآية: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

وحـين وصـل الـركب النبوي إلى يثرب، بين جموع المهاجرين والانصار، في هـتافات السعادة الجديدة، والتشريف الأكبر للمدينة، كانت فكرة المسجد في مقدمـة الاجـراءات التـى كان ينبغي المباشرة فيها، كيما تكون الرابطة الاسلامية للمجـتمع المـؤمن مكرّسة في الصلاة الجماعية الواحدة، حيث ينتسب الفرد الى الجماعـة، وحـيث تتحول الجماعة الى كتلة واحدة، كالفرد. وكان جميع الانصار يـريدون الـبركة، فكانـت المنافسة على إبتغاء البركة أمراً طبيعياً، وخاصة عندما تعلق الأمر باختيار قطعة أرض للمسجد المزمع إنشاوه.

فليترك القرار لحركة (القصواء) ناقة رسول الله.

قال لهم: « خلوا سبيل الناقة ودعواها فإنها مأمورة»[2].

وكـان الموقـع الذي بركت فيه هو موقع المسجد، وكانت الأرض ليتيمين

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٨ وفي سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال:«تمارى رجلان في المسجد الـذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل:هومسجد قباء، وقال الآخر: هومـسجد رسـول اللهﷺ، فقـال رسـول اللهﷺ: هومسجدي هذا: انظر المصدر ج ٤: ص ٣٤٤ (المحقق).

(٢) انظـر الكـافي في الكلينـي ج ٨: ص ٣٣٩، حلـية الأبرار للسيد هاشم البحراني ج ١ ص ١٥٩، بحـار الانـوار ج١٩: ص ١١٦، الـثقات لأبـن حـبان ج ١: ص ١٣٤ وموسوعة التاريخ الاسلامي للشيخ محمد هادي اليوسفي ج ٢: ص ١٩ (المحقق).

اخـوين، هما سـهل وسـهيل[١]، فكـأن قصة النبي محمدﷺ قبل البعث وبعده، مرصـعة بحقائق ورموز الفقر واليتم، وهو يعثر على الأيتام، والفقراء، والعبيد، والمستـضعفين، في الظـروف والمناسـبات المهمـة، كـأنهم علـى لقـاء معـه في عقيدته،التي هي عقديتهم المخلصّة.

ومـثلما كـان يعمل بيديه مع قريش في ترميم جدران الكعبة، معطياً صورة مـشرقة لقيمة الكدح، والعمل، والبناء، كان يحمل الاحجار في ثوبه، ويسهم مع اصحابه في بناء اسس مسجد المدينة، وجدرانه[٢].

بعـد ان أُنجـز بناء المسجد، كان لابد من صيغة تدعوا المسلمين في مختلف جهـات المدينـة، الـى الـصلاة الجماعـية في أوقاتها المحددة، فإن استخدموا النار

---

(١) انظـر الـسيرة لأبـن هاشـم تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٢: ص٣٤٣، وانظر الطبقات الكـبرى لأبن سعد ج ٣: ص ٦٠٩، الثقات لأبن حبان ج١: ص ١٣٤، اسد الغابة لأبن الاثـير، ج ٢: ص ٣٦٢، الاصابة لأبن حجر ج ٣: ص ١٦٦، فتوح البلدان للبلاذري ج ١: ص ٥، فضائل المدينة لابن ابراهيم الجندي (٣٠٨هـ): ص ٣٧، البداية والنهاية لأبن كثـير ج ٣: ص ٢٤٠، تـاريخ ابـن خلـدون ق٢ ج ٢: ص ١٦، موسـوعة الـتاريخ الاسـلامي لليوسـفي الغـروي ج ٢: ص ٢٢، والسيرة النبوية لأبن كثير ج ٢: ص ٢٦٨ (المحقق).

(٢) انظـر مـسند احمـد بن حنبل ج ٢: ص ٣٨١. ج ٣ ص ٩١، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٢: ص ٩، الـثقات لأبـن حبان ج ١: ص ١٣٥ واخرجه البخاري في ٥٦ كتاب الجهاد، ١٧ رقم ٢٨١٢ وفي الصلاة باب التعاون في بناء المسجد رقم ٤٤٧ (المحقق).

إشارة واضحة، من علوا المسجد، كانت لذلك شبهة مجوسية، وإن استخدموا (البوق) أو (الناقوس) كان ذلك تشبهاً باستعمالات اليهود والنصارى، وحين كان المسلمون منشغلين بالتفكير، كان عقل محمدﷺ الذي ينشد السعادة والخير والنماء، يذهب بعيداً عن توظيف النار، كما انه كان لا يجد داعياً لأستخدام أداة معدنية كوسيط بين المؤمن والمؤمن. كان يختار رموز العلاقة واشارتها من صلب الواقع الانساني، من بين الناس انفسهم، فهل هناك أجمل من صوت الانسان نفسه؟ صوته الداعي إلى الصلاة، فيهبُّ السامعون هبةً واحدة من كل مكان وزاوية، قادمين مع النبرات المهيبة الى المسجد الذي يجمعهم في خشوع الصلاة؟

هكذا كان (الأذان)، صوت الانسان المتحد مع عقل الانسان وهو يفكر، ومع يد الانسان وهي تبني، في استنهاض فعالية الانسان وتكريسها بدون وساطات واستخدامات وثنية، وبدون شكليات محضة.

العقائدية وحرب الجدل:

استحكم محمد الداعية العظيم في عملية نشر دعوته، بالحجة القرآنية، وهو يتنقل من موقع الى موقع عارضاً افكاره في التوحيد على الناس، قبائل وافراداً، باحثاً عن مراكز التأثير الاجتماعي، وعناصر القوة[1]. ولم يصل الينا

---

(١) يقول علي ابن ابي طالبؑ في وصف النبيﷺ: «... طبيب دوار بطبه قد احكم مراهمه، واحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة اليه من قلوب عمي، آذان صم، وألسنة بكم، متبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة....» انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ج ١: ص ٢٠٧.

حجاجه، وهو يواصل أسلَمَة العديد من البشر، لكن من المؤكد ان حصنه فى الحجاج كان القرآن نفسه، الذي اصبح مصدره الوحيد في الجدل، ومجابهة التنظيرات القريشية الوثنية.

كذلك، من المؤكد، ان المناخ الثقافي العربي السائد، كان مناخاً شعرياً ولغوياً مبرزاً، ذلك لأن اللغة العربية، التي صيغ منها الشعر الجاهلي سابقاً، كانت تحوي في داخلها عبقريتها: العبقرية التي استطاع بها البدوي احتواء الصحراء والفضاء بذهنه من خلالها ذلك لأنها وسليته الوحيدة في تحدي الطبيعة الصحراوية وتجاوزها أو بالأقل عدم الانحناء أمامها.

في ذلك المناخ، كان محمدﷺ يستحكم بالقرآن الكريم الذي صاغ الردود التامة على الفكر الوثني، بقدرة باهرة.

لم يكن محمدﷺ ميّالاً الى توسيع المجادلة، لكنه كان يسير بدعوته بلا توقف في مراحلها المتواصلة، وكان مقتصداً بطبعه، وقد استغرقته الحكمة القرآنية إستغراقاً تاماً، فكانت الآيات تتردد على لسانه، أجوبةً وحيدة في ميدان المحاججة.

وثمة نوعان من الجدل، كان يتعرض الى ضغطهما باستمرار، وهما نوعان متباينان كثيراً. جدل قريش،وجدل اليهود.

وكانت الفصاحة القريشية أمراً معروفاً، استثمروه في المصادمة الاعلامية، وأعدّوا لذلك شعراءهم: أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبدالله بن الزبعري، كما اعدّوا آخرين من المتكلمين الذين طالبوا محمداًﷺ بمعجزات

كمعجزات موسى وعيسى.

ووضع قريش، يتأثر بالمعجزات حتماً، شأنها في ذلك شأن الناس والشعوب في البلدان الشرقية، التي هيأت للتاريخ قصصاً ملحمية في الروحانيات لكن مع ذلك، كانت قريش تطالب بالمعجزات وفق طبيعتها الاقتصادية، كفئة تجارية ارستقراطية، فكان الذهب في صلب تفكيرها، يُخالط مطالبها التعجيزية: كانت تريد من محمدﷺ ان يحيل الصفا والمروة ذهباً، ويبلغهم بأثمان السلع، ويُحرّك الجبال، ويفجّر الينابيع، قالوا له: «ان كنت تدعي انك رسول فانك قد علمت انه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقلُ ماءً، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا انهاراً، كأنهار الشام أو العراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم «قصي من كلاب» فانه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فان صدقوك، وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وانه بعثك رسولاً كما تقول».

فاجابهم: «ما بهذا بعثت اليكم، إنما جئت من الله بما بعثني، وقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم، فان تقبوله فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه عليَّ أصبُر الأمر لله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: « فان لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك ان يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناتٍ وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضة يغنيك به عما نراك تبتغي، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم،

وتلتمس المعاش كما نلتسمه، حتى نعرف فظلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولاً كما تزعم»[١].

لقد تمسكوا بالمقاييس المادية، ومعايير الأشياء التي تتصل بالمصالح، والمنافع، متباعدين كثيراً، عن دلالات الأفكار، ومطالب الروح.

وعرض القرآن صورة المشركين وأقوالهم، في سورٍ عديدة:

وَقَالُوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[٢].

وَقَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾[٣].

وكان جواب محمدﷺ جواب القرآن، الذي حسم الرد على هراء قريش حسماً واقعياً ثابتاً، لم يستعن بالخوارق والمعجزات والأعاجيب، ففي الواقع يصطرع الخير والشر، وما على الانسان إلا ان يخوض الصراع بطاقته البشرية،

---

(١) انظر المزيد من تفاصيل المحاججة في السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ١: ص ١٩٢ وتفسير القرطبي ج ١٠: ص ٣٢٩ (المحقق).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧-٨(المؤلف).

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٩٠-٩٣ (المحقق).

من خلال فهمه لقوانين الصراع، ودوره في توجيه مسار الصراع لصالح بني آدم. كان محمدﷺ يكرر القول الرباني: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٨٨ (المؤلف).

ابعاد ومعطيات هذا الحوار:

لابد لنا ان نقف على طرفي الحوار، وإبزار خصوصياتهم:

أولاً: مع الرسولﷺ

بما ان الرسول يمثل الدعوة الخيّرة للبشرية، وهوصاحب الحق، فقد تجلى من الحوار:

١- ان صاحب الحق- ومهما كان- لابد له ان يجلس مع خصومه وأن لا يستنكف أويتكبر على الطرف المحاور له.

٢- على صاحب الحق ان يستمع لما يقوله الطرف المحاور، ولا يجوز له مقاطعته في الكلام أوالتعقيب على جزء من كلامه وإن علم ان فيه الباطل.

٣- الايجاز في الرد، والاقتصار على مكامن الإثارة، مع بيان الدعوة الى الحق.

٤- سعة الصدر وتحمل مالا يطيقه من الكلام، وعدم اليأس من دعوة الاخرالى دعوة الحق.

٥- المحافظة على الهدوء وقوة الأعصاب والصبر وعدم مجاراة المحاور في باطله.

٦- التذكير بالآخرة وصلاح الدنيا.

٧- على صاحب الحق الثبات في دعوته، وعدم الالتجاء الى المطالب المستحيلة، هذا ما أكد الحوار في قول الرسولﷺ: «إنما جئتكم بما بعثني به وقد بلغتم ما أرسلت به إليكم».

٨- أكدهُ الرسولﷺ الى دعوة المشركين للتفكر في دين الله وهجر الحياة الجاهلية.

ثانياً: مع كفّار مكّة.

مَثّل المشركون الطرف الآخر من الحوار. وقد تجلى من حوارهم مع الرسول ﷺ ما يلي:

١- أوضح الحوار ان المشركين ما رسوا طلب المستحيلات من الطرف المحاور حينما عجزوا من الرد، فطلبوا منه ان يفجر انهاراً في صحرائهم، فيصفهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (سورة الاسراء، الآيات: ٩٠-٩١). كما أنهم طلبوا منه بعث أحد كبرائهم من الموت «قصي بن كلاب» والعلة من ذلك (انه كان شيخ صدق) كي يستفهموا منه إن كان محمد على حقٍ ام باطل؟

١- طلبهم أن يسأل الله لينزل ملك يساعده على الرسالة!! وقد عرض القرآن شبهتهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (سورة الانعام، الآيات: ٨-٩).

وهذه المطالب تنم عن جهل المحاور، وكثير ما يذهب الجهل إلى العناد والافراط في طلب المعجزة.

٢-مارس المشركون اسلوب التجرء والتسفيه والتعيير والنبز بصنعة الرسول ﷺ وحال معاشة. وهذا الاسلوب هو مما لا يدخل فى صميم الحوار الايجابي الهادف وإنما يهدف الى اللجاجة والغلبة وحتى وان كان على حساب الحق والحقيقة، واثبتوا بذلك جهلاً كبيراً مع ما هم فيه من العمى والضلال، وقد فاتهم ما يلى:

أ- انهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان، وهذا باطل، لأن مراتب الشرف ثلاث، أعلاها النفسانية، وأوسطها البدنية وادناها الخارجية، والمتمثلة بالمال والجاه والسلطان، فهم لم ينظروا الى منزلة النبوة (النفسانية) وهي درجة عالية القدر ومنصب عظيم عند الله وأما البدنية فهو ما يستيطيع الانسان ان يخلق له منزلة عظيمة بعد ان يُفّعل طاقاته وقدراته الذاتية، ومما يؤسف ان الانعكاس الثقافي التاريخي يتفاعل بحضوره في

عصرنا، فنجد الكثير من الناس يحسبون الشرف بالمال والأعوان، وما دروا ان المال والأعوان في احيان كثيرة تأتي من طرقٍ غير شرعية خلاف الدعوة الإلهية الخيّرة.

ب- انهم ارادوا صفات من تتوافر فيه النبوة وفق مقياسهم وتصورهم.

٣- تمثلوا في حوارهم بالجهل وعدم تدبير الأمور وتقديرها حينما بلغ بهم الأمر ان يطلبوا كسفاً من السماء ! وقد اشار القرآن الكريم لهذا المطلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الانفال، الآية: ٣٢).

٤- مارس المشركون أسلوب السخرية، وهو أسلوب يتبعه من تعيا به السبل من أصحاب الأهواء والباطل فقالوا:

«يا محمد افما علم ربّك أن سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك مانطلب فيقتدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هوصانع في ذلك بنا».

٥- أنبأ حوارهم عن مطلب (مسبق) وهوالتهديد والوعيد لصاحب الدعوة – الطرف الآخر- وبعد ان عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة، قالوا:« وإنا لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا».. إذن فهم على اتفاق لا يقبل التبديل والتغيير للحدّ من حركة الرسولﷺ وليس هدفهم الحوار من اجل القناعة والتفاهم وذلك لغلبة روح الأنانية والذاتية فيهم، وهذه الصفة هي من أهم الصفات التي تنهى الحوار- غالباً – بشكلٍ سلبي، فالمحاور الذي يستميل شهوته الذاتية ومنافعه الخاصة لا يمكن ان يكون مستعداً لتقبل الرأي والتمسك بمعالم الحق والتسليم له، سيما وإنّه قد أضمر مواقف مسبقة وأحكام جاهزة، فهو يجعل منها معياراً لنوعية الحوار بعيداً عن معيار العدل والانصاف، وقد أشار القرآن الكريم مشخصاً هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ (سورة الانعام، الآية:

١١١). أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة غافر، الآية: ٥٦) أو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (سورة الفرقان: الآية ٢١).

اذن فالأنانية وعدم نكران الذات، والشعور بداء العظمة من أكثر الأمراض الخطيرة التي تجابه البشرية، فلم ينحسر هذا الداء على فترة معينة أوتنحسر بطراز خاص من البشر. والحق ان الأنانية ما باتت داءً مستشرياً في كل المجتمعات التي تفتقر للتربية الاسلامية الأصيلة، وقد تكون ناجمة من الأزدواجية في المجتمع وكرد فعل لهذه الثقافة، أو ربّما قد تنجم من القراءات المتعددة للدين بعد اختلاط المفاهيم وتداخل المصطلحات.

وتبقى الأنانية، الداء الذي لا يمكن علاجه بيسرٍ وسهولة إذا لم تكن هناك العناية الكافية في وضع المناهج التربوية التي تقلص بدورها حجم استفحال هذا الداء في الانسان، ولذا نجد اكثر اصحابه ممن يمتلكون قابليات فكرية وثقافية لا يمكن الاستهانة بها، ولكن للأسف ينتهون الى طريق الضلال والابتعاد عما يريده الخالق ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الاعراف، الآية: ١٧٩).

٦- مارس المشركون أسلوب الترغيب والترهيب، لأجل اخضاع الطرف الاخر- المحاور- للتنازل، وهوايضاً من الاساليب التي لا تنسجم مع طبيعة الحوار الايجابي، كون الحوار يبقى في دائرة الاثارة بما فيه من الشفافية والوضوح، وثم يخضع لأساليب الإكراه والمزايدة.

٧- التحجر الفكري وانعدام التطلع من أهم ما أبرزه الحوار في بيان المشركين مع عدم استقلاليتهم الواضحة فكانوا سليبي الارادة والقدرة على التفكير، وغالباً ما يكون ذلك نتيجة لضعف النفس وحب الدنيا والخوف من الموت. وهكذا نموذج من الناس يعتمد

ربما كان الناس ينتظرون، في المحاجة، معجزة،مثل معجزة موسى، ومعجزة عيسى، كانوا يفكرون بشيء يتجاوز حدود خيالهم، شيء يتصل بالنقطة البعيدة لخوفهم الغريزي، حتى يستسلموا اليه، ويسلّموه قيادهم، فلا يكونوا بعد ذلك مسؤولين عن انفسهم مسؤولية تامة، إلا في حدود أمورهم المعيشية والادارية والاعتيادية.

الخوف من المسؤولية الذاتية خوف باطني يقف وراء أغلب ظواهر السلوك. وكان محمدﷺ يريد تحرير الناس من الخوف، وبث الشعور بالمسؤولية بأعلى مستوى، وبأتمّ الحضور.

في حواره على ما تعارف وما نقل من موروث بغض النظر عن مقدار صحته وفاعليته، وهذا مما لا يسعفه الثبات على طاولة البحث والنقاش والحوار، فيصفهم سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآيات:٢٢-٢٤) وتبقى هذه الصفة من الامور المؤدية الى اخفاق الحوار وفشل اهدافه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٧٠) وهكذا يبقى التقليد الأعمى للأعراف والقيم الأجتماعية والعشائرية والتعصب الحزبي والطائفي المرتكز على محور الانتماء فحسب - وليس على مبررات موضوعية صحيحة - ومع حب الذات والانسياق وراء الأهواء والمصالح الخاصة من ابرز مظاهر التحجر والأنغلاق والتبعية (المحقق).

كانت قريش تنتظر هل يأتيهم محمدﷺ بحيّة تسعى كحية موسى؟هل يبرئ الأكمة والأبرص مثل عيسى؟ لكن محمداًﷺ صدمهم الصدمة الكبرى التي ازعجتهم، رغم انها جعلتهم يشعرون بلذّة التفوق عليه، وإحراجه.

كان يؤكد لهم انه انسان مثل أي انسان، لا يملك لنفسه نفعاً وضرّاً، ولا يدعي العلم بالغيب، ولا يحتاج الى معجزة وسحر. لقد كانت بشريته، (آدميته، انسانيته)، قضيته الأولى في الحياة، وفي المعمل الدعائي، فالحياة نفسها دليله على وجود الله.

لقد جاء نبياً، انساناً، ومصداقيته لا تحتاج الى معجزات، واخترَقَ الصحراء والمدن، إنساناً انموذجياً مدهشاً، مثيراً، ويحمل معه حجة الله، كلامه الذي لا يفنى: القرآن، بينما كانت حجج السحر فانية، سرعان ما انتهى مفعولها.

وتطورت حرب الجدل، واستعانت قريش بالسفسطائيين، ذوي الديباجة، وبالاخباريين، الذين خبروا الدنيا، وعاشروا أقواماً من مذاهب مختلفة، كانوا يريدون - عبثاً- القضاء على صورة محمدﷺ، الذي لا يمتلك سلاحاً غير الكلمات، فاختاروا لذلك قباطنة الكلام والاخبار والمعلومات، الصحيح منهم والملفق.

كان هناك واحد اسمه النضر بن الحارث، «كان هذا النَّضْر من شياطين قريش وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها في الخير والشر وفي عناصر الكون»، لقد سعى، في المجالس التي كان يتحدث فيها

النبي، الى مزاحمته، وبلغ من جرأته انه قال: «سأنزل مثل ما أنزل الله على نبيه»، كان يعقب محمداًﷺ في كل حديث مستثمراً براعته،عسى أن يكون أفضل في حديثه من حديث محمدﷺ، وأكثر إثارة، لكن خاب المسعى، فاين سفسطة التضليل من قوة الحقيقة المحمدية، التي كانت صامدة بين البشر، متغذية من بين جوانحهم؟[١].

سيكون من الاضطرار، بعد انتصارات النبي، في المجادلة، ان يقترب بعض قريش من مكان محمدﷺ، لأختبار سحر كلماته، بكل ذكائهم التجاري، وبكل دقتهم اللغوية التي تباهوا بها. فكان ابوسفيان بن حرب، وابوجهل بن هشام، والأخنس بن شريق، يذهبون ليلاً، كلاً على حدة!- الى ماوراء جدران بيت محمدﷺ، مستمعين سراً الى ترتيله القرآن بصوته الجليل، وفي الفجر وفي الطريق الواحد ينفضحون، فيتلاومون، متعاهدين على أن لا يكرروا ذلك، لكنهم زاولوا التنصت ثلاث ليال[٢].

---

(١) وروى أهل الحديث ان النضر بن الحارث ومعه عقبه بن أبي معيط وعمرو بن العاص عهدوا الى سلا جمل فرفعوُه بينهم ووضعوه على رأس رسول الله وهو ساجد بفناء الكعبة، فسال عليه، فصبر ولم يرفع رأسه، وبكى في سجوده ودعا عليهم (شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ج ٦: ص ٢٨٣) ويقال ان النضر بن الحارث هو الذي كتب صحيفة مقاطعة بني هاشم وعبدالمطلب معه قبل قريش (= الحصار في شعاب ابي طالب) وعلقت في جوف الكعبة، فشلت يداه بعد ذلك انظر فتح الباري لأبن حجر ج ٧: ص ١٤٧.

(٢) واللطيف في أمر هؤلاء الثلاث، ان الاخنس بن شريق لقى ابا جهل يوم بدر فقال له: يا

لقد أتت حرب الجدل ثمارها، في الطور القرشي الأول، واكتسب معسكر الاسلام انصاراً مهمين، كان يسحرهم البيان.

فى مرحلة أخرى، كان اليهود، في المدينة، غير قنوعين بوحدة العلاقة بين الكتابيين، ولم يستطيعوا التحرر من عقدة الجنس المختار، فكان قبولهم لسياسة محمدﷺ المتمثلة بحرية العقيدة، والتي عبرت عنها المعاهدة الأولى في المدينة، قبولا تكتيكياً، مؤقتاً.

وحسب طبيعة الديانة اليهودية المتقوقعة على اليهود انفسهم، والتي تتعارض مع التبليغ الى البشر كافة، كان التحسس سلوكاً يهودياً معروفاً. وهو تحسّس قائم على الشعور بالاضطهاد في حالة كون اليهود قلة اجتماعية، وقائم على الشعور بالعظمة في الحالتين: الاضطهاد والسيادة.

كانت أفكار محمدﷺ وسياسته تشق المجتمعات المغلقة، والقبائل، مؤسسة وحدة إنسانية للعرب المقهورين. وكان اليهود مقيمين في القطب المعادي لتلك الوحدة، الانسانية بدوافع الشعور بالعظمة، وامتلاك سلاح المال

أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد صادق هو أم كاذب؟ فقال ابوجهل: والله ان محمداً لصادق وما كذب محمد قط... حتى ان النضر بن الحارث قال لقريش قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ارضاكم فيكم واصدقكم حديثاً واعظمكم امانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر. انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض ج ١: ص ١٣٤ (المحقق).

والـذهب، الـذي تقـوي به شكيمتهم الطبقية، وتثبت من خلالها يهوديتهم. لقد اعلـنوا حـرب الجـدل علـى محمـدﷺ، رغـم انه وضع أسساً ديمقراطية لحسن العلاقة معهم[1].

وقـد لجـأوا الـى فنون ماكرة في حرب الجدل، خاصة بعد ان دفعوا بعضاً مـن مثقفـيهم للتظاهـر بالاسـلام، والاندسـاس في الوسـط الاسـلامي بغـية التحريف والتشويه.

وكـان بعـض متكلمة اليهود يوجهون اسئلة محرجة الى النبي محمدﷺ، قـد تـتعارض مع إيمانهم بالله، لكن هدفهم البلبلة، فكانوا يسألونه: « إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟ وكان محمدﷺ يجبيهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2].

وكـان الـيهود لا يـتورعون عن إثارة موضوع قداسة القدس، من منطلق

---

(١) والمـراد: هـو دسـتور المدينـة الـذي ضـمن الحقـوق لكـل الـديانات وقـسَّم الواجبات، والمحافظـة عـلى «يثـرب» وطن جميع العرب القاطنين فيها، وقد تجلى في الدستور الأهتمام بالوطنـية وشيوع مفهوم المواطنة كأسلوب براغماتي لتقوية الدعوة. والبراغماتية: مصطلح حداثـوي يـراد منه معنى الغاية تبرر الوسيلة، بيد أن السيرة النبوية تجلت فيها الباراغماتية بـشكل نـسبي لا بمعنـى القفـز عـلى الثوابت الدينية، بقدر ما كانت تكتيكاً من أساليب المعايـشة والقبول بالآخر وإظهار حسن معالم الدعوة ومكانتها الخيّرة لاطلاع الآخر على حقيقتها وحقيقة الأهداف التي تصبو إليها (المحقق).

(٢) سورة الاخلاص، الآية: ١-٤ (المحقق).

كـتابي، داعـين النبـي الـى مغـادرة المدينـة الـى بيت المقدس شأن الرسل الذين سبقوه: (إذا كان رسولاً حقيقياً!).

لقـد اعلن اليهود حرباً من طراز خاص! فهم - مرة - يستعينون بمفاهيم وأفكار دينية في الجدال، ومرة اخرى، يلجأون الى الحجج الوثنية في السؤال.

كـما ان تكتـيكاتهم - في الجـدل وفي الـسلوك - كانـت شديدة التغيّر، لأن هـدفهم الحقيقـي هـو معـاداة الاسلام ونبي الاسلام، وعدم الرضا بأي مسلك تعاوني وانسجامي.

وحـين اتجهـت انظار المسلمين الى الكعبة قبلةً لهم، بعد صرفها عن بيت المقـدس، أنكـر الـيهود علـيه مـا فعـل، و «حاولوا فتنته مرة اخرى بقولهم انهم يتبعونه إذا هو رجع الى قبلته، فنزل قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[1][2].

و«في هـذا الـوقت الذي اشتد فيه الجدال بين محمدﷺ واليهود وفد على

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٢، ١٤٣ (المؤلف).

(٢) محمد حسين هيكل (المؤلف).

المدينة وفد من نصارى نجران عدَّتُهم ستون راكباً، من بينهم من شَرُف فيهم ودرس كتبهم وحسن عمله في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شَرَّفوه ومَوَّلوه واخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، ولعل هذا الوفد إنما جاء الى مدينة النبي حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعاً في ان يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ به العداوة،فيريح النصرانية المتاخمة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعُدوان العرب. واجتمعت الاديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد وبجداله النبي وبقيام ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام.

فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى ومحمد، إنكاراً فيه من العَنَت ما رأيت، ويزعمون ان عُزَيْراً ابن الله، وأما النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى، وأما محمدﷺ فكان يدعو الى توحيد الله، والى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزله إلى أبده.

كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].... وكان ينكر عليهم أشد الانكار كل ما يُلقي أية شبهة على وحدة الله، ويذكر لهم أنهم حرَّفوا الكلم مما في كتبهم عن مواضعه وانهم يذهبون

(١) سورة البقرة، الآية:١٣٦ (المؤلف).

الى غير ما ذهب اليه النبيون والرسل»[١].

وقد كان رأي محمد ﷺ مثلاً للتسامي، فدق الخلافات بين الأديان الثلاثة، معلناً التمسك بالحقيقة الأهية، وداعياً الى ما أقرَّه القرآن: كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

كانت حرب الجدل متصاعدة، لكنها - في السياق المحمدي- كانت مرتبطة إرتباطاً منهجياً وجدلياً بالخطوات العلمية الكبرى في تثبيت أركان التجربة الاسلامية جزءاً بعد جزء. وكان - كما في الحروب والمعارك والغزوات - يحقق مكاسب الجدل من جانب، ويعزز مناعة وعي أصحابه واتباعه ويطوره من جانبٍ آخر.

وقد أثمرت تجربة الجدال المعقدة في تكوين وعي عربي أصيل، من داخل رحم اللاوعي، والجهل بالهوية القومية.

وهي -ضمناً- كانت تجسيداً واقعياً حياً لأنتشار الوعي الاسلامي الأصيل الهادف الى اعادة تشكيل حياة العرب، في إطاريها الاجتماعي، والكوني.

وبعبارة موجزة، ان النهج الاعلامي والدعائي في الفترة النبوية الكبرى

---

(١) محمد حسين هيكل (المؤلف).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤ (المؤلف).

كـان قوي التمازج بالنهج العسكري، منذ بدايته الكفاحية الأولى، ولحين سيطرة الاسلام على المنطقة العربية.

فكـان الإعـداد للجدل مما يتطلبه من معلومات وأفكار ولغة لا يقل شأناً عـن الإعـداد للقـتال مما يتطلـبه من قوة، وسلاح، وخيل. إن لم يكن بالمستوى نفسه.

وكانـت المراكـز الاساسـية لحـرب الجـدل تستمد وظيفتها الأيديولوجية والاعلامـية مـن مصادر الاعلام الاسلامي، التي حولت الاعلام - ولأول مرة في التأريخ - إلى ممارسة - الى ممارسة عقائدية ليست تكتيكية.

ولا بـأس من الاشارة - هنا - الى ان الاعلام على الصعيد التأريخي، كثراً مـا يقـع تحـت هيمـنة السمات المعروفة للدعاية. إذ تتحول الدعاية بالتجربة، الى نمط تكتيكي، وَسَليّ، مصلحي، متغير.

في الاسـلام، وبفـضل عبقـرية محمدﷺ البالغة النزاهة، كان التطابق بين الاعلام والدعاية جارياً في صميم الحركة العقائدية.

وكـان الجدال الاسلامي محتاجاً الى ثروة فكرية وتأريخية وروحية يتحصن بهـا المـؤمن، الـذي ينـشيء نفـسه تنشئة ثورية عادلة من جانب، ويبشّر بأفكاره، ويدافع عنها، وينقلها الى الواقع التطبيقي من جانبٍ آخر.

هـنا، اكتـسبت المـساجد كـل الاهمـية التثقيفية والتربوية، التي وجد فيها المـسلم مـيدان ممارسته النظرية المتطورة، إنه - في المسجد - يتعلم بسرعة، وثقة، ويتـزود بمهـارات معـرفية، وسياسـية، ودينـية، وأخلاقـية تُقوّم - باستمرار -

الجانب العقائدي الذي تحوَّل المسلم، المؤمن، بفعله الى طاقة هائلة.

لـذلك، كـان قـراراً تأريخـياً، مـثلما هو قرار العقيدة بالذات، تأسيس اول مسجد، في طريق الهجرة، على مشارف المدينة، وقبل دخول الرسول إياها. ذلك هومـسجد قـباء. وفي المدينة كان المسجد النبوي النواة التأسيسية للحياة الجديدة في المديـنة. ثـم انتشرت المساجد، دليلاً على دورها الاستراتيجي في قوة الاسلام ومضائه.

فكان منها، (ما بين المدينة وتبوك):

١. مسجد تبوك.

٢. مسجد بثينة مدران

٣. مسجد بذات الزراب

٤. مسجد بالأخضر.

٥. مسجد بذات الخطمى.

٦. مسجد بآلاء.

٧. مسجد بطرف البتراء، من ذنب كواكب.

٨. مسجد بالشق، شق تارا.

٩. مسجد بذي الجيفه.

١٠. مسجد بصدر حوض.

١١. مسجد بالحجر.

١٢. مسجد بالصعيد

١٣. مسجد بالبوادي، اليوم وادي القرى.

١٤. مسجد بالرفعة من الشقة، شقة بني عذره.

١٥. مسجد بذي المروة.

١٦. مسجد بالفيفاء.

١٧. مسجد بذي خشب.

وانه «لم يذكر المسجد المعروف بذي القبلتين...»[١].

ضمناً، إن الخطابة مارست دورها المباشر الفعال في التوعية، وفي حرب الجدل. وقد «كانت الخطبة في مكان الصدارة منذ وقفتهﷺ على (الصفا) ببدء الطور العلني للدعوة، الى خطبته في حجة الوداع» و«قد أصبح للخطبة موقع ممتاز باستكمال أركان الدين وفرائضه حيث اصبحت الخطابة من الشعائر» و«قد كان النبيﷺ اكثر خطباءالدعوة خطابة.

لقد كانت الخطبة وسيلة رئيسية للرسولﷺ في شرح أركان الاسلام وقد استغرق ذلك بطبيعة الحال عصر النبوة كاملاً. وقد كان قادة الاعلام بالدعوة من أصحابه الذين شاركوا النبي في استخدام هذه الوسيلة للاعلام بالدعوة يخطبون بآيات من القرآن ويقتبسون من معايشتهم للنبي وتعلمهم منه. ولم تكن الخطبة جديدة على المجتمع الذي سكن الجزيرة العربية عندما جاء الاسلام. فقد كانت مشهورة في الجاهلية. ولقد وقعت خطب قس بن ساعدة

---

(١) د. محمد سيد محمد، «المسؤولية الاعلامية في الإسلام» مشيراً إلى سيرة ابن هشام، في ملاحظته التكميلية (المؤلف).

الايادي – على قلتها– موقعاً ممتازاً في ذاكرة التأريخ. كان قس في الجاهلية يخطب في سوق عكاظ يدعو الناس الى التأمل في الكون وفي الموت والحياة بما يؤكد معرفته بالوحدانية. وربما كان هذا شعاعاً من دين سيدنا ابراهيم. ويذهب جمهور الباحثين الى القول بأن الخطبة أصبح لها شأن كبير بظهور الاسلام، وهو حكم يتفق مع جميع المقاييس لظروف الدعوة والتغيير الشامل لحياة الجزيرة العربية.

وتمثل الخطب في عصر النبوة العمود الفقري لكثير من الوسائل الاخرى مثل الحوار والمناظرة وما شابه ذلك»[1].

ولا يمكن – في حرب الجدل– نسيان دور الشعراء في المعمعة. ذلك لأن المشركين المرابين والأرستقراطيين والعدوانيين، كانوا يحاربون النبي العظيم، بمنطق الاتهام بأنه شاعر.

و«كان في مقدمة الافتراءات الجاهلية إنكار النبوة والرسالة المحمدية، والادعاء ان الآي الكريم شعر أو نوع من الشعر، وان النبي الكريم شاعر»[2].

و«حيث ان المحيط العربي كان محيط شعر وشعراء» فان مجرد القول بشاعرية النبي العظيم كان يعني تخفيض قداسة الرسالة الى مستوى الشعر الذائع في المحيط العربي، ولذلك كان ردُّ القرآن الكريم حازماً وصارماً:

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

(٢) عزيز سيد جاسم (الاغتراب في حياة وشعرالشريف الرضي) (المؤلف).

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[١].

و﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٢].

و﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وفي سورة «الشعراء» عرض القرآن الكريم فهماً صائباً، عميقاً، شاملاً، عن الشعراء، محدداً مكانة الشاعر في الهداية، أوفي الغواية، وقيمته في الحالين، ذاكراً ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[٤].

إن القرآن الكريم في دفاعه التام عن النبوة، والرسالة الإلهية، والتغيير الاجتماعي الشامل القائم على الايمان الإلهي والعدل، قدَّم إدانة واضحة للشعراء الغواة، والمتقلبين،والمدّاحين، والمتكسبين، والثرثارين، والذين يقولون ما لا يفعلون، مُنهياً صورة الشاعر الجاهلي، القبلي، المتألِّه، المغرور، وداعياً الى تبني الصورة الحقيقية للشاعر، والتي استثناها بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٩ (المؤلف).

(٢) سورة الطور، الآيه: ٣٠ (المؤلف).

(٣) سورة الحاقة، الآيه: ٤١ (المؤلف).

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧ (المؤلف).

(٥) سورة الشعراء آيه: ٢٢٧ (المؤلف).

مـن هـذا المـنطلق القـرآني تأكدت الفكرة الجوهرية التي تنصُّ على علاقه الـشعر بـالأيمان، والتي يمكن إدراك مدى صدق الشاعر، وجدّيته، أو حقيقيَّته، بتعبير أدق»[١].

إنضمَّ الى صفوف الاسلام، تحت راية النبي، شعراء آثروا الاسلام حياةً لهم وطـريقاً. فكان (حسان بن ثابت) و(عبدالله بن رواحه) و(كعب بن مالك) شعراء الدعوة الاسلامية، وأداة الاسلام المبرَّزة في حرب الجدل، وسجاله الشديد.

كـان حسان بن ثابت[٢] هجّاءً كبيراً، وما كان النبي ليرضى بالهجاء لولا ان حـرب شـعراء الكفر والشرك والوثنية والمصالح كانت تتطلب رداً مماثلاً، وكان حسان بن ثابت ذا جدارة مؤكدة في ذلك.

قال يهجو (أبا سفيان) رداً على هجاء أبي سفيان للرسول:

ألا أبلـــغ ابـــا ســـفيان عنـــي ... فأنـــت مُجَـــوفٌ نَخْـــبُ هـــواءُ

---

(١) عزيز السيد جاسم: «الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي» (المؤلف).

(٢) هوحـسان بـن ثابـت بن المنذر الأنصاري، وهوجاهلي اسلامي متقدم الاسلام، إلا أنه لم يشهد مع النبي مشهداً، لأنه كان جباناً، كان يضرب بلسانه أرنبة أنفه، من طوله، ويقول: مـا سرني بـه مقول أحدٍ من العرب، والله لووضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، عـاش في الجاهلـية سـتين عاماً وفي الاسلام ستين عاماً، مات في خلافة معاوية وعُمِيَّ في آخـر عمـره (انظر: الشعر والشعراء (أبن قتيبة) (المؤلف) وانظر تفسير القرطبي ج ٩: ص ٣٧٧ والـبداية والـنهاية لأبـن كثـير ج٤: ص ٣٥٥ وكتاب العين للفراهيدي (١٧٥) ج ٤: ص ١٠٤ ولسان العرب لأبن منظور ج٩: ص ٣٥ وتاج العروس للزبيدي ج ٦: ص ٦٣ (المحقق).

بـــأن ســـيوفنا تـــركتك عـــبداً ... وعـــبد الـــدار ســـادتها الإمـــاءُ
هجـــوت محمـــداً فأجـــبتُ عـــنه ... وعـــــند الله في ذاك الجـــــزاء
أتهجـــوه ولـــست لـــه بكـــفء ... فـــشرّ كـــما الخـــير كـــما الفـــداء
هجـــوت مـــباركاً بـــراً حنـــيفاً ... أمـــين الله شـــيمته الـــوفاءُ

وقال يهجو أبا جهل:

سَـــمّاه معـــشره أبـــا حكـــم ... والله ســـمّاه أبـــا جهـــلِ
فـــما يجـــيء الدهـــرُ معتمـــراً ... إلا ومـــرجل جهلـــه يغـــلي

وقال يهجو أبا لهب:

أبـــا لهـــبٍ أبلـــغ بـــأن محمـــداً ... ســـيعلو بـــما أدى وإن كـــنتَ راغـــما
إن كـــنت قـــد كذّبـــته وخذلـــته ... وحـــيداً وطاوعـــت الهجـــين الـــضراغما
ولـــو كـــنت حـــراً في أرومـــة هاشـــم ... وفي سرهـــا مـــنهم مـــنعت المظالمـــا
ولكـــن لحـــياناً ابـــوك ورثـــته ... ومـــأوى الخفـــا مـــنهم فـــدع عنك هاشما
ســـمتْ هاشـــم للمكـــرمات وللعـــلي ... وغـــودرت في كـــأبٍ مـــن اللـــؤم جـــاثما

وفي الهجاء قال عبدالله بن رواحه، في أبي سفيان:

وعـــدنا أبـــا ســـفيان بـــدراً فلـــم نجـــد ... لمـــيعاده صـــدقاً ومـــا كـــان وافـــيا
فأقـــسم لـــو وافيتـــنا فلقيتـــنا ... لأبْـــتَ ذمـــيماً وافـــتقدت الموالـــيا
تـــركنا بـــه أوصـــال عتـــبة وابـــنه ... وعمـــراً أبـــا جهـــل تـــركناه ثاويـــا
عـــصيتم رســـول الله أفٍ لديـــنكم ... أمكـــركم الـــسوء الـــذي كـــان غاويـــا
فـــاني وإن عنفـــتموني لقائـــل ... فـــدىً لرســـول الله اهـــلي ومالـــيا
أطعـــناه لم نعدلـــهُ فيـــنا بغـــيره ... شـــهابَ لـــنا في ظلمـــة الليـــل هاديـــا

ويختلف عبدالله بن رواحة عن حسان بن ثابت، في كونه كان محارباً شجاعاً، فكانت اغراض الشعر لديه معبرةً عن أهم صفاته، وعواطفه لذلك برز في شعره الرثاء، مثل رثاء حمزه، اذ قال:

بكت عيني وحق لها بُكاها ... وما يُغني البكاء ولا العويل

على اسد الأله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجلُ القتيلُ

أصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد اصيبَ به الرسولُ

وكان يُحب الاستشهاد، كأي مقاتل جسور، وحين ودعه الناس، وكان متوجهاً الى «مؤته» بكي، فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحه؟ قال: اما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عزِ وجل يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[1] فلستُ ادري كيف لي بالصبر بعد الورود، فقال المسلمون، صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم الينا صالحين، فقال عبدالله بن رواحه:

لكني اسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرغ تقذفُ الزَبَدا

أو طعنةً بيدي حران مجهزةً ... بحربةٍ تنفذ الأحشاءَ والكَبدا

حتى يقال إذا مرّوا على جدثي ... أرشدهُ الله من غازٍ وقد رشدا[2]

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١ (المحقق).

(٢) انظر السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج٣: ص٨٣٠، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ج ٦: ص ١٠٧، شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد ج ١٥: ص ٦٢،

وحين أخذ الراية في معركة مؤتة بعد استشهاد جعفر بن عبدالمطلب، قاد الجيش وهو يردد:

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي ... وحمام الموتِ قد صليتِ

وما تمنيتِ فقد أعطيتِ ... إن تفعلي فِعلها هديتِ[1]

ثم استشهد بعد قتال شديد.

وكان عبدالله بن رواحه قليل الاحراج في هجائه المحدود، الذي لا يخرج عن إطار الهجاء بحب الرسول والذود عنه. أما حسان بن ثابت فكان علماً في الهجاء، وكان لسانه سريع الانقياد الى اغراض الهجاء الشديدة، حتى كادَ بعض رذاذ الهجاء أن يصل الى بني هاشم وهو يهجو قريشاً، لولا انه كان يتدارك ذلك

الطبقات الكبرى ابن سعد ج ٢:ص ١٢٨، تاريخ مدينة دمشق ج ٢: ص ٦، ج ٢٨: ص ١٢٤، وتاريخ الطبري ج ٢:ص ٣١٩، البداية والنهاية ابن كثير ج ٤: ص ٢٧٦، وعيون الاثر ابن سيد الناس ج ٢: ص ١٦٥ السيرة النبوية ابن كثير ج ٣:ص ٤٥٦، سبل هدى والرشاد للصالحي الشامي ج ٦ ص ١٤٥ (المحقق).

(١) انظر السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٣: ص ٨٣٤ وسنن البيهقي ج ٩: ص ١٥٥ فتح الباري ابن حجر ج ١٠: ص٤٤٧، شرح نهج البلاغة ابي الحديد ج ١٠ ص ٦٩-٧٠، تاريخ مدينة دمشق ج ٢٨ ص ١٢١، اسد الغابة ابن اثير ج ٣: ص ١٥٨، سير اعلام النبلاء للذهبي ج ١: ص ٢٤٠، تاريخ الطبري ج ٢: ص ٣٢١ البداية والنهاية ابن كثير ج ٤:ص ٢٧٩. السيرة النبوية ابن كثير ج ٣: ص ٤٦٢. سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ج ٦: ص ١٤٩ (للمحقق).

بذكاء وحصافة.

ومن طريف ذكائه هذا، انه في هجائه شاعر كفار قريش أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب (قريب النبي، وقد كان يهجو الرسول)، كان «بارعا في الرد والنيل من أبي سفيان بن الحارث،وكأنه يسير على حبلٍ مشدود، فكان موفقاً حين قال:

لقد علم الأقوام أن ابن هاشمٍ ... و الغُصنُ ذو الأفنان لا الواحدُ الوغدُ

ومالك فيهم محتد يعرفونه ... فدونك فالصق مثل ما لَصقَ القُرد

وإن سنام المجد من آل هاشمٍ ... بنوبنت مخزوم ووالدُك العبدُ

وفي هجائه قريش يرتفع سيل مَدَّه الشعري الهجائي الى درجة بعيدة، حتى يقول مستدركاً:

لولا النبيُ، وقولُ الحقِ مغضبة ... لما تركتُ لكم أنثى ولا ذَكَرا

مؤكدا ان النبي كان يرفض المبالغة في الهجاء، وكان قبوله به مجرد استجابة لشروط معركة اعلامية فرضتها قريش والكفار واليهود، وخاض فيها شعراء الشِرك والضلال خوضا مؤذياً:

ولكن ضرورات حرب الجدل والمساجلات الشعرية، وهي متطلبات عملية، في عصر القبائل، لم تكن وحدها التي استوجبت إهتمام النبي بالشعراء، إنما كان النبي المسلح بمعجزة الكلمة التي بثها القرآن، كان يكن لأمراء الكلمة الشعرية (الشعراء) تقديراً كبيراً، لم تقلل منه أخطاء الشعراء البالغة، والتي كان

عقل محمدﷺ يرصدها رصداً تاريخياً فكرياً، واخلاقياً.

فحين كان الشاعر يلقي قصيدته،بالمناسبة، كانت مداركه وحدود ثقافته ونفسيّته ملتصقة بالمناسبة ذاتها، لكن عين النبي الرائي العظيم، كانت تربط قصيدة المناسبة بذاكرة الناس التأريخية، فكل قصيدة تُصبح تأريخاً، ومن هنا تأتي قيمتها! فهي شديدة الخطر إذا كانت سلبية، مؤذية، غير منطقية. وهي شديدة الأثر إذا كانت إيجابية، إنسانية، فعّالة.

وفي واقع الحياة الجاهلية، حيث كان الشعر ديوان العرب، كان المعنى في ذلك، أنه - أي الشعر- حمل كل خصائص الجاهلية، وفي مقدمتها خصائص الصراع القبلي، لذلك كان التناحر يفرض نفسه على أغراض الشعر ومضامينه، فكان المديح والفخر والهجاء من دلالات عصر قبلي تناحريّ.

وكانت البصيرة المحمدية تُعرّي الشعر القبلي التناحري، لا بحدوده المحلية، بل بحدوده التأريخية، لأنه، (وبما أنه ديوان العرب) سيفرض حضوره التأريخي على العرب، الى آمادٍ طويلة.

وفعلا، ها هو العربي يتلو شعر المعلقات، والشعر الجاهلي بعامة، وكأنه شعر اليوم، كما ان شكل القصيدة لا يزال سارياً بقوة الى الآن. إذن كان الخلل في المضمون، والرؤية، والهدف، والغاية التي كان الشاعر يُجنّد القصيدة لأجلها.

لكن صلةَ المضمون، بالشكل لم تكن صلة مؤقتة، وكان النبي ينظر بقلق إلى خطورة الوعاء الشعري الذي ينقل إلى الأجيال القادمة، وعبر القرون المتتالية الزاد الجاهلي، ومبالغات الشعر الحماسية والهجائية المتطرفة، والموجهة ضد

العرب أنفسهم، بين بعضهم والبعض الآخر.

لذلك كان يُحذر من شعر المديح والتكسب والانتفاع، وقد روُي عن مجاهد بن أبي عمر أنه قال: «قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء، فجعل المقداد يحثو في وجهه التراب، وقال أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب»[1]. من حيث المضمون ان المدح يُفسد الممدوح، فيجعله يظن أنه فريد زمانه،ويقع في التأله (أو في درجة من درجاته)، كما انه يدفع المادح الى الكذب لتقديم المدحة تلو المدحة.

أما، من حيث الشكل، أو الصورة البلاغية، فان الطنانة عدوة التأمل الصادق، والفكرة الحقيقية، وقد حذَّر الرسول من الطنانة الجوفاء، وروي عنه

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ٦:ص ٥، صحيح مسلم ج ٨: ص ٢٢٨؛ سنن الترمذي ج ٤: ص ٢٦، سنن البيهقي ج ١٠: ص ٢٤٢، فتح الباري لأبن حجر ج ١٠ ص ٣٩٨ وج ٣ ص ٣٣٨، المصنف ابن شيبة الكوفي ج ٦: ص ٢٠٥ الآدب المفرد للبخاري: ص ٧٩. الآحاد والمثاني للضحاك ج ١: ص ٢٢٧، صحيح بن حبان ج ١٣ ص ٨٢، المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠: ص ٢٣٩، مسند الشاميين للطبراني ج ١: ص ١٦٥، مسند الشهاب ابن سلامة ج ١ ص ٤١٣، موارد الظمآن للهيثمي: ص ٤٩٢،الجامع الصغير للسيوطي ج ١:ص ٤١، كنز العمال للمتقي الهندي ج ٣: ص ٥٧٤، الفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ١: ص ٢٣٧، كشف الخفاء للعجلوني ج ١:ص ٥٦، تفسير القرطبي ج ١:ص ١٣٥، شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج١١: ص١٠٣ وج١٧: ص٤٥ (المحقق).

أنـه قـال: «ان الله يـبغض البـيلغ مـن الـرجال الـذي يتخلل بلسانه، كما تتخلل البقرة»[١].

و«قـد كـان لعمـر بـن سعد بن ابي وقاص، الى ابيه حاجه، فقدم بين يدي حاجته كلاماً، مما يحدث الناس يتوصلون به، ولم يكن سعد يسمعه،فلما فرغ قال: يـا بنـي قـد فـرغتَ مـن كلامك. قال:نعم، قال:ما كنت من حاجتك أبعد، ولا كـنت فـيك أزهـد منـي مـنذ سـمعت كلامـك، سمعت رسول اللهﷺ يقول: «سيكون قوم يأكلون بألسنتهم، كما تأكل البقرة من الأرض»[٢].

ان الـشعر الجـاهلي حمـل الاثنـين معاً: المضمون القبلي المتصرف، والطنانة التي أطلقها العمود الشعري.

وقـد أدان النبـي الكـريم ذلـك بقـوة، إدانةً أبعد - في المدى- من الادانة المـرحلية، فهـو - وهـو النبي العظيم- كان يتنبأ -ببعد ناظر هائل- باستمرارية لعنة الشعر تلك، الى قرون وأزمنة طويلة، في تأريخ العرب.

---

(١) الـترمذي ج٩: ص٢٩٢، وانظـر سنن الترمذي (طبعة أخرى) ج ٤:٢١٩، والأذكار النووية ليحيـى بـن شرف الـنووي: ص ٣٧٢ وريـاض الـصالحين للنووي يحيي بن شرف (ايضا) (٦٧٦هـ): ص ٦٧٣، تفسير الثعالبي ج ٤: ص ٢٩٨ (المحقق).

(٢) أنظـر (د. جودة عبد الله مصطفى: محمد والشعر) المؤلف، وأنظر مجمع الزوائد ج٨: ص ١١٦، كـتاب الـصمت وآداب اللـسان لأبـن أبي الدنـيا: ص٣٠٧، الجامـع الـصغير للـسيوطي ج٣: ص٦٣، تـاريخ مدينـة دمشق ج٤٥: ص٤٥، سبل الهدى والرشاد ج١: ص٤٣ (المحقق).

وحقاً، أنّى تجد الشعر العمودي (بشكله القديم) تجد معه سيئاته الأولى، في الجاهلية.

وكان هدف النبي محمد تحرير الشعر من تلك السيئات التي وردت في الآيات: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

هنا ينبغي التذكير، بأن (الكُتاب) الذين يبالغون في الحديث عن حب محمد للشعر والشعراء. (عن حسن نية، ودفاعاً عن الشعر)، يخرجون عن أطار التحليل الموضوعي، مسترسلين وراء المقاصد النزيهة.

ذلك لإن موقف محمدﷺ مدروس بصورة دقيقة جداً، إمتثالاً للآي الكريم الذي لا مُراجعة فيه، في تقرير ذلك الموقف، حيث جاء فيه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ...﴾[2].

إن هذا النص القرآني صريح صراحةً قاطعة، تتعارض مع المبالغات المرسومة في كتابة الكُتاب الذين يجدون الشعر والشعراء، بايجاد أسانيد نبوية.

وقد وقف بعض الكُتاب - بحسن نية مؤكداً- عند بعض الأخبار عن حفظ النبي للشعر وترديده إياه، من قبيل انه كان يتمثل بشعر عبدالله بن رواحة:

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ - ٢٢٦(المحقق).

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩ (المحقق).

«ويأتيك بالأخبار من لم تُزودِ»[1].

---

(١) روى جابر بن سمرة قال: كنت عند رسول اللهﷺ اكثر من مائة مرة وكان أصحابه ينشدون الاشعار ويذكرون أخبار الجاهلية قديماً. ثم يقول: ان النبيﷺ أنشد بيت لطرفة بن العبد بهذه الصيغة.

سَتُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً... ويأتيك من لم تزود بالأخبار.... فقال بعض الحاضرين: «ويأتيك بالأخبار من لم تزود».

فقال الرسولﷺ: مالي والشعر وما للشعر ولي.

انظر المسبوط الشيخ الطوسي ج ٨: ص ٢٢٦، أما الترمذي في سننه ينسب هذا البيت الي ابن رواحة انظر سنن الترمذي ج ٤: ص ٢١٨، وفتح الباري ابن حجر ج ١٠ ص ٤٤٧، مسند أبي الجعد: ص ٣٣٣، والمصنف ابن أبي شيبة ج ٦ ص ١٧٢، مسند ابن راهويه ج ٣: ص ٨٩٨، منتخب مسند عبد بن حميد: ص ٢٠٩ ومسند احمد ج ٦: ص ١٤٦ وجميع هذه المصادر وغيرها ممن وقع نظرنا عليها كانت تؤكد على ان الرسولﷺ كان يقول الشعر في بعض المناسبات أو في بعض خلواته. بالطبع كان الشعر الملتزم شعر الحكمة والتعقل. والحق لم يكن ما قاله ان يكون شعراً ينهض به ولكن كان نظماً بسيطاً و مثل ذلك ما قاله:

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم

بعد أن سمع - كما تقول السيدة عاشة قول بعض النساء في عرس:

وأهدي لها كبشاً ... صحيح في المريد

وزوجك في النادي ... ويعلم ما في غدِ

فقالﷺ: لا يعلم ما في غد الا الله ألا قلتم:

وكذلك قول الوليد بن الوليد:

«مـا انـتِ الا أصـبع دمـيتِ وفي سـبيل الله مـا لقـيت»[1]

وفيما لو أخذنا هذه الامثله، من مصادرها بالذات، فانها لا تكشف عن المغزى الذي يتمناه الكُتاب المهتمون بالبحث عن أدلة تعزز قيمة الشعر، من خلال أحاديث نبوية،ذلك لأن هذه الأمثلة تبرهن على ان النبي كان لا يحفظ الشعر، إلا القليل جداً منه، بيت شعر، أو نصف بيت، وأحياناً بصورة غير مضبوطة، فيتدخل بعض الصحابة للتصحيح.

إن هذه الواقعة هي حقيقة تأريخية لا علاقة لها بموقف النبي من الشعر، وهو موقف العناية، والاعتزاز. ولكن لها علاقه بأمرين:

أتيـــــناكم أتيـــــناكم فحـــــيونا نحيـــــيكم

انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج ٨:ص ١٢٨ (المحقق).

(١) انظر سيرة ابن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج ٢: ص ٣٢٨ انظر مسند احمد بن حنبل ج ٤:ص ٣١٣. شرح مسلم للنووي ج ١٢: ص ١١٩ مجمع الزوائد للهيثمي ج ٢ : ص ١٣٨ وج ١٠: ص ٣٢٦، فتح الباري ج ١٠:ص ٤٤٧ مسند أبي داود: ص ١٢٦، سنن النسائي ج ٦: ص ١٤٤، صحيح ابن حبان ج ١٤، ص ٥٣٩، احكام القرآن للجصاص ج ٣: ص ٤٩٤، ج ٣: ص ٥٨٧، تفسير ابن كثير ج ٤: ص ٥٥٨ الدر المنثور للسيوطي ج ٣ ص ٢٤٢ وج ٦:ص ٣٦٠ فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٣٧٩،طبقات ابن سعد ج ١:ص ٤٦٦، تاريخ بغداد ج ٥: ص ٢٦، الاصابة لأبن حجر ج ١: ص ٢٢٠ وج ٦: ص ٤٨٦ وج ٧: ص ١٣، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٣: ص ٢١١ (المحقق).

الأول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي...﴾ وهو أمر القرآن.

والثاني: وهو أمر الطبيعة الشخصية للعبقرية المحمدية الخلاقة، المبدعة. وهي طبيعة لا تخلق ما هو أوطأ منها في درجات الابداع، فكيف تحفظه؟!

وثمة اتفاق على ان ذوي النبوغ، وأصحاب الحدوس العبقرية العالية، والعلماء المرموقين، يحجزهم الابداع عن الحفظ، فالحفظ هو صفة المتلقي لا صفة المبدع.

وفي العادة، ان الموهوبين يصطادون معنى القصيدة وروحها بالدرجة الأولى، وقد يعلق بذاكراتهم بيت شعر أو عدة أبيات، أما انهم يحفظون قصائد بأكملها، فذلك وضع نادر، نظراً الى ان اعظم قصيدة قد تحتوي على بيت شعر مؤثر، أوعدة أبيات، فيما لا تبقى للأبيات الاخرى قيمة غير قيمة الاسترسال الشعري.

ولا يحتاج المبدع الى حفظ مائة بيت بسبب إعجابه بمعنىً محمول في بيت شعر واحد، إلا اذا كان الحفظ أقوى لديه من الابداع وجذوة المعرفة، أو مرتبطاً به ابتداءً. على كل حال، ان وجهات النظر هذه ليست حكماً عاماً، إنما هي تقديرات تستعين بالقياس على حالات عديدة لموهبة الابداع.

وعودة الى أصل الموضوع، يمكن التأكيد على ان الموقف العقائدي للنبي كان مائلاً في حب الشعر والشعراء، وفي تحرير الشعراء من اخطاء الغواية، والارتزاق، والجعجعة التي تنبو عن أقوال فارغة، غير مشفوعة بالأفعال.

أي انه حب تربوي، توجيهي، لذلك حظيَ الشعراء برعايته (إن كانوا

مسلمين) الى درجةٍ من التساهل الكبير مثلما حصل في إحتضانه لحسان بن ثابت، رغم اخطائه، وكذلك في تعامله مع الشاعر كعب بن مالك الذي تخلف عن غزوة تبوك، فأوعز الرسول بمقاطعته من قبل المسلمين، وأهله، وزوجته، حتى مضت خمسون ليلة من معاناة العزلة، هُجَر فيها المنافقون هجراً تاماً، إلاّ الثلاثة الذين ورد ذكرهم في الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة.

كذلك، كان موقف النبي متساهلاً مع الشعراء المشركين والهجائين الذين طلبوا الصفح فيما بعد، مثل كعب بن زهير بن ابي سلمى[2] فقد قبل توبته فألقي قصيدته المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... مُتيّم إثرها لم يفد مكبولُ

وما سعاد غداة البين إذ عرضت ... إلا أغنَّ غضيضُ الطرف مكحولُ

وجاء فيها:

---

(١) سورة التوبة، الآية:١١٨ (المؤلف).

(٢) كان كعب فحلاً مجيداً، وكان يحالفه ابداً إقتار وسوء حال، وكان أخوه بجير أسلم قبله، وشهد مع رسول الله فتح مكة وكان أخوه كعب أرسل اليه ينهاه عن الاسلام فبلغ ذلك النبي فتواعده. (انظر الشعر والشعراء ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر). (المحقق).

نُبـئتُ أنَّ رسـول الله أوعـدني والعفـوُ عـند رسـول الله مـبذول

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة ال القـرآن فـيها مواعـيظ وتفـصيل

حتى بلغ قوله:

إيـن الرسـول لـنور يستـضاء به وصـارم مـن سـيوف الله مسلولُ

كـذلك عفـا الرسـول عـن شـاعر الكفـر عبدالله بن الزبعري الذي آذى المسلمين بهجائه، ولم يسلم إلاّ بعد فترة من فتح مكة، وقال بعد إسلامه:

مـنع الـرقاد بلابـلٌ وهمـومٌ والـلـيلُ معـتلجُ الـرواق بهـيمُ

ممـا أتـاني أن احمـد لامنـي فـيه فـبتُ كأنّنـي محمـومُ

إني لمعـتذر إلـيك مـن الـذي أسـديت إذ أنـا في الـضلال أهـيمُ

ومـن الـشعراء الـذين نالـوا جـزاءهم بسبب اسرافهم في معاداة الاسلام ورسـوله، كعـب بـن الأشرف، الـذي قـتل مـن قـبل بعض الصحابة. وكذلك الـشاعر ابوعـزة (عمـرو بـن عبدالله)، الذي وقع اسيراً في معركة بدر، ولم يأتِ أحـد لفدائه، فاستعطف الرسول، فعفا عنه بغير فداء، على ان لا يعود ثانية الى ما كـان علـيه. ولكنه لم يف بالعهد، فجاء مع المشركين في معركة أُحد محرضاً، حتى وقـع أسـيراً ثانـية، حيـنذاك، وحينما استعطف الرسول ثانية، لم يجد غير العقاب العادل، إذ علَّق الرسول على استعطافه: «لا يُلدغُ المؤمن من جُحرٍ مرتين»[1].

---

(١) انظـر الكـافي للكليـني، ج ٢: ص ٢٤١ وفـيه،عـن ابي عـبدالله – الـصادقﷺ – قـال: «المـؤمن حسن، خفيف المؤونة، جيد التدبير لمعيشته، «لايلسع من جحر مرتين» ومثله في

خلاصة الأمر ان الرسول كان ينظر الى دور الشعراء باهتمام خاص، وبرعاية مميزة، ولكن في حدود الدفاع عن العقيدة، والثبات في الموقف. وكان خصماً للتذبذب، والنفاق، والارتزاق، والتقلب، لأن هذه السمات اللااخلاقية تهين مكانة الشعر، وتقلل من قيمة الشعراء، وتسيء الى حركة العدل الاجتماعي.

وفي المفهوم المحمدي تكون مسؤولية الشعر في الحسن والقبح مثل مسؤولية الكلام. وان «الرسول عليه السلام نبه في حديث آخر، الى ان الشعر نوع من الكلام فقد ورد عن عائشة، رضي الله عنها، انها قالت: «سئل رسول الله ﷺ، عن الشعر، فقال: هو كلام فحسنه حسن، وقبيحه قبيح»[1].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: الشعر بمنزلة الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[2].

من لايحضره الفقيه للصدوق ج ٤: ص ٣٧٨، صحيح البخاري ج ٧: ص ١٠٣، سنن ابن ماجة ج ٢: ص ١٣١٨، سنن البيهقي ج ٦: ص ٣٢٠ وج ٩: ص ٦٥ وج ١٠: ص ١٢٩. مجمع الزوايد للهيثمي ج ٨:ص ٩٠، فتح الباري لأبن حجر ج ١٠:ص ٤٣٩، مسند ابي داود: ص ٢٥٠ المصنف لأبن أبي شيبة ج ٨: ص ٨، مسند ابن راهويه ج ١: ص ٣٩٥ مسند عبد بن حميد: ص ٢٤٠ (المحقق).

(١) سنن البيهقي ج ١٠:ص ٢٣٩، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٨:ص ١٢٢ مسند ابي يعلى الموصلي ج ٨: ص ٢٠٠، سنن الدار قطني ج ٤: ص ٩٠ كنزالعمال ج ٣: ص ٥٧٧، تفسير القرطبي ج ١٣: ص ١٤٨، سبل الهدي والرشاد ج ٩:ص ٣٤٦ (المحقق).

(٢) مجيع الزوائد للهيثمي ج ٨: ص ١٢٢ وسنن البيهقي ج ١٠: ص ٢٣٧ (المحقق).

وعلى هذا فان الرسول يحرِّم التكسب بالشعر أو على الأقل يبغضه وينفر منه.

و«لقد صوّر رسول الله ذلك في صورة منفرة، فجعل الانسان الذي يعتمد على لسانه وما يحسنه من قول، في الوصول الى حاجته، كالبقرة تعتمد على لسانها في الوصول الى غذائها. وذلك لينفر من هذا العمل وإذن فالمديح المغالي فيه، ومحاولة التكسب بالقول الخادع، شعراً كان أو خطابة، أو غيرهما من وسائل التبصير والاعلام، ومحاولة الوصول الى الشيء لا عن طريق احقيته، بل عن طريق التغرير والتزوير في القول والخداع والنفاق وتشقيق الكلام، والبلاغة والتفاصح، قد هاجمه الرسول ونفر منه. وكذلك الوصول الى الهدف عن طريق المغالطة والتفاصح، والتلاعب بالألفاظ والمناورة، ولقد نهي رسول الله عن المديح – كذلك – خوفاً على المادح، من التردي في الكذب واعتياده، لهذا قال: إذا كان احدكم مادحاً لا محالة، فليقل: أحسب كذا وكذا، ان كان يرى انه كذلك. والله حسيبه، ولا يزكي على الله احد[1]. أي فليكن حريصاً في حديثه فلا يغالي، ولا يبالغ في كلامه وكأنهﷺ كان ينظر بعين الغيب الى من سيبالغون –فيها يأتي من الزمان– ويأتون في مديحهم بأوصاف لا يتصف بها إلاّ الله، جل شأنه»[2].

---

(١) مسند احمد بن حنبل ج ٥: ص ٤٧، صحيح البخاري ج ٧:ص ٨٧، الآدب المفرد للبخاري: ص ٧٨، رياض الصالحين ليحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ):ص ٦٨٩، تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤٧ (المحقق).

(٢) د. جواد عبدالله مصطفي (المؤلف).

ونظراً الى العلاقة الصميمية بين الغناء والشعر، فقد كان موقف الرسول من الغناء منطوياً على فهمٍ أصيل لطبيعة النفس البشرية، ومع ان مرحلة الاسلام الأولى، كانت مرحلة عقائدية صلبة، وشديدة المعاناة، وكانت تتطلب دفع كافة المؤثرات العاطفية التي تضعف صلابة النفس البشرية، أو تبعدها – كثيراً أو قليلاً – عن مهمتها الكفاحية، كان الرسول يبدي تساهلاً كبيراً مع الغناء، رغم انه – أي الغناء – كان يقترن بأكثر العواطف الانسانية ذاتية، إذ كان الحب موضوعه الأساسي، بكل الألوان الجاهلية التي كَسَتْهُ.

وبما ان الغناء ظل موضوع خلافٍ محتدم بين الفقهاء المسلمين، بين مُحَرِّمٍ له، ومحلل، فإن الاطلاع على موقف النبي الكريم من الغناء يقود الى إدراك أهمية النفس المتفتحة، والعقل المتسامح، والرحابة في تقبل الغناء الذي يناغي النبضات الشريفة للقلب، لا الوساوس والأحاسيس الجنسية المبتذلة، والرخيصة.

أي ان ما عمل الفقهاء – بعض الفقهاء – على تعقيده، كان الرسول يتناوله بنظرة إنسانية رحيمة.

«قال النبيﷺ لأبي موسى الأشعري لما اعجب حسن صوته، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[1] وتعتبر قراءة داود مثالاً شهيراً على تأثير الصوت

---

(١) الأبشيهي: «المستطرف عن كل فن مستظرف» (المؤلف).

انظر المسبوط للشيخ الطوسي ج ٨: ص ٢٢٧ . المغني لعبدالله بن قدامة ج ١: ص ٨٠٧

البشري الموسوق على النفس البشرية، وعلى الحيوانات والطيور، وقد قيل:

«إن داود كان يخرج الى صحراء بيت المقدس يوماً في الاسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، كانت له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدّة، فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة ان تتخلع أوصاله مما كان ينتحب، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته»[1].

وعن ذلك الضرب من التساهل ورعاية الرغبات النزيهة للنفس البشرية روت عائشة ان أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان، والنبيﷺ متغشٍ بثوبه فانتهرهما أبوبكر، فكشف النبي عن وجهه،

فقال ابو موسى لرسولﷺ:

«لو أعلم أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا» وج ١٢: ص ٤٦ وشرح الكبير لعبد الرحمن بن قدامة ج ١٢: ص ٥٥، نيل الاوطار للشوكاني ج ٤: ص ٢١٧. مسند احمد بن حنبل ج ٥: ص ٣٤٩ (ولكنه شكك بين ابي موسى الاشعري وعبدالله بن قيس).

سنن الدارمي ج ٢:ص ٤٧٣، صحيح البخاري ج ٦: ص ١١٢، صحيح مسلم ج ٢:ص ١٩٣، سنن الترمذي ج٥:ص ٣٥٦، سنن النسائي ج ٢:ص ١٨٠، سنن البيهقي ج ٣: ص ١٢ وج ١٠: ص ٢٣٠ مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩: ص ٣٥٩، مقدمة فتح الباري لأبن حجر:ص ٤١٥ ومسند ابن راهويه (٢٣٨هـ) ج ٢: ص ١٣٨، الآحاد والمثاني للضحاك ج ٣: ص ٤٦٩. صحيح ابن حبان ج ٣: ص ١٧٤ وهو يقول (عبدالله بن قيس). اما في ج ١٦: ص ١٧١، يقول (هو ابو موسى الاشعري). شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد ج ٩: ص ٢٣١ (المحقق).

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

وقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[1].

و«أوضح الغزالي ان السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له، مباح، إن كان ذلك السرور مباحاً، كالغناء في أيام العيد، وفي العرس، وفي وقت قدوم الغائب، وفي وقت الوليمة، والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظه القرآن العزيز. وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به. ووجه جوازه ان من الالحان ما يثير الفرح والسرور والطرب، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدفّ والالحان عند قدوم رسول الله:

«طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداعْ

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعْ»

«فهذا إظهار السرور لقدومه ﷺ، وهو سرور محمود، فأظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضاً محمود....»[2].

---

(١) المغني لعبد الله بن قدامة ج ٨: ص ١١٥. المحلي لأبن حزم ج ٥: ص ٩٣ وج ٩: ص ٦١ صحيح البخاري ج ٢: ص١١ سنن النسائي ج ٣: ص ١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي (٣٠٣) ج ١: ص ٥٥٢ صحيح ابن حبان ج ١٣: ص ١٧٧، تفسير القرطبي ج ٢٠: ص ١١٠ (السيرة الحلبية ج ٢:ص ٦٢ وسنن البيهقي ج ١٠ ص ٧٧. والتراتيب الادارية ج ٢: ص ١٣١) من الصحيح من السيرة للعاملي جعفر مرتضى ج ٤: ص ١١٣ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه، (المؤلف) وانظر المبسوط للشيخ الطوسي ج ٨: ص ٢٢٦ الصراط

وقد كان زواج محمدﷺ بخديجة قد أقيم بالفرح والطرب والولائم والموسيقى والرقص.

كذلك قال النبيﷺ لعائشة في زواج احدى الفتيات: «أهديتم الفتاة الى بعلها؟ قالت:نعم. قال:فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لم نفعل. قال: أو ما علمت ان الانصار قوم يعجبهم القول؟ ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم[1]

ولولا الحبة السمرا لم نحلل بواديكم[2]

ويمكن استنباط مدخل الى الفهم الاسلامي لقيمة الغناء من خلال عدم الاعتراض على اللهو البريء، وتذكر المصادر ان النبيﷺ مَرَّ بجارية في ظلٍ

المستقيم لعلي بن يونس العاملي قال:قالوا: ضرب بنات النجار بالدف بحضرته لما قدم المدينة وغنت طلع البدر علينا... ج ١: ص ١٥٨ وبحار الانوار ج ١٩:ص ١٠٥، وهناك من علماء الشيعة من أجاز الغناء كما ذكر ذلك الشيخ الخاقاني في ترجمته للمرجع الديني آية الله الإمام محمد حسين كاشف الغطاء، فهو يقول: انفرد كاشف الغطاء في حُليّة الغناء عن الهوس والضوضاء، كفنٍ له قيمته ولأنه أحد عناصر الحياة والمواهب التي يعسر على الكثير الوصول إليها، وقد كشف هذا الرأي عنده الأستاذ الحوماني في إحدى زياراته له وقد سجله في الجزء الأول من ((وحي الرافدين)) صفحة (٤٦) فقال: «الغناء سواء رافقته آلات الطرب (الموسيقى) أم لا. مباح ما لم يستخف السامع إلى حد يخرج معه عن الكمال فهو إذ ذاك غير مشروع» وقد بسط هذا الرأي وشفعه بكثير من الشواهد التي تعززه عند العقلاء. انظر شعراء الغري ج٨: ١١٥ طبعة مكتبة السيد المرعشي النجفي (المحقق).

(١) انظر نيل الاوطار للشوكاني ج ٦: ص ٣٣٦، سنن ابن ماجة ١:٦١٢ كتاب النكاح باب: ١، بابا الغناء والدف ح ١٩٠٠ (المحقق).

(٢) الغزالي، احياء علوم الدين (المؤلف).

فارع وهي تغني:

هـــل عـــلى ويحكـــم إن لهـــوتُ مـــن حـــرج؟

فقال ﷺ: «لا حرج إن شاء الله»[1](*).

من هنا يتبين ان حرب الاسلام ضد الكفر والشرك والضلال، على شدتها، كانت - في حرب الجدل بخاصة- لا تهمل حق النفس في التمتع بالموسيقي والغناء. أي ان تعامله مع ظاهرةالغناء والرقص والموسيقي، كان مبيناً على تكريم النفس الانسانية، قبل أي إعتبار آخر، ولم لا؟ ألم يكن هدفه النهائي إنقاذ هذه النفس من الاغلال المادية التافهة، ورفعها في فضاءالحرية والتسامي الكريم؟!

الصلابة العقائدية بمواجهة المنافقين:

عندما تنامت مكانة الاسلام، في المدينة، واصبحت مصدر إشعاع وتأثير على خارج المدينة، تفاقمت نشاطات المنافقين ايضاً. وذلك، لأن المناخ

---

(١) ابن عبد ربه: «العقد الفريد» (المؤلف)، انظر كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٣: ص ٣٣٨، تذكرة الموضوعات محمد طاهر بن الهندي الفتني:ص ١٩٧، تاريخ مدينه دمشق لأبن عساكر ج ١٢: ص ٤١٥، الموضوعات (لأبن الجوزي ج ٣:ص ١١٦ ميزان الاعتدال للذهبي ج ١: ص ٥٣٨، الصحيح من السيرة جعفر مرتضى العاملي ج ٤: ص ١١٤. عن السيرة الحلبية ج ٢: ص ٦١ والتراتيب الادارية ج ٢: ص ١٣١-١٣٢ (المحقق).

(*) عزيز السيد جاسم: «إشكالية العلاقة بين السياسة والغناء في الحياة العربية» مجلة الفكر العربي المعاصر العدد عام ١٩٨٦، إذ يرد هذا العرض في المقالة المذكورة. (المؤلف).

الاجتماعي والأيديولوجي العام كان مشجعاً لذلك، بحكم تأسيس المدينة نفسها. وطبيعة التركيبة السكانية لها.

فالقبائل العربية -الأوس والخزرج- كانت في صراع دائم، وحروب متعددة كانت حرب بعاث آخرها[1]، وقد كانت القبائل اليهودية (بنوقينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة) تغذي الصراعات المذكورة، وتسهم في اختلاق أسباب الحرب، أوفي زيادة اشتعالها.

وعندما فرز الاسلام المسلمين عن المشركين، وعامل أهل الكتاب معاملة خاصة تتسم بالتقدير وحماية حرية العقيدة، كانت تتحرك في الجو العام للمدينة عوامل النفاق، وقد كان بطل النفاق والرجل الفعال في المدينة عبدالله بن أبي بن سلول[2]، ذا مصالح ومطامح شخصية بعيدة، كان مؤهلاً لها ومهيئاً قبل دخول

---

(١) كانت الحروب على اوجها بين الاوس والخزرج وكان آخرها معركة (بعاث)، بيد ان الاسلام ازال الاحقاد المضغونة في صدور الفريقين، ولم يكن قبل الاسلام شيء استطاع أن يوقف حروبهم المستمرة، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة انفال، الآيه: ٦٣) (المحقق).

(٢) لم يظهر الرسولﷺ كرهاً لأحد، وكان يغفر لمن أساء له إلا أن أفعال عبد الله بن أبي بن السلول رأس المنافقين في المدينة والذي حارب الإسلام حرباً لاهوادة فيها جعل ذلك من الرسول أن يشتد عليه كرهاً فحينما مات هذا بن أبي السلول حضر النبيﷺ جنازته، فقال عمر لرسول اللهﷺ: يا رسول الله ألم ينهك الله أن تقوم على قبره؟ فسكت، فقال: يا رسول الله ألم ينهك الله أن تقوم على قبره؟ فقال له: ويلك، وما يدريك ما قلت؟ إني قلت: اللهم احش جوفه ناراً واملأ قبره ناراً وأصله ناراً، قال أبوعبدالله عليه السلام: فأبدى من

النبي الكريم المدينة.

إذ أن عبدالله هذا كان يطمح الى ان يكون ملكاً أو أميراً على المدينة، وفي ذهنه صور الممالك والامارات الموجوده داخل الجزيرة وخارجها.

واسعفته امكاناته الشخصية، ودهاؤه، وعلاقاته الاجتماعية الواسعة، وقدرته على معالجة الصراعات الداخلية بين الأوس والخزرج. في تعزيز مكانته السياسية، ولكن حين جاء محمدﷺ منوراً يثرب، ومحققا التفافاً جماهيرياً اسلامياً واسعا حول دعوته، بدأت عوامل الصراح تأخذ مجرى جديداً، فقد وجد عبدالله بن أبي في محمدﷺ خطراً كبيراً ضد طموحه الملكي، ومصالحه السياسية.

ولو كان وجود محمدﷺ في المدينة مقتصراً على التبشير بالأفكار الاسلامية فقط: لهان الأمر، ولكن ابن أبي رأى ان ما يحصل في المدينة هو عملية تأسيس اجتماعي – سياسي جديد يعيد صياغة المدينة من العمق الاجتماعي لها.

وقد كانت المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين، باعتبارها أول واكبر واعظم عملية تضامنية على أساس العقيدة، جرت في التأريخ، هي التي أثارت الاضطراب

رسول الله ما كان يكره. انظر مجمع الفائدة للمحقق الأردبيلي ج٢: ص ٤٣٨، نسخة محققة عن الوسائل باب (٤) من أبواب صلاة الجنازة حديث(٤). وانظر أيضاً الحبل المتين للبهائي العاملي: ص٦٨ والكافي للكليني ج٣: ص١٨٨، وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج٣: ص ١٩٦ وسائل الشيعة للحر العاملي ج٣: ص١٨٨ وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج٣: ص ١٩٦، وسائل الشيعة للحر العاملي ج٣: ص٧١(المحقق).

في نفس (أبن أبي) وحرَّضَت في نفسه البغضاء والعداوة ضد الاسلام.

وقد استغل بتأثير اليهود ودعمهم، كافة التناقضات الداخلية في مجتمع المدينة، لاعلان حربه ضد النبي، لكنه لم يستطع مواجهة التيار الاسلامي الزاحف، والذي ضم الى صفوفه ابن (عبدالله بن أبي) نفسه[1].

وحين تحقق الانتصار المبين للاسلام في معركة بدر الكبرى، لم يجد (عبدالله بن أبي) أمامه غير طريق إظهار الاسلام وإخفاء الشرك والكفر، تجسد في شخصية (عبدالله بن أبي) تجسداً تاماً طوال الفترة المحمدية في المدينة، وكأنه كان الشيطان الذي لا بد من وجوده بمواجهة وجود النبي الكريم، وظلت هذه المواجهة في فترة زمنية انتهت بموت (ابن أبي)، واستكمال انتصار النبي في جميع الجبهات (ومنها جبهة المنافقين)، فجاء موت النبي، بعد موت ابن أبي،وكأنه إفادة إلهية، وتعبير رمزي عن إنتصار الحق، إضافة الى أنه كان حقيقة واقعة.

ومن الممكن رصد الخط البياني للنفاق، ومسيرة المنافقين في سلوك ابن أبي وحياته، فهو إذ انتمى للاسلام شكلياً بعد إنتصار الاسلام في (بدر)، كان يخفي رأسه في رمال المسايرة عندما يلمس بنفسه قوة الاسلام، وكان يبرز رأس العداء حينما كان يلمس بنفسه تعرض الاسلام الى محنةٍ أو بلاء.

ومن الطبيعي ان محنة الاسلام في غزوة أحد، بانكسار جيش المسلمين

---

(١) السير الكبير للشيباني ج ١: ص ١٠٧ أراد قتل أبيه فنهاه الرسولﷺ وانظر إكمال الكمال لأبن ماكولا (٤٧٠ هـ) ج ٢: ص ١٤١ (المحقق).

وجرح النبي الكريم، كانت فرصة النفاق وأهله[١].

فقد وجد الظرف المناسب لحوك مؤامرة ضد النبي وضد الاسلام، وذلك بتحريض اليهود على خرق المعاهدة[٢]، وبالتنسيق مع المشركين خارج المدينة، وإقامة جسور مع بعض رؤوس قريش، والسعي من أجل استعادة مكانته القديمة.

وتعددت أساليب أبن أبي في النيل من الاسلام، وإرباك صفوف المسلمين، فهو في إنسحابه من معركة أحد قبل ان تبدأ، كان قد وجهَ ضربةً ضد قوة الاسلام العسكرية، كان يهدف من ورائها الى دفع الآخرين للانسحاب، واضعاف المسلمين، وخلق بلبلة في صفوف المتبقين منهم.

في حين آثر في غزوة الاحزاب الاخلاد الى الصمت، ولكنه الصمت الخطير، صمت المكيدة. حتى اذا ما نجحت عزوة بني المصطلق، وجاء الاسلام بفوزٍ جديد، اشتدت مؤامرة النفاق، فكان حديث الافك[٣]، والمسّ بمكانة النبي، من خلال الطعن بسلوك عائشة. ذروة المؤامرة ضد النبي.

ورغم ان كبار الصحابة ارتأوا قتل (ابن ابي) إلا ان الرسول كان قد عَبَّر

---

(١) انظر تفسير الثعالبي ج ٢: ص ١٠٠، الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٢: ص ٣٨ والثقات لأبن حبان ج ١: ص ٢٢٢ (المحقق).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٢: ص ٢٩ (المحقق).

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٧:ص ٧٦ وج ٩: ص ٢٣٤ بحار الانوار ج ٧٦: ص ١٠٧ (المحقق).

عن صبر عجيب في التعامل الرفيق معه.

وفقد المنافقون أي توازن، فجاهروا في مناوأتهم الاسلام في غزوة تبوك، وبذلوا جهوداً تيئيسية كبيرة لافشال الغزوة، ولدفع بعض المسلمين للتخلف عنها بحجج مختلفة.

وقد كانت طبيعة ظروف غزوة تبوك مشجعة لتلك الجهود العدائية، خاصة وان ارتفاع درجة الحرارة، وبعد المسافة، والتوجه لمقاتلة عدوٍ اجنبي كبير وقوي، هي من العوامل التي لم تكن لصالح قوة مهاجمة.

وقد تآمر بعض المنافقين لاغتيال النبي، إلا ان العناية الربانية التي شملت النبي أحبطت المسعى الاجرامي، وكانت انتصارات تبوك قد عَرَّت المنافقين تعرية تامة.

وقد بلغ خبث المنافقين ودهاؤهم مبلغاً كبيراً إذ عمدوا الى بناء مسجد (الضرار)[1] لاصطياد المسلمين، ونشر الاراجيف، وتحريف القرآن، واشاعة

---

(١) أسماء بناة مسجد الضرار:

خذام بن خالد -من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف- وُبنَّي من دارهِ.

ثعلبة بن حاطب من بني أمية بن يزيد.

معتب بن قشير - من بني ضبيعة بين زيد.

ابو حبيبة بن الازعر - من بني ضبيعة بن زيد.

عباد بن حنيف - أخو سهم بن حنيف من بني عمرو بن عوف.

جارية بن عامر بن مجمع بن العطاف وهو حمار الدار - من بني ضبيعة.

مجتمع بن جارية بن عامر - من بني ضبيعة.

البلبلة الفكرية، ولا عطاء تزكية للمسجد المذكور لجأ المنافقون الى حيلة دعوة النبي للصلاة بهم فيه، ودعا بقميصه ليلبسه، وكاد ان يذهب لولا ان نهاة الوحي عن ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فأوعز الرسول بحرق المسجد وهدمه.

ولخطورة المنافقين، فان القرآن الكريم «شملهم في أول القرآن بثلاث عشرة آية بينما شمل المؤمنين بأربع آيات والكافرين بأيتين. ويضاف الى ذلك ان القرآن فصل أمر المنافقين في مواضع عديدة لا تقل في مجموعها عن عُشْر القرآن.

زيد بن جارية بن عامر – من بني ضبيعة.

نبتل بن الحرث – من بني ضبيعة.

بحزج – من بني ضبيعة جد عبدالله بن حنيف.

بجاد بن عثمان – من بني ضبيعة.

وديعة بن ثابت – من بني امية بن زيد...(المؤلف).

(١) سورة براءة، الآيات:١٠٧ – ١١٠ (المؤلف).

وترجع هذه الأهمية الى أمرين:الأول ان أمر المنافق أشد خطورة من أمر الكافر والثاني توجيه النظر الى اهمية علاج أمرهم».

و«الواقع ان المنافق والكافر في الكفر سواء، إلا ان المنافق يختص زيادة على الكفر بأمور منكرة، منها:

١- ان المنافق قصد التلبيس والكافر لم يقصد ذلك.

٢- ان الكافر لم يرض لنفسه الكذب بل استنكف منه، والمنافق رضي به.

٣- ان المنافق يفقد بنفاقه خلق الشجاعة والشهامة ويتردى من نفاقه في الخصال الدنيئة كالجبن والخداع والتردد، ثم فيما هو أشد خطراً من الكذب كالاستهزاء بالله وآياته وظن السوء بالله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[١].

٤- ان المنافقين كانوا أشد خطراً على المؤمنين من الكافرين المجاهرين لأن المؤمن كان يتوقى الشرك المجاهر و كان يخالط المنافق لظنه بايمانه، و كان بحكم المخالطة يفشي أسراره....»[٢].

وتشير الآيات القرآنية إلى أوصاف المنافقين وجزائهم، وتحذر منهم أشد التحذير، في آيات كثيرة، مما يُستَدلّ منه على خطر المنافقين في كل زمان وفي أي مكان:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥ (المحقق).

(٢) ابراهيم علي سالم: «النفاق والمنافقون في عهد رسول الله» (المؤلف).

سورة البقرة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠)﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٧٦).

سوره آل عمران:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَاأَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٨١)﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٨٩)﴾

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)﴾.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾.

سوره المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ(٤١)﴾

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ(٥٣)﴾.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾.

سوره الانفال:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ... (٤٩)﴾.

سوره التوبة:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ

يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُّ إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللهُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهَّ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللهَّ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُّ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُّ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَّ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَّ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُّ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُّ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهَّ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا

وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾.

سورة هود:

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾.

سورة النور:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)﴾.

﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

سورة العنكبوت:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾.

سورة الأحزاب:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا

جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)﴾.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠)﴾.

سورة محمد:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ

عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾.

سورة الفتح:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

سورة المجادلة:

﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ

عَـلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَـذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْـوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُـمْ مِـنَ اللهِ شَـيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَـثُهُمُ اللهُ جَمِـيعًا فَـيَحْلِفُونَ لَـهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾.

سورة الحشر:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَـئِنْ أُخْـرِجْتُمْ لَنَخْـرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَـشْهَدُ إِنَّهُـمْ لَكَاذِبُـونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (١٣)﴾.

﴿لاَ يُقَاتِلُـونَكُمْ جَمِـيعًا إِلاَّ فِي قُـرًى مُحَـصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِـنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

سورة المنافقون:

﴿إِذَا جَـاءَكَ الْمُـنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ

وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٨)﴾.

سورة التحريم:

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)﴾.

سورة المدثر:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً .... وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (٣١)﴾[1].

---

(١) المصدر: (الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم: عُني بجمعه وتفصيله: محمد فارس بركات). (المؤلف).

إن تأسيس جبهة الاسلام القوية الوطيدة، سياسياً وعسكرياً ما كان ليتحقق إلا بعد شن كفاح عقائدي متواصل ضد المنافقين، ذلك لأن وجودهم داخل الصف الاسلامي ظاهرياً كان يسبب للاسلام متاعب كثيرة.

وحيث ان تنقية المناح الاسلامي من شوائب النفاق كانت مهمة استراتيجية، فان النبي قدَّم دروساً بليغة لأصحابه وللمؤمنين في تشخيص المنافقين، باعتماد العلامات البيّنة، ومن خلال المواقف الملموسة.

ومن الملاحظات قوة الصراع العقائدي في فضح المنافقين كانت تخضع عبر الحكمة المحمدية الى المسؤولية الاخلاقية، التي حددها القرآن الكريم برسالة الرحمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

ويمكن استنباط الدرس من المفارقة الواضحة في شدّة عداوة المنافقين للنبي الكريم، وأذاهم على الاسلام، وفي موقف النبي منهم.

لقد ردَّ عليهم من خلال الموقف القرآني الذي كرسته الآيات المحكمات، في شدةٍ عقائدية صارمة لا تهاون فيها، بلغ فيها الأمر رفض اعتذار بعض المنافقين، ورفض الصلاة على الميت منهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

وخشية ان تتحول الشّدة العقائدية، الى اعلان حرب قد تشمل أناساً

---

(١) سورة انبياء، الآية: ١٠٧ (المحقق).

(٢) سورة براءة، الآية: ٨٤ (المؤلف).

مسلمين، غير منافقين، وكذلك خشية الفظاظة وسيطرة الظن والمنطق الاتهامي الجزافي، كان النبي الكريم شديد الصبر يرفض الانجرار الاسلامي الى ردود الفعل، والمواقف الانفعالية.

إن الشدة العقائدية ضد النفاق وأهله، رافقها في التطبيق الاسلامي جانب الرحمة، التي عُرِفَ بها، فـ «الرسول الكريم كان أبعد الناس عن حب الانتقام والأخذ بالثأر، وهو الذي صبر اعظم الصبر على أذى المشركين واعوانهم واشتد الأذى بالطائف حتى اغروا به السفهاء والعبيد يسبونه ويصيحون به،وقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه، فدعا الله ان يهديهم وقال: «اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون»...»[1].

إن هكذا خلفية إنسانية سامية، كانت تستبعد حتى سلوك الرد على النفاق بأساليب مشابهة، و«قد كانت القاعدة الاساسية التي اتخذها الرسولﷺ في جميع شأن المنافقين واحوالهم تتلخص في معاملتهم حسب ظاهرهم. فكان يجري أمرهم على هذا الظاهر ولا يُبالغ في التفتيش عن بواطنهم ولا يسعى الى هتك أسرارهم. وكان يقول:«إن الله تعالى يتولى السرائر...»»[2].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى:١٠٥، وسنن النبيﷺ للسيد الطباطبائي: ص ٤١٣، تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة: ص ١٥٠، تفسير مجمع البيان للطبري ج ٤: ص ٢٧٩ ، تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج ٦: ٦٠.

(٢) فتح الباري لأبن حجر ج ١٢: ص ٢٤١. فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٣: ص ٢٢، كشف الخفاء للعجلوني ج١: ص ١٩٢، الأحكام للآمدي ج١: ص ٢٨١،

وحين جاءه رجل يقال له حرمله ذاكراً: «إنه كان لي اصحاب من المنافقين وكـنتُ رأساً فيهم أفلا آتيك بهم؟» أجابه: «من أتانا استغفرنا له، ومن اصرَّ فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد ستره»[1].

من هذا الدرس كان المؤمنون يتعلمون رفض الخيانة حتى وإن كانت تضر معـسكر الاعـداء وتـنفعهم، وكانـوا يتعلمون نزاهة الاسلوب، واحترام أسرار الانسان وستره، فالهداية هداية الضمير وليست إرغاماً.

وقد أبدى النبي حزماً كبيراً في رفض الحكم على الظن، قاطعاً الطريق على القسوة والتطرف اللذين يهددان الحكمة والنهج العادل، من قبل أي مؤمن كان.

ومـن بين الامثلة في ذلك: «بعث رسول الله ﷺ من المسلمين الى المشركين فقاتلـوهم قـتالاً شديداً فمنحوهم أكتافهم فحمل رجل من المسلمين على رجل مـن المـشركين بالـرمح فلما غشيه قال أشهد ألا إله الا الله إني مسلم فطعنه فقتله فـأتي رسـول الله ﷺ، فقـال يا رسول الله هلكت. قال: وما الذي صنعت مرة أو مـرتين فأخـبره بالـذي صـنع. فقـال لـه رسول الله ﷺ: فهلا شققت عن بطنه فعلمـت مـا في قلـبه . فقـال: يا رسول الله لو شققت عن بطنه أكنت أعلم ما في قلبه. قال: لا، فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه. ثم سكت عنه

ميـزان الاعـتدال للذهبـي ج ٢: ص ٣٤٧. سير اعلام النبلاء للذهبي ج ٢١: ص ٥٠١ وهي كلمة شاعت حتى عند المؤرخين وأصحاب السير(المحقق).

(١) أنظر تفسير ابن كثير ج ٢: ص ٣٩٩، تاريخ مدينه دمشق لأبن عساكر ج ٦٧:ص ٩٧.

رسول الله ﷺ، فلم يلبث يسيراً حتى مات»[1].

و«أيا ما كانت القصة سواء تعددت أو تعددت صورها برواية الرواة فانه يتضح منها في جلاء لا يتطرق اليه الشك ان القلوب أمرها مغلق لا يعلمه الا الله. وكان في تعبير الرسول الكريم عن استحالة الاطلاع على القلوب أكبر العظه والعبرة»[2].

ولم تتوقف الدروس التربوية عند حدٍ معين، في كيفية التعامل مع المنافقين، فحين مات شيخ المنافقين ورمزهم الاجتماعي والسياسي (ابن ابي)، وأراد ابنه - وكان مسلماً- قميص الرسول لتكفين ابيه به، لم يتردد الرسول في ذلك فقال عمر: «لم تُعطي قميصك للرجس النجس؟...» فأجابه: «إن قميصي

---

(١) ابراهيم علي سالم (المؤلف).

وانظر سنن ابن ماجة ج ٢: ص ١٢٩٦ والمستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣:ص ١١٦، مجمع الزوائد للهيثمي ج ١: ص ٢٧. المصنف لأبن ابي شيبة الكوفي ج ٧: ص ٦٥١ وج ٨:ص ٤٦٢ بغية الباحث للحارث بن أبي أسامة: ص ٢٠، السنن الكبرى للنسائي ج ٥: ص ١٧٦ ومسند أبي يعلى الموصلي ج ٣: ص ٩٢. المعجم الكبير للطبراني ج ٢: ص ١٧٧، الفايق في غريب الحديث للزمخشري ج ٢: ص ٣٤٥ كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٥:ص ١٤٨، تفسير القرآن للصنعاني ج١: ص ١٩٦، جامع البيان ابن جرير الطبري ج ٥: ص ٣٠٤. اسباب نزول الآيات للواحدي:١١٦ تفسير القرطبي ج ٥: ٣٣٧ الدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٢٠١ . الاصابة لأبن حجر ج ٦: ص ٤٠٣ غريب الحديث لأبن سلامة (٢٢٤ هـ) ج ١: ص ١٦٣ (المحقق).

(٢) المصد نفسه (المؤلف).

لا يغني عنه من الله شيئاً فلعل الله أن يدخل به ألفا في الاسلام»[1]. وكان المنافقون لا يفارقون عبدالله،فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو ان ينفعه اسلم منهم يومئذ ألف»[2].

إن نزاهة التعامل الانساني في النهج المحمدي تتجلى ببهاءٍ في المواطن الصعبة، بمعنى انه إذا كان تعامله مع شيخ المنافقين، ومع رموزهم، برحمة، فان تعامله مع الانسان عموماً هو مثال للألتزام بالتكريم الإلهي لقيمة الانسان، وحقوقه التي لا تُمس.

إنتصار العقيدة الفاصل:

إن التلاحم بين الخطوات العقائدية الاسلامية، والانتصارات العسكرية، والتطبيقات الاجتماعية المتقدمة جداً، بصورة الضفيرة الواحدة المؤلفة من اجزائها الموحدة، هو مظهر رئيسي من مظاهر وحدة النبي والرسول والقائد والانسان في حقيقة محمد العظمى.

ومنذ الهجرة، والى حين حجة الوداع، تجلى التلاحم العضوي والطبيعي، في التنامي المنهجي المتكامل، والمتصاعد حلقة بعد حلقة، ومرحلة بعد مرحلة،

---

(١) انظر تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني ج١: ص٦١٢، أسباب النزول للواحدي: ص١٩٣، روح المعاني للآلوسي ج١٠: ص١٥٤، الحدائق الناظرة للشيخ يوسف البحراني ج ١٠:ص ٤١٥، تفسير القرطبي ج ٨: ص ٢٢١ (المحقق).

(٢) المصدر نفسه(المؤلف).

بنظمٍ فائق التكوين.

إن هـذه الـسمة الـبارزة هـي نـتاج الرابطة بين الاصطفاء الألهي والموهبة المحمديـة، تلـك الرابطة، التي بدونها لا يمكن تفسير سير الأمور في عالم الوثنية بالـصورة التـي تحققـت فيه صيحة الله اكبر في انتشارها الهائل، وبسحق الاصنام والاوثـان، وأهـم الخـصائص الـسياسية والاقتـصادية والاجتماعـية، والثقافـية للعصر الوثني - الربوي.

وقـد يحـار المـتابع - نقدياً- في دراسة تسلسل المراحل، أيهما الأسبق، على صـعيد الغـزو العـسكري، أم عـلى صعيد تسليط الدعوة، أم على صعيد تأسيس مقومات البناء الاسلامي الجديد.

وهـذه الحـيرة ليـست ناجمـة عن التشويش في علاقة تلك المراحل، أو عن ضـبابيتها، بـل هـي ناجمـة عـن شفافية العلاقة التسلسلية، وتداخلها الانتظامي بصورة يصعب فرز الأسبقيات على صعيد نقل الخطوات في هذا الميدان أو ذاك، عسكرياً وعقائديا، واقتصادياً، وتعبوياً.

من حيث الوقائع المثبتة تأريخياً - وهي وحدها التي تجلو لنا طريق الفهم- تـزامنت قمـتان (إذا مـا جـاز استخدام التزامن هنا كمصطلح تمييز لا مصطلح تفـريق)، قمـة الأنتـصارات عـلى الصعيد القومي، والتي كانت غزوة تبوك آخر تعبـير لهـا في عهد النبي، وقمة الحسم العقائدي الذي اعقب غزوة تبوك، والذي عـرض نفـسه بنفـسه في حج أبي بكر الصدّيق، وفي خطبة علي بن أبي طالب يوم عرفة، بعد أن حضر في أثر أبي بكر الصديق بإيعاز من الرسول.

إن الحسم العقائدي في قمته الممثلة بمنع المشركين من الحج الى الكعبة كان ذروة النجاح العربي الاسلامي، بمعناه الاستقلالي(قياساً الى عصر المؤثرات الأجنبية المعادية للعرب سابقاً) وهو قمة الفرز على مستوى المقدسات الدينية، فالكعبة بيت الله، الذي لايؤمه غير المسلمين، أما المشركون فلا مكان لهم فيها.

كانت لذلك خسائر جمة، لأن موسم الحج موسم صيد وفير على الصعيد التجاري، وكان المشركون الذين يأتون الى مكة، وزيارة الكعبة، يشكلون رصيداً كبيراً للنشاط التجاري، والربح الوافر،لكن العقيدة آذنت، باستكمال نفسها، فلتسقط إعتبارات المال، والمصالح الاقتصادية، أمام سلطان العقيدة.

لحق علي بن أبي طالب بأبي بكر الذي خرج بثلاثمائة مسلم الى مكة، سأله أبوبكر، وكان بـ(منىً) والناس يؤدون مناسك الحج: «أميرأم مأمور!؟ فأجابه علي: بل مأمور».

كانت في عقله وصدره رساله خطيرة هي رسالة الوحي الى النبي، التي اختص بها علياً بن أبي طالب، للتبليغ بها[1].

---

(١) انظرالسيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محي الدين عبدالحميد ج٤: ص٩٧٢، وانظر مناقب أمير المومنين محمد بن سليمان الكوفي ج:١ ص٤٦٩، السيرة النبوية لأبن كثير ج:٤ ص ٦٩، البداية والنهاية لأبن كثيرج:٥ ص٤٥ شيخ المضيرة ابو هريرة للشيخ محمود أبوريه: ص١١٠، تفسير ابن كثير ج:٢ ص٣٤٧، تفسير القرطبي ج:٨ ص٦٧، وخَرّجه العلامة الاميني في الغدير ج: ٦ ص٣٤٩ عن تفسير الطبري ج١٠: ص ٤٧ وتفسير الكشاف ج: ٢ ص ٢٣وعمدة القارئ ج: ٤: ص ٦٣٣ (المحقق).

فكان ذلك التوافق بين قرار الحسم، الذي جسّدته سورة التوبة، وبين شخصية علي بن أبي طالب المعروفة بالحسم، فكان مبلغاً برسالة النبي، التي اطلقتها بكل مدى الوضوح والتحديد سورة التوبة.

تلا علي بن ابي طالب سورة التوبة: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ...﴾ إلى آخر السورة[1].

بعد ذلك، وقف عليعليه السلام هُنيهَةً ثم صاح بالناس.

«أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله صل الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته».

صاح علي في الناس بهذه الأوامر الأربعة، ثم أجَّلَ الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم الى مأمنهم وبلادهم، ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالبيت عُريان، ومن يومئذ وضع الأساس الذي تقوم عليه الدولة الاسلامية»[2].

---

(١) سورة التوبة (وتسمى براءة أيضاً) (المؤلف).

(٢) محمد حسين هيكل(المؤلف)،انظر السيرة النبوية لأبن هشام،تحقيق محي الدين عبد

كان مسار الأمور يتجه إلى اللحظة الأخيرة، إلى حُجة الوداع. فحين يأتي الرسول الكريم في موسم الحج، فينبغي أن تكون الكعبة بيت الله التام، حيث لا يوجد عُباد أصنام، وكفره، ومشركون، حيث يستكمل التوحيد نفسه في نفوس وعقول وأفواه الحجيج.

ان قدوم محمدﷺ الحاج، كان ينبغي ان تتوفر له النتيجة المنطقية لكفاحه النبوي- الرسالي- الخالد، في وحدة الحجيج، عقيدة وسلوكاً وايماناً، وتعاهداً على المستقبل الاسلامي.

معنى ذلك ان هذه الوحدة التطابقية ثمرة النضال الخارق، لاتسمح بالازدواجية، بالاثنينيّة، بالتناقضيّة العدائية التي حسمها الاسلام حسماً تاماً فلم التسامح- إذن – في حضرة بيت الله، مع أعداء الله؟

الحميد ج٤: ص٩٧٣، سنن النسائي ج ٥ ص٢٣٤، والمستدرك للحاكم النيسابوري ج: ٢ص٣٣١ وج ٤ ص١٧٩، وسنن البيقهي ج ٩ ص ٢٢٥ وفتح الباري ابن حجر ج٨ ص٦٦، المصنف ابن ابي شيبة الكوفي ج ٤ص٤١٩ وج ٨ص٥٤١، المعجم الأوسط للطبراني ج ١ص٢٨٤، كنزالعمال ج ١٠ ص ٥١٦ خصائص الوحي المبين للحافظ ابن البطريق (٦٠٠هـ) ص١٥٨، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج١٠ص٨٣، احكام القرآن للجصاص ج ٣ ص١١٥، تفسير ابن كثير ج٢: ص٣٤٧، ابوهريرة للسيد شرف الدين الموسوي العاملي: ص ١١٨ الكامل لأبن عدي ج٣:ص ٢٥٦ انساب الأشراف للبلاذري:ص ١٥٤ البداية والنهاية ج٥: ص٤٤، السيرة النبوية لأبن كثير ج ٤: ص٦٩ (المحقق).

ولم تكن حجه الوداع، عقب الابلاغ بسورة (التوبة) إلاّ النتيجة المنطقية لتصفية التناقض الداخلي في مجتمع شبه الجزيرة العربية (الذي كان بصور مجتمعات صغيرة متعددة قبل الاسلام) أي انه كان - أيضاً - ثمرة الخطوات المتلاحقة في مكافحة المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، داخل معسكر الاسلام.

و« إنك إذ تتلو صدر « براءة » وتعيد تلاوته بامعان وروّية لتشعر حقاً بأنه الأساس المعنوي في أقوى صورة لكل دولة ناشئة تقوم، وتزول «براعة» كلها بعد آخر غزوات النبي، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون إنضمامهم الى الدين الجديد، وبعد ان اصبح الحجاز كله ومعه تِهامة ونجد منضوياً تحت راية الاسلام، وبعد ان اعلن كثير من قبائل الجنوب في شبه الجزيرة الأذعان لمحمدﷺ والإنضواء الى دينه، يجلو الحكمة التأريخية في نزول الآيات التي تنتظم أساس الدولة المعنوي في هذا الحين، فالدولة لتكون قوية، يجب أن تكون لها عقيدة معنوية عامة، يؤمن بها أهلوها ويدافعون جميعاً عنها بكل ما أوتوا من عتاد وقوة»[1].

هكذا اتجهت المسالك الى النقطة الجامعة: مسلك بناء العقيدة، مسلك بناء الدولة العربية الاسلامية، مسلك الفرز العقائدي والسياسي، ومسلك تنقية بيت الله من حج الشرك التقليدي القديم، وكانت حجة النبي هي البؤرة المركزية التي تجسدت فيها انتصارات الاسلام، عقائدياً، وسياسياً وتنظيمياً.

---

(١) محمد حسين هيكل (المؤلف).

وبأكثر من مائة ألف مسلم تحرك الركب النبوي من المدينة الى مكة، في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، وقد اصطحب النبي معه جميع نسائه، وفي تلك الحجة الأخيرة، حجة الوداع، كانت تظاهرة الاسلام الفاصل التأريخي الأعظم، الذي تلته الملاحم التأريخية، ملاحم إنتشار الاسلام شرقاً وغرباً، بصورة عجيبة، تتضاءل دونها الأساطير.

وكانت خطبة الوداع خلاصة العقيدة المنتصرة، وفيها قَرِنَ النبي الكريم، تلك التظاهرة الاسلامية الفاصلة تأريخياً، بانتهاء مهمته، ملمّحاً في ذلك ومشيراً إلى أن حياته الدنيوية ستلفُّها الوفاة، فقال فيها:« أما بعد أيها الناس: اسمعوا منّي، أبين لكم، فإني لا أدري لعلي ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا»[1].

وأفردت خطبة الوداع لقضية (المال) مجالاً خاصاً، أدان فيه الربا إدانةً قاطعة: «إن ربا الجاهلية موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضي الله أنه لا ربا، وإن أول ربا أبدأ به، ربا عمي العباس بن عبد

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٨ ص٣١٠، الكافي للكليني ج ٧ ص٢٧٣ من لايحضره الفقيه للشيخ الصدوق، ج ٤ ص٩٣، تحف العقول (مرسل) لأبن شعبة الحراني ص ٣٠، الآحاد والمثاني للضحاك ج ٦ ص ٩٢، سنن الكبرى للنسائي ج ٢ ص٤٢٥، المعجم الاوسط للطبرائي ج ٣ ص٤٧ وج ٢٤ ص ٣٠٨ كنز العمال ج ٥ ص١٢٨ التفسير الصافي الفيض الكاشاني ج ٢ ص٦٧ الاحكام لأبن حزم ج ٣ ص٣٠٠ (المحقق).

المطلب»[1].

وقدَّم النبي العظيم مثالاً يتفجر حكمةً. في تطبيق العدل على نفسه وعلى أهله أولاً. لأن منطق العدل الحقيقي يبتديء من الذات، ويأخذ مجراه على الذات، وبذلك تستطيع الذات البشرية ان تكون قادرة على تطبيق العدل على الآخرين.

وكان النبي - في ذلك- يُعلِّم الصحابة وكبار المسلمين، كيما يكونوا مصدر اقتداء من بعده. ولذلك نراه في خطبته الأخيرة في مرض موته يشدد على الجزاء والمحاسبة ابتداءً من نفسه، قائلاً:

«فمن كنت جلدت له ظهراً، فهذا ظهري فليستفد منهُ، ومن كنت شتمت له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذتُ له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه...»[2] ثم

---

(١) انظر سنن ابن ماجة ج ٢:ص ١٠١٥، سنن ابي داود ج ٢: ص ١١٠ السنن الكبرى للبيهقي ج ٥: ص ٢٧٥، السنن الكبرى للنسائي ج ٦: ص ٣٥٣ شرح نهج البلاغه لأبن أبي الحديد ج ١: ص ١٢٦، جامع البيان لأبن جرير الطبري ج ٣: ص ١٤٩ اسباب النزول للواحدي: ص ٥٩، زاد المسير لابن الجوزي (٥٩٧هـ) (مرسل) ج ١:ص ٢٨٧، تفسير ابن كثير ج ١: ص ٣٣٩، التاريخ الكبير للبخاري ج ٦: ص ٣٠٦، تاريخ مدينة دمشق ج ٤٥: ص ٤٠٣ (المحقق).

(٢) يستقد: يطبق القصاص (من القود) (المؤلف).

وانظر تاريخ الطبري ج ٢:ص ٤٣٣، البداية والنهاية لأبن كثير ج ٥: ص ٢٥١، والسيرة النبوية لأبن كثير ج ٤: ص ٤٥٧، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ٢٢٥، مجمع

أضاف الى ذلك عبارة فذة، في الدعوة الى أخذ الحق، والمحاسبة العادلة، وتشجيع طالب الحق تشجيعاً لا مثيل له، باصطفائه من قبل الرسول حبيباً. «ألا وإن من أحبكم أليَّ أخذ مني حقاً، إن كان له، أوحلّلني فلقيت ربي وأنا طيب النفس...»[1].

وفي خطبة الوداع، وآلاف المسلمين في الزي الواحد المتواضع، في المساواة الحقة أمام النظر الأهي، والحضور المحمدي الجليل. جاءت حكمة الاسلام الشاملة، في إيجاز بليغ، وهي حكمة المساواة بين البشر أجمعين، تحت خيمة الايمان بالرب، وكان ذلك التوكيد العقائدي إشارة بليغة الى أممية الاسلام الذي أنجز الاستقلال القومي للعرب، في مرحلته الاساسية، وها هو يعلن انطلاقته العالمية الرافضة للعرقية، والعنصرية والشوفينية، فالبشر أسوياء، وكلهم ابناء آدم، وآدم من تراب. قال:

«أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من

الزوايد للهيثمي ج ٩: ص ٢٦، الحديث الطوال للطبراني: ص ١٠٦. المعجم الأوسط للطبراني ج ٣: ص ١٠٤ وله في المعجم الكبير ج ١٨: ص ٢٨٠ شرح نهج البلاغه، لأبن أبي الحديد ج ١٣: ص ٢٨، تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٤٨: ص ٣٢٣ ميزان الاعتدال للذهبي ج ٣: ص ٣٨٢ لسان الميزان لأبن حجر ج٤: ص ٤٦٨ (المحقق).

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ٤٨: ص ٣٢٤، المعجم الكبير للطبراني ج ١٨: ص ٢٨٠ والمعجم الاوسط للطبراني ج ٣: ص ١٠٤، الأحاديث الطوال للطبراني: ص ١٠٦ المصنف لعبدالرزاق الصنعاني ج ٩: ص ٤٦٩، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩: ص ٢٦، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ٢٢٥ (المحقق).

تراب...»[١].

سقط الفخر الغوغائي إذن، وأعلنت حقيقة التساوي البشري، بين جميع أمم وشعوب العالم،كبيرة كانت أو صغيرة.

وسقطت دعاوى التفوق العرقي والعنصري واجتمع الشمل البشري في منطق التقوى «فأكرمكم عندالله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى...»[٢].

إن خطبة الوداع كرَّست المفاهيم الاسلامية في أخوة البشر، وفي المساواة، وفي التضامن، وحددت مقياساً واحداً للأفضيلة هو التقوى[٣].

---

(١) خرّجه البيهقي ج ٩: ص ١١٨ من حديث لأبي هريرة، وأخرجه العلامة المجلسي في بحار الانوار ج ٣١:ص ٣٥ عن البيان والتبين ج ٢:ص ٢٥ والعقد الفريد ج ٢: ص ٨٥، وتاريخ اليعقوبي ج ٢:ص ٩١، وقريب منه في مجمع الزوائد للهيثمي ج ٣ ص ٢٦٦، وانظر أيضا شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد المعتزلي ج ١٧ ص ٢٨١، وقريب منه في كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٦: ص ٤٥٩ والمجدي في انساب الطالبين لعلي بن محمد العلوي (القرن الخامس الهجري):ص ٧١ (المحقق).

(٢) انظر المجلسي في بحاره ج ٣١: ص ٣٥ عن البيان والتبين ج ٢: ص ٢٥، والعقد الفريد ج ٢: ص ٨٥، وتاريخ اليعقوبي ج ٢: ص ٩١. وانظر تحف العقول (مرسل) لابن شعبة الحراني: ص ٣٤، الغدير للعلامة الأميني ج ٦: ص ١٨٧، ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٣: ص ٢٦٦ (المحقق).

(٣) خطبة حجة الوداع:

«الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن

سيئات اعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له. واشهد ان محمداً عبده ورسوله اوصيكم عباد الله بتقوى الله. واحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس: اسمعوا مني ابين لكم. فاني لا ادري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا. في موقفي هذا

ايها الناس! إن دماءكم وأموالكم واعراضكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم. كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا في بلدكم هذا، إلاّ هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله انه لا ربا . و إن اول ربا ابدأ به. ربا عمي العباس بن عبدالمطلب.

و إن دماء الجاهلية موضوعة. و إن اول دم نبدأ به. دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

و إن مآثر الجاهلية موضوعة. غير السدانة و السقاية.

والعمد قود. و شبه العمد ما قتل بالعصا و الحجر. و فيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أما بعد أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه. ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك. مما تحقرون من اعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنما النسيء زيادة في الكفر. يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً. ليواطئوا عدة ما حرم الله. فيحلو ما حرم الله. ويحرموا ما أحلّ الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض. منها اربعة حرم. ثلاثة متواليات وواحد فرد:

ذو العقـدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر. الذي بين جمادي وشعبان . ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد

امـا بعـد أيهـا الـناس: إن لنـسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق: لكم عليهن ان لا يوطئن فرشـكم غـيركم. ولا يـدخلن احداًتكرهونه بيوتكم إلا باذنكم، ولا يأتين بفاحشة . فان فعلن، فإن الله قد أذن لكم ان تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع. وتضربوهن ضربا غير مـبرح. فـان انتهـين وأطعنكم. فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خـيراً فـإنهن عـندكم عـوان. لا يملكن لا نفسهن شيئاً، وإنكم إنما اخذتموهن بامانة الله، واسـتحلتم فـروجهن بكلمـة الله، فاتقـوا الله في النـساء واستوصـوا بهـن خـيراً. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيهـا الـناس: إنـما المؤمنون اخوة. ولا يحل لامريء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

فـلا تـرجُعنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. فاني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أيهـا الـناس: إن ربكـم واحد وإن اباكم واحد. كلكم لآدم: وآدم من تراب. أكرمكم عند الله اتقـاكم. ولـيس لعـربي عـلى عجمـي فـضل إلا بالـتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشد . قالوا:نعم. قال:فليبلغ الشاهد الغائب.

أيهـا الناس: إن الله قد قسَّم لكل وارث نصيبه من الميراث. ولا يجوز لوارث وصية. ولا يجوز وصـية في اكثـر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادّعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والـسلام عليـكم (المؤلـف). ويعلـق الـشيخ محمود أبو رية على (خطبة الوداع) وهو بصدد الـدفاع عـما يـنجم من ضررٍ بالغ لعدم كتابة الحديث النبوي في حياة النبيﷺ، كون أن

وحين تلا النبي القول الإلهي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] كان ينظر الى موعد الأجل المحتوم!

وفي إنتصار العقيدة، كان محمدﷺ – وهو في مرضه – يتفقد اصحاب (أحد) في مقابرهم، ويستغفر لهم، وكان يقول: «إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده»[2]، واكتملت دائرة العقيدة الأهية بعودة روح

الحديث – بشكل غالب– قد تغيّر لفظه وضاع الكثير منه ... فيقول: «كانت هذه الخطبة في يوم مجموع له الصحابة كافة وكانوا حوال مائة وخمسين ألفاً، فقد كان المعقول واليقين أن تأتي هذه الخطبة الجامعة محفوظة بألفاظها ومعانيها كما نطق النبي بها، وأن يحرص الصحابة جد الحرص على حفظها، وأن يؤدوها إلى من بعدهم كما سمعوها! ولكنهم برغم ذلك كلّه قد تركوها بغير قيد كتابي أو ذهني يعبث الرواةُ بها، ولو أنك أطلعت على ما نشر منها متناثراً في كتب الحديث المشهورة والسيرة الكبيرة ثم درستها دراسة لا تتأثر فيها بالعاطفة فإنك تجد ألفاظها متباينةً ومعانيها مختلفة، وعباراتها غير مؤتلفة، مما يثير عندك الدهش، ويبعث العجب»! أنظر أضواء على السنة المحمدية؛ ص١٠٧، (المحقق).

(١) سورة المائدة، الآية: ٣ (المحقق).

(٢) انظر اسد الغابة لأبن الاثير ج ٣: ص ٢١٦، ومثله في كنز العمال: «ان عبداً خيّره الله تعالى بين أن يؤتيه الله زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» ج ١١: ص ٤٦٧ وتاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٣٠: ص ٢٤٧،الفايق في غريب الحديث للزمخشري ج ٢: ص ٥٢، صحيح ابن حبان ج ١٥: ص ٢٧٧، تركة النبيﷺ لحماد بن زيد البغدادي: ص ٥٠، فتح الباري لأبن حجر ج ٨: ص ١٠٥ ج ١٠:ص ٤٦٩ ومقدمه فتح الباري: ص ٣٤٩، سنن الترمذي ج ٥:ص ٢٧٠، صحيح مسلم ج ٧: ص ١٠٨،

محمدﷺ إلى بارئها، ومثلما انطلقت - بشرارة الوحي الألهي - كذلك عادت ببشارة الانتصار، إنتصار العقيدة، الذي كان إنتصار محمدﷺ، وسيادة كلمة الحق.

وكانت الكلمات الأخيرة لمحمدﷺ، قبل مغادرة جسده، هي كلمات العودة الى الرب: «بل الرفيق الأعلى»، فكان المبدأ وكان المعاد!

صحيح البخاري ج ٤: ص ٢٥٣، من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٤: ص ١٦٣ (المحقق).

الفصل الثاني عشر

الأخلاقية المحمدية

مزاوجة العقيدة بالواقع

«أدّبني ربي فأحسن تأديبي»[1]

حديث نبوي

---

(١) أنظر النهاية في غريب الحديث لأبن الأثير ج١: ص٨، التبيان في آداب حملة القرآن للنووي: ص ٥، تفسير نور الثقلين ج٥: ص٣٩٢، كشف الخفاء للعجلوني ج١: ص٧٠ ، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج١: ص ٢٩١، كنز العمال للمتقي الهندي ج٧: ص٢١٤، بحار الأنوار ج٦٨: ض٣٨٢(المحقق).

أخلاقية محمد

تعاليم وممارسة

قد يبدو من باب تحصيل الحاصل تمجيد أخلاقية نبي، لأن الرسل والأنبياء يتميزون – أصلاً – بأخلاقية سامية، وباهرة.

لكن اذا ما طرحنا الموضوع من جانبٍ آخر؛ أخلاقية رئيس وقائد وعظيم، تأخذ الاخلاقية مغزىً ثانياً، ذلك لأن النبي مشغول – روحياً – بصقل اخلاقه– والعلو بها، فهي قناته الحقيقية التي توصل علاقته البشرية، بالله.

أما في حالة محمدﷺ، الذي قاد المجتمع الاسلامي الكبير، فان انشغالاته الموسعة، والمتعددة المناحي، والمعقدة ايضاً، تخلق تشابكاً واسعاً ومعقداً في المسؤوليات، وفي المواقف. فهو في حالة تقديم الحلول باستمرار، وليس لديه متسع للاستغراق في الصوفية الاخلاقية.

إن مسؤوليات الحكم والفتح والبناء الاقتصادي والاجتماعي، وتوطيد أركان القضية الاسلامية، هي مسؤوليات باهظة، ثقيلة، جعلته في إنهاك دائم.

معنى ذلك، ان اخلاقية محمد ليست من طراز الاخلاقيات التأملية، الرهيفة، التي تزداد شفافية في العزلة والانفراد والتسبيحات الروحية الخاصة.

إنها أخلاقية نبوية مستغرقة في العام[1]. أي في صلب الواقع الغني والمعقد

---

(١) فهوﷺ عاش مع الناس بسيطاً متواضعاً مشغولاً بتربيتهم حتى أنه كان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب، فبنو له مرتفعاً من طين فكان يجلس عليه وقالت له عائشة: كُلّ متكئاً فإنه أهون عليك، قالت: فأصغى برأسه حتى كاد تصيب جبهته الأرض ثم قال:

«بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»

وكان لا يأكل على خوان (ما يوضع عليه الطعام ليؤكل:السفرة). ولا في شكرجة (الصحفة التي يوضع فيها الأكل). حتى لحق بالله تعالى (اخرجه البخاري ٧:٩١) وعن الهيثمي: وكانﷺ لا يدعو أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك (مجمع الزوائد ٩:٢٠) وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة آخذ معهم، وإذا تحدّثوا في طعام أوشراب تحدث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم، وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون ويتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام (اخرجه مسلم ٧:٧٨).

إذن كم كان رسول اللهﷺ يمتلك من سعة الصدر والحُلم والتواضع، والذي جسد بذلك الترابية المحببة للناس والتي ساهمت إلى حدٍّ كبير من تأثيرهم بدعواه السماوية.

وعن قدامة بن عبدالله بن عامر قال:رأيت رسول اللهﷺ يرمي الجمرة على ناقة شهباء لاضرب ولا طرد ولا إليك إليك (رواه النسائي في سننه ٥:٢٧٠ والترمذي في جامعه ٣:٢٤٧ وقال:حسن صحيح وابن ماجه في سننه ٢:١٠٠٩)

وعن عائشة سئلت ما كان رسول اللهﷺ يصنع في بيته قالت: كما يصنع أحدكم في يمينه يخصف النعل ويرقع الثوب (رواه ابن سعد في الطبقات: ١:٣٦٦ واحمد في مسنده

١٠٦:٦ وابو يعلى في مسنده ١١٧:٨).

وبمقابل أخلاقيته التواضعية، كان ﷺ شجاعاً صلباً، فعن سعيد بن عياض الثمالي قال: كان رسول الله ﷺ قليل الكلام، قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأسا (رواه أحمد في مسنده ١٥٦:١ والبغوي في شرح السنة ٢٥٧:١٣)

وعن البراء، قال:كنا والله إذا إحمر البأس نتقي به - يعني النبي ﷺ - وإن الشجاع منا الذي يحاذي به (رواه مسلم في صحيحه ١٤٠١:٣ والبغوي في شرح السنة ٢٧٥:١٣).

وعن سعيد بن عثمان العبدي عن عمران بن الحصين قال:ما لقي النبي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب (مسند أحمد ١٥٦:١، والبغوي في شرح السنة ٢٥٧:١٣).

وعن أنس بن مالك. قال: كان رسول الله ﷺ من أشجع الناس وأسمح الناس (رواه البخاري ٤٥٥:١٠ ومسلم في الفضائل ٤١٠٨٢:٤ ح٤٨، والترمذي في كتاب الجهاد ١٩٩:٤ وابن ماجه في كتاب الجهاد ٩٢٦:٢ واحمد في مسنده ١٤٧:٣)

وعن أنس بن مالك - ايضاً - قال : «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس. ولقد فزع أهل لمدينة وركب فرساً لأبي طلحة عرياً فخرج الناس فإذا هم برسول الله ﷺ قد سبقهم إلى الصوت، قد استبرأ الخبر وهو يقول: لن تُراعوا، وقال النبي ﷺ: ولقد وجدناه بحراً او إنه لبحر(رواه البخاري في صحيحه ٤٥٥:١٠ ومسلم في صحيحه ١٧٠٨:٤-١٨٠٣ والترمذي ١٩٩:٤ وابن ماجه ٩٢٦:٢ واحمد في مسنده ١٤٧:٣).

وقيل : كان النبي ﷺ قليل الحديث، قليل الكلام، إذا أمر الناس بالقتال تشمر، وكان من أشد الناس بأساً وكان لا يقترب منه في الحرب إلا الشجاع بسبب قربه من العدو في المعركة، حتى قيل إنه:ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب، وكان قوي البطش، ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول:

للمجتمع الاسلامي، فلم تكن المسافة بين بيوت نساء النبي، والمسجد، وبيوت المسلمين مؤطرة. بل هي متداخلة في وحدة نسيج المجتمع الاسلامي، فلم يكن محمدﷺ - والحالة هذه- منفرداً بنفسه والى نفسه، وخاصة منذ أن بدأت دولة المدينة تأخذ ملامحها الجنينيّة.

لقد حُكِمَ عليه، بفعل ما تلقاه من الوحي، رسولاً ومنقذاً ومحرراً، بأن يعيش في غمار الحركة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والعقائدية للكيان العربي الاسلامي الفتي، والمتطور.

وكلما إتسعت قاعدة البناء الاسلامي، تنامت المشكلات التي جابهت الرسول وجماعته المسلمة.

وهي مشكلات الحرب والسلم، وصقل العبادات، وترصين المجتمع

أنا النبي لا كذب أنا أبن عبدالمطلب

فما رئي يومئذٍ أحد كان أشد منه (تاريخ الطبري ٢:١٣٥) وأوضحت مصادر السيرة والكتب الحديثية عن شجاعة الرسولﷺ في ساحات القتال، وبيان صموده واصراره على النصر، ولم ترهبه كثرة الآخر، بقدر ماكان شجاعاً صلباً مؤمناً بقوة ايمانه وارادته. فكانﷺ (أنجد الناس وأشجعهم) (أخرجه الدارمي ١:٣٠).

وفي تأريخ الطبري، قال عليؑ أمير المؤمنين : «لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يؤمئذٍ بأساً، وقال أيضاً: كنا إذ أحمر البأس ولقي العدو القوم اتقينا برسول اللهﷺ ما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» (تاريخ الطبري ٢:١٣٥). (المحقق).

الاسلامي وتطهيره من التحريف والنفاق والاندساس، كذلك هي مشكلات التأسيس الاقتصادي الجديد، والزواج، والتنظيم. وكافة المستويات الجماعية من المشكلات. تضاف اليها مشكلات الأفراد، والعوائل والقبائل،الخ...

أي ان محمداً كان مسؤولاً مسؤولية مباشرة من موقع القيادة في معالجة المشكلات الجماعية والفردية بمنظور الرسالة والنبوة، ذلك المنظور الذي يسبغ الرهافة على الحلول، بينما كان الواقع يتطلب أحياناً حلولاً خشنة، قوية.

إنه، النبي، والرسول، والقائد، والانسان مثل سواه من البشر، كان عليه ان يعبّر عن جميع الخصائص التي تتصل بذلك، في سلوكه، وفي أحاديثه، وفي حلوله، وفي واقعه اليومي اللامنقطع.

كذلك، لم تكن له حياة شخصية، بالمعنى الذي نلفت اليه الانتباه في هذا الاستعمال الخاص، إنه بلا اسرار. إنه منخرط في الحياة الجماعية الاسلامية انخراطاً نهائياً بكل مواصفاته التي كانت ملكاً للمسلمين.

وفق ذلك القياس لم يكن متمتعاً بحياة شخصية مثل القادة المعروفين في التأريخ، ولم تكن هناك مسافة بين الشخصي والعام في حياته. لأن العقيدة امتلكته امتلاكاً تاماً، فكان مبشّراً بها، ومصححاً، ومعلماً، حتى عند إختلائه بزوجاته، على ما في ذلك من حق شخصي جداً.

وبطبيعة الحال ان هذه الصفة العجيبة، والنادرة، تكشف لنا عن الفارق بينها وبين أولئك الذين يقسمون حياتهم بين حياة عامة (تحت الاضواء) وبين حياة خاصة، آخذين في ذلك مسافة لمعالجة تبدلات الأخلاق، واجراء المراجعات

الـضرورية، كيما تبدو الاخلاق العلنية مرضية للناس ومؤثرة. وتتاح لمثل أولئك الفرص لاخفاء جانب عديدة من أخلاقهم.

فثمة اخلاقيتان: علنية، وسرية، قد تزيد او تنقص نسبة الواحدة منهما على حـساب الأخـرى. لكـن ذلك يتحقق باتجاه الظهور بمظهر حسن، أي باخلاقية مقنعة وفعّالة، لا يدرى متى تهددها الاخلاق الخفية، والنوازع المضمرة.

إن المسافة بـين الـسرّ والعلـن تـنفع أولـئك المذكورين في ترتيب واعادة ترتيب أوراق الاخلاق، طبقاً لحسابات براجماتية.

في وضـع محمـد لم تكـن هـناك أخلاقيتان،بل أخلاقية واحدة مثل شجرة واحدة، ممتدة الجذور، والسيقان، والاغصان، في البيت (بيوت أمهات المؤمنين) وفي المسجد، وفي الأسواق، وفي المعارك، وفي الندوات.

إنـه – حتـى في خلـواته – كان مشاعاً لعامة المسلمين، لأنه الرسول النبي والأب، والقائد، والانسان الصريح.

إنـه يحـث المـسلمين عـلى الوضـوح الـصريح،لأن ليس من أحد يستطيع إخفاء نفسه عن نظر الله.

فالانسان مكشوف تماماً، ولا ينفعه التستر.

عـلى هذا المستوى كان محمد الانسان واضحاً الوضوح الخالص. ومن هنا تنبع أخلاقيته الواحدة، التي تتوزع كألوان الطيف الشمسي في التكامل العجيب والفذ[1].

---

(١) ومـنها مـا عـرف عـنه بالـسخاء والكـرم، ولـيس من السهولة ان يمارس الشخص هذه

الصفات إن لم يكن شجاعاً فهي صفات لم توجد عند من يخيم عليه الجُبن، وهي من سمات تكامل العقل وإدراكاته في فهم مسيرة الحياة، فليس من السهولة ان يكون انسان ما سخياً وان مَلكَ ما لم يملكه أحدٌ غيره، فهي سجية. مكنونة في النفس الأبية الشجاعة المترفعة عن صغائر الأمور، وهي من أهم ميزات الرسول الأكرمﷺ ولذا وصفه عليؑ قائلا: كان أجود الناس وأسخاهم كفاً، وأوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمةً، وأليـنهم عريكة وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثلهﷺ أخرجه الترمذي في الشمائل: ص ١، وفي صحيح مسلم: «وما سئل عن شيء على الاسلام قط إلا أعطاه، وأن رجلاً آتاه فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع الى قومه، فقال: اسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة) المصدر ج ٧: ص ٧٤ (وما سئل قط شيئاً فقال: لا)، وفي صحيح البخاري: «حمل اليه سبعون الف درهم، فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسَّمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها» المصدر ج ٤: ص ١٢.

وينقل الترمذي في الشمائل: ص ٢٦، «جاءه رجل فسأله فقالﷺ: «ما عندي شيء ولكن اتبع علي فإذا جاءنا بشيء قضيناه، فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكرهﷺ ذلك، فقال الرجل: أنفق ولا تخف من أذي العرش إقلالاً، فتبسم النبيﷺ وعرف السرور في وجهه». وعن ابن عمر قال: مارأيت أحداً أجود ولا أنجد ولا أشجع ولا أوضأ من رسول اللهﷺ (رواه الدارمي في سننه ١:٣٣).

وعن أنس بن مالك قال: إن النبيﷺ كان لا يسئل شيئاً إلا أعطاه (رواه البخاري ٤٥٥: ١٠ ومسلم في الفضائل ٤:١٨٠٦ والترمذي في الشمائل: ١٦٩ ورواه البغوي في شرح السنة ١٣:٢٤٩).

وعن جابر بن عبدالله، قال:ما سئل رسول اللهﷺ شيئاً قط قال: لا (رواه البخاري في

في طبيعته تضايفت كل الصفات التي قد تبدو للوهلة الأولى ذات تناقض، لكنها لم تكن كذلك إطلاقاً، إلا في نظرة عين سطحية.

صحيحه ١٠:٤٥٥ ومسلم في الفضائل ٤:١٨٠٥ والترمذي في الشمائل: ١٦٩، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق : ٩١، والبغوي في شرح السنة ١٣:٢٤٩) وعن هارون بن رياب، قال: قدم على النبيﷺ سبعون ألف درهم وهو أكثر مال أتي به قط، فوضع على حصير، ثم قام إليها يقسّمها فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منهﷺ.

وعن ابن عباس، قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال: يا رسول الله ثلاث اعطينهن، قال: نعم، قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة أزواجكها، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال : نعم، قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما قاتلت المسلمين، قال:نعم، قال ابوزميل :ولولا أنه طلب ذلك من النبيﷺ ما أعطاه لأنه لم يكن يسأل شيئاً قط إلا قال: نعم (رواه مسلم في صحيحه ٤:١٩٤٥ ح ١٦٨).

وعن عبدالرحمن بن أبي ليلي، قال سمعت امير المومنين علياً رضي الله عنه يقول: أتيت أنا وفاطمة رضي الله عنها، والعباس وزيد بن حارثة النبيﷺ فقال له العباس: يا رسول الله كبُر سني ورق عظمي فإن رأيت أن تأمرلي بكذا وكذا وسقاً من الطعام فافعل فقال رسول اللهﷺ : فأفعل فقالت فاطمه عليها السلام: يا رسول الله إن رأيت أن تأمرلي كما أمرت لعمك فافعل، فقال رسول اللهﷺ: فأفعل: فقال زيد بن حارثة:أرضاً كانت معيشتي منها ثم قبضتها فإن رأيت أن تردها عليّ فافعل، فقال رسول اللهﷺ : فأفعل،فقلت أنا:يا رسول الله إن رأيت أن توليني هذا الحق الذي جعله الله عزوجل لنا في كتابه من هذا الخمس فأقسمه في حياتك حتى لاينازعنيه أحد بعدك، فقال رسول اللهﷺ: فأفعل ذلك فولانيه رسول اللهﷺ (رواه احمد في مسنده ٨٤:١-٨٥). (المحقق).

يمكن تناول عَيّنة من هذا النظر الفكري الضعيف والسطحي في حالة اولئك الذين رأوا في حث القرآن والنبي محمد على الغزو والقتال انه دليل على القسوة، وعلى النزعة الدموية، دونما مساءلة لأنفسهم عن ماهية العوامل التي كانت تشعل الصراع، وتؤججه.

ثم ان اولئك يعرضون بعض نماذج السلوك الرحيم في ممارسة محمد. مشيرين بذلك لا إلى التناقض بين غلظة طبع المحارب والغازي، ورحمته، فقط، بل إلى ما هو أكثر من ذلك، بالقول ان الرحمة ما هي إلا أسلوب، ووسيلة، وليست هي في طبع وطبيعة محمدﷺ.

من شدة علانية محمد، انه كان يُراجع نفسه بضوء القرآن، الذي كان يلومه أحياناً مثل لومه إياه في صدوده عن الاعمى (ابن أم مكتوم، الذي أراد ان يستمع من محمد الى بعض الآي الكريم، وكان محمد مشغولا بكسب (الوليد بن المغيرة) فلم يُلق إليه بالاً، فكانت سورة عبس حثاً على المراجعة وتصحيح السلوك: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1].

---

(١) سورة عبس، الآيات:١-١٦ (المؤلف).

بالطبع أن المؤلف نقل لنا الرأي الشائع في تفسير هذه السورة، والمشهور بين عامة المفسرين

وثمة أدلة كثيرة – من هذا الطراز- توضح المسافة بين الفكرة القرآنية والفكرة المحمدية، حيث يستجيب محمد الى نداء القرآن، مذكراً إياه بما يعلمه وما لا يعلمه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ

حول من هو المعاتب؟! فالمؤلف رحمه الله اعتمد المشهور على أن الرسولﷺ كان هو المُعاتب، بينما هنالك رأيٌ آخر روي عن الامام الصادقعليه السلام: «إنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي، فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه عبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وانكره عليه» وهذا نص ما جاء في تفسير مجمع البيان ج ١٠: ص ٤٣٧ بيد أن المحقق الاسلامي الكبير السيد الشريف المرتضى تبنى هذا الرأي قائلاً: ليس في هذه السورة ما يدلل على أن الرسول هوالمخاطب المعاتب، حيث إن العبوس ليس من صفاته مع أعدائه فكيف به مع المؤمنين المسترشدينّ!! ووصف التصدي للأغنياء والتلهي عن الفقراء مما يزيد البون سعة، وهو ليس من أخلاقهﷺ الكريمة بدلالة قوله تعالى في الآية (٤) من سورة القلم، والتي نزلت قبل سورة(عبس) حيث وصفه الباري: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ويظهر من هذه الرؤيا أن المدافعين عنها يطمحون الى تثبيت العصمة عند النبيﷺ بينما أصحاب الرؤيا الاولى (الشائعة) يؤكدون على أن القرآن الكريم هو كلام الله وليس كلام النبي: أو من صنعه كما يدعي البعض من المستشرقين وغيرهم، لأن لوكان من قول النبي لما عاتب نفسه بهذه الآية، وهذا الرأي يستصحب في الوقت نفسه صحة الرؤيا الثانية بان المعاتب ليس النبي وانما هو رجل من بني امية. فالرؤيتين متداخلتين وتؤكدان.

١- ان القرآن هو كلام الله وليس كلام النبيﷺ.

٢- ان المُعاتب هو رجل آخر غير النبي وهو الرأي الأرجح (المحقق).

لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[١]، فـ«في هذه الآية يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمدية فحسب، ولكن أبعد مما قد أوحى فعلاً . ومن الممكن ان نذكر آيات كثيرة، ولا سيما الآية: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٢] وهي تؤدي نفس المعنى.

وأحياناً يرد الفصل في القرآن بين الفكرة المحمدية والفكرة القرآنية بمناسبة حادث يجري في الحياة العادية:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾[٣]...

كذلك كان يراجع نفسه بصوت علني، كما فعل ذلك مرات عديدة، خاصة في حديثه عن الانتقام، عندما هزَّته من الجذر – هزةً مأساوية – صورة عمه البطل المجيد حمزة بن عبدالمطلب، وقد جرى تمثيل بشع بجثته، فقال وهو في ذروة الغضب، مقسماً: «لئن اظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» ثم انه قال: «لن أصاب بمثلك أبداً ... ما وقفت موقفاً قط أغيظُ اليّ من هذا»[٤].

لكنه – في وقت آخر – راجع نفسه، محذراً من الانتقام بالمثل قائلاً: «أياكم

---

(١) سورة غافر، الآيه: ٧٨ (المؤلف).

(٢) سورة الزخرف، الآيه: ٤٥ (المؤلف).

(٣) سورة محمد، الآية: ٣ (المؤلف).

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ج ٣ : ص٦١١ وشرح الاخبار للقاضي النعمان المغربي ج ١ : ص ٢٨١، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ١٨٠ (المحقق).

والمثلة ولو بالكلب العقور»[١].

يمكـن للمرء أن يشاهد مراجعات واضحة، لم يحسب فيها حساب القدير خـشية الوقوع في مآخذ معينة أمام أصحابه واتباعه المؤمنين، الذين كانوا نافذي الـذكاء، شـديدي الجرأة، امتلكوا حرية الانتباه، والنقد، مع الاقتداء، ذلك لأن الحـق كـان يأخـذ مجـراه في عقـل ونفس محمد، في أفكاره وفي ممارساته، بصورة طبيعية جداً. بالتكامل ما بين تموضعات الحق وتجلياته وتجسّداته.

لـنأخذ في ذلك مثلاً: حين بكى محمد ابنه ابراهيم الذي مات على ذراعيه، وكـان يقول في أشد الحزن : «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يحزن الرب، ولـولا ان المـوت وعد صادق وموعد جامع، فان الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا ابراهيم وجداً شديداً ماوجدناه انا لله وانا اليه راجعون»[٢].

---

(١) انظـر مجمع الزوائد للهيثمي ج ٦ : ص ٢٤٩ وج ٩ : ص ١٤٢ والمعجم الكبير للطبراني ج ١ : ص ١٠٠ شرح نهـج البلاغه لابن أبي الحديد ج ١٧ : ص ٦، نصب الراية للزيعلي ج ٣: ص ٢٢٤. السير الكبير للشيباني ج ١: ص ١١٠ وج ٣: ص ١٠٢٩، تنزيه الأنبياء للـشريف المرتضى: ص ٢١٨، مناقب الخوارزمي:ص ٣٨٦، كشف الغمة للإربلي ج ٢ : ص ٦٠، جواهر المطلب للدمشقي ج ٢: ص ١٠٣ (المحقق).

(٢) انظـر مـسند أحمـد بـن حنبل ج ٣ :ص ١٩٤، صحيح البخاري ج ٢ : ص ٨٤، صحيح المـسلم ج ٧ : ص ٧٦، سـنن ابـن ماجـة ج ١: ص ٥٠٦، سـنن أبي داود ج ٢: ص ٦٤، سـنن البيهقـي ج ٤ : ص ٦٩، المـصنف لأبـن ابي شيبة الكوفي ج ٣: ص ٢٦٧، منتخب مـسند عـبد بـن حميد: ص ٣٨٥، الاعتبار لأبن أبي الدنيا:ص ٤١، وكتاب الهواتف لأبن

كـان بعـض كبار المسلمين قد حاولوا رده عن البكاء، فقال عبدالرحمن بن عوف «أولم تكن نهيت عن البكاء؟».

فأجابه: «ما عن الحزن نهيت، وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما تـرون بي أثـر مـا في القلـب مـن محـبة ورحمة، ومن لم يُبدِ الرحمة لم يُبدِ غيره عليه الرحمة»[1].

إن وضـع محمد النبوي، الرسول والقائد والمثل الاعلى لأصحابه يؤدي - في تـصور المؤمنـين- الى الـصلابة وعـدم الاستـسلام الى البكاء من خلال حزن شـديد، لكـن وضـع محمـد الانـسان، الرقيق، العاطفي، الشفوق، المحب، كان يـستجيب لتأثـير الاحـزان، فيبكـي كـما يبكي البشر،بل انه ليستعيذ من عينٍ لا تدمع.

إن عواطـف محمـد الانـسان لا تقـبر نفـسها أمـام السمات العظيمة للنبي

أبي الدنـيا: ص ٣٨، مـسند أبي يعـلى الموصـلي ج ٦ ص ٤٣، صحيح ابن حبان ج ٧ ص ١٦٢، المعجـم الاوسـط للطـبراني ج ٨ ص ٣٤٦، وفي الكبـير- له - ج ٢٤ : ص ١٧١ وكنز العمال ج ١٥ : ص ٦١٥ (المحقق).

(١) جـاء في الشرح الكبير لأبن قدامة: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند مصيبة، وخمش وجوه، وشق جيوب، ورنة شيطان»، ويقول عنه حديث حسن وهذا يـدل على أنهﷺ لم ينه عن مطلق البكاء إنما نهى عنه موصوفاً بهذه الصفات، أنظر المصدر ج٢: ص٤٢٩، نـيل الأوطـار للشوكاني ج٤: ص١٥٤، والذكرى للشهيد الأول: ص٧١، وتذكرة الفقهاء للعلامة الحلي ج٢: ص١١٩ (المحقق).

والرسول القائد، بل تتلاءم وإياها، وتتكامل في وحدة العواطف والافكار والقيم والمناقب التي صِيغت منها الأخلاق المحمدية.

إن الذين فرحوا بأمثلتهم من غلظة محمد (وهي أمثلة منتقاة باجتزاء مُتعمد مطابق لإغراض خبيثة) لم يفهموا إن الغلظة شيء والقوة الصائبة شيء آخر.

لقد كانت قوة محمد قوة الانتصار للحقيقة، قوة دحر الباطل والظلم والوثنية والشرك.

وفيما عدا مواطن الكفاح العادل، كانت رقة محمد،لا مثيل لها.

من ناحية سايكولوجية ان الغلظة هي سلوك شامل للشخص الغليظ القاسي، فهو عدواني بطبعه، وإنتقامي لا يعرف التسامح.

وكان محمد كبير الرحمة، فـ«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[1].

هذا هو نص حديثه. وقال: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج ٣ : ص ٤٠، وج ٤ :ص ٣٠٨، صحيح البخاري ج ٨ : ص ١٦٥، صحيح مسلم ج ٧: ص ٧٧، سنن الترمذي ج ٤ : ص ١٨، سنن البيهقي ج ٨ : ص ١٦١، وج ٩ :ص ٤١ ومجمع الزوائد ج ٨ : ص ١٥٦، فتح الباري ج ١٠ : ص ٣٦٠ وج ١٣ : ص ٣٠٣ مسند أبي داود : ص ٩٢، مسند الحميدي (٢١٩هـ) ج ٢: ص ٣٥١ المصنف لأبن أبي شيبة الكوفي ج ٦: ص ٩٣، الآدب المفرد للبخاري : ص ٣٢، الآحاد والمثاني للضحاك ج ٤: ص ٤٧٢، صحيح ابن حبان ج ٢: ص ٢١١، المعجم الأوسط للطبراني ج ٢ : ص ٢٠٠ (المحقق).

له »[1]. وحصر رحمته حصراً لا فكاكُ فيه بقوله:

«لا تُنزع الرحمةُ إلاَّ من شقي»[2].

ولم تكـن الرحمة النبوية مطلقة، بل هي مرتبطة بالايمان، فهو رحمة التوادد والتـضامن في جبهة المؤمنين، لكنها تتحول الى شدة في التعامل مع الكفار اعداء الله، اعداء الانسان، وفي ذلك نصَّ القرآن: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[3].

وفي الاطـار العـريض للاسلام، ابتداءً منذ الدعوة الاسلامية في مرحلتها الاولى، ووصـولاً الى بـناء الدولـة الاسـلامية بصيغتها الاولى، تعد الرحمة هدفاً

---

(١) مـسند احمد بن حنبل ج ٤: ص ٣٦٥، سنن الترمذي ج ٣ :ص ٢١٢، سنن البيهقي ج ٧ : ص ١٠٠، مجمـع الـزوائد للهيثمـي ج ٨ : ص ١٨٧، ج ١٠ :ص ١٩٣ والمـصنف للـصنعاني ج ٣: ص ٥٥٣، الأدب المفـرد للـبخاري: ص ٣٢، مسند أبي يعلى الموصلي ج ١٠ : ص ٢٩٧ (المحقق).

(٢) انظـر مـسند أحمد بن حنبل ج٢: ص٣٠١، سنن أبي داود ج٢: ص ٤٦٥، سنن الترمذي ج٣: ص ٢١٦، سـنن البيهقـي ج٨: ص١٦١، فـتح الـباري ج١١: ص٤١٧، مسند أبي داود: ص ٣٠٣، مـسند ابـن الجعـد: ١٣٩، المصنف لأبن أبي شيبة ج٦: ص٩٣، الآدب المفـرد للبخاري: ص ٨٧، مسند أبي يعلى الموصلي ج١٠: ص٥٢٦، صحيح ابن حبان ج ٢: ص ٢١٣(المحقق).

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩ (المحقق).

نهائياً، إمتثالاً نبوياً للقول الألهي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

ولعل اعجب مثل، في الرحمة والصفح، لا طاقة لبشر في التشبه به، حينما وجد محمدٌ أمامه المرأة اللعينة (هند بنت عتبة) التي هيأت الحبشي (وحشي) لاغتيال حمزة بن عبدالمطلب بالحربة، والتي مثلت بجسده الطاهر بعد مقتله، ومضغت قلبه وكبده، ورقصت فوق جثته، هند بنت عتبة التي كانت تحث في معركة أحد على قتل محمد والحمزة، واصابعها تلهو بعظام أم النبي (آمنة بنت وهب) بعد نبش قبرها، حين كان القرشيون على الطريق قادمين الى معركة أحد، هند بلحمها، وبدمها، ماثلة أمام محمد، وهو الذي سيقرر الحكم عليها، من المؤكد ان صورة عمه حمزة بن عبدالمطلب كانت ترى أمامه بكل الحزن الذي ثقب صدره عليه، والذي لم يفارقه أبداً، ومن المؤكد ان عظام أمه كانت تثير فيه رجفة الغضب، الذي لا حدود له، وهاهي هند تنتظر حكمه، واذنه لا تزال تحتفظ برنين صوتها الانتقامي وهي تهتف محرضة بني قومها على قتل المسلمين:

ويها بني عبدالدار!

ويها حماة الآديار...

ضربا بكل بتار...

أن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

---

(١) سورة الانبياء، الآية: ١٠٧ (المحقق).

أوتدبروا نفارق

فراق غير وامق[1]

أي حكم أصدره عليها ؟

عفا عنها! وذلك أمر يبرهن بصورة قاطعة عن الخلفية الانسانية العالية عن كيفية تعامل محمد مع هند، فكيف مع غير هند؟!

كذلك كان صفحه رحمةً نادرة، استظل بفيئها أشرار مكة، بعد فتحها. و«سماحة الرسول نحو اعدائه يعز نظيرها في تاريخ العالم»[2]، فقد كان عبدالله بن

---

(١) انظر السيرة لابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ج ٣:ص ٥٨٨، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣: ص ٣١، الثقات لابن حبان ج ١: ص ٢٢٦، تاريخ مدينة دمشق ج ٣: ص ٤٥٢ تاريخ الطبري ج: ص ٦١٠ وج :ص ١٩٦ والبداية والنهاية ج ٤: ص ١٨ (المحقق).

(٢) ليس من اليسر والسهولة أن يكتنز التأريخ مصاديق عديدة لسماحة الخلق العظيم والتي سُجّلت وقائعهُ في كثير من الأحيان حافزاً مهماً لتوجه المشركين ودخولهم الإسلام.

وربما نعيش اليوم مصاديق عنصر القوة في الغلبة والكسب (الأرغامي) وما نلاحظه من صراعات مريرة بين الدول يقف على رأس الصراع مبدأ الغلبة والمغلوب، بعد مماسارات خطيرة في أزهاق الأرواح وانعدام المشاعر الإنسانية من خلال اشتعال الحروب وتقوية الجبهات والتحالفات، والتي تركت عالمنا اليوم في أشد اليقظة والحذر وانعدام الأمن وفقدان نعمة الاستقرار.

وبالطبع كان ذلك منهجاً غالباً في طبيعة المجتمعات الجاهلية، وليس هو بالوليد المستحدث في عالم اليوم. وربما كانت الحروب الطويلة كحرب البسوس، وداحس، والغبراء، وغيرها

هي من جراء انعدام قيم التسامح والعفو عند المقدرة. ولا يخفى أن الإسلام في رسالته ركز كثيراً على قيم الأخاء والتآلف والمحبة ونكران الذات، والعفو الذي هو من أبرز القيم الإنسانية التي تعيد للإنسان الشعور بالقوة والمقدرة، مع استصحاب الشعوب بالرحمة واحترام الإنسانية.

ولذا فإنّ الرسولﷺ جَسّد هذا الخلق ليس تصنعاً وانما هو سجيّة جبلت عليه نفسه الكريمة. ومن ذلك: روى جابر أنهﷺ كان يقبض للناس يوم حنين من فضة كانت في ثوب بلال فقال له رجل: يا نبي الله أعدل، فقالﷺ: «ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل، فقد خبت إذاً وخسرت إن كنت لا أعدل، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق، فقالﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتلُ أصحابي»(تاريخ الطبري ٣: ٣٩٠).

وفي مسند أحمد: كان الرسولﷺ في حرب فرأوا من المسلمين غفلة، فجاء رجل حتى قام على رسول اللهﷺ بالسيف، وقال: «من يمنعك مني؟ فقال النبيﷺ: الله، قال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول اللهﷺ السيف، وقال: من يمنعك مني؟ فقال كن خير آخذ، فقال النبيﷺ: قل أشهد أن لا إله إلا الله، فقال الأعرابي: لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس» (مسند أحمد ٣: ٣٩٠).

وروي: «إن اليهودية أتت النبيﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها، فجيء بها إلى النبيﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردتُ قتلك، فقال: ما كان الله يسلّطك على ذلك، قالوا: أفلا نقتلها؟ قالﷺ: لا» (أخرجه مسلم ٧: ١٤).

ويروى أن رجلاً من اليهود سحره، فأخبره جبرئيلؑ بذلك حتى استخرجه وحلّ عقده، فوجد ذلك خفّة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهر عليه قط (مسلم ٧: ١٤).

وقال عليؑ: «بعثني رسول اللهﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: أنطلقوا حتى تأتوا روضة

خاخ فإن بها ظعينه (إمرأة) معها كتاب فخذوه منها، فانطلقا حتى أتينا روضة خاخ فإذا الظعينة بها، فقلنا: اخرجي الكتاب، قالت: ما معي الكتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتقتلنّ أو لنزعن الثياب، فأخرجته من عقاصها (ضفيرة الشعر)، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله لا تعجل عليّ لأني كنت أمرواً ملصقاً في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهليهم فأحببت إن فاتني ذلك منهم من النسب أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعل ذلك كفراً، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، ولا ارتداداً عن ديني، فقال ﷺ: صدقكم، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: إنه شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله عزوجل قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم» (صحيح البخاري ٥: ١٨٤).

وروى البخاري: أنه ﷺ قسّم قسمةً فقال رجل من الأنصار، هذه قمسة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرّ وجهه، فقال: «رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» (البخاري ٥: ٢٠٢).

وروى أيضاً انه ﷺ كان يقول: «لا يبلّغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» (أخرجه أبو داود٢: ٥٦٤).

وعن حُلمه وسعة صبره في ممارسة العفو والتسامح والصفح عما يؤذيه، يروى أنه ﷺ جاءه أعرابيّ يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ثم قال له: «أحسنت إليك، فقال الأعرابي: لا ولا أجملت، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزادهُ شيئاً، ثم قال ﷺ: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتى يذهب من

أُبي عـدواً لـدوداً للإسلام، كان ينفق أيامه ولياليه في وضع الخطط لايقاع الأذى بالـدين الجديـد، محرضـاً المكيين واليهود تحريضاً موصولاً على سحق المسلمين، ومـع ذلك فيوم توفي عبدالله دعا الرسول ربه ان يغفر له، بل لقد قدَّم رداءه (إلى أهلـه) كـي يكفـنوه بـه. والمكيون الذين أخضعوه وأصدقاءه، دائماً وأبداً، لأشد الـتعذيب بربـرية منحهم عفواً عاماً. وفي إمكان المرء ان يتخيل المعاملة التي كان يجـدر بفـاتح دنـيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسول كان لا يعرف حـدوداً، فقـد غفـر لهـم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر، وكثيراً ما أطلق سراح الأسرى في سـماحة بالغـة، بـرغم ان عـددهم بلـغ في بعض الاحيان ستة آلاف أسـير، وفي روايـة عـن عائـشة أنه لم ينتقم في أيما يوم من الايام من امريءٍ أسـاء الـيه. صـحيح انـه انـزل العقوبة ببعض اعدائه في أحوال نادرة جداً، وفي فـترات جد متباعدة، ولكن تلك الحالات كانت تنطوي كلها على خيانات بشعة

صـدورهم ما فيها عليك، قال: نعم، فلما كان من الغد أو من العشيِّ جاء فقال النبيﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال: فزدناه فزعم أنه رضي لذلك، فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله مـن أهـل وعـشيرة خـيراً، فقالﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الرجل (الاعرابي) كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلاّ نفوراً، فقال لهم صاحب الناقة خلـوا بينـي وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاهـا حتـى جاءت واستجابت وشدّ عليها رحلها وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال، لـدخل الـنار. أنظر تفسير ابن كثير ج٢: ص٤١٩، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١: ص١٢٤، سبل الهدى والرشاد للشامي ج٧: ص١١. (المحقق).

قـام بها أناس لم يعد الصفح يجدي في تقويمهم واصلاحهم. والحق ان ترك أمثال هـؤلاء المجـرمين سـالمين غانمـين كـان خلـيقاً بـه أن يعنـي استحـسان الإذى والتـشجيع عليه. والرسول لم يلجأ الى العقوبة قط في حيثما كان ثمة مجال لنجاح سياسـة الـصفح كرادع، إن لم نقل كاجراء إصلاحي. ولقد اسبغ عفوه على اتباع الاديـان جـميعاً يهودٍ، ونصارى، ووثنيين وغيرهم. إنه لم يقصر إحسانه على أتباع دينه فحسب»[1].

و«كـان يغض الطرف عن الاساءة مهما عظمت. ففي معركة أحُد، عندما غـادر الـرماة الموقـع الـذي كان قد عيّنه لهم، مما أدى الى مصرع نفر من أصحابه الأثيرين عنده والى إصابته هو بإذى، لم يحلهم الى مجلس حربي ولم يعاقبهم، بل إنه لم يعـنّفهم البتة ولأولئك الذين فروا من ميدان القتال لم يقل اكثر من أنهم ذهبوا الى أبعد مما ينبغي بعض الشيء»[2].

إن العفـو والرحمة والسماحة وقبول العذر صفات أصيلة نابعة من أرضيةٍ نفسية صلبة تقودها وتحفزها مبادئ الحق والعدالة.

ولا بد من التأكيد على ان الرسالة المحمدية تكرست في التأكيد على الذات الأهـية، بصورة متميزة على نحوٍ واضح بالقياس الى الفعاليات النظرية والعملية لرسل وأنبياء سابقين.

---

(١) مولانا محمد علي : «حياة محمد ورسالته» (المؤلف).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

وبمقدار حرص محمد على التحدث عن الرب، كان يذيب نفسه في الحضرة الأهية كفرد، بعبارة اخرى إنه كان يتعامل مع ذاته بأنكار ذات عجيب، بارز، وملموس. وهذا قد يكون اعتيادياً بالنسبة الى نبي، لكنه بالنسبة الى سلطة شاملة على أرض العرب، بالنسبة الى فرد قائد وحاكم تطيعه جماهير العرب بولاءٍ فدائي خارق، هوظاهرة فريدة من نوعها.

لم يطرح محمد لنفسه بعداً إلهياً، وكان شديد النبذ لأي توثين. كانت الأقاليم الرئيسية في تفكيره وسلوكه انه بشر، وكلما تنامت حدود سلطته ازداد تأكيداً على بشريته، يأكل مثل سواه، ويموت مثل سواه. وكان في تواضعه الجم يرفض رفضاً حازماً التعظيم الذي اعتاد الناس تقديمه للقياصرة والأكاسرة.

وإنه كان متشدداً في رفض الاطراء، وقال كثيراً: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»[1].

و«في معاملاته مع الآخرين لم يكن يضع نفسه على مستوى أرفع من غيره البته. كان يضع نفسه على قدم المساواة مع سائر الناس. وذات يوم، وكان قد

---

(١) الاطراء هو حسن الثناء أي لا تبالغوا في مدحي كما بالغت النصارى في مدح سيدنا عيسى فجعلوه إلهاً أو ابن إله (الشمائل المحمدية – هامش) (المؤلف).

وانظر مسند احمد بن حنبل ج ١: ص ٢٣ وسنن الدارمي ج ٢: ص ٣٣٠، صحيح البخاري ج ٨: ص ٢٦، مقدمه فتح الباري:ص ٧٨، مسند أبي داود: ص ٦، المصنف للصنعاني ج ٥ : ص ٤٤١ ج ١١: ص ٢٧٣، مسند الحميدي ج ١: ص ١٦ مسند أبي يعلى الموصلي ج ١: ص ١٤٣ صحيح ابن حبان ج ٢: ص ١٤٧ (المحقق).

احتل في «المدينة» مقاماً أشبه بمقام الملك، وفد عليه يهودي يقتضيه ديناً ما، وخاطبه في جلافة وخشونة قائلاً ان بني هاشم لا يردّون أيما مال اقترضوه من شخص آخر، فثارت ثائرة عمر لوقاحة اليهودي، ولكن الرسول عنّفه ذاهباً الى ان الواجب كان يقتضي عمر أن ينصح كلا من المدين والدائن: ان ينصح المدين – الرسول – بردّ الدين مع الشكر، وأن ينصح الدائن بالمطالبة به بطريق أليق. ثم دَفَعَ الى اليهودي حقه وزيادة، فتأثر هذا الأخير تأثراً بالغاً بروح العدل والانصاف عند الرسول، ودخل في الاسلام»[1].

وقد مكر شيخ المنافقين عبدالله بن أُيَّ بن سلول الذي كان طموحه الأبدي أن يكون أمير المدينة وحاكمها[2] فعمد الى ان يرسل الى عائشة هدية:

---

(١) مولانا محمد علي: مصدر(المؤلف).

(٢) الترمذي (الشمائل المحمدية) (المؤلف).

قال ابن اسحاق: وحدثني الزهري، عن عروة بن الزبير، عن أسامة، قال: وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي، فقال: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه، قال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبي : فقال سعد، يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الحرز. لنتوجه، فوالله انه ليرى أن قد سلبته ملكاً. انظر السيرة لأبن هشام ق١: ص ٥٨٨. وتظهر هذه الرواية:

أولاً: ان رسول الله ﷺ كان اكثر سماحة مع أشد اعدائه من المنافقين، ولم يقتص منهم رغم إيذاء هم له.

فراشاً وثيراً ليروِّج – اثناء ذلك – ان محمداً ليس كما يتصوره الناس،بالزاهد وصاحب الحصير، وقد أمل ان يجني ثمار اللعبة السافلة، لكن النبي رأى ما رأى، وأمر عائشة بأعادة الفراش الهدية الى أصحابها.

لقد ظل الحصير رمز التساوي مع الفقراء الذين يفترشون الأرض.

و«كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان اكثر خبزهم خبز الشعير »[1].

وحديثه قبل الوفاة، وكانت عافته صحوة ما قبل الفاجعة، يلخص خصال محمد تلخيصاً شاملاً يسفه الادعاءات الغربيّة التافهة التي تصور النبي امبراطوراً طاغية، قال: «ايها الناس، من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقضِ مني، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقضِ منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فانها ليست من شأني».

وطالبه رجل بثلاثة دراهم فاعطاها له، وحين مات كانت له درع مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير لمدة سنة ولكن الرسول مات قبل نهاية

ثانياً: ان ابن سلول يعتقد – اوهكذا هي الحقيقة – أن محمداًﷺ سلبه أمنيتهُ الوحيدة والعظيمة في نفسه وهي تسلطه وحكمه على المدينة، فَكَنَّ لرسول اللهﷺ كرهاً شديداً أظهرته حوادث كثيرة من مسار التأريخ النبوي (المحقق).

(١) الترمذي (الشمائل المحمدية) (المؤلف).

الأجل،فلم يستطع فكها. وقد فكها ابوبكر، بعد الوفاة[١].

في أطروحة النبي (أنا عبدالله) وفي عموم سيرته الذتية كان العدل المحمدي جذرياً، يبتدئ – أساساً – من رفض الملكية الخاصة من ناحيته الشخصية، ومن ناحية أسرته. وكان – حسب رواية أنس بن مالك – لا يدخر شيئاً لغد[٢].

وحينما مات لم يترك الا سلاحه (من نحو سيف ورمح ومغفر وحربة.... الخ) وبغلته البيضاء (دُلدُل) وحصة في أرض فدك جعلها صدقة، لأنه كان يؤكد نحن معاشر الانبياء (لا نورث: ما تركنا فهو صدقة)[٣].

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

(٣) يُلاحظ من خلال هذا الهامش بالخصوص ومواقع كثيرة في هذا الكتاب وفي كتابه اللاحق (عليعليه السلام سلطة الحق) أن المؤلف يعتمد المشهور في النقل الروائي دون أن يخوض في عمليه التحقيق والتدقيق لهذه الرواية أو تلك، ولا يعني ذلك أن المؤلف لم يكن على قدرٍ كافٍ لتمحيص الرواية! ولكنه يعتمد على ما هو المشهور الشائع كي لا يقع في مطبات آراء الفرق الإسلامية المختلفة مذهبياً، ومن ثمّ يتهم بالحس الطائفي سيما وان اجواء نظام البعث جعلت التُهم جاهزة على من يخالف مبتغاها أو ما يدعيه النظام زوراً وبهتاناً انتسابه إلى الطائفة السنية، بيد أن تشدقه بهذا المذهب والذي لم يعر له أي وزن – بل لم يعر للدين كلّه ذرة احترام وتقديس وانما مارس الأسلوب الطائفي للقضاء على خصومه سياسياً.

وعلى الرغم من ذلك كلّه ومما كان المؤلف (رحمه الله) نفسه بعيداً عن الإثارات والنعرات

المذهبية حتى وإن كانت لها من العمق التأريخي ما يؤهلها للجدل والنقاش إلا أنه (رحمه الله) كان شديد الحذر والابتعاد كلياً عما يمكن أن يخلق فجوات فكرية وعقائدية في وسط مجتمع متآخ متحد لا يعرف الفرقة والتمذهب، والتخندق..

وهذه هي من أبرز ميزات الكاتب والمثقف العراقي المخلص لدينه وشعبه ووطنه، بغض النظر عما سوف تؤول مطالبه في ذهنية السلطة الاستبدادية.

وأما هذا الهامش بخصوص مشكلة فدك فهي محط جدال المفكرين والمؤرخين، فالبعض يعتقد بصحة موقف الخليفة أبابكر، وصحة قوله عن النبي: الأنبياء لا يورثون ما تركوه صدقه. والبعض الآخر يرى صحة موقف فاطمة (س) وصحة دعواها وشكواها، أمام هذا النزاع التأريخي كان لابد أن يكون هناك مفكرون إسلاميون يدفعون بهذا النزاع إلى أثارات فكرية عديدة مع ما فيها من الاستدلال والاستنباط لحسم تداعيات هذه الدعوة، فكان للشهيد المفكر محمد باقر الصدر (رض) كُتيب عالج فيه بعض ما يمكن أثارته في اطار المناقشة العلمية التي تحتمل حكماً مسبقاً أو تحيزاً واضحاً وملموساً للعقيدة. فجاءت الاثارات بما لا يمكن الرّد عليها والصمود قبالها إلا أن يكون للعناد والمكابرة إسهاماتها خارج المنطق العلمي السليم.

ولقوة عباراته البليغة في معناها، تركنا ما يمكن أن يكون اختصاراً للفكرة، تلخصيها ببعض صفحات كي يلتمس منها القارئ عمق المجادلة العلمية. فكتفينا ان تكون النتيجة التي تركها لنا الشهيد محمد باقر الصدر من بضعة أسطر مدخلاً مشوقاً للدخول إلى عالم هذه الدعوة التأريخية بين الخليفة الأول والسيدة فاطمة الزهراء (س) بنت الرسولﷺ فيقول: والنتيجة: «إن الخليفة إذا كان يعلم بملكية الزهراء لفدك، فالواجب عليه أن لا يتصرف فيها بما تكرهه، ولا ينزعها منها سواء أجاز له أن يحكم على وفق علمه أو لا. ولم يكن في المسألة منكر ينازع الزهراء ليلزم طلب اليمين منه واستحقاقه للمال إذا أقسم؛

على صعيد المال لم يترك درهماً، وإنه ليقيم الدليل واقعياً على بطلان الأشياء التي تدعو البشر إلى خدمتها ، وهو حين كان يردد بيت شعر لبيد بن ربيعة:

ألا كُلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكُلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

كان يعني ان العدل أجدر بالبشر الفانين، فما قيمة الأموال التي

لأن الأموال التي كانت تطالب بها الزهراء أمّا أن تكون لها أو للمسلمين، وقد افترضنا أن أبابكر هو الخليفة الشرعي للمسلين يومئذ (لأن العديد من الصحابة لم يبايعوا أبابكر وقتها) وإذن فهو وليّهم المكلّف بحفظ حقوقهم وأموالهم، فإذا كانت الزهراء صادقةً في رأيه، ولم يكن في الناس من ينازعها فليس للخليفة أن ينتزع فدك منها، وتحديد الحكم بالبيّنة خاصّة إنّما يحرم الحكم ولا يجيز انتزاع الملك من صاحبه.

وإذن فعدم جواز حكم الحاكم على وفق علمه لا يخفف من صعوبة الحساب ولا يُخرج الخليفة ناجحاً من الامتحان».

أنظر: فدك في التأريخ، محمد باقر الصدر، تحقيق الدكتور عبد الجبار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، وهذا الكتاب وكما يقول المرحوم د. شرارة: «هو باكورة النتاج العلمي الخصب للإمام الشهيد الصدر (رض)، وتعد هذه الدراسة بلحاظ الفترة التأريخية التي كُتبت فيها؛ دراسة ليس في الاستقصاء والتتبّع لحيثيات القضية، ومستنداتها فحسب، بل في عمق التحليل، ورصانة الأسلوب، ودقة المناقشة، وقوة المنطق..»، ولا غرابة في ذلك فقد تفجّرت عبقريته منذ وقت مبكّر، ثم تطورت مواهبه سريعاً ليرفد المكتبة الإسلامية بدراساته المبتكرة في مختلف حقول المعرفة الإنسانية وعلوم الشريعة الإسلامية.. فهو عالم رباني ومجتهد ورع وعبقريّ فذ (المحقق).

يتشاجرون ويتذابحون من أجلها (وكذلك المغانم والسلطة)، ما داموا زائلين، أو ليس الأفضل لهم والأصح ان يضعوا أنفسهم في حدود إدراك معنى الفناء، وضحالة الاقتتال تحت وهم انهم باقون الى الابد؟!

لقد خبر الدنيا وادرك مآلها في لحظة جدٍ أولى سكنته الى آخر لحظة من حياته الدنيوية. فعوَّل على العمل والعدل لأنهما (الأسّ) الذي تشاد منه حياة إنسانية صحيحة.

وهو حين يذكّر دوما بداود النبي الذي كان يأكلُ من عمل يده. وبزكريا الذي كان نجاراً، كان يقتفي الأثر، ويعمل بهمّة عالية، معلماً المؤمنين قداسة العلاقة بين (القوت) و(العمل)، دون ان يمتد بالهُ الى التملك الزائد، قائلا: «ما أكل احد طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يده...».

ويرفع حق العيش الى مستوى الجهاد في سبيل الله فـ«من كدَّ عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عزوجل».

وأذ كان ينادي بالعمل، عمل اليد، والكسب من خلال ذلك، فانه كان يلعن الكسب الحرام، وهو إذ يلعن المال الحرام وكاسبه، فانه يمنح ذلك من إهتمامه الشيء الكثير لأن الأمر قضية اسلامية أولى.

فـ«أشد الناس حسرةً يوم القيامة رجل كسب مالاً من غير حِلِّهِ فدخل به النار» و«ولا يعجبنك امرؤ كسب مالاً من حرام، فأنه إن انفقه وتصدَّق به لم يقبل منه وإن تركه لم يُبارَك له فيه، وإن بقي منه شيء كان زاده الى النار[1].

---

(١) انظر الحدائق الناضرة للشيخ يوسف البحراني ج ١٤ : ص ١٢١ (المحقق).

كان يطارد الاستغلال والسرقة والاحتكار مطاردةً دائمية، من منطلق الدفاع الثابت عن العدل.

وحيث ان السلطة هي التي تقرر الى مدى كبير نوع حياة المجتمع، وسعادة أو بؤس ابنائه، وكذلك نوع مستقبل الاجيال، فقد شدّد على أهمية الوالي العادل الذي يتحدد واجبه في إقامة حكم العدل، وإشاعة الحق، ومكافحة الظلم والشرور الاخرى، مستلهماً من القرآن الكريم اتجاه مهمته الرسالية، التي قوامها العدل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[2].

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[3].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الحديد، الآية : ٢٥ (المحقق).

(٢) سورة النساء(المؤلف)، الآية :٥٨(المحقق).

(٣) سورة الاعراف(المؤلف)، الآية: ٢٩ (المحقق).

(٤) سورة الانعام(المؤلف)، الأية: ١٥٢ (المحقق).

(٥) سورة المائدة (المؤلف)، الآية : ٨(المحقق).

ان السلطة (التي يمثلها الخليفة أو الامام أو الحاكم.. الخ)، تستقي افكارها من القرآن الكريم والشريعة النبوية، بحكم كونها مسلمة، وهي لا تجد غير ذلك سنداً لها. أي أن مرجعها الأول والأخير متعيّن في النهج المحمدي على صعيد التطبيق، لا على مستوى ترديد العبارة.

وفي النهج المحمدي، تكون السطلة بأعلى رمز فيها مسئولةً عن خير المجتمع أو عن مأساته، عن سعادته وسلمه وأمنه، أو عن بؤسه واضطراب حياته وفوضاها. وهناك- تبعاً للنهج المحمدي- إمام عدل وإمام جائر.

الامام العادل موعود بالجنة، بل هو اكبر من ذلك لانه أرفع الناس يوم القيامة وفق الحديث النبوي: «إن أرفع الناس يوم القيامةِ إمام عادل»[1].

وإن أول السبعة الذين يُظِلَّهُم الله في ظلهِ الامام العادل كما ورد في حديث نبوي آخر: «سبعة يُظِلَّهُم الله في ظَلهِ يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: إمام عادل...».

أما الامام الجائر فمصيره النار وأشدُّ من ذلك تبعاً للحديث النبوي الصريح: «أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة إمام جائر».

فالعدل والجور مقياس اساسي حاسم في المنهج المحمدي، نظرياً وتطبيقاً.

بضوء هذا المقياس تشخصَّ مقياس آخر وهو ان مقاومة المنكر (وكل

---

(١) شرح مسند أبي حنيفة، ملا علي القاري: ص ٢٩٧ ومثله ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ٢: ص ٢١٢ : «ألا ان أرفعُ الناس درجة عندالله إمام عادل وأشد الناس عذاباً إمام غير عادل» (المحقق).

ظلـم) هـي مـسألة مبد أية ثابتة : «من رأى منكم منكراً فليغيره...»[١] لكن قمة المقاومـة وصـورتها المـثلى هي مقاومة السلطان الجائر، وإن «افضل الجهاد كلمة حـق عـند سلطان جائر»[٢] وإذا ترتب على كلمة الحق في حضرة السلطان الجائر قتل صاحب الكلمة قبل السلطان، فان القتيل شهيداً فحسب، بل سيد الشهداء، ذلـك مـا نَـوَّرَ بـه محمـد أصـحابه في حديثه: «سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[٣].

---

(١) مـسنداً احمد بن حنبل ج ٣: ص ١٠، صحيح مسلم ج١: ص ٥٠، سنن ابن ماجة ج ١: ص ٤٠٦ وج ٢ : ص ١٣٣٠، سـنن ابي داوود ج ١ : ص ٢٥٤ والحديث هو: «من رأى منكـراً فاسـتطاع ان يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، و ذلك أضعف الايمان» وسنن النسائي ج ٨ : ص ١١١، وسنن البيهقي ج ٣ : ص ٢٩٧ وفـيه :«مـن رآى منكـراً فاستطاع ان يغيره بيده فليغيره فان لم يستطيع بيده فبلسانه فان لم يـستطع بلـسانه فبقلـبه وذلـك اضـعف الايمان». وصحيح ابن حبان ج ١: ص ٥٤١م، اذكـار النووية ليحيى بن شرف النووي : ص ٣٣١ وله في رياض الصالحين : ص ١٤٩، الجامع الصغير للسيوطي ج ٢: ص ٦٠٢ (المحقق).

(٢) الكـافي للكلينـي ج ٥ : ص ٦٠، الخـصال للـصدوق : ص ٦، تهـذيب الاحكام الشيخ الطـوسي ج ٦ : ص ١٧٨، روضـة الواعظـين للفتال النيسابوري : ص ٦ وسائل الشيعة للحُـرّ العـاملي ج ١٦ : ص١٢٧ تحقـيق مؤسـسه آل البـيت، مـستدرك الوسائل للميرزا النوري ج ١٢: ص ١٨٨، عوالي اللئالي لأبن ابي جمهور الاحسائي ج ١ : ص ٤٣٢، نهج السعادة للمحمودي ج ١: ص ٣٧٨ (المحقق).

(٣) انظـر المـستدرك للحـاكم النيـسابوري ج٣: ص ١٩٥، مجمع الزوائد للهيثمي ج ٧: ص

ومن فلسفة العدل توضحت المعالم الرئيسية لجدلية الظالم والمظلوم، في مُخطط ملموس، هو بذاته ركائز فلسفة ردّ الظلم.

فالله في الحديث القدسي ينتقم من الظالم، بمعنى ان الظالم حتى في حالة انفراده بالبغي في الساحة، وليس هناك من (صرعه) فأنه مصروع- غيباً- لا مَحالة، والاحداث ستؤكد ذلك الغيب[1].

---

٢٦٦ وج ٩: ص ٢٦٨، مسند ابي حنيفة، : ص ١٨٧، نصب الراية للزيعلي ج ٥: ص ٣٦٩، كنزالعمال ج ١١: ص ٦٧٥، احكام القرآن للجصاص ج ٢ : ص ٤٣ تاريخ مدينة دمشق ج ٣٥ : ص ٤١٦، سبل الهدى الرشاد ج ١١ : ص ٩١، ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي ج ٢: ص ٩٤ (المحقق).

(١) لاحظ فلسفة الظلم التي طرحها المؤلف والتي تجسدت في قول عليﷺ «الغالب بالشر مغلوب» فالمؤلف جراء تجربته الحياتية وايمانه بالغيب تتجسد عنده فلسفة الظلم بصورة جلية عند قوله «فانه مصروع غيباً لا محالة، والأحداث ستؤكد ذلك الغيب» ومما يدعم قوله هذا مجموعة نصوص عن الائمة المعصومين عليهما السلام. فعن الامام الصادقﷺ قال: «لما حضرت علي بن الحسين الوفاة ضمني الى صدره ثم قال: يا بني اوصيك بما اوصاني به ابي حين حضرته الوفاة، وما ذكر ان آباه اوصاه قال: يا بني اياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله» انظر اصول الكافي ج ٢ : ص ٣٣١ رقم ٥ ونهج السعادة للمحمودي ج ٧ :ص ٢٨٦ وج ٨ : ص ١٣٦ والخصال للصدوق : ص ١٦ وآماليه : ص ٢٤٩ وتحف العقول: ص ٢٤٦ وروضة الواعظين : ص ٤٦٥، وعن عليﷺ:«من خاف القصاص كف عن ظلم الناس» وسائل الشيعة ج ١٦ : ص ٤٨ وعن الصادقﷺ «من ظلم مظلمة اخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده» وعنه ايضاً: «من اكل من مال

جاء في الحديث:«يقول الله عزَّ وجل: وعِزَّتي وجلالي لأنتقمنَّ من الظالم في عاجله وآجله»[1].

ويؤكد الحديث القدسي ضمناً دور البشر في مكافحة الظلم والتصدي له، وهذا الدور ليس اختيارياً، بل هو واجب مشروط بالقدرة، في الدفاع عن المظلوم. وهذا ما يوضحه النصف الثاني من الحديث القدسي المذكور قبل لحظة، حيث ان تمام النص: «وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله.

اخيه ظلماً ولم يرده اليه اكل جذوة من النار يوم القيامة» وعن الرسول ﷺ من مشى الى ظالم ليعينه، وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الاسلام» وعن الصادق عليه السلام: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم» وعنه أيضاً: «من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، فان دعا لم يستجب له» ويقول الرسول ﷺ «ان دعوة المسلم المظلوم مستجابة»وعنه ايضا: «من اعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة بين عينية مكتوب آيسٌ من رحمة الله» (المحقق).

(١) وللحديث تتمة بليغة فانتقام الله سبحانه تعالى لم يقتصر على الظالم وإنما على من رأى مظلوماً ولم ينتصر له كما في اصل الحديث عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : «قال ربك تبارك وتعالى- حديث قدسي- :«وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمنّ ممن رأى مظلوما فقدر ان ينصره فلم يفعل» انظر ما جاء في المعجم الاوسط للطبراني ج ١: ص ١٥ وفي معجمه الكبير ج ١٠ : ص ٢٧٨، العهود المحمدية للشعراني، ص ٣٨٦، كنز العمال للمتقي الهندي ج ٣: ص ٥٠٦، الدر منثور للسيوطي ج ١: ص ٣٥٣ وتاريخ مدينة دشق لأبن عساكر ج ٣٤ : ص ٣٤٠ وج ٥٤ : ص ٧ وج ٦٤ : ص ١٣٢ وذكر اخبار اصبهان للحافظ الأصبهاني (٤٣٠هـ) ج ٢: ٤٤ (المحقق).

ولأنتقمنّ ممن رأى مظلوماً فقدر ان ينصره فلم ينصره».

فالعقاب يشمل القادر على الدفاع عن المظلوم، والانتصار له، دون ان يفعل ذلك . وهذا ركن مهم من اركان فلسفة العدل، لخصّهُ الحديث النبوي:

«لعن الله من رأى مظلوماً فلم ينصره»[1] وكذلك «من مشي مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرجَ من الاسلام»[2].

---

(١)عن سهل بن حنيف عن النبيﷺ : «من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو قادر على ان ينصره أذله الله (عزوجل) على رؤوس الخلائق يوم القيامة». انظر مسند احمد بن حنبل ج ٣: ص ٤٨٧، مجمع الزوائد للهيثمي ج٧: ص٢٦٧، الأدب المفرد للبخاري: ص١٥٨، شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد ج ٩ : ص ٦٩ والجامع الصغير للسيوطي ج ٢ : ص ٥٦١، كنز العمال للمتقي الهندي ج ٣ : ص ٤١٤، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٦: ص ٦١ وذكر العجلوني في كشف الخفاء (من اغتيب عنده اخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره اذله الله تعالى في الدنيا والآخرة) ج ٢ : ص ٢١٥، تفسير القرطبي ج ١٥ : ص ٢٠٩، الدر المنثور للسيوطي ج ٦ : ص ٩٦، الكامل لأبن عدي ج ١ : ص ٣٨٦ تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر ج ٣٤ : ص ٣٤٠ وج ٥٤ : ص ٧ وج ٦٤ : ص ١٣٣، وذكر اخبار اصبهان للحافظ الأصبهاني ج ٢ : ص ٤٤ (المحقق).

(٢) كنز العمال ج ٣ : ص ٤٩٩ وج ٦ : ص ٨٥ وكشف الخفاء للعجلوني ج ٢ : ص ٢٨١، تفسير ابن كثير ج ٢: ص ٧، الدر المنثور للسيوطي ج ٢ : ص ٢٥٦، التاريخ الكبير البخاري، ج ٤ : ص ٢٥٠ اسد الغابة لأبن الاثير ج ١ : ص ١٤٦، تعجيل المنفعة لأبن حجر : ص ١٧٦، وفي الاصابة لأبن حجر: من مشى مع ظالم ليعنيه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الايمان» ج ١ : ص ٣٠٢، المنتخب من ذيل المذيل للطبري ابن جرير(٣١٠ هـ) : ص ٨٥ والحدائق الناضرة للشيخ يوسف البحراني ج ١٨ : ص ١٢٠ (المحقق).

وتتجلى في النصوص الواردة جسامة المسؤولية الفردية، لكن هذه المسؤولية لن تكون مجدية إذا لم تتحول الى موقف عام، ومسئولية جماعية فعالة، وهذا ما عبر عنه الحديث النبوي: «ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه اوشك ان يعمهم الله لعقاب منه»[1].

فالناس الذين يعيشون مع الظالم في انسجام ورضي وقبول، او في خنوع، هم شركاء في الظلم، وتحقق عليهم الغضبة الالهية، مثلما حصل مع أهل القرى الظالمة: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2].

وتتكامل فلسفة رد الظلم غيباً ومادياً، وعبر المسؤليتين الجماعية والفردية، باضافة ركن آخر، تستكمل فيه محاصرة الظالم من قبل البشر والسماء والارض، ذلك هو ركن دعوة المظلوم التي «ليس بينها وبين الله حجاب». وتوقرت دعوة المظلوم واكتسبت فضلا خاصاً في مكافحة الظلم، بانها مستجابة حتي لو

---

(١) سنن ابي داود ج ٢ : ص ٣٢٣، سنن الترمذي ج٣ : ص ٣١٦ شرح مسلم للنووي ج ٢ : ص ٢٤، مسند الحميدي ج ١ : ص ٤ منتخب مسند عبد بن حميد: ص ٢٩، الآحاد والمثاني للضحاك ج ١: ص ٩٢، مسند ابي يعلى الموصلي ج ٢: ص ٢٩٠، الاذكار النووية ليحيى بن شرف النووي: ص ٣٣١ وله في رياض الصالحين «ص ١٥٣ والجامع الصغير للسيوطي ج ١ : ص ٣٢٧، جامع البيان ج ٧ : ص ١٣٣ أحكام القرآن للجصاص ج ٢ : ص ٣٩، تفسير القرطبي ج ٣ : ص ١٧ وج ٦ : ص ٢٣٧ وج٧ : ص ٣٩٢ . ج ٩ : ص ١١٤ وج ١٠: ص ١٧٠(المحقق).

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢ (المؤلف).

صدرت عن فاجر، وبذلك اسقط النبي محمد عن الظالم اي امل له، فهو بلا نصير، وبلا شفيع . كما انه سلح المظلوم بالامل، وشجاعة القدرة على تسليط الدعوة على شخص الظالم. هذا ما يبثه الحديث الاتي من دلالات:

«دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجراً، ففجوره على نفسه»[1].

ان فلسفة العدل المحمدي، التي قدمت طرازاً مثالياً مدهشاً كانت- وهذا هو الاكثر اثارة للدهشة- تسرع الى التطبيق، وكأنها واقعية صرف. ان سبب ذلك توفر القوة البشرية الطليعية المؤمنة بالنبي، والتي اجتثت من النفوس عوامل الطمع والطموحات اللامشروعة، فكانت النفوس تلك قابلة للتجربة الجديدة على متسوى التطبيق، فكان الرواد المسلمون، (وهم اشخاص واقعيون، حقيقيون) مثالين فعلاً.

وأقامت فلسفة العدل المحمدي بناءها المادي على اساس اقتصادي اسلامي يستنكر الظاهرة الطبقية التجارية بجانبها الاستغلالي، ويقاومها بمقاييس الوحدة التضامنية للجماعة الاسلامية، والتي تُعد مصالحها فوق مصالح أي فرد فيها.

---

(١) انظر مسند بن حنبل ج ٢ : ص ٣٦٧، مجمع الزوائد للهيثمي ج ١٠ : ص ١٥١، فتح الباري ج ٣ : ص ٣٨٥، عون المعبود ج ٤: ص٣٢٧، مسند ابي داود: ص ٣٠٦ المصنف لأبن ابي شيبة ج ٧ : ص ٥٩، كتاب الدعاء للطبراني: ص ٣٩٣، مسند الشهاب لأبن سلامة ج ١ : ص ٢٠٨، الجامع الصغير للسيوطي ج ١ : ص ٦٤٨، العهود المحمدية للشعراني : ص ٧٩٢ كنز العمال ج ٢: ص ١٠٦ (المحقق).

ومن الثابت ان الاسلام لم يرفض التجارة، بل كان يحث عليها، لأن ظروف الحياة الاقتصادية في المدن وشروطها الغالبة كانت تجارية.

من هنا قال محمدﷺ: «عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق»[1] لكنه اشترط فى التاجر الأمانة، والصدق، والسماحة، فـ«التاجر الصّدوُق الأمين مع النبيّين والصّدّيقين والشهداء يوم القيامة»[2].

وكان توجّه محمد نحو تهذيب التجارة والحيلولة دون الاستغلال فان الخط العام لحركة الاسلام فى مجتمع - مديني - تجاري بغالبيته، وفي منطقة - هي المنطقة العربية - كانت (ولا زالت) مركزاً تجارياً متوسطاً داخل شبكة العلاقات التجارية العالمية.

---

(١) كنز العمال ج ٤ : ص ٣٠، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٣ : ص ٣٢٢ تفسير مجمع البيان للطبرسي ج ٢ : ص ١٩١، الدر المنثور للسيوطي ج ٢ : ص ١٤٤ تاريخ ابن معين (٢٣٣هـ) ج ٢: ص ٤٠، الكنز اللغوي لأبن السكيت الاهوازي : ص ٧١، النهاية فى غريب الحديث لأبن الاثير ج ٢: ص ٣٤١، لسان العرب لأبن منظور ج ٤ : ص ٥٧٠، المغني لأبن قدامة عبدالله ج ١٢ : ص ٣٨٥ والشرح الكبير لعبد الرحمن بن قدامة ج ١٢ : ص ٣٦٧، كشف القناع للبهوتي ج ٤ : ص ٦٥٤، الكافي للكليني ج ٥ : ص ١٤٨ وج ٦ : ص ٥٣٥، وخصال الصدوق : ص ٤٤٥ (المحقق).

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ٥ : ص ١٥٦ تفسير ابن كثير ج ١ : ص ٥٣٦ كتاب المجروحين لأبن حبان ج ٢ : ص ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ج ٦ : ص ١٦ تهذيب الكمال للمزي ج ٢٤، وميزان الاعتدال ج٣: ص ٤١٣ (المحقق).

لـذلك كـان حرصه شديداً على التصدي للظواهر الاستغلالية للتجارة، وجوهـرها الربا والاحتكار، فشن بلا رحمة حربا شديدة ضدهما، كما تفصح عن ذلك مواقفه وأحاديثهُ التي كانت تأخذ مداها التطبيقي بجدية عالية.

فقـد لعن الربا لعنة كبرى بأطرافه وشهوده، أي آكل الربا وموكله، وكاتبه وشاهديه، وقال هم سواء[1].

وقـال: «درهـم ربـاً يأكله الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستةٍ وثلاثين زَنْـيةً»، وفـيما اذا فُهمـت هـذه القـضية – الحكمـة، فهمها اللازم في أطار مجتمع أخلاقـي، وديانـة أخلاقـية رفيعة، تقيم الحد على الزنا بشدة، يكون من الواضح مـدى التـشديد علـى خطـورة الربا، وخطورة التجارة الربوية، والمرابين، الذين يشكلون قمة الرأسمالية المالية، بصورتها المبسطة حينذاك.

أمـا المحتكـر فهو ملعون، ومن «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربَهُ الله بالإفلاس والجذام»[2].

و«ومـن احتكر طعاماً اربعين ليلةً فقد برىء من الله وبرىء الله منه، وايّما

---

(١) رواه مـسلم (مـنهاج الـصالحين عـز الـدين بلـيق)(المؤلف) لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿الَّـذِينَ يَأْكُلُـونَ الـرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (سورة البقـرة، الآية: ٢٧٥) وجاء في الكافي :«اكل الربا و مؤكله وكاتبه وشاهده فيه سواء» ج ٥ : ص ١٤٤، ح٢ (المحقق).

(٢) رواه احمـد والطـبراني (منهاج الصالحين عز الدين بليق) (المؤلف) وانظر تفسير ابن كثير ج ١: ص ٣٣٧، وميـزان الاعتدال للذهبي ج ٤ : ص ٣٢٢، والعهود المحمدية للشعراني : ص ٧٣٤ (المحقق).

أهل عَرصَة بات فيهم امروٌ جائع فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»[1].

هذا يعني ان وجود رأسمالية طفيلية، واحتكارية، ومحتكرين، ومرابين، في المجتمعات الاسلامية هو خرق صارخ لمبادىء الاسلام، في أي وقت.

ولا بد من التوقف عند قضية يمكن استخلاصها من كل هذا، وهي قضية احتمال ظهور الظاهرة الطبقية الاستغالية في المجتمعات الاسلامية، ومراحل تطورها المختلفة، بصوره متعددة، ومتجددة .

وفي الواقع ان القضية اكبر من الاحتمال.

ويمكن اعادة جذر القضية الى زمن النبي، وفي ذروة انتصار الاسلام وروعة صورته المثالية التى عرضها الواقع. أي حين كانت افكار القرآن تتقدس في التطبيق مثلما في شغف التلقي والفهم والحفظ.

فبعد خطبة الوداع، وكان محمد يشير الى موت قريب، رأى بأم عينيه بقاء الوثنية المالية، وثنية الذهب والفضة، والذين يكنزونهما، وكان ذلك في مكة، فجرحته الظاهرة.

كان ذلك بعد تلاوته: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فلا عجب ان يكون ما شاهد من ترف مثيراً للألم، لأكبر الألم،...«مال الى الكعبة فجلس في ظلها... وهناك وجد مظاهر الغنى تبدوعلى بعض الناس، ومظاهر الفقر تميز الباقين. وجاءه أبو ذر فوجده يتلو

---

(١) يقول : جمال الدين الزيعلي (٧٦٢ هـ) حديث مروي عن يزيد بن هارون عن أصبع بن زيد انظر نصب الراية ج٦ : ص ١٦٣، العهود المحمدية للشعراني : ص ٧٣٤ (المحقق).

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ..﴾[١]... «ثم مال الى أبي ذر وصاح: هم الأخسرون ورب الكعبة»[٢] فسأله أبوذر من هم؟ فقال: الأكثرون أموالاً... ما من صاحب إبل وبقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الا جاءت يوم القيامة اعظم مما كانت وأسمنه، وتنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفدت اخرى عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس»[٣].

ويأتي الاحتجاج النبوي، إبان حجة الوداع، وبعد خطبة الوداع، بعد مرحلة(ومراحل) تثقيفية، وتربوية، وتطبيقية شاقة بخطر نشوء طبقة استغلالية مترفة، بضوء ما جاء به القرآن من حِكَم خالدة مستخلصة من تاريخ الأقوام حيث كانت الطبقات الثرية المرفهة، والمترفة عدوة الرسل والانبياء وسبب دمار القرى، والأقوام ايضاً.

أي أن المجتمع الاسلامي كان على وعي بالتجربة من خلال الآي الكريم، والحديث النبوي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤(المحقق).

(٢) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج ٥: ص ٤٨، احكام القرآن للجصاص ج ٣: ص ٥٤٧ تفسير الثعالبي ج ٥: ص ٤٤١، شرح مسلم للنووي ج ٧: ص ٧٣ صحيح ابن خزيمة ج ٤: ص ٩ وكشف الخفاء للعجلوني ج ١: ص ٢١٩ (المحقق).

(٣) عبدالرحمن الشرقاوي (محمد رسول الحرية)(المؤلف) وانظر صحيح ابن خزيمة (٣١١ هـ) ج ٤: ص٩ (المحقق).

﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1] و﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2].

و﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[3].

و﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[4].

وخلاصة الموضوع ان تحذيرات القرآن من الظاهرة الطبقية الاسغلالية ثابتة، ومنبئة بماخطرها سواء فى سالف الازمان، أم في الحاضر، أم في المستقبل.

ويُعد التحذير القرآني من طبقة الاغنياء المتعالية والمنعزلة عن المجتمع الفقير، منظاراً ابدياً مطلق الصحة. واعطت سورة الحشر هذا التحذير فى كلمات فائقة الدلالة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[5].

ان منطق العدل الإسلامي، الرافض للاحتكار والربا والترف على حساب فقر الفقراء وعوز المستضعفين، نابع من النظرة الشمولية التى قررها

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٣٤، ٣٥ (المؤلف).

(٢) سورة الاسراء، الآية: ١٦.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٤١-٤٥ (المؤلف).

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١، ١٥٢ وينظر إلى عرض وشرح وترتيب منهاج الصالحين فى ذلك (المؤلف).

(٥) سورة الحشر، الآية: ٧ (المؤلف).

القرآن، وهي ان لله- وحده- ملك السموات والارض: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] و﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢]، و﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٣].

وحيث ان الانسان هو المكرّم بين المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٤].

فان كل ما هو في الكون مسخّر له، فالناس سواسية فى الانتفاع بما خلق الله في السموات والارض: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٥] و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ.. وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ.. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٦] و﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾[٧]، و﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[٨] و «وانظر ما أروع هذا التعبير وأبعد دلالته؟!.. الشمس والقمر والسماء والارض والليل والنهار وكل ما في الحياة«مسخّر» للانسان. وقد قال علماء اللغة:

«السخَّرة ما سخّرت من خادم أو دابة بلا أجر ولا ثمن، وسخُّرته في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٧ (المؤلف).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨٤(المؤلف).

(٣) سورة النحل، الآية: ٥٣(المؤلف).

(٤) سورة الاسراء، الآية: ٧٠(المؤلف).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٩ (المؤلف).

(٦) سورة ابراهيم، الآية: ٣٣،٣٢(المؤلف).

(٧) سوره الحج، الآية: ٦٥ (المؤلف).

(٨) سورة لقمان، الآية: ٢٠ (المؤلف).

العمل استعملته مجاناً، وسخر الأبل ذللها وسهلها...»[١].

ومن العدل تأمين العمل للقادرين عليه، والأجرة حسب الاستحقاق، لمكافحة الفقر، مع ما يتطلبه ذلك من الاثرياء في ان يتحملوا مسئوليتهم في هذه المكافحة، وقد استعاذ محمد من الفقر قائلاً: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[٢] وإن الفقر كاد أن يكون كفرا[٣].

وليس الفقراء مسؤولين عن فقرهم، انما الاغنياء الاحتكاريون المرابون هم المسؤولون فهم يستولون على اكثرية مصادر الثروة من مال وأرض وزرع ومواد ومنتجات، ويحجبون فرص العمل عن أكثرية الناس، وفي حالة توفير فرص العمل فبأجرٍ بخس.

ويقيناً، ان المواقف المبدأية في العدل وإحقاق الحق ومكافحة الظلم، والقضاء على الفقر، ليست نتاج أفكار نظرية، ومقولات متقدمة فقط، بل هي

---

(١) عز الدين بليق المصدر (المؤلف).

(٢) انظر نص الدعاء في وسائل الشيعة: «اللهم اليك بسطت يدي، وفيما عندك عظمت رغبتي، فاقبل مسحتي وأغفر لي وارحمني اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر ومواقف الخزي في الدنيا والاخرة» المصدر ج ١٣: ص ٣١٤ وفي الكافي مثله ج ٤ ص ١٨٤ / ج١ وفي مسند أحمد كان الرسول ﷺ يقول في دبر كل صلاة: « اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر» المصدر ج ٥: ص ٣٩ وسنن النسائي ج ٨:: ص ٢٦٢، المستدرك للحاكم النيسابوري ج ١: ص ٣٥ سنن البيهقي ج ٧: ص ١٢ (المحقق).

(٣) انظر مجمع الفائدة للمحقق الإربلي ج ٩: ص ٢٢٨ وعنه في رياض المسائل، السيد علي الطباطبائي ج ٢: ص ٤٣٤ (المحقق).

ترتبط إرتباطاً صميمياً بالطبع الشخصي.

ان الطبع الشخصي كثيراً ما يشوه المنطلقات النظرية المتقدمة، عند التطبيق، فيما إذا كان ذلك الطبع ينم عن قساوةٍ وإنحراف:

ومن الواضح ان الأفكار التي يحملها الاشخاص، ليست بالضرورة متجانسة مع طباعهم، فقد يحمل شخص فكراً إنسانياً عادلاً، لكن إنحراف الطبع، يؤدي الى تضييع قيمة ذلك الفكر الانساني، أو تشويهه، أو الأجهاز عليه بوعي أو بدون وعي. من هنا فإن سلامة العلاقة بين الطبع والأفكار الانسانية هي منطلق صحيح للتطبيقات الناجعة.

وبالإمكان - دوماً- تطوير الطبع، وتطهيره، بضوء هداية الأفكار. هذا كان واحدا من دروس النبي محمد التي تعلم منها أصحابه الشيء الكثير.

فإنسانية محمد التي شملت الفقراء بالرحمة، وحق العمل. والإنصاف، وشملت المحتكرين بالردع والعقاب. هي طبيعة كلية، ذات حضور إنساني عادل، وعطوف، يشمل أصغر درجات السلوك، وأكبرها على حد سواء، في التعامل مع الكائنات الحية عموماً ف«حتى على مخلوقات الله العجماوات فاض قلب الرسول حناناً ورحمة.

فقد تحدث عن رجل مَتَحَ الماء من بئر ليطفيء ظمأ كلب، فقال انه كسب الجنة بعطفه هذا على مخلوق عاجز من مخلوقات الله. وأشار يوماً الى امرأة متوفاة فقال أنّها دخلت النار في قطة احتبستها فلا هي أطعمتعها ولا تركتها

تأكل من خشاش الأرض»[١].

ان هذه النظرة الانسانية الممثلة بالرحمة على الحيوان، تتصل إتصالاً طبيعياً بالرحمة الانسانية، والرقّة الكريمة، و«منذ صباه الأول كان يبدي عطفاً عميقاً على الأرمال والأيتام والبائسين، وكان يقول:

« أنا ومن يعطف على يتيم متقاربان كهاتين الأصبعين»، ويبسط سبابته وأصبعه الوسطى معاً، والقرآن الكريم حافلٌ بمثل هذا العزاء لليتامى والضعفاء والبائسين. فهو يقول: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢]، وكان هو نفسه مستعداً لأن يحتمل اعظم الأرزاء في جَلَدٍ وصمت. ولكن أضأل الألم يصيب شخصاً غيره كان خليقاً به ان يفطّر فؤاده. كان يأخذ ابداً بناصر المظلوم.

ولقد أيَّدَ حقوق النساء على الرجال، والعبيد على سادتهم، والمحكومين على الحكام، والرعيّة على الملك. وكان جدّ مولع بالأطفال، فما ان يلقي احداً منهم في طريقه حتى يربّت على خده ويلاطفه. وكان يعود المرضى، في غير انقطاع، فيتفقد حالهم ويواسيهم، وكان يشيّع جنائز الموتى...»[٣].

و«لم تندّ من شفتيه، طوال حياته، أيما لفظة بذيئة. بل انه لم ينطق قط حتى

---

(١) مولانا محمد علي: المصدر (المؤلف).

(٢) سورة الماعون، الآية: ١-٣ (المحقق).

(٣) المصدر نفسه (المؤلف).

بلفظة قاسية واحدة، وكان يحظر على الاخرين ايضاً ان يصطنعوا اللغة الفظة، فاذا ما أراد تحذير أحد فعل ذلك بلهجة جدّ رقيقة مفعمة بالمودة والحنان، وكان من دأب اليهود ان يحيّوه قائلين: « السّام عليكم»[1] اعني الموت لكم، بدلا من«السلام عليكم»، وإذ سمعت عائشة ذلك لم تتمالك نفسها عن القول: «الموت لكم انتم!» ولكن الرسول لم يُقِرَّ ذلك قائلا ان الله لا يحب الكلام الفظ»[2].

أي ان العدل المحمدي، الذي هو عدل الاسلام، كان - في التطبيق- ينشرب من طباع محمدﷺ المجبولة على الحب، والرقة، والايثار، وتكريم الحياة، بأي شكل كانت، لذلك جاءت- التطبيقات – ذات قداسة ملموسة، تمكنت من خلق عالم جديد، من عناصر عالم أهوج، شديد الاضطراب.

وكان إيمانه بالانسان هو موضع اطمئنانه التام، فالانسان ضحية ظروفه

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ج ٣: ص ١٩٢ ويذكر ابن حنبل كثير من المواقف بين اليهود والمسلمين حينما يمر اليهودي ليلقي التحية عليهم فيقول«السام عليكم» يعنى الموت لكم. (المحقق).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف)، انظر مسند احمد بن حنبل ج ٦: ص ٣٧، صحيح البخاري ج ٧: ص ٨٠، صحيح مسلم ج ٧ ص ٤، سنن البيهقي ج ٩: ص ٢٠٣، فتح الباري ج ١: ص ٣٧٥ واللطيف فى ذلك قول رسول اللهﷺ: « ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» محذراً أصحابه وموجهاً لهم الطريق التربوي السليم في الحياة. والمصنف لعبد الرزاق الصنعاني. ج ٦: ص ١١ وج ١٠: ص ٣٩٢ ومسند ابن راهويه ج ٢: ص ٢٩٦(المحقق).

الجائرة، على أي نحوٍ كانت، سياسياً واقتصادياً وفكرياً.

وإن ثـورة الانسان ضد تلك الظروف الجائرة، هي التي تعيد الانسان الى مكانته التي أولاها الله اليه. على ان هذه الثورة التى تغير أركان وضع سياسي – اجتماعـي، برمته، هي – نفسها – التي تعيد تربية الانسان، فهو يتعلم باستمرار، ويطهّر طبعه من كل عنصر رديء، باستمرار ايضاً.

قـيمة الـدرس الأخلاقـي المحمـدي، انـه – وهـو النبـي العظـيم- أفْهَمَ الانـسان ان الغـرور مـبعث الـسوء الأكـبر، ذلك لأنه يغلق دائرة وعي الانسان وحسه، وسلوكه في وهم الاكتمال، حيث لا إكتمال غير إكتمال الخلّاق الأعظم.

إنـه أفهم الناس: أصحابه، وأبناء المجـتمع الاسلامي، إن الانسان مشروع مفـتوح، قابـل للـتعلم دومـاً، في الأفكـار، وفي الممارسـة، وفي السلوك، إنه يبني نفـسه، إبـان تأديـته وظيفـته الـسياسية والاجتماعـية والفكـرية. فهـو يبني على الـصعيد، الـذاتي والموضـوعي، أسـس ومرتكـزات الحـق التـي لا يمكن فصل شروطها الموضوعية عن شروطها الذاتية.

مـن هنا، كان يحث على المعرفة، تلك البحار والمحيطات الشاسعة التي لا تُحدُّ لها حدود.

مكانة العقل في الاسلام:

مـن فاتحـة الآيـات القرآنية، يستدل الانسان على مغزى إهتمام القرآن بالعلم والتأكـيد عليه كقيمة أساسية راسخة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

(١) سورة العلق، الآية: ١-٥ (المحقق).

ان اجتماع (العلم) و(القراءة) و(القلم) في هذه الآية الجليلة هو تحشيد للرموز الكبرى في المسيرة الانسانية، والتي صنعت الحضارة على اتصال العصور المختلفة.

ويتقدس ذكر القلم تقديساً لا مثيل له عندما يذكر فى موضع القَسَم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] فالقلم وهو يسطر نور المعرفة على الصحائف والرقائق والورق، إنما يكثف المعرفة العقلية تكثيفاً تاماً، من أجل إشاعة العلم، وايجاد تواصل ثقافي وتفاعل واسع النطاق بين الناس.

لقد نقل القلم المعرفة من الانتشار الشفهي المحدود، والضيّق الى الانتشار الواسع، كما انه وفّر للمعرفة خزانات كبرى حمتها من الضياع.

فالقلم- بحد ذاته – ثورة كبرى، وإنتصار بشري عظيم، على طريق مكافحة الجهل والتخلف، وبناء اللبنات الكبرى في جدران الحضارة.

أي ان القرآن وضع أسس الانتقال من عالم البداوة الى عالم الحضارة، لأن عالم الحضارة لا يتحقق بغير العلم، فاذا ما كان الشعر الجاهلي رمزاً عظيماً من رموز الحياة البدوية، فان العلاقة بين الشعر والحضارة لا تشترط التلازم السببي، بمعنى أن الشعر ليس شرط الحضارة وأسّها، كما أنه ليس بالضرورة ثمرتها ونتاجها، إلا أن العلم شرط الحضارة وسببها، فالحضارة هي نتائج العلم التطبيقية في واحد من معانيها الأساسية.

من هنا يمكن استيعاب الدلالات الهائلة في الدعوة القرآنية الى العلم: ﴿قُلْ رَبِّ

---

(١) سورة القلم، الآية: ١ (المحقق).

زِدْنِي عِلْمًا﴾[١] و﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[٢] و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣].

بل ان مادة «علم» وردت في القرآن بمشتقاتها (٨٥٥) مرة[٤].

ان هذا التكريم الغزير للعلم يعني حث الانسان على التعلم وتطور المدارك والمعارف الانسانية من اجل بناء حياة بشرية عادلة وكريمة. وشأن الإعجاز القرآني في البيان الذي يُشكِّل مناراً خالداً لا يرقى إليه منار، وتثقيفاً أبدياً، وتهذيباً عظيماً، ورد «العلم» معلماً بارزاً في الثورة الأجتماعية العظمى التي أطلقتها الآيات القرآنية في عالم الجزيرة والبداوة والقبائل المتناحرة.

وعلى سعة ذلك العالم البدوي والقبلي المليء بالصراعات المريرة الدامية، وبالخرافات، وبمظاهر التخلف الذي لم تستطع الديانات السابقة اقتلاعه، كانت الصيحة القرآنية صيحة الهدى التي لمت شمل عالم واسع في تبعثره، وتناقضه واحتدامه، فليس السحرُ كامناً في البيان وحده، بل هو- ايضاً- ماثل في العلم والتجديد والثورة الشاملة المعبرة عن الحاجات العميقة للتطور الاجتماعي. فالقرآن قدّم وحدة نموذجية للبيان والعلم والهدى والعدل، وهي الوحدة النبراسية التي وجد فيها الانسان الضال هديه ورشده.

---

(١) من سورة طه (المؤلف) الآية: ١١٤ (المحقق).

(٢) من سورة البقرة (المؤلف)، الآية: ٣١ (المحقق).

(٣) من سورة فاطر (المؤلف)، الآية: ٢٨ (المحقق).

(٤) عبدالحافظ حلمي محمد: «العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم – منهاج وتطبيق» (المؤلف).

وعندما اغتنى الانسان العربي بالقرآن، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً كانت الحكمة القرآنية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1] دعوة عظمى الى الديمقراطية في الميدان الصعب، والحساس، وهوميدان الدين نفسه، فأوجب بذلك تطبيق عدم الإكراه فى المعرفة.

وهذا هو التعبير المجسَّد لقداسة العقل وحق الانسان في التفكير والوصول الى قناعاته بنفسه، فدروب العلم لا تُعد ولا تُحصى، وإن التقت- في النهاية – في وحدة المحصلة.

فـ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[2] و﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[3].

ومن المعلوم ان الربط القرآني بين العلم والهداية، هوالفكرة المركزية التي تتمحور حولها عملية البناء الاجتماعي والحضاري للجماعات والافراد. فهي نهج نظري وتطبيقي أنشأ في صحراء الاعراب مجتمعاً عربياً فتياً نشر ما بين ذراعيه حضارة اسلامية متسعة شرقاً وغرباً.

واضافت الأحاديث النبوية الى الدلالات القرآنية العظيمة تأكيدات متواترة على قيمة العلم باعتباره شرط الحضارة الأصيل وتعبيرها الأوثق.

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ٢٥٦ (المحقق).

(٢) من سورة الاسراء، الآية: ٧ (المحقق).

(٣) من سورة الاسراء، الآية: ١٥ (المحقق).

وفي إيجازٍ رائع، مكثف، زاهٍ، معلِّم، موجّه، مبدع، وردت الاحاديث النبوية عن العلم دليل عمل وتوصيات أبدية صالحة لكل العصور: «اغدُ عالماً، أو متعلماً، أومستمعاً، أومحباً ولا تكن الخامسة فتهلك»[١]، (ويراد بالخامسة بغض العلم وأهله).

وجاء العقل قبل التوكل، فـ«اعقل وتوكل»[٢] وهل هناك أخلد من «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد»[٣] و«اطلبوا العلم ولو في الصين»[٤]؟ ففي هذه الدعوة

---

(١) انظر المعجم الاوسط للطبراني ج ٥: ص ٢٣١، الجامع الصغير للسيوطي ج ١: ص ١٨٣، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٢: ص ٢٢، كشف الخفاء للعجلوني ج ١: ص ١٤٨ ومنية المريد للشهيد الثاني: ص ١٠٦، ومجمع الزوائد ج ١: ص ١٢٢ (المحقق).

(٢) عوالي اللئالي لأبن ابي جمهور الاحسائي ج ١: ص ٧٥، تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة: ص ٣٠٩، شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد، ج ١١: ص ٢٠١، العهود المحمدية للشعراني: ص ٢٩٦ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٦: ص ١١٥، الذريعة للشيخ آغا بزرگ الطهراني ج ٢١: ص ٣٦٩ (المحقق).

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ج ١: ص ٧٨(المحقق) شرح الاسماء الحسنى، ملا هادي السبزواري ج ٢: ص ١١٣. (المحقق).

(٤) كشف الظنون لحاجي خليفة ج ١: ص ٧٨، كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٠: ص ١٣٨ ، تذكرة الموضوعات للفتني: ص ١٧ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ١: ص ٦٩٢، كشف الخفاء للعجلوني ج ١: ص ١٣٨، كتاب المجروحين لأبن حبان ج١: ص ٣٨٢، الكامل لأبن عدي ج١: ١٧٨، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٩: ص ٣٦٩

الى طلب العلم شعار حضاري عتيد تنتفع منه البشرية كلها على أساس التفاعل، والتلاقح، بين تجارب الامم والشعوب في مختلف ميادين المعرفة.

وجاء في الحديث النبوي: «انما العلم بالتعلم»[1]، وهذا يفترض توسيع نطاق التعلم وارسائه على قواعد علمية متطورة مستفيدة من جميع مكاسب العلم.

ان الفضيلة المحمدية العظمى أشّرت خصوصية التطور العربي منذ بدء الاسلام، على أرضية ثابتة، وبضوء وحدة العقل والهدى والعدل والأخلاق، وفي سائر الاحاديث النبوية تبلورت هذه الوحدة بمضامين قوية، يعرضها بيان مدهش.

ورغم ان الديانات تُعوّل على الايمان تعويلاً كبيراً، إلا ان العبقرية المحمدية جعلت للعقل أولوية متميزة، فـ« قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له»[2].

الموضوعات لأبن الجوزي ج ١: ص ٢١٥، ميزان الاعتدال للذهبي ج ١: ص ١٠٧ وج ٢: ص ٣٣٥، لسان الميزان لأبن حجر ج ١: ص ١٩٣ وج ٦: ص ٣٠٤، الذكرى للشهيد الاول: ص ١٥٤ (المحقق).

(١) قال رسول الله ﷺ: « يا ايها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما يخشى الله من عباده العلماء». انظر المعجم الكبير للطبراني ج ١٩: ٣٩٥ وكنزالعمال ج ١٠: ص ٢٣٩ تاريخ مدينة دمشق ج ١: ص ٢٦٦، تهذيب التهذيب لأبن حجر ج ٧: ص ٨٧ (المحقق).

(٢) عزيز السيد جاسم «الرسالة الثقافية القومية بين الاصالة والمعاصرة» (المؤلف).

ويتطلب العلم اخلاقية جليلة، هي اخلاقية السكينة والوقار، والتواضع للمعلم.

وقال الرسول في ذلك: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه»[١]، ذلك «ايجاز يتفجر حكمة وهدىً، فان يتعلم الناس العلم- مجرد العلم- لا يأتون أمراً مذكوراً، أما ان يتعلموا مع العلم أو قبله تلك الصفات الخلقية العالية التي تجعل العلم نوراً وقدوة ورحمة، فذلك هوالعلم حقاً»[٢].

و«يُجل الرسول العلم عن أن يتخذه أصحابه وسيلةً وغرضاً للزهو الكاذب.. فالعالم الحق هو الذي يزداد تواضعاً وتفانياً كلما ازاد علماً، يقول عليه الصلاة والسلام:«لا تعلَّموا العلم لِتُباهوا به العلماء، ولا لِتُماروا به السفهاء، ولا -لِتحتازوا- به المجالس.. فمن فعل ذلك.. فالنار.. النار...»[٣].

---

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج ١: ص ١٢٩ عن الطبراني في المعجم الاوسط ج ٦: ص ٢٠٠، وفي شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: قال رسول الله ﷺ -رواه معاذ بن جبل-: «تعلموا العلم فان تعلمه خشية الله، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، بيان سبيل الجنة، والمونس في الوحشة، والمحدّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الخلاء، والسلاح على الأعداء» المصدر ج ٢٠: ص ٢٤٧ (المحقق).

(٢) خالد محمد خالد، «اسلاميات»(المؤلف).

(٣) صحيح ابن حبان ج ١: ص ٢٧٨، المستدرك للحاكم ج ١: ص ٨٦ موارد الضمآن

فـالعلم كما يعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أجلّ وأعلى من أن يُتّخذ قوتاً لغرور الأنفس الصغيرة وزهوها الرخيص»[١].

وفي المـصب النهائـي للأفكـار المحمديـة، الممـثلة لنداء القرآن، تبرز قيمة الـنفس البـشرية وقداسـتها، إذ ان القـرآن «يبرز القيمة الجوهرية المطلقة للنفس البـشرية[٢]: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

وفي تلـك القـيمة الـنهاية للـنفس البـشرية يعـبر النبـي أخلد تعبير قائلاً: «الانسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه»[٤] وكذلك قال: «ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»[٥].

للهيثمي: ص ٥١، كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٠: ص ١٩٦ الكامل لأبن عدي ج ٧: ص ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ج ٥٢: ص ٣٠٢، تهذيب الكمال للمزي ج ٤: ص ١٨١، ميزان الاعتدال ج ٤: ص ٣٦٣، سير اعلام النبلاء ج ٨: ص ٩(المحقق).

(١) خالد محمد خالد: المصدر نفسه(المؤلف).

(٢) د.خليل احمد خليل: (جدلية القرآن)(المؤلف).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٢. (المؤلف).

(٤) غريب الحديث لأبن قتيبة ج ٢: ص ٣٧٠ ومثله في النهاية في غريب الحديث لأبن الاثير ج ٥: ص ٢٥٢ والحـديث هـو:«مـن هـدم بنـيان ربـه فهـو ملعـون» أي من قتل النفس المحـرمة لأنهـا بنـيان الله وتـركيبه. ولـسان العـرب لأبن منظور ج ١٢: ص ٦٠٣ ، تاج العروس للزبيدي ج ٩: ص ٩٩ (المحقق).

(٥) انظـر مـسند احمد بن حنبل ج ١: ص ٣٨٣، صحيح البخاري ج ٢: ص ٧٩، ج ٤: ص

الذاتي والموضوعي في نشوء الدعوة المحمدية / موجز ختامي:

تعهدت بحوث ومؤلفات عديدة دور النبي العظيم بالدراسة والتدقيق وبيان الآراء، من منطلقات مختلفة.

وذلك أمر طبيعي جداً، ذلك لأن المناهج الفكرية والسياسية تصبغ دراساتها بصبغتها، وتفرض عليها طابعها.

فالدراسات والبحوث تحمل السمات الأيديولوجية لِكُتابها، مما يؤثر - كثيراً أو قليلاً - على موضوعية البحث.

ومن الموضوعات التي أثارت قدراً كبيراً من النقاش والمداخلات المتعددة، قيادة النبي محمد، ودور الفرد في التاريخ.

وقد انصبَّت المداخلات والمساجلات على تحديد الأرجحية:

للعامل الذاتي، أم للعوامل الموضوعية في قيادة محمدﷺ العبقرية؟

وقد شاء الكُتاب الذين بالغوا في إهمال العوامل الموضوعية في دعم وإسناد الدعوة المحمدية، أن يُصوّرها وكأنها ظهرت من عدم. واحتمى ذلك

---

١٠٤ صحيح مسلم ج ٥: ص ١٠٧، سنن ابن ماجة ج ٢: ص ٨٧٣، سنن الترمذي ج ٤: ص ١٤٨، سنن النسائي ج ٧: ص ٨٢، سنن البيهقي ج ٨: ص ١٥ مقدمة فتح الباري لأبن حجر: ص ٣٠ وج٦: ص٢٦٢، والمصنف لأبن شيبة الكوفي ج٦: ص ٤٠٢ وج٨: ص٣٥٢، مسند ابي يعلى الموصلي ج ٩: ص ١١٠، صحيح ابن حبان ج ١٣ : ص ٣٢١، رياض الصالحين ليحيى بن شرف النووي: ص ١٤٤ (المحقق).

الصنف من الكتاب بالقدرة الألهية، في عرض وجهات نظره، والتصدي للكُتاب الآخرين، القائلين بوجهات نظر مختلفة.

وقد جرَّت المبالغة تلك الى نسيان قيمة الانسان وفعاليته، تلك القيمة التي شدّد عليها القرآن الكريم تشديداً خاصاً، كما انها تجاهلت العلاقة بين نشاط النبي والظروف العامة التي أحاطت بحركته، وهي علاقة واقعية أسهمت في احتضان وإسناد نشاط النبي.

وتزخر الآيات القرآنية بالموضوعات المتصلة بالوسط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي كان يُحيط بالنبي، حتى انها استخدمت العديد من العبارات المتداولة في الوسط الاجتماعي – الاقتصادي السائد لتقريب التصورات والأفكار القرآنية من أذهان الناس الذين اعتادوا على لغة محددة نابعة من جوهر واقعهم الحياتي، وخبرتهم التأريخية.

ففي وسط تجاري يستطيع الانسان ان يفهم الآية: «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له؟»[1].

وقد توخى القرآن الدقة العجيبة في رصد القضايا الحياتية للمسلمين وغير المسلمين، في البيئة العربية، فهو يتغلغل فيها من جهة، ويُحافظ على مسافة ضرورية دقيقة من التباعد عنها كيما يوفر لها الهداية، ويؤشر لها طريق التغيير من جهة أخرى.

---

(١) سوره البقرة:الآية:٢٤٥. (المؤلف).

لـذلك فـإن موضوعات القرآن الانسانية مليئة بقضايا حسيّة مباشرة مثل البـيع والـشراء والعمـل والقـضاء والزواج والطلاق والحرب والسلم. الخ، مع تفصيلات تامة احياناً، مثلما هي حفيظ للجانب الألهي، والتشريع المتصل به.

فالوحـي القـرآني يتدبـر العلاقـة بـين الله والبـشر في متابعةٍ ضامنة لكلمة الله،ولحق الناس، في ظروف وأوضاع محتدمة، ومتغيرة.

وتوضـح الآيـات القـرآنية ان النـسق القـرآني يعكـس الكثـير مـن نـسق حياةالعرب، محولاً إياه الى مادة أساسية في الحكمة القرآنية.

إن هذه الواقعية كانت مصدر قوة الاسلام، وهي – في جوهرها – واقعية تصعيدية، ترتقي بالانسان وواقعه نحوالأعلى والأحسن.

ومن غير الممكن إطفاء هذه الواقعية، أوالقفز فوقها، وتجاهل أحكام واقع ديني وسياسي واقتصادي وعسكري يمور بشتى الاتجاهات المتصارعة.

وتحمـل مقـولة الإلهام القرآني دلالتها في العمل داخل الناس، وفي صميم قضاياهم المتعددة.

فالعالم والناس خاضعان لنواميس، وقوانين، لايمكن التفلت من أحكامها وقـد اكَّـد القـرآن الكريم على هذه النواميس والقوانين باعتبارها ادلةً كبرى على عظمة الخلق الألهي.

هـنا، سـتكون للمعـرفة بالقوانين أهمية خاصة، وضرورية، في السعي من أجـل التغيـير. لـذلك لايـوجد تعارض بين العبقرية المحمدية والوحي القرآني، فمحمـد عبقـري قـبل البعث وان كونه اميّاً على صعيد القراءة والكتابة لا يجوز

تعميمه الى ما هود أبعد من ذلك.

ومن المؤكد ان دراسة محمد للواقع العربي المعقد، بكل خصائصه السياسية، والقبلية، والثقافية، والاقتصادية، كانت عوناً كبيراً في استحداث طرائق جديدة للتغيير.

ان معرفة مصادر القوة الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، ومعرفة مواطن الضعف الايديولوجية والسياسية، والعسكرية، والمتناقضات الرئيسية ومتفرعاتها المتعددة، هي معرفة مرشدة، وموجهة، في خوض الصراع، أو تأسيس أوتاد التجربة الإسلامية الأولى.

ومن الناحية الدينية، إن إقرار القرآن الكريم بالكتب السماوية، وبمكانة الأنبياء والرسل، والتذكير بقصصهم، وبأنه – أي القرآن– هوخاتمة الكتب السماوية، (تطابقاً مع دور النبي خاتماً للأنبياء، ومع الاسلام خاتم الديانات) هو إشعار بما يحتويه القرآن من متشابهات ومصادر مشتركة[1].

إلا ان المتشابهات لا تؤثر على الطابع الاستقلالي المتميز للقرآن، والذي ينم عن فرادة عالية.

---

(١) يمكن النظر الى التشابه في سورة يوسف القرآنية، مع الرواية الكتابية، وقد ورد تحليل ثري في ذلك في كتاب «الظاهرة القرآنية» تأليف مالك بن نبي ولأهميته نلحقه بآخر الكتاب، ذلك لأنه يوضح الفارق العميق بين المتشابه والمتميز، بصورة دقيقة (انظر ملحق رقم (٢)...) المؤلف.

مـن جانـبٍ ثـانٍ ان المـبالغة في ذكـر العـوامل الموضـوعية وتضخيمها في مناقـشة دور النبـي في الـتاريخ، تمـيل الى اهمـال المـزايا النبوية النادرة من جهة، وتتعمد إنكار قضية (الروح) وأسرار الخلق من جهةٍ اخرى.

وهـي - في ذلـك- تعمـد إلى إفـتعال المـصادر والمكـوّنات، أو تفخيمها، وصولاً الى المزيد من تقليص فاعلية القائد، والنبي .

إن الـرد على التطرف في تقرير العوامل الموضوعية وارد في حقائق ووقائع كثـيرة، فالماديـون- نظـرياً – يحيلون الانتصار الى العوامل الموضوعية، لكنهم لا يعللون دور العوامل الموضوعية في عرقلة مساعي النبي.

لـنأخذ- في ذلـك- نمـوذج الـسيد المـسيح، أو ليس صلبه كان دليلاً على معـاداة الظرف الموضوعي للنبوة، والرسالة العيسوية؟.. ومع ذلك لا يمكن أن يقول أحد أن المسيح جاء قبل وقته.

وقد اصبح ثابتاً في التأريخ، ان عوامل انتشار المسيحية ليست هي العوامل التي رافقت المسيح في رسالته.

هـناك - إذن- كثرة من الأنبياء والرسل لم يتوفر لهم النجاح بسبب قساوة الظروف المناوئة. ذلك لأن مجتمعاتهم ناصبتهم العداء الشديد.

وكثـيراً مـا أوردت قـصص الـتأريخ – تأريخ الأنبياء بخاصة- ان الدور الشخصي للنبي (وهو دور مدعوم بمدد روحي هائل، لاشك) كان وحده القادر على تذليل العقبات الكأداء.

فـما كـان العبرانـيون قـادرين عـلى العـبور في رحلـة الهـرب من مصر الى

فلسطين، بدون ذكاء وقوة (موسى) ومزاياه العظيمة.

على الصعيد الاسلامي، كانت تحيط بمحمد جدران وقلع المحاصرة والعداء، وقد كانت شروط الحياة المكية (والعربية بعامة في شبه الجزيرة) لا تسمح لنبي أن يتجاوز الحدود التي وصل اليها (هود) و(صالح) وآخرون، لكن الدور المميّز للنبي محمدﷺ أنه استطاع إختراق حدود الشرط الموضوعي وتفجيره، لخلق شرط موضوعي جديد، في ظل أوضاع ايديولوجية- سياسية متأسسة في بدء الثورة المحمدية.

وكما سنرى في ملاحظة ثانية، ان غياب النبي كان يؤذن بالمخاطر المترتبة على غياب فاعلية عظمى كانت لولب الحياة الاسلامية.

عوداً على بدء، حينما اعلن الرسول محمد دعوته الاسلامية، كانت دنيا العرب ضده، وكان يقف نقيضاً له، الوضع (الموضوعي!) السائد.

وهذا هوالسر في بطء انتصار الدعوة، ومحدودية عدد الذين آمنوا بها، ولقد جهر بالدعوة في السنة الثالثة للبعثة النبوية، ولم يدعمه نفر من الخزرج (حيث حصل انعطاف تأريخي نحو يثرب (المدينة) إلا في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية[1].

---

(١) ولم يتجاوز عدد المسلمين في مكة، المائة، بعد عشر سنوات من البعثة النبوية، وهم الذين أمر الرسول بان يهاجروا الى يثرب تخلصاً من بطش قريش(فيما عدا المهاجرين الى الحبشة قبل ذلك) (المؤلف).

وليس الماديون وحدهم الذين يبسّطون دور القائد في التأريخ الى حدٍ غير معقـول، وذلـك بتضييعه في تلافيف ما يُسمى بالعوامل الموضوعية والمادية، بل هـناك بعـض الكتاب الذين لا تعوزهم المنطلقات الروحية (والدينية) يقعون في خطأ المبالغة هذه، أيضاً.

ويمكـن ان نتـناول في ذلـك نمـوذجاً هوالأسـتاذ (محمد جميل بيهم) فهو يركـز تركيـزاً شـديداً عـلى وجـود عـوامل موضوعية ممهدة لقيام النبوة ونشوء الاسلام ونجاحه.

فهويقـول: «يخيل لعامة الناس، اذا ذُكرت فترة الجاهلية، إن العرب كانوا خلالهـا جهـلاء فقراء، وكانوا بدواً إنما يؤمنّون معاشهم بالغزو وتربية الأنعام. وهم الى ذلـك كانـوا في عـزلة عـن العـالم لا يعرفون شيئاً عنه، وإذا امتازوا بخصال فانما يمـتازون بما تقتضيه حياة البداوة من العصبية والشجاعة والكرم، والضيافة. وحفظ العهد والذمام. والواقع ان هذه الصورة المرتسمة في مخيلة أكثر الناس، هي صحيحة بالنـسبة لأهـل البدو، ولكنها لاتنطبق على أهل الحضارة في اليمن والشام والعراق، ولا تنسجم أيضاً مع أصل المدن في الحجاز كمكة والطائف ويثرب وغيرها[1].

و«يحـسب عامـة الـناس ايـضاً ان نجاح الاسلام في نشر رسالته جاء على طـريقة «كـن فيكون» دون ان تسبقه مقدمات طبيعية، وأسباب اجتماعية في شبه الجزيرة العربية وغيرها»[2].

---

(١) محمد جميل بيهم: تاريخ فلسفة محمد(المؤلف).

(٢) المصدر نفسه (المؤلف).

و«على هذا الاساس فإن ظهور الدعوة الاسلامية ونجاحها كانا مسبوقين، في الاوساط العربية وفيما حولها، بمقدمات سهلت لهم السبل: فالعرب كانوا قد تأهبوا، خلال فترة الجاهلية، لبعثٍ جديد تأهب الرمال العطش للوابل، أو تأهب الحطب اليابس للأشتعال»[1].

ثم يتناول تلك العوامل الموضوعية ومن بينها العوامل الروحية، وهي ممثلة في انتشار الديانات في المنطقة العربية قبل الاسلام (الحنيفية، اليهودية، النصرانية...) وتهديد الوثنية، فقد «أصيبت الوثنية بصدمة كبرى قبل الاسلام حينما أدى اختلاط العرب بالاجانب الى بذر بذور الريب في أوساطهم، والشكوك في صحة عبادة الأصنام، وصار بعضهم لايتورعون عن التعبير صراحة عما يُخالج ضمائرهم في هذا الصدد، ومن ذلك قول احدهم في صنم اسمه سعد كان لبني كنانة.

اتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد

وهل سعد الا صخرة بتنوخةٍ ... من الارض لا تدعو لغي ولارشد[2]

---

(١) محمد جميل بيهم المصدر (المؤلف).

(٢) وقصة هذه الأبيات كما يقول ابن اسحاق: كان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر (صنم) يقال له (سعد) - على صخرة بصحراء من أرضهم - فأقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه، التماس بركته فيما يزعم، فلما رأت الأبل - وكانت مرعية لاتركب - الدماء المهراقة على الصنم، نفرت منه، فذهبت في كل وجه، فغضب الملكاني صاحب الأبل، فأخذ حجراً ورمى به الصنم (سعد) ثم قال: لابارك الله فيك، نفرت عليّ ابلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

ويذكر ان دعاةً الى نبذ الأوثان، وعبادة الله كانوا يحملون دعوة الى الاصلاح الديني والاصلاح الاجتماعي، مثل خالد بن سنان، وحنظلة بن صفوان، وامية بن ابي الصلت، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبدالله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل الخ.

ويشدد (بيهم) على دور التجارة في ربط العرب بحضارة العالم المتقدم، وبالسياسة، قائلاً: واذا ذُكر الاسلام فيذكر معه ما كان للتجار من أيادٍ بيضاء في توفير الأسباب لظهوره ولنجاحه في جزيرة العرب...[1].

وهو ينظر الى توجّه الرسول الكريم الى يثرب، من زاوية المكانة التجارية ليثرب، والوظيفة التجارية لليهود.

اتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوخة ... من الارض لا تدعو لغي ولارشد

انظر السيرة النبوية لأبن هشام تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ج ١: ص٥٣ السيرة النبوية لأبن كثير ج١: ص ٦٩ البداية والنهاية لأبن كثير ج٢: ص٢٤٢ ومعجم البلدان للمحوي ج٣: ص٢٢١ تفسير نور الثقلين للحويزي.ج٤: ص٢١ (المحقق).

(١) ان الصحابة الأثرياء الذين هاجروا الى يثرب ضحوا بأعمالهم التجارية لصالح الدعوة وذلك- بحد ذاته- يشكل قضية جوهرية -أما ما عداه فيشكل ظاهرة ثانوية.

ولايمكن ان ينسى أحد دور أثرياء قريش في محاربة الدعوة وكذلك أثرياء الطائف وعبدالله بن أبي بن سلول في المدينة واليهود (أثرياؤهم بخاصة) ومع ذلك فهنالك حالات إنحاز فيها أشخاص أثرياء أو من (وجهاء القوم) الى الدعوة (المؤلف).

لاشك ان للموضوعات التي يعتمد عليها طرح (بيهم) أهميتها، إلا ان تضخيم هذه الموضوعات لا يؤدي الى التحليل السليم لظهور نبوة محمدﷺ لأن النبوة قامت في أجواء العداء الواسع لها.

وذلك واضح- تماماً – في حرب قريش وحلفائها، والتي كان من الآثار المترتبة عليها الهجرة الأولى الى الحبشة، والهجرة الثانية[1] ثم الهجرة الى يثرب.

لقد كان المناخ العام والسائد مناخ الكفر والوثنية والتجارة الأستغلالية، وإذا كان هناك موحّدون وشخصيات من طراز ورقة بن نوفل، وخالد بن سنان، وأمية بن أبي الصلت، وآخرين، فان ذلك كان يمثل حالات فردية استثنائية لم تشكل خطراً على عالم الكفر والوثنية.

وإن أيه شخصية حنيفية، أوموحدة، لم تستطع أن تفعل بقدر قلامة ظفر، أو تغيّر تغييراً بدرجة (الشعرة) في أي ميدان.

وقد هاجرت الشخصيات المذكورة لأن صوتها الضائع في وديان الثنية، جعلها تدرك لا جدوانية البقاء، فاختارت الفرار، والبحث عن أماكن أخرى، فيما اختار بعضها الصمت.

يُضاف الى ذلك ان قريشاً والقبائل الاخرى لم تُقم وزناً لدعوات تلك الشخصيات الموحدة في حين إضطربت اضطراباً عظيماً عندما أعلن محمدﷺ

---

(١) كان عدد المهاجرين أولاً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وكان ذلك في الهجرة الأولى، في السنة الخامسة من النبوة(٦١٨م) أما في الهجرة الثانية الى الحبشة فكان عدد المهاجرين ثمانين رجلاً وثماني عشر أمرأة (المؤلف).

دعوته الاسلامية.

ومما لهُ اهمية خاصة ان منطقة شبه الجزيرة العربية ذات تأريخ عريق في محاربة الأنبياء[١] ويتحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن عدد من حركات الإصلاح التي ظهرت في صورة دعوات دينية قام بها عدد من الأنبياء في عدد من مناطق شبه الجزيرة قبل قيام الدعوة الاسلامية، مثل دعوة هود في قوم عاد الأولى في العربية الجنوبية.

ودعوة أو حركة اصلاح اخرى في سبأ الجنوبية لا يذكر لنا القرآن الكريم إسم صاحبها وإن كان يذكر رفض السبأيين لها، ثم دعوة صالح في قوم ثمود ودعوة شعيب في أهل مَدْين ودعوة اخرى لعاد الثانية لم يذكر صاحبها أو نبيها، وكل من هذ الدعوات الأخيرة قامت في القسم الشمالي من شبه الجزيرة، ثم يذكر كيف لقيت هذه الدعوات تصدياً عنيفاً من جانب هذه الأقوام بحيث لم يكتب لها النجاح والانتشار[٢].

---

(١) عن تصدي بعض أقوام شبه الجزيرة لدعوات أو حركات الأصلاح في حالة عاد راجع سورة هود٥٠-٥٨ وفي هذه الآية الأخيرة إشارة الى فريق المؤيدين وفريق المعارضين كذلك سورة الحج ٤٢ العنكبوت٣٨، الاحقاف٢١ في حالة ثمود، سورة هود ٦١-٦٦ المؤيدون والمعارضون يظهرون في الآية الأخيرة، كذلك الاسراء ٥٩ النمل ٤٥، الذاريات ٤٣، في حالة مدين، الاعراف ٨٥-٩١ صراع المؤيدين والمعارضين، في آيه ٩٠ في حالة سبأ، سورة سبأ: ١٥-١٦ (عن: العرب في العصور القديمة- المصدر نفسه- المؤلف).

(٢) لطفي عبدالوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة – مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام (المؤلف).

وظهرت، صورة مكررة، من العداء الذي جوبه به الأنبياء، هي صورة الفئات الأرستقراطية- التجارية، المستغلة، التي تصدت للدعوات وحركات الاصلاح «ونحن ندرك من سياق الآيات القرآنية ان الذين عارضوا هذه الدعوات أو رفضوها أو حاربوها يشكلون طبقات ارستقراطية يشير القرآن الكريم الى سطوتها وبطشها وأنها كانت تستعين على ذلك بثرائها العريض[1].

وكان الأتهام التقليدي للأنبياء أن اتباعهم هم الأرذلون، أي الأقل جاهاً ومالاً، والفقراء[*].

ان مناخ مكة- بعامةٍ صارمة- كان مناخاً وثنياً قاسياً وليس أدلّ على ذلك من ان الآثار الحنيفية لديانة ابراهيم، لم تصمد رغم انها – أي الديانة – قامت منذ نحوالفي سنة قبل ولادة المسيح.تُرى أين تلاشت تلك الآثار؟ ولماذا حل محلها عالم أل (٣٦٠) صنماً.

ومن غير الممكن تفسير وثنية مكة تفسيراً أحادياً فردياً، مؤداه ان (عمروبن لحي) سيد مكة والقيّم على الكعبة، هو الذي جلب معه الصنم المعروف بـ(هبل) في سفرته الى البلقاء قبل ثلاثمائة عام من الهجرة، وانتشار

---

(١) المصدر نفسه (المؤلف).

(*) ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ سورة الشعراء ، الآية: ١١١، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ سورة هود، الآية: ٢٧.والمخاطبة الموجهة إلى نوح، هي مخاطبة قوم وليست مخاطبة محدودة، لذلك كانت هيمنة وقوة (المؤلف).

عبادة الأصنام إثر ذلك.

إذ لابُـد – هـنا- من العودة الى ادراك قيمة العوامل الموضوعية التي ادت الى انتـشار الوثنـية في مكـة، وهـي عـوامل قائمـة في صلب طبيعة الحياة المكية، المشركة في جوهرها، منذ زمن بعيد.

ومن جانب ثانٍ نحن نذكر انه لم يثبت ان كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني، ليقوم بنشر أفكار الكتاب المقدس[١].

ولقـد تـساءل أحـد المؤلفـين العـرب المحدثـين في احـدى الدراسـات الاجتماعية الهامة، فقال: « هل الاسلام من صنع اليهودية والمسيحية»؟[٢].

ثم أجاب بالنفي معتمداً على ملاحظة للأب (لامانس) الذي عزى إنعدام تأثير المسيحية الى «بعد معتنقيها العرب عن الرعاية المناسبة للكنيسة».

ومن ناحية اخرى، لو ان الفكرة اليهودية المسيحية كانت قد تغلغلت حقاً في الـثقافة والبيـئة الجاهلـية فـان من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقـدس. وهـناك حدث مؤكد فيما يتصل بالعهد الجديد «الإنجيل» هو انه حتى القـرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية، نعرف هذا من مصادر الغزالي الذي اضطر الى ان يلجأ الى مخطوط قبطي كيما يحرر رَدَّه[٣].

---

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية (المؤلف).

(٢) الدكـتور بـشير فارس: الشرف عند العرب قبل الاسلام (بالفرنسية) نقلا عن (الظاهرة القرآنية- لمالك بن نبي) (المؤلف).

(٣) مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية) (المؤلف).

وقد ذكر الأب شدياق – الذي اضطر الى البحث في كل ناحية عن المصادر الانجيلية التي استخدمها الفيلسوف العربي في تأليف «الرد على من أدعى ألوهية المسيح بصريح الانجيل» حين كان يريد ترجمة مؤلف الفيلسوف، ذكر ان اول نص مسيحي ترجم الى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرسبرج، كُتِبَ حوالى عام ١٠٦٠، بيد رجل يدعى «ابن العسال» وهكذا لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي، فمن باب أولى لم يكن يوجد مثل هذه الترجمة في العصر الجاهلي، فهل كان يمكن ان توجد- بصفة خاصة- ترجمة للعهد القديم «التوراة»؟

ان القرآن الذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي وبعض أحبار اليهود بالمدينة، يقول مخاطباً هؤلاء: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

أفليس هذا دليلاً على انه لم يكن يوجد من يقرأ العبرية من العرب، من ناحية، وعلى انه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة من ناحية اخرى[2] بمعنى مؤكد ان البيئة المكية كانت بيئة جاهلية وثنية على نحوٍ أساسي غالب.

خلاصة الأمر، ان مناعة مكة الوثنية صمدت بوجه كافة المؤثرات اليهودية القريبة (في يثرب) والمؤثرات النصرانية سواء من الشام، أو من الحبشة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٣ (المؤلف).

(٢) مالك بن نبي(الظاهرة القرآنيه) (المؤلف).

أو من اليمن، أو من الروم الذين كانوا يشكلون قوةً عظمى ذات اطماع تجارية ودولية معروفة.

إضافة الى ذلك فان زرادشتية إيران لم تستطع أن توصل أي تأثير لها الى البيئة المكية، إن كافة الديانات تعطلت فاعلية تأثيرها وراء أسوار مكة لمسافة بعيدة جداً!

أما الحديث عن التلاوم بين ظهور دعوة محمدﷺ وتصاعد الحركة التجارية، فهو أمرٌ غير منطقي، ذلك لأن الحركة التجارية كانت- أصلاً- أساساً في تطور مكانة مكة، قبل الدعوة المحمدية، منذ زمن بعيد.

وقد جاء الاسلام نقيضاً تاماً للرأسمالية الربوية، والتجارة الأستغلالية، وهذا يفسر الى مدى كبير عداء تجار مكة الشديد لنبوة محمدﷺ ورسالته التي أدركوا، بالعقل والأحساس، خطرها النهائي على مصيرهم الأقتصادي والسياسي.

من ناحية اخرى، من غيرالصحيح، النظر الى الوضع الاقتصادي للعرب وكأنه اقتصاد تجاري أحادي الجانب.

ذلك لأن ميادين الحياة الاقتصادية كانت تشمل الرعي والزراعة والتجارة، وقد كان الرعي مصدراً كبيراً من مصادر عيش نسبة كبيرة من العرب، وكان يقرر- الى حدٍ كبير- نمط حياتهم، وعلاقاتهم، وثقافتهم.

وتعكس مناصبة أهل مكة العداء للنبي وأصحابه شدة التناقض (والصراع) المصيري بين عالم الوثنية (والمال الربوي، والتجارة الأستغلالية) وعالم الايمان والحق.

اي ان الحقيقة الموضوعية كانت ماثلةً في العداء الواسع للدعوة المحمدية، التي بدت وكأنها غير ذات أمل في النجاح، في المرحلة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً، لولا عزم الرسول المدعوم بالعون الإلهي.

ان الاسلام اعلن- جهراً- أنه دين المستضعفين، وقد اعتبر المؤمنون بالاسلام، من الأثرياء، ذلك مقياساً مبدئياً، يعني القبول بالاسلام قبولاً به[1].

ان قصة النبوة منذ بدء الوحي، حتى فتح مكة، هي قصة الصراع المرير الذي لم يتوقف لحظة، والذي عبَّر عن نفسه في ضروب التصدي للنبي وأصحابه، ومحاربته والتآمر عليه، والسعي من أجل اغتياله، بما يبرهن- بلا لبس- على ان الظروف الموضوعية لم تكن لصالح الدعوة الاسلامية.

وقد كانت عظمة محمد المدينة في مرحلة اعلان النبوة الى المدد الروحي في مقدمة عوامل الانتصار على الظروف الموضوعية التي كانت المجال الحيوي لنشاط الوثنيين- الأرستقراطيين، ومجتمعاتهم المندمجة بهم وعياً ومصلحة.

وان غياب محمد كان إيذاناً بانطلاق إدّعاء النبوة و«وقد كانت حروب الردة التي نشبت بعد موت الرسولﷺ هي دون شك انتفاضة أخيرة للتصدّي للدعوة الدينية الجدية حتى بعد نجاحها»[2].

---

(١) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ من سورة القصص (المؤلف) الآية: ٥ (المحقق).

(٢) لطفي عبدالوهاب يحيي، المصدر المذكور قبل حين (المؤلف).

وحين يذكر (بيهم) حديثاً منسوباً الى النبي هو «كنتُ أنا وأبوبكر على هذا الأمر كفرسي رهان، فسبقته فتبعني ولوسبقني لتبعته»[1] فانه يخلط خلطاً غير موضوعي بين النبوة كحقيقة تأريخية- كونية شاملة، وبين أفكار توحيدية قبل اعلان النبوة (فيما يتعلق بأفكار أبي بكر).

---

(١) أي أمر التمرد على الوثنية والحديث رواه احمد زيني دحلان (السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية) (المؤلف).

نقول: مما لاشك فيه ان هذا الحديث لاينهض، وقد وضع لأعتبارات مذهبية معروفة القصد والنية، وإلا فان أصل الحديث، قال رسول الله ﷺ: بعثت والساعة كهاتين وضم بين اصبعيه الوسطى والتي تلي الابهام، وقال: مامثلي ومثل الساعة إلا كفرسي رهان ثم قال: ما مثلي ومثل الساعة لا كمثل رجل بعثه قوم طليعة فلما خشي ان يسبق ألاح بثوبه أتيتم أتيتم أنا ذاك أنا ذاك. والحديث يحمل على البالغة، انظر تاريخ الطبري ج ١: ص٩ و ذكره المحقق البحراني في الحدائق الناظرة قائلاً: «بعثت والساعة كفرسي رهان، كاد احدهما ان يسبق الاخر باذنه، واجيب مع تسليم ثبوت الخبر بالحمل على المبالغة، وان ذلك خرج مخرج ضرب المثل على حد قوله ﷺ من بنى مسجداً ولوكمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة مع امتناع مسجد كذلك «المصدر ج٢٢: ص٣٦٧ ومثله في جواهر الكلام للجواهري ج ٢٨: ص٢١٢ ومثله للنووي في المجموع ج ١٥: ص١٥٦ ونضيف: ان واضعي هذا الحديث ولشدة تعصبهم أساءوا الى مفهوم النبوة وإبعادها عن الوحي الإلهي وكأن أمرها- كما ينبيء هذا الحديث- شيء وضعي يتسابق عليه اثنان محمد ﷺ وأبي بكر، ونرى خطورة هذا الحديث ابلغ من ادعاء الماديين بعدم وجود الخالق وان الدين من وضع محمد ﷺ هكذا يعمل الحقد والبغض والكره بين علماء الطوائف الاسلامية حتى انهم ينسون انفسهم فيخرجون عن الدين ورسالة السماء دون ان يشعروا! وهم يظنون انهم يحسنون صنعاً. (المحقق).

وفي الواقع ان نص الحديث المذكور يلغي دور الوحي، في البعثة النبوية، التي لم يكن أبوبكر في علاقته بها غير صحابي صدّيق[1].

إن المبالغة في رفع صورة الصحابي الى درجة «لوسبقني لتبعته» والتي تنقض كل ما يتعلق بالبعث، والنبوة والرسالة، والوحي، هي- بالذات-المبالغة في رفع العوامل الموضوعية، التي لا تُقيم وزناً لدور الروح في الأعمال التاريخية الكبرى. إن إنعدام المنهج- في ذلك - أوجد خلطاً كبيراً في أسماء لايمكن ان تجتمع تحت سقف واحد.

لقد أراد (بيهم) التأكيد على وجود مفكرين موحدين، ثائرين ضد الوثنية، كيما يبرهن على ان مجيء محمد كان ثمرة طبيعية لتطور الفكر التوحيدي.

ولذلك فهو اذ كان يذكر ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وآخرين، وكذلك يذكر ابا بكر (حسب النص الوارد سلفاً) يضيف الى ذلك ادعياء النبوة- دونما علاقة- قائلاً: والجدير بالذكر هنا ان محمداً صلى الله عليه وسلم ما أن أعلن رسالته حتى بدت حركة جديدة في جزيرة العرب إن دلّت على شيء فإنما تدل على ما كان فيها من نقمة على الوثنية، وتأهب للانتقاض عليها، واعني بذلك نشاط بعض رجالات شبه جزيرة العرب الى اعلان نبوتهم: فادعاها الاسود العنسي في اليمن، ومسلمة من بني حنيفة في اليمامة، وطلحة بن

---

(١) ان تجاهل الدور الفاصل للوحي القرآني في بدء البعثة النبوية وفي تحليل نشوء الاسلام،هوانكار علني (أو مبطن) لعظمة الجانب الروحي، وتفوقه على ميكانيكية السببية المادية الآحادية المعزولة عن جملة الشروط والعلل الروحية- المادية الموحدة (المؤلف).

عـبدالله من بني اسد، ثم رجع الى الاسلام. واكثر من ذلك فقد حبب الى سجاح بـنت الحـارث مـن تمـيم ان تدعـي النـبوة ايـضاً في ذلك الحين، ولكن الاسلام استأصل نبؤات هؤلاء من جذورها قبل ان تنبت...[1].

يُستنتج مـن القـول المذكـور، ان الموضـة الـسائدة كانت موضة الايمان، والتمـرد عـلى الكفـر، فكـان يحلو للكثير الادعاء بالنبوة، لكن سياق الوقائع لا يقول مثل ذلك.

لأن الادعـاء بالنبوة، كان دجلاً مرسوماً، ومدروساً بمواجهة نبوة محمد. أي أنه قناع من أقنعة العداء ضد نبوة محمد، ذلك العداء الذي برز بصور مختلفة، لكن متصلة ببعضها.

ولم تكـن النـبوة الكاذبـة نـبوّة الدجالـين، إلا مظهـراً مـن مظاهر ركوب الموجة، واستباق الاحداث بأي شكل، بقوة دافع البحث عن السلطة.

وكـان محمـد الرسـول العظـيم، (في التـصور الملفـق لأولـئك الدجالين، وطبقـتهم الـسياسية والاقتـصادية) طالـب سـلطة. فاخـتاروا التقلـيد المـزيف والادعاء الكاذب، طريقاً للحصول على السلطة، أو لتكريسها.

---

(١) محمـد جمـيل بـيهم (تـاريخ فلـسفه محمد) (المؤلف)، فهذا الكاتب وغيره وضعوا مسألة الـتحول الى الايـمان والدعـوة الى النبوة لتصوير رسالة السماء وقائدها محط منظور أرضي بعـيداً عـن وحـي الـسماء وكـأن محمـداً ﷺ سـلطان صاحب سلطة ملوكية وليس بنبي مرسل!! (المحقق).

إن عالم شبه الجزيرة العربية عالم شاسع، فيه المدن التجارية، وفيه بعض الموحّدين، كشخصيات استثنائية، وفيه ديانات (الصابئية اليهودية، النصرانية...) إلا انه ليس ذلك كليةً فهو - في الأساس- عالم وثني في غالبيته وبدوي في اكثريّته.

وقد طبع الشرط الوثني – التجاري طابعه الأكبر على المدن وملحقاتها، كما طبع الشرط الوثني – الاعرابي- الرعوي طابعه الأكبر على مجتمعات خارج المدن، فكانت نبوة محمد صراعاً حاداً ضد وثن المدينة المزدوج (الوثن المعبود، والوثن المالي) وضد كفر ونفاق الأعراب، فهجم على أوثان المدينة ووثنيتها التجارية بلغة البدوالرُحَّل الساعين وراء الكلأ والماء قائلاً: « الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»[1].

---

(١) النهاية في غريب الحديث لأبن الاثير ج ٢: ص٤٦٧ لسان العرب لأبن طيفور ج ١٠: ص٤٤٩ و(ذكره الصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد ج ٩: ص ١٦٩ وخرّجه المحقق (الشيخ عادل احمد عبد الموجود) عن مسند أحمد ج ٥: ص٣٦٤ وابوداود ج ٣: ص٧٥٠ (٣٤٧٧) ومن حديث ابن عباس اخرجه ابن ماجة ج ٢: ص ٨٢٦ (٢٤٧٢) وابن السكن كمافي التلخيص ج ٣ ص٦٥) وانظر الخلاف للطوسي ج٣: ص٥٣٣ عن (تلخيص الحبير ج ٣:ص٦٥ درر اللآلى لأبن ابي جمهور الاحسائي ج ٢: ص٩٦ المستدرك ج ١٧ ص ١١٤ الدراية في تخريج احاديث الهداية ج ٢: ص٢٤٦/ ح ٩٨٧، وروي بلفظ المسلمون بدل الناس في سنن ابن ماجة ج ٢: ص٨٢٦/ ح٢٤٧٢) والمبسوط للطوسي ح ٣ ص٢٨١، مختلف الشيعة للعلامة الحلي ج ٦ ص٢٠٤ شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني ج ٧ ص١٨٥ ومسالك الافهام للشهيد الثاني ج ١٢ ص ٤٤٥ عن سنن البيهقي ج٦ ص ١٥٠ (المحقق).

وهجم على كفر ونفاق الاعراب الذين ذكرهم القرآن: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[١] بمبادئ التعليم، والتربية والتطبيع على العلاقة التشاركية، التراحمية، التي تشمل الجميع، مؤكداً ان الرحمة «ليس برحمة احدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة» والعامة هم الناس، كل الناس، اما رحمة الواحد صاحبه فهي رحمة ذات خصوصية عائلية أوعشائرية، في حين كان النظر المحمدي يتجه الى أمة العرب، وقبلته في ذلك المشروع التأريخي الخالد مكة التي أخرجه منها قومها، وهي أحبُ البلاد اليه وقد خاطبها الرسول: يا أحب بلاد الله إليَّ لولا ان قومك اخرجوني ما تركتك[٢] وهذا ما يذكرنا دوماً بالجحيم الذي حاصر الرسول منذ بدء البعثة جحيم المطاردة وإخراجه من أحب بلاد الله اليه، وجحيم نفاق الاعراب وجحيم الاعداء من كل حدب وصوب.

ومن ثم يذكرنا بالقدرة النبوية الهائلة في دحر الجحيم.

ومن المناسب الإشارة الى ان تعدد نواحي العظمة المحمدية، يتصل بعدد من العوامل التمباينة، إذ ان جانباً من العظمة متحققاً بسبب عامل معين (أو عدة عوامل) ليس بالضرورة متطابقاً في (العلِيّة) مع جانبٍ اخر.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧ (المحقق).

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج٣ ص٢٨٣ بغية الباحث للحارث بن أبي أُسامة ص ١٢٨ مسند ابي يعلى الموصلي ج ٥: ص٦٩ جامع البيان ج ٢٦ ص٦٢ تفسير ابن كثير ج ٤ ص١٨٩ تفسيرالجلالين ص ٧١٠ الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص٤٨ لباب النقول للسيوطي ص ١٧٦ فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص٣٦ (المحقق).

ومـن الموضـوعي ان الجانـب الروحـي، الألهامي عند الرسل والأنبياء لا يُحـال الى عوامل وشروط مادية مسببّة مباشرة وأحاديّة بينما تحال جوانب القيادة العـسكرية والحلـول الاقتصادية والاجتماعية، الى شروط موضوعية متفاعلة مع القدرة الذاتية.

ويُعتبر الجانب الروحي أكبرُ دلالةً من الاعتقاد الديني التقليدي، الذي مرَّ بأشـكال ومـراحل مختلفة، طوطمية، ووثنية، وتوحيدية. ذلك لأنه يعتمد الصلة بـين الله والـروح في رؤيـته المعـرفية وفي تحلـيله لنشوء الكون، والحياة، والموت، والبعث، فالله نور في القلب، وفي السماء.. وفي كل مكان.

ويخطـئ خطـأً كبـيراً من يربط النبوة والرسالة بعوامل وتأثيرات دراسية، وتربوية، معينة، لأنها كمعرفة إيحائية، عصيّة على أي تلقين أو تدريس.

مـن هـنا يمكن النظر الى محاولة اعتماد تأثير الراهب (بحيرى) على محمد، باعتباره عاملاً موضوعياً بأنها محاولة زائدة.

ولـيس هـناك مـن يـرى في لقـاء قـصير بين مسافر في قافلة تجارية وبين راهب حصول أي تأثير أو تأثير من النوع الفعال.

هـذا مـا يمكـن الإقـرار بـه عـلى صـعيد التأثير الفكري أما على الصعيد الروحي- النبوّي فهو ما لايمكن ان يخضع لهذا النوع من التحليل والبحث عن العوامل.

وكـان تـوماس كارلـيل محقاً إذ قال: وأني لستُ ادري ماذا أقول عن ذلك الـراهب سرجـياس (بحيرى) الذي يزعم ان أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار

ولا ماذا عساه يتعلّمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب فان محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته[١][٢].

ولم يقتبس محمد من نور أي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يكُ في جميع اشباهه من الأنبياء والعظماء – أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة في ظلمات الدهور – من كان بين محمد وبينه أدنى صلة، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين افكاره[٣].

ولا يبتعد أولئك الذين يعمدون الى تضخيم قصة العلاقة مع الراهب (بحيرى) عن الأفتراءات القرشية – الوثنية،التي كانت تزعم ان الغلام النصراني (جبر) هوالّذي كان يُعلّم محمداً[٤].

---

(١) توماس كارليل (الابطال) (المؤلف).

(٢) كذلك حاول بعض الكتاب، من زاوية فكر مادي – ابراز دور ورقة بن نوفل، كما فعل (نيكيتا ايليسيف) في كتابه (الشرق الاسلامي في العصر الوسيط) إذ قال بالنص «ومن بين حنفاء مكة، ابن عم لخديجة هو ورقة بن نوفل الذي كان عالماً ضليعاً بالسريانية والعبريّة، الى جانب العربية ويبدو إنه استطاع ممارسة بعض التأثير على تطور محمد الفكري» ولم يوضح الكاتب مصدراً لرأيه ذلك وإذاكان ورقة عالماً فأين هو تأثيره في مكة؟ وخارج مكة؟ وما علمه (المؤلف).

(٣) توماس كارليل (الابطال) (المؤلف).

(٤) ثمة انموذج من الكتاب يربط – عسفاً – فكر النبي بتأثيرات يهودية وزرادشتية ومسيحية ويتجه – بدون ادلة – الى المبالغة بالقول ان «قسماً لابأس به من القانون المدني الروماني قد

تحديداً، يمكن القول ان الكشف النبوي لا يمكن تعليله -بصورة أحادية قطعية- بعوامل موضوعية دينية كانت أو مادية، مع ان هناك سمات عظيمة في شخصية النبي يمكن إكتناهها من خلال دراسة الشروط الموضوعية المتفاعلة مع القدرة الشخصية. إذ في التفاعل المذكور تتولد الخبرة الشخصية وتنمو وتتطور.

وتشير قصة الرسول الكريم مع قوم كانوا يلقحون نخلهم، فأبدى لهم رأياً لم تتحقق عنه مصلحة القوم، عن مدى احترامه لتجربة الناس وخبراتهم قائلاً: «انتم اعلم بأمر دنياكم» و«لا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فاني لن أكذب على الله عزوجل».

إن ذلك يشير الى الترابط بين مستويات مختلفة، ومتصلة من المعرفة والخبرة، التي تقف في أعلى درجة منها المعرفة النبوية، التي تُعد أرقى تجسيد للصلة بين المعرفة الواقعية، والخبرة الانسانية، وبين المعرفة الإلهامية.

خلاصة الموضوع ان النبي محمداً حين أقام ديناً ودولة، وثقافة، لم يجد المهدات الأساسية لجهده النادر، ففي مكه لم تتوفر المقومات النواتية لبناء الدولة، كذلك

أدخل في الحديث النبوي حسب رأي (دي لاسي اوليري) الفكر العربي ومركزه في التاريخ».

ولا يعلم احد كيف أو تيت الفرصة للنبي لدراسة القانون المدني الروماني والتأثر به والاغتراف منه ! ومتى؟ وهو ما هو عليه من حياة معروفة ان رد الأمور الى مصادر(ها!) يخرج عن نطاق الموضوعية إذا ما كان ظنياً تقديرياً وإذا كان متجاهلاً الخصائص النبوية في المعرفة والمبادرة وحتى في التأثر (المؤلف).

كانت مكة مضربةً عن التوحيد، بما في ذلك عن تأريخها الشخصي القديم (تأريخ ابراهيم) فهي صامدة في رفضها لأي دين.

ومن الناحية الاجتماعية – القبلية كانت قريش عدواً له، فهو لم ينتصر بها، بل كانت مصدر العداء والمطاردة له ولأصحابه.

أي ان الأقانيم الثلاثة للتطور الشرقي: (الدولة بمؤسستها العسكرية) والدين (بمؤسسته الثقافية) والقبيلة(بمؤسستها الاجتماعية – الاقتصادية – التعبوية)، لم تكن جاهزة – نواتياً- تحت نطاق ممارسة النبي، كي يستثمرها لإنضاج مشروعه التأريخي العظيم، إذ لم تؤكد حياة مكة على توفرها إلا بصور ضئيلة، وبالإتجاه المضاد لإنبثاقة الاسلام.

لقد تجهّز محمد بالرسالة، فسعى في وسطٍ اجتماعي- سياسي- اقتصادي، صعب، سبق ان حكم (هو أو مثيله) على العديد من الأنبياء والرسل بالموت، لكن التفوق النبوي، المفعم معرفةً بكيفية التحرك داخل وسط الصعوبات القاسية، أتاح له تأسيس الشرط الذاتي للحركة الاسلامية، من خلال دوره النبوي المميز أولاً ومن خلال دور الصفوة المؤازرة والمقاتلة، وصولاً الى تأسيس حركة جماهيرية اسلامية متنامية، ومتعاظمة، لم تكن – قبل ذاك- متواصلةً الى ادراك كنهها، وقيمتها التأريخية، إلا بصورٍ جزئية.

إن الاطار الموضوعي للفهم المحمدي، ماثل في تشخيص اين تكمن حركة التوحيد، في أي جانب أو معسكر اجتماعي؟ فأقترنت حركة التوحيد بالعدل الاجتماعي، أي بقضية الفقراء والكادحين والمظلومين، والمستضعفين عموماً.

وبذلك أقدم على تأشير خط الحركة التصاعدية للتأريخ، بمواجهة تأريخ كابوسي، ثقيل، كان يصنعه ويقوده الوثنيون، الرأسماليون المرابون، وحلفاوهم، في الداخل والخارج.

بهذا لم تكن هناك طبقة (عمالية، أو فلاحية مثلاً) جاهزة وعياً، واستعداداً للثورة، وهي بانتظار قائدها(فيما إذا جاز استخدام ذلك التبسيط)، بل كان هناك انسان صُدِعَ بالرسالة الألهية، فكان جزاؤه النفي (أوالهرب) من المجتمع المكي، الذي يفترض به انه يعمل فيه.

إذن، إن دراسة دور الفرد في التاريخ، ومدى فعالية الإمكانية القيادية، أو العوامل الموضوعية، ينبغي ان تهتدي بوقائع وحقائق التأريخ (قديماً كان أوحديثاً) دونما إسقاط خصائص مراحل تأريخية معينة (في الحاضر مثلا) على مراحل تأريخية ماضية، وكذلك دونما اسقاط وعينا المعاصر(وعي أيٍ منا) على خصائص فكر مراحل تأريخية قديمة، أي على وعيٍ (هو) ليس وعينا.

ومن الغريب- تماماً- ان بعض المحلليّين الماديين، إذ يتعرضون لموضوع الهجرة من مكة الى المدينة، فانهم يمرون عليه مروراً عابراً، أو رومانتيكياً- فيما إذا كان يفعل ذلك الأدباء منهم – فى حين ان الهجرة هي منطلق الرسالة المحمدية، أي هي الركيزة الأسياسية للثورة الاسلامية في بدء الانتصار.

وهي – بهذا المعنى- تشير الى أعجوبة تحقيق الهدف (تحرير مكة) من خارجها، وليس من داخلها.

وبذلك انتفت قوة فعالية الظرف الموضوعي المكي، في نجاح الاسلام،

لان عملية النجاح تحققت من خارج مكة، متجهة الى داخلها بالفتح، لا بالتلاؤم والاستمرار.

ثمة قطع في العلاقة بين محمد (ومعسكر المسلمين)، وبين مكة، حاصل بفعل الهجرة، وهو قطع حاد وحاسم تأريخياً، وقد ألغى ذلك القطع تواصل فعل المؤثرات الموضوعية(إقتصادياً، ومادياً) وكانت خطوات الرسول تأسيسية، بمعنى أنها مبتكرة، لكنها شديدة التفهم للحاجات الموضوعية الحقيقية، وقوية الأستجابة لها، بالمنطق الاسلامي.

ومن هنا، يمكن ادراك المعنى الذي اسبغه القرآن الكريم على الهجرة، التي ذُكِرت فيه، هي ومشتقاتها احدى وثلاثين مرة في ثماني عشرة آية.

الملاحق

ملحق رقم (١)

الغزوات التي قادها الرسول بنفسه

التسلسل	اسم الغزوة	قوات المسلمين	قوات اعدائهم	المكان	التاريخ	مجمل النتائج
١	غزوة ودان (الابواء)	٢٠٠ راكب وراجل	ـــــ	ودان	صفر من السنة الثانية للهجرة	لم يلاق قريشاً فحالف بني ضميرة
٢	غزوة بواط	٢٠٠ راكب وراجل	١٠٠ راكب وراجل من قريش	بواط ناحية جبل رضوي	ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة	لم يدرك قافلة قريش
٣	غزوة العشيرة	٢٠٠ راكب وراجل	قوة من قريش وبني مدلج وبني ضمرة	العشيرة	جمادي الأولى من السنة الثانية للهجرة	وادع بن مدلج وحلفاءهم بني ضمرة
٤	غزوة بدر الأولى	٢٠٠ راكب وراجل	قوة خفيفة بقيادة كرز بن جابر الفهري	وادي سفوان بالقرب من بدر	جمادي الآخرة من السنة الثانية للهجرة	فر المشركون بما غنموه من المسلمين ولم يستطع المسلمون ادراكهم
٥	غزوة بدر الكبرى	٣١٥ معهم فرسان فقط وسبعون بعيراً	٩٥٠ منهم ٢٠٠ راكب وهم من قريش	بدر	رمضان من السنة الثانية للهجرة	انتصار المسلمين على قريش
٦	غزوة بني قينقاع	مسلمو المدينة	بنو قينقاع من اليهود	المدينة	أوائل شوال من السنة الثانية للهجرة	تطهير داخل المدينة من اليهود
٧	غزوة بني	٢٠٠ راكب	بنو سليم	قرقرة الكدر	أواخر شوال من	فرار بني سليم وغطفان

	سليم	وراجل	وغطفان	بين المدينة ومكة	السنة الثانية للهجرة	وقد تركوا أموالهم للمسلمين
٨	غزوة السويق	قوة مطاردة خفية من المسلمين	٢٠٠ فارس من قريش	قرقرة الكدر	ذو الحجة من السنة الثانية للهجرة	فرار قريش من مطاردة المسلمين
٩	غزوة ذي أمر	٤٥٠ بين راكب وراجل	بنو ثعلبة ومحارب	ذوامر موضع في نجد	محرم من السنة الثالثة للهجرة	فر بنو ثعلبة ومحارب وبني المسلمون في ديارهم حوالي شهر
١٠	غزوة بحران	٣٠٠راكب وراجل	بنو سليم	بحران على طريق المدينة مكة	ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة	فر بنو سليم فبقي المسلمون في ديارهم حوالي شهر
١١	غزوة أحد	٧٠٠بينهم خمسون فارساً	٢٩٠٠من قريش وأحابيشها ومائة من بني ثقيف بين القوة مائتا فارس	جبل أحد في ضواحي المدينة	شوال من السنة الثالثة للهجرة	استطاع المشركون ايقاع سبعين شهيداً بالمسلمين ولكنهم لم يستطيعوا الانتصار على الرغم من تفوق قوات المشركين وتعويقها لقوات المسلمين
١٢	غزوة حمراء الأسد	٦٣٠بين راكب وراجل	٢٩٧٨من قريش وأحابيشها ومن ثقيف	حمراء الأسد بين المدينة ومكة	شوال من السنة الثالثة للهجرة	طارد المسلمون قريشاً وحلفاءها الى حمراء الأسد بعد انتهاء معركة أحد مباشرة ولكن المشركين فضلوا عدم قبول المعركة وانسحبوا الى مكة
١٣	غزوة بني النضير	كافة مسلمي المدينة	اليهود من بني النضير	ضواحي المدينة	ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة	اجلاء بني النضير عن ضواحي المدينة
١٤	غزوة ذات	٤٠٠راكب	بنو محارب	ذات الرقاع	شعبان من السنة	فرار بني ثعلبة وبني

	الرقاع	وراجل	وبنو ثعلبة من غطفان	بنجد	الرابعة للهجرة	محارب
١٥	بدر الآخرة	حوالي الف راكب وراجل	٣٠٠ من قريش	بدر	شعبان من السنة الرابعة للهجرة	عادت قريش ادراجها الى مكة ولم تذهب للقاء المسلمين في بدر حسب موعدها
١٦	غزوة دومة الجندل	الف راكب وراجل	قبائل دومة الجندل	دومة الجندل	ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة	فرت القبائل
١٧	غزوة بني المصطلق	الف راكب وراجل	بنو المصطلق	المُرَيسيع	شعبان من السنة الخامسة للهجرة	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
١٨	غزوة الخندق	ثلاثة آلاف	عشرة آلاف من قريش وبني سليم وفزارة واشجع وغطفان عدا اليهود من بني قريظة	المدينة	شوال من السنة الخامسة للهجرة	عودة الأحزاب من حصار المدينة خائبين
١٩	غزوة بني قريظة	ثلاثة آلاف بينهم ٣٦ فارساً	٦٠٠ الى ٧٠٠ من قريظة	ضواحي المدينة	ذو القعدة من السنة الخامسة للهجرة	القضاء على بني قريظة
٢٠	غزوة بني لحيان	حوالي ثلاثة آلاف	بنو لحيان	غران	جمادي الأولى من السنة السادسة للهجرة	فر بنو لحيان
٢١	غزوة ذي قرد	ـــــ	غطفان	ذو قرد	جمادي الأولى من السنة السادسة للهجرة	فر بنو غطفان وتركوا الغنائم التي اخذوها من المسلمين
٢٢	غزوة الحديبية	١٤٠٠ راكب وراجل	قريش	الحديبية	ذوالقعدة من السنة السادسة للهجرة	عقد هدنة الحديبية بين المسلمين وقريش
٢٣	غزوة خيبر	١٤٠٠ راكب وراجل	يهود خيبر	خيبر	محرم من السنة السابعة للهجرة	سقوط خيبر واستسلام يهود فدك وواحي القرى وتباهم بذلك اقتضاء عسكريا على يهود الجزيرة العربية

٢٤	غزوة عمرة القضاء(*)	١٤٠٠راكب وراجل	قريش	مكة	ذوالحجة من السنة السابعة للهجرة	بقي المسلمون ثلاثة أيام في مكة بعد أن خرج عنها المشكون وهذه معركة معنويات لا معركة ميدان
٢٥	غزوة فتح مكة	عشرة آلاف	قريش وبنوبكر	مكة	رمضان من السنة الثامنة للهجرة	فتح مكة
٢٦	غزوة حنين	١٢٠٠٠بين راكب وراجل	هوازن وثقيف	وادي أوطاس قرب الطائف	شوال من السنة الثامنة للهجرة	اندحار هوازن وثقيف
٢٧	غزوة حصار الطائف	١٢٠٠٠بين راكب وراجل	ثقيف وبعض هوازن	الطائف	شوال من السنة الثامنة للهجرة	لم تستسلم الطائف فعاد المسلمون ادراجهم الى المدينة
٢٨	غزوة تبوك	ثلاثون ألفاً بينهم عشرة آلاف راكب	جيش كبير من الروم وحلفائهم	تبوك	رجب من السنة الثامنة للهجرة	فضل الروم علم الاشتباك بالمسلمين فأمام المسلمون في تبوك حوالي عشرين يوماً وصالحوا القبائل وسكان منطقة الحدود بين الحجاز والشام فأمنوا بذلك قاعدة أمينة لحركتهم المقبلة (**)

(*) عمرة القضاء ليست غزوة، انظر تعليق سيف الدين سعيد آل يحيى "الحركات العسكرية للرسول الأعظم". المؤلف.

(**) ويذكر سيف الدين: إن المصدر (ك . م)، لم يتطرق إلي عدد وأسماء الغزوات التي قاتل فيها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. وهي تسع غزوات: (بدر القتال، أحد، بني المصطلق، الخندق، قريظة، خيبر، فتح مكة، حُنين، الطائف) "المؤلف"

وجدنا في الفصل التالي التشابه العجيب بين القرآن والكتاب المقدس، فإن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ ابراهيم الى زكريا ويحيى ومريم والمسيح، فأحياناً نجد القرآن يكرر نفس القصة، وأحياناً يأتي بمادة تأريخية خاصة به مثل: هود، وصالح وناقته، ولقمان، وأهل الكهف وذي القرنين...الخ[1].

على ان التشابه هنا عجيب، كما سنرى في قصة يوسف، التي تواجه النقد بمشكلة خطيرة، فعلى عهد النبي نفسه لم يترددوا في أن يثيروا بعض الاعتراضات التي تثار الآن، وبعد ثلاثة عشر قرناً.

والواقع اننا لوصرفنا النظر - منهجياً- عن القيمة العلوية للقرآن، ولوأغفلنا- تبعاً للهوى- اعتباراته الأخرى، فإن هذا التشابه سيظل لغزاً غير مفهوم، ولكي نفهم هذا ينبغي، أن ننصب اللوحة التي ترينا سائر وجوه التشابه في نظرة واحدة، وسيكفينا لذلك مثال واحد هو(قصة يوسف)، التي سنتخذها مقياساً لدراستنا النقدية لهذا الموضوع.

---

(١) «وأما قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ فان كانت الإشارة فيه الى اليهود فربما علموا القصة من أخبار التاريخ، لأن التوراة والانجيل لم يرد فيها شيء من ذلك (المترجم)». عن الأصل للمؤلف.

ملحق رقم (٢)

جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف

قصة يوسف في القرآن والكتاب المقدس

القصة القرآنية	القصة الكتابية
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ	الفصل السابع والثلاثون
١- الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ	١- وسكن يعقوب في أرض غربه أبيه في أرض كنعان.
٢- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	
٣- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ	٢- وهذه مواليد يعقوب لماكان يوسف ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع أخوته وهوغلام مع بني بلهة وبني زلفة آمراتي أبيه، أخبر يوسف أباهم عنهم بريبة شنيعة.
٤- إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ	٣- وكان اسرائيل يحب يوسف على جميع بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً موشى.
٥- قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ	٤- ورأى اخوته ان أباه يحبه على جميع إخوته فابغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.
٦- وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ	

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

٥- ورأى يوسف حلماً فأخبر أخوته به فازدادوا كراهية له.

٧- لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ

٦- قال لهم أسمعوا هذا الحلم الذي رأيته.

٨- إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

٧- رأيت كأنا نحزم حزماً في الصحراء- فإذا حزمتي وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمكم وسجدت لحزمتي.

٩- اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

٨- فقال له أخوته: ألعلك تملك علينا أو تتسلط علينا وازدادوا ايضاً حنقاً عليه لأجل أحلامه وكلامه.

١٠- قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

٩- ورأى ايضاً حلماً آخر فقصه على إخوته وقال: رأيت حلماً ايضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدةً لي.

١١- قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ

١٠- وإذ قصه على أبيه وإخوته زجره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي رأيته أترانا نجيء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك الى الارض...؟

١٢- أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

١١- فحسده إخوته وكان أبوه يحفظ

١٣- قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

١٤- قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ

١٥- فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

١٦- وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

١٧- قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ

١٨- وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

١٩- وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا

هذا الكلام.

١٢- ومضي إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم.

١٣- فقال اسرائيل ليوسف هوذا إخوتك يرعون عند شكيم هلم ابعثك اليهم قال ها أنذا.

١٤- فقال له: امض فافتقد سلامة إخوتك وسلامة الغنم وإتني بالخبر، وآرسله من وادي جبرون فأتي شكيم.

١٥- فصادفه رجل وهو تائه في الصحراء فسأله الرجل قائلا: ما تطلب؟...

١٦- قال أطلبُ إخوتي أين يرعون..؟

١٧- فقال الرجل قد رحلوا من ههنا وقد سمعتهم يقولون نمضي الى دوثائين فمضى يوسف في أثر إخوته فوجدهم في دونائين.

١٨- فلما رآوهُ عن بعد قبل ان يقرب منهم أئتمروا عليه ليقتلوه.

وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

١٩- فقال بعضهم لبعض: ها هو صاحب الأحلام مقبل.

٢٠- وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

٢٠- والآن تعالوا نقتله ونطرحه في بعض الآبار ونقول إن وحشاً ضارياً افترسه، ونرى ما يكون من أحلامه.

٢١- وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

٢١- فسمع رآوبين فخلصه من أيديهم وقال لا نقتله.

٢٢- وقال لهم رآوبين لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية لا تلقوا أيديكم عليه لكي يخلصه من أيديهم ويرده الى أبيه.

٢٢- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

٢٣- فلما جاء يوسف اخوته نزعوا عنه قميصه القميص الموشى الذي عليه.

٢٣- وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

٢٤- وأخذوه وطرحوه في البئر وكانت البئر فارغة لاماء بها.

٢٤- وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

٢٥- ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا وإذا بقافلة من الاسماعيلين مقبلة من جلعاد وجمالهم محملة نكعة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون الى مصر.

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

٢٥- وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

٢٦- قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

٢٧- وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ

٢٨- فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

٢٩- يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

٣٠- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ

٢٦- فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه.

٢٧- فقالوا نبيعه للاسماعيلين ولا تكن أيدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا، فسمع له إخوته.

٢٨- فمر قوم مدّينيون تجار فجذبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه للاسماعيلين بعشرين من الفضة فاتوا بيوسف الى مصر.

٢٩- ورجع رآوبين الى البئر فاذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه.

٣٠- ورجع الى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا الى أين امضي.

٣١- فاخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الدم. وبعثوا بالقميص الموشى فانفذوه الى ابيهم وقالوا: هذا اثبته، اقميص ابنك هو أم لا.

٣٣- فاثبتة وقال قميص ابني وحشٍ

شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

٣١- فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

٣٢- قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ

٣٣- قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ

٣٤- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

٣٥- ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

ضار أكله، افترس يوسف افتراساً.

٣٤- ومزق يعقوب ثيابه وشد مسحاً على حقويه وناح على ابنه اياما كثيرة.

٣٥- وقام جميع بنيه وبناته يعزونه فابي ان يتعزى وقال اني انزل الى ابني نائحاً إلى الجحيم، وبكي عليه ابوه.

٣٦- وباعه المدينيون في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط.

الفصل الثامن والثلاثون

١- وكان في ذلك الوقت إن يهوذا انفرد عن إخوته فنزل برجل عَدُلاميّ يقال له حيرّة.

٢- ورأى يهوذا هناك بنت رجل كنعاني اسمه «شوع» فتزوجها ودخل بها.

٣- فحملت وولدت ابناً فسماه عِيراً.

٤- ثم حملت ايضاً وولدت ابناً فسمته أدنان.

٥- وعاودت ايضاً فولدت ابناً وسمته شيلة وكان في «كاذيب» حين ولدته..

٣٦- وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

٣٧- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

٣٨- وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

٣٩- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

٤٠- مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز فسمي زارح.

الفصل التاسع والثلاثون

١- وأما يوسف فانزل الى مصر فاشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة رجل مصري، من أيدي الاسماعيلين الذين نزلوا به الى هناك.

٢- وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً واقام ببيت مولاه المصري.

٣- ورأى مولاه ان الرب معه وان جميع ما يعمله ينجحه الرب في يده.

٤- فنال يوسف حظوة في عينيه وخدمه فأقامه على بيته وجميع ما كان له جعله في يده.

٥- وكان منذ اقامه على بيته وجميع ما هو له ان الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف وكانت بركة الرب على جميع ما هو له في البيت وفي الحقل.

٦- فترك جميع ما كان له في يد يوسف،

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

٤١- يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ

٤٢- وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

٤٣- وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ

٤٤- قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ

٤٥- وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ

ولم يكن يعرف معه شيئاً إلا الخبز الذي كان يأكله، وكان يوسف حسن الهيئة وجميل المنظر.

٧- وكان بعد هذه الأمور ان امرأة مولاه طمحت عينها الى يوسف وقالت ضاجعني.

٨- فابي وقال لأمرأة مولاه هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت وجميع ما هو له جعله في يدي.

٩- وليس في هذا البيت شيء فوق يدي ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك زوجته فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة واخطأ الى الله.

١٠- وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل منها ان ينام بجانبها ليكون معها.

١١- فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله.

١٢- فأمسكت بثوبه قائلة ضاجعني

٤٦- يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

٤٧- قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ

٤٨- ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ

٤٩- ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

فترك رداءه بيدها وفر هارباً الى الخارج.

١٣- فلما رأت انه قد ترك رداءه وهرب خارجاً.

١٤- صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا، أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عال.

١٥- فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجانبي وفر هارباً الى الخارج.

١٦- ووضعت رداءه بجانبها حتى قدم مولاه الى بيته.

١٧- فكلمته بمثل هذه الكلام وقالت أتاني العبد العبراني الذي جئتنا به ليتلاعب بي.

١٨- وكان عندما رفعت صوتي وصرخت انه قد ترك رداءه بجانبي وهرب خارجاً.

١٩- فلما سمع مولاه كلام امرأته الذي

اخبرته به قالت كذا صنع بي عبدك استشاط عليه غضباً.

٢٠- فأخذ يوسف مولاه وأودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيدين، فكان هناك في الحصن.

٢١- وكان الرب مع يوسف وأمال اليه رحمته ورزقه حظوة في عيني رئيس الحصن.

٢٢- فجعل رئيس الحصن في يد يوسف جميع السجناء الذين في الحصن وجميع ما كانوا يصنعون هناك كان هو مدبره.

٢٣- ولم يكن رئيس الحصن ينظر الى شيء مما تحت يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان ينجحه.

الفصل الاربعون

١- وكان بعد هذه الأمور ساقي ملك مصر والخباز أجرما الى سيدهما ملك مصر.

٢- فسخط فرعون على كلا خصييه

رئيس السقاة ورئيس الخبازين.

٣- وجعلهما في حبس بيت رئيس الشرط في الحصن حيث كان يوسف مسجوناً.

٤- فوكل رئيس الشرطة بهما يوسف فأهتم بهما واقاما مدة في السجن.

٥- فرأيا حلماً كلاهما في ليلة واحدة، كل واحد حلمه، لحلم كل تعبير يحسبه ساقي ملك مصر وخبازه المسجونان في الحصن.

٦- فدخل عليهما يوسف بالغداة فإذا هما قلقان.

٧- فسأل خصي فرعون اللذين معه في سجن بيت مولاه وقال ما بال وجوهكما مكتئبة اليوم.

٨- فقالا له رأينا حلماً وليس لنا من يعبره فقال لهما يوسف ألـيس ان لله التعبير قصا علي.

٩- فقص رئيس السقاة حلماً على يوسف

وقال له: رأيت كأن جفنة كرم بين يدي.

١٠- وفي الجفنة ثلاثة قضبان وكأني بها أفرغت وصارت عنباً.

١١- وكانت كأس فرعون في يدي فاخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وناولت الكأس لفرعون.

١٢- فقال له يوسف هذا تعبيره الثلاثة قضبان هي ثلاثة ايام.

١٣- بعد ثلاثة ايام يرفع فرعون رأسك ويردك الى منزلتك ويتناول فرعون كأسه كالعادة الأولى حين كنت ساقية.

١٤- إنما إذا جاء آمرك فاذكرني في نفسك وأصنع اليّ رحمة، وآجر ذكري لدى فرعون، وآخرجني من هذا البيت.

١٥- لأني قد خطفت من أرض العبرانيين وههنا ايضاً طرحوني في هذا الجب من غير ان أفعل شيئاً.

١٦- ولما رأى رئيس الخبازين أنه قد عبر له بخير قال ليوسف رأيت انا ايضاً

في حلم كأن ثلاث سلال حوّاري على رأسي.

١٧- وفي السلة العليا من جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز والطير تأكله من السلة من فوق رأسي.

١٨- فأجاب يوسف وقال له هذا تعبيره، الثلاث سلال هي ثلاثة أيام.

١٩- بعد ثلاثه أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك ويعلقك على خشبة فتأكل الطير لحمك.

٢٠- فكان في اليوم الثالث يوم مولد فرعون انه صنع مأدبة لكل عبيده فرفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده.

٢١- فرد رئيس السقاة الى سقايته فناول فرعون الكأس.

٢٢- وأما رئيس الخبازين فعلقه على حسب تعبير يوسف لهما.

٢٣- ونسي رئيس السقاة يوسف ولم

يذكره.

الفصل الحادي والاربعون

١- وكان بعد مضي سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً كأنه واقف على شاطي ء النهر.

٢- فاذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان المنظر وسمان الأبدان فارتعت في المرج.

٣- وكان سبع بقرات أخر صاعدة وراءها من النهر وهي قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على شاطيء النهر.

٤- فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان السبع البقرات الحسان المنظر السمان واستيقظ فرعون.

٥- ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبنت في ساق واحدة وهي سمان جياد.

٦- وكأن سبع سنابل دقاقاً لفحتها

الريح الشرقية نبتت وراءها.

٧- فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم.

٨- فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها، فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون.

٩- فلكم رئيس السقاة فرعون وقال إني لأذكر اليوم خطاءي.

١٠- إن فرعون كان قد سخط على عبديه فجعلني في حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين.

١١- فرأينا كلانا حلماً في ليلة واحدة لحلم كل تعبير بحسبه.

١٢- وكان معنا هناك غلام عبراني عبد لرئيس الشرط فقصصنا عليه فعبر لنا حلمينا، عبرلكل واحد منا بحسب حلمه.

١٣- وكما عبر لنا كان، فردني الملك الى رتبتي وذاك علقه.

١٤- فبعث فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن فاحتلق وابدل ثيابه ودخل على فرعون.

١٥- فقال فرعون ليوسف قد رأيت حلماً ولم يكن من يعبره وقد سمعت عنك انك اذا سمعت حلماً تعبره.

١٦- فاجاب يوسف فرعون... (وقال لا بعلمي بل الله يجيب فرعون بالسلام).

١٧- فقال فرعون ليوسف رأيت كأني واقف على شاطي النهر.

١٨- وكأن قد صعد منه سبع بقرات سمان الأبدان حسان الصور فارتعت في المرج.

١٩- وإذا سبع بقرات آخر قد صعدت وراءها عجافاً قباح الهيئات جداً رقاق الأبدان لم أر مثلها في جميع ارض مصر في القبح.

٢٠- فأكلت البقرات العجاف القباح السبع بقرات الأول السمان

٢١- فدخلت في بطونها ولم يتبين انها قد دخلت فيها وبقي منظرها قبيحاً كما كان أولاً واستيقظت.

٢٢- ثم رأيت في حلمي كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحد ممتلئة حساناً.

٢٣- وكأن سبع سنابل جافة دقاقاً قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها.

٢٤- فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل الحسان فاخبرت بذلك السحرة فلم يكن من ينبئني.

١) الجمل الموجودة بين القوسين( ) غير مختارة في النص الفرنسي ولكنا زدناها هنا لانها واردة على نسق الرواية القرآنية إذ ترى الرؤيا هنالك مرتين على لسان الملك فناسب ان تحقق ذلك في الرواية العبرية (المترجم).

٥٠ - وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ

٢٥- فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد الذي سيصنعه الله اخبر به فرعون.

رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

٥١- قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

٥٢ - ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

٥٣ - وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

٥٤ - وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

٥٥ - قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

٥٦ - وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ

٢٦- السبع البقرات الجياد هي سبع سنين والسبع السنابل الحسان هي سبع سنين هوحلم واحد.

٢٧- والسبع البقرات الدقاق القباح الصاعدة وراءها هي سبع سنين والسبع السنابل الفارغة التي لفحتها الريح الشرقية تكون سبع سني جوع.

٢٨- هو الأمر الذي ذكرته لفرعون ان الله مكاشف فرعون بما هوصانعه.

٢٩- ستأتيكم سبع سنين فيها شبع عظيم في جميع أرض مصر.

٣٠- وتأتيكم بعدها سبع سني جوع فينسي جميع الشبع الذي كان في أرض مصر ويتلف الجوع الارض.

٣١- ولايتبين أثر ذلك الشبع في الارض من قبل الجوع الآتي عقبه لأنه شديد جداً.

٣٢- واما تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من لدن الله

المُحْسِنِينَ

٥٧ - وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

٥٨ - وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

٥٩ - وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

٦٠ - فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ

٦١ - قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

٦٢ - وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

٦٣ - فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

٦٤ - قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا

وسيصنعه عاجلاً.

٣٣- والان فلينظر فرعون رجلاً فهما حكيماً يقيمه على أرض مصر.

٣٤- وليشرع فرعون ويوكل وكلاء على الارض ويأخذ خمس غلة مصر في سبع سني الشبع.

٣٥- وليجمعوا كل طعام سني الخير الآتية ويخزنوا برها تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظوه.

٣٦- فيكون الطعام ذخيرة لها لسبع سني الجوع التي ستكون في أرض مصر فلا ينقرض أهل الارض بالمجاعة.

٣٧- فحسن الكلام عند فرعون وعند عبيده أجمع.

٣٨- فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله.

٣٩- وقال فرعون ليوسف بعدما عرفك الله هذا كله فليس فَهِمٌ حكيم مثلك.

أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

٦٥ - وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ

٦٦ - قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهَّ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

٦٧ - وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهَّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

٦٨ - وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

٤٠ - انت تكون على بيتي والى كلمتك ينقاد كل شعبي ولا اكون اعظم منك إلا بالعرش.

٤١ - وقال فرعون ليوسف انظر قد اقمتك على أرض مصر.

٤٢ - ونزع فرعون خاتمة من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بز وجعل طوقاً من الذهب في عنقه.

٤٣ - وأركبه مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا وأقامه على جميع أرض مصر.

٤٤ - وقال فرعون ليوسف أنا فرعون بدونك لا يرفع أحد يده ولا رجله في جميع ارض مصر.

٤٥ - فخزن يوسف من البر مايعادل رمل البحر كثرة حتى ترك احصاءه لأنه لم يكن يحصى.

٤٦ - وكملت سبع سني الشبع الذي كان في ارض مصر.

٤٧ - وبدأت سبع سني الجوع تأتي كما

قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

٦٩ - وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

٧٠ - فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

٧١ - قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ

٧٢ - قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ

٧٣ - قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ

٧٤ - قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ

٧٥ - قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

٧٦ - فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ

قال يوسف، فكان جوع في جميع البلدان وأما جميع ارض مصر فكان فيها طعام.

٤٨ - فلما جاع جميع أهل مصر صرخ الشعب الى فرعون لأجل الخبز فقال فرعون لكل المصريين انطلقوا الى يوسف فما يقله لكم فاصنعوه.

٤٩ - وشمل الجوع جميع وجه الأرض ففتح يوسف جميع ما فيه طعام فباع للمصريين. واشتد الجوع في ارض مصر

٥٠ - وقدم أهل الأرض بأسرها الى مصر على يوسف ليمتاروا لأن الجوع كان شديداً في الارض كلها.

الفصل الثاني والاربعون

١ - فلماعلم يعقوب ان القوت موجود في مصر قال لبنيه ما بالكم تنظرون بعضكم الى بعض.

٢ - وقال اني سمعت ان القوت موجود في مصر فاهبطوا الى هناك، وامتاروا لنا فنحيا ولانموت.

ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

٣- فهبط عشرة من إخوة يوسف ليبتاعوا براً من مصر.

٧٧ - قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ

٤- وأما بنيامين أخو يوسف فلم يبعثه يعقوب مع إخوته لأنه قال له لعله يلحقه سوء.

٥- وأتى بنواسرائيل فيمن أتى ليمتاروا إذ كان الجوع في ارض كنعان.

٧٨ - قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

٦- وكان يوسف هو المسلط على الأرض والمدبر لجميع شعب الأرض فجاء اخوته وسجدوا له بوجوههم الى الأرض.

٧٩ - قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ

٧- ولما رأى يوسف إخوته عرفهم فتنكر لهم وكلمهم بجفاء وقال لهم من أين قدمتم قالوا من أرض كنعان لنبتاع طعاماً.

٨٠ - فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ

٨- وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه.

٩- فتذكر يوسف الاحلام التي حلمها بهم فقال لهم انتم جواسيس إنما جئتم

لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

٨١ - ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ

٨٢ - وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

٨٣ - قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

٨٤ - وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

٨٥ - قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ

٨٦ - قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

٨٧ - يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ

لتجسوا ثغور الارض.

١٠ - فقالوا له لا يا سيدي إنما جاء عبيدك ليبتاعوا طعاماً.

١١ - نحن كلنا بنو رجل واحد إنما سليموا القلب ليس عبيدك بجواسيس.

١٢ - فقال لهم كلا بل إنما جئتم لتجسوا ثغور الارض.

١٣ - قالوا: عبيدك اثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في ارض كنعان هو ذا الصغير اليوم عند أبينا والواحد مفقود.

١٤ - فقال لهم يوسف بل الأمر كما قلت لكم أنتم جواسيس.

١٥ - وبهذا تمتحنون وحياة فرعون لأخرجتم من ههنا أو يجيء اخوكم الأغر الى ههنا.

١٦ - ابعثوا واحداً منكم يأتي بأخيكم وانتم تقيدون حتى نمتحن كلامكم هل انتم صادقون وإلا فوحياة فرعون انكم لجواسيس.

اللهَّ إِنَّـهُ لَا يَيْـئَسُ مِـنْ رَوْحِ اللهَّ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ

٨٨ - فَلَـمَّا دَخَلُـوا عَلَـيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيـزُ مَـسَّنَا وَأَهْلَـنَا الـضُّرُّ وَجِئْـنَا بِبِـضَاعَةٍ مُـزْجَاةٍ فَـأَوْفِ لَـنَا الْكَـيْلَ وَتَـصَدَّقْ عَلَيْـنَا إِنَّ اللهَّ يَجْـزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

٨٩ - قَـالَ هَـلْ عَلِمْـتُمْ مَـا فَعَلْـتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ

٩٠ - قَالُـوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَـا يُوسُـفُ وَهَـذَا أَخِـي قَـدْ مَنَّ اللهَّ عَلَيْـنَا إِنَّـهُ مَـنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَّ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

٩١ - قَالُـوا تَـاللهَّ لَقَدْ آثَرَكَ اللهَّ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ

٩٢ - قَـالَ لَا تَثْـرِيبَ عَلَـيْكُمُ الْـيَوْمَ يَغْفِرُ اللهَّ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

٩٣ - اذْهَـبُوا بِقَمِيـصِي هَـذَا فَأَلْقُـوهُ عَـلَى وَجْـهِ أَبِي يَـأْتِ بَـصِيرًا وَأْتُـونِي

١٧ - فجعلهم في الحبس ثلاثة أيام.

١٨ - وفي اليوم الثالث قال لهم يوسف اصنعوا هذا فتحيوا، إني اتقي الله.

١٩ - ان كنتم سليمي القلوب فواحد منكم يقيد في بيت حبسكم وانتم فانطلقوا وخذوا ميرة لمجاعة بيوتكم.

٢٠ - واتوا بأخيكم الصغير إليّ ليتحقق كلامكم ولا تهلكوا فصنعوا كذلك.

٢١ - وقال بعضهم لبعض إنا لآثمون في أخينا إذ رأينا نفسه في شدة وقد استرحمنا فلم نسمع له لذلك نالتنا هذه الشدة.

٢٢ - فاجابهم رآوبين قائلاً: ألم أقل لكم لا تأثموا في دم الولد وأنتم لم تسمعوا لذلك نحن مطالبون بدمه.

٢٣ - ولم يكونوا يعلمون ان يوسف يفهم ذلك لأنه جعل ترجماناً بينه وبينهم.

٢٤ - فتحول عنهم وبكى، ثم عاد اليهم وخاطبهم وأخذ من بينهم شمعون فقيّده بمشهدهم.

بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

٩٤ - وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ

٩٥ - قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ

٩٦ - فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

٩٧ - قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

٩٨ - قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

٩٩ - فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

١٠٠ - وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي

٢٥- وأمر يوسف ان تملأ أوعيتهم براً وترد فضة كل واحد في جوالقه وان يعطوا زاداً للطريق، فصنع لهم كذلك.

٢٦- وحملوا ميرتهم على حميرهم وساروا من هناك.

٢٧- وفتح أحدهم جوالقه ليطرح علفاً في المبيت لحماره فرأى فاذا فضته في فم جوالقه.

٢٨- فقال لأخوته قد ردت فضتي وها هي في جوالقي فاستطارت قلوبهم وبهتوا بعضهم الى بعض قائلين ما فعل الله بنا.

٢٩- وجاءوا يعقوب أباهم في ارض كنعان فقصوا عليه جميع ما نالهم وقالوا.

٣٠- عد خاطبنا الرجل سيد الارض بجفاء واتهمنا بتجسس الارض.

٣١- فقلنا له نحن سليمو القلوب لسنا بجواسيس.

٣٢- نحن اثنا عشر اخاً بنو أبينا احدنا

حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

١٠١ - رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

مفقود والصغير اليوم عند أبينا في ارض كنعان.

٣٣- فقال الرجل سيد الارض بهذا اعلم انكم سليمو القلوب دعوا عندي اخاً منكم وامتاروا لجماعة بيوتكم وانصرفوا.

٣٤- وأتوني بأخيكم الصغير فاعلم انكم لستم بجواسيس وانكم سليمو القلوب فاعطيكم اخاكم وتتجرون في الارض.

٣٥- وبينما هم يفرغون أوعيتهم اذا بصرة فضة كل واحد في جوالقه فلما رأوا صرر فضتهم هم وابوهم خافوا.

٣٦- فقال لهم يعقوب أبوهم قد اثكلتموني يوسف مفقود، وشمعون مفقود، وبنيامين تأخذونه، عليَّ نزلت هذه كلها.

٣٧- فكلم رآوبين اباه قائلاً ان لم اعد به إليك فاقتل ولدي، سلمه الى يدي وانا

ارده عليك.

٣٨- قال لا ينحدر ابني معكم لأن اخاه قد مات وهو وحده بقي. فإن صادفه سوء في الطريق الذي تذهبون فيه انزلتم شيبتي بحسرة الى الجحيم.

الفصل الثالث والاربعون

١- وكان الجوع شديداً في الارض.

٢- فلما فرغوا من أكل الميرة التي أتوا بها من مصر قال لهم أبوهم: ارجعوا فابتاعوا لنا قليلاً من الطعام.

٣- فكلمه يهوذا قائلاً: ان الرجل اشهد علينا، وقال: لاترون وجهي إلاّ واخوكم معكم.

٤- فان بعثت أخانا انحدرنا وابتعنالك طعاماً.

٥- وان لم تبعثه لا ننحدر لأن الرجل قال لنا: لاترون وجهي إلا وأخوكم معكم.

٦- فقال اسرائيل: ولم اسأتم اليّ

وأخبرتم الرجل ان لكم اخاً ايضا؟

٧- قالوا: إن الرجل سأل عنا وعن عشيرتنا، وقال أبوكم باقٍ بعد، وهل لكم اخ، فاخبرنا بحسب هذا الكلام هل كنا نعلم انه سيقول احضروا أخاكم؟...

٨- وقال يهوذا لاسرائيل أبيه: ابعث الغلام معي حتى نقوم ونمضي ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأطفالنا جميعاً.

٩- أنا اضمنه من يدي تطلبه إن لم أعد به اليك وأقمه بين يديك فانا مذنب اليك طول الزمان.

١٠- إنه لو لا انا تلبّثنا لكنا الآن قد رجعنا مرتين.

١١- فقال لهم اسرائيل أبوهم: إن كان ذلك كذلك فاصنعوا هذا خذوا من أطيب فاكهة الارض في أوعيتكم واستصحبوا هدية الى الرجل شيئاً من البلسان وشيئاً من الدّبس ونكعة ولاذّنا وفستقاً ولوزاً.

١٢- وخذوا معكم فضة اخرى في أيديكم والفضة المردودة في افوه أوعيتكم ردوها معكم لعل ذلك كان سهواً.

١٣- وخذوا أخاكم وقوموا فارجعوا الى الرجل.

١٤- والله القدير يهبكم رحمة أمام الرجل فيطلق لكم أخاكم الأخر وبنيامين وإن ثكلتهم اكون ثكلتهم.

١٥- فاخذ القوم هذه الهدية واخذوا فضة اخرى في أيديهم وبنيامين وقاموا وانحدروا الى مصر ووقفوا بين يدي يوسف.

١٦- فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال لقيم بيته أدخل القوم البيت واذبح ذبيحة وهيئها فان القوم يأكلون معي عند الظهر.

١٧- فصنع الرجل كما أمره يوسف وأدخل القوم بيت يوسف.

١٨- فخافوا إذ دخلوا بيت يوسف وقالوا إنما نحن مدخلون بسبب الفضة التي ردت في جواليقنا اولاً ليتسبب علينا ويقع بنا ويأخذنا عبيداً ويأخذ حميرنا.

١٩- فتقدموا الى قيم البيت وكلموه عند باب البيت.

٢٠- وقالوا استمع ياسيدي انا إنحدرنا اولاً لنبتاع طعاماً.

٢١- وكان لما صرنا الى البيت وفتحنا جواليقنا انا وجدنا فضة كل واحد في فم جوالقه فضتنا بوزنها فرددناها معنا.

٢٢- وأتينا بفضة اخرى معنا لنبتاع طعاماً لانعلم من جعل فضتنا في جواليقنا.

٢٣- فقال سلام لكم لا تخافوا ان إلهكم واله أبيكم رزقكم كنزاً في جواليقكم وأما فضتكم فقد صارت عندي ثم اخرج اليهم شمعون.

كتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ۱۳۷۴

٢٤- وادخل الرجل القوم بيت يوسف وأعطاهم ماء فغسلوا أرجلهم وطرح علفاً لحميرهم.

٢٥- وهياؤا الهدية حتى يجيء يوسف عند الظهر لأنهم سمعوا بأنهم هناك سيأكلون طعاماً.

٢٦- ولما قدم يوسف الى البيت أدخلوا له الهدية التي في أيديهم الى البيت وسجدو له الى الارض.

٢٧- فسأل عن سلامتهم ثم قال هل أبوكم الشيخ الذي ذكرتموه في سلام... أحي هو بعد؟

٢٨- قالوا عبدك أبونا في سلام ولايزال حياً وخروا له وسجدوا.

٢٩- ورفع طرفه ونظر بنيامين اخاه ابن امه فقال: أهذا أخوكم الصغير الذي ذكرتموه لي وقال: يرأف الله بك يا بني.

٣٠- ثم أسرع يوسف وقد تحرك فؤاده نحو أخيه وأراد ان يبكي فدخل المخدع

وبكى هناك.

٣١- ثم غسل وجهه وخرج وتجلد وقال قدموا الطعام.

٣٢- فقدموا له وحده ولهم وحدهم، وللمصريين الاكلين عنده وحدهم،لأن المصريين لا يجوز لهم ان يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين.

٣٣- وأجلسوا بين يديه البكر في مرتبته والصغير في مرتبته فبهت القوم بعضهم الى بعض.

٣٤- ثم رفع حصصاً من بين يديه اليهم فكانت حصة بنيامين اكثر من حصة الواحد منهم خمسة اضعاف وشربوا معه حتى سكروا.

الفصل الرابع والاربعون

١- ثم أمر قيم بيته وقال له ملأ جواليق القوم طعاماً قدر ما يطيقون حمله واجعل فضة كل واحد في فم جُوالقه.

٢- واجعل جامي جام الفضة في جوالق

الـصغير مـع فـضة ميرته فصنع بحسب كلام يوسف الذي أمره به.

٣- فلـما أضـاء الـصبح انـصرف القـوم بحميرهم.

٤- فبعد ان خرجوا من المدينة ولم يبعدو قـال يوسـف لقـيم بيـته قم فاسع في أثر القـوم فـاذا أدركـتهم فقل لهم: لم كافأتم الخير بالشر.

٥- أليس هذا هوالذي يشرب به مولاي ويتفاءلُ به قد أسأتم فيما صنعتم.

٦- فلحقهم وقال لهم ذلك الكلام.

٧- فقالوا له لماذا يتكلم سيدي بمثل هذا الكـلام حـاش لعبـيدك ان يصنعوا مثل هذا الأمر.

٨- فـان الفـضة التـي وجدناها في افواه جواليقنا رددناها عليك من ارض كنعان فكـيف نـسرق مـن بيت مولاك فضة أو ذهباً.

٩- مـن وجـد معـه مـن عبـيدك فليقتل

ونحن ايضاً نكون لسيدي عبيداً.

١٠- قال نعم وبحسب قولكم فليكن من وجد معه يكون لي عبداً وانتم تكونون أبرياء.

١١- فبادر وحط كل واحد جوالقه على الارض وفتح كل واحد جوالقه.

١٢- ففتشهم مبتدئاً بالأكبر حتى جوالق بنيامين.

١٣- فمزقوا ثيابهم وحمل كل واحد حماره ورجعوا الى المدينة.

١٤- ودخل يهوذا واخوته بيت يوسف وهم لم يزل هناك ووقعوا بين يديه على الارض.

١٥- فقال لهم يوسف ما هذا الصنيع الذي صنعتم أما علمتم ان رجلاً مثلي يتفاءل.

١٦- فقال يهوذا: ما نقول لسيدي بما نتكلم وبماذا نتبرأ قد كشف الله ذنب عبيدك ها نحن عبيد لسيدي نحن ومن

وجد الجام في يده.

١٧- قال حاش لي ان اصنع هذا بل الرجل الذي وجد الجام في يده هويكون عبداً وانتم تصعدون بسلام الى ابيكم.

١٨- فتقدم اليه يهوذا وقال ياسيدي اتوسل ان يتكلم عبدك كلمة على مسمع سيدي ولا يشتد غضبك على عبد فإنك مثل فرعون.

١٩- كان سيدي سأل عبيده قائلاً هل لكم أب أو أخ.

٢٠- فقلنا لسيدي لنا أب شيخ وأبن شيخوخته صغير واخ قد مات وبقي هووحده لأمه، وأبوه يحبه.

٢١- فقلت لعبيدك انزلوا به إليّ اجعل نظري عليه.

٢٢- فقلنا لسيدي لايقدر الغلام ان يترك أباه وان تركه يموت أبوه.

٢٣- فقلت لعبيدك ان لم ينحدر اخوكم الصغير معكم فلا تعاودوا تنظرون

وجهي.

٢٤- فكان لما صعدنا الى عبدك ابي انا اخبرناه بكلام سيدي.

٢٥- وقال أبونا إرجعوا فاشتروا لنا قليلاً من من الطعام.

٢٦- فقلنا لانقدر ان ننحدر وإنما إن كان اخونا الصغير معنا ننحدر لأنا لا نقدر ان ننظر وجه الرجل ما لم يكن أخونا الصغير معنا.

٢٧- فقال لنا عبدك أبي: انتم تعلمون ان امرأتي ولدت لي ابنين.

٢٨- فخرج احدهما من عندي وقلت انه قد افترس والى الان لم آره.

٢٩- فإن أخذتم هذا ايضاً من امامي فاصابه سوء انزلتم شيبتي بالشقاء الى الجحيم.

٣٠- والآن اذا بلغت الى عبدك أبي والغلام ليس معنا ونفسه متعلقة بنفسه.

٣١- فيكون انه عندما يرى ان الغلام

مفقـود يموت ويحدر عبيدك شيبة عبدك أبينا بحسرة الى الجحيم.

٣٢- لان عـبدك قـد ضمن الغلام لأبي قائلاً: ان لم اعده به اليك فأكون مذنباً الى أبي طول الزمان.

٣٣- فليـبق عـبدك الآن مكـان الغـلام لسيدي ويصعد الغلام مع إخوته.

٣٤- فـاني كـيف أصـعد الى أبي والغلام ليس معي فاشهد البلاء الذي يحل به.

الفصل الخامس والاربعون

١- فلـم يـستطع يوسف ان يضبط نفسه لـدى جمـيع الواقفين فنادى اخرجوا كل احـد مـن بـين يدي فلم يقف عنده احد حين تعرف الى اخوته.

٢- فأطلـق صـوته بالـبكاء فـسمعه المصريون وسمعه آل فرعون.

٣- وقـال يوسـف لأخـوته أنـا يوسف أحي أبي بعد فلم يستطع إخوته ان يجيبوه لانهم ارتاعوا اقدامه.

٤- فقال يوسف لأخوته تقدموا إليَّ فتقدموا فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه الى مصر.

٥- والان لا تأسفوا ولا يشق عليكم انكم بعتموني الى ههنا فان الله قد بعثني امامكم لاحييكم.

٦- وقد مضت سنتا جوع في الارض وبقي خمس سنين ليس فيها حرث ولا حصاد.

٧- فبعثني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الارض وليستبقيكم لنجاة عظيمة

٨- فالآن لا أنتم بعتموني الى ههنا، بل الله وهو صيرني أباً لفرعون وسيداً لجميع أهله ومتسلطاً على ارض مصر.

٩- فبادروا واشخصوا الى أبي وقولوا به كذا قال ابنك يوسف قد جعلني الله سيداً لجميع المصريين هلم اليَّ ولا تقف.

١٠- فتقيم في ارض جاسان وتكون قريباً مني انت وبنوك وبنو بنيك وغنمك

وبقرك وجميع ما هو لك.

١١- واعولك ههنا إذ قد بقي خمس سنين جوعاً لئلا تفنى أنت وأهلك وجميع مالك.

١٢- وهذه عيونكم ناظرة وعينا اخي بنيامين ان فمي الذي يخاطبكم.

١٣- فاخبروا ابي بجميع مجدي بمصر وجميع ما رآيتموه وبادروا فاهبطوا بأبي الى ههنا.

١٤- ثم القى بنفسه على عنق بنيامين اخيه فبكى وبكي بنيامين على عنقه

١٥- وقبل سائر اخوته وبكى معهم وبعد ذلك كلموه.

١٦- ونما الخبر الى بيت فرعون وقيل قد جاء اخوة يوسف فحسن ذلك في عيني فرعون وعيون عبيده.

١٧- فقال فرعون ليوسف قل لأخوتك اصنعوا هذا حملوا دوابكم وأنطلقوا وادخلوا ارض كنعان.

١٨- وخذوا اباكم وبيوتكم وتعالوا إليَّ فاعطيكم خير ارض مصر وتأكلوا دسم الارض.

١٩- وأنت مأمور ان تقول لهم اصنعوا هذا خذوا لكم من ارض مصر عجلات لأطفالكم ونسائكم واحملوا اباكم وتعالوا.

٢٠- ولا تحزن عيونكم على اثاثكم ان خير جميع ارض مصر هو لكم.

٢١- فصنع كذلك بنو اسرائيل اعطاهم يوسف عجلات بأمر فرعون وأعطاهم زاداً للطريق.

٢٢- واعطى كل واحد منهم حلل ثياب واعطى بنيامين ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب.

٢٣- وبعث الى ابيه بمثل ذلك وبعث اليه ايضاً بعشرة حمير محملة من خير مصر وعشر اتن محملة براً وخبزاً وزاداً لابيه للطريق.

٢٤- ثم صرف اخوته فمضوا وقال لهم لا تتخاصموا في الطريق.

٢٥- فشخصوا من مصر وصاروا الى أرض كنعان الى يعقوب أبيهم.

٢٦- واخبروه وقالوا ان يوسف لايزال باقياً وهوايضاً مسلط على جميع ارض مصر فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم.

٢٧- ثم كلموه بجميع كلام يوسف الذي كلمهم به ورأى العجلات التي بعث بها يوسف لتحمله فعاشت روح يعقوب ابيهم.

٢٨- وقال اسرائيل حسبي ان يوسف ابني لايزال باقياً امضي وآراه قبل ان اموت

الفصل السادس والاربعون

١- فارتحل اسرائيل بجميع ماله حتى جاء بئر سبع فذبح ذبائح لإله ابيه اسحق.

٢- فكلم الله اسرائيل ليلاً في الحلم وقال

يعقوب قال ها أنذا.

٣- قال انا الله إله ابيك لاتخف ان تهبط مصر فاني سأجعلك ثم امة عظيمة.

٤- انا اهبط معك الى مصر وانا اصعدك ويوسف هويغمض عينيك.

٥- فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنواسرائيل يعقوب اباهم واطفالهم.

(يلي ذلك اسماء بني اسرائيل الذين جاءوا الى مصر)

٦- فبعث يهودا قدامه الى يوسف ليدله على ارض جاسان ثم جاءوا ارض جاسان.

٧- فشد يوسف على مركبته وصعد ليلاقي اسرائيل أباه في جاسان فلما ظهر له القى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلاً.

٨- فقال اسرائيل ليوسف دعني اموت الان بعد ما رايت وجهك لأنك بعد باق.

٩- ثم قال يوسف لأخوته ولآل أبيه أنا صاعد الى فرعون لأخبره وأقول له ان اخوتي وآل أبي الذين كانوا في ارض كنعان قد قدموا عليَّ.

١٠- والقوم رعاة غنم لأنهم كانوا اصحاب ماشية وقد أتوا بغنمهم وبقرهم وحميرهم وجميع ما هو لهم.

١١- فاذا استدعاكم فرعون وقال لكم ما حرفتكم.

١٢- فقولوا كنا ذوي ماشية منذ صغرنا الى الان نحن وأباؤنا جميعاً لكي تقيموا بارض جاسان لان كل راعي غنم هو عند المصريين رجس.

الفصل السابع والاربعون

فدخل يوسف على فرعون واخبره وقال... الخ.

جدول التفاصيل القرآنية
في قصة يوسف

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
١ـ٣	مدخل يضع القصة في إطار الظاهرة الدينية	مدخل يضع القصة في الاطار العائلي	اختلاف
٤ـ٦	رؤيا واحدة ليوسف	رؤيتان ليوسف	اختلاف
٧ـ١٥	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب عقب التآمر عليه	ذهاب يوسف بأمر يعقوب	اختلاف
١٦ـ١٨	ارتياب يعقوب في أولاده وأمله عقب المؤامرة	سرعة تصديق يعقوب ويأسه عقب المؤامرة	اختلاف
١٩ـ٢٠	بيع يوسف ووصوله إلى مصر	نفس الرواية	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله
٢٤	هم يوسف بالمعصية وبرهان الله له	لم يرد	ـــــــ
٢٥	القميص تقده المرأة	القميص تأخذه المرأة	ـــــــ
٢٧ـ٢٩	إدانة خلقية من الزوج لزوجته	غضب الزوج على يوسف	اختلاف
٣٠ـ٣١	فضيحة في المدينة واجتماع للنسوة	لم يرد	ـــــــ
٣٤	دعاء يوسف امام إلحاح المرأة	لم يرد	النبي يتحدث أكثر في القرآن
٣٦ـ٤٠	وعظ يوسف لأصحابه	لم يرد	ـــــــ
٤١	تعبير الرؤيتين يطلب من يوسف	تعبير الرؤيتين يتقدم به يوسف	اختلاف

٤٢ـ٤٨	حل نفسي لعقدة السجن باعتراف المرأة	حل سياسي مترتب على رؤيا فرعون	الروح تتكلم أكثر في القرآن
٤٩	تكهن بعام الرخاء والنجاة	لم يرد	———
٥٣	وعظ في حضرة الملك	لم يرد	شخصية النبي أكثر ظهوراً في القرآن
٥٤	رد اعتبار يوسف	مهمة معهود بها إلى يوسف	عدالة في القرآن وسياسة في التوراة
٥٥	يوسف يطلب مسؤولية الخازن	مسؤلية الخازن تعرض عليه	اختلاف
٥٧	اهتمام بالآخرة	لم يرد	الدين يتكلم أكثر في القرآن
٥٨ـ٦٢	مشهد يوسف مع اخوته	صورة بتصرف	يوسف أكثر نبوة في القرآن
٦٣ـ٦٧	بواعث العودة الى مصر: مسمى ابناء يعقوب لديه	بواعث العودة إلى مصر أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون	الإتهام بالجاسوسية اعتقال شمعون غير واردة في القرآن
٦٨ـ٦٩	وصولهم الى مصر وتأمر يوسف	نفس الصورة	———
٧٠ـ٧٩	رحيل اخوة يوسف واعتقال بنيامين	مع بعض التصرف	———
٨٠	تشاور الإخوة	لم يرد	———

٨١ـ٨٧	عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة	لم يرد	———
٨٨	عودة الى مصر لدى يوسف	لم يرد	———
٨٩ـ٩٢	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته	حل الموقف بانفعال يوسف	اختلاف
٩٣	إرسال قميص يوسف الى أبيه	لم يرد	———
٩٤ـ٩٥	وجدان يعقوب	لم يرد	———
٩٦ـ٩٩	شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بنيه	لم يرد	———
١٠١	ختام يوسف للقصة بحمدالله والثناء عليه	لم يرد	المعالم الروحية في القرآن

النتائج المقارنة للروايتين

في هاتين الروايتين اللتين فرغنا من عرضهما يمكننا ان نقارن بعض العناصر المتشابهة، بطريقة تُبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن. ثم انه يلزمنا ان نبحث قضية هذا التشابه بين الكتابين، وهو أمر جد مفيد لموضوعنا.

إن سدى التأريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين، ومع ذلك فان مجرد التأمل السريع يمكن ان يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني. فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهونبي اكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف. كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه الى ان يتحسسوا من يوسف وأخيه. وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير انساني وخزه الندم، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها، وتقر بخطيئتها. وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه، ام مع السجان، فهويتحدث كنبي يؤدي رسالته الى كل نفس يرجو خلاصها.

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية- الوثنية بالطبع- بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث

كموحد[١]. وفي القسم الخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة، فعبارة التوراة هي: «فابتلعت السنابل الجياد»[٢] أما في الرواية القرآنية فانها تعقبها فحسب.

والرواية الكتابية تكشف ايضاً عن أخطاء تأريخية تثبت صفة «الوضع التأريخي» للفقرة التي نناقشها، فمثلاً فقرة «لأن المصريين لايجوز لهم ان يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين[٣] يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ الميالين الى ان يذكروا فترة المحن التي اصابت بني اسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف.

وفي رواية التوراة استخدم إخوة يوسف في سفرهم «حميراً» بدلاً من «العير» في رواية القرآن، على حين ان استخدام الحمير لا يمكن ان يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن ان يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلك فان ذرية ابراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل، رعاة المواشي والاغنام.

وأخيراً فان «حل» عقدة القصة يحمل طابع السرد التأريخي في الرواية

---

(١) التوراة – الفصل التاسع والثلاثون جملة ٢٤.

(٢) الرواية الكاثوليكية تقول«السنابل الجياد تلتهم... الخ»

(٣) التوراة- الفصل الثالث والاربعون جملة ٢٣.

الكتابية، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة- التي آثرنا حذفها كيما نتجنب الاطالة المملة- على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر.

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية: يوسف... الذي يختم هذا الختام المنتصر.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠ (المحقق).

المراجع

المصادر التي أعتمدها المؤلف

١- القرآن الكريم

٢- ابن هشام (سيرة الرسول)

٣- ابن الاثير (الكامل)

٤- الترمذي الشمائل المحمدية

٥- اتيين دينيه محمد رسول الله

٦- ابراهيم علي سالم (النفاق والمنافقون في الاسلام)

٧- دي سي اوليري (الفكر العربي ومركزه في التاريخ)

٨- محمد حسين هيكل حياة محمد

٩- محمد جميل بيهم فلسفة تأريخ محمد

١٠- مجموعة مؤلفين محمد(نظرة عصرية)

١١- مولانا محمد علي حياة محمد ورسالته

١٢- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية

١٣- محمد سيد محمد المسؤولية الاعلامية في الاسلام

١٤- نيكيتا ايليسيف الشرق الاسلامي في العصر الوسيط

١٥-	عزيز السيد جاسم	الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي
١٦-	عزيز السيد جاسم	اشكالية العلاقة بين السياسة والغناء في الحياة العربية
١٧-	عزيز السيد جاسم	الرسالة الثقافية القومية بين الاصالة والمعاصرة
١٨-	عبدالحافظ حلمي محمد	العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم
١٩-	عبدالرزاق نوفل	محمد نبياً ورسولاً
٢٠-	عبدالرحمن الشرقاوي	محمد رسول الحرية
٢١-	توماس كارليل	الابطال
٢٢-	خالد محمد خالد	اسلاميات
٢٣-	خليل احمد خليل	جدلية القرآن

صدر للمؤلف

١-	هل التطور اللارأسمالي حقيقة أم وهم؟	(دارالطليعة بيروت)
٢-	المجالسية في النظرية والتطبيق	(دارالطليعة بيروت)
٣-	التصور البورجوازي الصغير في مواجهة البورجوازية الصغيرة	(دارالطليعة بيروت)
٤-	مسائل مرحلية في النضال العربي	(دارالطليعة بيروت)
٥-	موضوعات عن الثقافة والثورة	(دارالطليعة بيروت)
٦-	موضوعات الجبهة الوطنية التقدمية	(دارالنهضة-توزيع دارالطليعة)
٧-	الاصلاح الزراعي والمسألة الفلاحية	(المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت)
٨-	تأميم النفط ومستلزمات الثورة الوطنية الديمقراطية	(المؤسسة العربية- بيروت)
٩-	الحرية والثورة الناقصة	(المؤسسة العربية-

		بيروت)
١٠-	مقالات	(دارالنهضة – بيروت)
١١-	الثوري اللاثوري	(وزارة الاعـــــلام- بغداد)
١٢-	البيروقراطية في العمل السياسي	(وزارة الاعـــــلام- بغداد)
١٣-	الانتهازية	(دارالنهضة-بغداد)
١٤-	الوصولية	(دارالنهضة-بغداد)
١٥-	الثورة ومنطق الحزب الثوري	(دارالنهضة-بغداد)
١٦-	الثورة الواقعية	(دارالنهضة-بغداد)
١٧-	القضية الكردية	(دارالحرية-بغداد)
١٨-	كيف تصبح نقابياً	(الاتحاد العام لنقابات العمال- بغداد)
١٩-	جدل القومية وتطبيقه في السياق التاريخي لنشوء الامة العربية	(منشورات وعي العمال- بغداد)
٢٠-	في الدعاية الثورية	(منشورات وعي العمال- بغداد)
٢١-	نحو وعي مسؤول وتطبيق خلاق	(منشورات وعي العمال- بغداد)

٢٢-	الثورة ومهمات العمل التقدمي	(مطبعة السجل- بغداد)
٢٣-	الثورة بين الاهداف والمعضلات	(دارالثورة- بغداد)
٢٤-	في الديمقراطية	(دارالثورة- بغداد)
٢٥-	الدليل في التنظيم	(دارالطليعة بيروت)
٢٦-	اجراس الرؤية في مسيرة الوحدة	(منشورات وعي العمال- بغداد)
٢٧-	دراسات نقدية في الادب الحديث	(وزارة الاعلام- بغداد)
٢٨-	المناضل (رواية)	(دارالطليعة بيروت)
٢٩-	حق المرأة بين مشكلات التخلف الاجتماعي ومتطلبات الحياة الجديدة	(المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت)
٣٠-	ديالكتيك العلاقة المعقدة بين المادية والمثالية	(دارالنهار- بيروت)
٣١-	مقتل جمال عبدالناصر	(بغداد)
٣٢-	مبادي الصحافة في عالم المتغيرات	(بغداد)
٣٣-	الزهر الشقي- (رواية)	(بغداد)
٣٤-	المفهوم التاريخي لقضية المراة	(بغداد)

٣٥- مسيرة الانتقال الى عصر التكنولوجيا (الموسوعة الصغيرة)

٣٦- تأملات في الحضارة والاغتراب (بغداد)

٣٧- ديوان الحصيري (اعداد وتقديم)

على هامش التحقيق والتعليق

حرية اختيار العقيدة

بقلم المحقق

تكمن عظمة الاسلام كدين سماوي، لما فيه من السماحة في حق اختيار الانسان لدينه وفكره ومعتقده، هذه السماحة مثلت مبدأً مهماً لتنَعُم الانسان بالسلم والسلام والأمن والحرية.

ولذا أشادت الآيات القرآنيه بهذا المبدأ في كثيرمن المواقع، فمن قوله سبحانه تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[3].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٥٦.

(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾[١].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[٢].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٣].

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن الاسلام لا يرغم أحداً على اعتناق عقيدة معينة، ولكن كان يدعوا الناس الى دين الاسلام عن طريق كامل الرغبة والاستعداد للأختيار. كما في قوله سبحانه تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤].

ومن ذلك يتضح ان هناك ثمة فارق بين الإكراه والترغيب لأن الله سبحانه تعالى خلق الانسان مختاراً بعد أن جعل له العقل أساساً للتحكم في اختيار الأصلح والأفضل والأكمل دون الإكراه في الدين: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[٥].

إذن فالاسلام ترك مساحة كبيرة للعقل في حق الاختيار وهذا ما أكده النص القرآني أيضاً من قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الغاشية، الآيات: ٢١-٢٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١].

ومن قوله ايضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢]، وايضاً قوله: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

ومما يؤسف بهذا الخصوص ان تظهر بعض الكتابات غير الموضوعية والتي ربما تقف وراءها غايات سياسية واضحة في تصوير الاسلام كدين اتخذ اسلوب القهر والقسر سبيلاً للعمل في نطاق الدعوة، أو هو الصورة الارهابية المرعبة الذين انتشر بحدالسيف!!

وكأن الاسلام يتخذ أسلوب القهر والقسر سبيلاً من سبل العمل في نطاق الدعوة، أو هوالصورة الأرهابية المرعبة الذي انتشر بقوة السيف! وكأن الاسلام نظرية بشرية لم يقم وزناً واعتباراً للاديان الاخرى والأفكار والعقائد المخالفة له!! وهذا هوالأساس الذي انطلق منه المستشرقون في بحوثهم الكثيرة عن واقع الاسلام والمسلمين[٤]. فانطبعت صورة الاسلام في أغلب بحوثهم

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٤) وكأن النبي محمد ﷺ لم يكن داعية للسلم، بل هومحارب من طراز جنگيز خان، هدفه التوسعة والسيطرة على العالم كله. انظر ما يقوله الوردي بهذا الخصوص في كتابه (مهزلة العقل البشري: ١٨١). مدافعاً عن الرسول ﷺ والرسالة.

بحالـة إرهابـية وقمعية، ومصادرة أفكار وعقائد البشر ومنعهم حتى من التفكر والتدبـر!!! والأنكـى بعـض المـسلمين الـذين يفرضـون أفكـاراً وعقائداً يقف بعضها حائلاً أمام حركية العقل وفاعلية الوعي!!

الإكراه في القرآن

جاءت كلمة الإكراه في القرآن في موضعين:

١- في سـورة البقـرة: ﴿لَا إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُـوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

٢- في سـورة يـونس: ﴿وَلَـوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وربـما يوافق مضمون هاتين الآيتين، قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَـقُّ مِـنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِـمْ سُرَادِقُهَـا وَإِنْ يَـسْتَغِيثُوا يُغَاثُـوا بِـمَاءٍ كَالْمُهْـلِ يَـشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[٣].

أمـا ما هي أقوال المفسرين للآية الكريمة: لاإكراه في الدين، هذا ما سوف

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٥٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الكهف، من الآية ٢٩.

نوضحه من خلال ما جاء به المشاهير من العلماء، وبعد ان نحاول استعراض ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه «تفسير التبيان» والشيخ الطبرسي في كتابه«مجمع البيان» من أقوال عديدة في فهم مدلول هذه الآية.

١- البعض خصها في أهل الكتاب ومن الذين تؤخذ منهم الجزية بالتحديد.

٢- البعض خصها في جميع الكفار ثم نسخت بآيات القتال.

٣- البعض خصها في أبناء الأنصار وكانوا يهوداً، فأريد إكراههم على الاسلام.

٤- البعض يقول ليس في الدين إكراه من الله، ولكن العبد مخير فيه[1].

وفي محاولة قراءة هذه الأقوال، نستنتج ان هناك مورد تشريع ومورد إخبار.

فالاقوال الثلاثة الأولى جاءت ضمن مورد التشريع والتي لايمكن ان تنسجم مع واقع الدين الذي لايمكن تعلق الإكراه به لأن مجاله القلب والفكر،وهما لايقعان تحت طائلة الإكراه. ومن ثم لايمكن تعلق التشريع بالإكراه، نفياً أوإثباتاً.

أما مورد الإخبار- القول الرابع- فهوما يجعل فهم الدين بعيداً عن

---

(١) انظر التبيان في تفسير القرآن- الطوسي: ج ٢، ص٣١١، طبعة النجف، وأيضاً مجمع البيان في تفسير القرآن- الطبرسي:ج١، ص٣٦٤، طبعة صيدا.

حقيقته والأدق هو ان يكون للإسلام شكلاً رسمياً أوصورياً يتمثل في إظهار الشهادتين فقط!

أما القول الذي يعتبر نسخ الآية بآيات القتال، فهو ما يمكن القول بحق: إنّه من الأفكار الخاطئة التي لاتنسجم مع أهداف تشريع القتال في الاسلام[1].

---

(١) انظر التشريعات التي ذكرها الدكتور الوردي في كتابه مهزلة العقل البشري:ص١٨٣.

ومنها:

أ- ان مجتمع الجزيرة مجتمعاً بدوياً، كان يعد القوة رمز الحق.

ب- لجوء الرسولﷺ الى الحرب كان اضطراراً وسبب ذلك انه يعيش في مجتمع يختلف عن مجتمع المسيح اختلافاً كبيراً.

ج- لم تكن الحرب المحمدية سوى مظهر من مظاهر الثورة الاجتماعية ولابد أن يلجأ المستضعفون والفقراء للانضمام الى دعوته، ويترتب على ذلك انهم يلاقوا شتي انواع القهر والارهاب والمطاردة لتمردهم على المترفين الظلمة، فلابد ان يكون لأصحاب الدعوة الجديدة موقفاً دفاعياً امام قوة الطواغيت. ويظهر من ذلك أن الدكتور علي الوردي قرأ السيرة النبوية من خلال منهجين؛ منهج المؤرخين المسلمين، والمنهج الأكاديمي بآليات علم الاجتماع. ومنه هنا فإن قراءته سجلت عمقاً شاخصاً في التفسير، وهو ذات المنهج الذي طالب به المفكرون والباحثون على عدم حصر التفسير على البعض من رجال الدين الدين. انظر أقوال الدكتور مهدي بازرگان في كتاب محمد رضا وصفي«الفكر الاسلامي المعاصر في ايران» ص١٦٠.

تفاسير المشاهير:

أولاً: السيد محمد باقر الصدر

يقول (رض):

يظن- البعض- ان القرآن كفل للانسان حرية التدين وعدمه، ومنع من الإكراه عليه آخذاً بمبدأ الحرية الشخصية، الذي تؤمن به الحضارات الحديثة، ولكن هذا خطأ، لأن الأسلام الذي جاء لتحرير الانسان من عبودية الأصنام على أساس التوحيد، لايمكن ان يأذن للانسان بالتنازل عن أساس حريته والانغماس في عبوديات الارض وأصنامها، كما ان الإسلام لا يعتبر عقيدة التوحيد مسألة سلوك شخصي خاص، كما ترى الحضارات الغربية، بل هي القاعدة الأساسية لكيانه الحضاري كله، فكما لا يمكن للديمقراطية الغربية، مهما آمنت بالحرية الشخصية، ان تسمح للأفراد بمناوأة فكرة الحرية نفسها وتبنّي أفكار فاشستية دكتاتورية، كذلك لايمكن للاسلام ان يقرّ اي تمرّد على قاعدته الرئيسية، وإنما يهدف القرآن الكريم، حين ينفي الإكراه في الدين- الى ان الرشد قد تبيّن من الغي والحق قد تميز من الضلال، فلا حاجة الى اكراه، ما دام المنار واضحاً والحجة قائمة والفرق بين الظلام والنور لائحاً لكل احد، بل لا يمكن الإكراه، على الدين، لأن الدين ليس كلمات جامدة ترددها الشفاه، ولا طقوساً تقليدية تؤديها العضلات، وإنّما هوعقيدة وكيان ومنهج في التفكير[1].

---

(١) محمد باقر الصدر- مجلة الاضواء السنة الثانية، العدد الأول.

التعليق

١ – ان السيد الصدر أكد على عدم الحاجة الى الإكراه.

٢ – ذكر السيد الصدر ان الاسلام جاء لتحرير الانسان ولم يأذن للإنسان التنازل عن هذه الحرية والانغماس في عبوديات الأرض، ولاندري فهل حاسب الرسولﷺ الكفار الذين أدوا الشهادتين طمعاً ورغبة لاعن عقيدة واقتناع مع علمه واطلاعه على حقيقة أمرهم وواقعهم؟ بل انهﷺ اكتفى بأخذ الجزية منهم.

٣– اما قوله حول الحضارات الغربية وعدم سماحها بتبني الأفكار الشوفينية والدكتاتورية المخالفة لمبدأ الديمقراطية، فحقيقة الحال ان هذه الدول، الغربية – لاتحاسب الانسان على ما يعتقد من أفكار لمجرد انه يعتقد بها دون الدعوة اليها. بل ان في بعضها ما هومرتع لنشر الأفكار والعقائد المخالفة لما تؤمن به الدولة وشعبها.

٤– وضع السيد الصدر عنواناً ثانوياً في قوله: (التمرد على قاعدته الريئسية).

اما تعليقة السيد فضل الله على قول الصدر: « ان الاسلام الذي جاء لتحرير الانسان من عبودية الأصنام على اساس التوحيد، لايمكن ان يأذن للانسان بالتنازل عن حريته، والانغماس في عبوديات الارض واصنامها» يقول السيد فضل الله: « فنحسب انه– اي السيد الصدر– لايبرر النتيجة التي خرج بها من حديثه، وهي خطأ المبدأ القائل بأن الاسلام «كفل حرية التدين وعدمه ومنع

من الإكراه وذلك لأن شجب فكرة العبودية للأرض ولأصنامها قد يصلح تعليلاً لنفي التشريعات التي تؤكد هذه العبودية وتنسجم معها، أو تسمح لها بالامتداد والانتشار، فهو ينفي ان يكون الاسلام قد سمح لدعاة الكفر والضلال ان يظهروا دعوتهم وينشروها ويقفوا في طريق امتداد الاسلام وانتشاره»[1].

ثانياً: السيدالخوئي

يقول السيد الخوئي في معرض تفسيره للآية: «ان المراد بالإكراه في الآية ما يقابل الاختيار، وإن الجملة خبرية لا أنشائية، والمراد من الآية الكريمة، هو بيان ما تكرر ذكره في الآيات القرآنية كثيراً، من ان الشريعة الإلهية غير مبنية على الجبر لا في أصولها ولا في فروعها، وإنما مقتضى الحكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإيضاح الأحكام ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[2].

ولئلايكون للناس على الله حجة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

وحاصل معنى الآية ان الله تعالى لا يجبر أحداً من خلقه على إيمان ولا

---

(١) انظر كتاب الجهاد للسيد علي فضل الله- تقريرات السيد محمد حسين فضل الله: ص٥٤ -٥٥.

(٢) سورة الأنفال، من الآية: ٤٢.

(٣) سورة الانسان، الآية:٣.

طاعـة ولكنه يوضح الحق ويبينه. وقد فعل ذلك فمن آمن بالحق فقد آمن به عن اختيار ومن اتبع الغي فقد اتبعه عن اختيار، والله – سبحانه- وان كان قادراً على ان يهـدي البـشر جميعاً – ولوشـاء لفعـل- لكن الحكمة اقتضت لهم ان يكونوا غير مجبورين على أعمالهم،بعد ايضاح الحق وتمييزه عن الباطل...[١].

﴿وَقَـالَ الَّـذِينَ أَشْرَكُـوا لَـوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَـا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢].

ثالثاً: جار الله الزمخشري

جـاء في تفـسيره الكـشاف: لا إكراه في الدين، أي لم يجعل الله أمر الإيمان على الإجـبار والقسر، ولكن على التمكن والاختيار، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَـنَ مَـنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُـمْ جَمِـيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣] أي لوشاء الله لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار[٤].

رابعاً: سيد قطب

جـاء في تفـسيره لهـذه الآيـة قـوله:«في هذا المبدأ العظيم يتجلى تكريم الله

---

(١) الخوئي- البيان في تفسير القرآن- ج ١،ص٢١٣-٢١٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٤) جارالله الزمخشري- الكشاف:ج١: ٣٠٣ منشورات البلاغة.

للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه وتحميله تبعة عمله، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني.

إن حرية الاعتقاد، هي أول حقوق الإنسان، ولقد سبق بها الإسلام كل دعوة الى تحرير الضمير البشري والى كفالة حقوق الإنسان. والتعبير هنا في صورة النفي المطلق للجنس، جنس الإكراه، فكأنما يقرر الأفكار المكلف للإكراه بإنكار وجوده أصلاً، انه يستبعده عن عالم الوقوع بهذا العتبير الدقيق، الذي لا يقوم مقامه ان يقال مثلاً «لاتكرهوا أحداً في الدين» وكأنما يعلل إنكار الإكراه في الدين، بأنه قد تبين الرشد من الغي، ووضح الطريق لمن يريد، فليكن الإنسان نفسه هو الحكم، وليكن للإنسان نفسه الاختيار[1].

خامساً: محمد حسين الطباطبائي

جاء في الميزان بخصوص تفسير هذه الآية وبالتحديد أولاً«تبين الرشد من الغي» انما يركن اليه الآمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمة التي لا سبيل الى بيان وجهة الحق فيها لبساطة فهم الأمور ورداءة ذهن المحكوم أولأسباب وجهات أخرى، فيتسبب الحاكم في حكمه بالإكراه. أو الأمر بالتقليد ونحوه. وأما الأمور المهمة التي تبين وجه الخير والشر فيها وقرر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها الى الإكراه، بل للإنسان ان يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي الثواب والعقاب. والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه

---

(١) سيد قطب- في ظلال القرآن. ج ٣، ص١٣-١٤.

بالبينات الإلهية الموضحة بالسنة النبوية، فقد تبين ان الدين رشد، والرشد في اتباعه والغي في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا فلا موجب لأن يكره أحد أحداً على الدين[1].

سادساً: محمد حسين فضل الله

ومن ضمن تقرير لبحثه، قال: ان العقيدة التي تثق بنفسها، وتطمئن الى قوة بنيانها وسلامة حلولها لمشاكل الحياة وعمق تفكيرها ونظافة أساليبها وطهر وسائلها وغاياتها، هذه العقيدة لاتشعر بحاجة إلى ان تكره احداً على اعتناقها اواتباعها، بل تكتفي بعرض أفكارها امامه بكل صراحة، وتهيئ له الجو النفسي والفكري الهادئ الذي يستروح فيه روح الايمان وطمئانينته، وبهذا ينسجم التعقيب بقوله تعالى: «قد تبين الرشد من الغي» مع روح الآية، فأنه إذا تبين سبيل الرشد في الدعوة ووضوح طريق الحق فيها وكانت الدعوة مطمئنة الى سلامة أدلتها وبراهينها، إذن فأي حاجة للإكراه، بل أي معنى له ما دام الانسان – الباحث عن الحق – يملك في نفسه قوة التمييز وسلامة الإدراك؟

بل ما هي فائدة العقيدة – في حساب الإيمان– من إنسانٍ لا يشعر في داخله باحترامها ونزاهتها؟ ولذا نلمس قوة العقيدة من قوله تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[2]. فهي الدعوة التي تعرض رسالتها بصراحة دون لبس أو تمويه، والإنسان هو المسؤول

---

(١) الميزان – السيد محمد حسين الطباطبائي: ج ٢، ص٣٦٠-٣٦١.

(٢) سورة الكهف، من الآية: ٢٩.

أولاً وآخراً في حدود ذاته وعن إيمانه وكفره.

ومن موقع آخر يقول السيد فضل الله: إننا نفهم ان يكون الاختلاف العقائدي ملازماً لإدخال كل فئة موقف المحاولة الجادة لإدخال الاخرين معها في ما تعتقد، وإقناعهم بما تريد، ولكننا لا نفهم ان يكون ذلك مقتضياً لإدخالهم في خط العقيدة قهراً وقسراً.

ثم يضيف: إذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه فكيف نستطيع ان نفهم، من بعد مجيء الإسلام لتحرير الإنسان من عبادة الأصنام تحديده لحرية الإنسان في ان يعتقد ما يريد كواقع خارجي معاش؟

ثم ينتهي فيه القول: ان القضية لا تكمن في ان الاسلام يأذن بذلك أولا يأذن، بل تكمن في انه يحاسب على ذلك أولا يحاسب... فإن الحرية تتمثل في الخط الثاني دون الأول، فربما لا يأذن الاسلام في شيء ولا يرخّص فيه، لأن مثل ذلك يعتبر تخلياً عن أساس العقيدة ولكنه لا يحاسبهم على ارتكاب ذلك[1].

سابعاً: محمد مهدي شمس الدين

يقول الشيخ شمس الدين: هذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ غير منسوخة قطعاً لأن التعليل بقوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ينفي إمكانية وقوع النسخ، إذ نسخ الحكم المعلل انما يكون بنسخ علته ورفعها، ولا ريب في ان علة الحكم المذكور خالدة الى الأبد ولا يعقل نسخها ورفعها. ثم يضيف الشيخ

(١) انظر تقريرات بحوث السيد فضل الله في كتاب (الجهاد) للسيد علي فضل الله ص ٥٥ (المحقق).

شمس الدين: ومضمون الآيه ينسجم ويتفق مع كل ما ورد في القرآن الكريم من عدم تشريع فرض الاسلام والايمان بالنبيﷺ بالقوة. والسرّ في ذلك ان هذه قضية عقلية يقينية، فالعقائد امور وجدانية عقلية تتبع وعي الانسان وفهمه وإدراكه، وهي مساحة لايمكن- لاحظ دقة ونضوج قوله- ممارسة القهر والإرغام فيها، بل هي مجال لحرية الانسان.

ولم تقتصر أراء شمس الدين حول مفهوم آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بل هو ذهب الى تسجيل رؤيته الفقهية بحق المرتد، وهل يجوز قتله أم لا؟ فيقول: ان حد القتل – للمرتد- لايكون بمجرد اظهار الخروج عن الإسلام أو اعتناق دين آخر في حالة المسالمة والخضوع لأنظمة الدولة، وانما يكون الحد فيما لوتحولت الردة الى عمل سياسي ضد المجتمع، ففي هذه الحالة يكون القتل بسبب الردة لاللتغير الفكري وإنما بسبب الحرابة، أي بسبب ان يتحول المواطن من مسالم الى محارب ويتحول الى مفسد في الارض، ففي هذه الحالة ينطبق عليه هذا العنوان بسبب ردته لا ان ردته سبب مباشر للحكم عليه بالإعدام[1].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين، الحريات الشخصية في المنظور الاسلامي – زاوية منتدى المنهاج- مجله المنهاج، العدد الحادى عشر، السنة الثالثة ١٩٩٨ م: ٢٧٤-٢٧٥ من حوار معه. ونرى ان الشيخ شمس الدين هومن اوائل فقهاء الشيعة الذين تجلت في بحوثهم آفاق حقوق الانسان وفق النص القرآني بعيداً عن حالة الإذعان لهذه الحقوق في تجليات الاحكام الشرعية ولا يخفى على الباحث والمتتبع حالة التميز والمفارقة لهذه الحقوق ودرجة اعتباريتها في القرآن وبين بعض أحكام الفقهاء (المحقق).

رعاية الاسلام لغير المسلمين

افصحت الشريعة الاسلاميه عن لاوجود للاستبداد والظُلّم والتجني على حقوق الاقليات الدينية في البلاد الاسلاميه ومن أبرزهذه الحقوق:

١- عدم إكراههم على التخلي عن دينهم.

٢- من حقهم ممارسة شعائرهم الدينية.

٣- عدم محاربتهم في تطبيق احكام دينهم، كماورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام من كان يدين بدين قوم لزمته أحكامهم»[١].

ولذا تبقى مسألة حق الاعتقاد والتديّن، من المسائل التي يثيرها بعض الباحثين نكاية بالاسلام وجواهر متبنيات في الوقت الذي جعل الاسلام من الانسان حراً في ايمانه واعتقاده، مخيراً لا مسيّراً طوعاً لاجبراً ولم يكره الآخر على تبني الاسلام فكراً وعقيدةً وهذا واقع صريح ليس فيه من التأويل وهو القائل سبحانه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢] وكما قد تقدم سلفاً الوقوف على ابعاد قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٣] وقد أكد أغلب العلماء المفسرين على ان هذه الآية غير منسوخة بآية السيف[٤].

---

(١) من لايحضره الفقيه ٣: ٤٠٧ ح ٤٤٢١.

(٢) يونس٩٩.

(٣) البقرة ٢٥٦.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي، ٣٤٣.

وأوضع العلامة الطبرسي في تفسيرة لهذه الآية، قائلاً: « ان المراد ليس في الدين اكراه من الله، ولكن العبد مخير فيه لأن ما هو دين في الحقيقة هومن افعال القلوب إذا فعل لوجه وجوبه، فاما ما يكره عليه من اظهار شهادتين فليس بدين حقيقةً[١].

وبهذا الخصوص، علق السيد الطباطبائي قائلاً «وهذه احدى الآيات الدالة على ان الاسلام لم يبتن على السيف والدم ولم يفت بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم ان الاسلام دين السيف... ان القتال الذي ندب اليه الاسلام ليس غاية احراز التقدم وبسط الدين بالقوة والإكراه، بل لإحياء الحق والدفاع عن أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد، واما بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهود والتنصر، فلانزاع لمسلم مع موحّد ولاجدال»[٢].

وهذا ما تبين جلياً من سيرة الرسول الكريمﷺ فهولم يكره احداً من أهل الكتاب ولا حتى من المشركين على تبني الاسلام.

ومثال ذلك: في اوائل هجرته «جاءه اليهود: (قريظة والنضير والقينقاع) وقالوا: يا محمد الى ماتدعوا؟ قال: الى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله الذي تجدوننني مكتوباً في التوراة، والذي اخبركم به علماؤكم ان مخرجي بمكة

---

(١) مجمع البيان الطبرسي ١: ٣٦٤.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي٢: ٣٤٣.

ومهاجري بهذه الحرة... فقالوا له: قد سمعنا ما تقول وقدجئناك لنطلب منك الهدنة على ان لا نكون لك ولاعليك، ولا نعين عليك احداً، ولاتتعرض لنا ولا لأحدٍ من اصحابنا حتى نظرنا الى ما يصير أمرك وأمر قومك، فاجابهم رسول الله ﷺ الى ذلك وكتب بينهم كتاباً ان لايعينوا على رسول الله، ولاعلى احد من اصحابه بلسان ولايد ولابسلاح ولابكراع في السر والعلانية لابليل ولابنهار، والله بذلك عليهم شهيد»[1].

وربما قد يعتقد البعض ان هذا الموقف لم يكن فيه الرسول ﷺ من القوة التي تؤهله لممارسة حالة الفرض على اليهود! كونه في بادئ هجرته واوائل دعوته!!

ولكن التتبع التأريخي من سيرة الرسول ﷺ يؤكد على منهج عدم الإكراه، وهذا ما تؤكده الفتوحات الاسلامية في زمنه والذي اكتفى منهم بالجزية فقط.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي:٧٩.

مصادر التحقيق

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الآحاد والمثاني:** ابن أبي عاصم الضحاك (ت ٢٨٧هـ)، تحقيق باسم فيصل أحمد، الرياض، دار الراية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣. **أحكام القرآن:** أحمد بن علي الرازيّ، أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت.

٤. **الأحكام في الحلال والحرام:** يحيى بن الحسين بن قاسم (ت٢٩٨هـ).

٥. **الآدب المفرد:** محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٦. **الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين:** محمد طاهر القمي الشيرازي (ت ١٠٩٨هـ)، تحقيق مهدي رجائي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٧. **أسباب النزول:** أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ) الواحدي، عالم الكتب، بيروت، وطبعة مؤسسة الحلبي وشركاؤه – القاهرة، طبعة عام ١٣٨٨هـ وأخرى: تحقيق كمال بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

٨. **الاستيعاب في اسماء الأصحاب:** أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن

عبد البرّ القرطبي المالكي (ت ٣٦٣هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، دار النهضة، مصر، وأيضاً المطبوع بهامش الإصابة.

٩. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠. **الإصابة في تمييز الصحابة**: أحمد بن عليّ بن محمد، أبو الفضل العسقلاني الشافعي المعروف بأبن حجر (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجبل، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١١. **أضواء على السنة المحمدية**: محمود أبو ريه، دار الكتاب الإسلامي.

١٢. **الأعتبار وأعقاب السرور والاحزان**: عبد الله بن محمد القرشي المعروف بأبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٣٠هـ - ١٩٩٣م.

١٣. **الاعلام**: خير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٤م.

١٤. **اعلام الموقعين**: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بأبن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الجبل، بيروت.

١٥. **إعلام الورى بأعلام الهدى**: أبو علي الفضل بن الحسن الطبري الشيعي (ت٥٤٨ هـ) تحقيق/ علي أكبر غفاري، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩ هـ.

١٦. **الآمالي**: الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه

القمي (ت٣٨١هـ)، قسم الدراسات، مؤسسة البعثة، المكتبة الإسلامية، قم ١٤١٧هـ.

١٧. **الأمالي**: الشيخ الصدوق، محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم ١٤٠٤هـ.

١٨. **الإمام جعفر الصادق**عليه السلام: عبد الحليم الجندي، طبعة ١٣٩٧هـ.

١٩. **الانساب**: عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني، أبو سعيد (ت٥٦٢ هـ)، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي (مركز الخدمات والأبحاث الثقافية)، دار الجنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٠. **أنساب الأشراف**: أحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧٤م. ونسخة أخرى منه تحقيق سهيل زكار، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ.

٢١. **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**عليهم السلام: محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١٠هـ)، دار الكتب الإسلامية.

٢٢. **بدائع الصنائع**: أبو بكر بن مسعود الكاشاني (ت٥٨٧هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ المكتبة الحيدرية.

٢٣. **البداية والنهاية**: الحافظ أبي فداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م. وأخرى من تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٤. **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**: أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الطبري (ت٥٢٥هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ.

٢٥. **بغية الباحث**: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الطلائع.

٢٦. **البيان في تفسير القرآن**: أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣هـ)، دار الزهراء، بيروت.

٢٧. **تاريخ ابن الأثير (الكامل في التأريخ)**: ابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٢٨. **تاريخ ابن خلدون**: العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت٨٠٨ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٢٩. **تاريخ أبي الفداء (المختصر في تاريخ البشر)**: عماد الدين أبو الفداء، دار الفكر ودار البحار، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٠. **تاريخ ابن معين**: يحيى بن معين الدارمي (ت ٢٨٠هـ)، تحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف، دار المأمون، دمشق.

٣١. **تأويل مختلف الحديث**: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٣٧٦ هـ)، تحقيق إسماعيل الاسعردي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢. **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، مطبعة السعادة ١٩٣١م. ونسخة أخرى من تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٣٣. **تاريخ خليفة**: خليفة بن خياط العصقري (ت٢٤٠هـ)، تحقيق الدكتور سهيل زكار، طبعة عام ١٤١٤هـ، دار الفكر، بيروت.

٣٤. **تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)**: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠ هـ)، دار التراث، بيروت ١٩٦٧م. وأخرى من تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ.

٣٥. **تاريخ مدينة دمشق**: علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بأبن عساكر، تحقيق علي شيري، دار الفكر، طبعة عام ١٤١٥هـ.

٣٦. **تاريخ المدينة المنورة**: عمر بن شبه النمري (ت٢٦٢هـ)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم.

٣٧. **تاريخ اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ)، دار صادر، بيروت.

٣٨. **التبيان في آداب حملة القرآن**: أبي زكريا بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، تحقيق محمد النجار، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٩. **تحف العقول عن آل الرسول**: أبو محمد الحسن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (القرن الرابع)، منشورات الشريف الرضي. ونسخة أخرى تحقيق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٤٠. **تذكرة الموضوعات**: محمد طاهر الهندي الفتني (ت٩٨٦هـ).

٤١. **تعجيل المنفعة**: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٢. تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤٣. تفسير الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي (ت ٨٧٥هـ).

٤٤. تفسير الجلالين: جلال الدين، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

٤٥. تفسير الخازن:علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت ٧٢٥هـ).

٤٦. تفسير الرازي (التفسير الكبير – مفاتيح الغيب): محمد بن عمر الخطيب الرازي (ت٦٠٦هـ).

٤٧. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.

٤٨. تفسير مجمع البيان: أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٦٠هـ) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٤٩. تفسير المنار: محمد رضا رشيد (ت١٣٥٤هـ) دار المعرفة، بيروت.

٥٠. تفسير نور الثقلين: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت١١١٢هـ) تحقيق هاشم المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ قم.

٥١. التنبية والاشراف: المسعودي (ت٣٤٥هـ).

٥٢. تنزيه الأنبياء: المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)، منشورات الرضي، قم.

٥٣. **تهذيب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، بدون تاريخ.

٥٤. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت٧٤٢هـ)، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ م.

٥٥. **الثاقب في المناقب**: أبو حمزة الطوسي (ت٥٦٠هـ) تحقيق نبيل رضا علوان، مؤسسة انصاريان، قم، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٥٦. **الثقات**: محمد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (ت٣٥٤هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ق.

٥٧. **جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى**: أبو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي القرطبي الظاهري (ت٤٥٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٥٨. **جواهر الكلام**: الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦هـ)، تحقيق محمود القوجاني، المكتبة الإسلامية (٤٣) مجلد، الطبعة الثالثة عام ١٣٦٧هـ ش.

٥٩. **جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي بن أبي طالب**: محمد بن أحمد الدمشقي الشافعي (ت٨٧١هـ)، تحقيق محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٦٠. **الحدائق الناظرة**: المحقق الفقيه الشيخ يوسف البحراني (ت١١٨٦هـ)، تحقيق محمد تقي الإيرواني، جماعة المدرسين، (بدون تاريخ).

٦١. **الخصال**: أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الصدوق) (ت٣٨١هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، قم، منشورات جماعة المدرسين، ١٤٠٣هـ.

٦٢. **خلق أفعال العباد**: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٦٣. **دُرر الأخبار**: مهدي حجازي (معاصر)، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٤. **الدر المنثور في التفسير المأثور**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٦٥. **دلائل النبوة**: أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٦. **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**: أحمد بن عبد الله الطبري (ت٦٩٤ هـ)، مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ.

٦٧. **الذرية الطاهرة النبوية**: أبو بشير محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (ت ٣١٠هـ)، تحقيق سعد المبارك الحسن، نشر الكويت، الدار السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٦٨. **ذكر أخبار أصبهان**: أبي نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني (ت٤٣٠هـ)، طبعة ١٩٣٤م.

٦٩. **روضة الواعظين**: ابن الفتال النيسابوري (ت٥٠٨هـ)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم.

٧٠. **رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين**: أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت٦٧٦هـ)، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٧١. **سبل السلام**: محمد بن إسماعيل الكحلاني (ت١١٨٢هـ)، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ.

٧٢. **سبل الهدى والرشاد**: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٧٣. **السقيفة وفدك**: أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصري البغدادي (ت٣٢٣هـ)، تحقيق د. محمد هادي الأميني، شركة الكتبي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

٧٤. **سنن ابن ماجة**: محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٧٥. **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.

٧٦. **سنن البيهقي (السنن الكبرى)**: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨ هـ)، دار الفكر، بيروت.

٧٧. **سنن الترمذي**: محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق عبد

الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٧٨. سنن الدارمي: عبد الله بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق.

٧٩. سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، طبعة دار الفكر، الأولى، بيروت، عام ١٩٣٠م – ١٣٤٨هـ.

٨٠. سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م. ونسخة أخرى من تحقيق شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

٨١. السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون): علي بن برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، (بدون تاريخ).

٨٢. السيرة النبوية أو سيرة بن هشام: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبع ١٣٨٣هـ مكتبة محمد علي صبيح وأولاده. (فالكتاب للمؤلف ابن إسحاق، إلا ان ابن هشام هذبّهُ، وأضاف عليه حتى عرف بسيرة ابن هشام).

٨٣. السيرة النبوية: ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

٨٤. السيرة النبوية: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت

٢١٨هـ)، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية، (بدون تاريخ).

٨٥. **السير الكبير (شرح)**: محمد بن الحسان الشيباني (ت١٨٩هـ).

٨٦. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، دار الفكر، بيروت.

٨٧. **شرح الأخبار**: النعمان بن محمد التميمي (ت٣٦٣هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي.

٨٨. **الشرح الكبير**: عبد الرحمن بن قدامة (ت٦٨٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٩. **شرح مسند أبي حنيفة**: ملا علي القارئ، خليل محي الدين الميس (ت ١٠١٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٠. **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، دار إحياء الكتب العربية.

٩١. **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٩٢. **شواهد التنزيل**: عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني (ق٥)، تحقيق المحمودي، مجمع إحياء الثقافة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٩٣. **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٩٤. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

٩٥. **طبقات خليفة**: خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، تحقيق سهيل زكار، طبعة ١٤١٤هـ.

٩٦. **الطبقات الكبرى**: ابن سعد الزهري (ت٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٨١م.

٩٧. **الطرائف**: السيد أبن طاووس الحسني (ت٦٦٤هـ)، مطبعة خيام، قم، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ.

٩٨. **علل الدارقطي (العلل الواردة في الأحاديث النبوية)**: أبي الحسن علي بن عمران ابن أحمد بن مهدي الدارقطني (ت٣٨٥هـ)، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٩٩. **العمدة (عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار)**: ابن البطريق الأسدي الحلي (ت٦٠٠هـ)، تحقيق جامعة مدرسين، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٠٠. **العهود المحمدية**: عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ)، طبع ونشر البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ.

١٠١. **عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية**: أبن أبي جمهور الأحسائي

(ت٨٨٠هـ)، تحقيق المرعشي ومجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٠٢. **عون المعبود**: محمد شمس الحق العظيم آبادي (ت١٣٢٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

١٠٣. **عيون الأثر**: ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)، مؤسسة عز الدين، طبعة عام ١٤٠٦هـ.

١٠٤. **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**: عبد الحسين الأميني (ت١٣٩٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة عام ١٣٧٩هـ.

١٠٥. **غريب الحديث**: أبو عبيد القاسم بن سلّام الهروي (ت٢٤٤هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى١٣٨٤هـ.

١٠٦. **الفايق في غريب الحديث**: محمود بن عمر الزمخشري (ت٥١٦هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الفكر ١٤١٤هـ.

١٠٧. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٠٨. **فتح القدير (تفسير)**: الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، وطبعة عالم الكتب، بيروت.

١٠٩. **فدك في التأريخ**: محمد باقر الصدر (ت١٤٠١هـ)، تحقيق الدكتور عبد

الجبار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١١٠. **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**: علي بن محمد بن أحمد المالكي المشهور بأبن الصباغ (ت٨٥٥هـ)، مطبعة العدل، النجف الأشرف (بدون تاريخ).

١١١. **فقه القرآن**: قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ)، مكتبة المرعشي النجفي، الطبعة الثانية.

١١٢. **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٣٣١هـ)، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١١٣. **قصص الأنبياء**: قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ)، تحقيق عرفانيان، مؤسسة الهادي، قم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١١٤. **القواعد والفوائد**: الشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ)، تحقيق الدكتور عبد الهادي الحكيم، مكتبة المفيد، قم.

١١٥. **الكافي**: محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، منشورات المكتبة الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ.

١١٦. **الكامل**: أبو العباس محمد بن زيد المعروف بالمبرّد (ت٢٨٥هـ)، مطبعة مصطفى محمد، مصر.

١١٧. **الكامل في التاريخ**: علي بن محمد الشيباني ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، عام ١٩٨٢م.

١١٨. **كتاب الإيمان**: محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني (ت٢٤٣هـ)، تحقيق

محمد بن حمدي الجابري الحربي، دار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١١٩. **كتاب الدعاء**: سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٢٠. **كتاب السنة**: عمر بن أبي عاصم الضحاك (ت٢٨٧هـ)، تحقيق محمد رضا الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٢١. **كتاب الفضائل**: شاذان بن جبرئيل القمي (ت٦٠٠هـ)، طبع المكتبة الحيدرية في النجف الأشرف ١٩٦٢م- ١٣٨١هـ.

١٢٢. **كتاب الهواتف**: عبد الله بن محمد بن سفيان (ت٢٨١هـ)، الملقب بأبي الدنيا.

١٢٣. **كشف الاستار**: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ.

١٢٤. **كشف الخفاء**: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت١١٦٢هـ)، دار الكتب العلمية، طبعة ثانية ١٤٠٨هـ.

١٢٥. **كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء**: الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي (ت١٢٢٨هـ)، انتشارات مهدوي أصفهان، إيران، طبعة حجرية.

١٢٦. **كشف الغمة في معرفة الأئمة**: علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت

٦٩٢هـ)، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

١٢٧. **كنز العمال**: المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

١٢٨. **الكنز اللغوي**: ابن السكيت الأهوازي، الناشر الدكتور أوغست هفنر.

١٢٩. **لسان العرب**: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٣٠. **لسان الميزان**: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٣هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٣١. **المبسوط**: محمد بن أحمد الحنفي، شمس الدين (ت٤٨٣هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣٢. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: أبو بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة.

١٣٣. **المجموع في شرح المهذب**: محيي الدين بن شرف، أبي زكريا النووي (ت ٦٧٦هـ)، طبع دار الفكر، بيروت.

١٣٤. **المحبر**: محمد بن حبيب البغدادي (ت٢٤٥هـ).

١٣٥. **المحلى**: أبن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت.

١٣٦. **مسالك الإفهام**: الشهيد الثاني (ت٩٦٦هـ)، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٣٧. **المستجاد من الأرشاد**: العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)، مكتبة المرعشي النجفي، طبعة ١٤٠٦هـ.

١٣٨. **مستدرك الحاكم**: محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٣٩. **مستدرك سفينة البحار**: علي النمازي الشاهرودي (ت١٤٠٥هـ)، تحقيق حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٩هـ.

١٤٠. **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**: المحقق النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٤١. **مسند ابن راهوية**: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنطلي المروزي (ت ٢٣٨هـ)، تحقيق د. عبد الغفار عبد الحق، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة ١٤١٢هـ - ١٩٩١.

١٤٢. **مسند ابن داود**: أبي داود الطيالسي (ت٢٠٤هـ)، دار الحديث، بيروت.

١٤٣. **مسند أبي يعلى الموصلي**: أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت٣٠٧هـ)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

١٤٤. **مسند أحمد**: الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، عالم الفكر، بيروت.

١٤٥. **مسند الحميدي**: أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي الأسدي الحميدي المكي (ت٢١٩هـ)، بيروت، عالم الكتب.

١٤٦. **مسند الرضاعليه السلام**: تحقيق الشيخ عزيز الله عطاردي (معاصر)، المؤتمر العالمي للإمام الرضاعليه السلام، طبع ونشر الاستانة، مشهد ١٤٠٦هـ.

١٤٧. **مسند الشاميين**: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠ هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٤٨. **مسند الشهاب**: محمد بن سلامة القضاعي (ت٤٥٤هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥هـ.

١٤٩. **المصنف في الأحاديث والآثار**: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٥٠. **المصنف**: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ.

١٥١. **معالم المدرستين**: مرتضى العسكري، مؤسسة النعمان، بيروت، طبعة عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٥٢. **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠ هـ)، تحقيق إبراهيم الحسيني، دار الحرمين (بدون تاريخ). وأخرى تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٥٣. **المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠ هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

١٥٤. **مغازي الواقدي**: محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، دار دانش إسلامي ١٤٠٥هـ.

١٥٥. **مغني المحتاج**: محمد الشربيني الخطيب (ت٩٧٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

١٥٦. **مكارم الأخلاق**: الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٥٧. **مكارم الأخلاق**: الحافظ أبي بكر عبد الله بن عبيد بن أبي الدنيا (ت٢٨١ هـ)، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

١٥٨. **مناقب آل أبي طالب**: رشيد الدين محمد بن علي المازندراني الملقب بأبن شهرآشوب (ت٥٨٨هـ)، المطبعة الحيدية، النجف ١٩٥٦م.

١٥٩. **مناقب الخوارزمي**: الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت٥٦٨هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة مدرسين.

١٦٠. **مناقب الكوفي (مناقب الإمام أمير المؤمنين)**: محمد بن سليمان الكوفي القاضي (ت٣٠٠هـ)، تحقيق محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة العربية، الطبعة ا لأولى ١٤١٢هـ.

١٦١. **المنتخب من ذيل المذيل**: ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، مؤسسة

الأعلمي، بيروت.

١٦٢. **منتخب مسند عبد بن حميد**: أبو محمد عبد بن حميد (ت٢٤٩هـ)، تحقيق: صبحي البدري السامرائي ومحمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٦٣. **من لا يحضره الفقيه**: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، جامعة المدرسين، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

١٦٤. **المهذب البارع**: ابن فهد الحلي (ت٨٤١هـ)، تحقيق مجتبى العراقي، جامعة مدرسين، قم ١٤٠٧هـ.

١٦٥. **موارد الظمآن**: علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٦. **الموطأ**: مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٧. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.

١٦٨. **نصب الراية لأحاديث الهداية**: عبد الله بن يوسف جمال الدين، أبي محمد الزيعلي الحنفي (ت٧٦٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٦٩. **النص والاجتهاد**: عبد الحسين شرف الدين الموسوي، العاملي، مطبعة النجف الأشرف ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

١٧٠. **نظم دُرر السمطين**: جمال الدين الزرندي الحنفي (ت٧٥٠هـ)، من مخطوطة مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة في النجف، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

١٧١. **النهاية في غريب الحديث والأثر**: مبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، مؤسسة إسماعيليان، قم، الطبعة الرابعة ١٣٦٧هـ ش.

١٧٢. **نهج الإيمان**: زين الدين علي بن يوسف بن جبر (القرن السابع)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٧٣. **نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة**: محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ (معاصر).

١٧٤. **نيل الأوطار**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧٥. **وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة)**: الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

١٧٦. **وقعة الجمل**: ضامر بن شدقم المدني (توفي بعد ١٠٨٢هـ)، تحقيق تحسين آل شبيب الموسوي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

١٧٧. **ينابيع المودّة لذوي القربى**: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤هـ)، تحقيق علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة المحقق ٧

منهجية التحقيق ١١

أبن هشام:..... ١٣

البدايات في كتابة السيرة: ١٤

مع ابن اسحاق: ١٥

ابن هشام في إطار النقد ١٨

مع المؤلف عزيز السيد جاسم..... ٢٧

محمد صلى الله عليه وآله الحقيقة العظمى

الفصل الأول: مدخل غير اعتباطي ٤١

الفصل الثاني: مولد الحق..... ٥٩

مولد الحق ٦١

مكة: المدينة المتكبرة ٦١

وثن المال يطرد البداوة: ٦٨

سادن الكعبة: عبد المطلب ٧٣

النذر الخطير: ٧٦

قدر عبدالله: ٨٠

عام الفيل: المؤامرة في المهد: ٨١

الفصل الثالث: البداية الأرضية ٨٧

البداية الأرضية ٨٩

الدلالات الاجتماعية والروحية في زواج محمد: ١٠٨

وحدة المناقب الاخلاقية: ١١٥

جاء في سيرة ابن هشام: ١١٨

سيل الماء وسيل الدم: ١٢٦

واحة النار، واحة الحرائق: ١٣٢

الفصل الرابع: دلائل المبدأ ١٤٧

دلائل المبدأ ١٤٩

فرائد الايمان ودلائل المبدأ: ١٤٩

الفصل الخامس: المسار النبوي الواحد والمسارات المتوازية ١٧٣

المسار النبوي الواحد والمسارات المتوازية ١٧٥

العقائدية المحمدية: ١٧٩
الداعية الأعظم: ١٧٩
إلى أين وجَّهت قريش نيراها؟ ١٨٧
مجابهة البلاء في سبيل العقيدة: ١٩٨
الممقاطعة: ٢٠٦
تطواف الطائف: ٢١٣
الفصل السادس: الوصول إلى بيت الله ٢١٩
الطريق إلى بيت الله أو انتصار العقيدة في التطبيق ٢٢١
صلح الحديبية: تكتيك عملية الفتح القادم: ٢٥٨
الفصل السابع: الطريق إلى تعميق اكتشاف وتجسيد الهوية القومية ٢٨٣
العروبة واكتشاف الذات القومية بعد فتح مكة ٢٨٥
القومي والأممي (خلاصة): ٢٩٥
الفصل الثامن: الواقعية المحمدية وعبقرية التطبيق السياسي ٢٩٩
واقعية محمد وعبقرية التطبيق ٣٠١
العبقرية السياسية لمحمد: ٣٠٥
القواعد الحقوقية والتنظيمية للدولة البلدية الجديدة في المدينة: ٣١٢
الوالي العادل وعلاقته بالمواطن: ٣١٩

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ۱۳۷۴

الشورى: الديمقراطية الرائدة في التاريخ السياسي ٣٢٦
الحرية ورفع الوصايات الكهنوتية: ٣٣٧
الحرية والمجادلة في الدين وغير الدين: ٣٤٥
أساس متين: ٣٥٥
في السياسة الخارجية: ٣٥٩
الدلالة السياسية لرسائل محمد رسول الله إلى قيصر وكسرى ٣٥٩
الفصل التاسع: العبقرية المحمدية في التطبيق العسكري ٣٦٧
العبقرية العسكرية لمحمدﷺ في التطبيق ٣٦٩
الفصل العاشر: واقعية المبدأية ومبدأية الواقعية في زواج النبي ٤٠٩
المقاصد المبدأية والعملية في الزواج المتعدد للنبي ٤١١
الفصل الحادي عشر: جواهر العقائدية المحمدية ٤٦١
منطلق الكفاح العقائدي ٤٦٣
حدثان كبيران في المسار العقائدي: ٤٧١
المدينة العقائدية: المدينة المنورة ٤٨٦
العقائدية وحرب الجدل: ٤٩٠
الصلابة العقائدية بمواجهة المنافقين: ٥٣١
إنتصار العقيدة الفاصل: ٥٥٧

الفصل الثاني عشر: الأخلاقية المحمدية مزاوجة العقيدة بالواقع ٥٧١
أخلاقية محمد تعاليم وممارسة ٥٧٥
مكانة العقل في الاسلام: ٦٢١
الذاتي والموضوعي في نشوء الدعوة المحمدية / موجز ختامي: ٦٢٩
الملاحق ٦٥٧
ملحق رقم (١): الغزوات التي قادها النبي بنفسه ٦٥٩
جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف..... ٦٦٥
ملحق ر قم (٢) قصة يوسف في القرآن والكتاب المقدس ٦٦٥
جدول التفاصيل القرآنية لقصة يوسف ٧٠٩
النتائج المقارنة للروايتين ٧١٤
المراجع: المصادر التي أعتمدها المؤلف..... ٧١٧
صدر للمؤلف..... ٧١٩
على هامش التحقيق والتعليق..... ٧٢٣
حرية أختيار العقيدة..... ٧٢٣
الإكراه في القرآن..... ٧٢٦
تفاسير المشاهير: ٧٢٩
أولاً: السيد محمد باقر الصدر ٧٢٩

التعليق ٧٣٠
ثانياً: السيدالخوئي ٧٣١
ثالثاً: جارالله الزمخشري ٧٣٢
رابعاً: سيد قطب ٧٣٢
خامساً: محمد حسين الطباطبائي ٧٣٣
سادساً: محمد حسين فضل الله ٧٣٤
سابعاً: محمد مهدي شمس الدين ٧٣٥
رعاية الاسلام لغير المسلمين ٧٣٧
مصادر التحقيق ٧٤١
فهرس محتويات الكتاب ٧٦٣

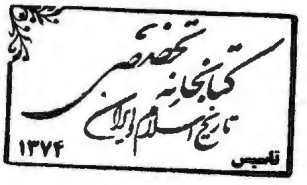

هذا الكتاب

الكتابات عن شخصية الرسول ﷺ لا تُعد ولا تحصى، وأغلبها تميزت بمنهجية واضحة لا تختلف أحدها عن الأخرى، وكأنها قالبٌ مصبوبٌ عصيّ على الإنحناء، وعصيّ على التغيير، فهي تبتدأ بأجواء الولادة وأهم الغزوات والصراعات الداخلية ثم الوفاة مع حشو كبير من الروايات وأسانيدها.

واليوم لا يجدر بنا ان نبقى نجتر أساليب ما ذهب اليه السلف الصالح من المؤرخين والكتاب ونحن نعيش حياة الوضوح وسرعة انتقال المعلومة وما تعكسه الفضائيات من لغة البساطة والشاعرية المؤثرة.

ويتضح ان (عزيز السيد جاسم) تعالى بأسلوبه عن كل الأساليب الأدبية القديمة، لا لأنه يمتلك أسلوباً أدبياً عصرياً مميزاً وحسب، بل كان الرجل يوظف صور التأريخ وأجترارها وتفعيلها ثانيةً في مجتمعه، سيما وان مصاديق سيرة الرسول ﷺ مصاديق قيم ومبادئ، ثورة حقيقية على كلّ صراعات (الأنا) السقيمة المدمّرة لبنية المجتمع، فالرجل يعتقد أنّه - وهو هكذا- صاحب مشروع عنيد في الكفاح من أجل الحرية التي نادى بها محمدٌ مناضلاً مخلصاً من أجل كرامة الوطن وتمتين الهوية الوطنية في عراقٍ موحدٍ وليس عراق واحد! هكذا كانت تنبئ تجربته المريرة بالحزن الشريف، كافح وهو أعزل إلاّ من ضميره، أبهرته سيرة الرسول، أراد أن يُقدّم هذه السيرة ويعرّفها للعالم أجمع بعد أن تباهى العرب كثيراً بمحمد العربي العظيم، وهم لم يقدروا على ايصالها نظرياً وعملياً، فهو يقول: «ان ما يرسمونه- اولئك الكتاب المتحجرون - (ويقصد بهم المزيفون بمبادئهم واخلاقياتهم السياسية) عن محمد لا يقنع العربي المسلم بالصورة فكيف يقنع المثقف في لوس انجلس ونيويورك ولندن وبون وموسكو وبكين ودلهي؟!!».

مراكز التوزيع

- لبنان: المؤسسة العاملية لإحياء التراث - هاتف: 03747658
- العراق: بغداد - شارع المتنبي - دار الكتاب العربي - هاتف: 07901419375
  بغداد - شارع المتنبي - دار السجاد عليه السلام - هاتف: 07901814736
  النجف الاشرف - شارع الرسول صلى الله عليه وآله مكتبة دار الهلال - هاتف: 371727 - 332913
  كربلاء - شارع قبلة الامام الحسين عليه السلام - مكتبة ابن فهد الحلي - هاتف: 07801558942
  البصرة - العشار - مكتبة الامام الهادي عليه السلام - هاتف: 07801647123
- إيران: قم - مؤسسة الرافد للمطبوعات - هاتف: 00989125514426